العولمة والفقر وتجارة البشر
ملف خاص

الهلال

يناير ٢٠٠٧/ ٤ جنيهات

مصر - فرنسا
عشق حتى أعماق البحر



السيدة/ فاطمة اليوسف « ١٨٩٨ - ١٩٥٨ »

تحية وفاء لواحدة من رواد المسرح والصحافة الحرة المستنيرة وتقديراً لدورها الوطنى
طوال مسيرتها الفنية والصحفية فى مواجهة من يحاولون تزوير تاريخ النهضة المصرية

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الخامس عشر بعد المائة
يناير (كانون ثانى) ٢٠٠٧م
ذو الحجة ١٤٢٧ هـ
كيهك ١٧٢٣ ق

الإدارة
القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط). المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع - مجلة الهلال
تليفون: ٣٦٢٥٤٨١
فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩
البريد الإلكترونى
helalmag@yahoo.com

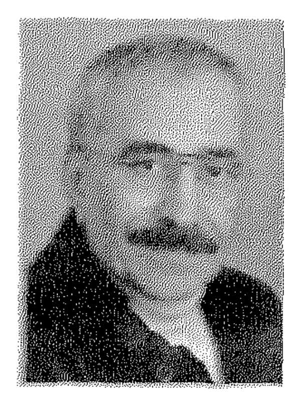
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات - العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات



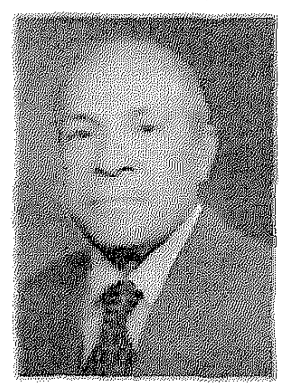
د. محسن خضر



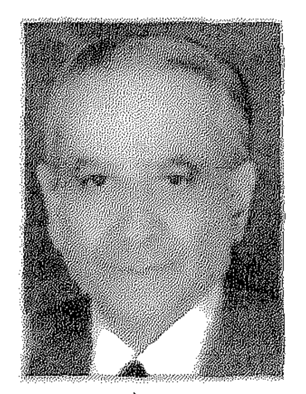
د. بركات محمد مراد



خيرى منصور



د. عاصم الدسوقى



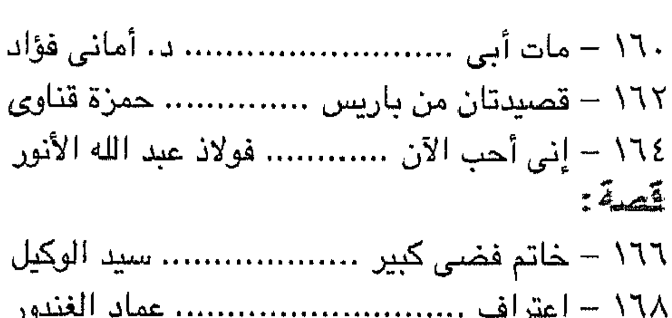
د. محمد المهدى



الخطوط للفنان:
محمد العيسوى



الاخراج الفنى:
سهام وهدان



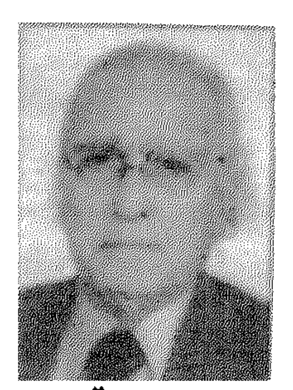
قصة :

ترجمة :

نقد :



أحمد سعيد



د. مراد وهبة

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

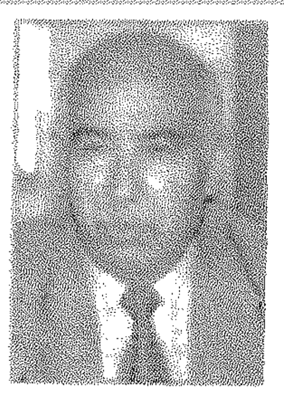
بريد الاشتراكات

subscription_dep@yahoo.com

جميع المراسلات
باسم رئيس التحرير

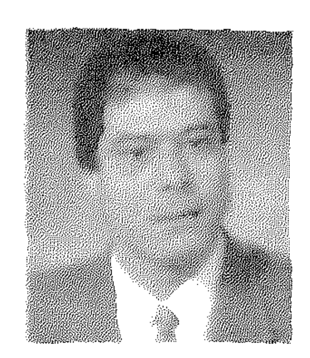


د. السيد أمين شلبى



د. سعيد إسماعيل على

الولع الفرنسى بمصر يصل لأعماق البحر



□ مجدى الدقاق

ما بين الثقافة والسياسة خيوط متداخلة شديدة الدقة، تصنعها أحداث التاريخ، وكثيراً ما خلقت السياسة حالات من العداء والتربص والحذر بين الدول والشعوب، تظل الأجيال المتعاقبة تحفظها، وتتصاعد فى داخلها، وتستمر لقرون، ويفشل الدبلوماسيون فى إذابتها، وتعجز حتى المصالح الاقتصادية عن إنهائها.

وحدها الثقافة التى يمكنها القفز على مآسى التاريخ وتضاريس الجغرافيا وهواجس الخوف القومى.

لقد ذهبت بريطانيا العظمى، وغابت شمسها عن الهند وبقية مستعمراتها، لكن استمر الانبهار بحضارة وتاريخ الهند وشاعرها العظيم طاغور، وزعيمها الروحى غاندى.

وعادت السفن الحربية الإسبانية إلى مدريد، ولم تبق إلا اللغة الإسبانية، وتأثيرات حضارة الإنكا، وشعوب أمريكا اللاتينية وكتابها ومثقفيها، نيرودا، ماركيز، أمادو، وبورخيس.

وقدمت ألمانيا اعتذارها التاريخى بسبب جرائم هتلر



الرئيسان مبارك وشيراك السيدتان سوازن وبرناديت

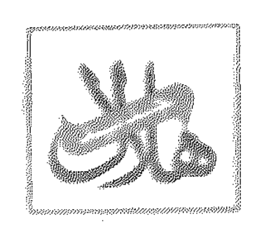
ونازيته، ولكن شعوب أوروبا والعالم، لم يصلها سوى روايات «إريك ماريا ريمارك وجوته، وهاينريش بول وتوماس مان، وهيرمان هيسه وجونتر جراس.

وعداء السياسة والجغرافيا التاريخى بين أيرلندا وبريطانيا لم يمنع انتشار الثقافة الأيرلندية داخل بريطانيا نفسها، وعشق البريطانيين لبرناردشو، وجيمس جويس، وصمويل بيكيت.

لقد انتهى الاتحاد السوفيتى، وبقى البولشوى وروايات تولستوى، وجوركى، ودستويفسكى وتورجنيف وباسترناك.

ورحل الفرنسيون عن الجزائر وبقية مستعمراتهم، لكن بقيت اللغة والأدب والفنون، ولايزال الناس يتذكرون أراجون، وبول إيلوار، وچان كوكتو، وسارتر، وألبير كامو، وسيمون دى بوفوار، وفرانسوا ساجان.

إن أفضل ما يحدث تحت قذف المدافع، إلى جانب بزوغ الإرادة



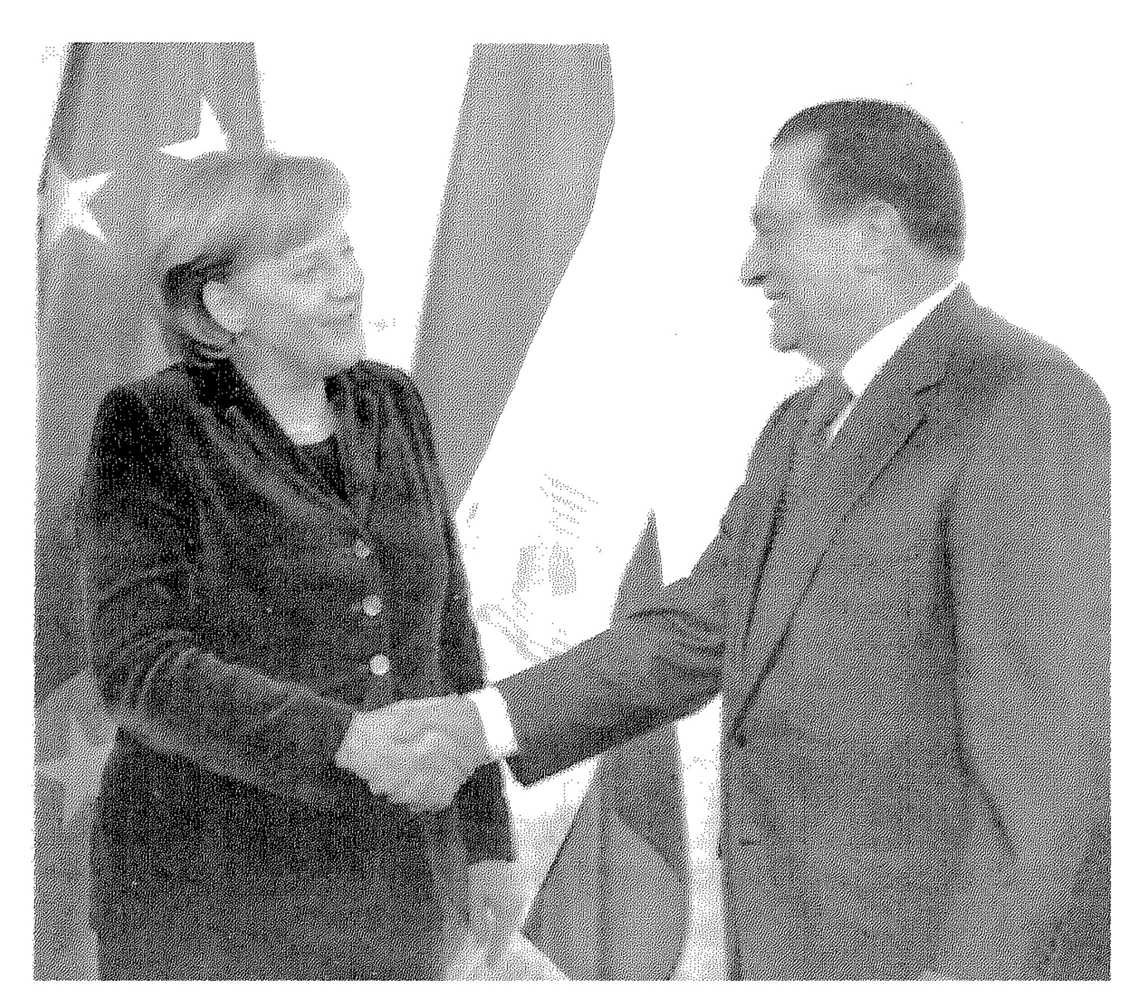
الشعبية الرافضة للغزو والاحتلال، هو الحالة الثقافية بما تحمله من تأثيرات متبادلة. فالعلاقات تبدأ بالغزو والرغبة فى السيطرة، وتنتهى فى لحظة تاريخية بعينها بالحوار والمفاوضات وفهم الآخر. وتدريجياً تختفى صور دخان القنابل، لتحل محلها صورة مختلفة تماماً.

ورغم انطباق هذه الصورة - مع تفاوت تدريجى من بلد لآخر - على كل بلاد الدنيا، فإن مصر تنفرد، لأسباب تتعلق بطبيعة شعبها وطبيعة المخزون الحضارى الذى تملكه، بأنها من الدول والشعوب النادرة التى أذابت المستعمرين داخلها.

نعم لقد تأثرت وأثرت فى القادمين، ولكن المحصلة النهائية أن كل قادم أصبح مصرياً. حدث هذا للجميع دون استثناء، الفرس والإغريق البطالمة، والرومان، والعرب، والأتراك العثمانيين، والفرنسيين، ثم الإنجليز. ويضاف إلى كل ذلك أن هناك من لم يكتف بالتأثير أو التأثر، بل تجاوز ذلك بالوقوع فى حب مصر وتاريخها وآثارها وإنسانها، ولعل حملة نابليون بونابرت على مصر، هى النموذج الواضح لهذه الحالة النادرة، فالحملة التى جاءت بسفنها تنافساً مع خصمها التقليدى - بريطانيا - وطمعاً فى السيطرة على الموقع الاستراتيجى الذى يطلق عليه مصر، جاءت ومعها نيران المدافع، وأحبار المطابع.

ذهبت المدافع ونيرانها، وبقيت حروف المطابع، ووصفت مصر وحضارتها، وتم إعادة اكتشافها. سقط الفرنسيون فى حب مصر، وتصاعد هذا الحب ليتحول إلى عشق، ثم ولع، ليغوص


تمثال بطلمى من الجرانيت لرأس قيصرون ابن كليوباترا



الرئيس مبارك مع المستشارة الألمانية

فى النهاية إلى أعماق البحر بحثاً عن كنوز مصر الغارقة فى المتوسط.

أحب الفرنسيون مصر وتاريخها، وانحاز المصريون لعاصمة النور وشعار ثورتها فى الحرية والإخاء والمساواة.

انبهر الفرنسيون بتمسك مصر عبدالناصر باستقلالها، وقيادتها لحركة التحرر العالمى، وسعيها نحو استقلال شعوب العالم الثالث، واحترموا مصر السادات كداعية للسلام. وكان التقدير - ولايزال - عاليا لمصر مبارك لسعيه الدائم نحو الحفاظ على الاستقرار والأمن فى مصر والمنطقة، وداعية للحوار وحقوق الشعوب، وتمسكه بخطى الإصلاح والحداثة، كتطور طبيعى لمسيرة النهضة المصرية.

لهذا كان تعامل زعماء دول العالم مع مصر، منطلقاً من قراءتهم للتاريخ والواقع، مدركين أن مصر بتاريخها وثقافتها ودورها، هى صمام أمان لكل شعوب المنطقة.



ففى جولة الرئيس حسنى مبارك الأوروبية، أوائل شهر ديسمبر الماضى، والتى شملت ثلاث دول هى: أيرلندا، هذه الدولة الصاعدة اقتصادياً وتكنولوجياً بقوة فى أوروبا، وفرنسا الدولة المهمة فى العالم، صاحبة الموقف الدولى المستقل، وأحد مفاتيح الموقف السياسى الموحد للمجموعة الأوروبية، وألمانيا أحد أجنحة القوة الأوروبية، لمستُ عن قرب مدى الثقل والحجم الكبير لمصر وشعبها، ومدى التقدير الذى يكنه ويعلنه قادة أوروبا للقيادة المصرية، فلسفة الدور المصرى وسعيه الدائم لحل قضايا المنطقة المتفجرة.

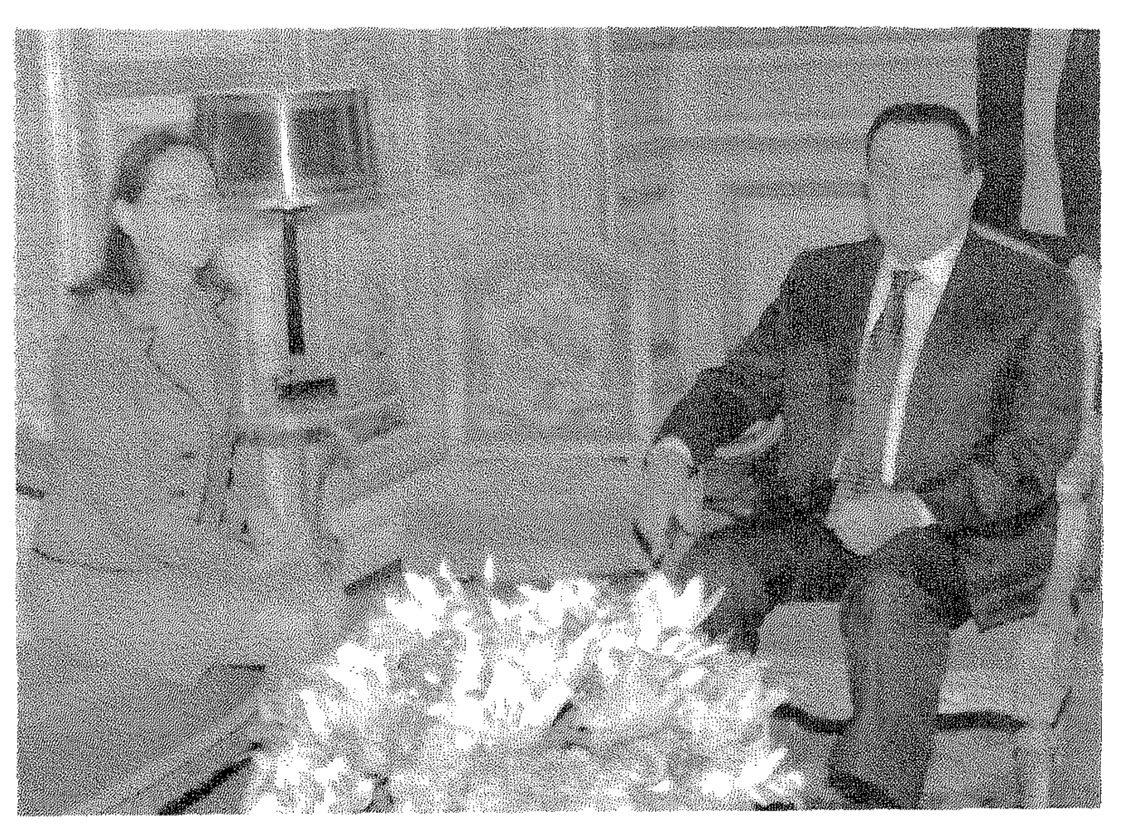
يقول الرئيس مبارك: إن كل تحرك سياسى ودبلوماسى مصرى، هدفه فى المقام الأول المصلحة الوطنية المصرية والمواطن المصرى، وإن سعى مصر لتحقيق الاستقرار والسلام بين دول المنطقة، سوف يعم بالفائدة على جميع شعوبها، فلا تنمية بدون استقرار، ولا تعاون بدون سلام دائم، يحفظ لكل الشعوب حقوقها فى العيش الآمن.

المصرية، باعتبارها قيادة وطنية، تواصل دورها التاريخى لاستكمال مسيرة النهضة المصرية، دون فصل بين استقرار مصر وأمنها، واستقرار وأمن شعوب ودول المنطقة، بل والعالم.

على طائرة الرئاسة المصرية، شرح الرئيس مبارك لرؤساء تحرير الصحف والمجلات


إناء من الرخام على هيئة تمثال لأوزيريس

قادة أيرلندا استمعوا جيداً للرؤية المصرية حول الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى، والأوضاع فى لبنان والعراق، وأيدوا موقف مصر وزعيمها فى أهمية التمسك بالحوار، وضرورة عودة حقوق الشعب الفلسطينى كمفتاح لحل قضايا الشرق الأوسط، وكذلك فعلت القيادة



المباحثات المصرية الأيرلندية

الألمانية. وتقديراً لموقع مصر وقيادتها وموقفها، أعرب المسئولون فى البلدين عن رغبتهم فى زيادة حجم التعاون الاقتصادى والعلمى بين بلديهما ومصر.

فى فرنسا ثمة هوى مصرى داخل كل فرنسى، فالفرنسيون هم الذين فجروا ينابيع الاهتمام «بالمصريات»، ومواقف فرنسا وانحيازها للحقوق العربية، منذ شارل ديجول، مواقف لا يمكن للوجدان المصرى والعربى أن ينساها، ومنحى الاستقلال الأوروبى الذى تقوده باريس بعيداً عن هيمنة القطب الواحد، محل تقدير من الشعوب العربية، وموقف مصر وقيادتها الوطنية وتمسكها بإحلال السلام، وجعل منطقة الشرق الأوسط خالية من أسلحة الدمار الشامل، كل هذه المواقف تجد صداها الإيجابى لدى القيادات الفرنسية، باختلاف انتماءاتها الحزبية. فالتقدير الفرنسى لمصر وشعبها وقيادتها، لم يتغير بتغير ساكن الإليزيه من جيسكار ديستان مروراً بفرانسوا ميتران وحتى جاك شيراك.

فرنسا أهدت لمصر مبارك معرض «آثار مصر الغارقة»، وفى القصر الكبير بالعاصمة الفرنسية «باريس»، افتتح الرئيسان حسنى



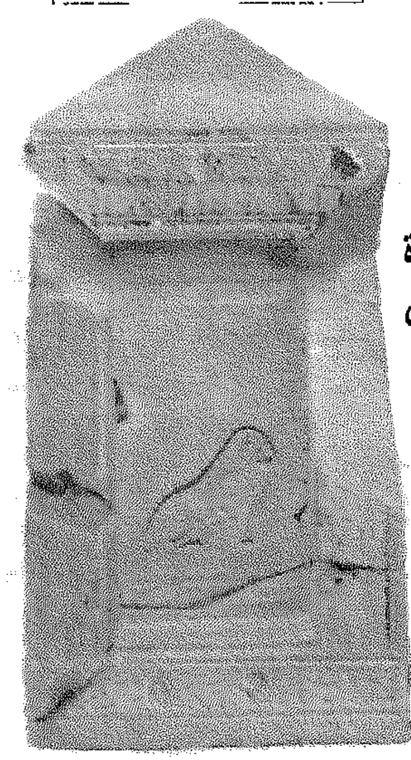
مبارك وجاك شيراك المعرض، ليتواصل انبهار العالم بحضارة مصر وآثارها ويظل الولع الفرنسى بمصر وتاريخها مشتعلا.

الرئيس مبارك اعتبر افتتاح معرض كنوز الآثار المصرية الغارقة، توثيقاً للروابط الثقافية، والعلاقات المتميزة بين مصر وفرنسا، وتأكيداً لتواصل الحضارات والثقافات والشعوب ولإرساء قيم التفاهم والتقارب بين أبناء الإنسانية من كافة البشر، مشيراً إلى أن مصر قد ترسخت لديها، عبر حقب طويلة، قيم الانفتاح والتعايش مع حضارات العالم، فكانت بوتقة انصهرت داخلها العديد من حضارات وثقافات، بل وجعلت من مصر وشعبها دعاة لحوار حقيقى جاد بين حضارات العالم وثقافاته، وهو حوار - تشتد الحاجة إليه - يقوم على التكافؤ واحترام الآخر، والمصالح المتبادلة، ويتأسس على القيم المشتركة، ويحقق تطلع شعوب الشرق الأوسط وأوروبا والعالم، إلى السلام والأمن والاستقرار.

الرئيس الفرنسى جاك شيراك أثنى على ثراء الماضى لفرنسا ومصر، والذى يلعب دوراً فى التفاهم والصداقة بينهما، ووصف الدولتين بأنهما راسختان فى التاريخ، وتتحليان بنفس روح التسامح والاحترام للثقافات، وتعملان معاً على ضفتى المتوسط، لصالح السلم فى الشرق الأوسط والتقارب ما بين العوالم.

واعتبر شيراك أن العلاقات المصرية الفرنسية، علاقات متينة، لأنها ترتكز، ليس على تقارب وجهات النظر بشأن القضايا السياسية الإقليمية وعلى العلاقات الاقتصادية فحسب، بل أيضاً على بعد ثقافى قوى.

جزء داخلى من معبد بطلمى





كنوز مصر فى باريس

وتأكيداً على الرؤية الفرنسية، وتقدير فرنسا لمصر وشعبها وقياداتها، أكد شيراك أنه بفضل تاريخ مصر القديم، الذى يعود إلى آلاف السنين، قد حققت مصر معجزة البقاء كما كانت عليه، والتوجه فى نفس الوقت نحو المستقبل، والخوض الفعلى فى مسار الحداثة.

وأثنى شيراك مقدراً توجه مبارك نحو الإصلاح، ومضى قائلاً:

لقد اخترتم بعزم وحزم درب الإصلاح، ولدى قناعة راسخة أن مصر تسير نحو مستقبل يتسم بالديناميـة والحداثة، وها نحن نشاهد بلداً يثبت مكانته الكاملة فى القرن ٢١، دون أن ينكر أى شىء من ماضيه المجيد أو تقاليده، هذه هى مصر التى يحتاج إليها الشرق الأوسط والعالم.

خطاب شيراك يؤكد أن السفينة المصرية تعرف بحرها جيداً، بلد يخطو بخطى ثابتة نحو المستقبل، عيناه على إصلاح حقيقى باعث على نهضة حديثة، من أجل وطن تسوده روح العدالة والإنسانية، وتسوده قيم المواطنة والمساواة بين أبنائه، منطلقاً من تاريخ وارث حضارى ضخم، لا يعزله عن الآخرين ولا يجره للماضى.

هذه هى مصر التى نريدها جميعاً، والتى يحتاجها العالم، الذى نطمع أن يزداد ولعه، لا بماضيها فقط، بل بحاضرها أيضاً.



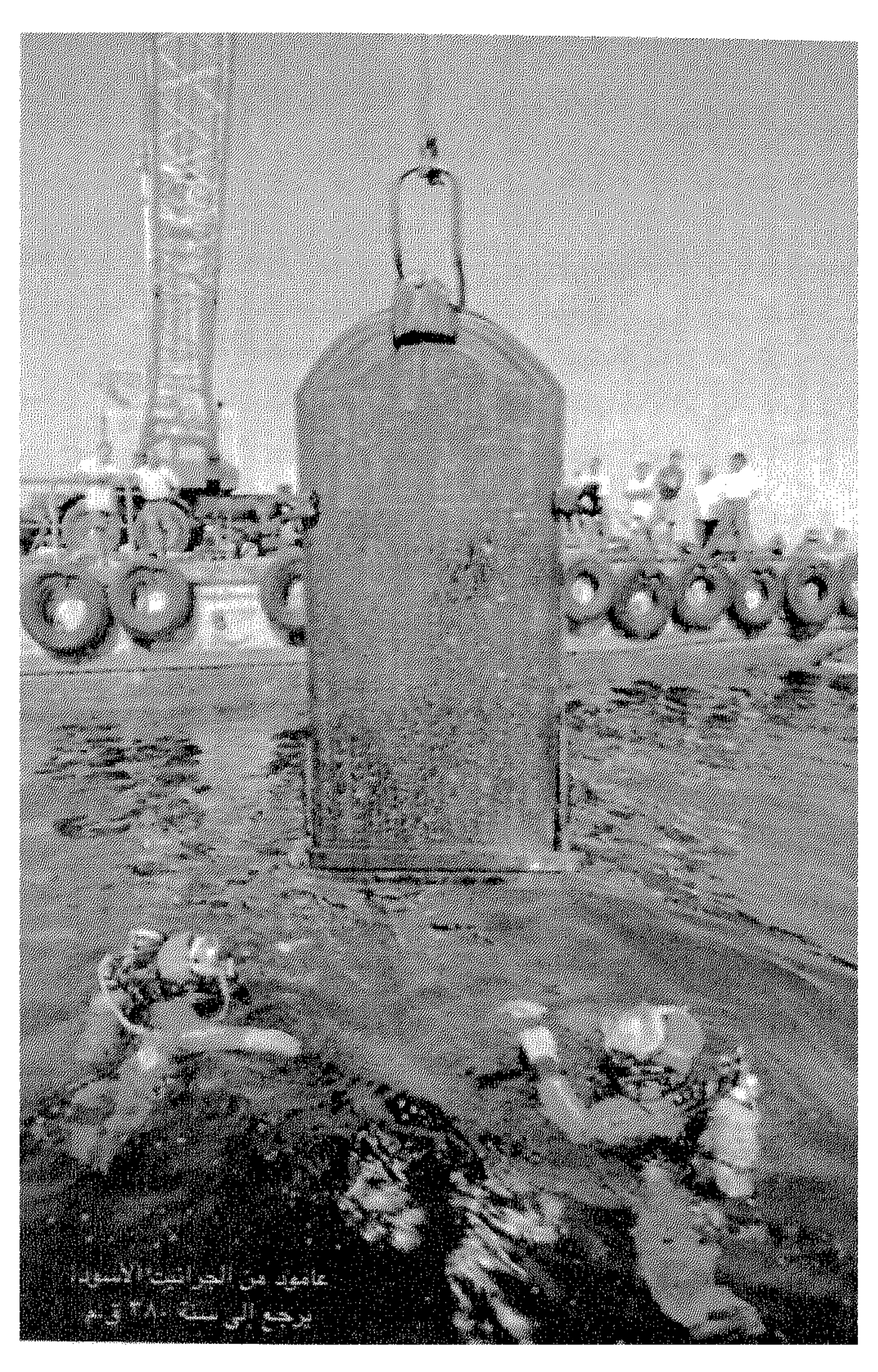
الكنوز الغارقة في القصر الكبير

وفقاً لدليل كل من المعرض الفرنسي «القصر الكبير» ومكتبة الإسكندرية، يضم المعرض نحو ٤٨٩ قطعة أثرية، انتشلت من مياه البحر المتوسط بالإسكندرية على مدى ١٠ سنوات، وتنتمي إلى عصور تاريخية مختلفة من الفرعونية واليونانية والرومانية، وقد شاركت مكتبة الإسكندرية في هذا المعرض من خلال ٣١ قطعة أثرية نادرة من مقتنيات متحف الآثار التابع للمكتبة.

عرض المعرض أضخم ثلاثة تماثيل تم انتشالها من مياه البحر، اثنان منها للملك وملكة من العصر البطليموسي، والثالث لإله النيل حابي. ويبلغ ارتفاع كل منها ستة أمتار، ووزن كل منها ستة أطنان، وتماثيل اقل ارتفاعا، مثل تمثال الآلهة ايزيس، وتشمل المعروضات ايضا تمثالا لأبي الهول، ولوحة هيراكليوم، التي عثر عليها بين آثار مدينة هيراكليوم الغارقة تحت مياه خليج ابوقير، قرب مدينة الإسكندرية، وتحمل نقوشا هيروغليفية ويونانية، حول الضرائب المفروضة على التجار والمواطنين، ويضم المعرض ايضا مجموعة تماثيل لابي الهول ورؤوس الملوك والملكات، إضافة الى مجموعة الحلي والأواني البرونزية.

تمتلىء شواطىء الإسكندرية وخاصة في منطقة خليج ابي قير ومنطقة الميناء الشرقية بكنوز من الآثار الغارقة، التي جاءت نتيجة لتعرض الإسكندرية للعديد من الزلازل الشديدة إلقت بكثير من مباني وقصور وقلاع الإسكندرية في مياه البحر ومن أشهر هذه المباني التي أطاحت بها الزلازل منارة الإسكندرية القديمة، إحدى عجائب الدنيا السبع، وترجع الأهمية الفائقة للآثار الغارقة إلى الميناء الهائل الغارق الموجود اسفل صخرة جزيرة فاروس، والجنوب الغربي منها، ويضاف إلى ذلك أن مستوى البحر قد ارتفع مترين منذ العصر الروماني.

كانت بداية البحث عن الآثار الغارقة في مصر عام ١٩٣٣م، وبدأت عمليات التعرف على الآثار الغارقة وانتشالها في منطقة خليج ابي قير، وفي عام ١٩٦١م، بدأ التعرف على آثار الإسكندرية الغارقة بمنطقة الحي الملكي، عندما اكتشف


عامود من الجرانيت الاسود
يرجع الى سنة ٣٨٠ ق.م

الأثرى الراحل والغواص والمعروف «كامل ابوالسعادات» كتلا أثرية غارقة فى اعماق البحر بمنطقة الميناء الشرقى، أمام كل من لسان السلسلة وقلعة قايتباى. فقام كامل أبوالسعادات بانتشال قطعة عملة ذهبية، تعود للعصر البيزنطى، وتم تسليمها للمتحف أيضا. وفى عام ١٩٦٢ م أفاد «كامل ابو السعادات» بوجود تماثيل ضخمة وعناصر أثرية أخرى شاهدها تحت الماء، فقامت مصلحة الآثار وقتها



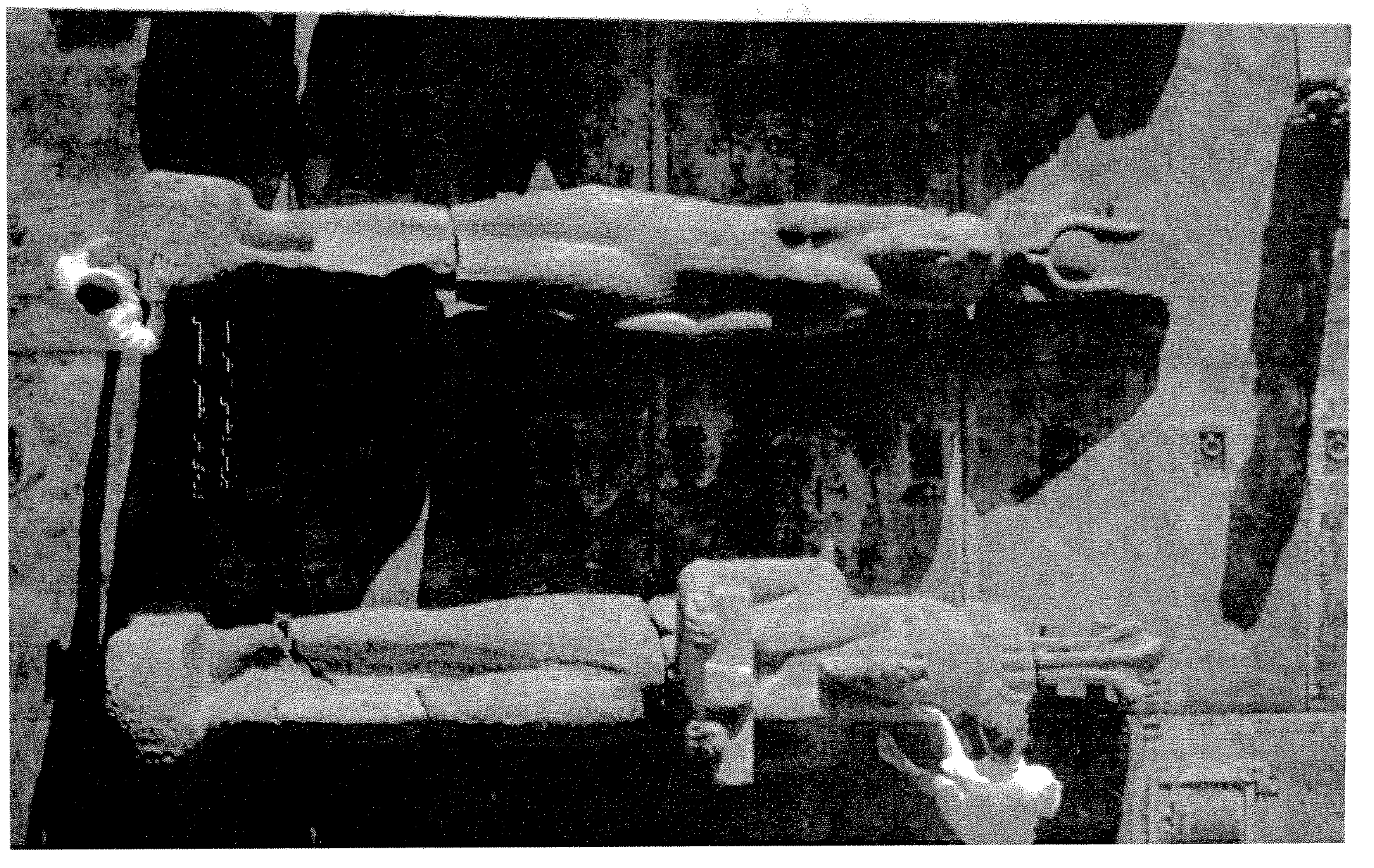
بمعاونة القوات البحرية وللمرة الأولى بشكل رسمي، بانتشال تمثال من الجرانيت لرجل يرتدى عباءة تغطى معظم بدنه، ويبلغ طوله ١٧٠ سم. وكان ذلك فى النصف الأول من نوفمبر عام ١٩٦٢م وفى النصف الثانى من نوفمبر عام ١٩٦٢م. تم انتشال التمثال الضخم المعروف بتمثال ايزيس، وهو من الجرانيت الأحمر، ويبلغ طوله حوالى ٧.٥ متر، ومشطور إلى نصفين. وقد تم نقله إلى حديقة المتحف البحرى بالإسكندرية.

فى عام ١٩٦٨ م طلبت الحكومة المصرية من منظمة اليونسكو معاونتها فى عمل خريطة للآثار الغارقة بمنطقة الميناء الشرقى تحت الماء فارسلت غواصة عالمية، تمكنت فى عام ١٩٧٥ م من وضع خريطة للآثار الغارقة فى حوض الميناء الشرقى، أصبحت مرجعا للعمل فى تلك المنطقة.

وفى عام ١٩٩٢م قامت بعثة معهد بحوث أوروبا للبحار برئاسة «فرانك جوديو» خبير الكشف عن الآثار الغارقة، بالعمل فى كل من منطقتى ابى قير والميناء الشرقى. وقد تمكن بفضل خبرته وتقدم أجهزته ورصد وتحليل البيانات التى حصل عليها، من الكشف عن الكثير من الأسرار الغامضة لآثار الإسكندرية الغارقة.

وفى اكتوبر عام ١٩٩٥ م بدأت بعثة المركز الفرنسى للدراسات بالإسكندرية بأعمال المسح لأعماق البحر، وتتكون بعثة


انتشال الآثار المصرية الغارقة





المركز الفرنسي من ٣٠ غواصا مصريا وفرنسيا، متخصصين في المسح الطبوغرافي والتصوير تحت الماء، والرفع المعماري والترميم، وذلك في المنطقة الواقعة امام قلعة قايتباي، وقد كشف ذلك عن وجود آلاف القطع الأثرية أسفل قلعة قايتباي، من أعمدة وتيجان وقواعد وتماثيل وعناصر معمارية مصرية واغريقية ورومانية، وقد لوحظ أن أحد الأعمدة يتشابه مع عمود السواري مما يذكر بواقعة القاء اعمدة واحجار السيرابيوم في قاع البحر، عام ١١٦٧ م لصد هجوم الصليبيين.

وأثناء عمليات البحث عن الآثار الغارقة تحت مياه الميناء الشرقي، تبين وجود ظاهرة أثرية غريبة تحت الماء، وهي عبارة عن صف كتل حجرية هائلة، من جرانيت اسوان الأحمر منتشرة في صف واحد شمال القلعة، تبلغ اوزانها من ٥٠ إلى ٧٠ طنا ويشير أسلوب انتشارها إلى سقوطها من مكان عال، أثر أحداث عنيفة. وقد فسر احد العلماء الفرنسيين وهو العالم الفرنسي «جان ايف امبرير» مدير الابحاث بالمركز القومي الفرنسي للأبحاث العلمية ومدير مركز دراسات الإسكندرية هذا، على أن هذه الكتل من بقايا منارة الإسكندرية القديمة، ويلاحظ ان آخر بقايا المنارة هو الطابق الأول الذى دمره زلزال القرن الرابع عشر، وربما كانت تلك القطع بقايا هذا الطابق التي سقطت في الماء، إما نتيجة الزلازل أو حملات الصليبيين على مصر.


تمثال عملاق لإله النيل «حابي» يزن ٦ أطنان من الجرانيت

وقد عثر تحت الماء أيضا على أضخم تمثال لملك بطلمي «ويعتقد أنه لبطليموس الثانى» وهو عبارة عن جذع التمثال، ويبلغ طوله حوالى ١.٥ متر وعثر على أجزاء منه، وقد تم عرضه فى معرض «مجد الإسكندرية» الذى أقيم بباريس عام ١٩٩٨ م.

كما تم العثور أيضاً على مجموعة من تماثيل لأبى الهول منقوشة مختلفة الأحجام والأحجار، ودرجات الحفظ طبقا لظروفها الزمنية، وكذلك تماثيل لبسماتيك الثانى وسيتى الأول ورمسيس الثانى. وقد عثر على نقوش من عصر الامبراطور «كراكلا» فى أعماق الميناء الشرقى، تكشف صفحة مجهولة من تاريخ مصر فى تلك الفترة.

يعود ما عثر عليه من آثار غارقة، وطبقا لما تم التعرف عليه وانتشاله الآن، إلى جزء من عصر الدولة الحديثة وحتى العصر البيزنطى، حيث عثر على عامود تاجة على هيئة نبات البردى.

انتقل هذا الكم الهائل من القطع الأثرية التى اكتشفت فى قاع البحار إلى برلين، حيث كان المعرض الأول للآثار المصرية الغارقة بمتحف «جروبيوس باو» وافتتحه الرئيس حسنى مبارك والرئيس الألمانى فى ١١ مايو الماضى، وبعد ستة أشهر انتقل المعرض إلى محطته التالية بمتحف القصر الكبير بباريس.

«أرسينوى» إحدى ملكات البطالمة بالحجم الطبيعى


رئيس الوزراء الكويتي يكرم «الهلال»، وبينهما د. سليمان العسكري ومحمد السنعوسي وزير الإعلام السابق

العربي تكرم الهلال والمجلات الرائدة

الإصلاح يبدأ بالثقافة

في دعوتها لمناقشة «دور المجلات الثقافية في الإصلاح» كتب الزميل الدكتور سليمان العسكري رئيس تحرير الزميلة «العربي» يتساءل:

ماذا نعني بإصلاح ثقافتنا العربية؟

ويجيب قائلاً: حق الإنسان العربي في المعرفة، سعيه للتنوير، التفكير بصورة أكثر ديمقراطية، تعزيز الثقافة الأكثر تسامحاً وتفهماً للآخر، تنمية الحس الانتقادي والسمو بالذوق الإبداعي، عدم الاستسلام لبديهيات القمع والقهر والبحث عن مهرب أو مواجهة، تأهيل البنية الثقافية من كتب وترجمات ومتاحف ومسارح.

الإصلاح الثقافي، اختصاراً، تغيير العقليات المنغلقة إلي أفكار متفتحة.

أليس كذلك؟.

ويتساءل مرة أخري:

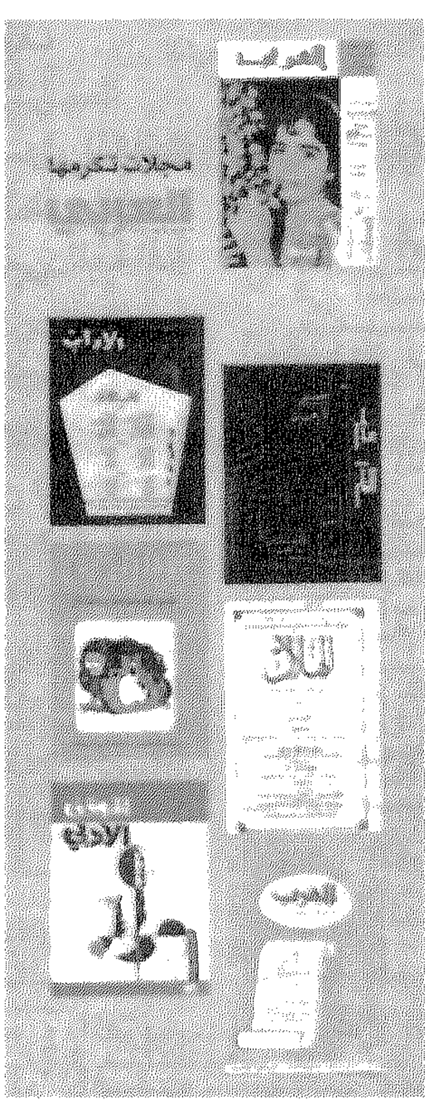
من الذي يستطيع القيام بهذه المهمة الشاقة، وكيف يمكن القيام بإصلاح ثقافي دون أن يتواكب معه إصلاح سياسي واقتصادي؟

وهل يمكن للمجلات الثقافية - والعربي واحدة منها - أن تقوم ولو بجزء يسير من هذه المهمة؟

أهمية الإصلاح الثقافي هو أنه مقدمة ضرورية لأي تنمية حقيقية، فالتنمية لا تتطلب إمكانيات بقدر ما تتطلب تغيراً في الذهنيات، وتجدداً في الأفكار، وشحذاً للإرادات.

ولن يتأتي ذلك للمواطن العربي المعاصر فكرياً، إلا بعد أن يخرج من شرنقة التخلف الثقافي، ويسعي في طور من النضج بحثاً عن ثقافة جديدة تعده للمستقبل، وهذا هو العبء الذي يجب أن يوضع علي عاتق المطبوعات الثقافية، مادامت تهدف إلي التنوير والتجديد.

ما كتبه الدكتور سليمان العسكري، كان إطاراً عاماً لندوة مجلة «العربي»، التي عقدت بدولة الكويت في منتصف شهر ديسمبر الماضي، والتي تحولت إلي تظاهرة ثقافية عربية عكست احتياج المثقفين والثقافة العربية، إلي فتح صفحات الماضي - ليس بكاءً عليه، بل استيعاباً لدروسه والاستفادة منه، كذات يمكن الانطلاق منه نحو ثقافة عربية جديدة، ذات أبعاد أكثر اتساعاً.



ندوة «العربي» كانت رسالة كويتية واضحة، باستمرار دور الكويت العربي، وفي القلب منه


بدر الرفاعي
«عالم الفكر» - الكويت


حسن حمدان
«الموقف الأدبي» - سوريا

دوره الثقافي، ولعل دعوة هذه الكوكبة من المثقفين والمفكرين والإعلاميين المصريين والعرب تدل علي أن «العربي» منذ بداية صدورها، حريصة علي أن تظل رسالة الكويت - بلاد العرب - إلي كل شعب عربي وكل مثقف عربي من المحيط إلي الخليج، كما يقول الكاتب الكويتي بدر الرفاعي الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

ولعل رعاية وحضور رئيس الوزراء الكويتي ناصر محمد الأحمد الصباح، وعدد من المسئولين الكويتيين، جاء تأكيداً لهذا المعني ورسالة واضحة، رداً علي دعوات البعض بأن الكويت قد تخلي عن دوره القومي.

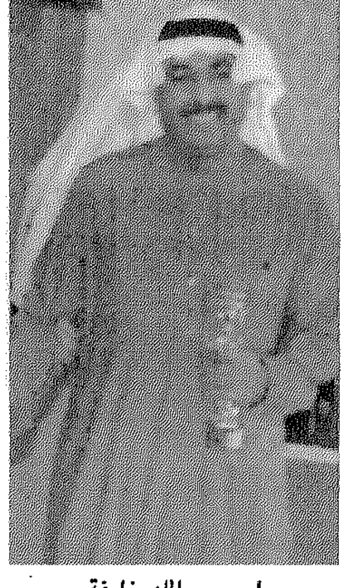
في اليوم الأول، وبحضور ٨٤ مثقفاً ومفكراً عربياً وحشد إعلامي ملحوظ، قام رئيس الوزراء الكويتي بتكريم مجلات «الهلال» و«عالم الفكر» و«الآداب» و«كتابات» و«العرب» و«الموقف الأدبي»، ثم ناقشت الندوة علي مدي اليومين التاليين ٢٧ بحثاً وشهادة، جرت مناقشتها في سبع جلسات.

في الجلسة الأولي برئاسة الدكتورة رشا الصباح، تحدث الدكتور جابر عصفور عن المجلات الثقافية وردم الهوة المعرفية للمواطن العربي، وقدم صلاح عيسي بحثاً عن المجلات الثقافية في عصر النهضة العربية، في حين قدم الدكتور بدر الدين عردوكي، من سوريا، قراءة مستقبلية للإصلاح الثقافي العربي.

وفي الجلسة الثانية، برئاسة فاطمة حسين قدم أحمد الديين بحثاً عن المجلات الثقافية في الكويت ودورها في الإصلاح


د. عبد الله العثيمين
«العرب» - السعودية


سماح إدريس
«الآداب» - لبنان


على عبد الله خليفة
«كتابات» - البحرين

الاجتماعي والثقافي، وقدم د. محسن الكندي من سلطنة عمان بحثاً آخر عن دور المجلات العمانية في حركة النهضة في بلاده، في حين تحدث د. عبدالله العثيمين عن دور مجلة «العرب» في نشر آداب وتاريخ الجزيرة العربية.

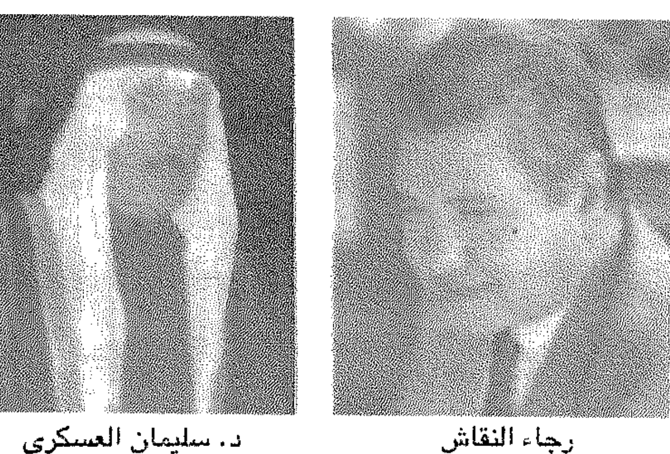
وترأس الجلسة الثالثة د. عبدالمحسن المدعج، وتتحدث علوية صبح من لبنان عن المجلات النسائية والتحرر الذهني، وتتابع د. شرين أبو النجا في بحثها ثورة المرأة وتأكيد الذات عبر المطبوعات والمجلات.

وعن الدور الذي لا يكتمل تحدث بندر عبدالحميد من سوريا عن المجلات الثقافية قصيرة العمر.

ومن فلسطين عرض د. فواز طوقان تجربة المجلات الثقافية في المهاجر العربية.

وفي الجلسة الرابعة، والتي ترأسها د. سليمان إبراهيم العسكري رئيس تحرير مجلة «العربي»، قدم د. إسماعيل سراج الدين عرضاً وبحثاً مكتوباً ومصوراً عن النشر الرقمي في حين عرض تجربة اليابان والصين في الإصلاح الثقافي د. مسعود ضاهر من لبنان.

الدكتور يحيي أحمد عميد كلية الآداب بجامعة الكويت ترأس الجلسة الخامسة والتي تحدث فيها د. الحبيب الجنحاني





رجاء النقاش — د. سليمان العسكرى — د. جابر عصفور

عن دور المجلات الثقافية في تحرير الإنسان التونسي.

وأوضح د. محسن جاسم الموسوي تأثير المجلات الثقافية العراقية في النخب، كما عرض د. عبدالرحمن العلام دور المجلات الثقافية في المغرب في الحفاظ علي الهوية.

وفي الجلسة السادسة، برئاسة فيصل الزامل، قدم د. قاسم عبده قاسم بحثاً عن المجلات التاريخية وإيقاظ الوعي القومي، في حين تحدث د. خالد عزب عن المجلات التراثية ودورها في النهضة ود. نواف الجحمة من الكويت عن المجلات الدينية ونشر الوعي الإسلامي.

وترأس الدكتور خلدون النقيب الجلسة السابعة حيث تحدثت جمانة حداد من لبنان عن الصحف اليومية ودورها في نشر الثقافة.

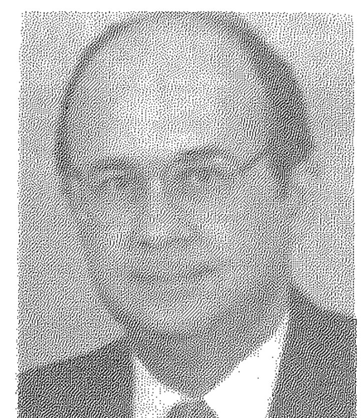
وشوقي عبدالأمير من العراق عن تجربة مشروع كتاب في جريدة.

وعزالدين نجيب عن مجلات الفن التشكيلي ونشر الوعي الفني، وصموئيل شمعون من بريطانيا عن «بانيبال» ودورها في نشر الثقافة العربية بالإنجليزي.

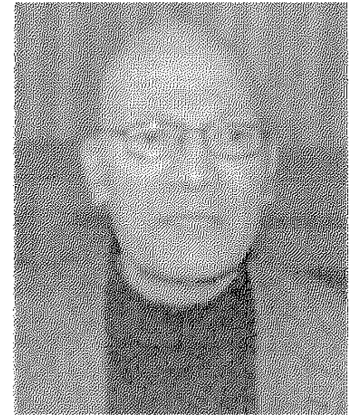


شوقي عبد الأمير — د. فواز طوقان

الناقد والكاتب الكبير رجاء النقاش ترأس الجلسة الثامنة



د. إسماعيل سراج الدين



أحمد عبد المعطي حجازي

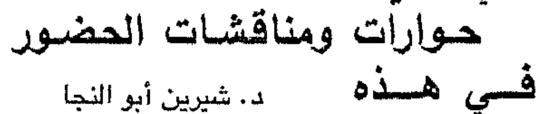
صلاح عيسى

حيث قدم مجدي الدقاق رئيس تحرير «الهلال» شهادته حول دور الهلال في نشر الثقافة والإصلاح الثقافي، وقدم للكاتب والناقد سامي خشبة دراسة حول مساهمة مجلة الآداب في ازدهار الحركة الثقافية العربية.

وتحدث الشاعر والكاتب أحمد عبدالمعطي حجازي عن تجربته في مجلة «إبداع» في حين قدم د. سليمان العسكري رؤية لدور مجلة «العربي» كمرآة عربية علي مدي خمسة عقود.

حوارات ومناقشات الحضور في هذه الندوات، عبرت بصدق عن الهموم الثقافية العربية: وأكدت علي أهمية دور المجلات الثقافية في نشر ثقافة وفكر جديدين، باعتبار أن الثقافة هي قاطرة الإصلاح الشامل في العالم العربي.

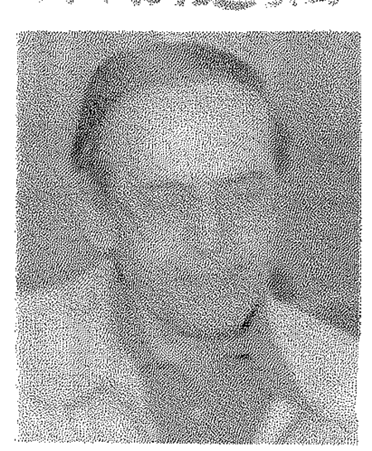
لقاءات المثقفين والمفكرين العرب أكدت أيضاً علي أهمية استمرار التواصل بينهم وعلي ضرورة فتح «الحدود الثقافية» بين الأقطار العربية، ودعوة المؤسسات الرسمية العربية لدعم كل جهد ثقافي، يصب في اتجاه الإصلاح العربي، وأكد د. سليمان العسكري أن مجلة «العربي» بتكريمها للمجلات العربية الرائدة، تعترف بفضل ودور هذه المجلات،

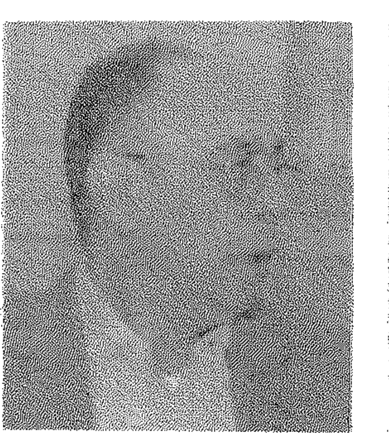


د. شيرين أبو النجا



د. خالد عزب





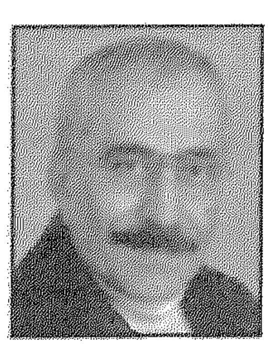
د. قاسم عبده قاسم — عز الدين نجيب — سامى خشبة

فلا أحد ينسي ما قامت به مجلة المقتطف في مصر في أواخر القرن الثامن عشر، حين حاولت أن تنقل علوم العرب إلي عالمنا العربي، الذي كان يرزح تحت تخلف القرن التاسع عشر، ولا الدور الذي قامت به مجلة «المنار» في إحياء الفكر الديني، ومقاومة الاحتلال الغربي، ولا ما قامت به مجلة «الهلال» التي قادت رحلة التنوير في عالمنا العربي فوق ما يزيد علي قرن من الزمان. ولا دور مجلة «الرسالة» في إحياء الثقافة العربية وتجديد لغتها، ولا مجلة «الآداب» التي رعت حركة التجديد والإبداع في الثقافة العربية من أول الخمسينيات من القرن العشرين حتي يومنا هذا، وأضاف أن مجلة العربي التي كانت أول رسول للثقافة ينطلق من أرض الكويت واحدة من الروابط الوثقي التي ربطت الكويت بالوطن الممتد من المحيط إلي الخليج، وساهمت إلي حد كبير في إزالة فجوة قلة المعرفة، والتفاهم والتقارب من المسافات المتباعدة. مؤكداً أن رسالة «العربي» سوف تستمر، موضحاً أهمية انعقاد مثل هذه اللقاءات والندوات بين أبناء الأمة الواحدة.

أيام قليلة قضاها المثقفون العرب بين أشقائهم الكويتيين، ولكنها كانت بداية لميثاق ثقافي عربي يؤكد علي قيم الحوار والتواصل وبناء ثقافة جديدة، كبداية لمسيرة إصلاح عربي لا يمكن أن يستكمل إلا بإصلاح وبناء ثقافي جديد.

مجدى الدقاق

رماد الأبنوس



خيرى منصور يكتب شهادته

رغم كل مـــا يمكن أن يرد فى هذه الشــهــادة، فـإن قناعــتى هى أن المعـادلة الخـــالدة قــدر تعلقــهــا بالإبداع، هى أن الشـاعر هو حاصل جمع نصوصه، ولأنها ليست أحـاداً تتدرج فى حـاسـوب أصم، فإن لديها فائض يتعذر احصاؤه، تماما كما هى الرائحة بالنسبة للشجرة .

لا أذكر متى، وأين، تولت اللغة كقابلة، اسـتيلاد المحاولة الأولى، فـالضـائع من المسودات لاسبيل إلى اسـترداده .. لأنه انحلّ وتلاشى فى ما أعقبه من محاولات أكثر جدية، وأقل ارتهانا للجاذب الشعرى الرائج، فنحن غالبا ما نبدأ قبل أن نبدأ ، وإن كنا على صعيد الابداع والخلق ننتهى قبل أن ننتهى.

ومن ولد فى مكان لايشبه الأمكنة، لأنه جـغرافيا أحالها الاقتلاع إلى فـردوس مضـاع، كان عليه أن يبتكر استجابة تليق بذلك الطارئ الذى سرعان ما اسـتوطن وأقام، وإذا كان الشعر بعامة هو شرارة مــا تولد من زواج العناصــر أو طلاقــهــا الســرى، فــإن البــعض منا يولدون على الحافة، مشحونين بطاقة ترقب وحذر، إن لم تجد مجالها الحيوى فى الكتابة فإنها قد تتحول إلى اجتراح الفعل، فثمة من أفرزوا نصوصهم كما يفرز النحل الشهد، بعد أن قطعوا الآف الاميـال وغـامـروا باتجاه المسكوت عنه، والمحلوم به .. وشبه المحــرم، لهـذا قــال أحـد هؤلاء، وهو الجزائرى «مـالك حـداد» لكى نسـتحق الشــهـد يجب أن تكون لدينا فـضـائل النحل..

ذات قصيدة ، وجدتنى منجذبا بقوة كبرادة الحديد لمغناطيس ، وانتهيت بعد دقـائق إلى رثاء تلك القـصـيدة الأشـبـه بالطفل الزائغ العـينين، وكـانت بعنوان قصيدتى الأولى .. وللحظة توهمت بأننى تحررت من حمولتى، وأجبت عن السؤال الملح الذى يحاول عبثا استنطاق الصمت البكر، وعناق كائن أو شىء لا قامة له ولا حضور، فهو محض ذاكرة أعاد الخيال انتاجها وأضاف وحذف كما يروق له .

الشعر بمعنى ما، محاولة للإمساك بما لايمكن الإمساك به، فالنهر الذى قال عنه

كاتب و صحفى عربى

هرقليطس إنه لايقطع مرتين، نتوهم أننا نقطعه مرات عديدة، بواسطة الكتابة، أعلى درجات التقمص للكائن الذى يتغذى من نقصانه، ويرقص ولايمشى، وأحيانا يسيل حول ذاته كنافورة !

أذكر أن شاعرا وناقدا حاول تعريف مهنته، وانتهى به الفشل إلى القول بأنه يحرز الشعر ولايدركه، كما يحرز القط الفأر ..

وأضاف أن دليله إلى الشعر ليست النظريات والتعريفات المتوارثة والمتداولة مدرسيا، بل هو القشعريرة .

لكن القشعريرة تتطلب جسدا ذكيا، مدربا على الاستجابة الرشيقة ، والشعر بوصفه ابتكارا أصيلا لمعادلات حسية لما هو مجرد، هو جسدى بعدة امتيازات، فى مقدمتها كونه الهواء المائل للصلابة، والماء الذى يثرثر بألسنة الغرقى ممن مكثوا فيه إلى الأبد!

لقد كتبت نصوصى الأولى، على ندرتها، والحذر الاحترازى الذى تحول إلى هاجس مزمن ضد الامتثال والتماثل على بعد طلقة واحدة من أمى ، سواء كانت تلك الطلقة رصاصة بالمعنى المادى، أو طلقة مخاض تمهد لولادة عسيرة .

لم أقل بعد ، بأن تلك بعض مواصفات أولية لكون المرء فلسطينيا، سواء كان شاعرا، أم موضوعا للشعر، لكن ما أخشاه هو أن يبلغ فائض «الفلسطنة» الشعر أيضا، فيختزل إلى مرثية أو طردية معاصرة، الفريسة فيها هو الصياد ذاته!

كانت أسئلتى المبكرة ، تشمل شروطا أخرى غير شرط الولادة الاستثنائى ، ولم يكن كل ما ظفرت به من أجوبة يكفى لتدجين الدهشة، فالموت مثلا احتفظ بحمولته كلها حتى اللحظة، ولأن الزمن هو النهر الذى يحملنا إلى ذلك المصب، فهو أيضا مثار فضول القصيدة مثلما كان مثار فضول الطفل .

الشعر بجنوحه الأبدى نحو البرارى، وخارج الحدود الإقليمية للعقل ، لم يتعرض لمحاولة اغتيال أصعب من تلك التى حاولت عقلنته، وتدجينه المدرسى، لأنها أشبه بمحاولة من يريد أن يصب ماء البحر فى زجاجة، لهذا فإن ما يسمى الغموض هو هوية وليست صفة، مادام الواضح وحتى البديهى هو الأشد تعقيدا واستدعاء للتواطؤ كما قال فاليرى ..

فالشجرة غامضة، وكذلك الطفل والقطة، والحزن الذى يرشح من جسد لايصدق صاحبه وهو يتحدث بثقة عن الغد .. وقد اغتنى الشعر بهذا الغموض، وتعدد ، وأصبح قابلا للتكاثر بسبب التأويل .

وليس صحيحا ما قاله جدنا المتنبى، أنه ينام ملء جفونه عن شواردها .. فهو أيضا يسهر، ويختصم مع ذاته ، وقد يهتدى بالقصيدة كى يتعرف على نفسه فى لحظة كتابتها .

قد تبدو هذه التداعيات والأرجاع تصاديا مع الشعر لا مع الشاعر .. وقد يكون التجريد الجمالى هو ما يطفو الآن على هذه الشهادة ، وسبب ذلك ، هو الاحتراز المزمن من نمذجة الذات أو أمثلتها ، بمعنى آخر اقتراح تجربتى معيارا ، فما من تجربة هى الأمثولة ، مادام تاريخ العلم هو تاريخ الأخطاء ..

وتاريخ الشعر هو تاريخ مسوداته .. فأية حفر وأية بئر هذه التى تتعمق كلما غرفنا منها ؟

لقد قال «كيتس» ومن بعده «السياب» ، إنهما لايرغبان فى كتابة اسميهما على صفحة الماء .. وبالرغم من هذا القنوط الشعرى، إلا أن زرقة الماء قد تكون مما مكث فيه من ذلك الرحيق ومن ذلك الحبر الخالد.

الشاعر أكثر الناس شكا بجدوى مهنته، فهو عائد حيث ينبغى له المضى مع الآخرين، وماض حيث يجب أن يعود .. لكأن الطرق تنبع من أصابع قدميه .. لهذا شبه أحد الشعراء مهنة الشاعر بالسلحفاة التى تبيض بعيدا ، ولها من الصبر ما تفتقده كائنات أخرى تبيض فى أعشاش أعدائها .

وقد تعلق الأمر بتجربة شخصية ، فلأعترف بأن ما يتمظهر أحيانا من رعونة ، ونفاد صبر ، وروح وثابة ، هو أقرب إلى التضليل البرىء .. لإخفاء تلك السلحفائية التى يتسم بها عمل حذر يجتهد قدر الامكان كى لايقول أقوال الآخرين، أو يتحول إلى صدى، هذا بالرغم من أن مقولة دانتوس (سحقا لمن سبقونى فقد قالوا أقوالى كلها) تصيبنى أحيانا بيأس يعيد إلى الصمت اعتباره المسروق، أن الكتابة عن الأشياء والظواهر، هى نقيض الكتابة منها .. وفى حرف جر واحد قد تكمن الحكاية كلها، فمن يكتبون عن فلسطين مثلا أو المرأة أو الحرية أو أى شىء آخر إنما يتورطون بالتوصيف وغواية ما يتمسرح من باطن الحقيقة.

أعترف بأن ما يتمظهر أحيانا من رعونة ونفاد صبر وروح وثابة هو أقرب إلى التضليل البرىء

أما الكتابة (من) فهى مشروع فى حذف الجسور والقناطر، التى كانت على الدوام قرائن لقطيعة ذهنية مع العالم ، وحين كتبت شاعرة عن رسام عشق شجرة ، وظل يرسمها حتى تحول إلى شجرة وتعنقد الثمر على جسده، كانت تقصد شيئا آخر غير هذه الفنتازيا .. هو الاستغراق والتوحد والحلول .

وكم كان مصيبا بول جيرالدى حين قال إنه كتب أشعاره كلها ليحذف حرف الواو الذى يفصل بينه وبين حبيبته، وبمعنى أدق بينه .. وبينه .

إن الشاعر سيء الحظ لأن قماشته اللغة، وهى التى يشاركه بها الآخرون بعكس الموسيقى أو الرسام .. لهذا فالشاعر مطالب بالإفصاح ، لكن الموسيقى يشرح لحنه بإعادة عزفه فقط.

هناك شرطان قد يبهظان الشاعر الذى ولد فى هذا العصر ، أولهما : احساسه بالتهميش الكونى، والثانى : اختراع ضرورته لأنها ملغاة ، فالقلب الذى حرم من حق التفكير .. لايعادله فى الظلم غير العقل الذى جرد من العاطفة ، وهاهى الابتسامة كما الحزن، يقاسان بحاسوب، ولم تعد الدمعة أوسع من حدقة العين، والصرخة أوسع من الفم، لهذا سطت الضرورة على الحرية ، مثلما يسطو الليل على ضوء خجول، انقطع عن مصدره!

واسمحوا لى هنا ، وإن على حساب أنانية خاصة أن أقول بأن الشعراء اعتنوا بحاستهم النقدية ، فلم تتثلم، بل شحذها المران والزمن ، وهذا هو ما يسمه التناغم بين الإعداد العقلى والإعداد النفسى للمثقف ، فالشاعر فى أيامنا ليس منشدا ، هبط للتو من الأولومب ، أو صعد من وادى عبقر، أنه خلاصة الثقافة وقد تقطرت فى كلمات قليلة، وهو آخر الشهود أيضا ، لأنه وحده من يصغى إلى الموتى الذين خذلهم الأحياء، ووحده من يصغى إلى أنين فريسة أخطأ الصيادون موقعها .

لقد كتبت ما كتبت شعرا ونثرا لأننى لا أفعل شيئا آخر ، ولم أتهيأ لما هو خارج هذا الشجن ، وإن كانت العربة أحيانا تفرض على الجوادين اللذين يجرانها قدرا من التناغم، فإن عربة الكتابة أشبه بالزلاقة التى يقودها أربعون كلبا على الجليد .. فالشاعر يجد الآن أن من واجبه أن يدافع ببسالة عما تبقى من شعرية فى نسيج الكون، وهو إذ يتحول إلى لقاح باسل للدفاع عما تبقى من مناعة، إما يتعدد فى أدائه ، وفى وسائل تعبيره ، فالاقتصار على الشعر رفاه لايملكه إلا من يعيشون فى حمى القلاع الموسرة .. أو هؤلاء الذين لم يتخلخل هذه الزلازل التاريخية رومانسيتهم ، وإصرارهم على أن عواصف التاريخ ستهب كما تشتهى سفنهم الورقية .

ما لم أقله بعد، وقد يكون مثار فضول، هو لماذا الشعر؟ ومن هو المرسل إليه فى هذا الحوار الذى أصبح مهددا بأن يتحول إلى مونولوج، أو حوار من طرف واحد ؟؟ المرسل إليه، قدر تعلق المسألة بالشعر، ليس كائنا محددا بزمان ومكان وذائقة، إنه مبثوث فى العالم، لهذا فإن شاعرا تحول إلى رميم قبل قرون قد يكون أكثر عافية من شاعر يرفل بالصحة، والفراغ ، والأوهام فى أيامنا .

فكل كتابة هى بشير ونذير .. بشير بأن الإنسان لم يتشيأ، ولم يلحق باسطبلات الأباطرة، ونذير لأنه يقرع الأجراس فى زمن الصمت المقدس الذى يصنفه المتضررون من كلام بأنه من ذهب!

هل قلت شيئا عن قصائدى؟ أم أنها هى المسكينة من سيتولى القول، وينوب عنى فى شهادة لم أشأ لها أن تكون توأما شائها ومسخا يسطو على حصة أخيه ؟؟

أخيرا ، بل أولا وقبل كل شىء ، فإننى أكتب الشعر فى عزلة قصدية، وأنسج حول الشاعر الحذر فى داخلى محارة من نثر، فهو الرهان السرى الأثير، وما إخفاؤه سوى التعبير الأمومى عن خوف من الالتباس الذى لم يسلم منه حتى الشعر، فى زمن تضاعف فيه عدد الشعراء عشرات المرات.. وأوشك الشعر فيه على الهجران !

خانة الشعر

أعرف أن هذه الأرجاع ليست مقاربة شعرية لسيرة ذاتية ماتزال رملا يحتاج إلى قدر عالٍ من التسخين كى يتحول إلى زجاج، وأعرف أن هناك شعراء يسطو الوهم على وعيهم ، فيجدوا أنفسهم خارج المدارين معا .. مدار التاريخ ومدار الجغرافيا، أو مدار الزمان ومدار المكان !

لم أنقطع عن كتابة الشعر إلاَّ لتأمل

المزيد من جدواه ، لا بوصفه دفاعا إنسانيا باسلا عن آخر الحقول وآخر البكارات، وما تبقى من حرية .

لهذا لا أسعى على الإطلاق إلى التخفى بقناع الشاعر كى أهرب من الشهادة على واقع بالغ الفظاظة والفظاعة.

فمن يكتب يوميا بضعة آلاف من الكلمات لأسباب مهنية فى مجال النثر، قد لايكتب سوى بضع كلمات فى الشهر يمكن تصنيفها فى خانة الشعر إن كانت له خانة!

ليس فقط لأن اتساع الرؤيا يفضى إلى ضيق العبارة كما قال النفرى، بل لأن الشعر كما أرى هو تحرير للغة من صدئها ، ومن مستوطنات البلاغة الصوتية التى تفاضل بين الطبل والناى لصالح الطبل ، وبين الأسد والفراشة لصالح الأسد !!

هذا بالرغم من أن فى الشعر متسعا للأضداد كلها وغالبا ما تكون كيفية القول موازية فى الأهمية للقول ذاته.

تلاحظون أن الشعر الآن مطرود إلى الهامش لأن المتون محتلة ، وأن الشعراء قد تأقلموا مع الهجران والعزلات حتى أوشك الناس على نسيان الشعر، وإن تذكروا ففى مواسم تطالب بأن يهتف . ويتظاهر ، ويأكل نفسه ويدمر وظيفته الأصلية ، وهو ينافس الخطبة ويسعى إلى مجرد التهييج العاطفى الذى لايدوم أكثر من إلقاء القصيدة !

المطرود ، والطارد والمهمش ليس

لقد كتبت ما كتبت شعراً ونثراً لأننى لا أفعل شيئاً آخر ولم أتهيأ لما هو خارج هذا الشجن!

الشعر بل تلك المساحة الخضراء البريئة من الذات الإنسانية، فالعصر الذى تورطنا بالولادة فيه يزعم الواقعية ويزهو بالعقلانية ويشهر الحاسوب بديلا لكل شىء .

لهذا لايبالغ الناشرون عندما يخفون إحصاءات نشر الشعر وتسويقه كما لو أنها فضائح .

وإذا كان كونديرا قد قال إن الرواية هى دائما فى مكان آخر ، فإن الشعر أيضا فى مكان آخر ، ولا أعنى بالمكان الجغرافيا، بل ما تبقى من قارة سادسة زحف عليها الجليد.

وما من نشاط روحي كالشعر أتاح لنا جميعا أن نبرر ما نكتبه لوفرة تعريفاته، بدءا من الموزون المقفى حتى آخر مجازفات منظرى قصيدة النثر.

فقد أصبح فرز الشعر عن اللاشعر مهمة يحتال عليها الناقد الأكاديمى بالفرار إلى قبور الشعراء الموتى، أما الناقد الآخر، فهو حائر بين ما يحفظ من مقولات، وبين ما يجب عليه قوله وهو يترجل من مرتفعات نظرية إلى نصوص!

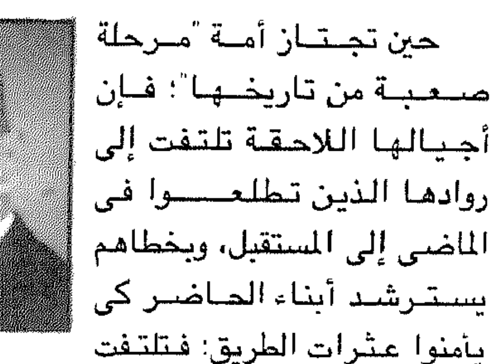
وإن المرء ليتساءل باندهاش .. هل نعود إلى الدفاع عن ضرورة الشعر بعد كل تلك القرون من كتابته ؟

إن وداع الشعر هو ذاته وداع الإنسان ، لأنهما توأمان، منذ السؤال الأول، والصرخة الأولى .. والقشعريرة الأولى .

نداء العدالة

فى إمبراطورية المال

أحمد على بدوى ☐





حين تجتاز أمة "مرحلة صعبة من تاريخها"؛ فإن أجيالها اللاحقة تلتفت إلى روادها الذين تطلعوا فى الماضى إلى المستقبل، وبخطاهم يسترشد أبناء الحاضر كى يأمنوا عثرات الطريق: فتلتفت الأمة الروسية إلى مفكرها فسيفولد ميخائيلوفيتش أيشنباوم (١٨٨٢ - ١٩٤٥) الذى عرف بالاسم المستعار الذى وقع به كتاباته، وهو "ڤولين"... سالك طريق قاد خطاه إليه مواطنه بيتر كروبوتكين (١٨٤٢ - ١٩٢١) واستهله من قبلهما سلفهما ميخائيل باكونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) الذى وصف بشيطان الثورة، وله مع كارل ماركس - الذى ترجم كتابه "رأس المال" إلى الروسية - التحام يستحق تفصيلا مستقلا، وتلتفت الأمة الفرنسية إلى جان جوريس (١٨٥٩ - ١٩١٤) وإميل هنرى (١٨٧٢ - ١٨٩٤) وتلتفت الأمة الألمانية إلى ماكس شترنر (١٨٠٦ - ١٨٥٦) والأمة السويسرية إلى جيمس جيوم (١٨٤٤ - ١٩١٦). بهم جميعا - وأيضا بمواطنين لهم تكاتفوا معهم بل وبغيرهم من مواطنين تلتفت أممهم إليهم مستلهمة أفكارهم - يجدر التعريف؛ كما تلتفت الأمة المصرية إلى سلامة موسى، الغنى عن أى تعريف.

والأمة الإيطالية تلتفت إلى إريكو مالاتستا (١٨٥٣ - ١٩٣٢) المناضل الذى لم يهدأ لحظة، ولم يفارقه قلمه إلا مع النفس الأخير. وقد وصفته الصحافة الإيطالية فى العشرينيات من القرن العشرين بأنه "واحد من أهم شخصيات الحياة العامة فى إيطاليا". وكان مالاتستا على رأس خمسة وثلاثين وقعوا فى الخامس عشر من فبراير سنة ١٩١٥ احتجاجا على استمرار الحرب العالمية، ومنهم الأمريكيان ألكساندر بركمان وإما جولدمان. والثلاثة - الإيطالى والأمريكيان - يستحقون المزيد والمزيد من التعريف والتفصيل، ولكن الأولوية مستوجبة لألكساندر بركمان وإما جولدمان؛ والأمة الأمريكية تجتاز الآن مرحلة من تاريخها... حساسة وغنية عن كل تفصيل!!

إنها كلها أسماء ينتمى أصحابها إلى

☐ كاتب ومترجم

تيار عرفه التاريخ الحديث والمعاصر باسم إذا كتبنا بالعربية منطوقه بالحروف الأوروبية - كما أمسى بعض الذين يترجمون المؤلفات الأوروبية يفعلون حاليا بكثرة وولع - لكان "الأنارخية"! وهو تركيب فى اللغات الأوروبية - راجع إلى اليونانية - من بادئتين: «أرخ» التى تعنى "الأصل"، و"أن" التى إن سبقت صفة عكست مدلولها؛ فالاثنتان معا تعنيان "اللاأصل"! والتيار السياسى الذى اتخذ من هذه الكلمة عنوانا له هو المنادى بمبدأ بناء العلاقات فى المجتمع على الأسس الفردية الحرة. لذا يبدو أن أنسب تعريف يمكن أن يطلق فى العربية على المنتمين لهذا التيار هو "الحرثيون"؛ لأنهم يطالبون بمعاودة حرث الأرض - أرض المجتمع - تمهيدا لإمدادها بجذور جديدة منها تنبت العلاقات السوية بين أفراده: "الحرثيون"؛ من فعل الحرث (حرث حرثا فهو "حرثى"!) قياسا على كلمة أخرى هى "القمعيون"؛ من فعل القمع (قمع قمعا فهو "قمعى"!)، وهو تماثل بين الكلمتين فى الشكل وتضاد كامل بين مضمون كل منهما ومضمون الأخرى؛ لأن أول ما يقاومه الحرثيون هو القمع! ولعل فى هذا الاقتراح الذى يزيد منبر "الهلال" الرفيع ريادة إلى ريادة ما يمهد تمهيدا سليما لتعريف وتفصيل لاحقين يستحقهما أصحاب هذا التيار؛ خاصة وأن أحدا من المنظرين المصريين الآخرين لم يسبق إلى إطلاق هذه الصفة على مفكرنا سلامة موسى، وأن الصفحات المطبوعة بالحروف العربية لم تسجل حتى الآن رصدا لأى من الشخصيات التى

NATIONAL BESTSELLER
Howard Zinn
A PEOPLE'S HISTORY OF THE UNITED STATES

ارتبط التيار فى أمم الغرب بأسمائها، فيما عدا باكونين الذى كان ضحية دعاية شعواء أطلقها ضده المتعصبون للبلشفية؛ وتأثر بها المصطلح العربى عندما ترجمت أعمال هؤلاء - ترجمة رسمية فى الاتحاد السوفيتى السابق!! - إلى لغتنا؛ مما أمكن أن يكون له أثر الإخلال بفهم قارئ العربية لتيار فكرى نابض بالحياة - حياة البقاء والبناء لا العشوائية والفوضى - وبه تتواصل الحياة فى أروع تجلياتها... وتدين له مجتمعات ما يسمى بـ"العالم الأول" بما هو فيها إيجابى، تنطق به مجالات عدة لا تقتصر على النيابى والنقابى.

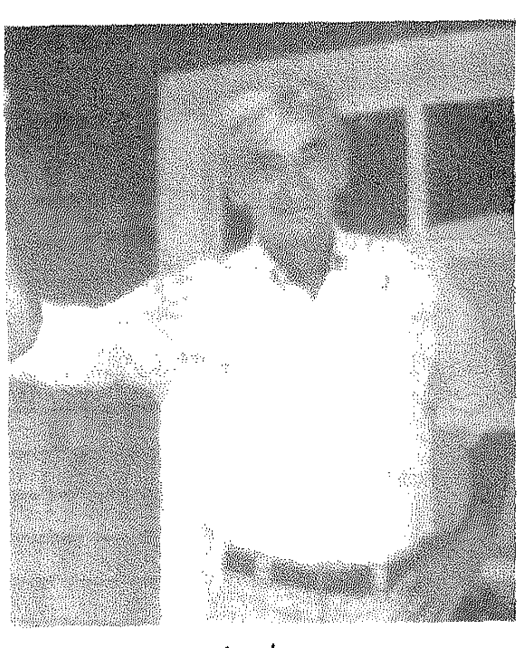
تفتح وعى ألكساندر بركمان وإما جولدمان على ما عرف بأحداث "ميدان هيى ماركت" سنة ١٨٨٦، أو بالأحرى - إذا شئنا تعريفا أقرب الى اللغة المعاصرة - بـ"ربيع شيكاجو"؛ حين تظاهر ثلاثمائة وخمسون ألفا من العاملين فى نحو اثنى عشر ألف منشأة أمريكية، مطالبين بقصر

عدد ساعات العمل على ثمان فى اليوم، وفى الأول من مايو سنة ١٨٨٦ سار فى نيويورك خمسة وعشرون ألفا يحملون المشاعل مارين بحى برودواى الشهير بمسارحه،وتظاهر أحد عشر ألف عامل فى ديترويت، وفى الرابع من مايو عقد بميدان هيى ماركت بشيكاجو اجتماع حضره ثلاثة آلاف: وإذ بدأت السحب تخيم وتأخر الوقت انخفض عدد الحاضرين إلى بضع مئات، ثم ظهرت فرقة من الشرطة قوامها مئة وثمانون جنديا وطالبت الحاضرين بالتفرق؛ فأعلن آخر الخطباء أن الاجتماع على وشك الانفضاض. وعندئذ دوت وسط أفراد الشرطة قنبلة، رجح فيما بعد أنها ألقيت بيد بعض العناصر المدسوسة (لأن الاستدلال على هوية القاذف بالقنبلة لم يتم قط!) فقتل من الجنود سبعة وجرح ستة وستون؛ وأطلقت الشرطة النار على الجموع فأصابت منهم مئتين، واعتقل من الحرثيين الأمريكيين ثمانية قدموا إلى المحاكمة أمام قضاة ولاية إلينوى، وكان بينهم ألبرت بارسونز وهو عامل طباعة، وأوجست سبايز وهو حرفى "تنجيد" وأدولف فيشر وجورج أنجل، والذين حكم عليهم بالإعدام ونفذ الحكم فى غضون سنة، كما كان من بينهم لويس لينج، وهو نجار نسف نفسه فى زنزانته بخرطوم من الديناميت وضعه فى فمه؛ وقام خمسة وعشرون ألفا بمسيرة جنائزية فى شيكاجو،ووقع ستون ألفا عرائض احتجاج أرسلت إلى حاكم ولاية إلينوى. وقد كان لهذه الأحداث أثرها المجلجل فى العالم فى زمن طويل، بدأ منذ إصدار الأحكام وحتى قبل تنفيذها؛ إذ انعقدت فى مدن هولندا وروسيا وإيطاليا وأسبانيا اجتماعات المحتجين، وفى لندن عقد اجتماع كان من رعاته جورج برنارد شو ووليام موريس وبيتر كروبوتكين وغيرهم، وقد أثر عن جورج برنارد شو قوله حينذاك بأسلوبه الساخر المعتاد إنه إن وجبت التضحية بثمانية من الأمريكيين فلتكن بقضاة محكمة إلينوى العليا (وكان عددهم بالفعل ثمانية!) لا بالواقفين فى ساحتها! وحتى التاريخ القريب؛ حيث وقع فى سنة ١٩٦٨ حدثان أعادا إلى الأذهان ذكرى أحداث سنة ١٨٨٦، حين قامت مجموعة من شباب شيكاجو بنسف نصب تذكارى للجنود الذين راحوا ضحايا الواقعة، وحين حوكم فى شيكاجو أيضا ثمانية من متزعمى حركة المناهضة للحرب؛ فأثيرت فى الصحافة وكتابات الأدباء – بمثلما فى الاجتماعات – الحساسيات المبكرة المرتبطة بذكرى أول "ثمانية من شيكاجو" حوكموا بسبب ما دعوا إليه من قبل باثنين وثمانين عاما؛ ومن حينها صار يوم الأول من مايو عيدا للعمال فى جميع أنحاء العالم!

ولكن على أثر الأحداث مباشرة تجسد الغضب الهادر فى الحملة الانتخابية للمرشح لمنصب عمدة مدينة نيويورك من قبل اتحادات العمال التى كونت حزبا عماليا مستقلا ودفعت بمرشحها هنرى جورج، مؤلف الكتاب الشهير "التقدم والفقر" الذى عرض فيه آراءه التقدمية

وقرأه عشرات الآلاف من العمال: وقد بنى هنرى جورج برنامجه الانتخابى على أساس عدة نقاط من أهمها أن يختار المحلفون فى المحاكم من جميع الطبقات لا من علياها فقط كما جرت العادة حتى ذلك الوقت، وألا تتدخل الشرطة فى الاجتماعات السلمية، وأن تفرض الرقابة الصحية على مبانى المنشآت، وأن يلغى التعاقد المشروط مع العمال فى الأعمال العامة، وأن تتم المساواة فى الأجور بين الرجال والنساء. ورشح الحزب الديموقراطى للمنصب أبرام هيويت بينما رشح الحزب الجمهورى ثيودور روزفلت.وقد فاز مرشح الديموقراطيين بالمنصب بحصوله على واحد وأربعين فى المئة من مجموع الأصوات بينما حصل المرشح العمالى هنرى جورج على واحد وثلاثين فى المئة: وبالطبع كان ترتيب ثيودور روزفلت الأخير إذ حصل على سبعة وعشرين فى المئة، ولكن فيما بعد عوضه التاريخ عن خسارته إذ جعل منه أول رئيس للولايات المتحدة فى القرن العشرين! ومن مفارقات التاريخ التشابه بينه وبين أول رئيس لها فى القرن الحادى والعشرين: من حيث الواضح من ظن كل منهما أن الحرب هى مما "تحتاجه البلاد"، والذى ثبت فى حالة ثيودور روزفلت من رسالة شخصية بعث بها إلى أحد أصدقائه واكتشفها المؤرخون حين تصدوا لكتابة سيرته!!

وفى أوائل سنة ١٨٩٢ كان مدير مصنع كارنيجى للصلب فى إحدى بقاع ولاية بنسلفانيا هى "هومستيد" الواقعة



هوارد زن

خارج مدينة بيتسبرج، يدعى هنرى كلارك فينك وهو الذى قرر آنذاك خفض أجور العمال بالمصنع: ومن بين عمال المصنع البالغ عددهم ثلاثة آلاف وثمانمائة قرر ثلاثة آلاف الإضراب، ونصبوا ألفا منهم على طول ضفة نهر "مونونجاهلا" المحاذى للمصنع، فى صف امتد عشرة أميال: وأستأجر هنرى كلاى فينك قوة حراسة من وكالة بنكرتون الخاصة للاستخبارات، وداهمت المئات من أفراد القوة العمال فى مواقعهم وسقط قتلى من الطرفين: وحوكم نحو مئتين من العمال بتهمة القتل وغيرها من التهم التى تمت تبرئتهم منها كلها. وفى خضم أحداث ذلك الإضراب الذى امتد أربعة أشهر كلفت مجموعة نيويورك من الحرثيين ألكساندر بركمان الذى كان فى ريعان شبابه بالذهاب إلى بيتسبرج واقتحام مكتب هنرى كلاى فينك بهدف اغتياله.ولم ينجح بركمان فى محاولته وحوكم بتهمة الشروع فى القتل وحكم عليه

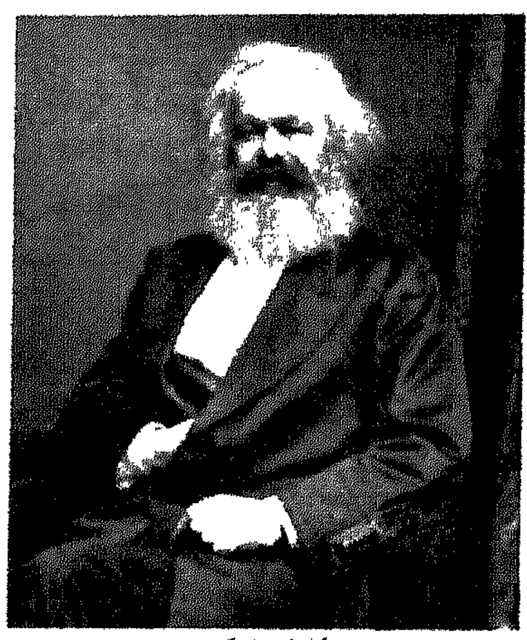
بالسجن أربعة عشر عاما كتب خلالها "مذكرات حرثى من السجن" التى وصف فيها - بدقة متناهية - الجريمة التى شرع فيها وتفاصيل السنين التى قضاها سجينا، وحيث أكد أنه لم يعد يرى جدوى فى الاغتيالات ولكنه يظل مكرسا للثورة. وكتبت رفيقة نضاله إما جولدمان سيرتها بعنوان "أعيش حياتى" لتعبر فيها عن الحفيظة والإحساس بالظلم والرغبة فى حياة جديدة، تلك المشاعر التى كانت تعتمل فى صدور الجيل الثورى الشاب فى أمريكا حينذاك.

لم تكن إما جولدمان مناضلة سياسية فحسب، ولم تنس أنها امرأة! ولكن حميتها لبنات جنسها استمدت من وعيها السياسى المتفتح ما يقيها خطر الوقوع فى "إعلان الحرب على الرجل" بدلا من إعلان الحرب على أعداء الإنسانية، وجنبا إلى جنب مع الرجل طالما كانت حربه هو فى سبيل الإنسانية. وعندما ارتفعت الأصوات مطالبة بحق المرأة فى الإدلاء بصوتها نبهت إما جولدمان إلى أولويات فى النضال النسوى تنتمى إلى النضال الإنسانى العام؛ فكم سبقت المرأة فى بقاع من العالم تتشابه بأمريكا الشمالية فى تاريخها وتكوينها الحضارى إلى الحصول على حق التصويت دون أن تكون تلك البقاع قد نعمت بتقدم حقيقى فى الوضع الإنسانى ..."إن بمستطاع نساء أستراليا ونيوزيلاندا التصويت فى الانتخابات (كما كتبت إما جولدمان) فهل تحسنت أوضاع العمل هناك؟" وقد بدأت الحركة النسوية فى الولايات المتحدة تنشط حين استجمعت البلاد قواها بعد سنين عجاف عانت فيها محنة طاحنة، وكانت سنة ١٨٩٣ قد شهدت أشد أزمة اقتصادية عرفها تاريخ الولايات المتحدة؛ فبعد عقود عدة من التنمية الصناعية المزدهرة وما واكبها للأسف من مضاربة غير محسوبة وتربح: انهار كل شىء! فأفلس من البنوك ستمائة واثنان وأربعون وأغلقت أبوابها من دور الأعمال ست عشرة ألفا، ومن القوى العاملة المقدرة فى البلاد بخمسة عشر مليونا عانى البطالة ثلاثة ملايين، وفى شيكاجو اكتظت أرضيات دار البلدية وأقسام الشرطة وسلالمها بمن افترشوها ليلا من فاقدى مساكنهم؛ وأرغمت المظاهرات الغفيرة فى جميع أنحاء البلاد حكومات الولايات على توزيع الكفاف من الأغذية وعلى إيجاد أعمال صورية للمواطنين فى الشوارع والحدائق العامة. وفى اجتماع حاشد اتخذ له ساحة "يونيون سكوير" (ميدان الاتحاد) بنيويورك، خاطبت إما جولدمان مكابدى البطالة وحثت أولئك الذين يعانى أطفالهم الحاجة إلى الغذاء أن يمضوا إلى المحال ليحصلوا منها عليه؛ وقد اعتقلت وحوكمت بتهمة "التحريض على الشغب" وسجنت سنتين.

ويختتم التاريخ الأمريكى فى القرن التاسع عشر بما عرف بـ"الحرب الأمريكية الأسبانية" التى شنتها الولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ لتحرر كوبا من حكم الاحتلال الأسبانى، تلك الحرب التى كتب عنها الكاتب الأمريكى الساخر مارك توين فى

[illegible] أن سبب الحرب الأمريكية الإسبانية هو سعر السكر... وأن أعمار أبناء الشعب الأمريكي ودماءهم وأموالهم قد استغلت لحماية مصالح الرأسماليين الأمريكيين! .

ثم تجيء مع القرن العشرين كبرى المآسي: الحرب العظمى! في سنواتها الأولى قتل عشرة ملايين، ومات عشرون مليونا من الجوع وبأمراض لها صلة بالحرب، ودول أوروبا "المتحضرة" تتقاتل فيما بينها على الحدود والمستعمرات ومناطق النفوذ؛ ومدار الصراع الألزاس واللورين (بين فرنسا وألمانيا) وأيضا البلقان وأفريقيا والشرق الأوسط، وفي السنة الثانية من الحرب، وبالتحديد في مايو سنة ١٩١٥ كتب المفكر الأمريكي دو بوا في مجلة "أتلانتيك منثلي" العريقة (والتي امتد عمرها مع القرن العشرين حتى عرفناها نحن أهل الشرق عن قرب قبل نهاية القرن بقليل؛ حين كتب فيها المستشرق المبرز - والمغرض! - برنارد لويس مقالاته التي ضخم فيها ما سماه بـ"الخطر الإسلامي"!!) مقالا بعنوان



كارل ماركس

"الجذور الأفريقية للحرب" قال فيه إنها حرب على السيطرة: ماثل فيها الصراع بين ألمانيا وأعدائها على أفريقيا كرمز وحقيقة معا! وبالنص "إن أفريقيا هي - بالمعنى الحقيقي فعلا - السبب الأساسي لهذا التردي الفظيع للحضارة الذي كتب علينا أن نعيش حتى نشهده... إنها أرض القرن العشرين: بسبب الذهب والماس في جنوب أفريقيا، والكاكاو في أنجولا ونيجيريا، والمطاط والعاج في الكونجو، وزيت النخيل في الساحل الغربي".

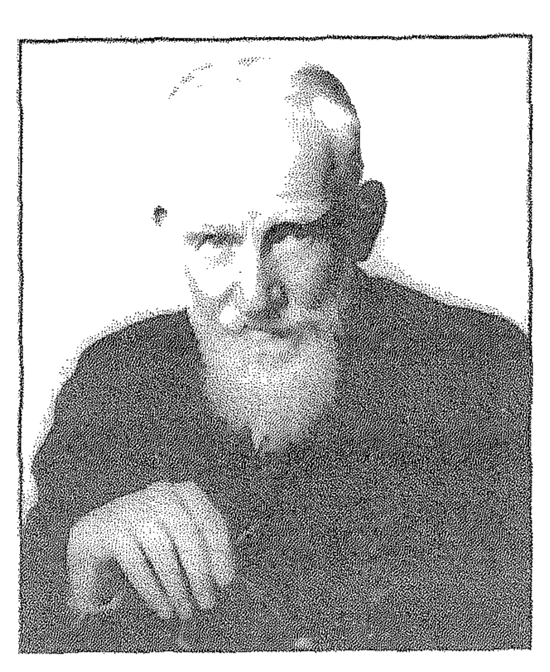
في سنة ١٩١٥ تلك كانت غواصة ألمانية قد قصفت عابرة المحيطات البريطانية "لويزيتانيا": فغرقت في ثماني عشرة دقيقة، ومات غرقا ألف ومئتا شخص، منهم مئة وخمسة وعشرون أمريكيا. وادعت الولايات المتحدة أن الباخرة كانت تحمل بضائع "بريئة"، ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك؛ فقد كانت تحمل كميات وفيرة من الذخيرة من أمريكا إلى

بريطانيا. كانت الولايات المتحدة - في سنة ١٩١٤ التي شهدت بداية الحرب - هي نفسها في بداية تراجع حاد؛ وعاودتها المعاناة من البطالة وأصاب صناعاتها الثقيلة الكساد، بيد أن "الطلبيات" من جانب بريطانيا - على رأس حلفائها - أنعشت بدءا من سنة ١٩١٥ الاقتصاد الأمريكي، وبحلول شهر إبريل من سنة ١٩١٧ بلغ العائد على الولايات المتحدة من صادراتها إلى بريطانيا وحلفائها أكثر من مليارى دولار! ورفع الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون الحظر على إقراض البنوك الخاصة أموالا للحلفاء، وتزايد غدو بريطانيا سوقا للبضائع الأمريكية وللقروض ذات الفائدة المرتفعة؛ وهكذا "فحتما جمع بين هؤلاء والولايات المتحدة رباط وثيق من الحرب والرخاء!!" على حد تعبير المؤرخ ريتشارد هوفشتادتر، أحد المشرفين على تحرير كتاب هام صدر في أوائل السبعينيات من القرن العشرين بعنوان "العنف الأمريكي: تاريخ وثائقي". ولذا لم يكن من الواقعية في شيء توقع معاملة الألمان للولايات المتحدة الأمريكية كطرف محايد في الحرب؛ وفي شهر إبريل من سنة ١٩١٧ أعلن الألمان أن غواصاتهم ستغرق أي سفينة تأتي أعداءهم بإمدادات؛ وعندئذ أعلن الرئيس ويلسون أن من واجبه أن يساند حق مواطني الولايات المتحدة في السفر على سفن تجارية في مناطق القتال، وقال بالحرف الواحد " لا أستطيع أن أقبل بأي إهدار لحقوق المواطنين الأمريكيين بأي صدد كان!" فكانت تلك السنة هي سنة دخول الولايات المتحدة الحرب.

إلا أن "المواطنين الأمريكيين" لم يكونوا بمثل هذا الحماس لدخول الحرب! وكان المقدر أن تتكون القوات الأمريكية من مليون نفر، ولكن بمرور ستة أسابيع على إعلان الحرب لم يزد عدد المتطوعين عن ثلاثة وسبعين ألفا!!

وتعود السنة الثانية من الحرب فتفرض نفسها - بكل ما لها من أهمية وحسم - على سرد مجريات الأحداث؛ ففي الخامس عشر من فبراير سنة ١٩١٥ حرر المناضل الإيطالي إريكو مالاتستا من منفاه بلندن بيانا يشجب الحرب، جاء فيه "إن أوروبا تشتعل: عشرات الملايين من البشر اشتبكوا في أبشع مجزرة سجلها التاريخ حتى الآن، ومئات الملايين من النساء والأطفال في شقاء، والحياة الاقتصادية والفكرية والمعنوية لسبعة شعوب عظيمة مشلولة بوحشية، ويوما تلو الآخر يتزايد التهديد بتضاعف العمليات العسكرية. هذا هو - منذ خمسة شهور - المشهد الذي يطالعنا به العالم المتحضر! إنها العاقبة الطبيعية والمآل الحتمي لنظام أساسه اللامساواة الاقتصادية، يرتكز على صنوف التضارب الوحشي بين المصالح، ويضع مجال الإنتاج تحت وصاية مؤلمة تمارسها قلة من الطفيليين؛ يملكون في آن معا السلطة السياسية والقوة الاقتصادية. كانت الحرب محتومة! ومن أينما جاءت كان يجب أن تندلع؛ فلم يكن عبثا ذلك الإعداد المحموم منذ نصف قرن لأسلحة ضخمة، وذلك التحصيل

التراكم لميزانيات يبتاع بها الهلاك، وذلك التحسين المتواصل لمعدات القتال: منذ نصف قرن لا يعمل أحد فى سبيل السلام!! لذا فإنه من السذاجة والصبيانية التساؤل عمن تقع عليه المسئولية عن هذه البشاعة، أو عمن هو الطرف المذنب بين الدول ومن هو الطرف البرىء؟ لاتوجد تفرقة ممكنة بين الحروب الهجومية والحروب الدفاعية؛ وكل من الحكومات يبرز وثائق لا تقل فى مصداقيتها عن تلك التى يبرزها الطرف الآخر، سواء فى برلين أو فى فيينا أو فى باريس أو فى لندن أو فى بطرسبورج! والحضارة، من ذا إذن الذى يستطيع الآن أن يدعى أنه يمثلها؟ الدولة الألمانية بآلتها العسكرية الهائلة؟ أم الدولة الروسية ذات السجل الحافل بأحكام الإعدام والنفى إلى سيبيريا؟ فرنسا بغزواتها الدامية لمدغشقر ومراكش وتجنيدها الإجبارى لأبناء أفريقيا السوداء وساحات الإعدام حيث تبعث بأبنائها هى الذين يرفضون القتال، والتى تحتجز فى معتقلاتها أناسا لمجرد أنهم عبروا عن آرائهم المناهضة للحرب قولا وكتابة؟ أم بريطانيا التى تستغل أبناء الشعوب فى إمبراطوريتها الاستعمارية الشاسعة وتفرق بينهم؛ كى تسود هى، وتجيعهم وتقهرهم؟" وحمل البيان توقيعات خمس وثلاثي شخصية من بينها ألكساندر بركمان وإما جولدمان، الأمريكيان موطنا فقط لأن كلا منهما ولد فى روسيا؛ وهذه النقطة لها أهميتها لأنها التى شكلت النهاية المأسوية لنضال هذين المتحابين على أرض الولايات المتحدة، ففى الحادى



برنارد شو

والعشرين من ديسمبر سنة ١٩١٩ جمعت سلطات الادعاء الأمريكية مئتين وخمسين من مواطنى الولايات المتحدة المولودين على أرض روسيا، ومنهم ألكساندر بركمان وإما جولدمان؛ ليجرى ترحيلهم إلى روسيا السوفيتية، ولم يعرف شىء عن استمرار نضالهما هناك فى سبيل الإنسانية، وإن ظل كتاب إما جولدمان "الحرثية ومقالات أخرى" يعاد طبعه فى الولايات المتحدة حتى السبعينيات من القرن العشرين. ولكن فى سنة ١٩١٥ تلك التى لا تفتأ تفرض نفسها علينا: كان ألكساندر قد انتهى لتوه من قضاء فترة عقوبته فى السجن بتهمة الشروع فى القتل، وكانت إما قد قضت منذ زمن سنتين فى السجن عقابا لها على "التحريض على الشغب"؛ فقبض عليهما بتهمة معارضة الخدمة العسكرية وأودعا السجن من جديد، وقبل صدور الحكم عليهما خاطبت إما جولدمان المحلفين قائلة

نداء العدالة

[illegible]

[illegible] تقوم على عيون [illegible] للعسكرية وعلى استعبا[illegible] ثم اقتصاديا، ديموقراطية ترتوى من دما الرجال ودموع النساء والأطفال ليست بديموقراطية على الإطلاق، بل الاستبداد بعينه!!"

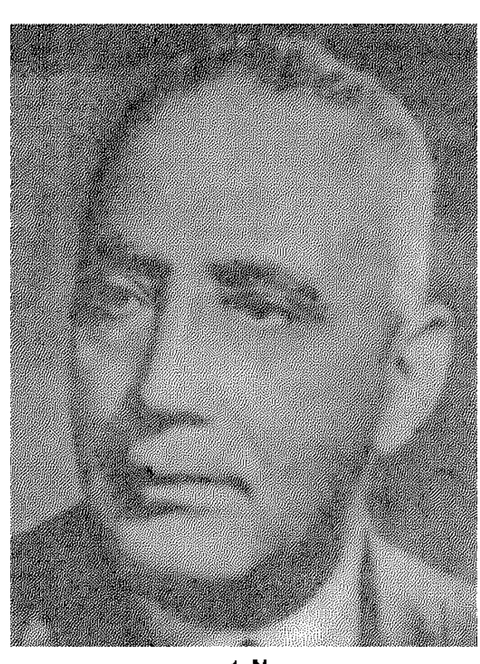
وقد وضعت الحرب أوزارها فى نوفمبر سنة ١٩١٨، وبعد أن مات فيها من الأمريكيين خمسون ألفا، وكان من أعلام الكتاب الأمريكيين الذين أعربوا فى أدبهم عن سخطهم على الحرب جون دوس باسوس وإرنست همنجواى، وتضاعف هلع السلطات الأمريكية من مناهضى الحرب من بين التقدميين والحرثيين: وفى ربيع سنة ١٩٢٠ قبض على عامل بمطبعة عرف باتجاهه الحرثى اسمه أندريا سالاسيدو، واحتجز طيلة ثمانية أسابيع فى مكاتب "إدارة التحقيقات المركزية" فى مقرها بالدور الرابع عشر من إحدى بنايات نيويورك دون أن يسمح له بالاتصال بأقارب أو بمعارف أو بمحام، ثم وجدت جثته مهشمة على الرصيف المجاور للمبنى؛ وقالت إدارة التحقيقات إنه انتحر بإلقاء نفسه من إحدى نوافذ الدور الرابع عشر. ولما عرف اثنان من أصدقاء سالاسيدو وشركائه فى المبدأ - هما نيكولو ساكو وبارتولوميو فانزتى - بمصرعه آلى كل منهما على نفسه ألا يسير إلا مسلحا؛ وقد قبض عليهما فى مدينة بروكتون بولاية ماساشوستس

[illegible] فى السجن [illegible] خلايا العرائض تتدفق [illegible] بأن النهـ[illegible] لفقت لهما فقط بسبب مبادئهما وأصولهما الأجنبية. وانتهت بإعدامهما على الكرسى الكهربائى. وقد ترك نيكولو ساكو رسالة لابنه دانتى قال له فيها "إذن يا بنى، فبدلا من أن تبكى: كن قويا: حتى تستطيع أن تواسى أمك... امض بها إلى جولات تتنزهان خلالها مليا فى الريف الهادئ؛ لتجمعا الزهور البرية هنا وهناك... لكن تذكر دائما يا دانتى وأنت فى سعادة اللعب ألا تغترفها كلها لنفسك وحدك... عاون المضطهدين والضحايا لأنهم الأفضل من بين أصدقائك... فى هذا النضال فى سبيل الحياة ستجد المزيد، واحبب فستجد من يحبك."

هذه الرسالة، كما يقول المؤرخ والكاتب المسرحى الأمريكى هوارد زن فى كتابه الجميل "تاريخ شعب الولايات المتحدة" (وأجمل ما فى الكتاب عنوانه: "تاريخ شعب..." لا تاريخ سلطات ومؤسسات! أ.ع.ب.) لاتنتمى إلى الماضى وحده، بل ولا إلى الحاضر وحده، وإنما إلى المستقبل أيضا: إنها تنير الطريق لنا جميعا وإن كانت آخر كلمات رجل صار الآن إلى ذمة التاريخ! هى كرسالة استودعت زجاجة ألقيت فى البحر المحيط!! من يعثر عليها فى الخضم عليه أن يتذكر أن من يحب يجد من بادله الحب. أما من يكره؟ لقد نتج عن قرارات

الرئيس الأمريكي ترومان مقتل ملايين عديدة في آسيا، وعن العمليات التي أمر بها كل من الرئيسين ليندون جونسون ونيكسون - في ما كان يسمى بالهند الصينية - هلاك نحو ثلاثة ملايين، وغزا ريجان جرانادا، وهاجم الرئيس بوش (الأب) بنما ثم العراق، وقصف كلينتون أفغانستان والسودان، ثم العراق مرات ومرات؛ وماذا كانت النتيجة؟ هجمات الحادي عشر من سبتمبر المدانة بكل معاني العدل والعقل والمنطق.

قبل أحداث سبتمبر الشنعاء بسنوات ثلاث كتب روبرت بومان في مجلة "ناشيونال كاثوليك ريبورتر" مقالا قال فيه "نحن (أبناء الولايات المتحدة الأمريكية) لسنا موضع الكراهية لأننا نمارس الديموقراطية أو نعلي من قيمة الحرية أو نساند حقوق الإنسان؛ وإنما لأن الواحدة تلو الأخرى من حكوماتنا جرت على إنكار هذه الأمور على بلاد العالم الثالث التي تطمع منشآتنا التجارية المتعددة الجنسيات في مواردها. تلك الكراهية التي بذرناها تعود الآن في هيئة الإرهاب؛ كي تقض مضاجعنا... علينا - بدلا من أن نرسل أبناءنا وبناتنا إلى أرجاء العالم ليقتلوا الناس حتى نستطيع أن نحوز ما تحت رمال هؤلاء من نفط - أن نرسل من أجيالنا اللاحقة من يعيدون بناء البنية الأساسية التي خربتها الأجيال السابقة منا، ولكي يمدوا تلك البقاع بالماء النقي ويطعموا الأطفال الجوعى. باختصار علينا أن نفعل الخير بدلا من الشر؛ ومن ذا الذي سيحاول منعنا؟ من ذا الذي سيكرهنا؟ من ذا الذي سيبغي أن يقصفنا؟! هذه هي الحقيقة التي ينبغي على الشعب الأمريكي أن يلقي بسمعه إليها."



سلامه موسى

إن روبرت بومان هو أصلا ضابط كبير في قوة الطيران الأمريكية، قاد طائرته في أجواء فيتنام لينفذ من المهام القتالية ما تجاوز عدده المئة: بواحدة (بالتحديد!!) ثم انخرط في سلك الرهبنة الكاثوليكية! وقديما كان الفيلسوف أفلاطون - حين تعرض في محاوراته للسياسة - يقيس الدول على الأفراد؛ فيقول إن الحكماء يماثلون الرؤوس والزعماء الشجعان يماثلون القلوب والمقاتلون يماثلون الأذرع الضاربة؛ فما أجمله من حلم حين نتطلع إلى الولايات المتحدة، التي طالما تطلعنا إليها التماسا للعلم ولمثل الديموقراطية والتقدم والتحضر الحقيقي، فنجدها قد ماثلت فردا من أبنائها هجر الحرب إلى الحب، وكتب يدعو إلى فعل الخير بدلا من الشر.

ماذا تقرأ فرنسا الآن؟

فى السبعينيات من القرن العشرين أصدر ديفيد كوبر من لندن التى كان فيها يعيش ويعمل بالطب النفسى آنئذ، كتابه "أفول الأسرة" الذى قال فيه إن الأسرة مسئولة عن نشوء الفرد ثم مضيه فى حياته وهو ضحية حالة من الإذعان؛ إذ أن الأسرة تمثل تجسيدا مصغرا للسلطات القمعية التى يواصل الإنسان حياته متهيبا إياها، وبذا تولد أجيال وأجيال من البشر تتشابه كلها فى قبول الأمر الواقع على علاته وتفتقد روح التمرد (الإيجابى) على الواقع كما تفتقد الحس النقدى والطموح إلى التغيير. هذا من ناحية العلاقات الرأسية بين البشر، أى اختيار الفرد موقعه فى سلم القيادة: هل يقود أم يقاد؟ أما من ناحية العلاقات الأفقية، أى علاقة الفرد بأقرانه فى المجتمع: فقد استشهد ديفيد كوبر برأى لفرويد قال فيه إن الواحد منا يحمل طيلة حياته انطباعاته الأولى التى جاءته من أسرته التى لم يختارها، أى أبواه وأجداده إن عرفهما، أو إخوته إن وجدوا؛ ثم يطبق الأحكام التى استخلصها من صورها الغائمة على الأسرة التى يختارها، أى زوجته وأطفاله فيما بعد ثم أيضا معارفه؛ فلا يفعل أكثر من إدراج من يعرفهم من البشر فى سلسلة متشابهة الحلقات، وتفوته المعرفة الصائبة بالبشر على حقيقتهم؛ لذا فإن أكثر الناس نجاحا فى حياتهم، والأقدر من غيرهم على سلوك حياة سوية هم الذين استقلوا عن الأسرة فى وقت مبكر!

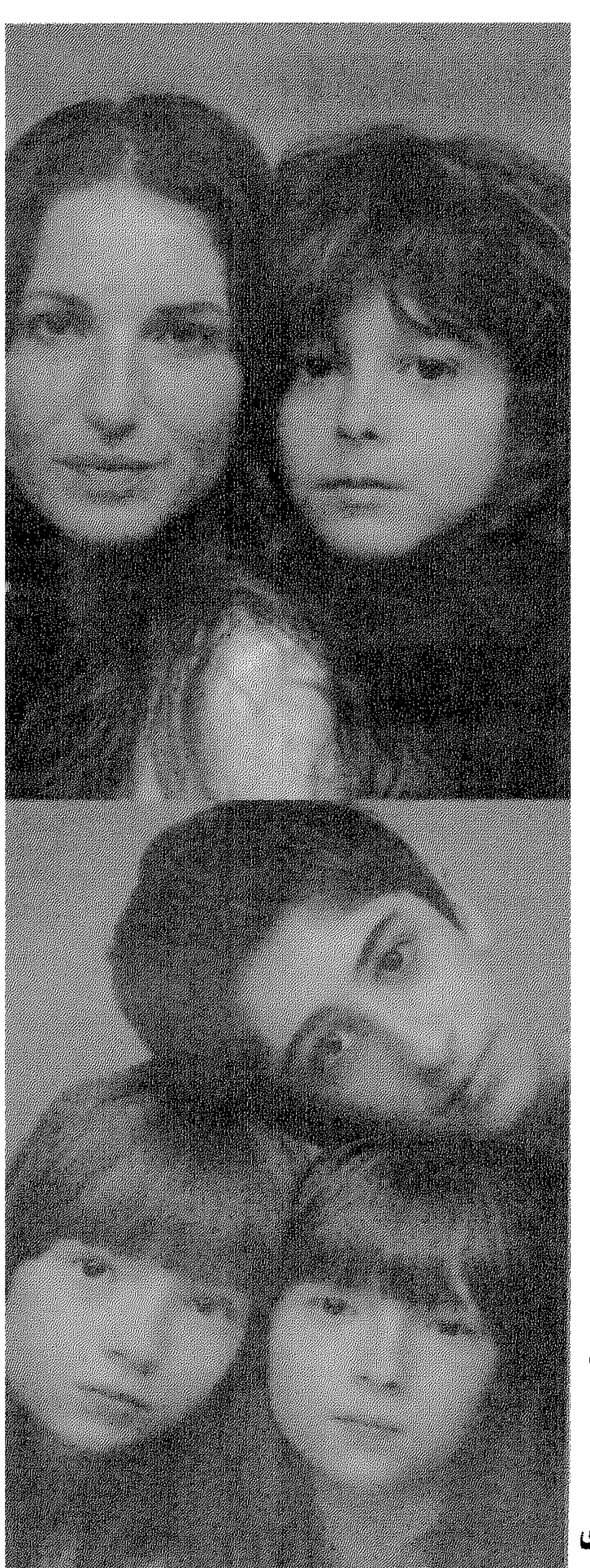
ترى هل يكون السبب فى ما قامت به أخيرا دار النشر الفرنسية التقدمية "سوى" من تكليف من ينقل هذا الكتاب إلى الفرنسية هو أن كثيرا من الفرنسيين باتوا فعلا يستقلون عن أسرهم فى وقت مبكر؟ ولكن هذا لا يرجع إلى إرادة منهم أو طموح أو إلى كون واحد منهم أو أكثر نموذجا لـ"الطفل المعجزة"، قارئ كتاب ديفيد كوبر ومستوعبه ثم العامل بما فيه!! بل يرجع إلى الطلاق بين الأبوين؛ وبذلك يحقق الفرد الفرنسى من صغره "نصف استقلال"؛ إذ يعيش إما مع أمه فقط أو مع أبيه فقط! وقد أثبتت أحدث الإحصائيات أن أسرة فرنسية من كل خمس أسر تتكون من عائل وحيد وذريته، وفى ست وثمانين فى المئة من

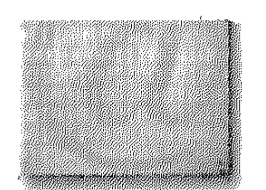


الحالات يكون هذا العائل الوحيد هو الأم.

ولكن إذا كانت الحياة الفرنسية تفاجؤنا كل يوم بجديد، فإنها على الأقل قد عودتنا على شيء واحد: هو أن نفاجأ! فمنذ الرابع من مارس سنة ٢٠٠٢ بدأ العمل بقانون جديد أحدث ثورة وثورة مضادة! وهو القانون الذى يبيح للقاضى الأمر بتقسيم وقت الطفل "بالعدل والقسطاس" بين الأبوين المطلقين!! ولكن القضاة - لحسن حظ الأطفال - لم يستخدموا حقهم فى الأمر بتطبيق هذا القانون سوى فى عشر من كل مئة حالة عرضت عليهم. أما الأطفال الذين حكم عليهم بهذا الوضع فهم أمام خيارين: أن يتمردوا عليه ويطلبوا حماية جمعية للأطفال تأسست حديثا خصيصا لهذا الغرض: التصدى للعمل بالقانون الجديد، وسميت جمعية "الطفل أولا"، أو أن يرضوا به وعندئذ فعندما يبلغون سن النضج سيمكن لنا بفضلهم أن نتعرف على صفات جيل جديد أمضى طفولته وصباه متنقلا بانتظام بين مسكنين؛ ومن ثم تتاح لنا قدرة أكبر على تقييم كتاب ديفيد كوبر،والذى سيكون عند بلوغ هذا الجيل رشده قد ترجم إلى مزيد من اللغات، قد يكون من بينها العربية!

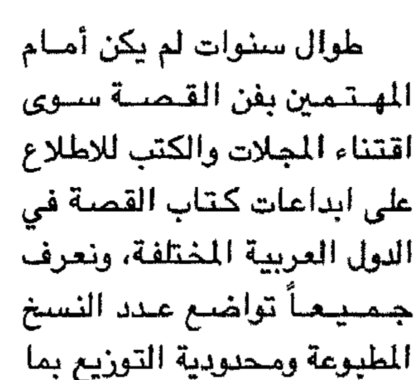
أحمد على بدوى





شبكة القصة العربية

□ ياسر شعبان





طوال سنوات لم يكن أمام المهتمين بفن القصة سوى اقتناء المجلات والكتب للاطلاع على ابداعات كتاب القصة في الدول العربية المختلفة، ونعرف جميعاً تواضع عدد النسخ المطبوعة ومحدودية التوزيع بما يجعل أقصى طموح للكاتب أن يطلع عليه بضعة آلاف من القراء من خلال تداول الألف أو الثلاث آلاف نسخة التي تطبع لكتابه. كذلك كان الباحثون والنقاد يواجهون صعوبة شديدة عند السعي لإعداد دراسة عن القصة العربية، لصعوبة تجميع النصوص والإحاطة بكتاب القصة من مختلف الأجيال.

ومع بداية الألفية الثالثة، ظهر على الإنترنت موقع اسمه " شبكة القصة العربية"، مع دعوة طموحة لكتاب القصة العرب أن يشاركوا في هذا الموقع ليصبح بوابة للقصة العربية تتيح لمن يعبرها أن يطلع بضغطة زر كمبيوتر على نماذج من الإبداع القصصي في أية دولة عربية وفي أي وقت يختار.

المؤسس

والمدهش في الأمر أن مؤسس هذا الموقع لم يكن مؤسسة أو اتحاد كتاب أو دار نشر كبرى، بل كان كاتب قصة عربي من المملكة العربية السعودية، وهو القاص " جبير المليحان الذي لم يسبق له نشر مجموعات قصصية مطبوعة قبل إنشاء هذا الموقع، ليأتي نشر أولى قصصه من خلال الموقع طوال ثلاث سنوات (من عام ٢٠٠٠ إلى عام ٢٠٠٣)، ثم تصدر له مجموعة قصصية للأطفال بعنوان " كتاب الهدية" في عام ٢٠٠٣ والذي طبعت منه ١٥٠ ألف نسخة توزع مجاناً تحت رعاية شركة الزيت العربية السعودية " أرامكو"وله تحت الطبع مجموعة قصصية بعنوان " الوجه الذي من ماء". وتقديراً لدوره، قرر وزير الثقافة والإعلام السعودي تعيينه عضواً في مجلي إدارة النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية، ليتم انتخابه لاحقاً رئيساً لهذا النادي.

إطلالة

شبكة القصة العربية -arabicsto

□ كاتب ومترجم من أسرة الهلال



TV.net مشروع ثقافي عصري يضم البرامج الثقافية التالية

- موقع القصة العربية الخاص بنشر النصوص القصصية والتعليقات حولها والدراسات النقدية.

- مكتبة الإصدارت القصصية الجديدة.

- منتدى القصة العربية الحواري.

- سلسلة مطبوعات القصة العربية. وهي عبارة عن كتب ورقية دورية تصدرها شبكة القصة العربية.

إمكانية البحث

- يتيح الموقع إمكانية البحث عن القصص بثلاثة طرق. اسم الكاتب أو اسم القصة أو البلد. فعند البحث باسم الكاتب تظهر القصص الخاصة به مع عدد القراءات والتعليقات الخاصة بكل قصة. أم عند البحث باسم القصة، يتم عرض القصة التي تم البحث عنها فقط. وأخيراً عند البحث باستخدام اسم البلد تظهر أسماء كل كتاب القصة المنتمين لهذا البلد والمشاركين بهذا الموقع.

- المنتدى الخاص بالموقع، فيتطلب الدخول إليه التسجيل في الموقع " الاسم وكلمة مرور".

جبير الملحان

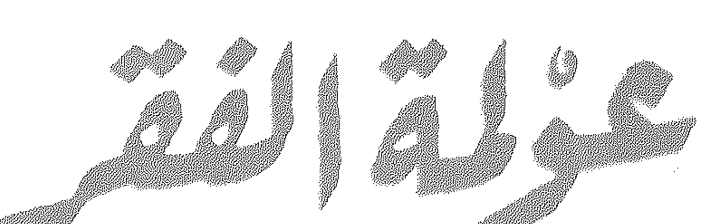
ويعد هذا المنتدى فضاء للحوار الابداعي الحر والخلاق بين الكتاب والقراء من مستخدمي الانترنت، بما يضفي الحيوية على الموقع ويتيح إمكانية التطوير الدائم للأفكار وأساليب الكتابة والنشر، وكذلك لتطوير الموقع ذاته.

- أما مكتبة الموقع فتضم :

١- الإصدارت الجديدة للكتاب المشاركين بالموقع، سواء كانت مجموعات قصصية أو دراسات نقدية عن أحد كتاب القصة أو مجموعة من الكتاب.

٢- سلسلة مطبوعات القصة العربية، وهي كتب ورقية دورية تصدر عن شبكة القصة العربية.

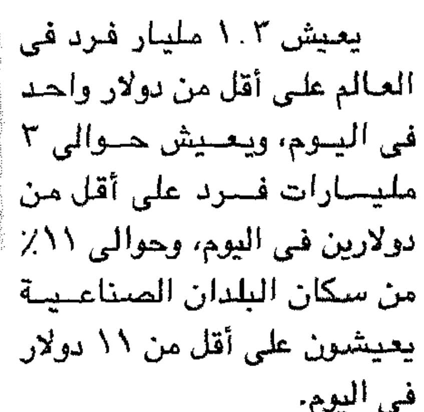
عنوان الموقع:
www.arabicstory.net



المطرودون لا يدخلون جنة العولمة

د. محسن خضر □





يعيش ١.٣ مليار فرد في العالم على أقل من دولار واحد في اليوم، ويعيش حوالي ٣ مليارات فرد على أقل من دولارين في اليوم، وحوالي ١١٪ من سكان البلدان الصناعية يعيشون على أقل من ١١ دولار في اليوم.

هذه محصلة وصفة الخلاص السحرية المسماة بالعولمة، وحيث انضمت مناطق جديدة من العالم إلى ما تحت خط الفقر في التسعينيات بعد تطبيق سياسات التكيف الهيكلي المعروفة حركيا باسم الإصلاح الاقتصادي وفي العامين الأخيرين فقط زاد عدد الفقراء الذين أضيفوا إلى قائمة فقراء العالم في جنوب شرق آسيا بعشرات الملايين من الأفراد، وتضخم فقراء الاشتراكية السابقة فزادوا بمقدار ١٧٠ مليونا خلال هذا العقد، وليس هناك باب سحري للخروج من الفقر حتى الآن يمكن الوثوق به.

ويعترف «فيددريكو مايور» مدير عام منظمة اليونسكو السابق بأن تيار عدم الاستقرار يرتفع بشكل منتظم، حتى إن الناس الذين لم يكونوا أبدا فقراء أصبحوا لا ينظرون إلى الفقر كشيء بعيد عنهم، بل كتوقع قريب قد يداهمهم في أي لحظة.

لاتزال الفجوة بين دخل أغنى ٢٠٪ من سكان العالم الأكثر ثراء، وبين دخل أفقر ٢٠٪ من سكان العالم شاسعا، بل زاد أكبر من الضعف طبقا لإحصائيات الأمم المتحدة.

نستعيد جوهر العولمة: التنافس المكثف في السلع والخدمات، وأسواق رأس المال بين الأطراف الفاعلة، وحيث تجري العولمة وفقا لقواعد يضعها الأقوياء، وتقصي الضعاف والفقراء، ولذا فإن عولمة التفاوت وعمولة الفقر والبطالة والجريمة المنظمة والعنف الفردي والعرقي، وعولمة الأيدز وتجارة المخدرات هي وجوه العولمة الأخرى.

عرف الفقر في وقت مبكر بأنه هدر للحياة الإنسانية ولم يعد تعريف الفقر هو تعريف البنك الدولي بأنه يقل عن دخل دولار في اليوم للفرد، فقد لا يكفي خمسة دولارات لمعيشة لائقة للفرد في اليوم الواحد.

□ كاتب وأستاذ جامعي



امتدت عولمة الفقر Global Poverty لتشمل جميع المناطق الأساسية فى العالم بما فيها أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية، وبلاد الاتحاد السوفييتى السابقة، والبلدان الآسيوية الناشئة ، وظهرت المجاعات فى أفريقيا جنوب الصحراء، وعادت الأوبئة فى الظهور فى آسيا وبعد غياب، كمرض السل الرئوى والملاريا والكوليرا .. ويعانى أغلب سكان الاتحاد الروسى نفسه بعد تطبيقه الإصلاح الاقتصادى، والذى أدى إلى تراجع الإنتاج الإجمالى الروسى ٤٤٪ بالمقارنة من إنتاج ما قبل الحرب العالمية الثالثة.

تحت خط الفقر

ويعانى ٩٠٪ من البلغار من الفقر، حيث تعيش هذه النسبة تحت خط الفقر، إن تقارير خبراء البنك الدولى وصندوق النقد الدولى تبشرنا بأن الإصلاح الاقتصادى قد يكون سببا كافيا لتحسين أحوال الفقراء، وإن كان النمو الاقتصادى شرطا ضروريا لتحقيق هذا التحسن. إن ثقة هذه التقارير بأن النمو الاقتصادى الذى يحققه الإصلاح الاقتصادى بالضرورة يعتمد فى الأساس على تجربة الغربية خلال قرنين، ومؤداها أن توزيع الدخل يميل إلى الابتعاد عن المساواة وهذا ما تعبر عنه نظرية التساقط إلى أسفل أى أن ثمرات النمو لابد لها بعد مرحلة معينة أن تصل إلى الفقراء فليس هناك ضمان أن يتكرر نفس الأمر فى ظروف مختلفة، فى ثقافات شعوب مختلفة.

لقد قال «فولتير» ذات مرة: إن بإمكانك أن تقتل قطيعا من الغنم بممارسة بعض أعمال السحر أمامها ولكن على شرط أن تضع فى طعامها فى الوقت نفسه جرعة كافية من السم!

وبذلك المنطق السابق يمكن القول بأن سياسة التحرير الاقتصادى والانفتاح يمكن أن يترتب عليها نفع للفقراء، ولكن بشرط أن يصاحب تطبيق هذه السياسة إجراءات لحماية الفقراء المتضررين، ربما يكون المنطق الحقيقى لسياسات التكيف الهيكلى هو ضرورة تعويم الاقتصادات ذات الدخل المنخفض للبلدان المتأخرة والمتخلفة اقتصاديا، وانقاذها من بحر

عولمة الفقر

[illegible] والأخذ بيدها [illegible] صناعي المتقدم، وتعني [illegible] التصحيح الهيكلي بوجه عام الانفتاح على السوق الدولي وجذب رؤوس الأموال الأجنبية وإلغاء الرقابة على الأسعار وإلغاء الدعم وتخفيض انفاق الميزانية وخاصة في مجال التأمين الاجتماعي والتعليم، وتخفيض عدد الموظفين والضرائب المفروضة على المشروعات الاستثمارية ورأس المال والثروات الكبيرة، وخصخصة المؤسسات وإلغاء الشروط على العمل والأجور.

عنت العولمة وفي القلب منها سياسات التثبيت والتكيف الهيكلي تقلص دور الدولة إلى حده الأدنى وهو خط الفقر، وانتهاء عهد دولة الرفاهية welfare state وأصبحت الأدوات الرئيسية في هذه السياسات الاستقرار المالي والتخلي عن التنظيم وخصخصة المؤسسات العامة، وإصلاح الموازنة وتحديد السياسات القطاعية.

لقد كشفت دراسة للبنك الدولي أجريت على ١٩ بلدا في الثمانينيات أن النتائج المتحققة من سياسات التصحيح الهيكلي كانت ضعيفة بالنسبة لنمو الصادرات أو استقطاب الاستثمارات الأجنبية.

لم ينج من خطر الفقر سكان أوروبا والولايات المتحدة مثلها مثل سكان الجنوب، وتشابه ارتفاع وفيات المواليد والبطالة والتشرد في بعض الجيوب والتجمعات الأوروبية مع مثيلتها في إفريقيا وآسيا، وتشير الإحصاءات الرسمية إلى أن ١٣.١٪ من سكان الولايات المتحدة يعيشون تحت خط الفقر، ونسبة ١٧.٢٪ من سكان كندا، و٢٠٪ من سكان بريطانيا، و١٧٪ من سكان إيطاليا وفرنسا، و١٣٪ من سكان ألمانيا حسب احصائيات ١٩٩٢ لمكتب المعلومات الأوروبية، ومن المتوقع ارتفاع نسبة الفقر في العالم في ظل إعادة تنظيم التجارة وتطبيق اتفاقيات الملكية الفكرية مما سيفسح المجال أمام الشركات متعددة الجنسيات للسيطرة على الأسواق وتهميش اقتصاديات الجنوب.

كانت قطاعات التعليم والصحة والعمالة أكثر تضررا بتراجع دور الدولة عن تقديم الخدمات الاجتماعية.

وتبلغ نسب الفقر في مصر «٧.٦٪» في الأردن «٢.٥٪» وفي المغرب «١.١٪» وفي تونس «٣.٩٪» أي الذين يعيشون على أقل من دولار في اليوم وإن لم تكن نسب دالة لأنها تغفل الفقراء الذين يعيشون في مستوى أعلى ولكن ينطبق على أوضاعهم حال الفقراء أيضا بمعنى العجز عن تأمين احتياجاتهم الأساسية.

وفي مصر يعاني نسبة ٢٣٪ من أطفال الحضر و٣٤٪ من أطفال الريف ممن تقل أعمارهم عن خمس سنوات من سوء التغذية.

وينفق ربع السكان ٧٥٪ من دخلهم على الغذاء، ولذا يتضررون من ارتفاع أثمانه فيلجأون إلى تخفيض استهلاكهم منه مما يؤثر على المستوى الصحي.

إن سياسات التصحيح الهيكلي وليدة



بيل كلينتون



فيدريكو مايور

الليبرالية الجديدة هدفها الرئيسى الدفاع عن مصالح أصحاب رؤوس الأموال، وتؤمن الليبرالية الجديدة إيمانا راسخا بقدرة النظام الرأسمالى بما يحققه التوظيف الكامل وقدرته على تصحيح أزماته بشكل دائم بشرط رفع الدولة عن التخلى فى سير الملكية الاقتصادية.

إن عبارة الرئيس الأمريكى كلينتون أن البلاد التى تتاجر معنا لا تتقاتل تكشف عن زيف الإدارة الأمريكية، وكذب ووهم فردوس اقتصاد السوق ، فهذه الجنة لا يدخلها إلا الأغنياء، أما الفقراء فيقفون خارجها ولا يدخلونها ، فانتشار نسب الفقراء داخل الولايات المتحدة نفسها يفند زيف هذه الدعوة ، ومظاهرات سياتل وديفوس تفضح هذا الوعد.

ويعترف سكرتير عام مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية «الاوتكتاد» «روبنز ريكوبيرو» بأن سجل النمو الاقتصادى فى التسعينيات كان سجلا كئيبا مقارنة بأعوام السبعينيات، بل الأسوء أن دخولنا عام ٢٠٠٠ لم يصاحبه وجود حل لزيادة خطورة أهم مشكلتين فى القرن العشرين: البطالة الجماعية، وعدم المساواة بين البلدان ودخلها أيضا.

ودعونا نتذكر فى النهاية حول التناقض فى توزيع الثروة فى العالم بأن ما ينفق على التعليم الأساسى فى العالم كله يتكلف ٦ مليارات دولار فى السنة مقابل ٨ مليارات دولار تنفق سنويا على التجميل فى الولايات المتحدة وحدها.

وشر البالية ما يضحك!

ضحايا العولمة

يجرفنا الحديث عن مزايا العولمة وتأثيرها السحرى إلى الحديث عن الوجه الآخر للعولمة فللعولمة ضحاياها وخسائرها الفادحة وخاصة على مستوى دول الجنوب.

ومن المهم الانتباه إلى ضحايا العولمة للتفكير فى الوسائل التى يمكن بها تضميد جراح العولمة وخاصة أن العرب والأفارقة سوف يكونون بالضرورة من بين هؤلاء الضحايا فلننطلق من تعريف اللجنة الأوروبية للعولمة بأنها «العملية التى عن طريقها تصبح الأسواق والإنتاج فى الدول المختلفة تعتمد كل منها على الأخرى بشكل متزايد بسبب ديناميات التجارة فى السلع والخدمات وتدفق رأس المال

والتكنولوجيا وهى ليست ظاهرة جديدة ولكنها استمرارية للتطورات التى تتابعت لفترة طويلة من الزمن».

فى مثل هذا التعريف أصبح تعظيم الفائض الاقتصادى يتم على مستوى العالم، يقود هذا التغيير الشركات متعددة الجنسيات إزاء الانحسار التدريجى لسلطة الدولة القومية وتحطيم الأنظمة الثقافية للمجتمعات القطرية، ومن ثم كما يقول «جوناثان فريدمان» أن الذى يقود حركة العولمة هو قوانين وآليات رأس المال وليس الثورة العلمية والتقنية.

إن العولمة الاقتصادية هى الرأسمالية وهى الشكل المتقدم لرسالة العالم أى التعميم الكونى للرأسمالية، وبالتالى سيطرة الاقتصاد وسلعته على العالم ويستند التراكم الرأسمالى المعولم على أساس الاحتكار التقنى والمالى والمعلوماتى والخدمى .

إن الحدود لم تعد السمة الأساسية للنظام الدولى الحالى بل أصبح العولمى هو المحلى وبحيث يستوطن العولمى ويكتسب طابع المحلى .

التجارة عبر الحدود

وأصبحت الاستثمارات المباشرة الخارجية أساسية فى تدويل الإنتاج والأسواق وزادت التجارة عبر الحدود فى السندات والأسهم بحوالى ٢٥٠٪ فى السنوات العشر الأخيرة فى بلدان منظمة التعاون الاقتصادى وزاد حجم التجارة على مستوى العالم ليصل إلى ١٢٠٠ مليار دولار فى اليوم، وبلغ مجموع الاستثمارات المباشرة الخارجية العالمية إلى ٢٨٦٦ مليار دولار، ولكننا معنيون بشكل أساسى بمعرفة الآثار الاقتصادية للعولمة، وليست الثقافية التى تحتاج إلى وقفة أخرى فماذا عن ضحايا العولمة؟

يمكن القول إن ضحايا العولمة فى الأساس الدولة القومية والحكومات الإقليمية فى الإقاليم والمحافظات، والتى تتحول لفقد نفوذها، والتحول إلى المنافسة لتقديم أكثر الحوافز لاجتذاب الرأسمال الأجنبى .

أما الرابحون من العولمة فى الأساس فهى الشركات متعددة الجنسيات « ١٦٠ شركة ضخمة مقابل ٤٠ حكومة دولة قومية تشكلان أهم القوى الاقتصادية الكبيرة فى العالم وكذلك المنظمات غير الحكومية والمنظمات بين الحكومية والإقليمية مثل السوق الأوروبية المشتركة والجماعات الخاصة النافذة مثل قوات الجيش والشركة والأصوليات الدينية وجماعات المافيا وجماعات الضغط».

لكن ماذا عن الوجه البائس للعولمة فهل سيؤدى النمو الاقتصادى وتدوير رأس المال إلى الرخاء للجميع أم أن عملية العولمة ستمضى بلا قلب تدوس فوق ضحاياها وخاصة فى مجال فرص التوظيف وتوزيع الدخل.

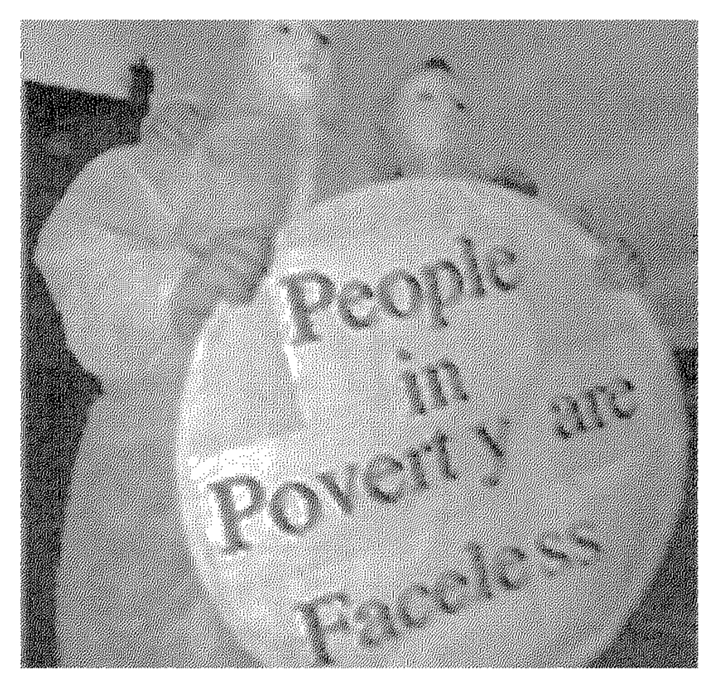
فحجم البطالة الصريحة فى الدول الصناعية بلغ ٨٪ من مجموع القوى العاملة، وأصبح ثلاثون فى المائة فقط من السكان هم الذين يعملون فى الحقيقة ، ونجح التقدم التقنى فى تقليل حجم العمالة

البشرية ومبدأها إنتاج كثير وجهد أقل. هذا ناهيك عن البطالة المقنعة والحالة إلى التقاعد والطلاب فى مراحل التعليم الذين سيضعون على سوق العمل فى القريب.

سياسات التوظيف

وعادة ما تقف الحكومات القومية عاجزة أمام جيوش المستبعدين من العمل وخاصة فى ظل قانون التنافس الأقصى، فسياسات التوظيف المرتبطة بالوضع العالمى باتت مغلولة الأيدى فى اختيار سياسات التوظيف ويزداد حاليا إعداد المستبعدين من العمل والمتعطلين فى مصر والمغرب والبرازيل والهند. أما الجانب الثانى فيتمثل فى فجوات الدخول فقط هبط نصيب أقل من ٢٠٪ من سكان العالم من الدخل العالمى من ٢.٣٪ إلى ١.٤٪ مقابل ارتفاع نصيب أكبر ٢٠٪ من السكان من ٧٠٪ إلى ٨٢٪ ويستأثر ٥٣ مليارديرا بنصيب من الدخل السنوى يفوق ما يحصل عليه ٤٢٪ من سكان البشرية، وهناك ١.٥ مليار من البشر يعيشون بأقل من دولار فى اليوم.

إن الدول الصناعية هى الرابحة الأكبر من عملية العولمة وخاصة بين الولايات المتحدة الأمريكية والتنافس الأساسى بين الولايات المتحدة واليابان والمجموعة الاقتصادية الأوروبية مما يجعل هذه الكتل هى الأكثر قدرة على الاستفادة من عملية العولمة، بسبب قوة اقتصاداتها ومتانة



ضد الفقر

مإسساتها وبنيتها التحتية، أما دول العالم الثالث فتعانى الانكشاف والتعرية إزاء الآثار السلبية للعولمة، بسبب ضعف هياكلها الإدارية والمؤسسية وتخلف سياساتها التعليمية والتقنية والتربوية، كما تعد مشكلة المديونية الخارجية التى تعانى منها دول العالم الثالث، تنهك اقتصادياتها وستؤدى العولمة إذن إلى توسيع الفجوة بين دول الشمال والجنوب وخاصة فى ظل غياب قواعد التنافس العالمى ، وتتمتع العولمة بالقدرة على توسيع النمو وكعكة الإنتاج، لكنها لم تتقدم فى حل مسألة اختلال عدالة التوزيع وعدم المساواة والتفاوت الاجتماعى ، ويشبه ضحايا العولمة المصارعين الرومان الذين يتقاتلون حتى الموت للترفيه عن السادة فى روما القديمة، ويقدمون التحية للقيصر قبل موتهم قائلين «مرحبا أيها القيصر» - إن هؤلاء الذين على وشك الموت يقدمون لك التحية.

وسوف يفجر التفاوت فى الدخول

ووجود فائز واحد حالات من السخط والاستياء بين الضحايا.

تحقيق العدالة

ولذا فالعولمة التى سيحدثها موت السوق بلا ضوابط أخلاقية سوف تزيد من شراستها تجاه افتراس ضحاياها مما يفرض الحاجة إلى تأسيس العولمة على قواعد وقوانين، وإلا تترك تعمل عملها بأسلوب عشوائى ومن المهم قيام العولمة على أسس اقتصادية وسياسية واجتماعية توجد شروطا جديدة للتعاون الإنمائى بغرض تحقيق الاستقرار والعدالة وحتى لا يعانى الخاسرون من ضحايا العولمة مصير المصارعين الرومان المهزومين فى حلبات إسعاد القيصر الرومانى وحاشيته.

هل تظل مسألة استئصال الفقر من العالم حلما بعيد المنال؟ خصص البنك الدولى تقريره السنوى عن التنمية فى العالم لموضوع «شن هجوم على الفقر» .. يعنى الفقر الحرمان من الغذاء والمأوى والتعليم والرعاية الصحية والتمتع بالحياة.

وقد سبق أن ربطنا العولمة بازدياد الفقر فى العالم. وبدت العولمة وكأنها تسييد لحالة الفقر حتى فى الدول الغنية.

تتفاعل الجوانب المختلفة من الفقر ويدعم كل منها الآخر، فنقص التعليم يؤدى إلى نقص الحالة الصحية، وتحسين الصحة يزيد من أمكانيات الدخل، والعكس صحيح.

يتحدد خط الفقر بـ «١٠٨٠» دولار يوميا، يجيب فقير كينى سألوه عن معنى الفقر لا تسألونى ما هو الفقر لأنكم التقيتم بى خارج مسكني. انظروا إلى بيتى وأحصوا عدد الحفر. وانظروا إلى أدواتى والملابس التى ارتديها . انظروا إلى كل شيء واكتبوا ما ترونه: إنه الفقر.

يلاحظ أنه فى الفترة بين ١٩٨٧ و١٩٩٨ انخفضت نسبة السكان الذين يعيشون على أقل من دولار واحد فى اليوم من ٢٨ فى المائة إلى ٢٤٪ فى المائة، وهو انخفاض أقل من معدل الجهود الدولية لانقاص الفقر المدقع بنسبة النصف بحلول عام ٢٠١٥ لم يتغير عدد الفقراء بسبب النمو السكاني، ولكنه اختلف فى توزيع الفقر فى مناطق العالم فقد نقص عدد الفقراء فى شرقى آسيا والشرق الأوسط وشمال إفريقيا، أما فى بقية المناطق فزاد عدد الأشخاص الذين يقل دخلهم عن دولار واحد فى اليوم.

وتبلغ نسب الفقراء فى العالم ٢٦٪ تقريبا، وتبلغ أعلاها فى إفريقيا جنوب الصحراء ٤٦٪ يليها جنوب آسيا ٤٠٪ أما نسبة البلدان العربية فتتمتع بنسبة فقر ١,٩٪ من السكان، ولكننا لانثق تماما لهذه النسبة لأنها تقيس المتوسط الذى يختلف من دولة عربية إلى دولة أخرى ارتفاعا وانخفاضا لو استخدمنا مفهوم الفقر النسبى.

يوجد فى العالم ٥٢٢ مليونا من الفقراء ، وقد ارتفعت نسبة الفقراء فى أوروبا وأسيا الوسطى من ١.١ مليون فقير إلى ٢٤ مليونا، وزاد فى إفريقيا جنوب الصحراء من ٢٧ مليونا إلى ٢٩١ مليونا خلال نصف الفترة أى أن نصف

[illegible] الفقر الافتقار إلى الموارد اللازمة للمشاركة في الأنشطة والتمتع بمستوى المعيشة المعتادة أو المقبولة على نطاق واسع في المجتمع الذي يجرى قياس الفقر فيه.

معاناة النساء الأكثر

ومن الغريب أن توزيع الفقر يميل لأن يرتبط بالبعد عن المدن والسواحل. وتعانى النساء من الفقر أكثر من الرجال، والريف أكثر من الحضر، وخلال فترات التحول إلى نظام السوق. ويتعدى الأمر إلى معدلات الصحة والتعليم والغريب أن هناك ١٢ دولة لا يحصل أبناء الفقراء فيها على أى تعليم كما تعانى الأقليات العرقية من حرمان أكبر، وكذلك السكان الأصليون في أمريكا اللاتينية.

كما زاد التحول إلى نظام السوق مدى حرمان الفقراء القدامى «أصحاب المعاشات التقاعدية، الأسر كبيرة العدد، الأسرة التى فقدت عائلها، كما أدى التحول إلى اقتصاد السوق إلى وجود فقراء جدد منهم المتعطلون لمدة طويلة، وعمال الزراعة، وحديثو التخرج من الجامعات والمدارس، اللاجئون، النازحون».

كان لانهيار الاتحاد السوفيتي السابق أثرا مدمرا على مستوى المعيشة إلى جانب انهيار النمو في أغلب بلدان العالم الثالث، والتضرر من الكوارث الطبيعية في القارات الاربع. أما الصين، فقد ساعد زيادة النمو على انخفاض أعداد الفقراء فيها بشكل كبير.

تتجاوز معاناة الفرد من الفقر - الحرمان المادى - والمستويات المنخفضة من الصحة والتعليم إلى العجز عن اتخاذ القرارات الحياتية وسوء المعاملة من جانب أجهزة الدولة، ومعاناته من الحواجز والعادات الاجتماعية، والعنف الشخصى والجماعى.

يطرح تقرير البنك الدولى برنامج عمل واسعا فى ثلاثة مجالات:

- تشجيع إتاحة الفرص الاقتصادية للفقراء.
- تيسير التمكين من أسباب القوة.
- تعزيز الأمن والنفس والصحى، والمادي.

أهم ما فى التقرير أنه يطرح مشكلة الفقر من منظور دولى يحمل الدول الصناعية المسئولية عن انتشار وتسييد

عزلة الفقر

الفقر فى العالم، ويدعو إلى المشاركة فى إقتسام مسئولية الفقر والوصول إلى سياسات تقيم عالما أكثر عدالة وتضامنا، يوصى التقرير صراحة لن يكون هناك غنى من تسخير القوى العالمية لصالح البلدان الفقيرة والفقراء.. وهناك حاجة إلى إجراءات لتعزيز الاستقرار المالى على الصعيد العالمى وضمان عدم ترك البلدان الفقيرة فى الصفوف الخلفية فى مجال التقنية أو فى البحوث العلمية والطبيعية.

ويجب أن تفتح البلدان الغنية أسواقها أمام منتجات البلدان الفقيرة، ولابد من زيادة المعونات وتخفيف عبء الدين من أجل مساعدة الفقراء على مساعدة أنفسهم.

يحدد تقرير البنك الدولى «شن هجوم على الفقر» اطاراً للعمل على الفقر أو تخفيضه يتضمن فى المحاور التالية:

– توسيع الفرص الاقتصادية أمام الفقراء.

– تخفيض تعرض الفقراء للمخاطر أى توفير الأمن لهم.

– التمكين من أسباب القوة أى زيادة قدرة الفقراء على التأثير على المؤسسات الحكومية التى تمس حياتهم.

– ترابط الفقر بين الداخل والخارج فى مواجهة تزايد الفقر.

– التعاون الدولى.

ليس الفقر محصلة عامل واحد بل محصلة عدة عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية.

المسئولية الدولية عن مكافحة الفقر مسئولية إنسانية مشتركة واعية، ولعل فى مناداة الدول الأفريقية فى مؤتمر مكافحة العنصرية «بدوربان» مؤخراً باعتراف الغرب بمسئوليته عن ظاهرة العبودية، ما يفتح الباب أمام وضع الجميع أمام مسئولياتهم (وإن كانت الأسباب الداخلية للفقر أساسية تتمثل فى الفساد والقهر والظلم الاجتماعى واحتكار السلطة)، إلا أننا نلاحظ أن التقرير يركز على أربعة مجالات رئيسية دولية للإقلال من عدد الفقراء.

* توسيع فرص الوصول إلى أسواق الدول الغنية أمام السلع والخدمات القادمة من الدول النامية.

* تقليل مخاطر الأزمات الاقتصادية.

* تشجيع إنتاج السلع العامة الدولية التى تفيد الفقراء.

* ضمان الاستماع إلى صوت البلدان الفقيرة فى المنتديات العالمية.

ما يجب أن نتفق عليه فى النهاية هو أن الفقر وإن بدأ مشكلة داخلية إلا أنه وليد اختلال النظام الاقتصادى العالمى، ومحصلة حقب طويلة من استنزاف مقدرات العالم الثالث وثرواته على يد الغرب، والدعوة إلى القضاء على الفقر تضامنية تنطلق من هذا الفهم: حساب المسئولية الوطنية عن سوء إدارة مجتمعاتهم، وحساب الغرب عن شروره وخطاياه معا.

هل كان سيدنا على بن أبى طالب يقصد عالمنا عندما أطلق صرخته المحتجة: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته».

دعوة للقضاء على الفقر

فى عالم ينتج أكثر من المطلوب لإطعام سكانه فإن ظاهرة أقرب إلى الفضيحة. وفى التقرير الأخير لمنظمة الصحة العالمية أشار إلى وفاة أكثر من عشرة ملايين طفل قبل بلوغهم سن الخامسة، وبسبب سوء التغذية (٥٣٪) من حالات الوفاة.

الطفل الإثيوبى عرضة للوفاة بثلاثين مرة عن الطفل الأوروبى، وترتفع وفيات الأطفال فى شرق أفريقيا (٤٢٪ من المجموعة)، وفى شرق آسيا (٢٩٪) من مجموع وفيات أطفال العالم.

ويصف تقرير لمجلة «لانسيت» الطبية الاحصائية السابقة بأنها «الاحصائيات الغير معقولة للقرن الحادى والعشرين».

وتبلغ نسبة وفيات المواليد الجدد ١٪ فى الدول الغنية، فى حين تستأثر دول الجنوب الفقيرة بـ ٩٩٪ من حالات الوفاة.

هل الفقر مسئولية الفقراء وحدهم؟

فى عالم يستأثر فيه مليار فرد فى الدول الغنية بـ ٨٠٪ من دخل العالم، تبدو الظاهرة مرتبطة بغياب العدالة فى النظام الاقتصادى. يعانى أكثر من نصف سكان العالم من الفقر، وذلك يعنى تجريد الإنسان من إنسانيته، ويضع العدالة الكونية فى قفص الاتهام... وجوب إلغاء الفقر هو الهدف الأساسى القادر على محوه، وحيث يحاول ٣ مليارات فرد يشكلون نصف سكان العالم مجرد البقاء على دخل أقل من دولارين يوميا.

يقتل الفقر فى عالمنا المرفه أكثر مما تقتل الحروب والرصاص. ولن يتوقف نمو الفقر إلا بالاعتراف به كانتهاك لحقوق الإنسان.

الحرية والكرامة

صحيح إننا بحاجة إلى الحرية، ولكننا بحاجة أكثر أن نسكت صوت معداتنا الفارغة، وإذا كان الإنسان - حسب ماهيته الإنسانية - لا يعيش بالخبز وحده، ولكن يعيش بالاضافة إليه بالحرية والكرامة، ولكن أليس من الكرامة

عولمة الفقر

الإنسانية أن نجد ما [illegible] وإذا كان إيجابياً أن نسب الفقر قد انخفضت خلال الأعوام الخمسين الأخيرة أكثر مما انخفضت خلال القرون الخمسة الماضية إلا أن الفقر لا يزال يشمل نصف سكان العالم. ويضع الاقتصادى الهندى الكبير «أماريتاسين» - الفائز بجائزة نوبل فى الاقتصاد سنة ١٩٩٨ معياراً للفقر:

إن الفقر مرتبط بدرجة المعاناة المعنوية التى يسببها، ويتمثل التحدى الحقيقى فيما يتعلق بالفقر فى زيادة قدرة الأفراد على الاختيار وبالتالى على حريتهم.

يتم حاليا استخدام ثلاثة معايير أساسية لقياس الفقر:

مدى انتشاره، ومدى عمقه، متوسط تفاوت الدخل لكل فقير بالمقارنة مع خط الفقر، وعدم المساواة فى الفقر (مختلف درجات الفقر)...

أنانية الأغنياء فى الدول الصناعية تفاقم الظاهرة لدى بلدان الجنوب: إن إنفاقها بنسبة ١٪ من دخلها كافية للقضاء على الفقر المدقع، أما تبرعها بنسبة ٣٪ من دخلها فكافية لاستئصال ظاهرة الفقر من عالمنا. التأكيد على اعتماد كل دولة، على قواها الخاصة، قبل كل شىء يتكامل مع مسئولية الأقطار الغنية تجاه القضاء على ظاهرة الفقر. ويأتى التعليم فى مقدمة كل استراتيجية طويلة الأجل للنضال ضد الفقر كما يرى فدريكو «مايورثاراجوتا»، مدير منظمة اليونسكو السابق، فالغالبية الساحقة من الفقراء محرومون من الحصول على المعلومات والمعارف التى يمكن أن تساعدهم على الخلاص من وضعهم المأساوى، ويعنى النضال ضد الفقر تهيئة خيارات للفقراء تمنحهم فرصة السيطرة على مصائرهم، وإذا تمثل تنمية الموارد البشرية، والارتقاء بنظم التعليم والتدريب أولويات لكل برنامج للنضال ضد الفقر كما يؤكد الاقتصادى الفرنسى «موريس جودبير».

المساعدات

يشير التقرير الأخير لمفوضية مؤتمر الألفية الثالثة حول الفقر فى العالم على الحاجة إلى ٥٠ مليار دولار من المساعدات الإضافية سنوياً لتخفيض نسبة الفقر فى العالم إلى النصف، وسبق لمؤتمر الألفية للتطوير أن حدد سنة ٢٠١٥ كسقف للقضاء على الفقر فى العالم (نسائل أنفسنا فى براءة: لو وجهت الولايات المتحدة اعتمادات حربية فى أفغانستان والعراق إلى مساعدة الدول النامية للقضاء على التخلف والحرمان، فكيف كانت ستبدو صورة الفقر فى العالم حالياً؟).

اليابان وحدها هى التى تلتزم بحصتها فى مساعدة الدول النامية.؟ يرتبط القضاء على الفقر بمكافحة الفساد فكثير من المساعدات التى وجهت للأنظمة الفاسدة ابتلعتها جيوب وأرصدة المسئولين الفاسدين، وبدا وكأن جشعهم يشكل سقفا يمنع المساعدات من الوصول إلى فقراء شعوبهم إلا قليلاً. وتشير تقارير غربية إلى أنه تظل مساعدات الدول الصناعية تافهة إذا ما قورنت بمداخلها (الفاينشيال تايميز ٢٠٠٥/٢/١٣)،

الحركات الاحتجاجية ضد عولمة رأس المال

وبصيغة أخرى فإن الاعتراف صراحة بأنه «كانت هناك مساعدات رديئة، أرسلت إلى بلدان غير مناسبة، ولأسباب غير مناسبة، ولتمويل مشاريع غير مناسبة».

اسقاط ديون الدول أكثر فقراً (٢٧ دولة معظمها فى أفريقيا) آلية مهمة للتحرك ضد فقر الجنوب، وهو ما يدفع الحاجة على مشروع مارشال لإفريقيا للتخفيف من حدة الفقر فيها. عارضت إدارة بوش اقتراحاً أوروبياً بمضاعفة حجم المساعدات التى تقدمها الدول الغنية للدول الفقيرة إلى ١٠٠ مليار دولار سنوياً مكتفياً باقتراح تحويل القروض المستقبلية التى يمنحها البنك الدولى لها إلى منح. ورفضت واشنطن تنفيذ خطة مارشال المقترحة لدعم اقتصاديات الدول الفقيرة.

تزيد العولمة من تفاقم الفقراء ومعاناتهم، وتتفق جميع الاحصائيات الدولية والمحلية على زيادة نسب الفقر فى جميع الدول التى طبقت برنامج التكيف الهيكلى والخصخصة، مما يكشف عن التناقض المرير بين زيادة غنى الأغنياء المستفيدين من العولمة، والتهام الشركات متعدية الجنسيات فى طريقها كل الحواجز والسدود، وإبقاء الفقراء تحت لافتات تدعو إلى أن مفاتيح الجنة الكوكبية فى أيدى مبشرى العولمة واقتصاديتها.

لا تنفصل الكرامة الإنسانية عن إشباع الحاجات الأساسية، وإذا كان تعريف الفقر بأنه «الحالة التى يكون الشخص من خلالها عاجزاً عن وسائل تلبية الرزق لنفسه (طعام، سكن، ملبس، رعاية صحية)، فإن الطريق لايزال طويلاً للقضاء على الفقر، وفى نظام معلوم ينطبق عليه قول السيد المسيح «من معه يعطى ويزداد، ومن ليس معه يأخذ منه»، وتكاد صورة «نفيسة» بطلة رواية «نجيب محفوظ» الشهيرة «بداية ونهاية» وصورة «محجوب عبدالدايم» بل روايته الأخرى «القاهرة الجديدة» تطلان من بين السطور

عولمة الفقر

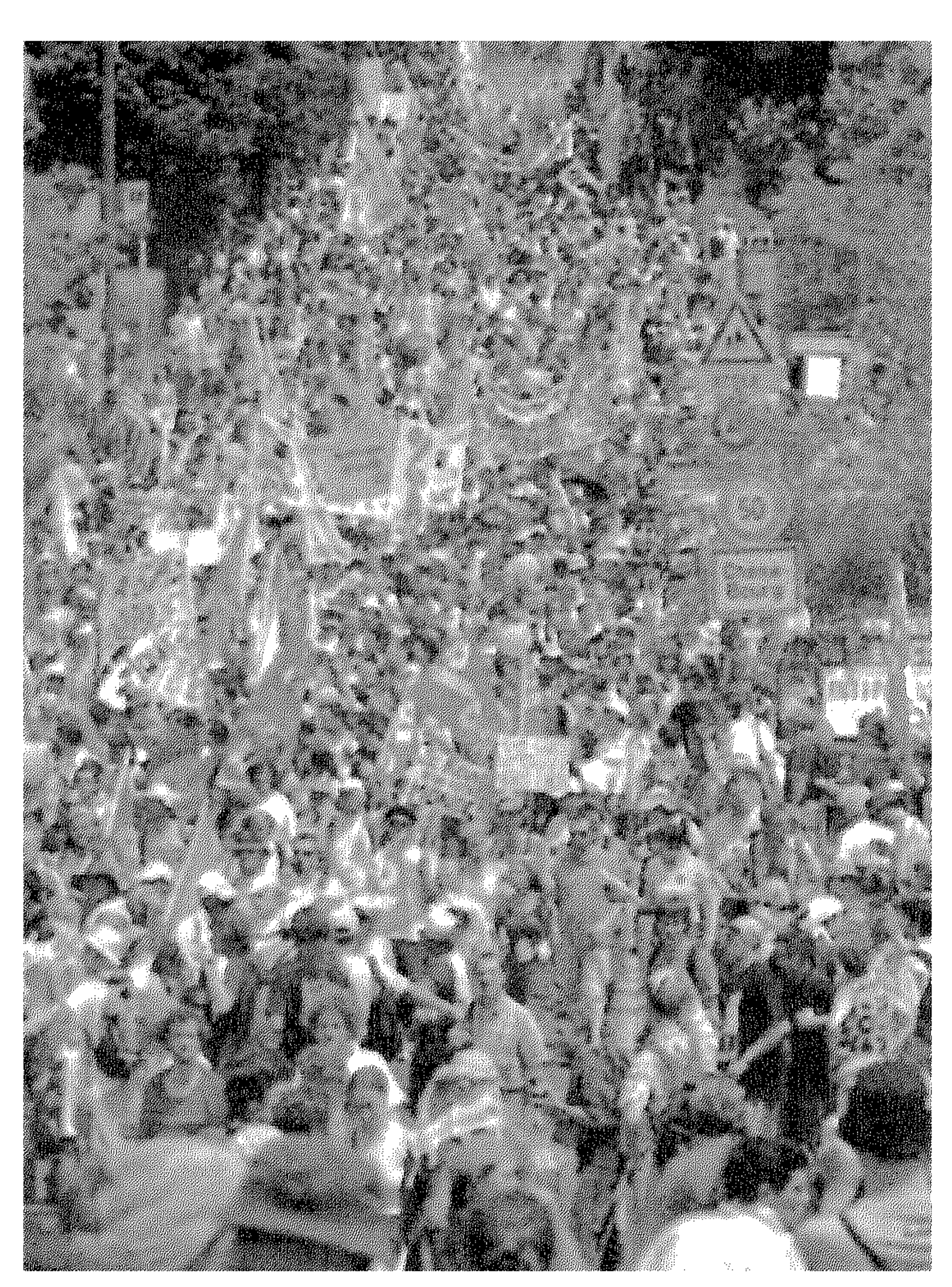
ولسان حالهما يقول مع «فدريكومايوز»: إننا لا نستطيع إرجاع الموتى، ولكن نستطيع أن نجعل المذنبين يدفعون الثمن.

النساء ضحايا العولمة

لا يلتفت الكثيرون من الباحثين العرب إلى موقع النساء من عملية العولمة وإذا كانت العولمة تعني ضمن، تعني ضغط العالم أو إلغاء الزمان أو المكان، وتعتمد على الاقتصاد الذى يسبح فى الفضاء السبيرانى، فإن النساء يقعن فى مقدمة ضحايا العولمة.

وثمة إحصائية مدهشة توردها المحللة الألمانية «ماريا هيز» فى كتابها «الأبوية والتراكم على نطاق العالم» تورد فيها أن ثلثى كمية العمل المبذول عالميا تقوم به النساء ولا يمكننا التجاوز عن النسبية الثقافية لأوضاع النساء العاملات، فلايزال البون شاسعاً فى تحقيق المساواة بين الجنسين على مستوى العالم، وتعانى النساء فى الجنوب من غبن نتيجة العمل ألغى مدفوع الأجر، وعدم المساواة فى الأجور، وأوضاع العمل اللإنسانية، واستغلالها فى التجارة الغير مشروعة، إلا أنه مع ذلك تعانى النساء فى العالم بأسره من أوضاع التمييز على مستوى العمل. تستوعب النساء فى الاقتصاد المعلولم، ولكنهن يهمشن ثانياً فى الوقت نفسه يرفع السوق شعار «إلى الخارج بسرعة» يهرع العاملون إلى أماكن العمل، ويأتى رأس المال إلى قوى العلم الرخيصة فى نفس الوقت. أنها أحد عمليات تلك «الرأسمالية التوربينية» حيث مصطلح المحلل العسكرى الأمريكى «أدوار دلوتووك» تشير الأمم المتحدة فى وثقائقها إلى ظاهرة «تأنيث العمل» لكن الثمن الذى يدفعه النساء العاملات فى سبيل ذلك يبدو فادحا: ظروف عمل بائسة، حقوق قليلة، أجور منخفضة، أمام ظروف الفقر تصبح النساء أكثر طواعية وقبولاً لأوضاع التشغيل البائسة.

لا ينتبه المستهلك الذى يتفاخر بارتدائه قميصاً أو حذاءاً رياضياً يحمل اسم شركة عالمية أن هذه القطعة صنعت فى ريف بنجلاديش أو منزل فقير فى فيتنام أو تايلاند أو فى الهند بأيدى النساء الريفيات الفقيرات. تأتى التصميمات من نيويورك أو بون أو لندن، تذهب إلى مورد محلى فى بلدان جنوب شرق آسيا أو أمريكا اللاتينية. يدفع المورد أو المتعهد بالطلبية إلى فئات المعامل الصغير البائسة. تستفيد الشركات المتعدية الجنسيات والشرهة من رخص الأجور فى بلدان الجنوب. تقضى السلع المستوردة الرخيصة على الإنتاج المحلى، والذى عرف طريقه إلى أفقر القرى، ومتاجر الأحياء الشعبية بعد الاجهاز على الصناعات المحلية. تموت الصناعة الوطنية نفسها فى المدن الأوروبية. أغلب هذه الصناعات الوطنية صناعات كانت تعمل بها النساء. أغلب أماكن العمل الجديدة تكون فى المنزل، وحيث تعمل المرأة نصف ساعات اليوم مقابل أجر زهيد، أصبح الاقتصاد العالمى أكثر ارتباطا بالطلب



العولمة .. رفض عالمى

على القوى العاملة الرخيصة والمرنة. تنتشر علاقات العمل الغير المحمية، وتختفى عقود العمل الثابتة. يشكل النساء فى ألمانيا ٩٠٪ من فرص العمل المؤقتة، وتبلغ النساء فى أوروبا ٧٨٪. تحارب الدول الغنية وجود تنظيم عالمى لقوانين العمل، ويجرى تمييع حقوق العمل، وتجاهل المخاطر الصحية البيئية.

تلاحظ الباحثة «كريستا فيشتريش» فى دراستها عن تأثير العولمة فى أوضاع النساء أن أصحاب الأعمال ينقلون العمل إلى المنازل والمعامل الصغيرة، وتلك تتحول إلى بدو رحل، وتختفى فى يوم واحد بعد انتهاء الطلبية، وتشبه الشركات عابرة

الحدود فى السوق العالمية الزائفة فى مراوغتها، ويقف العمال فى مواجهة مطاطى. ومن يجرؤ من النساء على المطالب بتحسين ظروف العمل يغلق الباب فى وجوههن، ويفصلن، وتتداول الشركات قوائم أسمائهن باعتبارهن من المشاغبات. تتسارع الشركات الشرهة للبحث عن القوى العاملة الرخيصة خلف البحار. ثلثا عمل النساء فى العالم عمل غير مدفوع الأجر وخاصة فى الزراعة، والعمل المنزلى/والرعاية: تقدره بعض الدراسات بـ ١١ مليار دولار أى نصف الإنتاج الاجمالى السنوى فى العالم.

ثمة ملاحظة متكررة من الوقائع المصاحبة للقوانين التى تفرضها العولمة هو «تأنيث الفقر» بمعنى أن النساء يشكلن القسم الأكبر من فقراء أوضاع العولمة «ف ٧٠٪ من فقراء العالم من النساء» لأن المرأة أول من يطرد من سوق العمل حيث تزيد نسبة البطالة، وإذا كانت المؤشرات تزيد من فرص العمل للنساء فهى زيادة فى الأعمال المؤقتة أو ذات الأجر المنخفض وذات الظروف البيئية والخالية من الضمانات، وهو ما يدفع بهن إلى الشارع فى حالة التذمر، أو الإنجاب أو انتهاء الانتاج المؤقت، وهو ما يؤازره كون المرأة عامل أساسى فى التركيب الطبقى الأموى للمجتمع الرأسمالى.

فى كل المجتمعات تقف النساء والشيوخ على رأس سلم الفقر، فى بلد غنى كانجلترا تشكل النساء ٦٠٪ من الفقراء لكون ثلاثة أرباع النساء العاملات ينتمين إلى مجموعة الدخول المنخفضة.

ربما يكون أمل النساء فى اتساع قطاع الخدمات أن يفضى إلى تحقيق المساواة، فحوالى ٨٠٪ من النساء العاملات الأوروبيات يعملن فى قطاع الخدمات، ولكن أغلب عمل النساء موقت حيث تعمل – على سبيل المثال – ٩٠٪ من الأعمال المؤقتة تؤديها النساء. وتنخفض نسبة عمالة النساء فى مجال الخدمات فى أوروبا ٨٠٪ لايزال الفرق فى الأجور يصل إلى ٤٠٪، وإزداد تقسيم العمل بين الجنسين لصالح الذكور، وحيث تظل النساء حبيسات أنواع العمل متدنية الأجور تعانى أغلب النساء العاملات من إزدواجية: احترامهن لدخلن من العمل، واحتقارهن من جهة أخرى بسبب تمردهن على التقاليد المحافظة فخروجهن مفردات إلى العمل دون مرافقة رجل، ففى الصباح الباكر وحتى العودة فى وقت متأخر إلى المنزل.

ترصد «فيشتريش» أوضاع النساء العاملات فى فيتنام، واللائى يعملن لكبرى شركات الأحذية الرياضية فى معامل تتبع شركات كورية أو تايوانية. يقفن فى الشمس يجرين حول المعمل فى شمس الظهيرة كنوع من العقاب يركعن أمام الرؤساء تلصق أفواههن بالبلاستر حين يثرثرن، ويشربن الماء مرتين فقط فى اليوم، ويذهبن مرة واحدة إلى دورة المياه.

كيف يمكن لمنظمات المجتمع المدنى النضال من أجل الدفاع عن حقوق المرأة العاملة، ومواجهة أوضاع التمييز ضد



أطفال العولمة

المرأة، حيث تكون المرأة أول من يطرد من العمل، ولا تعمل إلا الأعمال المؤقتة، ولا تتمتع بضمانات ولا تحلم بالترقى.

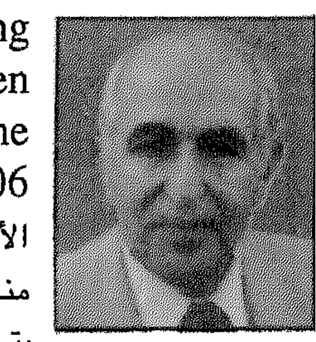
كيف يمكن النضال ضد استغلال الشركات المتعدية الجنسيات للنساء فى نفس الوقت التى تتغاضى فيه الحكومات عن هذا الاستغلال لزيادة قدرته التنافسية فى الاقتصاد المعولم. ذات يوم صرخ «ماركس» «يا عمال العالم اتحدو» فهل ترفع القوى المضادة للعولمة شعار «يا نساء العالم اتحدن» ولذا يبقى النضال من أجل تصحيح أوضاع النساء العاملات جزءاً من نضال أكبر ضد توحش العولمة، وجشع الشركات متعدية الجنسيات.



أمريكا والعالم

رؤية آسيوية

د. السيد أمين شلبى □



«كيشور محبوباني» Ki-shore Mahbobani: هو دبلوماسى سنغافورى عمل لمدة ثلاثة عشرة عاما مندوبا دائما لبلاده فى الأمم المتحدة بنيويورك، وهو يعمل الآن مديرا لمعهد «لى كوان» للعلاقات الدولية فى سنغافورة، وقد أتاحت له فترة عمله الطويلة فى الولايات المتحدة فرصة أن يعرف ويدرس عن قرب المجتمع والنظام الأمريكى، وأن يتابع السياسات الأمريكية فى اشتباكها وتعاملها مع العالم. وهو لا يخفى إعجابه بالولايات المتحدة وبدورها فى العالم والأثر الذى تتركه على قضاياه، ولكنه يعبر عن هذا بطريقة نقدية تتضمن رؤيته لكيف أفادت أمريكا العالم وكيف أضرت به، ويقدم نصائحه للسياسة الأمريكية والقرارات الاستراتيجية الحاسمة التى يجب أن تتخذها وبشكل يسهم فى خلق نظام عالمى مستقر، وخلال هذا يناقش علاقة أمريكا مع قوتين عالميتين هما العالم الإسلامى، والصين ولهذا فإنه يقول إنه يكتب هذا الكتاب Beyond the Age of Innocence, Rebulilding the trust between America and the world,2006 لأصدقائه الأمريكيين حول مأساة يمكن منعها، وهى أن بقية العالم يتحول ضد أمريكا، فرصيد حسن النية والإعجاب يستبدل بأرصدة من النوايا السيئة، بل وحتى الكراهية فى أجزاء كثيرة من العالم. ومن المحزن أن الأمريكيين يتحولون بعيدا عن العالم، وهو أثر ينمو مصحوبا بتناقض هيكلى، فالعالم يتقلص، والقوة الأمريكية تنمو، وهذه المشكلة الهيكلية تحتاج لأن تعالج بشكل مباشر، وهو أمر يتطلب تضحيات ولكن ما هو أكثر أهمية تغير فى العقلية وفى السياسات.

وفى البداية يحذر «محبوبانى» أن مسيرة القرن الواحد والعشرين سوف تتحدد بالعلاقة التى ستطورها أمريكا مع العالم، فالقرن الواحد والعشرين سوف يتجه حتما إذا ما أبحرنا فيه بالخرائط العقلية للقرن ١٩ أو القرن العشرين، فنحن ندخل عصرا جديدا فى تاريخ

□ كاتب وسفير سابق

البشرية. وعلى هذا فهو يعتبر أن كتابه هو حول الأربعين عاما وليس حول الأربعة أعوام القادمة وأن من أهدافه أن يجعل المجتمع الأمريكي يدرك أنه يوما فإن ملايين الأعين تراقبهم وتدرسهم وتحكم عليهم، ولذلك، فإن عليهم أن يهتموا بأفكار وآمال الستة مليارات من سكان عالمنا المتقلص وهى إذ تفعل هذا فإن أمريكا إنما تصغى فقط لحكمة ألهمت آباءها المؤسسين: «أن تظهر احتراما مهذبا لآراء البشرية».

كيف أفادت أمريكا العالم؟

وفى تقييمه لدور أمريكا ومساهمتها فى النظام العالمى والأثر الذى تركته على بلايين البشر، يعتبر «محبوبانى» أنه مثلما أفادت أمريكا فإنها أيضا قد أضرت به. فعنده أن أكبر هدية قدمتها أمريكا للعالم هى الأمل، فقد علمت شعوبه أن مصير الإنسان لايتقرر بالمولد فإن أى إنسان يستطيع أن ينجح فى مجتمع قائم على الاستحقاق meritocracy، كما شجعت أمريكا على تصفية الاستعمار.

وبعد الحرب العالمية الثانية سعت إلى خلق نظام عالمى جديد قائم على حكم القانون والمؤسسات المتعددة وعمليات سمحت لأمم أخرى أن تنمو وتزدهر، كذلك شاركت أمريكا جامعاتها العظمى مع أفضل العقول فى العالم، وقد عاد العديد من هذه العقول العظيمة إلى بلدانهم لكى يخلقوا قصص نجاحهم القومى، وهو ما نجده قد تحقق فى الصين والهند ومن قادة مؤسساتهم الذين حققوا معدلات نموهم الأخيرة ومعظمهم من خريجى

REBUILDING TRUST BETWEEN AMERICA AND THE WORLD

BEYOND THE AGE of INNOCENCE

Kishore Mahbubani

«هارفارد» الذين يطبقون معاييرها فى العمل، وهو ما يعكس قول «دنج شاوبنج» عندما سئل عن مستقبل الصين فقال: انتظروا حتى يعود الـ ٤٠٠٠٠ صينى الذين يدرسون فى الجامعات الأمريكية، عندئذ فإن التغيير الحقيقى سوف يحدث.

إلى جانب الصين والهند الذين استفادوا علميا من العالم والجامعات الأمريكية، كذلك اليابان، ورغم ما قد يستنكره البعض منهم من مرارة واستياء من الاحتلال الأمريكى، والجنرال «ماك آرثر» إلا أنهم يتذكرون كذلك أن «ماك آرثر» قد وضعهم على الطريق الصحيح ولم تعرف اليابان بعد ذلك إلا السلام والرخاء. وهكذا يعتبر «محبوبانى» أن أمريكا كان لها أكثر الأثر على المجتمعات

أمريكا والعالم

[illegible]

لأمريكى. وأمر الإعلام الصينى أن يظهر كيف يعيش الفرد الأمريكى العادى، وهو بذلك قد صدع أسطورة الحزب الشيوعى الصينى أن الفرد الأمريكى العادى يعيش فى فقر وبؤس. كما جعل الصينيين يدركون ظروف التخلف التى يعيشون فيها. وأبلغ الشعب الصينى أنهم يمكن أن يزدهروا إذا ما عملوا مثلما يعمل الأمريكيون. وأن يراكموا الثروة الفردية. وهكذا كان مشاركة الأمريكيين فى حلمهم، قد قدم للصين المكونات الحاسمة للنجاح: الأمل. والدافع. أما الهند. فباعتبار أنها تمثل مع أمريكا أكبر ديموقراطيتين فى العالم. قد كان طبيعيا أن يجتمعا، وأن تصبح العلاقة العلمية والتكنولوجية بين كاليفورنيا وبانجالور شيئاً أكبر من مجرد منتجات وتطبيقات التكنولوجيا. فقد انتقلت كذلك الثقافة، حيث جعلت هذه الثقافة شعب «بانجالور» بعد ذلك شعب «الهند» يدرك أنه يستطيع أن يعمل وأن يحقق المستوى العالمى الأول، وللمرء أن يتحمل الأثر الثورى للأخلاقيات الأمريكية على نسيج مجتمع يؤمن بعمق أن المصير يتحدد مع الميلاد.

كيف أضرت أمريكا العالم؟

إذا كان هذا هو ما أفادت به أمريكا،

[illegible]

الباردة، وما هو أكثر إزعاجا أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر قد يكون لها أصولها فى قرار أمريكا الابتعاد عن العالم. ويقدم «[illegible]» باكستان [illegible] باعتبارها أفضل مثال على [illegible] خطأ نتيجة لهذا الابتعاد. فخلال الحرب الباردة كانت باكستان حليفا رئيسيا لأمريكا، ويحتفظ صناع السياسة الأمريكية بذكريات حية على تعاون باكستان فى أوقات حاسمة مثل زيارة «كيسنجر» للصين، وتزويد المجاهدين الأفغان بالسلاح والأموال عبر حدودها، ولكن عندما انتهت الحرب الباردة، اعتبرت هذه الحدود غير ضرورية استراتيجيا وسقطت باكستان بهدوء كحليف، وليس هناك غريبا أن تشعر باكستان بعد ذلك بشعور عميق بالخيانة وبأنها قد استخدمت ثم هجرت.

بلد يقلق صناع السياسة الغربية أكثر من باكستان وكدولة نووية يبدو استقرارها السياسى بعيد الأجل أمرا غير أكيد، فانهيار سيطرة الدولة على الأسلحة النووية ليس قلقا مجردا أو نظريا، فإن عدم الاستقرار السياسى فى باكستان يؤدى إلى حكومة أضعف، سوف تقدم حتما فرصا أكبر لتضم نظم إرهابية تبحث عن «قنبلة قذرة» لاستخدامها فى

مدن كبيرة مزدحمة. أما النموذج الثاني للإنسحاب الأمريكى فهو أفغانستان، حيث تركت أمريكا وراءها فراغا، وكان طبيعيا أن تدخل قوى أخرى لكى تملأه، وهو ما تأكد من خلال إقامة حكومة طالبان الحرب التى جاءت نتيجة عدم الرضا الداخلى عن أمراء الحرب الفاسدين، الذين خلفتهم أمريكا، والمال السعودى، وتدخل «أسامة بن لادن» النشط، ورغبة المخابرات الأمريكية لحماية أجنحتهم الاستراتيجية تخلق نظاما مواليا لباكستان، ورغم أن أمريكا لم توافق على وصول نظام طالبان إلا أنها لم تر خطرا مباشرا وظلت سياسة الإهمال الحميد Benign Neglect وهكذا أصبحت أفغانستان كيتيم فى السبعينيات. ويستخلص «محبوبانى» أن أى أمريكى لديه رغبة عميقة فى فهم جذور أحداث الحادى عشر، يجب أن يدرس بعناية التاريخ الحديث لأفغانستان والطرق العديدة التى دخلت بها أمريكا إلى تاريخ أفغانستان الحديثة، غير أن النموذج الباكستانى والأفغانى لم تكن الحالة الوحيدة للبلدان التى شعرت أمريكا قد هجرتها فى التسعينيات، فأمم عديدة قد شعرت كذلك ولكن كل بطريقتها الخاصة، فكل منها اعتقدت أنها قد طورت علاقة خاصة مع أمريكا، ولكن حين واجهت أزمة تصرفت أمريكا وكأن هذه العلاقة لم تكن قائمة. ومن الصعب أن تحصى البلدان التى شعرت أن أمريكا قد خانتها بطريقة أو بأخرى، وحتى اليوم فإن الأمريكين لا يدركون ذلك.

دنج تشاو بنج

شوان لاى

أما الحالة الثالثة: التى يقدمها «محبوبانى» كنموذج للضرر الذى ألحقته أمريكا بالعالم فهو الأزمة المالية الآسيوية عام ١٩٩٧، هى الأزمة التى بدأت فى تايلاند والتى كانت حليفا وثيقا لامريكا خلال الحرب الباردة، ولهذا شعر التايلنديين بالخيانة عندما قررت الخزانة الأمريكية أن تايلاند، على عكس المكسيك، ليس لها الأهمية الاستراتيجية الكافية التى تستحق مساعدة أمريكية مباشرة، ومما زاد الشعور بالحزن تحققهم أن أحد أسباب الأزمة المالية التى حاقت بهم هو استماعهم لنصيحة صناع السياسة الأمريكية لتحرير تدفقاتهم المالية، فيما تمكنت بلدان مثل الصين والهند التى لم تصغ إلى هذه النصيحة إلى أن تتغلب على الأزمة المالية جيدا. أما الرئيس الأندونيسى سوهارتو، والذى أيدته لمدة ثلاثين عاما، وأعتقد أنه أصبح لا غنى عنه

لمصالح أمريكا الإقليمية، ولكنه لم يكن على وعي بالتحول الكبير في السياسة الأمريكية، فبلاده التي اعتبرت يوما كرصيد استراتيجي، أصبحت الآن عبئا، وليس ثمة شك بأن النقطة الحاسمة التي أدت لإزاحة سوهارتو ١٩٩٨ كانت نتيجة قرار لصناع السياسة الأمريكية، وعندما صنعوا هذا القرار فإنهم لم ينظروا إلى الصورة الكبيرة ولا إلى النتائج البعيدة المدى، ومثلما يقول «فريد زكريا» فإن المطالب الأمريكية بإصلاحات عاجلة وجذرية في إندونيسيا خلال أزمة عام ١٩٩٨ قد نزعت الشرعية وأسقطت الحكومة، فإذا كانوا قد أدركوا عدم الاستقرار السياسي الذي نشأ عن هذه الإصلاحات، فربما كانوا خففوا من مطالبهم واتبعوا أسلوباً تدريجيا، كان بالتأكيد، أفضل للإندونيسي العادي، وثمة مرحلة عجيبة، خلال الأزمة المالية تركت معظم الآسيويين في حيرة حول النوايا الأمريكية تجاه آسيا، ففي قمة الأزمة، عرضت اليابان القوة الاقتصادية الأعظم في المنطقة، أن تقدم فرصا بقيمة ١٠٠ بليون دولار، ولكن أمريكا تدخلت بقوة واعترضت على أن أي جهد فردي ياباني لمساعدة زملائها الآسيويين، وكانت الرسالة التي بعثت بها أمريكا للآسيويين المنكوبين هي أنه ليس فقط أننا لن نساعدكم، ولكن أيضا لن ندع الآخرين يساعدونكم باعتبار أن للآسيويين ذاكرة طويلة، فسوف يتطلب السؤال العالق في ذاكرتهم، هو كيف يمكن لأمة كانت سخية أن تبتعد عنهم في ساعة الحاجة؟.

وفي مناقشة لما يفرق بين كيف يرى الأمريكيون أنفسهم مقابل العالم، وكيف يرى العالم الأمريكيين، فإن «محبوباني» يقدم قصة الشرق الأوسط كنموذج فليس هناك مشكلة أخرى تثبت بشكل أكثر كيف تختلف التصورات الأمريكية عن بقية العالم، فهذه هي المشكلة التي يتوقع بقية العالم أن ترتفع أمريكا إلى مستوى ادعائها أنها دولة غير عادية تقدم قيادة أخلاقية للعالم، وفي تقدير «محبوباني» أن أمريكا قد فعلت أكثر من أي دولة لتحقيق السلام، ابتداء من كامب دافيد الأول في عهد كارتر إلى كامب دافيد الثانية في عهد كلينتون وحيث فشلت فإن هذا كان يرجع إلى الأطراف أنفسهم، ولكنه يعتبر أن جهودا غير عادية مطلوبة لكسر الجمود في هذه القضية، وسوف تبدو كل ادعاءات أمريكا لأن تكون بلدا غير عادي تقدم قيادة أخلاقية وسياسية للعالم ادعاءات خاوية حتى يوجد نوع من السلام في الشرق الأوسط وسوف يتطلب هذا اختبار لادعاء أمريكا للقيادة.

وفي تقدير «محبوباني» أن قارة أفريقيا هي المنطقة من العالم التي اختبرت ألما وغضبا أكثر من قرار أمريكا أن تصبح بلدا عاديا، فقد تدخلت أمريكا بقوة في أفريقيا خلال الحرب الباردة مدعمة نظما عديدة، التي لم تكن لتقوم بدون هذا التأييد، وحين سحب هذا التأييد سقطت بعض الحكومات مثل بيت من ورق، وحتى اليوم فإن بلدا مثل «زائير» لم

تتعاف تماما، وغالبا فإن عدم الفصل الأمريكى فى القضايا الحاسمة يمكن أن يسبب ضررا جسيما لهذه البلدان. وليس هناك ما يصور هذا أكثر من الحالة المأساوية للمذبحة فى «رواندا»، فحين بحث الوضع فى رواندا أمام مجلس الأمن تلقى الوفد الأمريكى تعليمات بعدم استخدام عبارة «مذبحة Jen-ocide فى قرار مجلس الأمن»، وهكذا استخدمت الولايات المتحدة نفوذها لمنع مجلس الأمن من إدانة المذبحة فى «رواندا» وهكذا فهى لم تمتنع فقط عن وقف المذبحة فى رواندا ولكنها أيضا منعت المجتمع الدولى من أن يفعل هذا، وهذا هو مدى القوة الأمريكية، فحين تقرر أمريكا أن أمة ما يجب ألا تنقذ يتم سحب شبكة الأمان الدولى.

ويستخلص «محبوبانى» أنه إذا أحصيت بشكل موضوعى القرارات الأمريكية التى اتخذت خلال التسعينيات فإن المرء يمكن أن يحصى عددا من الأفعال التى اتخذت فى دفاع واضح عن المصالح الأمريكية بدون إعطاء وزن كاف لتأثير هذه الأفعال على بقية العالم، بالاضافة إلى ما رصد سابقا فإن هناك قرارات موازية فى الأهمية مثل قرار الخروج من بروتوكول «كيوتو»، وقرار عدم دفع المستحقات الأمريكية فى ميزانية الأمم المتحدة، وقد تصاعدت الانفرادية الأمريكية فى المجالات المتعددة الأطراف





ماوتسى تونج — صموئيل هنتنجتون

حين جاء ت إدارة «بوش» إلى السلطة فى عام ٢٠٠١، إلا أنها لم تبدأ مع هذا الوقت فقد بدأت مبكرا حين سمحت نهاية الحرب الباردة أن تختار السبل الانفرادية دون أن تعبأ بأي تكلفة على المصالح الأمريكية.

أمريكا والعالم الإسلامى

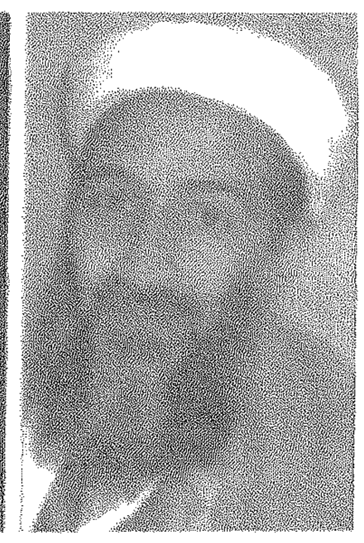
وبدون أن يقول ذلك يبدو أن «محبوبانى» متأثر بنظرية «هنتنجتون» عن صدام الحضارات والتى توقع فيها أن يكون الصراع القادم هو صراع ثقافى بين أمريكا والغرب من ناحية، والعالم الإسلامي، والحضارة الكونفوشيوسية من ناحية أخرى. ولهذا فهو يخصص فصلين فى كتابه عن علاقة أمريكا بكل من الإسلام والصين.

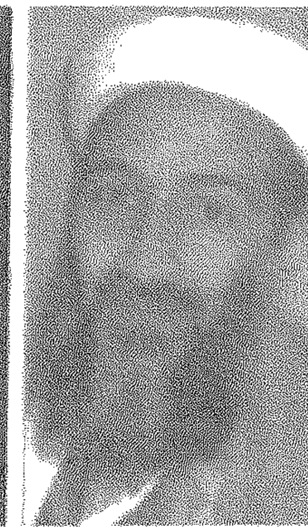
فعن الإسلام يعتبر أنه نظريا لا يجب أن يكون هناك توتر بين أمريكا والعالم الإسلامي، فلم يهدد العالم الإسلامى أمريكا أبداً. وكانت معظم صلات أمريكا مع العالم الإسلامى العربى وغير العربى حميدة، وقد ساعدت الحرب الباردة فى تعميق علاقات أمريكا بالمجتمعات

الإسلامية عبر العالم وبدأ صناع السياسة الأمريكية يدركون أن الإسلام يمثل حاجزا طبيعيا ضد توسع الشيوعية، وقد جاءت قمة التعاون بين أمريكا والعالم الإسلامى بعد الغزو السوفيتى لأفغانستان عام ١٩٧٩، التى صنعت تحالفاً بين أمريكا ومعظم العالم الإسلامى حيث تلاقت المصالح الأمريكية مع مصالح الدول الإسلامية، ولكن المفارقة أنه حين حطمت أمريكا الإمبراطورية السوفيتية، فإنها أيضا قد أيقظت ماردا من المشاعر الإسلامية، فقد قدمت «أفغانستان» المذاق الأول للنصر لمجموعة عانت الهزيمة فقط عبر عدة قرون، وقدم نصر المجاهدين فى أفغانستان للأمة الإسلامية ما قدمه النصر اليابانى على روسيا عام ١٩٠٥ للآسيويين الآخرين، ومن هنا فإن شخصا واحدا وهو أسامة بن لادن قد ألهمته الهزيمة السوفيتية فى أفغانستان أن يعتقد أن الإسلام يستطيع أن يغلب قوة أعظم. وفى مقابل هذا فإن نهاية الحرب الباردة تمثل قمة النشوة الأوروبية والأمريكية، وظهرت نظريات مثل نهاية التاريخ تبشر بأن بقية العالم سوف يدرك الآن الوسيلة الأفضل والوحيدة للتقدم هى أن تصبح نسخا أخرى من الغرب. غير أن لحظات الانتصار تنتج لحظات من فقدان البصر، فبينما كانت العواصم الغربية مشغولة بالاحتفال بانتصار الغرب فقد فشلوا فى ملاحظة احتفالات مساوية فى الأهمية؛ فالمحاربون الإسلاميون الذين أتوا من كل العالم الإسلامى لمحاربة السوفييت فى أفغانستان، آمنوا أنهم هم الذين هزموا الامبراطورية السوفيتية وأنهم لم يشاهدوا أى محارب أمريكى أو أوروبى يحارب إلى جانبهم فى أفغانستان. لقد كان المجاهدون سعداء لتلقى الأسلحة الغربية ولكنهم أيضا لاحظوا «الجبن» الغربى حول دخول ميدان المعركة مباشرة، وهكذا استخلصوا أن المحارب المسلم سوف ينتصر فى النهاية على المحارب الغربى لأن المحارب الإسلامى لا يخاف أن يموت.

وهكذا ظهر محارب جديد على المسرح العالمى الذى سيكون سعيدا عندما أحاط نفسه، بناء على تعليمات، بالمتفجرات ومشى فى المدينة مفجرا نفسه، ويعتبر «محبوبانى» أن هذا لم يكن أمرا حتميا فديانة الإسلام ليست بالطبيعة دين العنف، فالإسلام يؤخذ غالبا على أنه يعنى «دين السلام» وقد عاشت المجتمعات الإسلامية فى سلام مع أنفسهم ومع جيرانهم لقرون، فالتشدد الذى نراه فى كل ركن من أركان العالم الإسلامى ليس حدثا طبيعيا، إنه نتيجة عدد من العوامل ليس أقلها سلسلة القرارات الخاطئة التى اتخذها صناع القرار الغربيين فى حينها، وهى تأخذ وقتا طويلا لكى تراكم مستودعات من الكراهية والغضب، وقد لا يكون الغرب واعيا بذلك ولكن هذا الانفجار الجارى للغضب الإسلامى هو تراكم قرون من العمل الغربى، وينقل «محبوبانى» عن عدد من المسلمين الأمريكيين المعتدلين الذى يعتبرون أن معظم الصراعات فى العالم الإسلامى وظهور المجموعات

المتطرفة لها جذورها فى فشل مبادرات هذه البلدان لأن تبنى نظما شرعية ومنتجة اجتماعيا وسياسيا. وبدلا من دعم المسلمين المعتدلين، فإن العكس قد حدث من خلال سيطرة سياسات قصيرة الأجل على الاستراتيجيات البعيدة، فليس ثمة خطة أمريكية أو غربية لمساعدة العالم الإسلامى، وبدلا من هذا فإن المواقف الأمريكية والغربية المتناقضة مازالت تعوق الاستقرار فى العالم الإسلامى، ويتوقع محبوبانى أننا سوف نقضى الجزء الأكبر من القرن الواحد والعشرين فى التعامل مع المشكلات العديدة التى ولدتها هذه السياسات المتناقضة والمشوشة.





بن لادن

جيمى كارتر

ويعدد «محبوبانى» إضافة إلى هذا ثلاثة أخطاء استراتيجية ارتكبها الغرب وأمريكا، فى التعامل مع العالم الإسلامى، الأول: افتراض أن المصالح الطويلة الأجل يخدمها بشكل أفضل إبقاء الدول الإسلامية تغوص فى الفقر والتخلف.

والثانى: هو عدم مشاركة العالم الإسلامى فى سياسات التحديث الناجحة فقد كان للولايات المتحدة خطة ناجحة لتنمية أوروبا وهى خطة ماراشال، وكذلك خطة التنمية اليابانية، فلماذا لم تصمم مثل هذه الخطة للعالم الإسلامى، فهل كان هذا نتيجة لجهل تام أم لحسابات أن العالم الإسلامى سيكون أفضل حالا إن لم يناله التحديث.

والخطأ الثالث: فهو عدم رؤية الأهمية القصوى لتشجيع نجاح المسلمين المعتدلين فى المجتمعات الإسلامية فبدلا من مساعدتهم ساعد الغرب هؤلاء الذين يقمعونهم.

أما الخطأ الرابع للغرب: فهو عدم الترويج لانتشار التعليم العلمانى الحديث فى المجتمعات الإسلامية، وبدلا من هذا تطلع الغرب بعيدا وتغاضى عن تقديم ٣٠٠ مليون دولار من الأموال السعودية الخاصة سنوياً لتأسيس المدارس المتأثرة بالفكر الإرهابى والتى تدعم أصولية العصور الوسطى وليس الحداثة.

والخطأ الاستراتيجي الخامس الذى ارتكبه الغرب: هو تطبيق سياسات اقتصادية تحقق النفع القصير الأجل للزعماء المنتجين ديمقراطيا، وأبرز مثل على هذا عندما طلب «برويز مشرف» من أمريكا حصصا أكبر من المنسوجات لاتاحة فرص عمل أكثر وهو ما رفضته أمريكا لأن قلة من الناخبين من عمال النسيج فى كارولينا الشمالية كانوا أكثر أهمية من المصلحة القومية الأوسع فى

تأييد مشرف على البقاء سياسيا ويستخلص «محبوبانى» أن الولايات المتحدة تحتاج إلى صحوة شاملة، رغم أنها دخلت فى المجتمعات الإسلامية بأكثر مما فعلت فى التاريخ الإسلامى، إلا أنها تفعل ذلك بفهم أقل أو شامل للقوى القوية القومية التى تتعامل معها فى نفس الوقت. فإذا كان بن لادن يمثل مجرد فرد أسييء توجيهه ومن نوع الذى أنتجته البشرية من وقت لآخر مثل هتلر وبول نوت، فإن المشكلة سوف تحل أتوماتيكيا بتصفيته، ولكن إذا كانت عقيدته وأفكاره ورؤاه، وليس أفعاله، هى تجسيد لمجموعة قوية من المعتقدات فى عقول الكثيرين، فإن تصفيته لن تحل شيئا، إن ما يجب التعامل معه هى هذه المجموعة القوية من المعتقدات، وليس لدى أمريكا أو الغرب سياسة شاملة طويلة الأجل للتعامل معها.

أمريكا والصين

أما الصين فإن «محبوبانى» يعتبر أن الولايات المتحدة قد تعاملت معها بشكل غير حكيم، فقد استخدمت الصين حين تلاءمت مع مصالح أمريكا الجيوبوليتيكية، ثم نبذتها عندما لم تعد تخدم المصالح الأمريكية. ويقدم الكتاب نماذج عديدة عن الطرق المختلفة التى تفهم وتقيم بها كلا من الصين والولايات المتحدة القضايا والتطورات ومن أبرزها حادث ضرب الطائرات الأمريكية الصينية فى بلجراد عام ١٩٩٩، وكيف أن هذا الحادث سيظل فى الذاكرة الصينية وأنه عمل متعمد، وكذلك الوثائق التى يصدرها شخصيات قريبة من الإدارة الأمريكية مثل وثيقة مع Defense Planning Guidance والتى تتضمن أن تفعل أمريكا كل ما فى وسعها لمنع ظهور منافس لها، وكانوا بهذه يقصدون الصين بشكل أساسى. ومع بدايات عام ٢٠٠١ فإن أى متابع لمستقبل العلاقات الأمريكية الصينية كان سيخرج بتوقع كئيب، إلا أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر جاءت لكى تنقذ الصين حينما ركزت الولايات المتحدة على الخطر العاجل الذى يمثله بن لادن والمجموعات الارهابية المماثلة التى تظهر فى العالم الإسلامى، وقد قدرت الصين بشكل حصيف أنها تستطيع أن تستخدم هذه اللحظة لكى تثبت جدواها الاستراتيجية للولايات المتحدة، وقد أثارت النتائج غير المتوقعة لأحداث الحادى عشر من سبتمبر سؤالا أساسيا وهو: هل تترك العلاقة بين أقوى قوة فى العالم، وأقوى قوة بازغة لكل تحددها بشكل خالص أحداث عارضة؟ أو يجب أن تكون هناك استراتيجية طويلة الأجل، والإجابة واضحة، فلكى تتفادى أزمات كبيرة فى القرن ٢١ فإنه سيكون الحكمة أن نصنع ونطبق استراتيجية شاملة لكى تدير وتطور العلاقة بين أمريكا والصين. وبما يعيق تطوير مثل هذه الاستراتيجية فضلا عن أحلاف الخبرات التاريخية، ما يبثه مجموعة الاستراتيجيين الأمريكيين المتشددين فى المؤسسات والفكر الأمريكى من أن الصين تمثل تهديداً كبيراً للولايات المتحدة ومن هنا فإن بعض هذه الدوائر تميل إلى أنه يجب

اعتراض الصين قبل أن تصبح قوة عسكرية منافسة للولايات المتحدة. ومن العقبات أيضا عدم رسم مثل هذه الاستراتيجية هو أن السياسات الأمريكية الخارجية لا يمكن التنبؤ بها لأنها محصلة مجموعة معقدة من العوامل: مجموعات المصالح الخاصة، والآراء الشعبية، وتحيزات وسائل الاعلام، ديناميكيات العملية الانتخابية المتغيرة، ولذلك يدرك القادة الصينيين أن عليهم أن يتفقوا بعض الوقت «لتعليم» الإدارة الجديدة حين تأتى إلى السلطة.




هنرى كيسنجر — هتلر

وفى تقييم مستوى قادة الصين الحاليين، فإن «محبوبانى» يعتبر أنه بالنظر إلى التاريخ الصينى وما تعرضت له الصين من قوى وطئت أراضيها وهى نائمة، فإنه ليس غريبا أن تستيقظ الصين كمارد غاضب، غير أنه بدلا من هذا فإننا نرى الصين الصاعدة كأمة ليس لديها الرغبة لكى تلعب دورا ممزقا على المسرح الدولى، وهذا فى جانب منه نتيجة لوعى الصين بضعفها النسبى، وفى جانب آخر نتيجة لتاريخها السلمى النسبى مع جيرانها ولكن هى أيضا نتيجة أن الصين قد اعتقدت في الرؤية التى قدمتها أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، أن الأمم لم تعد تحتاج لأن تتبع طرق الغزو العسكرى لكى تنمو وتزدهر وبدلا من هذا، فإن التجارة والتعامل الاقتصادى يقدمان طرقا أكيدة للازدهار الاقتصادى والسلام، وقد لاحظت الصين كيف بزغت ألمانيا واليابان من حطام الحرب العالمية الثانية.

أما القضية المركزية فى العلاقات الأمريكية الصينية فهى قضية تايوان التى يعتبر القادة الصينيين أن التاريخ وشعبهم لن يسامحهم إذا ما سمحوا لتايوان أن تصبح مستقلة، وهم يدركون أنها ستكون كارثة إذا ما شنوا حربا ضد تايوان إلا أنهم أوضحوا بشكل كبير أنه لن يكون أمامهم خيار إلا أن يفعلوا ذلك ورغم أن الزعماء الأمريكيين ومن بينهم كلينتون وبوش قد أظهروا حساسية فى معالجة هذه القضية وأعربوا عن أنهم لن يشجعوا تايوان على إعلان الاستقلال، إلا أن تقلبات التاريخ تظهر أن قضية تايوان عنصرا هشا فى العلاقات الأمريكية الصينية، ويستخلص محبوبانى أنه سيكون مأساة إذا ما ذكرت الولايات المتحدة في النهاية باعتبارها البلد الذى جلبت عدم الاستقرار للمنطقة باساءة إدارة صعود الصين. ويتناول «محبوبانى» بشىء من التفصيل قضية الديمقراطية فى

الصين ودور الحزب الشيوعي الصيني والتحولات التي حدثت فيه منذ نهاية السبعينيات، ويذهب في هذا أن أحد الأبعاد الخطيرة في السياسة الأمريكية نحو الصين هو الاعتقاد القوي بين عدد من المفكرين الاستراتيجيين أن الصين سوف يستفيد بشكل كبير إن ما تحولت إلى ديمقراطية. ومن ناحية أخرى يوضح «محبوباني» تأثر القادة الصينيين بتجربة الانفجار في الاتحاد السوفيتي واختلاف تقييمهم عن التقييم الأمريكي لهذا الحدث، ففي الوقت الذي رأى فيه الأمريكيين بزوغا للحريات، رأى فيه الصينيين القوة السوفيتية، والانهيار السريع للدولة السوفيتية والفوضى التي تأثرت بها الطبقات الفقيرة، وصعود الفساد، وبعض رؤية التجربة السوفيتية استخلص القادة الصينيين أن حكم الحزب الشيوعي الصيني سوف يظل مطلوبا لحقبة قادمة أو أكثر، ورغم هذا فإنه من المستحيل أن تقنع أي أمريكي أن استمرار الحزب الشيوعي سيكون مفيدا للصين والولايات المتحدة وللعالم، وينبه «محبوباني» إلى التحولات الملحوظة التي حدثت في الحزب الشيوعي الصيني، وإلى فشل السياسات الأمريكية في ملاحظة هذه التحولات، فعلى الورق قد يبدو الحزب أنه نفس الكائن السياسي، ولكن في الواقع فإن الحزب مختلف تماما، فلم يحدث من قبل أن جمعت الصين هذه النخبة الواسعة المتقدمة لإدارة شئون الدولة حيث تدرب العديد منهم في الخارج وفي جامعات هارفارد وستانفورد، وهكذا وبعد أكثر من مائة عام من الفوضى وسوء الحكم، فقد جمعت أفضل طبقة حاكمة شهدتها في قرن، فلم يعد هناك شخصيات متقدمة في السن تتعلق بحكم الحزب، وبدلا من هذا ثمة مجموعة من القادة ملتزمون بتحريك الصين إلى الأمام، ومما يقدم دليلا على التحول في العقلية التي تحكم الصين أن الزائر الأجنبي كان يجد في غرفة فندقه كتاب صغير يحمل تعاليم ماو، أما الآن فإنه يجد كتيبات تشرح له لماذا وأين يستثمر في الولاية وتلك من الصين، وبشكل أصبح هناك منافسة حادة بين المدن، والولايات الصينية حول الاستثمارات الخاصة وبحيث أصبحت الصين جنة للرأسمالية بين الزائرين. ويستخلص «محبوباني» أنه ستكون كارثة للصين إذا ما فككت فجأة الحزب الشيوعي، فالشرعية السياسية شيء ذو قيمة ولكنها أيضا عملية هشة، وقد تمتع الحزب الشيوعي الصيني بالشرعية في الصين، وحين يتذكر القادة الغربيين «ماوتسي تونج» فإنهم يتذكرون تجاوزات وكوارث حكمه، ويدرك الصينيين الثغرات العميقة في عهده ولكنهم، أيضا يعلمون أنهم كانوا يحتاجون إلى رجل من حديد مثل ماو لتوحيد الصين ووضعها من جديد على طريق الوحدة الوطنية والنمو، وإذا لم يظهر ماو، فإن الصين كانت ستحتاج إلى قرن أو أكثر لكي تستعيد الوحدة الوطنية والإحساس بالهدف.

كذلك احتفظ الحزب الشيوعي بشرعيته في الحقب الأخيرة بإعادة تجديد

نفسه بشكل مستمر، وقد كانت الصين محظوظة أن تنجب عملاقين في القرن العشرين الأول هو «ماوتسى تونج»، والثانى هو «دنج تشاو بنج» والذى سوف يعتبر أعظم زعيم فى الصين فى القرن العشرين، فقد استخدم «دنج» نفس الحزب الشيوعى لكى يحرك بلدا ضخما مثل الصين، فقد حولها بشكل حاد



سوهارتو



بوش

من سيطرة الحزب الشيوعى الاقتصادية واتخذ خطوات ضخمة نحو نظام السوق، وخلال هذا كله حافظ على الاستقرار السياسى فى الصين، وحتى حادثة ميدان تانيمان، فإن المؤرخين سوف ينظرون لها من خلال تاريخ الصين وسوف يفهمون لماذا حافظ دنج على سيطرة سياسية حازمة، فإذا كان قد فقد أعصابه خلال الأزمة فإن الصين ربما كانت قد بددت حقبا تحاول خلالها أن تستعيد إحساسها بالهدف والتقدم. كذلك وضع دنج خطوطا توجهية لقادة الحزب: اختاروا الأفضل فقط، وبرنامجا للتغيير الدائم للذات، وربما قال لهم: تعلموا من هارفارد، وقد فعل الحزب ذلك فى تقييم واستعمال القدرات، وأصبح عددا من قادة الصين الجدد من الذين تعلموا فى هارفارد، واستبعد الفاسدون، وعديمى الكفاءة أو القادة غير الشعبيين.

ويقع وراء هذا التحول إدراك أنه دون منع ظهور الفساد والنخب الراكدة، فهناك دائماً مظهراً خطراً كبيراً أن الصين سوف ترتد مرة أخرى إلى نوع من الحكم الفاسد الذى شهدته الصين من قبل، وهذا فى الواقع هو أكبر تحدى تواجهه الصين فى هذا الظرف.

التعاون مع الصين

ويحذر «محبوباني» من أن نهاية مفاجأة حكم الحزب الشيوعي في الصين عند هذه النقطة سوف تعنى أكبر كارثة وألما لشعب الصين ولشعوب المنطقة وللعالم كله. ذلك أن ثمة قوى شعبية فى النسيج السياسى الصينى، وهى محكومة بعناية بالقيادة الماهرة للقيادة السياسية داخل الحزب، فإذا ما انطلقت هذه القوى الشعوبية فإن القومية التى يمكن أن تنطلق وتوجه العالم فى القرن الواحد والعشرين يمكن أن تكون أكثر غضبا وأكثر صعوبة في احتوائها، ومن هنا فإن الحزب الشيوعى الصينى سوف يقدم معروفا كبيرا للعالم إذا ما استطاع أن يدير التحول التدريجي الإيجابى للمجتمع الصينى ويوجهه فى اتجاه تكامله مع المجتمع المعولم الجديد كمواطن مسئول،

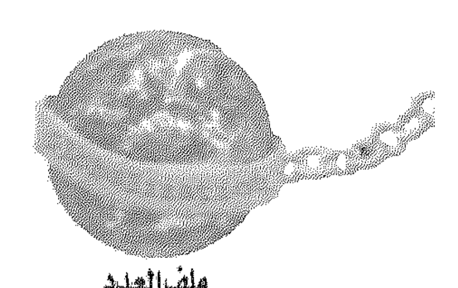
وهكذا فالعالم كله له مصلحة فى نجاح هذه التجربة الصينية العظيمة، وأمريكا يجب أن تكون شريكا بناء وليس معاديا لهذه العملية. ولكن كيف يدير القادة الصينيين علاقاتهم مع الولايات المتحدة؟ فبعد عدة عقود من المواجهات المباشرة مع الأمريكيين فقد طور القادة الصينيين شعورا عقلانيا ومحنكا بكيفية العمل مع أمريكا، فهم يدركون الآن أن الحجة وحدها لن تكفى لحث أمريكا على أن تكون أكثر حرصا وضبطا للنفس فى اتخاذ أعمال ذات التأثير على الصين، وقد تعلمت الصين أن أمريكا، مثل أى دولة أخرى، تستجيب حين تتأثر مصالحها الوطنية بشكل مباشر، فى هذا يخدم الصين ظهور مواقف تحتاج فيها أمريكا لمساعدة الصين وهذا يحدث حين تقع أمريكا فى متاعب سياسية، وفى كل مرة تفعل أمريكا هذا فإنها تطور اهتماما فى طلب تعاون الصين، وثمة قضيتين حديثتين شغلت اهتمام الزعماء الأمريكيين وهما: العراق، وكوريا الشمالية، وحيث أظهر الصينيين براعة دبلوماسية. فحين أعلنت أمريكا قرارها بغزو العراق، فإن الصين كمبدأ، كان عليها أن تعارض هذا، وعلى عكس فرنسا التى حاولت منع الغزو الأمريكى للعراق، فعلت الصين هذا بشكل هادىء وربما أرادت الصين أن لا تغضب القيادة الأمريكية، ولكن أيضا ربما قدرت أن الغزو سوف يضع أمريكا فى مستنقع وأن هذا سوف يجعل أمريكا أقل قدرة واستعدادا لتحدى الصين. ومن ناحية أخرى، فحين احتاجت أمريكا أن تمارس نفوذا على كوريا الشمالية وحين اقتنعت أن الغزو العسكرى ليس مطروحا، كان هناك بلداً واحداً لديه قدرات لإقناع كوريا الشمالية وهى الصين، وقد طلبت أمريكا واستجابت الصين بايجابية وذهبت الصين إلى حد قطع امدادات البترول لعدة أيام عن كوريا الشمالية، وهكذا خلقت الصين نوعا من الاعتماد الأمريكى عليها. أما المنطقة التى يتصور «محبوبانى» أن الصين يمكن أن تكون عونا للولايات المتحدة فهى العالم الإسلامى، فباعتبار الانقسام العميق والنامى بين هذا العالم وأمريكا، فإن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تكون قوة تغيير إيجابى فى هذا العالم، وعلى العكس من هذا، فإن العالم الإسلامى ليس لديه شكوكا فى الصين، ولم تكن هناك فى يوم ما انقسام بينهما رغم اختلاف الثقافات، ولم تكن هناك كراهية طبيعية كان هناك إعجاب طويل بالحضارة الصينية العظيمة داخل العالم الإسلامى، فإذا نجحت الصين فى تحديث نفسها سوف يخلق هذا موجة من التأثير عبر العالم الإسلامى كله، فالعديد من المفكرين الإسلاميين مترددين فى تقليد النموذج الغربى ولكن نفس هؤلاء المفكرين لن يترددوا فى تبنى النموذج الصينى الايجابى.

قرارات استراتيجية

ويستخلص «محبوبانى» من قراءته لعلاقة أمريكا مع العالم، ما يجب عليها أن تفعله وتتخذه من قرارات استراتيجية للمساهمة فى خلق نظام دولى مستقر،

ففى التسعينيات حين بدا أننا نعيش اليقين فى حقبة مباركة. كان الافتراض أن المستقبل لن يكون إلا مضيئا، غير أن أحداث ١١ سبتمبر جاءت لكى تصدع هذا الافتراض.. واليوم نحن فى عالم مضطرب يبدو خارج السيطرة وأضحت فيه كل المشكلات بلا حدود، والتدفقات المالية تتزايد فى الحجم والسرعة، وكل يوم نستيقظ بإحساس أعظم بعدم اليقين حول المستقبل وأننا ننزلق إلى عالم أكثر خطرا. فى ضوء هذا كله يستخلص «محبوبانى» حقيقة أن أمريكا لا تستطيع أن تواجه هذا العالم منفردة ولكنها بالعمل مع بقية العالم يمكن أن تخلق نظاماً عالميا أكثر استقرارا، ويمكن من أجل هذا على أمريكا أن تتخذ عددا من القرارات الحاسمة. فعلى أمريكا أولا أن تقرر أن عالما مستقرا إنما يخدم مصالحها، ورغم أن القادة الأمريكيين يعلنوا فى بلاغة طنانة أنهم مؤيدون الاستقرار العالمى، ولكن أفعالهم فى مواجهة بقية العالم فإن أمريكا تبعث برسائل مختلطة، وكما لاحظ بعض الخبراء، فإنه مع إدراك أن المشكلات العالمية لها جذور داخلية ويجب أن تعالج بهذا الشكل، إلا أنها يجب أن تدرك أيضا أن هذه المشكلات يجب أن تعالج بشكل جماعى أكثر منها بشكل فردى لأسباب تتعلق بالشرعية، والمشاركة فى العبء والفعالية. والقرار الاستراتيجى الثانى الذى على أمريكا أن تتخذه ينبع من الأول؛ فحينما تتخذ الحكومة الأمريكية أى قرار كبير فإنها يجب أن تأخذ فى الاعتبار الأثر العالمى لهذه القرارات.

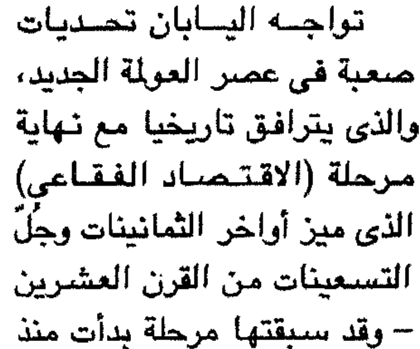
وأما القرار الاستراتيجى الثالث: فهو أن تغير سياساتها تجاه المؤسسات المتعددة الأطراف، فهى لا يجب أن تستمر بعد هذا فى استخدام قوتها الغالبة ونفوذها داخل هذه المنظمات لمجرد أن تخدم المصالح الأمريكية قصيرة الأجل وبدلا من هذا فإنها يجب أن تزن المصالح العالمية وتقيم أثر سياساتها على بقية العالم عندما تنحنى هذه المؤسسات المتعددة الأطراف للإدارة الأمريكية.



اليَابَانُ

من الركود إلى أسئلة المستقبل

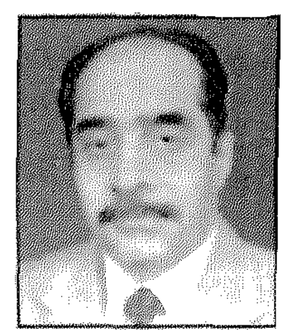
د. محمد عبدالشفيع عيسى ◻



تواجه اليابان تحديات صعبة فى عصر العولمة الجديد، والذى يترافق تاريخيا مع نهاية مرحلة (الاقتصاد الفقاعى) الذى ميز أواخر الثمانينات وجُلّ التسعينات من القرن العشرين – وقد سبقتها مرحلة بدأت منذ منتصف السبعينات واتسمت بالتوسع الاقتصادى القائم على التعميق التكنولوجى والتصدير الكبير والاستثمار اليابانى الهائل داخل أمريكا وأوروبا خلال إقامة فروع للشركات العملاقة فيما يشبه «الهرولة». ومثلت هذه المرحلة تطورا طبيعيا لمرحلة (التنمية السريعة) والتى استمرت منذ مطلع الخمسينات ولربع قرن تقريبا.

وقد اتسمت مرحلة «الفقاعة» بالاعتماد – فى تحقيق معدل مرتفع نسبياً للنمو الاقتصادى – على أنشطة ذات قيمة مضافة منخفضة نسبيا، وخاصة أنشطة الخدمات المالية والعقارية وقطاع التشييد والإنشاءات الحكومية الضخم.

وبينما أخذت اليابان تنغمس فى اقتصاد الفقاقيع كانت الولايات المتحدة



الأمريكية قد عكفت فى نفس الوقت على استكشاف الأسرار الابتكارية اليابانية ذات النفس العبقرى، وعلى «تضخيم» متعمد لصورة اليابان فى العالم من خلال أجهزة الاتصال، وكذا من خلال المحافل الأكاديمية والثقافية باعتبارها الدولة رقم (١) (عزرا فوجل: اليابان الدولة الأولى).

فى ذلك الوقت كانت الجامعات ومراكز البحث الأمريكية قد شرعت فى التوسع فى إبرام البحوث الاقتصادية المشتركة مع الباحثين اليابانيين والمؤسسات العلمية اليابانية، وحملت الولايات المتحدة الحكومة اليابانية على فتح أبواب مؤسساتها الحصينة مثل وزارة التجارة الدولية والصناعة (ميتى MITI) أمام فرق البحث المشتركة اليابانية – الأمريكية، للحصول على البيانات النادرة من مخازنها الثرية.

وقد استخدمت أمريكا العصا والجزرة مع الجماعة الأكاديمية اليابانية أيضا، بل ومع الحكومة اليابانية ككل. فقد استخدمت عصا التهديد المبطنة أو

◻ أستاذ بمعهد التخطيط القومى بالقاهرة

المضمرة لعقاب اليابان اقتصاديا من بوابة الاستيراد والتصدير، وقدمت جزرة الثواب الاقتصادى بالإضافة إلى إغراء الأكاديميين والباحثين بفرص السفر ولإقامة والزيارات العلمية والنشر فى كبرى الجامعات ومراكز البحث المتخصصة. وكان لأمريكا ما أرادت. فقد تمت تعرية أعصاب الشركات اليابانية بل واليابان كلها كشركة-Japan Corpo ration . وفى نفس الوقت كان بعض السوس قد أخذ ينخر فى تلك الأعصاب من جراء توسع البنوك فى الإقراض غير الآمن ، وبزيادة الديون المعدومة تدريجيا ، مما جعل المنظومة المالية نقطة ضعف لا تنكر فى النظام الاقتصادى اليابانى - بالإضافة إلى التوسع ربما غير المبرر تماما فى أنشطة الأشغال العامة والتشييدات بالمقارنة مع (النظام الإنتاجى التصنيعى) الذى هو مركز التفوق اليابانى النسبى فى العالم الصناعى.

وفى نفس الوقت - منذ منتصف الثمانينات حتى التسعينات تحديدا- كانت الولايات المتحدة تعمل فى صمت فى حقلين من حقول (العلم - التكنولوجيا) هما التكنولوجيا الحيوية، والتكنولوجيا الإلكترونية: المعلوماتية - الاتصالية. وما أن أهل عقد التسعينات ثم انتصف حتى كانت تلك الولايات المتحدة قد حازت قصب السبق، وأصبحت تتقدم الجميع بغير منازع ، بينما أسفرت الأحداث عن اكتشاف اليابان لنفسها ، وقد أخذت تتقهقر من خلف «غريمتها - حليفتها» الأثيرة: أمريكا.

وبهذه الأدوات كلها: «التضخيم الزائد» لصورة اليابان، واكتشاف أسرارها، وانغماس اليابان فى اقتصاد الفقاعة، وعكوف أمريكا على سر تفوقها الخاص: علوم الحياة وعلوم الإلكترونيات، تحقق الفوز لأمريكا - ولو إلى حين - فى معركة التقدم الاقتصادي والتكنولوجي.

وقد أدركت إدارة كلينتون بالذات، إدارة عقد التسعينات الأمريكى (٩١ - ٢٠٠٠) جوهر ما هى مقبلة عليه، فإذا هى تدير معركتها الاقتصادية الخاصة بأسلوب (إدارة الحرب) وباستراتيجية تضعها (هيئة الأركان) فى (غرفة العمليات) - وكانت تلك هى الحرب الاقتصادية مع اليابان فى المقام الأول، وبالاستراتيجية التنافسية، وفى غرفة

عمليات (مشتركة) من الحكومة الأمريكية والشركات عابرة الجنسيات.

وكان الهدف: مواصلة زيادة الانتاجية، واكتشاف المصدر البديل للإنفاق العسكرى كمحرك للاقتصاد بعد زوال الاتحاد السوفييتي، وهو مصدر مزدوج من:

أ - التقدم العلمي - التكنولوجي، وإن شئت فقل: التقدم على معراج «الاقتصاد الجديد» أو الاقتصاد المعرفى، رغم عثراته الناجمة عن التوسع غير المخطط أحيانا، وخاصة تعثر شركات التكنولوجيا المتقدمة كما يعكسها مؤشر الأسواق المالية المتخصص «تاسداك».

ب - جنى مزايا اقتصادية من جراء تعاظم المكانة الاستراتيجية والجيوبولتيكية الأمريكية، جراء انفرادها بموقع (القوة العظمى الوحيدة) كفعل معادل آليا لسقوط القطب (الثانى): السوفييت.

وعلى جناحين من التكنولوجيا والنفوذ السياسى - الاستراتيجى مضت أمريكا فحملت الجميع على الركض من خلفها، على طريق طويل وصعب جدا هو طريق التنافسية التى حملت لواءها فى مقدمة الصفوف لا تلوى على شئ.

أما اليابان فقد انكفأت منذ منتصف التسعينات، بعد ما سبق كله أو بمواكبته، تتعثر فى حفرة عميقة هى ما تسمى بالركود Recession. وقد أصبحت هذه هى «الكلمة المفتاحية» التى يرددها الجميع فى طوكيو، وحار فى فهمها الكل: من أكاديميين ورسميين وأصحاب شركات، ولكن الرأى الغالب أنها نتاج قصور فى الطلب الكلى نتيجة التركيز اليابانى الطويل على كبح الطلب الاستهلاكى المحلى بما فيه الطلب على الواردات، مقابل التركيز على التوسع فى الطاقات الإنتاجية وفى تلبية الطلب الأجنبى على الصادرات.

ومع مفتتح القرن الجديد أخذ اليابانيون يدركون - تطبيقيا - سر «الوصفة» المبكرة للورد كينز الاقتصادى البريطانى الكبير ، والتى قدمها فى غمار ما سمى بأزمة الكساد العالمى الكبير (١٩٢٩ - ١٩٣٣). وقد كان كينز الداعية المبرز لما صار يعرف بعد ذلك بالسياسة الاقتصادية الجديدة، والتى تقوم على نبذ مفهوم الحرية الاقتصادية المطلقة للمشروعات الخاصة ودعوى السوق التنافسية الخالصة. وقد أكد فى مقابل ذلك على حفز تدخل الدولة بصورة انتقائية فى الحياة الاقتصادية، باستخدام أدوات السياسة المالية والنقدية، انطلاقا من ضرورة رفع مستوى الإنفاق الحكومى، وخاصة فى مجال الأشغال العامة، ومايتبعه من زيادة التشغيل أو التوظيف وضخ المزيد من الأجور ومن ثم تنشيط الطلب (الفعلى) الاستهلاكى والاستثمارى. وقد اعتبر ذلك مدخلا لابد منه للقضاء على البطالة ورفع مستويات الدخل القومى، ومن ثم: الولوج إلى دورة الانتعاش الاقتصادى.

وهكذا ومع مطلع الألفية الجديدة شرع اليابانيون فى تنشيط الطلب من جانبين:

أ - طلب الحكومة، وقد توسعت في (الأشغال العامة) وخصصت الأموال الهائلة في هذا السبيل، لزيادة مستوى الدخول المتاحة للإنفاق الاستهلاكي لدى الجمهور وامتصاص معدل البطالة المتنامي بآثاره الاقتصادية والاجتماعية الوخيمة (الجريمة والعنف.. إلخ).

ب - الطلب الاستثماري: وفي هذا السبيل شجعت الدولة الشركات على بناء المزيد من الطاقات الإنتاجية، رغم الآثار السلبية الماثلة في الأذهان للتوسع في (الإقراض الرديء). وقد أعلنت الحكومة سياسة(سعر الفائدة صفر) بغرض حفز هذا الطلب، وأصرت عليه رغم المصاعب. وأما الشركات نفسها فقد أخذت تداوي أنفسها بالتي كانت هي الداء: تخفيض حجم العمالة، والاستغناء عن كبار السن نسبيا من العاملين، والكف عن سياسة التوظيف مدي الحياة وعن الترقي (التلقائي) للموظفين والعمال، جنبا إلى جنب مع الاندماجات بين الشركات، جريا وراء (حمى الاندماج) في العالم الرأسمالي كله، بل وقد أدخلت لها شركاء من أوروبا وأمريكا لجذب الموارد المالية والتكنولوجية، مع إجراء الجراحات الصعبة، التي يطلقون عليها (إعادة الهيكلة).

الابتكار

أما في المجال العلمي - التكنولوجي تحديدا فقد أصدرت (وكالة العلم والتكنولوجيا STA) وثيقة بسياسة وقانون العلم والتكنولوجيا، وأخذت الجامعات ترخي قيودها المفروضة على إسهام الأساتذة في البحوث مع الشركات، وشرعت (وزارة التعليم والشباب والرياضة) تنظر في سبل تحديث النظام التربوي. وفي أروقة «الأكاديميا» ووزارة التجارة الدولية والصناعة (الميتي) ووكالة العلم والتكنولوجيا أخذ يجري الحديث صراحة وخفية عن ضرورة الخروج من جب الركود بالقفز إلى أعلى، على سلم التنافسية، قفزة تبدو فوق طاقة الجميع، سيكولوجيا فيما يبدو: قفزة الابتكار. وما أدراك ما الابتكار؟ إنه الابتكار الذي كان سمة وسمت اليابانيين في الستينيات والسبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين، حين كانت تلك البلاد تقف على «الحافة الرفيعة» للتقدم التكنولوجي، وحين كانت معامل البحث والتطوير في شركات تويوتا وهوندا ونيسان وهيتاشي وسوني وسانيو وميتسوبيشي وباناسونيك، تقدم

الجديد للعالم جميعا كل مطلع شمس ابتداء من أجزاء السيارة «الأوتوماتيكية» وانتهاء بالإنسان الآلى (روبوت).

والابتكار الذى يتحدثون عنه الآن ليس سياسة للابتكار، وإنما (نظام وطنى للابتكار) National System of In-novation - إنها الصيحة التى رفعها الأمريكيون ويلاحقها الأوروبيون - لا سيما البريطانيون - وكذا اليابانيون. وأما مركز الابتكار المنتظر فيعرفه اليابانيون جيدا، لأنه نقطة الضعف والنقص و(مربط الفرس): إنه ابتكار المجالين المبرزين من التكنولوجيا العالية «الهاى تك»: البيوتكنولوجيا من جهة أولى، والمعلوماتية - الاتصالية من جهة ثانية.

فهل ترى اليابان قادرة على أداء القفزة التاريخية، لتعاود السير إلى الأمام، بعد أن لبثت سنين عددا متقهقرة خلف حليفتها وغريمتها أمريكا، تلعق جراح الركود الذى يضنيها، وبعد أن زرعت حليفتها - غريمتها تلك فى قلب جيلها الجديد حمى وحمم الثقافة الأمريكية «الشائعة» فى أبرز صورها وربما أشدها رداءة: عدوى (مجتمع الاستهلاك) وما يتبعها من تكالب غير مبرر على اقتناء السلع غير الضروية، وانخفاض وقت العمل لصالح وقت الفراغ، أو طغيان الفراغ على العمل - حتى لتكاد (الفضيلة) اليابانية التقليدية أن تطاردها نقائضها القادمة من الخارج على أجنحة (السرعة)..!

والحق أن هذا زمن الحيرة والارتياب فى اليابان.

فهل يمكن لليابان حقا أن تعاود السير فى المقدمة؟ وهل تحقق قصب السبق - ولو «بالمشاركة» مع غيرها - فى حقلى «الحياة والألكترونيات؟ وهل تسترد جزء من استثماراتها الخارجية ومعها كوادرها وتكنولوجيتها ومواردها لتعزز قدراتها الإنتاجية المحلية؟

وهل يكون تنشيط الطلب النهائى - الاستهلاكى والاستثمارى والحكومى، قاطرة لدفع النمو الانتاجى - غير الفقاعى بالطبع؟

وهل تتحمل اليابان التكلفة القاسية لإعادة الهيكلة، وخاصة التضحية بـ (النظام الياباني) التقليدى والذى كان المشتغل فيه يعتبر الشركة بيته وقلعته؟

وهل تكون هذه التكلفة ثمنا لانطلاقة كبرى فى التكنولوجيا والابتكار ومن ثم: انطلاقة تسمح بانطلاقات متتالية لا تنى تتسع وتتطاول وتتعمق فى مسار الحرب الاقتصادية الراهنة المسماة بالتنافسية فى (عصر العولمة)؟

أم ترى اليابان تقبع فى مستنقع الركود لفترة قادمة - فإلى متى؟.. وهل تكون إعادة الهيكلة القاسية وإعادة تنظيم عنصر العمل بغير عائد يقابلها؟..

وعلى المدى الطويل: هل تظل اليابان أسيرة المشروع العالمى والإقليمى - الآسيوى للولايات المتحدة الأمريكية، فيكون تقدمها ظلا من ظلال شمس أمريكا غير المشرقة جغرافيا؟ أم تبزغ الشمس حقا من أرض الشمس المشرقة تاريخيا؟ وحينذاك تبنى اليابان مشروعها الوطنى

للتطور الاقتصادى والاجتماعى المستنير، فى اطار يابانى أصيل، نابع من تقاليد تاريخية ذات طابع (جماعى)، طابع شرقى - آسيوى (يتناساه الشطر الأعظم من النخبة اليابانية تناسيا الآن) - مع مصالحة تاريخية لابد منها إزاء بقية آسيا الشرقية وخاصة الصين وكوريا..؟

هل تفعل اليابان هذا أم ذاك؟

الخيارات

أم لا هذا ولا ذاك، فتظل أسيرة خيار وسطى (معتم تاريخيا): حيث تكون اليابان مع أمريكا - فى مواجهة آسيا، بمعنى ما، ومع أوروبا ولا سيما ألمانيا - فى عزلة نسبية عن إفريقيا بمعنى ما، وعن الوطن العربى والعالم الإسلامى أيضا، وتكون متأرجحة بين جماعية آسيا وفردية الغرب، إذا صح هذا التعبير؟

هى إذن خيارات ثلاث للمدى الطويل تطل من البعد برؤوسها الغامضة فوق اليابان.. يكتنفها قدر غير يسير من (انعدام اليقين).. ويظل اللغز الكامن خلفها جزء من لغز تطور البشرية كلها فى هذا القرن الجديد والذى تحكمه عدة متغيرات رئيسية منها:

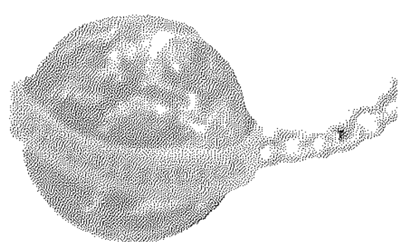
❏ الاضمحلال المتوقع للمشروع الامبراطورى الأمريكى عبر النصف الأول من هذا القرن.

❏ الصعود المتوقع لقوى جديدة، فى مقدمتها الصين، ودول يختلف ترتيبها بين الباحثين، فى جنوب شرق آسيا والعالم اللاتينى، وربما أيضا - ولم لا؟ - فى بعض من الوطن العربى وإفريقيا جنوب الصحراء.

❏ تسارع التقدم التكنولوجى - على جبهتى الحياة والاتصالات - جنبا إلى جنب مع اتساع جبهات الخطر البيئى على الكوكب الأرضى، لأسباب متعددة.

❏ صراع الرؤى الاجتماعية - العقائدية، من مداخل السعى إلى العدل الاجتماعى، وديمقراطية المجتمع، وتكاملية الروح الإنسانية فى تطلعها الكونى الدائب..!

❏ **تمثل هذه المقالة خلاصة من خبرة الكاتب من «المهمة العلمية، التي قام بها موفدا من معهد التخطيط القومي بالقاهرة إلي كلية الاقتصاد بجامعة طوكيو لمدة ستة شهور .**

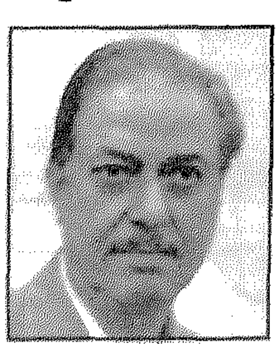


ملف العدد

الصّين وتوازن القوى

حامد الشناوى □

درج العالم فيما قبل على استخدام مصطلح توازن القوى إبان القطبية الثنائية أو عالم القوتين العظميين «الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى» للتعبير عن توازن القوى العسكرية والنووية .



وقد كان العالم غير عالم اليوم الأحادى القطبية، وحيث تنفرد قوة واحدة ووحيدة بالقرار على مستوى العالم ،تحكم وتتحكم وتدير مع بعض المنغصات أو القلاقل والمعوقات هنا وهناك . لكنها وفى النهاية القوى الأعظم الواحدة صاحبة القول الفصل .

ولعل الذهن يتجه بإيحاء المقدمة وعنوان المقال للصين كقوة دولية صاعدة ومرشحة لأن تحتل موقع القوة الثانية الموازية أو المحاذية للولايات المتحدة فى اتجاه إعادة التوازن الدولى المفقود . غير أن البحث ينحو منحى خاصا ويتخذ مدخلاً مغايراً وينظر من زاوية ثانية، ذلك أن ماتقوم به الصين الآن، وبالفعل من دور فى هذه المرحلة، مختلف ومغاير يمكن أن تكون الحياة بغيره أكثر قسوة وضراوة ومرارة .

وما أعنيه هنا الدور الاقتصادى الذى تلعبه الصين كأكبر منتج متعدد ومتنوع فى كل مجالات حاجيات الإنسان واحتياجاته ، وصاحبة الدور الأوفر فى تحقيق الإشباع اللازم لمستلزمات البشر على اختلافها من فانوس رمضان والمسبحة والسجادة والجلاليب والمطعم الصينى إلى الطائرات والقطارات والسيارات وأنواع المركبات ، إلى الإلكترونيات بغير ترك لشىء أو إهمال لحاجة . وفى هذا ليس للصين من فضل فهى صاحبة أكبر تعداد بشرى (١٣٠٠ مليون نسمة) وأكبر مساحة يابسة (٢٠٪ من مساحة الكرة الأرضية) ، وإنسان تجاوز محددات الانطلاق ومعوقاته نحو آفاق المستقبل بفعل إرادته وثورته الثقافية والاقتصادية وتطويره وتحديثه للفكر الاشتراكى الذى تعتنقه ، وخلقها للاقتصاد الموازى المشجع لطاقات القطاع الخاص ، والمحليات وكسر دائرة المركز والمحور الواحد ، مع العمل والسعى على جلب أعلى معدل عالمى للاستثمارات الأجنبية ، ولتكون صاحبة أكبر نصيب فى الأسواق الخارجية ، ومتفوقة فى ذلك بفعل دراساتها لسيكولوجيات المستهلك وقدراته المادية واحتياجاته ونوعية

□ كاتب وخبير اقتصادى



اهتمامه، ولتحقيق حجم إنتاج قومي يقدر بـ (١٦٥٠ بليون دولار) وتجارة خارجية بواقع (١١٠٠ بليون دولار) ومعدل نمو اقتصادى يبلغ (١٢٪ سنوياً) ونصيب فى الناتج العالمى يقدر بـ (٢٠٪ من رقم إجمالى الناتج العالمى) ولتصير صاحبة أكبر احتياطى نقدى (دولارى) فى العالم بما يحمله من آثار وإمكانات وقدرات تأثير .

والأرقام تعود إلى العام (٢٠٠٤) . ثم بفعل امتداد تأثيرها الإنتاجى والاقتصادى الممتد لثلثى سكان العالم أو سكان آسيا المحيطة بها وبخاصة الهند بما تمثل معه المحور وقطر الدائرة الاقتصادية لتلك المنطقة والعالم .

والعبرة أو محل البحث هو ليس هذا الحجم الكمى من الإنتاج والمنتج المتنوع وإنما فى الإنتاج الكبير الرخيص من جانب وفى سياستها السعرية، وهذه الأسعار الزهيدة القليلة القانعة المحددة بمالا يتجاوز ١٠٪ من أسعار المنتج المماثل من السلع الواردة من الغرب وأمريكا وحتى اليابان من جانب آخر .

حيث السلعة هى السلعة قد لاتكون بجودتها أو عمرها الإفتراضى ، أو بعض تقنياتها لكنها السلعة نفس السلعة والدور ذات الدور والغرض نفس الغرض ، والأمثلة بغير حصر ممتدة من أبسط الأشياء إلى الكهربائيات والإلكترونيات والحاسبات ومعدات الاتصالات والسيارات، إلى غير ذلك من المنتج الصينى المقابل لكل منتج غربى باهظ الثمن . وتصور المستهلك محدود الدخل المتطلع لحيازة الجديد من المنتج الضاغط

عليه بفعل وسائل الإعلان والدعاية والترويج ، عبر كل وسائل الميديا المطاردة للإنسان والملاحقة له . وهل كان له أن يتطلع لحيازة ما يحوزه الآن من أمرات ومعدات ومستلزمات، إذا لم تكن الصين قائمة فى السوق منتجة وموزعة بأسعارها الزهيدة الرخيصة .

الإنتاج الرخيص

هذا المنحى أخترت أن آخذ منه خيطاً واحداً .. جانبا ودوراً واحداً قد تكون قصدته الصين وهدفت له اتساقا مع أيدلوجيتها وكونها دولة من العالم الثالث ، وقد لاتكون قصدت وتكون رمية بغير رام . غير أن ذلك لايمنع من أن يسجل لها فضل ذلك وواجب الشكر عليه . هذا الخيط أو هذا الدور - كما قلت بشكل خاص - يتمثل فى سياساتها السعرية وهذا الإنتاج المتنوع الرخيص الذى تتيحه وتعرضه والذى حقق للطبقات غير القادرة والمحدودة الدخل على مستوى العالم الحق فى التطلع لحيازة هذه الأشياء والتى ما كان لها أن تشتريها أو تحوزها ، مع أسعار العشرة أضعاف المعروض به مثيلها الغربى، وما كان لها أن تقتنيها أو تستهلكها أو حتى تتعرف عليها بغير الحسرة والنظر عن بعد ، والتطلع بألم وبمزيد من القهر والمعاناة ، ومن الشعور بالعجز والدونية وعدم القدرة وهى معان مرة مؤلمة ومزعجة، وبخاصة مع ما قلت من مطاردة الفضائيات وقنوات التليفزيون والمساحات المتاحة للإعلان فى الصحف وفى الشارع وفى كل مكان ، وأينما كنت وبكل وسيلة . وهذا مناط البحث ونتيجته،، وحيث لايتعرض لمسببات وما وراء وكيفية تحقق هذه الطفرة الإنتاجية هذا الكم الهائل وهذا المقدار من التنوع الممتد والمستوعب لكل حاجيات البشر مع هذا السعر المنخفض اليسير وهذه المعادلة الصعبة مناط بحث آخر . لكننى فقط أتناول تأثير هذه الحالة على المستهلك الفقير أو محدود الدخل أو مستهلكى وإنسان العالم الثالث أو النامى .

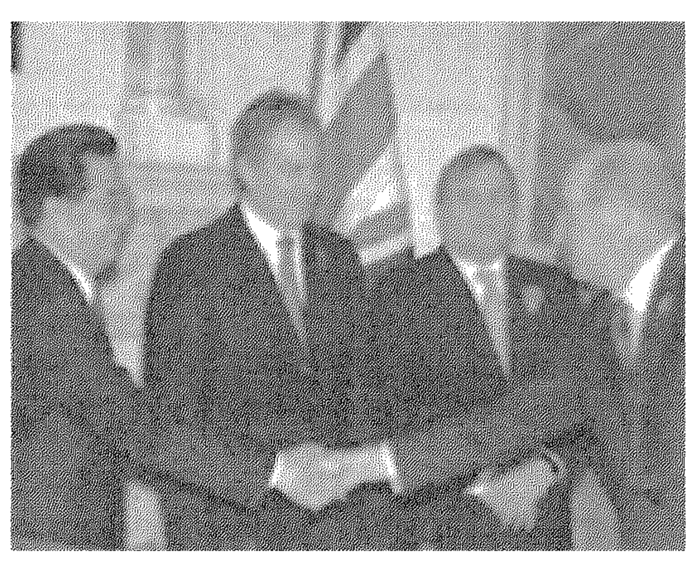
ثم إننى لا أتناول كذلك سحب هذه القوى الشرائية من رصيد مستهلكى المنتج الغربى والأمريكى وتأثيره على الإنتاج فى هذه البلاد، وعلى اقتصادياتها وعلى الدورة الاقتصادية ومعدلات النمو والتقدم، وهى كلها حلقات متصلة وسلسلة متشابكة لانهائية من التداعيات والآثار والنتائج . والتى تمثل جميعها نحتا من المتاح اقتصاديا لتلك الدول لحساب الصين ولصالحها . و

هو مادعا الولايات المتحدة للضغط المتواصل، وعلى بذل قصارى جهدها لكسر هذه الحلقة الجهنمية الدائرة وغير المتوقعة فى سبيل رفع سعر صرف اليوان ورفع قيمته فى مقابل العملات العالمية الأخرى كوسيلة للحد من انخفاض أسعار السلع الصينية والحد من انتشارها وللحيلولة دون هذا المد المتواصل فى كسب الأسواق بما فيه السوق الأمريكية، والتى واجهته فيها برفع الضريبة الجمركية على السلع الواردة من الصين، وبرفع قضايا إغراق فى مواجهتها، وهى فى كل هذا وفى النهاية تستهدف فقراء العالم وتحجيم

قدرتهم على الشراء وفرض سلعها الغالية الثمن لمن يقدر على شرائها بدلاً من أن تسعى لتقديم منتج رخيص منافس يكون فى متناول القطاع العريض من مستهلكى السلعة الصينية، تسعى نحو حرمانهم من هذه السلعة من خلال دفع الصين لزيادة ورفع أسعار سلعها كنتيجة لزيادة قيمة ورفع سعر صرف اليوان وهو ما تقاومه الصين وترفضه وتمتنع عن الأستجابة له . وهو الموقف المبدىء المتسق مع قيمتها وفكرها والمحسوب والمحسوم لصالح ذوى القدرة المحدودة من المستهلكين ، بما فيهم مستهلكى سوقها المحلية الواسعة بما يزيد على المليار نسمة وهو مايؤكد على الأهمية الاقتصادية والاجتماعية للصين هذه الأيام.

قد يقول قائل بأن هذا التسعير وهذه السياسة تحقق للصين دائماً صالحها فى الميزان التجارى، من خلال تزايد قدرتها على التصدير، وحيث تحول هذه السياسة السعرية دون أية قدرة على المنافسة لها من جانب الدول الأخرى والرد . وماذا فى هذا والعالم متسع للمنافسة، وليكن الميزان التجارى لدولة ما مع الصين لصالح الصين ويكون التوازن على حساب صادرات تلك الدولة لدول أخرى بمايمكن أن يحقق فى النهاية صالح تلك الدولة أو على الأقل تحقيق التوازن اللازم لميزانها التجارى .

هكذا فإن ما أردت إبرازه وقوله إنما



بريطانيا تطلب ود الصين

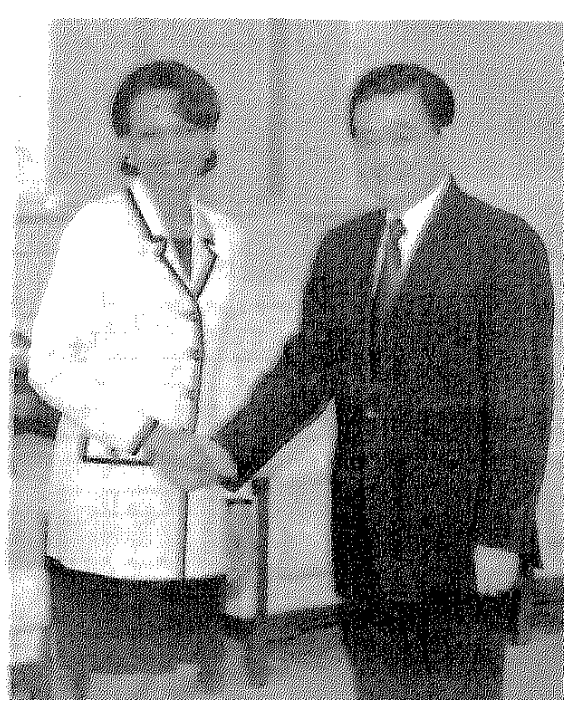
يعود على الدور الاجتماعى للسياسات الاقتصادية الصينية، ودورها فى هذا المجال فى عالمنا المعاصر كدور أحادى منفرد فى مواجهة الغلاء المفتعل فى الكثير منه بفعل الاقتصاديات الرأسمالية المستغلة، وباعتبارها حاملة دعوة ولواء «سلعة رخيصة لمواطن فقير» بما يحمله المعنى من تقريب للفوارق الاجتماعية بين الناس، وهى رسالة مستمرة لفكرها الاشتراكى، وإحساسها العام بالفقير وغير القادر، والذى يمثل غالبية شعبها وشعوب العالم الثالث .

وهى رسالة ودور غاية فى الأهمية كسبيل لتحقيق السلام الاجتماعى على مستوى خريطة العالم، وهل بعد ذلك يستمر التوجه والاتجاه نحو الغرب أم نتجه الآن وفى ضوء ظروفنا وقدراتنا الاقتصادية وامكانات ودخول المصريين المتدنية لهذا البلد الواعد، ولعل فى الاقتراب من التجربة الصينية مايمكن أن يحل لنا مشكلة كون زيادتنا السكانية عبء وليست ميزة، وهو مايمكن أن يكون فى

ضوء تجربة بلد فى حجم سكان مصر ستة عشر مرة .

وفى ذلك يمكن أن أعرج على الماكينة الإنتاجية الرخيصة التى تقوم عليها الآن العديد من المصانع الصغيرة والمتوسطة فى العالم الثالث، والتى كان يمكن أن يحرم من ناتجها تلك الدول حال عدم توافرها واقتصار المتاح أو العرض على الماكينة الأوروبية والأمريكية التى تعجز كل إمكاناتنا عن توفيرها .

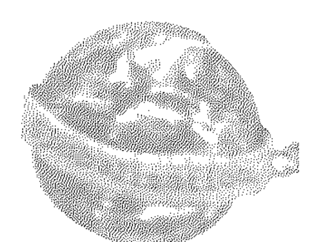
ثم أن البحث يترك لمجال آخر – كذلك– تفصيل مايستلزم هذه الطفرة الاقتصادية من ضرورة توفير الحماية العسكرية لها ، وهو مايتأكد بشكل شبه يومى حيث وصل التسلح الصينى درجة مستوى رفيعاً فى كافة المجالات البرية والبحرية والجوية والصاروخية (٣ ملايين جندى – أكبر جيش فى العالم) بما يضاهى ويماثل القوة الأمريكية ويقف أمامها بنفس الدرجة برغم إيمانها بسلمية صعودها وبمبدأ الصعود السلمى الذى تنتهجه مع تراجع زمن الأيدلوجيات وبروز زمان المصلحة والمصلحة الاقتصادية تحديداً ، والتى صارت ميدان وأرض المعركة الجديدة بين دول العالم الكبيرة، فالصراع صراع اقتصادى والغلبة فيه للمنتج الأكبر والأكثر تنوعاً والأقدر على عملية غزو الأسواق والأكثر مبيعاً وهو ماتؤكد عليه كافة المؤشرات الاقتصادية لصالح الصين الصاعدة الواعدة والقادمة، والعالم الآن إن لم يكن – بفضل ذلك – يتجه نحو



الصين قوة اقتصادية فى مواجهة القطب الأوحد

تحقيق التوازن الدولى المفتقد فى ظل القطبية الواحدة، فهو فى حده الأدنى يتجه مؤكداً نحو عالم متعدد الأقطاب والقوى كسراً لدائرة الدولة الواحدة والقوة العظمى المنفردة، بكل مايعانيه العالم من تفردها ووحدانيتها وأحادية القرار . بما ينبىء بتغير ما مع صعود القدرات الاستراتيجية والسياسية والمعنوية بفعل القدرة الاقتصادية المتنامة للصين فى اتجاه القطبية الثنائية .

وهى دعوة لمزيد من الضغط فى اتجاه كسر حلقة القطب الواحد وهل الأمس بمثل اليوم .. المؤكد أن المتابع للموقف السياسى العالمى، فيما بين قوى العالم الكبرى يمكن أن يتأكد من أن الأمس ليس بمثل اليوم، وأن الوحدانية فى تراجع والأنفراد فى انسحاب، وأن ليس الغد بمثل اليوم .

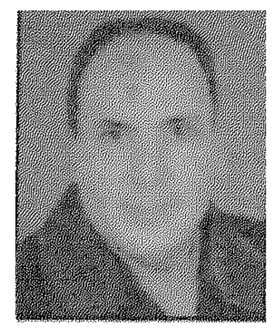


تجارة البشر

د. بركات محمد مراد □

أكدت دراسة علمية حديثة صادرة عن مركز دراسات اللاجئين بجامعة أكسفورد البريطانية أن تجارة البشر تعد ثالث أكبر نشاط إجرامي في العالم بعد تجارة السلاح لكنها تظل الأسرع نموا، وأن أرباح استغلال النساء والأطفال جنسيا من خلال تجارة البشر تقدر بنحو ٢٨ مليار دولار سنويا.

الدراسة صدرت في كتاب يحمل عنوان (الاتجار بالنساء والأطفال.. مكافحة تجارة الجنس غير المشروعة) والدراسة من إعداد هيذر مونتجمري وزسادي ساس كروبوني وروز إيفانز. وقد تولى معهد دراسات السلام التابع لمكتبة الإسكندرية ترجمة الكتاب ونشره. وتشير الدراسة إلى أنه وفقا لتقديرات منظمة العمل الدولية، فإن هناك نحو مليوني شخص يتم الاتجار بهم عبر الحدود سنويا، أغلبهم من النساء والأطفال . علما بأن أسباب الاتجار في البشر تتعدد وتتداخل بشكل معقد ومتشابك. ولعل أهم هذه الأسباب يتمثل في الأرباح الوفيرة التي تتيحها هذه التجارة في وقت قصير وبتكلفة إنشائية بسيطة.



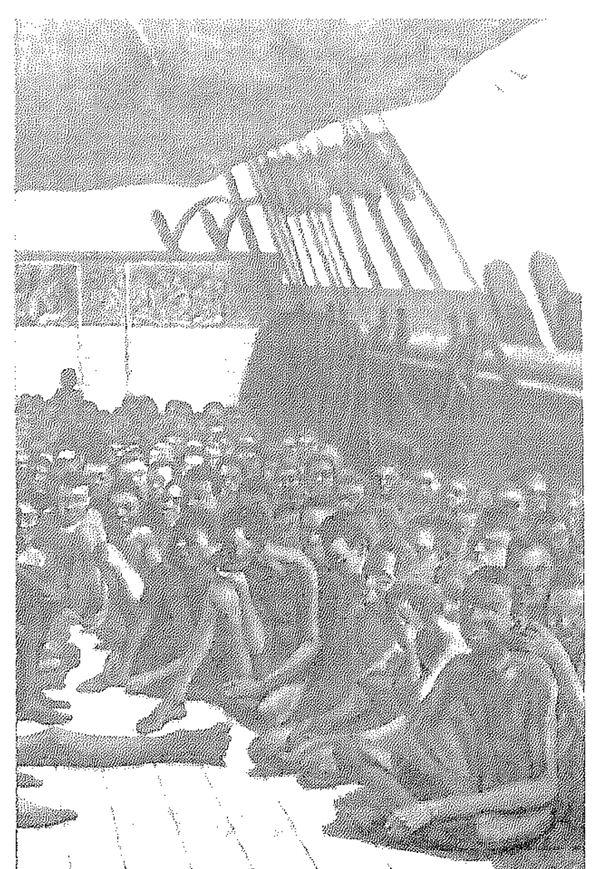
كذلك فإن مخاطر المقاضاة الجنائية تكون ضئيلة في معظم الدول، حيث تشير الأرقام العالمية خلال عام ٢٠٠٤م على سبيل المثال إلى ٦٨٨٥ حالة مقاضاة فقط لم تتم الإدانة في ٣٠٢٥ حالة فيها. في الوقت نفسه - كما تشير الدراسة - فإن العقوبات المقررة في هذا المجال ما زالت أقل بكثير من عقوبة الاتجار في المخدرات . أضف إلى ذلك عوامل أخرى تزيد من فرص انتشار تجارة البشر، وهي عوامل ترتبط بالضحايا أنفسهم، مثل الفقر والتمييز الجنسي والتفكك الأسري والعنف والصراع المسلح والنزوح، وغيرها، كل هذه الأسباب تتداخل - وفقا للدراسة - أدت إلى انتشار هذا النشاط المجرم الذي يعد انتهاكا فاضحا لحقوق البشر، حيث يتجاوز أثره السيئ الأفراد ليطول العائلات والمجتمعات والدول.

فالضحية في تجارة البشر تتعرض لآثار نفسية مدمرة وأشكال مختلفة من الإيذاء النفسي والبدني والعاطفي، كما تتعرض الضحايا للأمراض المنقولة جنسيا كالإيدز وغيره، ويعانون باستمرار من الخوف والتهديد بالعنف ضدهم، أو

□ كاتب وأستاذ جامعي

ضد عائلاتهم أو أصدقائهم، كما أن الضحية كثيرا ما يتم بيعها عدة مرات، وهو ما يضاعف من الآثار السيئة.

وكمثال صارخ على ذلك ما نجده من بيوتات تكثر على طريق "فوكلاند" في مدينة بومباى الهندية . فى النهار والليل تعرض الفتيات إغراءاتهن على مداخل أقفاصهن، وكثيرات منهن كن ضحية القوادين، كما أن الكثيرات جرى بيعهن من قبل ذويهن أو أزواجهن. وهناك حوالى ٥٠٠ ألف بائعة هوى فى المدينة ونصفهن يعملن على طول الطريق الذى يصل بين نيبال وبومباى (١٦٠٠ كلم)، وحيث سرعان ما يفقدن حياتهن قبل بلوغهن



الأربعين لأسباب كثيرة أهمها العنف والأمراض وقلة التغذية.

العبودية : أشكال جديدة : وعموما مازال الكثيرين يعتقدون أن العبودية ظاهرة مضى عليها الزمان، وتستمر مجرد صور أليمة من الماضى . ففرنسا على سبيل المثال أصدرت عام ١٨٤٨ قانون يحرم العبودية، وأبعد من ذلك، ما زلنا نستعيد صور العبيد فى حقول القطن الأمريكية فى القرن التاسع عشر ... فى هذه الفترة - يقول "مايكل دو تريدج" المدير السابق لمؤسسة "محاربة العبودية" التى أنشئت فى العام ١٨٣٩م، أن أصحاب الحقول كانوا يعمدون إلى شراء العبيد من "القراصنة البيض" وإجبارهم على العمل فى أقسى الظروف.

أما اليوم فقد اتخذت العبودية أشكالا أخرى ليس أقلها أن يرهن الإنسان كل حياته لتسديد ديون تتراكم عليه من قواد إلى آخر، "أملا بحياة أفضل"، يضيف دو تريدج :" وإذا كانت مثل هذه العبودية إلى ازدياد بنسبة عالية، سنة تلو أخرى، فذلك دليلا على ارتفاع نسبة المحرومين والبؤساء فى العالم".

تقوم مؤسسة "محاربة العبودية " فى أحد أحياء لندن، هادئة بلا روح، تعلو جدران مكاتبها المتعددة صور لعدد من العبيد الجدد : عمال من غرب إفريقيا، أطفال باكستانيون وتايلاندون لا يتعدى عمر الواحد منهم ست سنوات يُخطفون ليتم بيعهم فى الأسواق والأوربية، إما لتأدية أعمال قاسية صعبة أو لممارسة أعمال بغاء شاذة بناء لطلب مئات

الرأسماليين الذين يتوزعون القارة الأوربية وبعض الشرق الأقصى، وهناك العديد من المستثمرين فى غابات الأمازون الاستوائية الذين يسّخرون آلاف العمال الفقراء فى الهند يعملون فى القطاع الزراعى، فقط لسداد ديون تعود إلى أيام أجدادهم وآبائهم، وحيث جرت العادة أن ينتقل الدين من الأجداد إلى الآباء فالأحفاد، وبذلك تنتقل العبودية من جيل إلى آخر.

العبودية والعولمة : انطلاقا من هذه الحقائق تشهد حركة التجارة البشرية وعبوديتها فيما بعد ازدهارا كبيرا. وإذا تمكنت العولمة من تسهيل حركة الصادرات والواردات، وأيضا التبادل المالى، فإن تجارة الرقيق تسير فى خط معاكس تماما . فعندما يحاول ملايين البؤساء حول العالم تحسين أوضاعهم المعيشية المزرية بالانتقال إلى الدول الغنية : أكان ذلك بالطرق الشرعية، وتحديدا الهجرة، أم بالطرق الملتوية الدخول خلسة، فإنهم يصطدمون بعوائق وحواجز أخذت بالتزايد بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى كل من نيويورك وواشنطن. ذلك أن الدخول الشرعى لم يعد متيسرا إلا للمقتدرين ماليا، وهؤلاء أكثر من واحد بالمئة من المهاجرين، فى حين أن الأكثرية الساحقة التى تحاول مغادرة بلادها إلى أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا واستراليا، فإنها غالبا ما تقع ضحية شباك عصابات التهريب التى سرعان ما تحولهم إلى عملة للمقايضة بين هذه الشبكة أو تلك يصعب الفكاك منها، ما يجعلهم عبيدا فى أسواق النخاسة



والدعارة وغيرها من الأعمال القذرة.

ذلك ان عصابات التهريب، تعمد من فترة إلى أخرى إلى رفع أسعارها، ما يفرض على عشرات ألوف البؤساء، تمضية سنوات طويلة فى أعمال كادحة لتسديد ديونهم، وغالبا ما يعجزون، خصوصا أنهم يعملون بالتهريب، وبالطريقة التى دخلو بها، وهم فى جميع الحالات مطاردون من القوات الشرعية والعصابات على السواء.

الإنترنت وبيع الأطفال : قال سارتر ذات مرة "الإنسان يكتب ليحذر". الجريمة وجدت على الأرض منذ وجد الإنسان، وتنوعت أشكالها وأدواتها تكاثرت مع تعقد الحضارة البشرية، وتزايد الابتكارات العالمية، فمع اكتشاف الزراعة ظهرت جرائم حرق وإغراق المزروعات، وسرقة

المواشى وتسميم الحيوانات، وبعد اختراع السيارة ظهرت جرائم سرقة السيارات، وعندما جاء التليفون ظهرت جرائم الخداع والمضايقات عبر الهاتف، وبعد اختراع الطائرات، ظهرت جرائم اختطاف الطائرات، ومع ظهور الإنترنت، ونموها السريع وانغماس عشرات الملايين فى نشاطاتها المعلوماتية والتجارية والترفيهية، وجه البعض نشاطاتهم الإجرامية إلى هذه الشبكة العالمية، وهو أمر طبيعى ! فالجريمة موجودة فى أى مجتمع، مهما كان صغيرا، فما بالك بمجتمع الإنترنت الذى تجاوز عدد مواطنيه مئات الملايين.

والجرائم التى تدور عبر الشبكة متنوعة، وتتراوح بين الجنح الصغيرة والجرائم الخطيرة، منها الاحتيال واستغفال الآخرين حيث، سهّل البريد الإلكترونى بعض أنواع الاحتيال، نظرا لسرعة وسهولة إرسال الرسائل، وقد تعددت الأجناس والأنواع من الجرائم المختلفة والتى تتم الآن عبر الإنترنت، وليس آخرها جريمة بشعة هى تجارة الأطفال لأغراض الجنس، والتى لها عدة صور منها:

١ـ دعارة الأطفال، وهى تجارة الاستغلال الجنسى للأطفال.

٢ـ التجارة وبيع الأطفال لأغراض جنسية.

٣ـ بورنو جرافيا الأطفال Child Pornographyوهى استخدام الطفل كمادة للصور والأفلام الداعرة.

والعجيب أن شبكات استغلال الأطفال فى الدعارة تجد حماية رفيعة المستوى فى بعض الدول، بل يمكن ان نقول أن تلك الشبكات تحولت إلى شركات متعددة الجنسيات من حيث انتشارها وقوتها، فقد أصبحت صناعة كونية، وسهل ذلك التكنولوجيا الجديدة من كاميرات فيديو منزلية وإنترنت والتى يقدم فيها مئات الألوف من الملفات عن الاستغلال الجنسى للأطفال، وإذا كان الهدف النهائى لتلك الشبكات هو استغلال الأطفال جسديا بغرض الكسب المادى (فى إيطاليا وحدها تحقق دخلا يزيد على ٣ مليارات دولا فى السنة)، فإن ذلك يسبقه جرائم خطف واغتصاب وقتل الأطفال والتمثيل بإنسانيتهم لإشباع شهوات شاذة، تمثل مجتمعة جرائم شاذة ومهينة ضد المجتمع الإنسانى.

وهناك أكثر من عشرة ملايين طفل فى العالم يتم تقييدهم فى تلك الشبكات، وفى كل عام يدخل تلك الشبكات حوالى مليون طفل جديد من قارة آسيا وحدها، حيث يتم اغتيال طفولتهم، ونشر إعلانات عنهم فى الإنترنت، وتشغيلهم فى هذه الشبكات مستغلين الظروف الاقتصادية المتدهورة فى دول العالم المتخلف.

لقد عظّمت الإنترنت تلك التجارة البشعة، ودعمت خطوط مواصلاتها، فخريطة العالم لحركة الموصلات تظهر العالم وهو محاط بحلقات صناعة وتجارة الجنس التى يستغل فيها الأطفال، ومن الخريطة رصد أحد الباحثين المناطق المصدرة لهذا النوع من التجارة فكانت:



١ـ أوربا الشرقية التى أصبحت بديلا للشرق الأقصى لانخفاض تكلفة النقل إلى الدول الغربية، خاصة بعد المذابح فى البوسنة والهرسك.

٢ـ تايلاند : وهى مركز رئيس لتلك التجارة منذ زمن طويل، وهى ملتقى لكل المفاسد والشذوذ وليس لاستغلال الأطفال فى تجارة الجنس فقط، وهى محور أيضا لتقديم الخدمات الجنسية للعالم حيث تتقاطع فيها خطوط تلك التجارة.

٣ـ منطقة غرب إفريقيا : هى مركز رئيس لتصدير الفتيات الصغيرات للغرب.

٤ـ منطقة النيبال وبنجلاديش: تصدّر أطفالها أولا إلى الهند، ومنها يتم التصدير إلى الخارج، وفى سيريلانكا يتم استغلال الأطفال والصبية والخدم فى أعمال الدعارة.

٥ـ أمريكا اللاتينية : تزداد فيها تجارة الجنس، خاصة البرازيل وجمهورية دومينيكان، حيث يتم تصدير الأطفال إلى أوربا الغربية والشرق الأقصى.

وإذا انتقلنا من منابع خطوط مواصلات تجارة الجنس إلى المناطق التى تصب فيها، نجد أنها ثلاث مناطق رئيسية : المنطقة الأولى : الولايات المتحدة الأمريكية، وتصب فيها التجارة القادمة من تايلاند والفليبين بصفة أساسية . المنطقة الثانية : أوربا الغربية تصب فيها روافد قادمة من دول أمريكا اللاتينية وأوربا الشرقية وتايلاند وغرب إفريقيا. المنطقة الثالثة : استراليا ونيوزلاندا لها روافد من تايلاند والفليبين.

طفل للبيع : وامتدادا لهذه التجار البشعة، أصبح للأرحام سوق تجارية -

تجارة البشر

بعد تقدم عمليات إخصاب اطفال الأنابيب ونجاحها فى العقود الأخيرة ـ وضمن هذه الاتجاهات المتطرفة تم افتتاح أول وكالة دولية أوربية لتأجير أرحام السيدات فى مدينة فرانكفورت فى ألمانيا الغربية، وقام بتأسيس هذه الوكالة محام شاب يدعى "نويل كوين" وكان هذا المحامى قد أسس وكالة مماثلة فى ولاية ميتشجان الأمريكية منذ عشر سنوات.

تقول مديرة الوكالة الأوربية الجديدة "هاتيلور سيلدر": "إن الوكالة تلقت ١٢ طلبا خلال اليومين الأولين بعد الافتتاح"، وتضيف بان رسوم تأجير الرحم تبلغ حاليا ٣٠ ألف دولار توزع كالاتى : ١٠ آلاف دولار لمؤجرة الرحم، ١٥ ألف دولار للوكالة، ٥ آلاف دولار مقابل مصاريف الولادة والمصاريف الثانوية.

وقد تكشفت بعض المآسى لهذه الوكالات الغربية، مثل تلك الشقراء التى أنجبت طفلا أسود من زوج أبيض، وهى حكاية "سنيورا روزيتا" تلك السيدة التى عانت من حرمان الإنجاب، وبعد موافقة زوجها الذى يعانى من العقم قررت أن تجرب التلقيح لصناعى فى بنك خاص للحيوانات المنوية فى نابولى، ونجحت التجربة، وكانت السيدة روزيتا سعيدة عندما أصبحت حاملا، حتى أنها أخذت تخطط للمستقبل بالاشتراك مع زوجها، لكن الولادة جاءت (صدمة) غير عادية لروزيتا وزوجها، فالطفل كان (أسود) وحاول المسؤولون عن التجربة، كتمان الفضيحة، ولكن القصة وصلت إلى مسامع وزير الصحة الإيطالى "كوستارنت ريفات" وصلته فى تقرير من الدكتور"لويجى رانا" رئيس المجلس الإيطالى لاستشارات الحمل، فأوصى بإغلاق بنوك الحيوانات المنوية الخاصة فى البلد . وعلق الدكتور "لويجى لارانا" على هذه البنوك:" إنها منحلة ولا تتحمل المسؤولة، وقضية المرأة ذات الطفل الأسود تبرز المخاطر التى تنطوى عليها، وهى مخاطر تتعلق أساسا بأمانة الطبيب واحتياطات التجربة".

ويقول الدكتور "سمير غويبة :" عندما يتأمل المرء فكرة تأجير الأرحام (أو الأمهات بالوكالة) يكتشف أن هذه الفكرة تتنافى مع كل الدعوات لتكريم المرأة وصيانتها من (الابتذال بالتعامل معها كالبهائم القادرة على الحمل والإنجاب، مما يحمل الكراهية الاجتماعية والدينية،، فشراء جسد المرأة وتأجير الرحم إلى فترة معلومة، يحمل معه مضاعفات جسمية ونفسية للأم. وإن هذه الفكرة ستكون مدخلا لكثير من الشرور، وذلك بسبب تسابق كثير من الأمهات اللاتى يعانين من الفقر إلى تأجير أرحامهن، وينتج عن ذلك احتراف بعض الأمهات لهذه المهنة، كما هو الحال فى الاتجار ببيع الدم، وهو فى الواقع ما حدث بعد إنشاء وكالات التلقيح الصناعى، والتى تمارس نشاطها على أوسع نطاق فى الخارج. ومما يسهل هذه الجريمة، سعى وكالات الأم بالوكالة أن يظل الطرفان الأم بالوكالة والأبوان صاحبا الجنين مجهولين، فلا يعرف فى كل منهما الآخر، وذلك إمعانا فى التضليل



والخداع، وتسهيلا في الوقوع في المحرمات وأولها حرمت المصاهرة بسبب الأمومة بالوكالة.

شبكات متعددة الجنسيات : وسط هذه الفوضى العارمة، يبدو من الصعوبة البالغة ملاحقة عشرات آلاف عصابات التهريب المنتشرة من أدنى العالم إلى قصاه وهذا ما أكده عالم الاجتماع اليوناني البروفسور "غريغورى لازوس" فى دراسة اخيرة أصدرها، ويكشف العلاقة الوطيدة والمتداخلة بين تجارة البغاء والعبودية.

" ومن الضرورى بمكان الفصل بين أفراد يتاجرون بالبغاء وشبكة كبيرة ينضوى تحت لوائها عشرات العصابات ووكالاتها ومواقعها على الإنترنت وحساباتها المصرفية..." يقول "لازوس" ويضيف :" يمكن لكل صاحب بار واحد أو أكثر فى اليونان أن ينتدب سمسارا له ليتوجه إلى جنوب بلغاريا على سبيل المثال بهدف شراء بعض الفتيات نقدا، حيث يصل ثمن الفتاة فى هذه المنطقة إلى ألف يورو، إنما بقليل من المقايضة يمكن شراء فتاتين بالسعر نفسه، خصوصا إذا تمت عملية البيع والشراء، يومى السبت والأحد، على اعتبار أن أكثر هذه العلميات تتم فى العطلة الأسبوعية بعيدا عن عيون الشرطة والأجهزة الأمنية".

ومن النقدى إلى الحوالات المصرفية التى تعتمدها شبكات التهريب الكبرى، خصوصا إذا تمت العملية بين دولتين متباعدتين، وبهذه المعاملة يكفى أن يطلب أحدهم فتيات من موسكو لتصل (الطلبية) عن طريق رومانيا مثلا ما يفيد أنه ليس من الضرورى أن يعرف الشارى البائع شخصيا حتى إتمام الصفقة، وما على المستورد سوى تحديد شروطه من خلال الهاتف أو الفاكس أو أى وسيلة أخرى:

اللون، الطول، الجنسية، العمر .. وقبل هذا وذاك الأعداد المطلوبة من الفئة الأولى أو الثانية أو الثالثة.

ويكشف عالم الاجتماع اليونانى عن أرقام مذهلة وصادقة تفضح حجم تجارة الرقيق والبغاء فى اليونان "فخلال الفترة ١٩٩٠ - ٢٠٠٠م تعددت الأرقام ٥و ٥ مليارات يورو، وكان نصيب العاملات لحسابهن الخاص، وغالبيتهن يونانيات، ٥ و ١ مليار يورو". وما فضحه العالم فى دراسته الإحصائية - على ما يذكر الباحث البير خورى - حول شبكات التجارة الشاذة لم يفاجئ السلطات اليونانية، ولا أيضا منظمة "تجارة العبودية" التى جندت أعدادا كبيرة من عملائها لملاحقة عمليات التهريب والبيع انطلاقا من مرفأ تريستا التى تعتبر بوابة البلقان إلى شمال إيطاليا، حيث تم إعتقال جوزيب لانكارك، وهو سائق سابق من زغرب (كرواتيا) تحول بسرعة قياسية إلى صاحب ومدير شركات طيران عدة فى كل من ألبانيا ومقدونيا، بتهمة تهريب آلاف الشباب



والشابات للعمل فى البغاء، أو فى بعض المؤسسات الصناعية، بأسعار رخيصة جدا، فى دول الاتحاد الأوربى، وتبين لاحقا أن زوجته اليابانية الأصل كانت تؤمن له وسيلة الاتصال مع الشبكات المماثلة فى العديد من الدول الآسيوية، خصوصا الصين.

وقد حقق الزوجان ثروات طائلة من خلال فتيات كرديات، وعراقيات، وإيرانيات، ومن كل البلاد التى يعانى مواطنوها من أزمات اقتصادية ومعيشية بفعل البطالة والتضخم وارتفاع الأعباء، وحيث تبدو استعدادات هؤلاء لكل التضحيات لتحسين مداخيلهن، وهم فى واقع الحال يجهلون مصيرهم الأسود فى البارات والنوادى الليلية وبيوت الدعارة.

وتكشف التقارير عن أرقام مذهلة، ففى تسعينات القرن العشرين تمكنت شبكات المافيا والتجار الصغار من (تصدير) ٣٥٠ ألف فتاة فى السنة الواحدة إلى دول أوربا الغربية انطلاقا من منطقة تريستا فى إيطاليا، وحيث كانت القوافل تنطلق ليلا عبر الجبال العاية والغابات المعتمة عند حدود سلوفانيا . وإذا كانت تلك الدروب تصل ما بين عدد من الدول الفقيرة الدخل والمصادر، فإنه على بعد آلاف الكيلومترات منها تزداد يوما بعد يوم قوافل الهاربين من دول أمريكا الوسطى إلى الولايات المتحدة، وحيث تنتظرهم العبودية أيضا بأبشع أشكالها ومظاهرها.

الضحايا نساء وأطفال : وتؤكد الدراسة "الاتجار بالنساء والأطفال" والتى



هى من إعداد مونتجمرى وزوسادى ساس وروز إيفانز" أن نسبة ٩٨ ٪ من ضحايا الاتجار فى البشر هم من النساء والفتيات والأطفال، وتقدر المنظمة الدولية للهجرة عدد النساء اللاتى يعملن بالدعارة من خلال الاتجار بالبشر بنحو نصف مليون امرأة سنويا، وذلك لأسباب عديدة أهمها انتشار العنف والتمييز ضد المرأة عالميا ونقص التعليم بما يؤدى بدوره إلى قلة فرص العمل المناسبة وهو ما يجعل النساء أكثر عرضة للانخداع بوعود تجار البشر الكاذبة.

والأطفال فى بعض الأحيان يكونون أكثر عرضة للوقوع ضحايا لهذا النشاط أكثر من البالغين لاسيما عندما تعانى العائلة من الفقر الشديد، عندئذ يتحول الطفل إلى سلعة، ووفقا لتقديرات صندوق الأمم المتحدة للطفل(يونيسيف) فإن عدد الأطفال تحت سن ١٨ سنة الذين يتورطون فى تجارة البشر سنويا بغرض العمالة الرخيصة أو الاستغلال الجنسى يبلغ نحو ٢ و ١ مليون طفل.

وفى حالات الحروب ينخرط الكثير من الأطفال فى الصراعات عن طريق تجارة البشر أيضا، حيث يشتركون فى القتال، أو يتم تجنيدهم ليصبحوا رسلا أو جواسيس أو طهاة للطعام أو حراسا أو عناصر للخدمات الجنسية، وفى بعض الأحيان يتم إجبارهم على ذلك مقابل الطعام أو المأوى أو تأمين خروجهم وذويهم من مناطق الحروب.

وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م اتخذت السلطات الأمريكية المزيد من التدابير الأمنية خصوصا عند الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة، ما ضاعف أسعار عمليات التهريب من ألف يورو للشخص إلى ألفين، وفى بعض الأحيان إلى ضعف هذا المبلغ، الأمر الذى ضاعف بالتالى إمكانيات استعباد "الفارين" من قبل العصابات والسماسرة.

ويتـأكـد ذلك فى بلدة إيمـوكـالى فى فلوريدا حيث يجتمع يوميا مئات العمال المكسيكيين بين رجال ونساء بحثا عن العمل فى المزارع لقاء أجور زهيدة، ولشدة المأساة المتعاظمة تمكن هؤلاء أخيرا من تأسيس تجمع للدفاع عن حقوقهم وتحسين أوضاعهم، ونظرا لافتقارهم الأوراق الثبوتية، فإن القوانين لا تراعى أوضاعهم، وحيث لا يتعدى مدخول الفرد منهم ٧٥٠٠ يورو فى العام يدفعون ثلاثة أرباعها رشاوى لرجال الأمن مقابل السماح بالبقاء، ومثل هذه الحالة تضع عشرات آلاف المهاجرين والمهاجرات أمام مصير لا فكاك منه : أعمال شاقة لقاء لقمة العيش والنوم فى أكواخ بدائية .. أى العودية إلى عصور العبودية فى العقود الأولى لظهور الولايات المتحدة، ومن يتمكن من الفرار، عندما تسنح له الظروف، فإنه سرعان ما يُستعاد بالقوة حتى يفى دوينه الكبيرة. وحتى تجمل الولايات المتحدة من هذا الوجه القبيح من الاستغلال والذى استمر طوال عقود عديدة، تحاول الآن أن تقيم حائطا عاليا على الحدود بينها وبين جارتها المكسيك فى الجنوب المصدر الأرخص والأساسى للأيدى العاملة الفقيرة.

وفيما يتصل باستغلال الأطفال فى الدعارة، إذا لم توقف تلك الظاهرة فسوف تطول أطفال العالم الثالث وأوربا الشرقية، بل ستمتد إلى دول غيرها، سوف تهان آدمية الأطفال فيها . وما كشفته عن تجارة أطفال فى أوربا الشرقية (١٠٠ ألف طفل يتم استغلالهم فى أعمال منافية للآداب فى أوربا الغربية) وكان صدمة





للغرب، وخاصة المجتمعات الأوربية، فتضافرت الجهود لعقد المؤتمرات وسن القوانين واتخاذ الإجراءات الكفيلة بوقف تلك التجارة والحد منها، والغريب أن نفس القضايا تفجرت من قبل فى آسيا خاصة بالفليبين وتايلاند والهند . ولم يتحرك الغرب ولم يهتز العالم ولم تعقد المؤتمرات، لأنه ببساطة كان المستورد الأساس للأطفال المستغلين من تلك الدول الفقيرة، وحين اكتشفت الدول الغربية - حيث كل شىء ممكن وكل شىء يمكن شراؤه حتى أجساد الأطفال - أن المرض مستفحل داخل أوربا الشرقية، هنا ثار الغرب وعقد الندوات والمؤتمرات، وأقر أنه نقطة سوداء فى سجل الإنسانية.

وفى إطار محاولة البحث عن حلول عالمية للظاهرة، تشير الدراسات إلى أنه قد تم تبنى العديد من الاتفاقيات والوسائل القانونية بهدف إلغاء تجارة البشر وحماية الضحايا، كما يجرى العمل حاليا من خلال العديد من المبادرات لدعم التشريعات الوطنية ومقاضاة تجار البشر بشكل مكثف، والعمل على زيادة وعى الحكومات والمنظمات غير الحكومية والأفراد بالقضية، ولكن على الرغم من بعض التطورات الإيجابية، فإنه مازالت هناك معوقات تتمثل فى غياب المراقبة والتقييم والتشريعات المتضاربة، والدول الضعيفة، وغياب التنسيق بين السلطات والتدريب غير الكافى والأهداف قصيرة المدى والبرامج ضيقة الأفق فى مواجهة المشكلة، وبشكل عام فإن الاتجار بالبشر يعد مشكلة عالمية والتغلب عليها لابد له من تعاون جميع القطاعات بالمجتمعات المختلفة حرصا على كرامة النساء والأطفال وضمان حصولهم على العدالة.

المصرية اللبنانية..

معشوقة الأدباء والمفكرين

د. سعيد اسماعيل على □

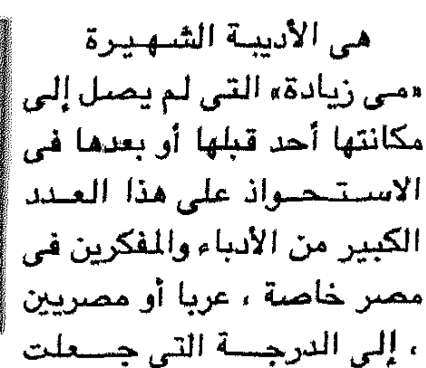
هى الأديبة الشهيرة «مى زيادة» التى لم يصل إلى مكانتها أحد قبلها أو بعدها فى الاستحواذ على هذا العدد الكبير من الأدباء والمفكرين فى مصر خاصة ، عربا أو مصريين ، إلى الدرجة التى جعلت كثيرين - ومنهم كاتب هذه السطور - عندما يكتبون عنها لا يستوقفهم من حياتها إلا هذه الزاوية بصفة خاصة ، مع أنها كانت صاحبة كتابات أدبية إبداعية عدة ، شعرا ونثراً ، وكانت صاحبة دراسات أدبية نقدية ، فمن إبداعاتها :

- ظلمات وأشعة ، مجموعة من الشعر المنثور ، عام ١٩٢٣ .

- سوانح فتاة ، مجموعة خواطر وآراء فى الحياة ، عام ١٩٢٢.

ومن دراساتها : كتاباها عن كل من باحثة البادية ، ملك حفنى ناصف ، وعائشة التيمورية ، حيث أخرجتهما الكاتبة المعروفة صافى ناز كاظم فى أحد أعداد سلسلة كتاب الهلال (يونيه ١٩٩٩).

ويدهش الإنسان حقا عندما يتأمل فى قائمة من استأثرت بقلوبهم وعقولهم



بدرجات تبدأ من الإعجاب الشديد ، إلى الحب ، إلى العشق ، فمن هؤلاء : الشاعر إسماعيل صبرى، ولى الدين يكن ، مصطفى صادق الرافعى ، عباس محمود العقاد ، أحمد لطفى السيد ، أنطون الجميل ، أمين الريحانى ، شبلى شميل ، يعقوب صروف ، جبران خليل جبران.

لكن ، من هى تلك التى استطاعت أن تأسر قلوب هذه الكوكبة من الأدباء والمفكرين ؟

كان إلياس زخور زيادة لبنانيا مارونيا من بلدة «شحتول» إحدى بلدات كسروان بلبنان ، وأراد الرجل أن يسعى وراء رزقه ، فانتقل إلى مدينة السيد المسيح «الناصرة» ليعمل معلما بمدرسة أولية ، وهو مستوى من التعليم يقع فى نطاق المرحلة الأولى ، اشتهر بأنه تعليم الفقراء ، ثم تعرف الرجل إلى فلسطينية أرثوذكسية تسمى «نزهة معمر» ، فأعجب بها وتزوجها ، وأنجب منها فى عام ١٨٨٦ ، أو ١٨٨٥ فى أقوال أخرى ، «مارى» ، أديبتنا موضوع المقال ، التى

□ كاتب وأستاذ جامعى



مى زيادة للفنانة سهام وهدان



اختصرت اسمها فيما بعد بحذف كل من الألف والراء ليصبح «مى» ، وقضت مى طفولتها فى هذه المدينة العريقة والتى كانت بالنسبة لها ، كما كتبت «مدينة الأزاهير العذبة ، ومجال التنعم بأطيب الأوقات».

ويرى البعض أن اختيارها لأسم مى إنما هو لسببين ، أولهما أنه أخف وأقرب إلى العربية ، وإن كنا لا نلمس فى اسم «مارى» صعوبة ، فهو اسم شائع ومعروف فى العربية ، لكن ربما كان السبب الثانى معقولا بعض الشئ ، وهو أنها مثلت فى بدء حياتها مسرحية كان اسمها فيها «مى» ، وإن كان هناك من يؤكدون أن داود بركات الذى كان رئيسا لتحرير الأهرام هو الذى غير اسمها من مارى إلى مى ، وكأن أنطون الجميل يلقبها بـ «بيبى» – الرضيع – ويوقع بلقب «فوتر بيبى» – أى الرضيع الآخر !

ثم انتقل الأب إلى قرية «عنيطرة» بلبنان ليواصل العمل بالتدريس ، ثم فى بيروت نفسها ، وقد ولد لها أخ لم يعمر طويلا ، لكن وفاته تركت أثراً نفسيا مؤلماً لدى أديبتنا الشهيرة.

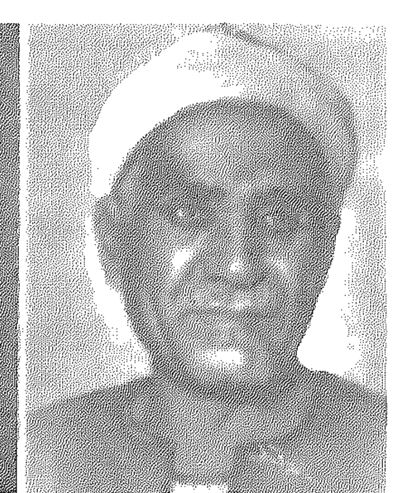
وتمكنت مى من تعلم الفرنسية وإجادتها فى لبنان على يد بعض الراهبات ، وقد أتاح لها هذا قراءة وحفظ العديد من أشعار عدد من شعراء الرومانسية الفرنسيين مثل لامارتين ودى موسيه ، وحرصت على جمع وتدوين هذا الشعر ، بل وحاولت أن تنظم الشعر ، وعن هذا كتبت تقول: «حتى اجتمع لى منه مجموعة باللغة الفرنسية ، سميتها (أزهار الحلم) ونشرتها بإمضاء (ايزيس كوبيا) عام ١٩١١ ، بعد أن نزلت مصر مع والدى، وكانت هذه المجموعة أول كتاب صدر لى فى عالم التأليف .

في سماء الفكر

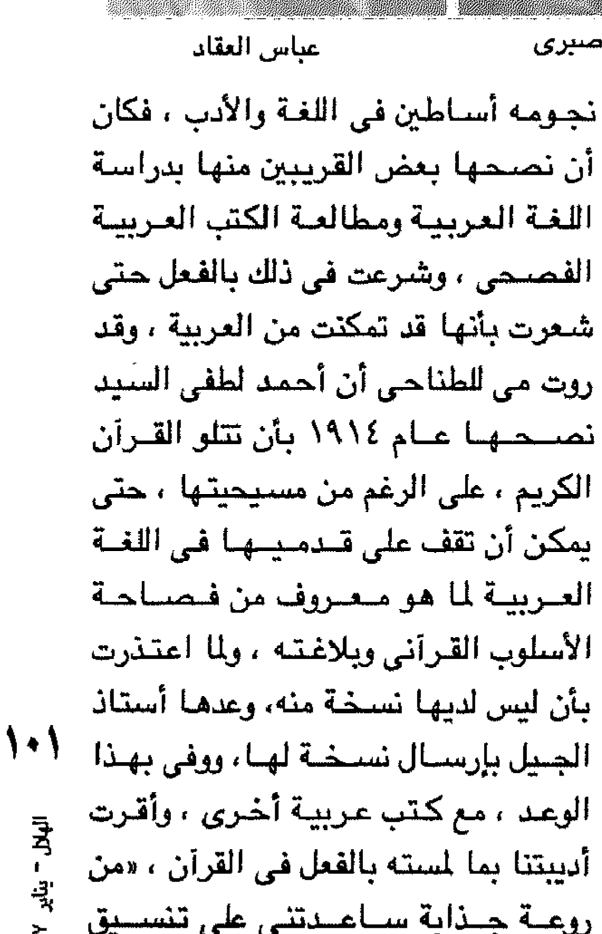
وعندما هاجر إلياس زيادة إلى مصر عام ١٩١١ ، كانت مصر هى ذلك الصدر الذى وسع عددا غير قليل من مفكرى الأمة العربية الذين عانوا من التضييق عليهم ، سواء لأسباب سياسية أو اجتماعية أو دينية ، ومن حسن حظ مصر حقا ، بل ومن حسن حظ العروبة عموما أن عدداً من هؤلاء المهاجرين استطاعوا أن يغرسوا فى مصر مراكز إشعاع حضارى فى مجالات شتى ، ويكفى أن نشير فقط إلى ثلاث منها ألا وهى : الأهرام التى أنشأها جبرائيل وبشارة تقلا ، ودار الهلال التى أنشأها جرجى زيدان ، والمقتطف والمقطم ، التى أنشأهما يعقوب صروف وفارس نمر.

وإذا كان إلياس زيادة قد جاء إلى مصر مدرساً مغموراً ، إذا به يصبح صحفيا لامعا ، ويهدى إلى مصر وإلى العروبة نجمة لمعت فى سماء الفكر والثقافة.

كانت جريدة المحروسة ، فيما تروى صافى ناز كاظم، قد أسسها سليم نقاش وأديب إسحاق فى عهد الخديو إسماعيل ، ثم انتقلت إلى إدريس باشا راغب الذى منحها إلى والد أديبتنا ، خاصة وأن مى كانت قد علمت ابنتى صاحبنا الباشا



مصطفى عبد الرازق



إسماعيل صبرى

عباس العقاد

اللغة الفرنسية ، وإن كان الكتيب الذى صدر عن مى (إعداد لجنة الرواد والمشاهير بإشراف د. رءوف سلامة موسى ، وراجعه الأستاذ وديع فلسطين) يذكر أن الذى كان مالكا للمحروسة عندما اشتراها إلياس هو «عزيز الزند» ، ولا نستطيع البت فى هذه القضية تاركين للعارفين بتاريخ الصحافة هذه المهمة ، حيث أننا لا ندعى العلم المتعمق والدقيق به .

يوميات فتاة

وكان من شأن اشتغال إلياس بالصحافة أن أخذ الوضع المالى للأسرة يتحسن إلى حد كبير ، فضلا عما أتاحته له ولابنته من التعرف على عدد كبير من أقطاب مصر فى السياسة ، والفكر والثقافة ، إذ أصبح لى باباً ثابتا تحرره فى المحروسة بعنوان : «يوميات فتاة» ، إلى جانب بعض المقالات فى الشئون الأدبية والفلسفية .

وشعرت مى بأن لغتها العربية ليست بدرجة مرضية فى وسط ثقافى كان نجومه أساطين فى اللغة والأدب ، فكان أن نصحها بعض القريبين منها بدراسة اللغة العربية ومطالعة الكتب العربية الفصحى ، وشرعت فى ذلك بالفعل حتى شعرت بأنها قد تمكنت من العربية ، وقد روت مى للطناحى أن أحمد لطفى السيد نصحها عام ١٩١٤ بأن تتلو القرآن الكريم ، على الرغم من مسيحيتها ، حتى يمكن أن تقف على قدميها فى اللغة العربية لما هو معروف من فصاحة الأسلوب القرآنى وبلاغته ، ولما اعتذرت بأن ليس لديها نسخة منه، وعدها أستاذ الجيل بإرسال نسخة لها، ووفى بهذا الوعد ، مع كتب عربية أخرى ، وأقرت أديبتنا بما لمسته بالفعل فى القرآن ، «من روعة جذابة ساعدتنى على تنسيق كتابتى» ، وليت بعضنا ممن يفزعون من الدعوة إلى تعليم أجزاء من القرآن فى سنوات التعليم الأولى ، ويعتبرون ذلك «رجعية» و «سلفية» و «ردة» إلى الوراء ينظروا بعين الاعتبار إلى هذا المثال ، وهناك غيره مما يضيق المقام عن الإشارة

إليه.

هذا بالإضافة بطبيعة الحال إلى لغات أجنبية كانت تجيدها مثل الفرنسية والإنجليزية وأربع لغات أخرى ، وإن كان هناك من يشكك فى إجادتها لكل هذه اللغات ، لكن من الثابت ترجمتها عن الفرنسية والإنجليزية والألمانية ، وبذلك تمكنت من أن تقدم على ترجمة رواية من الفرنسية إلى العربية عنوانها : (رجوع الموجة) ، والذى يعتبر أول كتاب مترجم إلى العربية ينشر لها.

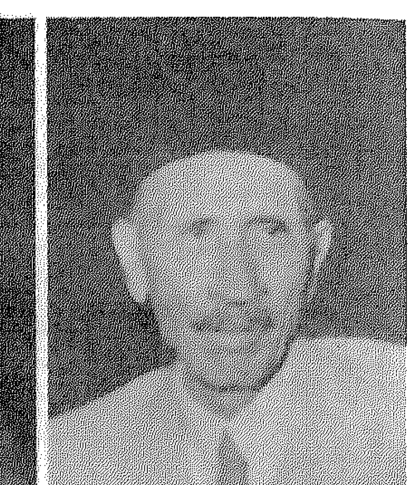
واستطاعت مى أن تنتهز فرصة وجودها فى مصر لتستزيد من مناهل العلم والثقافة ، خاصة وأن النظام القديم للجامعة المصرية فى مرحلتها الأهلية كان مرناً ، فيقدم دروساً عامة مثل تلك الدروس النظامية التى يتلقاها الطلاب فى صورة مقررات ينالون عنها شهادة ، ومن هنا فقد انتظمت فى تلك الدروس التى نظمتها الجامعة للإناث ، فدرست أثناء الحرب العالمية الأولى - بتشجيع من أحمد لطفى السيد - تاريخ الفلسفة العامة ، وتاريخ الفلسفة العربية ، وعلم الأخلاق على يد المستشرق الأسبانى «الكونت دى جلارزا» ، وتاريخ الآداب العربية على يد الشيخ محمد المهدى ، وتاريخ الدول الإسلامية للشيخ محمد الخضرى.

وبينما يذكر طاهر الطناحى فى كتابه (أطياف من حياة مى) أن والدها توفى عام ١٩٢٩ ، يذكر الكتاب الذى راجعه وديع فلسطين أنه توفى عام ١٩١٩ ، ومن الصعب تصور الاختلاف إلى هذا الحد، ويبدو أن فى أحدهما خطأ مطبعياً .

وشكلت هذه الوفاة صدمة عنيفة لمى حيث كان والدها يشجعها على ارتياد واقتحام عالم الصحافة والفكر والصالونات ، بينما كانت أمها ، على العكس من ذلك ، حاثة لها على التفكير فى الزواج وتكوين أسرة ، والابتعاد عن عالم الأضواء الأدبية ، ثم ما لبثت الأم أن لحقت بالرفيق الأعلى لتصبح مى وحيدة بغير أب أو أم أو أخوة ، فكان لهذه الوحدة أثر الحصار الذى يلتف حول النفس التفاف حبل حول العنق ، يكاد يخنقها ، على الرغم من كل ما كان حولها من أضواء وعالم مزدحم بنجوم وكواكب مضيئة ، لكنه الشعور بالوحدة الداخلية الذى يمتص أى شعور بالفرح والسعادة ، إلى الدرجة التى جعلتها تردد مع ابن الفارض قوله:

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى
ونور ولا نار وروح ولا جسم
ويطرب من لم يدرها عند ذكرها
كمشتاق ، نعم كلما ذكرت نعم
على نفسه فليبك من ضاع عمره
وليس له فيه نصيب ولا سهم .

وبعد أن كانت مى محصورة كتاباتها فى المحروسة ، أخذت تكتب فى غيرها كذلك ، وفى مقدمة مجالات النشر: ، جريدة الأهرام ، ومجلة الزهور التى كان قد أصدرها أمين تقى الدين وأنطون الجميل ، وكتبت كذلك فى المقتطف والهلال ، بل وكانت تشرف على صفحة التسويات فى السياسة الأسبوعية ،



أحمد لطفى السيد





أمين الريحانى

جبران خليل جبران

فضلا عن الإسهام فى تحرير عدة مجلات مصرية وعربية.

وكان من ملامح الازدهار الثقافى الذى كانت تعيشه مصر هو تلك الصالونات الثقافية التى كانت فرصة لتوثيق العلاقات بين المفكرين ، و «التفاكر» بينهم والحوار ، مما كان له أثره الواضح على توليد أفكار الكثيرين، وعلى سبيل المثال ، فهناك من يؤكد أن فكرة الكتابين الشهيرين الذين أصدرهما قاسم أمين وأحدثا ضجة كبيرة عن «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» إنما نبتت من خلال ذلك الصالون الذى كانت تقيمه الأميرة «نازلى فاضل» ، وكان من رواده ، بالإضافة إلى قاسم أمين ، الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وأحمد لطفى السيد ، وكان ذلك إبان حكم الخديوى عباس حلمى الثانى .

وكان لمى كذلك صالونها الثقافى الذى استقطب نجوم الفكر والثقافة مدة تصل إلى عشرين عاما على وجه التقريب . وترجع فكرة هذا الصالون ، إلى زيارة لسليم سركيس لأسرتها عام ١٩١٣؛ حيث دعاها أن تلقى خطابا لجبران خليل جبران فى حفل أقيم لتكريم خليل مطران ، بمناسبة الإنعام عليه بالوسام المجيدى ، وكانت تلك أول مرة تتاح فيها الفرصة لفتاة عربية أن تلقى كلمة فى محفل عام ، وشجعها هذا على أن تعقد صالونا يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، حيث كان إسماعيل صبرى يترأسه فى سنواته الأولى ، وكان من رواد هذا الصالون ، بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا من أسماء : على ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز فهمى ، ود. منصور فهمى، ود . طه حسين ، وأحمد شوقى، وحافظ إبراهيم ، وإسماعيل مظهر ، وسلامة موسى ، والأمير مصطفى الشهابى ، وليست المسألة مسألة عدد ، ولكنها نوعية من المفكرين تكاد تجمع مختلف التيارات والاتجاهات ، فهل أحبها كل هؤلاء ؟ ومن أحبته فيهم جميعاً ؟ وهل يجوز فى مجال الحب أن نتساءل لماذا أحبت هذا دون ذاك ؟ أو لماذا أحبها فلان وفلان ؟ الحق



أنه كما يقولون إن الأسماء لا تعلل ، فكذلك الحب يصعب تعليله.

هاموا بها حباً !

ومع ذلك فلابد ألا ننسى هذه الظروف التى كان يعيشها المجتمع المصرى ، بل ومعظم المجتمعات العربية ، من حيث الانفصالية بين مجتمع الرجال ومجتمع النساء ، بل والحجاب الكامل الذى كانت المرأة تعيش وراءه ، فإذا ما وجدت إمرأة على قدر كبير من الجمال ، وسافرة ، وذات عقل متفتح متعمق ، ولسان متحدث لبق ، وروح سمحة ، وقلب عطوف ، وتفتح بيتها للندوات والاجتماعات التى يحضرها رجال، فمن المرجح أن تتعلق بها أفئدة عدد غير قليل منهم ، وأن يظن ، من خلال ترحيبها والاهتمام بهذا وذاك أنها تحبه ، وأذكر أننا فى أوائل الخمسينيات فى آداب لقاهرة ، حيث كان المجتمع قد أصبح أكثر انفتاحا ، ومع ذلك ، فإن بعضا منا كان يعيش حياته فى مجتمع لا يعرف الاختلاط بين الرجال والإناث ، وهكذا كان بعض الزملاء إذا ابتسمت زميلة له ، أو ألقت عليه تحية الصباح ، فرح كثيرا وظن أنها مهتمة به بصفة خاصة ، فيقع فى حبها !

كان إسماعيل صبرى شيخاً كبيراً فى السن عندما التقى بمى ، التى كانت فى مقتبل العمر ، فإذا به يهيم بها حباً ، ومن مظاهر ذلك أن اضطرته بعض ظروف السفر أن يتخلف مرة عن صالونها يوم الثلاثاء ، فإذا به يرسل إليها شعراً يقول فيه:

روحى على بعض دور الحى هائمة
كظامئ الطير تواقا إلى الماء
إن لم أمتع «بمى» ناظرى غدا
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء !

أما ولى الدين يكن فقد كتب إليها مرة يقول :

«سيدتى ملكة الإلهام..

ما أسكت هذا القلم عن مناجاتك إلا حرب الأيام ، إنه منذ أيام كثيرة الذى لا يرجى فكاكه ، غير أنى كنت أناجى روحك كلما بدت لعينى أشياء من محاسن هذا الوجود .. كم وقفت أمام الأبيض المتوسط أرتجل العبرات .. هذه أشعارى لا أهديها إليك .. إنى لأشفق أن أحييك بغير الابتسامات . وكم دخلت الروض أساجل قماريه ، تلك أغانى أرجعها لديك . إنى لأخاف أن أغنيك بغير المسرات . والآن عندى قبلة هى أجمل زهرة فى ربيع الأمل أضعها تحت قدميك ، أن تقبليها تزيد كرما ، وإن ترديها ، فقصارى الامتثال، وبعد فإنى فى إنتظار بشائر رضاك ، وطاعة لك وإخلاص.

تحت قدميك
ولي الدين يكن»

وإذا كان الشاعر أحمد شوقى قد تردد أحيانا إلى صالونها ، إلا أنه يقال إنه لم يكن يشترك فيما يجرى من نقاش ، وقد كتب عنها شعرا قال فيه:

أسائل خاطرى عما سبانى
أحسن الخلق أم حسن البيان
رأيت تنافس الحسنين فيها



أحمد شوقى





يعقوب صروف

مصطفى صادق الرافعى

كأنهما «لمية» عاشقان
إذا نطقت صبا عقلى إليها
وإن بسمت إلى صبا جنانى
وما أدرى : أتبسم عن حنين
إلىَّ بقلبها أم عن حنان؟
أم أن شبابها راث لشيبى
وما أوهى زمانى من كيانى

أما أحمد لطفى السيد فقد كتب إليها، ولما يمض عليها فى مصر أكثر من عامين ، حيث كان تاريخ كتابته هذه؛ يوليو ١٩١٣ يقول : «مضى أسبوع كامل من يوم كنت أستأذن فى السفر إلى الإسكندرية ، وما كان من عادتى أن أغيب عنك أكثر من أسبوع ، إذا مضى كان يدفعنى الشوق إلى حديثك الحلو وأفكارك الممتعة إلى زيارتك ، فلا غرو أن أستعيض عن الزيارة غير المستطاعة بهذه الرسالة الكلفى».

وعندما سافر مفكرنا إلى باريس عام ١٩٢٠، ضمن الوفد المصرى للسعى لاستقلال مصر عقب ثورة ١٩١٩ ، كتب إليها فى الخامس عشر من أكتوبر عام ١٩٢٠، يقول:

صديقتى العزيزة ...

أكتب إليك ، وإنى أشعر أنى زيادة على تفريطى فى أمر الكتابة إليك إلى الآن ، ربما اخترت الفرصة الأبعد ملاءمة لحادثتك ، فإنى أرانى من حرج الصدر بحيث أخشى أن ينم كتابى على حالى التى ربما غلوت كعادة الشباب على تصورها من خلال الحديث».

ومن المعروف أن مفكرنا الكبير فقد زوجته عام ١٩١٠ ، وظل إلى أن توفى عام ١٩٦٣ بدون زوجة !

وكتب الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والذى كان أستاذاً للفلسفة الإسلامية بآداب القاهرة ، ثم شيخا للأزهر ، إليها، معبرا ، ربما عن مشاعر حب فى عفة وحياء ، وكان فى زيارة لباريس ، يقول أنه على الرغم من حبه لباريس ، لكنه «يتعجل العودة إلى القاهرة .. لأن فيها من هو أحب إليه من مدينة الشباب والأمل ..»

وذكر العقاد للطناحى معترفا بأنه ما

أحب فى حياته إلا مرتين ، إحداهما تلك التى أسماها اسما مستعارا بـ «سارة» ، أما الثانية ، فهى كما يكتب بنفسه.«وأحببت مارى زيادة ، الأديبة المعروفة باسم مى» . وكان يصف مى بأنها «مثقفة قوية الحجة تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية ، وكانت جليس علم وفن وأدب ، وزميلة فى حياة الفكر ، أى أن أهتمامها كان موزعا بين الأدب والأنوثة ».

وإذا كانت مى جميلة مثل سارة «ولكن الجمال فى مى كالحصن الذى يحيط به الخندق».

وكانت مى قد سافرت إلى إيطاليا عام ١٩٢٥ ، وأرسلت رسالة إلى العقاد يبدو أنها حركت الكثير من عواطف الحب الكامنة فى قلبه ، فأرسل إليها هذه الأبيات التى يبدو فيها مصرحا بعواطفه ، وكان ذلك فى الخامس والعشرين من شهر أبريل من العام نفسه.

آل روما لكمو منى الولاء
وثناء عاطر بعد ثناء
وسلام كلما ضاء لنا
طالع الإصباح أو جن مساء
فى حماكم كعبة ترمقها
مهج منا وأماق ظماء

ولما كتبت إليه رسالة تبين تأثرها الشديد إلى درجة البكاء برسالة كان قد كتبها تقطر حزنا على وفاة أخيه مصطفى ، بعث إليها فى السابع عشر من نوفمبر ١٩٢٥ ، بأبيات قال فيها:

تبكين ؟ والهف الفؤاد يذيبه
ذاك الحنين يذوب فى خديك
أيراك باكية وأنت ضياؤه
ونعيم عيشى كله بين يديك
.....
من عطف قلبك فاض من عينيك
لو استطيع جمعت كل ذخيرة
فى الدهر من ضحك يروق لديك

وكتب مرة أخرى يقول :

ماذا فى الدنيا ، لعمرى أريد ؟
أنت هى الدنيا ، فهل من مزيد ؟

وقد حث أحمد لطفى السيد مى على أن تحضر مناقشة رسالة الدكتوراه الخاصة بطه حسين فى الجامعة المصرية القديمة عن أبى العلاء المعرى ، وقد شعر طه حسين بامتنان كبير لذلك ، ورأى أنه من الواجب أن يتردد هو الآخر على صالونها ، وكان مما ذكره عنها : إن صوتها حين تستمع إلى خطاب لها ، كان ينفذ فى خفة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل!

ويذكر بعض الباحثين أن جبران خليل جبران ، على الرغم من إقامته بعيدا ، كان الأقرب إلى قلب مى ، وأنه قد صرح بحبه لمى لصديقة له فى نيويورك ، وقد أرسل جبران بذلك إلى مى فى الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٢٠، فى رسالة كتب فيها :

عزيزتى مى ...

«النفس يا مى لا ترى بالحياة إلا ما بها ، لا تؤمن إلا باختباراتها الشخصية ، وإذا ما اختبرت أمرا صار جزءاً منها ، وأنا قد اختبرت أمرا فى العام الغابر ، اختبرته مرارا عديدة ، اختبرته بنفسى

وعقلى وحواسى ، اختبرته وكان بقصدى أن أكتمه كشئ خصوصى ، ولكنى لم أكتمه ، بل أظهرته لصديقة لى تعودت محادثتها ، أظهرته لها لأننى شعرت إذ ذاك بحاجة ماسة إلى إظهاره .. وهل تعلمين ماذا قالت صديقتى ؟ قالت لى على الفور : «هذا نشيد غنائى»!

ولأنه حب من «بعد» ، مثله مثل ما يتم هذه الأيام من تعليم عن بعد ، تكتب إليه مى سائلة أن يصف لها ملابسه وألوانها وعاداته فى لبسها ، وعن التدخين ، وكم من السجائر يدخن كل يوم ، وعن مكتبه : كيف يكون ؟ ويجيبها عما سألت ، وهى تساؤلات من تحب ، لكنها إذ لا ترى محبوبها تأمل أن يكتب لها هو بنفسه ليصف أطرافا من حياته ، لتعيش خيالا تجوب فيه بين ردهات هذا الحبيب البعيد.

وتكتب هى إليه رسالة صريحة تصور فيها مشاعرها ، وكان ذلك فى أغسطس من عام ١٩٢١ ، وتلمح بين سطور الرسالة كم كانت عواطفها نحوه «كلية» لا تنحصر فى ذلك المسار الشهير بين قلبين تعانق حباً وعشقاً ، وإنما هما قلبان تعددت أبعاد الروابط بينهما وكأنها تضم مختلف أبعاد الحياة ، فها هى تقول : «أنت الغريب الذى كنت لى بداهة وعلى الرغم منك، أباً ، وأخاً ، ورفيقاً ، وصديقاً .. وكنت أنا الغريبة بداهة وعلى الرغم منى أما، وأختاً ، ورفيقة ، وصديقة.

«ولا يكفينى انتظام القلب المعنوى منك ، بل أريد انتظام الآلى .. وإنى أعطيك لذلك بطيبة خاطر انتظام قلبى الشديد المتين ، إن لى مكانة أهل رءوس



الجبال ، وقد أعطانى أبى كسروانية بما فيها من مقاومة بدنية ، فخذ كل ذلك منى ... وها أنذا عندما أتنفس أبطئ حركة التنشق لأضم إلى قوتى قوة البحر وحيوية الطبيعة ، ثم أتنفس موجهة مجموعة هذه القوى إليك لتشفى بها وتتشدد».

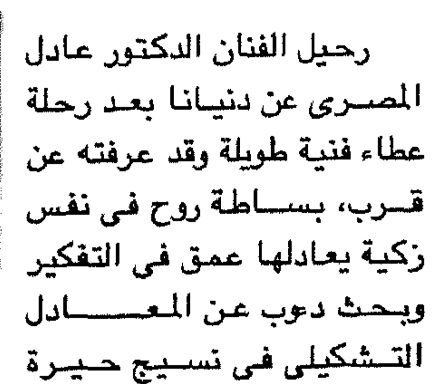
وعلى الرغم من كل هذه الشهرة ، وكل هذه الأضواء ، وفيضانات الحب التى غمرت مى ، إلا أنها قضت نحبها فى القاهرة عام ١٩٤١ وحيدة ، بعد عدة سنوات من العذاب ، الذى كان من صوره أن دس عليها البعض الاتهام بالجنون ، فأودعت شهورا عدة فى مستشفى العصفورية بلبنان أثناء زيارة لها ، فضلا عن انفضاض كثيرين عنها ، كأنها زهرة ، وقد ذبلت وراح أريجها، فانصرف عنها من كانوا يبحثون عن الرائحة العطرة الذكية.

شوقى ، عبد الرازق ، جبران ، صبرى ، مى .. للفنان جمال قطب

عادل المصرى

وتحولات الكون من جوف الأرض

د. محمد المهدى



رحيل الفنان الدكتور عادل المصرى عن دنيانا بعد رحلة عطاء فنية طويلة وقد عرفته عن قرب، بساطة روح فى نفس زكية يعادلها عمق فى التفكير وبحث دءوب عن المعادل التشكيلى فى نسيج حيرة الفنان المتفكر . وهذه محاولة لكى أوفيه بعض حقه فى العالم الذى شغله وأبدع فيه بعد مرور أكثر من عام على رحيله.

أمسك المايسترو الفنان بعصاه ونظر من منصة عين السمكة . أشار إلى طرف فتحركت الآلات الوترية يقدم لها (سوراه) لينتهى إلى قرار (بيكاسو) ، و(براك) و(ميرو) .

وأشار إلى طرف آخر فتحركت الآلات النحاسية تردد فى عفويتها ما وضعه (جوجان) و(فان جوخ) و(روسو)، لتصل إلى قرار المجموعة النحاسية عند (ماتيس) و(دوران) و(دفى) و(شاجال) .

المايسترو فى هذه الليلة التى ستطول لأكثر من قرن لم يقدم سيمفونية الكون ، أو سوناتا القمر .. ولكنه سيقدم كونشرتو الجذور، ففيها تبادلية بين الجموع الأوركسترالية ، وبين الآلات المفردة المتميزة .. متميزة بالجموع ، وجموع متميزة بحضور الأفراد . ففى وسط القاعة تجلس الآلات الخشبية يتقدمها (سيزان) بالفلوت ، وتجيبه أبوا وكلارنيت (كاندينسكى) و(مندريان) .. ومن بعيد نسمع همس (كلى) .



وتصور أن المايسترو قد قرر ذات ليلة تقديم هذا الكونشرتو من جوف غواصة (جول فيرن) .. وقرر أن يغوص بها فى بؤرة جوف الأرض .

بدأ يتأمل ولكن لم يخنقه الضيق كمايسترو (دالى) الذى دفع فى عصبية قشرة البيضة ليخرج .. أو كما يقول إلى العالم الجديد ، ولكنه قرر أن يجلس جلسة مفكر (رودان) . وبدلا من أن ينظر كاسفا ، نظر متطلعا إلى حركة سطح البيضة من داخل هذا الرحم . وتصور أن هذا الطفل معجزة (عيسوية) .. لا تتكلم فى المهد فقط ، ولكن تتفكر فى قلب الجوف الذى ابتلع أسرار هذه البحيرة الساحرة .. البحر الأبيض .. من شرقية ، وغربية ، وإلى عربية ، وحديثة .

□ كاتب وأستاذ جامعى



وأنطقهم من الباطن

حساسية الخامة الحضارية

قلة من الفنانين هى التى دفعت بمكونات الأرض من جوفها ، تحركت فى أناة فاكتشفت أن مجرد اهتزاز الأنامل فى هذا الجوف يخل بالنظام الكونى من الداخل إلى الخارج .

أدركت حساسية الخامة الحضارية فمرنت يدها ، ولونها وكتلتها على أن تخرج ممراتها بحساب دقيق ، وحركة محسوبة .

الكرة تنشق فى أعمال الراحل، الفنان عادل المصرى فلا تحسبنها الكرة الهندسية المعروفة ، أو رمزا سانجا لتفاحة آدم تدفع من كوتها لسعة ضوء مبهر . ولا تأخذنك أيضا مشاعر طقسية تربط بينها وبين لسعات ضوء عصر النهضة المعبرة عن هبوط المسيح أو صعوده . ولا يأخذك خيال علمى فتذهب باحثا عن النواه وانشطارها .. فهو من العلم أيضا أنى . ولا تستسلم لمشاعر قومية تحدثك عن التراكيب الهندسية ، أو تيسر لنفسك المهمة فتقول:إنها لعبة تشريح طريفة.

فلسفة الضوء

لقد تواصلت الدراما بكل هذا ، ولكنها تجردت فاكتشفت الأبعد ، أو ما

عادل المصرى

هو حق . والحق تراكيب مدروسة مدركة وغير مدركة .

فلسفة الضوء تمثل موقفا مهما فى أعمال الفنان (المصرى) .

ينشغل الفنان بشكل الكرة منفردة أو متداخلة . تضيق الكرة بالجدران فتنشطر أحيانا لتقذف بالضوء كتلا فى قاع أو قمة الهرم اللغز ، وربما الحكمة المبكرة . وقد تنشطر أحيانا أخرى لتولد عدة كرات تسقط على المساحة علامة استفهام هادئة بدرجات لونية ضوئية . وقد تستقر الكرة على القاعدة ببعض اليقين ، ولكن يظل يطاردها لغز الهرم المبتور .. يفتت قشرتها بشرخ الموت النافذ .. فمن عرف السر ؟

ولا يقبل الفنان التفاؤل الساذج .. يشطر الكرة إلى ثلاث ويدعها سابحة فى الفضاء الأبيض .. ولكن ما يلبث أن يبتلعها الثقب الأسود لتضمر واهنة فى حجم الفولة . وفى قاع المساحة القاتمة نشهد كتلة هرمية مبتورة الرأس ، واهنة الجدران .. هل هى بقايا الوجود ؟

توزيع الأدوار مذهل .. مشحون بالحوار .

العنصر البشري

الحوار البشرى فى أعمال الفنان عادل غير مكشوف للظاهر .. إنه فن من عالم التفكر فى جوف الأرض المليئة بالأسرار .. العنصر البشرى فى أعماله لا يواجهك فليس لديه ما يفصح عنه كما فى نظرات أعمال عصر النهضة الواضحة ، أو عصر التأثيرية الحالمة . أو عصر التجريدية المحددة . الرأس تبدو من الخلف ، والوجه جانبى، وكتلة الجسد نحت (كلسه الزمن) فشحنه بالكثير .

ومن لك بجيولوجى بإمكانه تفتيت دورات نفوس وحوادث الملايين فى هذا الأثر ؟

والأثر يأخذه الفنان من وجه امرأة فى تمثال فرعونى من الأسرة ١٢ ، يثبته على قاعدة . كعادته أو عادة أن يصبح التعبير هو رسوخ الرؤية الحية للفنان ، يخفى الملامح ويغيب العيون الباحثة فى بحر مثبت فى كتلة قاعدة هرم .. قاعدة زاقوره .. قاعدة برج بابل .. وربما قاعدة مئذنة ابن طولون . الكف البيضاء تخرج من باطن الكتلة بلونها ، وفى اتجاهها تحمل الكرة . علامة الخلود أو علامة الوحدة الزمانية لما ربط قديم الحضارة بحديثها ، ومن الخلف يتم التحاور ، اللون الكتلة، بين شعر المرأة وقبة كروية .

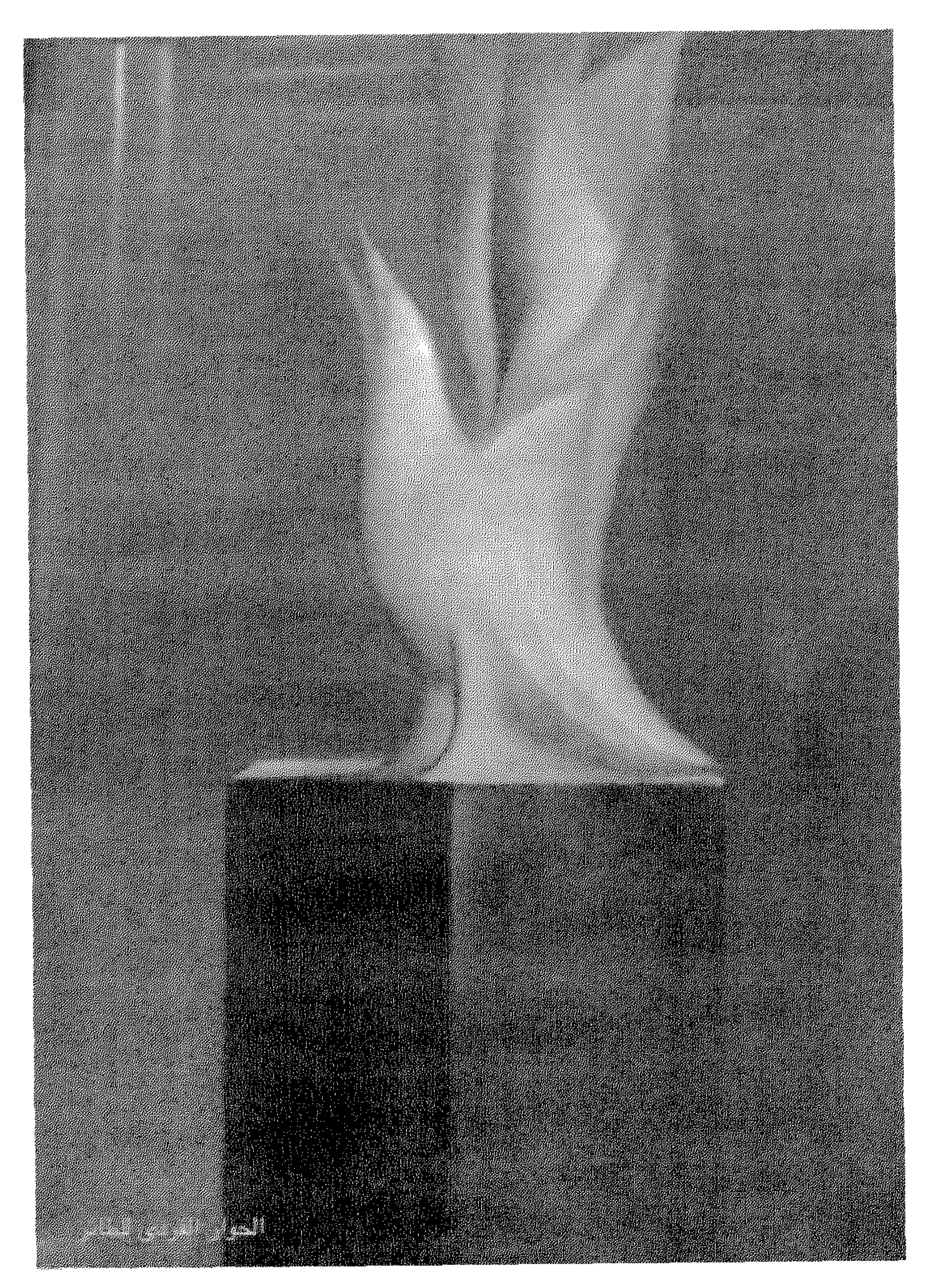
إنها أيضا دورة هذا الكائن (الكلسى) .. من التراب يأتى وإليه يعود .

الحوار مع شيريكو وبرانكوزى

وقد يقول قائل .. إننى ألمح جسرا بين طيبة المصرية ، وطيبة اليونانية . من مفتاح الحياة إلى (السانتور) . أو بين إسكندرية بطليموس ، وروما (دى شيريكو) خاصة فى الوجوده والكتل البشرية .

وأقول لك .. ولم لا ؟ ولكن عليك أيضا أن تلمح جسرا آخر خاصة فى الأعمال الحفرية للفنان بين مكونات الحرف الصينى ، والحرف المسمارى ، وفراغات الحرف العربى .

الحالة الأولى المصرية اليونانية



خدعتك لبساطتها . والحالة الثانية الصينية ، المسمارية ، العربية ، غابت عنك لغورها .

ومن عناصر الفنان الحية .. عنصر الطائر، تحاور فيه مع الفنان برانكوزى .

ولكن برانكوزى النحات جاء طائره تصويريا كقط السريالى (تويان) الذى اسماه الصاعقة ، بينما جاء طائر الفنان عادل المصرى نحتيا . فى التكوين الجمعى للطيور يقدم أربعة طيور ، واحد

شامخ يهم بالطيران فيحيط ساحة اللوحة بجناحيه ويقسمها كالمايسترو إلى مستوى أعلى يمسك بزمام التكوين برغم الفضاء المتسع ، تتحاور معه ثلاثة طيور متعطشة فى مستوى القاعدة وفى التكوين الفردى للطيور يكتفى الفنان بحوار رفة الأجنحة البيضاء يبث الظلال فى حماية جدار المسرح الذى يخفى درامية الكواليس .. لقد أعطاه الفنان لحظة حرية وراحة إلى حين باختيارات لونية شفافة من حيرة التساؤل .

واترك تنويعة ألحان الطيور وأعود إلى السكونية النحتية فى العناصر البشرية .. إنها مقولة موجزة .. حكمة فى كلمات تقول الزمن يجدد الآمال ، ويقرب المنية ولكنه يباعد الأمنية ليخلق الجديد . وهكذا تتوالى التحولات لتردد قول المعرى :



الناس صنفان، موتى فى حياتهم.. وآخرون ببطن الأرض أحياء ..

عقد الفنان من سكونية (الأموات الأحياء) جلسة حوار وأنطقهم من الباطن.

اللون التحولي

يستوقفنا اللون عند الفنان عادل المصرى .. يستخدم كل الألوان وكل المشتقات . يصعب التحدث عن تنافر لونى ، فالتوليد يحكمه التحول (ميتامور فوزيز) أيضا . تخرج الألوان من ثقيلها إلى ضعيفها أو العكس .. أليست جميعا من أصل واحد ؟

ولا أقول كما يقول العلم إنها جميعا من اللون الأبيض ، لأن الفنان جعل كل الألوان أصولاً لها فروع ، وأيضا كل الفروع لها أصول . الاستحضار اللونى عنده له ملمس خاص من عدة عصور ، التقطته عين (مرتوية بالعطش) .. ملمس اللون من جيوتو إلى رفائيل اللاتينى . وثقل اللون الفلمنكى من (فرميير) إلى (رامبرنت). وخفة ، اللون الفرنسى من (بوشيه) إلى (ماتيس)، وسخونة اللون الأسبانى من (جويا) إلى (ميرو) .. جموع فى أوركسترا الظاهر ويصعب تعداد أعضاء أوركسترا الباطن فى جوف حركتنا الحضارية.

وكنت أشاغب الفنان الصديق الراحل فأسأل .. وماذا بعد ؟

ابتسامته الطفولية النقية كانت تقول .. كل هذا الكون المشحون ، وكل هذه العوالم ، وعلامات الاستفهام والتعجب ، ألا تحتاج إلى إجابات وإجابات .. ومنها تخرج تساؤلات وتساولات .. لأعمال الفنان عادل فروع وفروع . ولكل فرع قدرة عطاء . وكل عطاء فيه (تساؤل وتحولات) . ومادامت قاعدة المايسترو مليئة بالأسرار، ستظل جوقته باقية قادرة على العطاء . فالمصدر فى أعماله هو التحولات كشجرة (البوابات) فى قصة (الأمير الصغير) لأنطوان دى سانت أكزبيرى. التى لا تتوقف عن النمو وشغل المساحات.

الفنان الراحل الكبير سيظل من أبناء الشطر الثانى من البيت العلائى :

وآخرون ببطن الأرض أحياء ..

الفنان الدكتور عادل المصرى

قصة لوحة

من كانت السيدة العارية على الحصان؟

شادي رفعت ▫

في بلدة كوفينتري التابعة لمقاطعة واريكشاير بانجلترا، عثر علماء الآثار على جزء من نافذة لها زجاج ملون، تحمل وجها لامرأة جميلة يعتقد أن يكون لليدي كوديفا.

مارجريت ريلات عالمة الآثار التي كانت وراء هذا الاكتشاف تشير إلى أن القطع الزجاجية المكتشفة هي جزء من النافذة الشرقية للكاتدرائية السابقة، حيث توضع تقليديا صور المحسنين وما عثر عليه يحمل وجها جميلا متوجا بالشعر الذهبي المتموج وإنه لحقا الوجه الذي نحن سنتخيل الليدي كوديفا أن يكون عندها.

والليدي كوديفا التي عاشت في القرن الحادي عشر، هي زوجة ليوفربك إيرل ميرسيا أحد أقوى النبلاء في انجلترا في ذلك الوقت، وهي التي قامت بجولتها الشهيرة عارية على ظهر حصان، خلال شوارع مدينة كوفينتري، والتي اعتبرت منذ ذلك الحين أهم الأحداث التي مرت على البلدة. حيث يصور الآن شعار مجلس المدينة الحالي بذلك الموكب الذي سارت به الليدي كوديفا خلال جولتها الفريدة.

والليدي كوديفا اسمها يعني هدية الإله. سيدة انجلوسكسونية كانت وزوجها ليوفربك من المحسنين الكرماء، خصوصا إلى المؤسسات الدينية في إفيشام ووستر وأماكن أخرى من انجلترا.

بدأت علاقتهم ببلدة كوفينتري مع عام ١٠٤٣ عندما انتقلوا إليها من شروزبيري بمقاطعة شروبشاير، حيث كسب ليوفربك ثروته هناك من تجارته الناجحة في الخراف. ثم قدموا إلى البلدة ليقيما ديرا به ، بعد أن لاحظوا قلة المراكز التربوية الصحيحة لتدريب وإسكان رجال الدين في أو حول تلك المنطقة الصغيرة الخشنة لكوفينتري.

جاء ليوفربك وكوديفا إذن لتأسيس وتمويل ذلك الدير الذي كرس باسم ست البانس من ساكسمونندام «أول شهيد قتل بالسلخ على يدي الرومان»، ليمنحا الانتباه والاحترام الذي اشتاقوا إليه منذ البداية، فهم بعد أن خدموا اهداف الكنيسة بإقامة هذا الدير الذي لم يعد موجودا في كل انجلترا ديرا مثله في وفرة الذهب والفضة الجواهر والاحجار الكريمة.. ليتوزع نشاطهم بعد ذلك حول الدير ليشمل

▫ كاتب وباحث



مجتمع فلاحى كوفينترى .

فظهرت سمعة ليوفربك كرجل محسن، لعب دورا متزايدا فى حكم الشئون العامة وأعطى بالتأكيد مسئولية بعض الأمور المالية، بعد أن نمت البلدة بما فيه الكفاية ليكون لها أمور مالية حقيقية. فى هذه الأثناء تألقت ليدى «كوديفا» - التى كانت أصغر بكثير من زوجها كفارسة ملمعة الى درجة كبيرة بينما اكتسبت ذوقا بارعا للصيد والمجاملات الاجتماعية واصبحت راعية للفنون بالبلدة اذ اعتقدت انها بذلك تساعد على رفع وعى عامة الفلاحين الذين يردحون تحت وطأة الفقر والضرائب . التى بات زوجها ليوفربك يفرضها على كل شىء يمكن أن يفكر به وذلك بعد ان بدأ اشغالا عامة كبيرة للبلدة.

عرض مذهل

إن قصة الليدى كوديفا موجودة فى فلوريس هيستورياروم من قبل روجر من ويندفير وهو سجل من القرن الرابع عشر، يقول بان الليدى «كوديفا» توسلت إلى زوجها تخفيض عبء الضرائب الفادحة عن الفلاحين، ليرفض ليوفربك بالطبع ويوبخها بحدة لحماقة السؤال، لكنها وباصرار إمرأة مازالت تثير تلك المسألة على زوجها ، حتى إنها طلبت منه أن يستعمل المال على الاقل لبند الاعمال الفنية لصالح الفلاحين، وهو الذى اضحك ليوفربك كثيرا أو جعله يتقدم لزوجته الليدى كوديفا بذلك العرض المذهل: أن تركب عارية على ظهر حصان خلال سوق كوفينترى ، من طرف لآخر وفى منتصف النهار وعند عودتها سوف يقوم بالغاء - وليس تخفيض - كل الضرائب المحلية المفروضة على الفلاحين فما كان من الليدى «كوديفا» أن وافقت على الفور.

فهل كانت الليدى كوديفا عندما وافقت على عرض زوجها الغريب، لم تكن تتبع الا مزاجها الخاص، باشباع رغبتها فى استعراض نفسها عارية على ظهر

حصان، أمام فلاحي كوفينترى ؟!

لقـد نظر هؤلاء الأنجلوسكسـون الخشنين إلى الجسم الإنسانى العارى ، كأحد التعابير الأعلى لكمال الطبيعة . فالتعرى لم يكن يرى كشىء جنسى فى أى إحساس، ولكن كنقاوة خالصة والاحتفال بالشكل الحسى للجسد يعرض فى كل مجده الرائع للاعتبار والتقدير.

وبهذا أمنت الليدى «كوديفا» انه بتقديم جسمها العارى المشكل جيدا كنموذج للجمال العظيم، فى عرض قيم، يجب أن تقوده بنفسها ، وتتعهد به إلى الفلاحين البسطاء لكوفينترى ، الذين لم يسبق لتجاربهم وتصوراتهم أن منيت بمثل هذا الجمال المجيد، لجسم إنسانى عارى مثالى . فما بالهم بجسم الليدى «كوديفا» البديع التكوين بذاته.

وفى اليوم المعين لذلك الحدث الجلل فى تاريخ بلدة كوفينترى خرجت الليدى «كوديفا».. وركبت على ظهر حصانها عارية تماما وبدون أى مجوهرات أو زينة أخرى ، حيث أطلقت خصلات شعرها الكثيف الطويل ليغطى كل جسمها حتى خاصرتها ولتبدو سيقانها من على جانبى الحصان بيضاء ثلجية.

وعبرت الليدى «كوديفا» السوق بعد أن طلبت من سكان المدينة البقاء فى الداخل أثناء جولتها وقد جلست باستقامة تمتطى الحصان بشكل صحيح كفارسة قديرة تسيطر على وجهها نظرة هادئة وقد انتشر شعرها خلفها مغطيا السرج، وسقط أمامها فى موجتين متوازيتين فوق نهديها.

والناس من حولها ينظرون إلى عريها البسيط والطبيعى بنظرة ملؤها التقدير والتقييم لما فعلته من أجلهم.

وبعد أن تمت الرحلة عادت بالبهجة إلى زوجها ، الذى منح لتوه أهالى كوفينترى دستور أزيلت بموجبه كافة الضرائب وأكده بختمه.

روعة الجسد

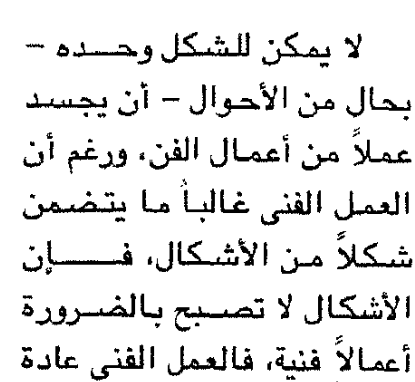
وإذا اتفق الجميع على حقيقة الليدى «كوديفا» كامراة محترمة كريمة محسنة قوية الإرادة تتمتع بجمال نادر، وايا كن الخلاف حول جولتها العارية بشوارع كوفينترى ، وأنها اختلفت لجذب السائحين إلى البلدة. أو لإحياء أحد المظاهر الفولكلورية المتعلقة بمناسك الخصوبة فى بعض النشاطات الوثنية، أو حتى باعتبارها دعاية بيوريتانية لتسويد سمعة الكنيسة قبل الإصلاح، فإن الموكب العارى لليدى «كوديفا» أصبح أسطورة حية، ودرسا لكل الذين ينظرون إلى الجسم الإنسانى العارى تحت أى ظرف، كأنه فعل شنيع يلعن صاحبه ويطارده إلى جحيم الأبدية، وفكنت تجربة عرى الليدى «كوديفا» مثالا فريدا على روعة الجسد الأنثوى واعتباره الشكل المثالى الجدير حقا بعمل الإله.

فالليدى «كوديفا» سيدة حالمة امتلكت الشجاعة لقبول عرض زوجها ، لتجلب إلى تلك الزاوية الصغيرة من القرن الحادى عشر درجة هائلة من التنوير نحتاج إليها الآن فى القرن الحادى والعشرين والتى من المحتمل أن لا أحد ذهب إلى الجحيم بسببها!

قراءة تشكيلية

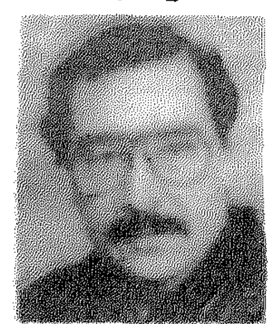
الفن البدائى في العصر الحجرى القديم

محمود الهندى ◻



لا يمكن للشكل وحده - بحال من الأحوال - أن يجسد عملاً من أعمال الفن، ورغم أن العمل الفنى غالباً ما يتضمن شكلاً من الأشكال، فإن الأشكال لا تصبح بالضرورة أعمالاً فنية، فالعمل الفنى عادة ما يتشكل جوهريا وفق درجة معينة من التعقيد: عندها يتحول إلى تصميم هندسى بسيط، ولا يصير عملاً فنياً إلاّ فى حالة توازنه خلال تكامل التصميم.

وقد عثر فى عام ١٨٧٩ على النماذج الأولى لرسوم الكهوف البليوليتية فى التاميرا، وتطلب الأمر أكثر من عشرين عاماً للاعتراف بتلك الاكتشافات، وما يماثلها من فنون ما قبل التاريخ فى المواقع الأخرى، ويوجد حالياً أكثر من تسعين كهفاً معروفاً بالرسوم الجدارية، غير أن ظاهرة الفن البليوليتى لاتزال تعامل باعتبارها لغزا، أو حقيقة غير مؤكدة. وتقع أهم أمثلة فن ما قبل التاريخ ضمن ثلاث مجموعات جغرافية: (المجموعة



الفرنسية الكانتابرية، والمجموعة الأسبانية الشرقية، والمجموعة الإفريقية الشمالية)، ولكن رسوم الكهوف بأسبانيا لاتزال هى الأكثر دهشة وأهمية. ولولا جهود العلم والعلماء فى البحث والتنقيب والدأب المعرفى، لا ستعصى علينا فهم الكثير من أمور الفن خلال حقب التاريخ المختلفة. فبفضل تطور علم الآثار وعلم الجيولوجيا استطعنا - على وجه اليقين - تحديد العصور التاريخية، من خلال معرفة طبقات الأرض، ووصف أعمار وحدود الصخور والتربة، فالقاعدة السائدة تفيد أن العصر الأحدث زمنياً يكون دائماً فى أعلى قمة طبقات الأرض، أما الأكثر قدماً فيحتاج التوغل للوصول إلى القاع. والعصر البليوليتى هو العصر الحجرى القديم، والعصر النيوليتى هو العصر الحجرى الحديث، والعصر الأورينياكى والمجدلينى هما فترتان جادتا فى التقسيم الإنسانى والجيولوجى الذى وضعه علماء التاريخ

◻ فنان تشكيلى وكاتب



ضمن الفترتان المتواجدتان فى أعقاب العصر الجليدى الرابع من ناحية، وبدء الزراعة الجماعية المستقرة من ناحية أخرى، وجاءت بينهما الفترة السوليترية التى بدأ فيها استئناس الحيوان الزراعى.

□□

واللوحة المصاحبة واحدة من الرسوم الشهيرة للحيوانات فى كهف لاسكو، وهى من طراز شبيه بالفن الجدارى الموجود داخل مواقع منطقة دور دونى بفرنسا، اكتشف هذا الكهف بالصدفة عام ١٩٤٠، وهو من أحدث مكتشفات فن الكهوف التى تعود إلى العصر الحجرى القديم، ومعظم الحيوانات ظاهرة فى هذا الجزء التفصيلى من الجدار، الثور البرى، والجاموس الأوروبى الذى انقرض فى بولونيا، ويمكننا ملاحظة توظيف الفنان البدائى للمناطق المنبعجة فى حائط الكهف، لقد استغل الفنان هذا الانبعاج ووظف النتوءات للتقريب بينهما وبين صور باقى الحيوانات، وتنبئ الخطوط السريعة المتلاحقة عن تفوق الفنان، فلا يوجد أدنى ملمح يشير إلى عدم الثقة، أو إلى التردد والتراجع، وإنما نجدنا أمام فنان يتميز بالجرأة والثقة والتمكن التام، ودقة الملاحظة، حتى يخال لنا إذا أنعمنا النظر أن الشكل حى يتحرك.

تتداخل أشكال بعض الحيوانات مع خلفية اللوحة، كما أن الخدوش الموجودة بالقرب من الحيوانات تؤكد رسم الفنان لأكثر من شكل فى المكان الواحد. ويمكن الجزم بأن الفنان لم يكن ضمن أغراضه إمتاع المشاهد، بل أراد تحقيق هدف بعينه، وهو التحذير والتنبيه حتى لا يقع الآخرون فريسة شرور الحيوانات، ومن المستبعد أن ينتج مثل هذا الرسم عن فنان هاو، فهو حصيلة تدريب شاق وخبرة ومران طويل لفنان واع محترف، يرسم على سطح شديد الصلف والصلابة والخشونة، وفى نفس الوقت فإنه يسيطر

على الحركات والسكنات فى أداء متمكن ضمن الكتلة والفراغ، ولا يغفل دقائق التفاصيل رغم استعماله لحجر الصوان فى نقش ورقش الخطوط الرئيسية، ثم يعزز خطوطه، ويؤكدها لتصير أكثر إقناعاً وفاعلية، لقد اضطر لكسوها باللون، واللون لديه نوع من الأصباغ الناجمة عن أكسيد الحديد، يتراوح بين درجات الأحمر والبنى والبنى الداكن، كما يستخدم الأصباغ المستخلصة من الفحم وأكسيد المنجنيز الأسود، يخلطها مع دهن الحيوان، ويقوم بفرش الألوان على سطح اللوحة، تارة بأصابع يده، وباستخدام فرشاة مصنوعة من شعر الحيوانات أو العيدان الطرية بعد إزالة الألياف عنها.

ويكاد يكون الرسم فى هذه الحالة وسيلة لغاية أهم، هى عملية تحذير أطفال ونساء وشيوخ الجماعة من انقضاض الحيوانات المفترسة عليهم، فالفنان ينقل خبراته فى الصيد لجماعته، حتى ينبههم إلى الخطر الداهم المحيق بهم. والمجموعات البليوليتية والنيوليتية الصغيرة كانت دون شك بسيطة وبدائية، غير أن بذرة أسلوبنا فى الحياة والتفكير تطورت المرة تلو المرة فى هذه المستوطنات القروية الأولى، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تكون قد جاءت مباشرة من إنسان الكهف فى العصر الحجرى القديم، وإنما سبقتها مراحل ومراحل مارس فيها الفنان دربته ودرايته ومرانه، فالخلق الفنى لدى الفنان البدائى كان فى الغالب هروباً من فرضية الحياة وتحكماتها.

لقد عاش الرجل البدائى من يوم إلى



يوم لفترات طويلة، وظلت الحركة المستمرة السائدة من يده إلى فمه بالمعنى الحرفى الدقيق، ولم يكن هناك شىء ثابت فى حياته، ولم يكن يساوره الإحساس بالديمومة والبقاء، وكان يعتقد فى استطاعته وقوع الحدث الفعلى عن طريق التمثيل الرمزى للحدث، فالاشتياق إلى الإنجاب والذرية، والرغبة فى موت عدو، أو في الخلود بعد الموت، أو خروج روح شريرة وطردها، كانت هى الدوافع وراء خلق الرمز المناسب لها.

عندما قال ناصر من فوق منبر الأزهر:

"صوت العرب" هدف عسكرى

أحمد سعيد

سجل المؤرخون على اختلاف توجهاتهم وسياسات بلادهم تجاه العرب: أن حرب السويس عام ١٩٥٦ وتداعيات المواجهة بين أطرافها وصولا إلى انسحاب المعتدين أيامها، وعدم تحقيق أهدافهم، شهدت استخداما مؤثرا فى مجرياتها وفرض نتائجها للأجهزة الإعلامية عامة والإذاعية خاصة، مما جعلها منذ هذه الحرب سلاحا رئيسيا فى معارك الصراعات التى لا تنتهى ولم تنته بين المجتمعات، بهدف تغليب مصلحة طرف على مصلحة الآخر.. وهو الواقع الذى دفع أيامها بإذاعة «صوت العرب» من القاهرة - وعلى وجه التحديد - إلى بؤرة العناصر المساهمة فى صناعة الأحداث وتغيير مسيرة حركة التاريخ، وفرض تطورات بعينها مع انتصاف خمسينيات القرن الميلادى العشرين، مبشرة ومنذرة فى نفس الوقت بما صار عليه اليوم من القرن الحادى والعشرين، ما نشهده من نفوذ رهيب للإعلام من خلال سلاح القنوات الفضائية التليفزيونية، ذلك أن الأصل فى استقرار أمور الشعوب، إن خيرا وإن شرا يعتمد



أساسا على الحقيقة التاريخية المتوارثة. إن أمور المجتمعات وتصارعها تحسمها دائماً آخر الأمر نوعية الإرادة الجمعية لها رافضة أو مستسلمة، وذلك لأنها بمقاييس الحروب العسكرية تكون دائماً هزيمة مؤقتة، تلك التى يفرضها جيش قوى على جيش آخر ويحتل بلاده، بينما تكون هذه الهزيمة أبدية عندما تتم مع هزيمة الجيش هزيمة إرادة شعب البلد المحتل، وهى الهزيمة - مع البروز القومى لسلاح الإعلام الجماهيرى، مثل الإذاعة والتليفزيون، صارت اليوم مسئولية الإعلاميين على الجانبين: إما تأييد الهزيمة، أو إبقاء الإرادة حرة رافضة لهزيمة الجيش، أو حتى المرحلة بجيلها ونظامها، وصولا إلى تفعيلها شحنا بثورات تتقبل التضحيات حتى يتحقق لشعبها النصر المطلوب.. وهذا الواقع يؤكد دقة وصف منصات إطلاق فضائيات الإعلام اليوم، بأنها صارت تتجاوز فى أهميتها وآثارها فى التوجيه وحسم الصراعات ذلك التأثير الكبير والخطير لمنصات إطلاق الصواريخ العابرة للقارات

□ إعلامى بارز - رئيس إذاعة صوت العرب الأسبق

حاملة الرءوس الذرية ومثيلاتها من أسلحة الدمار الشامل.

الميديا وحرب السويس

وقد كان وعي قيادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بحقائق الوجود المصري كجزء من كل عربي يدور معه حيث يدور: من أهم أسباب الإيمان المبكر لهذه القيادة بسلاح الإعلام يخوض به معاركها حيث تعجز ضآلة السلاح والعتاد وتصبح المواجهة العسكرية ضربا من الحمق والجنون..

وقد عبر عن هذه القناعة الثورية أكثر من كاتب غربي مثل «أرسكين تشايلدرز» و«إدوار سابليه» و«توني شو» الذي قال في كتابه عن الميديا وحرب السويس (إن ناصر اكتشف مبكرا أنه يمكن أن يملك سلاحا يحارب به معاركه التي لا يمكن له أن يكسبها بالحروب، فلجأ إلى الدعاية وأنشأ سنة ١٩٥٣ إذاعة «صوت العرب» التي استطاعت خلال فترة قصيرة نسبيا أن تحقق له انتصارات ما كان يستطيع أن يحققها بقوى أخرى عسكرية أو اقتصادية، وهو الأمر الذي جعله يملك في يده عند بدء حرب السويس سلاحا دعائيا، أسهم كثيرا في فرض نتائج لصالحه، مغايرة تماما لأهداف بريطانيا وفرنسا وإسرائيل من حرب السويس، ولتجسد له ما صار من نفوذ لإذاعاته الموجهة إلى العرب، وتلك الموجهة إلى شعوب بلاد إفريقيا وآسيا قبل مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥).

ويضيف الكاتب الفرنسي «بيير مونتاليه» في بحثه المنشور بمجلة التاريخ إلى مقولة «توني شو» قوله: (أدى صوت

عبد الناصر يخطب في الازهر

العرب دورا حاسما في توسيع رقعة المواجهة وإخراجها من إطار مواجهة مصرية إلى مواجهة عربية شملت غرب آسيا وشمال إفريقيا وكثيرا من دول آسيا مع القارة السوداء مما أدى إلى نجاح الضغوط داخل بريطانيا وفرنسا، مع ضغوط واشنطن بالذات في وقف استمرار الحرب وانسحاب الجيوش من مصر، لمنع التدهور والضياع للمصالح الغربية الاستراتيجية والبترولية).

كذلك أشار الصحفي الأمريكي المخابراتي «ويليام إيليس» في بحثه الذي نشر ملخص له في المجلة الأمريكية «الأقدر - هاربر» - (إلى أن ما صار لإذاعة صوت العرب - الصوت الآخر لناصر - من نفوذ لدى العرب أقرب إلى الموسى الديني جعلها في حرب السويس

أحد أهم أسلحة ناصر فى فرض تأميم لقناة السويس على المجتمع الدولى الغربى بالذات وخروجه من الحرب ليس منتصرا فقط وإنما زعيما للعرب وأملا مرجوا لتحقيق ما يحلمون به).

وإنصافا للتاريخ:
واحتراما لأصحاب الفضل:

لم يكن هذا التوظيف للإذاعة المصرية فى الدعوة النافذة المؤثرة لفكر قومى سياسى وكفاح نضالى قتالى يرجع فقط إلى الثورة.. إذ سبقته إرهاصات ومحاولات إذاعية قبل إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، فى عام ١٩٥١ والدعوة للعمل الفدائى ضد البريطانيين، الذين يتمركز جنودهم فى قاعدة قناة السويس. وهى الحملات الإذاعية التى كانت محل انتباه وتقدير جمال عبدالناصر قبل الثورة بسبعة شهور، حدثنى به فى لقاء صدفة جمعنى به قائد الجناح وجيه أباظة، وتناول فيه ما كانت الحكومة الوفدية برئاسة رفعت مصطفى النحاس باشا وإشراف وزيرها لشئون الإذاعة الدكتور حامد زكى باشا قد سمحت به وشجعت عليه من دعوة مبكرة سبقت قرارها وإعلانها إلغاء المعاهدة وتأييد علنى لكفاح أبناء مصر فى منطقة القناة.

مفهوم جديد

ورغم قصر ومحدودية الممارسة الإذاعية للعمل الإعلامى الثورى قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فإن الثورة بمفهوم التغيير الجذرى الشامل الواجب التحقيق، وفق مبادئها وسياساتها لم تلبث أن أتاحت للإذاعيين مجالات أرحب للعمل الحرفى المتميز، فى ظل قناعاتها باستمرارية عقائدية واضحة المعالم فى حرية كل الوطن العربى واسترداده لثرواته المنهوبة، وإقامة وحدته المرجوة لا يوقفها عن تثويرها الإعلامى يوما تهديد، أو يردها نذير، أو تُرجعها عن أى حق عربى إغراءات مساومة أو انكسارات هزائم.

ومثال ذلك..

أنه عندما طلبت حكومة فرنسا بلسان وزير خارجيتها «كريستيان بينو» عند لقائه بعبد الناصر فى القاهرة خلال مارس ١٩٥٦ إيقاف دعم مصر لثورة الجزائر، كانت تعليقات وبرامج صوت العرب ضد السياسة الاستعمارية فى الجزائر محل حديثه واغراءاته، بشراء محصول القطن المصرى، وهى التى وصفها فيما بعد الصحفى الفرنسى الخبير بشئون الوطن العربى «إيريك رولو» بصحيفة «لى موند» قائلا: (إن الكونت أرمان دى شاتيلا الذى حضر لقاء الوزير الفرنسى مع الرئيس المصرى، ذكر له أن «بينو» حاول كثيرا مع ناصر ولو التخفيف من عنف هجمات صوت العرب على الفرنسيين فى الجزائر وشمال أفريقيا، وأن ناصر كان يرد على «بينو» باسما بأنه مستعد لبحث مطلب «بينو» فور أن تبدأ فرنسا فى التفاوض مع الجزائريين حول مطالبهم. وأن ابتسام ناصر هذا كان مثار ضيق «بينو» وقوله للكونت دى شاتيلا – كم أثارتنى ابتسامة



أحمد سعيد وميكروفون صوت العرب

ناصر وأنا أحدثه عن إذاعة حتى أننى تمنيت فى نفسى أن أنسفهما له معا: ابتسامة وإذاعة).

كذلك

عبر «أنتونى إيدن» عندما كان وزيرا لخارجية بريطانيا - وقبل أن يصبح رئيسا للوزراء - عما زعمه من تأثير ضار لإذاعة صوت العرب على العلاقات المصرية البريطانية، عندما التقى بجمال عبدالناصر يوم ٢٠ فبراير ١٩٥٥، إثر رفض مصر لسياسة التحالف العربى مع الغرب واشتعال معركة حلف بغداد، ملوحا بما يجب أن يسود علاقة القاهرة بلندن من مودة، عقب إقرار بريطانيا بالجلاء العسكرى عن مصر بتوقيع اتفاقية الجلاء فى أكتوبر ١٩٥٤، وحتى لا تهددها إذاعات واتهامات مطالبة بوقف حملات الدعاية التى يشنها صوت العرب ضد إقدام حكومة العراق على التحالف مع تركيا، فى إطار منظومة دفاعية غربية:

أجابه عبدالناصر كما أثبت «أنتونى إيدن» فى مذكراته بضرورة إيقاف عمليات الضغط البريطانى أولا لفرض الحلف رغم إرادة العرب. وهو الأمر الذى لم يحدث كما تروى الأحداث التى تلت هذا اللقاء إذ جرت محاولات ضم دول عربية مجاورة مثل سوريا ولبنان، وخاصة الأردن مما دفع مصر بإذاعة صوت العرب إلى شن سلسلة حملات، أدت إلى فشل ضم الأردن إثر مظاهرات شملت البلاد وفرضت فرار الجنرال «جيرالد تمبلر» رئيس أركان القوات البريطانية والذى كان قد جاء من لندن إلى عمان ليشهد احتفال توقيع الانضمام الأردنى .. ومن بعده هروب وزراء حكومة «هزاع المجالى» مع رئيسهم ليلا إلى لبنان والذى أرجع فى مذكراته ما

أكده إليه القائد البريطاني لجيش الأردن العربي الجنرال «جون باجيت جلوب» عقب طرده من منصبه وكل البلاد، حول مسئولية حملات صوت العرب في إثارة الشعب الأردني مما اضطر الملك حسين إلى التخلي تباعا عنهما.

ويذكر «أنتوني ناتينج» وزير الدولة البريطاني الذى استقال أيام العدوان الثلاثي على مصر، فيما كتبه من مذكرات أن رئيس الوزراء «أنتوني إيدن» عندما بلغه نبأ طرد الجنرال «جلوب» من الأردن، أثناء زيارة وزير خارجيته «سلوين لويد» للقاهرة واجتماعه بعبدالناصر وقيام الصحيفة اللندنية - الاكسبريس - بنشر ما حدث لجلوب في الصفحة الأولى تحت عنوان بعرضها، يحمل كلمة واحدة هي - الحصار - في نفس الوقت الذى جاءته الأنباء من عدن ثم من البحرين عن مقاطعة العرب فيهما لزيارة وزير خارجيته وقذفه بالحجارة، ردد وفق رواية «أنتوني ناتينج» على مسمع نفر من وزرائه كان هو أحدهم (يجب تدمير ناصر.. لا لا.. لا يكفي تدميره.. أريد جثته).

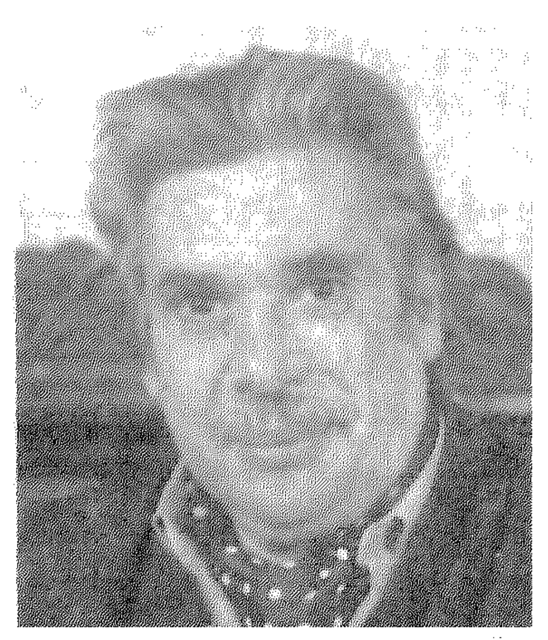
إلى هذه الدرجة من العداء كان يفكر رئيس الوزراء البريطاني أنتوني إيدن مثلما كان يأمل وزير خارجية فرنسا «كريستيان بينو» أن ينسف ابتسامة عبدالناصر، تقديرا وإعجابا بالأداء القومي الثوري لإذاعة صوت العرب، وقبل شهور قليلة من بدء التداعيات السريعة لأزمة مشروع السد العالي وتأميم القناة في يوليو ١٩٥٦، وصولا إلى العدوان الثلاثي في نهاية أكتوبر من نفس العام.

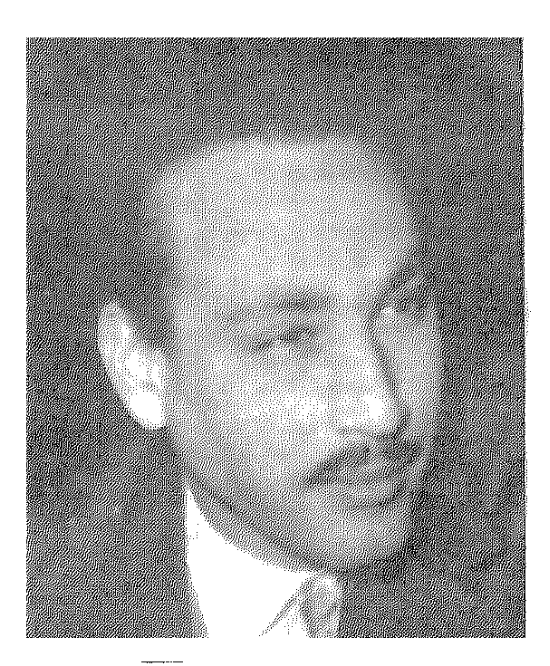
فإذا كان نصيب صوت العرب والإعلام المصرى والعربي عامة من خلال العمل الإذاعي خلال شهور هذا الصيف اللاهب، وأين كانت مواقعها منه وتعاملها مع تطورات الأحداث!؟.

الصراع

بدأ الصراع الإعلامي العربي الغربي هزليا ساذجا بعض الشيء، وذلك عندما فوجئت الإذاعة المصرية في القاهرة بإلغاء الإذاعة البريطانية في لندن للحصة المصرية باشتراك عشرة إذاعيين مصريين في دورات تدريبية إذاعية في بوش هاوس، مقرها في لندن، وهو الاشتراك الدورى الذى تعاقب بانتظام طوال عشرين عاما متتالية من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٥٦، وقد كان هذا الإلغاء مثار تعليقات ساخرة وخاصة في صوت العرب، التي كانت قد بدأ تصبح الإذاعة العربية الأولى على امتداد الوطن منذ تأييد مصر لثورة المغرب، وإسهامها المباشر في ثورة الجزائر، وإشعالها لروح الجهاد في عدن وسائر مشيخات وسلطنات جنوب الجزيرة العربية، محاصرة تماما لحلف بغداد داخل حدود العراق الذى تتحكم فيه حكومة عميل بريطانيا نورى السعيد بدعم من القاعدة البريطانية في الحبانية.

ثم حدث في إبريل من نفس العام أن تقدمت الحكومة البريطانية إلى مجلس العموم بطلب تعديل سريع في الميزانية


فاروق خورشيد


جلال معوض

السنوية لتخصيص عشرة ملايين جنيه استرلينى (وهو مبلغ ضخم القيمة بأسعار ١٩٥٦)، لشراء ونشر عشر محطات للإرسال اللاسلكى قوية البث، هدفها الوحيد التشويش على إذاعة صوت العرب، وهو ما تم تنفيذه خلال ثلاثة أشهر فقط، تصنيعا وتركيبا فى لبنان والأردن والعراق وليبيا وقبرص وقطر ودبى، بجانب ثلاث محطات تشويش على سفن.. اثنتان فى البحر الأبيض وواحدة فى البحر الأحمر، قرب الشواطىء الغربية للمملكة العربية السعودية..

كذلك ضغطت حكومتا لندن وباريس على مصانع بريطانية وفرنسية، وصولا إلى مصانع ألمانية وسويسرية، للحيلولة بينها وتنفيذ تعاقدات إذاعة مصر معها، لتزويدها بمحطات إرسال إذاعى وقطع غيار لازمة، والتعهد لها بسداد قيمة أية تعويضات تقررها المحاكم ولجان التحكيم لصالح مصر ضد هذه الشركات..

حرب اقتصادية

وامتدت الحرب من دنيا الإعلام إلى دنيا الاقتصاد، عندما مارست حكومة إيدن فى بريطانيا مثلا على الشركات والمصانع البريطانية التى تستورد القطن المصرى فى مارس عام ١٩٥٦ لوقف استكمال استيراد ما سبق وأبرمته من مخزون محصول صيف ١٩٥٥، وإيقاف أية تعاقدات مبكرة لشراء محصول القطن التالى صيف ١٩٥٦، مع إصدار لهارولد ماكميلان وزير الخزانة البريطانية بأن الحكومة نصحت الشركات عامة بمثل هذا التجميد، بحكم تصاعد المواقف العدائية المصرية ضد المصالح البريطانية، وهو ما يفرض على مؤسسات البلاد التوقف تماما عن أى نشاط يدعم دولة تسبب دعاياتها وسياساتها أبلغ الأضرار فى بلاد الشرق الأوسط وبلاد أفريقية وآسيوية كثيرة.

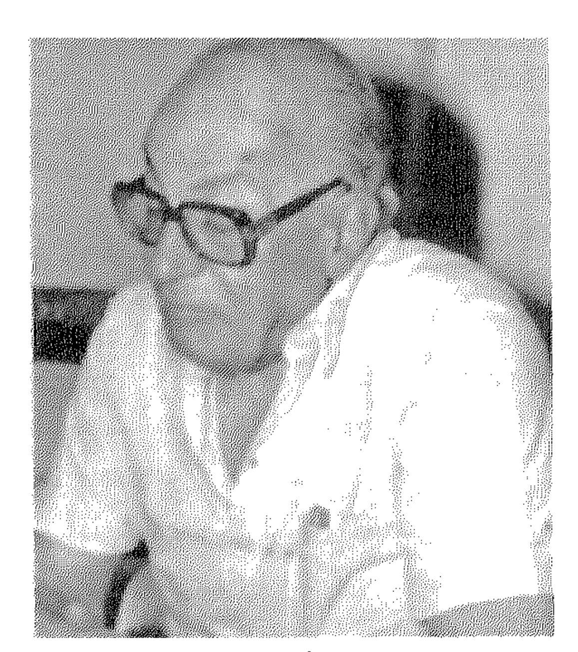
وإذ جاءت أواخر مارس من نفس العام ١٩٥٦ يفاجأ قراء الصحيفة المصرية

اليومية - الأخبار - بعدد يوم الخميس ٢٩ منه وقد تصدرت صفحته الأولى وعلى امتداد عرضها عدة «مانشتات» ضخمة باللونين الأحمر والأسود تقول فضيحة دبلوماسية - جمال عبدالناصر يكشف مؤامرة خطيرة ضد مصر - السفير البريطاني يحتج على إذاعات لم تحدث - أسفلها مقال للكاتب الكبير محمد حسنين هيكل (ولم يكن قد انتقل إلى الأهرام بعد - يتحدث فيه عن احتجاج رسمي بريطاني على إذاعات منسوبة إلى صوت العرب يحرض فيها على قتل رعايا وأصدقاء بريطانيا في البلاد العربية وخاصة فى عدن وجنوب الجزيرة والعراق وسلطنة عمان ومشيخات الخليج، وتدمير أية منشآت تمت إلى البريطانيين، وأن جمال عبدالناصر أبى تسلم الاحتجاج البريطاني من السفير «سير همفرى تريفليان» لتأكده من كذب هذه الإداعات، وليفاجأ السفير وهو يعد تقريرا لحكومته عن لقائه بعبدالناصر بزميله سفير الولايات المتحدة الأمريكية «هنرى بايرود» يبعث إلى السفارة البريطانية بنسخ من أشرطة لما تسجله الأجهزة الأمريكية الموجودة على سفينة تابعة للأسطول تحمل اسم - كاريير - فى البحر الأبيض، تتضمن كل ما بثه صوت العرب على امتداد الأيام محل الاحتجاج البريطاني، والتى خلت تماما من الاداعاءات البريطانية ضد صوت العرب، وهو ما كان محل دهشة بريطانية معاتبة لواشنطن في نفس الوقت الذى كان محل تعجب مصرى على مختلف المستويات المعنية، والتى كانت قد تيقنت من خلال تحقيق أشرف عليه يومها على صبرى مدير مكتب الرئيس، وأثبت فعلا وجود أكثر من عبارة تهدد وتنذر وتحرض ضد رعايا ومنشآت بريطانيا فى برامج صوت العرب، والإذاعات الموجهة أيضا فى الفترة التى ادعاها الاحتجاج البريطاني، الأمر الذى أكد لمصر بعض خبايا الاختلافات فى سبل المواجهات الغربية مع عبدالناصر، بين عواصم الغرب وتصارعها فيما بينها على تأمين مصالحها في الشرق الأوسط، والتى بدت علانية أوضح ما تكون عندما احتلت قوات بريطانية واحة البوريمى السعودية الغنية بالبترول، فى تحد عسكرى صارخ لمصالح أمريكا وشركاتها التى كانت أيامها تحتكر آبار البترول السعودى.

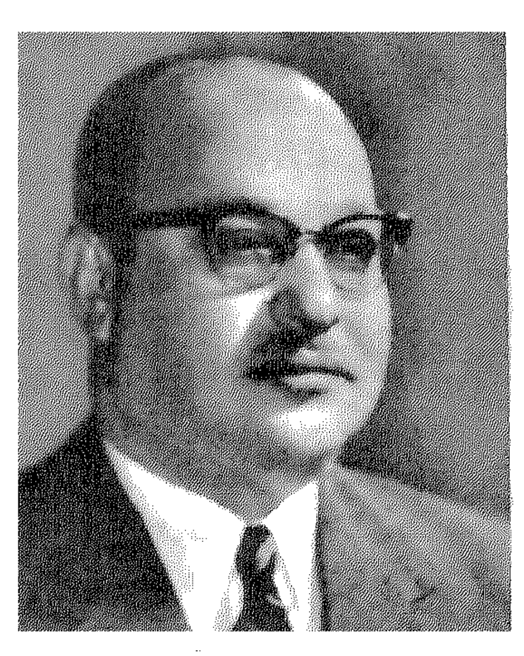
من أجل المبادئ

يومها:

الخميس ٢٩ مارس المذكور تلقيت تليفونا من سامى شرف سكرتير الرئيس، يطلب منى الحضور إلى بيت عبدالناصر فى الساعة الواحدة ظهراً عقب صلاة الجمعة، وليدخلنى عليه فى مكتبة بالدور الأرضى وليبدأ معى جلسة استغرقت نحو ثلاث ساعات تناولت أمورا سياسية عربية وأجنبية وتساؤلات ورؤى إعلامية، لم يذكر خلالها موضوع الاحتجاج البريطاني والتدخل الأمريكي بالمونتاج الذى استبدل برامج بأخرى، وعبارات بغيرها.. وإذا



أمين حماد



فتحي الديب

يصل اللقاء إلى نهايته بدخول قائد الجيش «عبدالحكيم عامر» نحو الساعة الثالثة والخمسين دقيقة، أبادر من جانبي بإبداء بعض الأسف لما سببته برامج قديمة لصوت العرب من مشاكل متعددة مع بعض الدول، وخاصة بريطانيا، لأفاجأ به يقول باسما وسط ضحكات عبدالحكيم عامر (إنتم صحيح لكم فى صوت العرب عبارات أعنف مما يجب وأنا كتير سألت عنها كتير من الناس المختصين في علوم المجتمع، وأغلبهم أجمع على أنها بعنفها والحدة اللى فيها ومعانيها مناسبة جدا لحالة اليأس والضياع الموجودة عند شعوب بعض البلاد.. بس مش معنى كلامى ده إنكم تزودوها بتحريض مباشر قوى يجيب لنا مشاكل بسببها أكثر من فوايدها وعشان كده أنا باقول لك وقدام حكيم إن صوت العرب جيش بنحارب بيه معاركنا من أجل مبادئنا وكل يوم مش زى قواتنا المسلحة اللى يمكن نحارب بيها كل جيل وربما كل جيلين تلاته وده لوحده يخليك وزملائك فى صوت العرب تعرفوا خطورة دوركم ومسئوليتكم ونتائج عملكم على مستقبل الناس بالملايين وبالأجيال كمان)

هكذا كانت قناعة جمال عبدالناصر بالإعلام كجيش يقاتل به - ويمكن - على مدار الساعة كسلاح لو أحسن استخدامه فى خطاب إعلامى تحررى تقدمى أن يحقق به إحداث التغيير المرجو فى المجتمع المصرى والعربى، وليفرض بقناعاتهم الثورية الجديدة تحركا تنمويا حضاريا يتفق مع ما يملكون من ثروات اقتصادية وبشرية، لو أجيد استخدامها وتوظيفها، لصنعت تاريخا مجيدا للمنطقة كان دائم الحلم به..

ويجيء منتصف مايو من العام ١٩٥٦ وتبدأ معه أجهزة الدولة المعنية بالعمل السياسى وتوابعه فى الإعداد لتمام جلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة

السويس، والمحدد له الثالث عشر من الشهور التالي يونيو، ونفكر في صوت العرب في تخصيص الأيام الأولى من الشهر السابقة على يوم جلاء آخر جندي لعرض قصة الاحتلال والمقاومة وتوارثها، حتى نجحت في توقيع الاتفاق على الجلاء ومتابعة تنفيذه، وكان التأريخ لمثل هذه المرحلة يتطلب أن نتناول قصة امتياز قناة السويس، واتفاقية القسطنطينية بشأن حرية الملاحة الدولية في القناة، وكذلك تعهد ديليسبس لقائد جيش عرابي الذي يقاوم الغزو البريطاني بعدم استخدام المعتدين لقناة السويس في مهاجمتهم للأراضي المصرية من الشرق، بعد فشلهم وعجزهم عقب هزيمتهم في كفر الدوار في التقدم من الإسكندرية إلى القاهرة، عبر غرب الدلتا، ثم ما تلى ذلك من وقفة رافضة عام ١٩١٢ لطلعت حرب ومعه غالبية أعضاء الجمعية التشريعية لمحاولات حكومة مصطفى فهمي باشا، بضغط من المحتل البريطاني زيادة مدة امتياز شركة قناة السويس، بعد الموعد المحدد من قبل عام ١٩٦٨، وإذ ذهبت بوصفي كاتب المسلسل الدرامي الذي قررناه عن قاعدة السويس إلى الدكتور مصطفى الحفناوي، صاحب أوفى الدراسات التاريخية والقانونية عن القناة، والتي دعا فيها إلى التأميم فاجأني يومها ناصحا بأن أستشير في موضوع القناة وما طرحه ومن قبله طلعت حرب سنة ١٩١٢، بخصوص ما طرحاه سابقا من تأميم..

وكانت حجته التي أقنعني بها أن أمة إشارة من صوت العرب إلى أفكاره وطلعت حرب حول القناة وتأميمها قد يكون مفسدا للأمل المصري المتوارث منذ احتلال بريطانيا بتحقيق الجلاء التام، خاصة وأن العلاقات المصرية البريطانية تشهد تأزما متصاعداً يوما بعد آخر. وأتبادل الرأى في هواجس الدكتور مصطفى الحفناوي لرجل المخابرات فتحي الديب صاحب فكرة إنشاء إذاعة صوت العرب، فيبلغني بعد يومين بأن أتجنب أية إشارة إلى طموحات سابقة لطلعت حرب ومصطفى الحفناوي، بشأن القناة وأن أركز فقط على كفاح أجيال مصر منذ الاحتلال من أجل الجلاء والاستقلال.

الفرحة الكبرى

وتمضي أيام يونيو والأسبوع الأول من يوليو لتعيش مصر ومعها العرب من خلال إعلام يعيش والناس الفرحة الكبرى بإتمام الجلاء الأجنبي. بعد نحو ثمانين عاما من الاحتلال البريطاني. وقد امتزجت بآمال كبار في بدء مرحلة تنمية شاملة تبدأ بتنفيذ أكبر مشاريع المياه في العالم بإقامة سد عالٍ جنوب أسوان، يوفر لمصر من مياه فيضان نهر النيل ما يحقق لأجيالها المتزايدة توسعا زراعيا عملاقاً، وطاقة كهربية تنير قراها بضوء حضاري وتدير مصانع نهضة كبرى.

ولكن ..

- يجيء السابع من يوليو حاملا نذر سحب تآمر ضد أمل مصر وثورتها في


عبد الحكيم عامر


على صبرى

إقامة السد..

ففى مساء هذا اليوم - نحو الساعة الثامنة والنصف - يرد نبأ من العاصمة الأمريكية وصفته الصيغة باللغة الإنجليزية، بسقوط مشروع قانون إسهام الولايات المتحدة فى قرض دولى لمصر من تكلفة بناء السد، كان البيت الأبيض قد تقدم به إلى الكونجرس لاعتماده مع مشاريع قوانين أخرى، بسبب انتهاء الدورة البرلمانية.. وأفاجأ بمحمد فهمى السيد - وهو يمت بصلة نسب قريبة بالرئيس وبأسرتى - يتصل، ويبلغنى على غير ما هو مستقر فى عملنا الإعلامى - حيث لم يكن يوما قناة اتصال - أن الرئيس الموجود ليلتها فى برج العرب بالساحل الشمالى، حريص أن تتضمن صيغة إذاعتنا للنبأ المذكور فى النشرة الإخبارية لصوت العرب الساعة العاشرة والنصف، إضافة له بأن هذا السقوط إجراء دستورى قانونى روتينى سنوى لكل مشاريع القوانين التى لم تتم مناقشتها والتصويت عليها، قبل انتهاء الدورة البرلمانية بأجازة الصيف.. واستنتج من هذه الاضافة التفسيرية أنه على الرغم مما كان يصلنا عن خلافات مصرية أمريكية بشأن شروط إسهام واشنطن، فإن الرئيس يرجو تجاوزها وتجنب تصعيدها فتزداد فى صوت العرب حساسيتنا خلال الأيام التالية للسابع من يوليو فى تناول كل ما يتصل بأمريكا من قريب أو بعيد..

ويتأكد ما ذهبنا إليه بمكالمة المستشار القانوني للرئيس عندما ردد على مسامعى نفس المعنى تليفونيا مدير مصلحة الاستعلامات يومها، عبدالقادر حاتم ليتلوه فى الاتصال سكرتير الرئيس سامى شرف، مضيفا أن اجتماعا سيعقده وزير الخارجية الدكتور محمود فوزى الساعة العاشرة من صباح الغد، سيحضره معى من الإذاعة مديرها أمين حماد ورؤساء تحرير الصحف اليومية، وبعد أن عاود

الوزير شرح الخلفية الدستورية القانونية لسقوط المشروع، أضاف تحذيرا بصيغة عذبة رقيقة اشتهر بها فى أحرج المواقف، طلب فيها أن يكف الجميع مؤقتا عن تناول الشأن الأمريكى عامة ولو بعتاب المحبين، ردد باسما مضيفا التأكيد على أن الرئيس عبدالناصر حريص للغاية على أن لا يصادر على أى أمل فى احتمال تجديد مشروع الإسهام الأمريكى فى القرض الدولى لبناء السد، مع الطرح الحكومى لشروع الموازنة الجديدة رغم محاولات اللوبى اليهودى فى الولايات المتحدة فى إثارة الأزمات بين العرب وواشنطن، وخاصة بعد عودة «دافيد بن جوريون» إلى رئاسة الحكومة الإسرائيلية وبدء سلسلة التحرشات المتتالية التى تشهدها الحدود مع مصر وسوريا والأردن ولبنان.

ويمضى الإعلام المصرى بشقيه المسموع والمقروء لمدة أيام وهو أحرص ما يكون على مشاعر واشنطن بينما كان المسئولون فى العاصمة الأمريكية يدبرون توجيه ضربة، تصوروا يومها أنها ستنال من مصر وثورتها وعبدالناصر..

ففى يوم ١٩ يوليو من العام ١٩٥٦ فاجأ وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس وزير خارجية مصر فى واشنطن الدكتور أحمد حسين باعتذار حكومة الولايات المتحدة عن المساهمة بقرض فى مشروع بناء السد، مدعيا عجز الاقتصاد المصرى عن الوفاء بتقديم النقد المحلى اللازم للمشروع بجانب استحالة التزامه بالوفاء بسداد القروض الأجنبية اللازمة للمشروع، بالإضافة إلى أن مياه النيل تتشارك فى ملكيتها مع مصر دول أخرى كثيرة، ثم إن تخزين مياهه على مساحات شاسعة يؤثر بالضرر على دول أخرى فى حوض النهر، بما يهدد باحتمالات نشوء نزاعات مسلحة. ولينهى الوزير الأمريكى حديثه للسفير المصرى قائلا بلهجة ساخرة بأنكم وقد رهنتم «حصولكم من القطن لسنوات ثمنا لما حصلتم عليه من سلاح سوفييتى، فبإمكانكم أن يساهم الاتحاد السوفييتى فى إقامة المشروع معكم .. ثم يردف بسخرية مرددا بأن هذا الإسهام السوفييتى سيكون أمرا طيبا لهم ولكم !!

وتفاجأ مصر مع العالم بأنه بينما كان الوزير الأمريكى يبلغ السفير المصرى بالاعتذار بأن بيانا رسميا أصدرته وزارة الخارجية، يردد مع إعلان الاعتذار نفس الأسباب المهينة لمصر واقتصادها وسياساتها الاستقلالية الثورية، وهو ما وضع حكومة مصر وأجهزتها الإعلامية خلال لحظة واحدة من الزمن فى موقف النقيض، مما كان كانت حريصة عليه طويلا وخاصة مؤخرا منذ أسابيع من يوليو ..

تحد سافر

وأذكر:

أن لجانا كثيرة فى وزارة الخارجية وإدارة المخابرات، درست تقارير كثيرة وناقشت احتمالات مختلفة حول الموقف الأمريكى، وما يمكن أن يكون وراءه من



وجيه أباظة



سامي شرف

مقاصد وبكل تداعيات أية مواجهات بين العاصمتين المصرية والأمريكية خاصة وقد جاءت صيغة الإعلان الأمريكى مكتبيا وعلنيا اتهاما صارخا يعكس تحد سافر، قد يؤثر بالسلب على ما حققته الثورة مصريا وعربيا وافريقيا وآسيويا وعالميا أيضا .

وبينما كنا فى صوت العرب نتأهب لوضع تفاصيل خطاب إعلامى يتناول الموقف الجديد بأبعاده المحتملة، من خلال ما ستستقر عليه دراسات رئاسة الدولة، وما يمكن أن تكون عليها معالجتنا لقرار عبدالناصر فى هذا الشأن على إختلاف احتمالاته ودرجات المواجهة بمفرداتنا الحرفية : إذا بآلة التيكرز تطلق رنينها المنذر بنبأ هام، ولنجد أنفسنا أمام خبر من لندن تعلن، فيه الحكومة البريطانية بصياغة مشابهة للصياغة الأمريكية رفضها بدورها الاسهام فى القرض الدولى لمصر لبناء السد، فيتأكد لكل مصرى معنى على مختلف مستويات المسئولية أن ثمة تدبيرا لممارسة ضغوط على مصر وعبدالناصر - ونمضى نهارنا وليلنا أيضا نفكر فى المواجهة التى بدت نذرها عنيفة شرسة، قد تتسع لتتجاوز الرفض السلبى الغربى، ولتأخذ ضغوطا اقتصادية أشمل وربما مقاطعة تصل إلى فرض أنواع من الحصار .

ولكن :

ويحكم خطورة الرؤى واحتمالات تداعياتها وخاصة مع وجود توجيه رئاسى سابق بتهدئة حريصة شاملة مع الطرف الأمريكى، منذ نحو الأسبوعين : رأى جميع المسئولين فى مصر انتظار عودة الرئيس عبدالناصر بالطائرة فيما بعد منتصف الليل، بعد رحلته إلى يوغوسلافيا وعقده مؤتمر حياد وعدم إنحياز مع رئيسها تيتو ورئيس وزراء الهند نهرو .

ويحدث أن يتصل بى وأنا أكتب نص التعليق الذى سأذيعه عقب نشرة الساعة

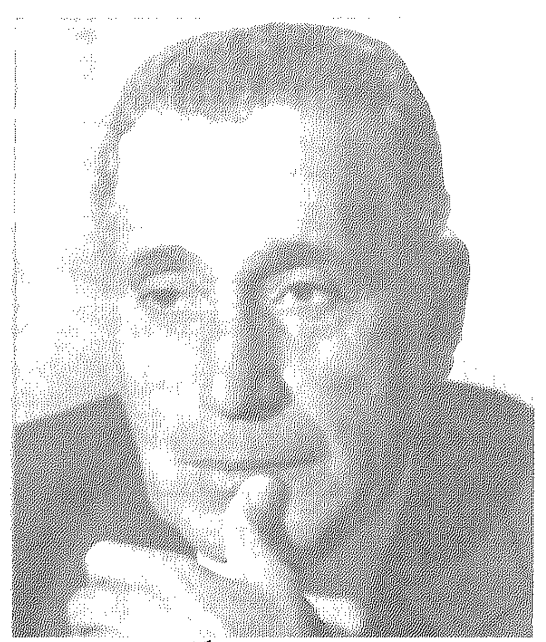
صوت العرب هدف عسكرى

الثامنة مساء، لبرنامج كفاح العرب ثلاثة مسئولين.. أولهما الزميل سعيد صبرى مسئول الاستماع السياسى بالإذاعة، وثانيهما حسنى عبدالوهاب مسئول الملحقين الصحفيين فى الخارج، وثالثهما فتحى الديب مسئول الشئون العربية فى المخابرات يرددون على مسامعى تفاصيل أزعجتنى إعلاميا، عن تداعيات القرارين الأمريكى والبريطانى وغلبة غمزات الصحف والإذاعات صاحبة الارتباطات مع الغرب، على حيرة الصحف والإذاعات الحرة.

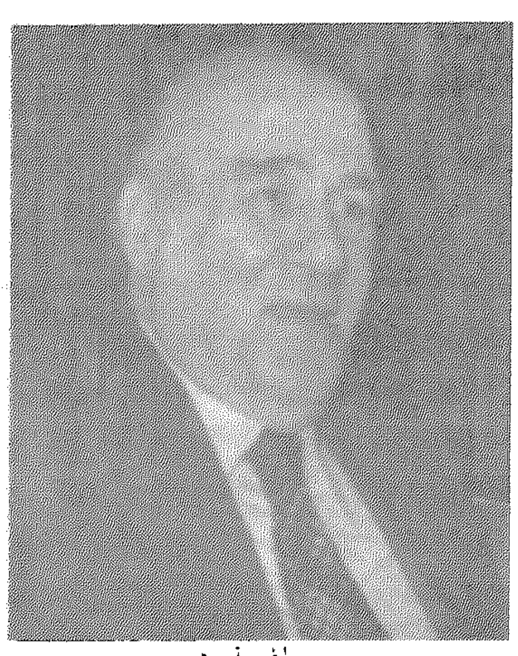
وأسأل فتحى الديب بوصفه المسئول الأول عن الشئون العربية بالمخابرات عن أضرار تخلفنا فى صوت العرب، عن مشاركة الشامتين فى مصر وعبدالناصر، والمهاجمين لأمريكا وبريطانيا، وعدائهما الذى أسفرا عنه بهذا الرفض المهين وأجد منه بادىء الأمر حذرا انضباطيا، فاقه وأغرقه يومها قناعة بضرورة إتساق صوت العرب مع ماله من صلاحيات سابقة، فى الإقدام على مواجهات فورية فى مثل هذه الأزمة فى حدود ماهو مرسوم له من خطوط حمراء وأضواء خضراء. وأسر إليه بإمكان أن نذيع ضمن أخبار كفاح العرب الساعة الثامنة، وكذلك ضمن برنامج الصحافة العربية اليوم (أمة العرب فى صوت العرب) فقرات من معالجات أجهزة الرأى العام العربية، مقروءة ومسموعة للقرار ين الأمريكى والبريطانى. ويستقر حوارنا على تضمين الأخبار والبرامج مختارات غربية وعربية موضوعية، بما يؤكد حرص صوت العرب على إعلام مستمعيه بكل الأنباء التى تعكس مواقف متصلة بوطن العرب، بين مؤيدة مناصرة له، أو معادية تريد النيل منه بهدف التحجيم الواجب لاهتمامات أجهزة الإعلام المضاد مسموعة أو مقروءة. وإذ يذيع صوت العرب ما اتفقنا عليه، أفاجأ بالكاتب الكبير مصطفى أمين يتصل بى تليفونيا متسائلا عما إذا كان قد صدر توجيه رئاسى بتعامل معين مع قرارى واشنطن ولندن، وإذ أجيبه بخلفية ما توصلت إليه مع فتحى الديب، انفجر ضاحكا قائلا (وناقل الكفر ليس بكافر) وأجد نفسى أجيبه مضيفا (والطشاش ولا العمى) فينفجر صاخبا ساخرا معلنا أن المثلين من أهم قواعد التعامل مع بعض الأخبار صحفيا وإذاعيا فى بعض الظروف..

ويجيء يوم ٢٣ يوليو..

ويتطلع الجميع إلى القاهرة وإذاعاتها، يترقبون من عبدالناصر أن يفتح النار غضبا فى خطابه السنوى يوم ٢٣ يوليو احتفالا بالعيد الثالث للثورة.. غير أنهم لايجدون فى خطابه يومها غير معان تقليدية تنصل بالمناسبة، وأمنياته للشعب فى ظل مبادىء الثورة، مما أصابنا فى صوت العرب ومعنا كثيرون بإحباط وحيرة على الرغم من اتصال فتحى الديب بى لإخطارى بمردود جيد سجلته فروع المخابرات لأسلوب صوت العرب بالأمس



محمد حسنين هيكل



مصطفى أمين

القريب، فى تناول النبأين وتداعياتهما الغربية الساخرة من مصر والغاضبة لمصر وأن توجيها عاما سيصدر الليلة بهذه المعالجة مع إبراز الآراء الغاضبة لنا.

انقسام

ويدور نقاش فى صوت العرب مشابها لما تردد يومها من جدل فى دور الصحف المصرية، حول الخطاب الهادىء المعانى للرئيس ذلك اليوم ٢٣ يوليو، رغم ما كان فى الجو السياسى من سخونة سببها القرارين الأمريكى والبريطانى فمثلا .. انقسمنا فى صوت العرب إلى فريقين .. فالبعض رأى أننا وبسبب ظروف التحرشات الإسرائيلية وما يصاحبها من أنباء عن شحنات فرنسية من السلاح والعتاد، وخاصة أسراب طائرات حربية فرنسية كانت فرنسا تنتجها لجيوش حلف شمال الأطلنطى : قد تكون الرئاسة قد أدركت أن فى الرفض الأمريكى البريطانى بداية مخطط غربى، لا تلبث أن تسهم فيه إسرائيل مما قد يؤدى إلى مواجهة عسكرية مبكرة مع مصر، وقبل أن تستكمل وتستوعب التسليح السوفييتى للجيش، وتحكم من حلقة التضامن العسكرى العربى حول إسرائيل ، والتى تسرع خطواتها وتتابع بعد اتفاق مؤتمر الدمام الرياض بين مصر وسوريا والسعودية، وقيام حكم وطنى متحرر فى الأردن فى ظل حكومة وحدة وطنية قوية العناصر يرأسها سليمان النابلسى .. بينما رأى بعضنا الآخر أن ذلك الهدوء المفاجىء الذى لم نعتد على مثله من جمال عبدالناصر عند وقوع مثل هذا التحدى منذ أزمة حلف بغداد أواخر عام ١٩٥٤، وعدوان إسرائيل على غزة وقتلها العشرات من الجنود المصريين مما عبر عنه بعدها بصفقة الأسلحة التشيكية السوفيتية التى أثارت جنون عواصم الغرب وخاصة واشنطن.

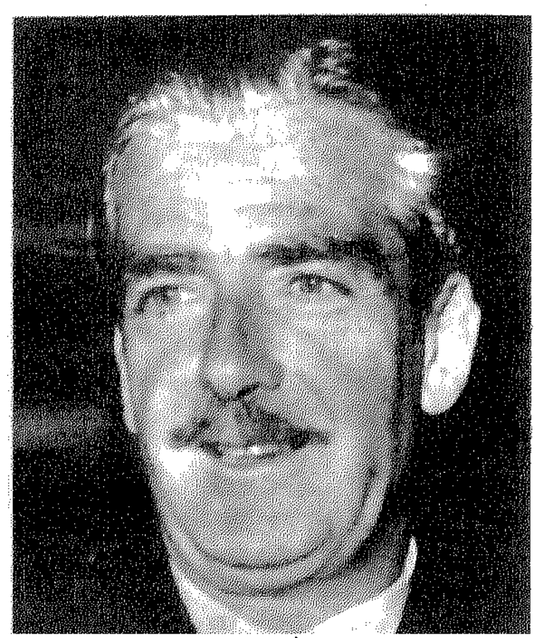
وتمر ساعات يومى ٢٤ و ٢٥ ونهار

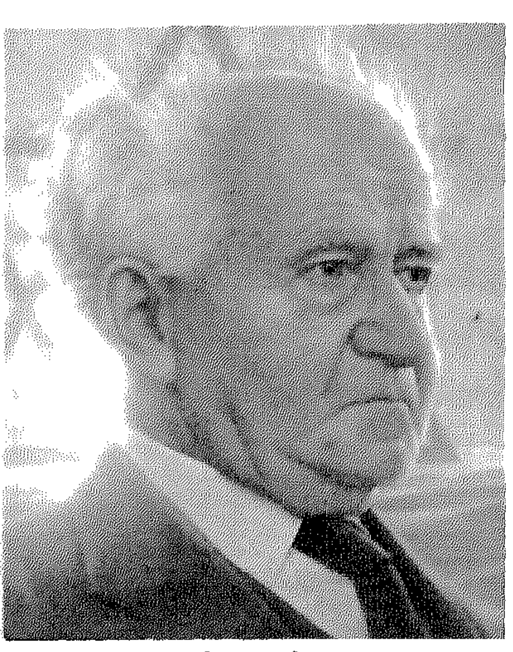
٢٦ يوليــو وصــوت العــرب يتــعــامل مع الرفض الأمريكى البريطانى وفق القاعدة التى اجتهدناها بأن (الطشاش ولا العمى) فى حدود التوجه الرئاسى بالهدوء المتأهب إلى أن يجىء مــوعــد بدء خطاب تقــرر للرئيس من شـرفـة بورصــة الاسكندرية، بميدان المنشية بمناسبة مرور أربع سنوات على تنازل فـاروق عن العـرش ومـغـادرته للبـلاد . وأستـقـر فى مكتبى مع نفـر من الزمـلاء وقـد تسلح كل منا بأوراق وأقـلام اعـتـدنا مع كل خطاب لعـبـد الناصـر أن نثبت عليها النقاط الرئيسية التى يتناولها ، فـيه بحكم أنها تمثل دائما رؤية للأحـداث الجارية وتعكس ما قد يوحى به، أو يتخذه من مـواقف ومـحـاذيره من احـتـمـالات أية تداعـيـات .. وأذكـر أننا تبـادلنا نظرات تسـاؤل وعبـارات تعـجب، ونحن نسـتـمع ليلتها إلى عبدالناصر وقد بدأ يفيض فى رواية لقصـة منح والى مصـر سعيد باشـا امتياز حفر قناة السويس لفرديناند دى دليسبس، ويعاود فى تكرار نطقه لاسم دى ليـسـبس، ثم وهـو يفـيض ويزيد فـى رواية تفـاصـيل قـصـة منح الامـتـيـاز، مما دفع بعضنا إلى أن يبدى تساؤلا عما إذا كـان الرئيس ينتوى استـمرار تجاهله للرفض الأمريكى البريطانى، رغم مـا يثيره غضب مـحبـيه الأحـرار وسط ترقبـهم لرد الفـعل المصـرى .. غـيـر أن الرئيس لم يلبث أن أطفأ غليل حيرتنا حول هذا الأمر، عندما بدأ فى اسـتــعـراض بدا لنا مـريرا فى عبـاراته متـحـفزا فى نبراته، لأزمـة تمويل قروض دولية مع الحملة المصرية لتنفيذ مشروع السـد العالى ، ثم ليعلن بتأكيد قـاطع إصـرار الثـورة على البنـاء مـرددا بأداء أقرب إلى بشير المؤذن: قرار رئيس الجمهورية بتأميم شركة قناة السويس.

ولتردد أجواء ميدان المنشية بتصفيق وهتـاف، اهتـزت له الدنيـا بين مـؤيدين مــهللين، وأعــداء صــاخــبين فــاجــأهـم عـبـدالناصــر بقــرار تاريخى يؤكـد رغم المردود المادى الرقـمى له وجـوب حـتـمـيـة تحرك الشـعـوب، ضـد مـخططات أعدائها وقدرتها على فرض مواجهة بناءة ظافرة للمتربصين لها الطامعين فى ثرواتها ، مما شجع شعوبا عديدة فى افريقيا وآسيا على بدء نضـال مـتـتـابع من أجل الاسـتـقـلال، واسترداد الثروات وفى مـقدمتها شعوب الأمة العربية، التى حرص عبدالناصر على استـثارتها مع مصر ومشاركتها لها وهو يؤمم القناة مـرددا وصـفـه لهـا الذى يؤمن فيه بأنها قناة كل العرب.

إذاعة حية

ويومض على الفور فى جميع الزملاء بصــوت العــرب إدراكنا المتــرسب فى أعمـاقنا بأننا إذاعة حـية، يتـدفق بثـهـا ويتــوالى مع خطاب الرئيس وقــد مــضى يستكمله بعد إعلانه التأميم .. فنقرر فى حماس سرعة التفكير فيما يجب أن نقدمه من فقرات مناسبة للقرار التاريخى، فور إنتـهـاء عـبـدالناصـر من خطابه، تاركين واحـدا منا فـقط يتابع الرئيس فى بقـيـة حديثه ولتسـرع بقيتنا إلى حجرة مجاورة


إيدن


بن جوريون

تتدارس فيما يجب أن نواكب به الحدث الجليل تأصيلا لحق. وتثبيتا لقرار وتأكيدا لانتصار ودعوة لفرض مثيله لاسترداد المنهوب من ثروات مختلف بلاد العرب .

ويفرض احتمال أن ينتهى سريعا عبدالناصر من استكمال خطابه، أن نستحضر الدفاتر المثبت بها الكثير من التسجيلات البرنامجية والغنائية، فنجد شريطا عليه تسجيل كامل لمحاضرة الدكتور مصطفى الحفناوى، صاحب أشهر دراسة أكاديمية عن قناة السويس وكان قد ألقاها بنادى ضباط الجيش بالزمالك فى افتتاح محاضرات الموسم الثقافى خلال نوفمبر ١٩٥٢، كما وجدنا شريطا آخر عليه حوارات سبقت إذاعتها فى صوت العرب لبعض أعضاء مكتب قناة السويس الذى أصدر جمال عبدالناصر قرارا بإنشائه ملحقا بمجلس قيادة الثورة، مثل أستاذى القانون حامد سلطان ومحمد على الغنيت، بالإضافة إلى الوزير المناضل فتحى رضوان، وعضو مجلس الإنتاج محمد فؤاد جلال . بالإضافة إلى العديد من أناشيد قديمة سبق تسجيلها قبل الثورة عندما اشتعل نضال الفدائيين ضد معسكرات الجيش البريطانى، أثر إلغاء حكومة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر ١٩٥١ وفى مقدمتها نشيد محمد عبدالوهاب من كلمات كامل الشناوى الذى يقول مطلعه . (كنت فى صمتك مرغم ونشيدان بأسلوب أغانى السمسمية الشعبية المشهورة فى بورسعيد والإسماعيلية يبدأ أولها منشدا (قنالى قنالى دايما فى بالى) .

والثانى (قنالنا مصرية .. مانها انجليزية .. راجعة لنا أهية .. بدمانا الذكية) بالإضافة إلى سبعة برامج درامية جاء فيها ذكر ما يتصل بقناة السويس من أكثر من زاوية مما اعتبرناه يومها كنز اذاعيا، ووظفناه بعد إجراء عمليات مونتاج حرفية، مع وضع عبارات مستحدثة تربط

بين جزئيات فقراته حتى إذا ما انتهى الرئيس من خطابه ، وانفصلت موجة صوت العرب عن موجة البرنامج العام ، بدأنا بتقديم فقرات متناسقة من المحاضرة القديمة للدكتور مصطفى الحفناوى، والتى تناول فيها حقوق مصر الضائعة فى قناة السويس ، يليها نشيد محمد عبد الوهاب (كنت فى صمتك مرغم) ولتتوالى الأحاديث والبرامج والأناشيد، التى تدور كلها حول قناة السويس ومصريتها وكفاح الشعب من أجل تحريرها، حتى بدا للملايين المستمعين ليلتها ، وكأن صوت العرب كان على علم مسبق بنية عبد الناصر فى تأميم القناة - وهو الأمر الذى ليس له نصيب من الصحة - مما يذكرنى بأمرين .. أولهما : عتاب الصحفيين الكبيرين مصطفى أمين وحسين فهمى للرئاسة على ما تصوراه انفراد صوت العرب بالسر .. وثانيهما : التقدير الرئاسى لتغطية صوت العرب الفورية لإعلان التأميم ، وخاصة ما كنا قد حققناه من استطلاعات ردود أفعال عربية صاحبتها صور صوتية لهتافات مظاهرات عربية شهدتها دمشق وبيروت وعمان ، وهو ما دفعنى ليلتها إلى إذاعة تعليق أبشر به شعوب العرب بأن استرداد مصر لقناة السويس ودخلها، نقطة انطلاق لبدء عمليات تحرر عربى اقتصادى ، تسترد به الشعوب المنهوبة ثرواتها من عائد آبار البترول العربى فى المشرق وعائد مناجم الكوبلت والفوسفات فى المغرب..

وإذ يأتى اليوم الثانى على التأميم تهدى حكومتا سوريا والسعودية صوت العرب أسس حملة إعلامية متصاعدة تسهم تباعا فى تصفية ركائز الشركات الأجنبية من أمريكية وبريطانية وفرنسية وهولندية ، المسيطرة على البترول العربى وتعريب منشآته وإخضاع انتاجه وتسويقه لصالح تنمية البلاد العربية المنتجة.

ففي دمشق

عقد مجلس الوزراء السورى اجتماعا حضره على غير العادة رئيس الجمهورية شكرى القوتلى، ليصدر بيانا رسميا يرحب بالتأميم ويباركه ويساند مصر فى تنفيذه مؤكدا أنه عمل يدعم القوى العربية، ويطلق ملكاتها وقدراتها لصالح مستقبل الأمة كلها .. يعقبه بيان حماس لاهب يعلنه أعضاء مجلس النواب السورى، الذى عقد جلسة طارئة عاجلة وسط تظاهرات شعبية شارك فيها رجال الجيش معلنين تأييدهم لمصر وعبد الناصر ، مبشرين بأن التأميم عمل ثورى يحقق مكسبا قوميا تتأكد به حرية القرار المصرى وضرورة مؤازرته وحمايته بالإسراع فى تتويج النضال الوحدوى.

ومن الرياض :

يبعث ملك السعودية سعود بن عبد العزيز ببرقية عاجلة إلى سفيرة فى القاهرة يكلفه فيها بأن ينقل إلى الرئيس المصرى فوراً قرار المملكة بتأييد مصر ومباركتها على التأميم يقول له فيها .

(قابل حالا السيد الرئيس وارفع له


جى موليه


ديليسبس

باسمنا تأييدنا الكامل للخطوة التى خطاها فى تأميم شركة القناة ونحن واثقون أن الرئيس يعرف موقفنا واتجاهنا وتأييدنا المطلق له في شتى مجالات التعاون وارفعوا لسيادته تحياتنا وتمنياتنا الطيبة).

وعلي الفور

يأخذ الخطاب الإعلامى لصوت العرب فيما يلى من أيام وصولا إلى يوم العدوان الثلاثى على مصر فى ٢٩ اكتوبر من نفس العام ١٩٥٦ التوجهات التالية وخاصة عندما بدأت إذاعة بريطانيا الناطقة بالعربية من قبرص (الشرق الأدنى) فى زيادة ساعات إرسالها اليومى فى الثانى من أغسطس وتبعتها فى ذلك اذاعة المخابرات الفرنسية بالعربية والمسماة (مصر الحرة) والتى كانت تبث برامجها من مونت كارلو ويديرها أفراد من عائلة أبو الفتح.

فأولا :

التأكيد على الحق الوطنى فى ثروات البلاد وامتلاكها بالتأميم وغيره من الوسائل أو العمل الفورى على تقليص الفروق العددية الهائلة بين الانتاج المسلوب غير المعلوم، والفتات الذى يعطيه للحكام والشعوب.

وثانيا :

الدعوة إلى إعادة النظر فى الامتيازات الممنوحة للأجانب فى جميع الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، وصولا إلى ضبطها وتأمين مصالح الوطن وأجياله.

وثالثا :

المطالبة بإنشاء تكتل عربى فى مجال البترول يضم جميع المشيخات المنتجة مع المملكة العربية السعودية لمواجهة الاحتكارات العالمية الموازية.

ورابعا :

تجسيد إعلامى تتشارك فيه مع صوت

العرب إذاعات الحكومات العربية المتحررة للعمل الفورى المستمر، على تصعيد عملية تعبوية شاملة تحسبا لأى رد فعل أجنبى لخطوات العرب التنموية، ومشاريع استردادهم لحرياتهم وثرواتهم.

وخامساً:

بدء الإعلان عن تحديد بيان تفصيلى للمصالح والشركات المتعددة لدول الغرب عامة وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وهولندا وأمريكا خاصة والمنتشرة فى بلاد العرب وإفريقيا وآسيا، وتهيئة الشعوب للضغط باستمرارا عند الحاجة على صناع القرار فى هذه الدول.

وسادسا :

كشف أسماء وادعاءات من جندوا أنفسهم من العرب فى خدمة السياسات الغربية المعادية للعرب، وفضح تواطؤاتهم ضد شعوبهم العربية ومساعيها من أجل الحرية والنماء.

وسابعاً:

تحقيق مردود يفيد التوجه الإعلامى القومى العربى لمواقف قيادات اسرائيل وأجهزتها الدعائية ضد سياسات مصر، ومواقف عبد الناصر وعلى رأسها صفقة الأسلحة التشيكية، وقرار تأميم القناة ، مثل تصريح بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل يوم أول أغسطس بأن عدم مواجهة العالم - كما ردد - لناصر وتأميمة لقناة السويس، يعنى إفلاته مما يجب إنزاله به من عقاب يردعه وغيره من العرب، وإلا انقلب الحال فى مصر وفى البلاد العربية المتحالفة مع ناصر مثل سوريا والأردن منذرا بخطر يهدد اسرائيل وأمنها ووجودها نفسه وهو ما لا تملك فى مواجهتة ترف السكوت عليه .

وثامنا ، وليس آخرا :

التنسيق مع الإذاعات العربية المؤيدة والمتعاطفة وكذلك المحايدة سواء من خلال إدارييها أو المتألقين الأحرار من مذيعيها ومحرريها، وإنشاء شبكة اتصالات يومية فيما بينها وصوت العرب، سواء فى شأن رصد اتجاهات المستمعين لكل منها، وتأثيرات دعايات الإذاعات العربية المعادية الصادرة عن دول الغرب أو إذاعة حكومة «نورى السعيد» فى بغداد بالإضافة إلى صحف معادية فى لبنان والعراق.

ومع توالى أنباء محاولات الغرب، حشد الغرب وخاصة أوروبا المستهلكة الرئيسية للبترول العربى الذى يمر أغلبه عبر قناة السويس، وأنابيب ممتدة فى أراضى شعوب عربية مختلفة: يقع حدثان تأكد فيما بعد رغم تباعد مواقعهما واختلاف صناعهما، وكأنهما تمهيد مشترك متفق عليه لمواجهة غربية حاشدة لمصر وللعرب وعبد الناصر، وكل غضبة شعبية قومية. بما يجعلنا اليوم نجزم بأنهما كانا اختبارا مبكرا لرد الفعل العربى لأى عمل عدوانى..

ففى خلال أسبوع واحد حدث التالى:

قرار فى السابع عشر من أكتوبر من العام ١٩٥٦، إتحاد عمال الشحن والتفريغ فى ميناء نيويورك والخاضع


شكرى القوتلى


الملك سعود

لنفوذ اللوبى اليهودى، بمقاطعة السفينة المصرية التجارية كليوبترا عند وصولها القريب من موانىء كندا فى طريقها إلى موانىء أمريكا اللاتينية، بحجة قيام حكومة مصر التى تدير الملاحة فى قناة السويس بعد التأميم بمنع سفينة إسرائيلية تجارية من عبور القناة..

وبعد خمسة أيام فقط من موقف عمال ميناء نيويورك - يوم ٢٢ أكتوبر على وجه التحديد - يفاجأ العالم بعملية قرصنة جوية مسلحة باختطاف فرنسا بواسطة السلاح الجوى الحربى، طائرة ملكية مغربية كانت فى طريقها من المغرب إلى تونس وعلى متنها خمسة من كبار قادة الثورة الجزائرية وصناعها (أحمد بن بيلا ومحمد بوضياف وحسين آية أحمد ومحمد خيضر ورابح بيطاط) والذين كانوا فى طريقهم إلى تونس للاجتماع بممثل للحكومة الفرنسية تنفيذا لوساطة حكومة جى موليه فى باريس، من ملك المغرب محمد الخامس ورئيس تونس الحبيب بورقيبة.

المقاطعة

وبينما كنا فى صوت العرب نتعامل مع الحدث الأول داعين ، أولا وأخيرا إلى مقاطعة عمالية عربية أشركنا فيها معنا البرامج المواجهة من مصر وإذاعتى دمشق وعمان : يصدر عن الاتحاد العام لنقابات العمال العرب - وقبل يومين من وقوع القرصنة الفرنسية الجوية - قرار يرد به على قرار عمال ميناء نيويورك بإعلان إضراب عام على امتداد بلاد الوطن العربى، من الخليج إلى المحيط يشمل مقاطعة كاملة لكل ما يمت لأمريكا بصلة فى البلاد العربية، مثل وسائل الاتصالات من سفن وطائرات وتموين سيارات أفراد، وغير ذلك من التعاملات اعتبارا من يوم ٢٨ اكتوبر ، إذا لم يتراجع اتحاد عمال ميناء نيويورك عن قرار مقاطعة السفينة كليوبترا..

صوت العرب هدف عسكري

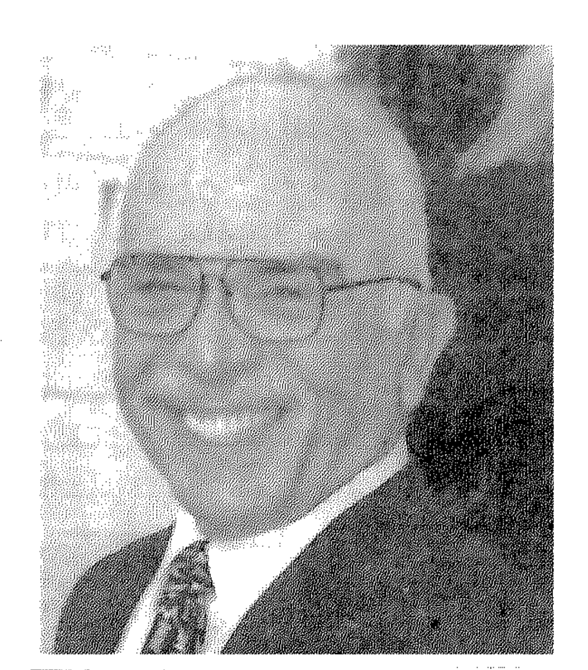
وإذ تقع القرصنة الجوية الفرنسية يسارع اتحاد العمال العرب إلى إنذار فرنسا ممثلة فى كل منشآتها وسفاراتها ورعاياها فى بلاد العرب، بضمها إلى قرار مقاطعة كل ما هو أمريكى إن لم تفرج عن الزعماء الجزائريين المختطفين، بينما كان صوت العرب قد قرر - دعما لحملة ضد المقاطعة الأمريكية والجريمة الفرنسية - أن يوفد إلى خمس بلاد عربية خمسة من المذيعين المتمرسين (أربعة من صوت العرب هم جمال السنهورى وسعد زغلول نصار وصلاح عويس وعبد المنعم سلام مع استعارة زميلهم نبيل بدر من البرنامج العام ، وذلك لتسجيل برامج وصور صوتية لردود الفعل العربية الشعبية والرسمية ضد الحدثين الأمريكى والفرنسي..

وتنتشى برامج صوت العرب تباعا بفيضان متدفق فى غير انقطاع من الرسائل الصوتية للمذيعين الخمسة، منذ الثالث والعشرين من أكتوبر، تضاعف من لهيب عداء المشاعر الشعبية للأمريكيين والفرنسيين ومنشآتهم الرسمية والمدنية والاقتصادية، فى جميع المدن العربية مما جعل كثيرين من المراقبين الغربيين الفرنسيين والأمريكيين، ينتقد قرار اتحاد العمال الامريكى وعملية الاختطاف الفرنسي.

ولكن :

بينما كانت تتعاظم بهجتنا بالوقفة الشعبية العربية والصور الصوتية الإذاعية المعبرة عنها تتدفق علينا فى صوت العرب من دمشق وبيروت وعمان وطرابلس ليبيا، حيث انتشر المذيعون المصريون الخمسة : إذا بأنباء عن هجوم إسرائيلي مباغت على شبه جزيرة سيناء يجرى التأكيد عليها تباعا ليلة ٢٩/ ٣٠ أكتوبر .. ويتصور البعض منا بأنه لن يتجاوز ما اعتدناه من تحرشات إسرائيلية .. غير أن اتصالا تليفونيا من مكتب قائد الجيش عبد الحكيم عامر يبدد هذا التصور، عندما طالب الصاغ عباس رضوان أحد الضباط الأحرار العاملين فى مكتب قائد الجيش بأن يجرى استنفار الإذاعيين على الفور ، ومنع إنهاء الإرسال الليلى لصوت العرب والبرنامج العام، كما جرت العادة بعد انتصاف الليل ، وذلك تحسبا لتطور متوقع، بدأت القيادة المصرية تستبين ملامحه فور أن ثبت لها أنه قد تم تدمير مراكز اتصالات عسكرية شرق ووسط سيناء ، أعقبه إسقاط مع المساء لوحدة مظلات معادية فى موقع استراتيجى وسط سيناء أقرب إلى الشاطئ الشرقى لقناة السويس منه إلى حدود خط الهدنة بين مصر واسرائيل..

ومع الفجر واقتراب شروق الشمس يبدأ توالى تلقى الإذاعة لبيانات حربية عن معارك متفرقة فى سيناء وسط طوفان من دعاية اسرائيلية تردد صداها إذاعات لندن وباريس والشرق الأدنى، تتحدث عن تقدم سريع لوحدات من جيش إسرائيل من الشرق إلى الغرب من سيناء نحو قناة السويس، كما كانت تردد أيامها إذاعات



الملك حسين



عبد الله السالم الصباح

فرنسا وبريطانيا واسرائيل بمختلف اللغات .. فتبدأ الأجهزة المصرية المعنية فى إعادة تقييم الموقف على ضوء قناعة تولدت من إسقاط مظليين اسرائيليين ، وسط سيناء يتقدم إليهم لمساندتهم طابور عسكرى سريع الحركة.

لا يلبث معهم أن يتقدم فى اتجاه شرق قناة السويس فى هرولة تحميها كثافة جوية من طائرات نفاثة لمقاتلات فرنسية (ثبت فيما بعد افتضاح التآمر الثلاثى ونشر بعض وثائقه أنها كانت تابعة للسلاح الجوى الفرنسى) .. فيصدر توجيه سياسى إعلامى بأن المستهدف من مصر، هو قناة السويس وهى شأن دولى فى إدعاء الغرب، وخاصة عند فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة أكثر منها محل اهتمام إسرائيلى مباشر تغامر معه وحدها بشن عدوان على مصر .

ويطلب التوجيه الرئاسى فى ختام عباراته من الأجهزة المعنية وخاصة الجماهيرية، مثل الإذاعة البدء فى حملة تعبوية شاملة تعطى جماهير مدن القناة: السويس والاسماعيلية وبورسعيد اهتماما خاصا، وكذلك مدن شرق الدلتا من خلفها إلى الغرب وصولا إلى العمق عند التل الكبير والمطرية ..

التعبئة

وتتدافع فى أذهاننا بصوت العرب جميع القواعد الإعلامية المناسبة للتعامل مع مثل هذا الموقف الجديد علينا، فأجدها جميعا تدور داخل إطار أن الإعلام عملية تابعة لوقوع الحدث، وأن الدعوة تالية لنزول الوحى بالدين بمعنى آخر أن يتكون المبدأ وما يقوم عليه من ركائز .. بينما المطلوب اليوم تعبئة جماهيرية ذات بعدين : أولهما بعد محلى مصرى مطلوب استثارته لمواجهة خطر فيه تضحيات، قد تتزايد مع استمراره وطول مقاومة مما قد يدفع إلى سطح الإدراك العقلى بمخاوف ذاتية وجماعية .

وثانيهما : بعد عربى يجب حشده لتوسيع رقعة المواجهة مع الخطر وتداعياته الغربية المتوقعة، من خلال تحرك شامل جارف - رفضا لأى عدوان - داعما لمصر، يهدد فى تفعيل إيجابى مصالح حماتها البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين .

والبعدان يخرجان بالعملية الإعلامية المرجوة من مجال التبعية للحدث، إلى مجال التنبيه إليه وصولا إلى الإنذار به وخطره على الكل العربى، والاستنفار المتصاعد لدحره بكل ما يجب حقن وتسليح الجماهير ضد احتمالات القلق المتخوف من تضحيات غير مرئية أو محددة، وهى نواقص يمكن أن تتيح لأية دعاية معادية مجال تحرك واسع نافذ يظفر بنفوس ضعيفة، ولم يكن أمامى ساعتها غير اختيار الإيحاء بالتشارك العربى المسئول مع شعب مصر، على أساس ما كان قد قام بالفعل من استنفار الغضب العربى العام، والثائر، منذ أكثر من عشرة أيام بسبب مقاطعة السفينة المصرية كليوباترا فى الميناء الأمريكى، وازدادت غضبته وثورته بخطف فرنسا الغادر لزعماء ثورة الشعب العربى الجزائرى، وهو ما لم يلبث أن فرض مع تداعيات العدوان الإسرائيلى والاشتراك الفرنسى البريطانى فيه، أن نلجأ فى صوت العرب إلى أسلوب حرفية خطاب إعلامى يقوم على خلق تيار جمعى يتكيف مع أجواء الصراع الناشب بكل احتمالات تطوره، مستهدفا تكوين رأى عام جماهيرى يتقبل المشاركة فى الصراع والتكيف مع ما قد يفرضه من عنف، مما قد يضمن معايشة الجماهير المستهدفة بأن تعايش المعارك بأخطارها، متقبلة ما قد تفرضه من تضحيات جسام، وفى قناعتها أنها ثمن بخس تدفعه راضية مقابل واجب لأحلامها فى الكرامة، و إصرارها على الحرية والتماسها لمكاسب حياتية لها ولأجيالها ..

الإنذار

وإذ تجئ الساعة السادسة من مساء اليوم الثلاثين من أكتوبر، تتأكد أبعاد استخدام إسرائيل لجنودها المظليين فى احتلال بقعة استراتيجية وسط سيناء، على بعد ٧٥ كيلو متر فقط إلى الغرب من الشاطئ الشرقى لقناة السويس. فقد وجهت فرنسا وبريطانيا نداءهما المشهور إلى مصر وإسرائيل بإنذار عسكرى صارم بنية احتلال قوات الجيشين المتحالفين الفرنسى والبريطانى لقناة السويس وبعرض عشرة كيلو مترات شرقا ومثيلها عشرة إلى الغرب ..

وتذكر الوثائق التى تم نشرها أخيرا وخاصة فى بريطانيا حول العدوان الثلاثى أن اجتماعا تم عقده فى لندن قبل يوم من بدء الحرب بأسبوع واحد فقط، ضم من الجانب البريطانى السير الجنرال تشارلس كيتلى قائد التحالف، و«الليوتينانت جنرال» السير الجنرال هيوج ستوكويل قائد قوات الغزو البرية .. ومن الجانب الفرنسى فايس ادميرال بيير بارجوت نائب جيوش التحالف والماجور جنرال جاك ماسو قائد



تيتو ، نهرو ، عبد الناصر فى باندونج

فرقة المظلات الفرنسية لدراسة آخر تقارير المخابرات فى البلدين، عن مصر محل الهجوم الوشيك، وكان على رأسها تقرير تفصيلى عن العمليات الواجب تنفيذها لإضعاف المقاومة المصرية سريعا، وإفقاد المصريين الثقة فى إمكانية الصمود وتأليب الشعب على عبدالناصر، وصولا إلى إقامة حكم يستسلم للغرب .. واعتمدت خطة هذه العمليات المتصلة بالحرب النفسية، ضرورة القيام مع البدايات الأولى للغزو الفرنسى البريطانى، أن يتم قصف مجمع محطات إرسال الإذاعة المصرية فى أبى زعبل، إلى الشمال الشرقى من القاهرة والتى تجمع الشعب حول عبدالناصر، وخاصة برنامجها صوت العرب والتى تهدد بإثارة الجماهير فى كل مكان يصل إليه صوتها فى بلاد الشرق الأوسط، مما قد يؤدى إلى صمود مصرى غير مرغوب فيه يؤثر مع استمراره فى إثارة شعبية عربية ضد مصالح فرنسا وبريطانيا، فى نفس الوقت الذى يثير عليهما غضبة رأى عام عالمى، تملك الاحزاب الشيوعية والاشتراكية والليبرالية قدرات فائقة على تحريكه دوما ضد السياسات الخارجية لدولتى التحالف الفرنسى البريطانى. ويوافق قادة جيش الغزو على ما ذهب إليه تقرير رئيس قسم الحرب النفسية، ضابط المخابرات البريطانية جون فيرجون من أولوية خاصة بحرمان ناصر – كما نصت عبارة الوثيقة – من لسانه وحنجرته وكل ما يجعله قادرا على استثارة العرب من جهة، وجمع المصريين حوله واستنفارهم لقتال شعبى مسلح قد يصمد طويلا، مما يفسد سرعة استسلام مصر والعرب والعالم من بعد للأمر الواقع الذى فرضه العمل العسكرى، باحتلال سريع لقناة السويس والانهيار الاستسلامى لمصر .

ويحدث أن تدرك الرئاسة المصرية

أبعاد الإنذار المشترك بكل ما تضمنه صراحة من نية غزو مسلح تريد به فرنسا وبريطانيا احتلال كامل قناة السويس احتمال نجاح المعتدين فى القضاء التام على وحدات الجيش المصرى التى أسرعت إلى سيناء مع بدء تمثيلية العدوان الإسرائيلى ، فى نفس الوقت الذى أدرك فيه عبدالناصر أن وجود مدن عامرة بالسكان المصريين فى منطقة قناة السويس، يعنى من ناحية حتمية التحام بين القوات الفرنسية البريطانية وجماهير مدن وقرى القناة بكل تداعيات هذا الالتحام، من مقاومة شعبية واجبة وتعرض هذه الجماهير لنتائج الغزو المسلح وعمليات المقاومة المرجوة. وكان أن قرر على الفور سحب الجيش من سيناء والتحامه بالشعب، وتهجير لأسر رجال مدن القناة مع بدء توزيع الأسلحة والذخيرة والتدريب العاجل عليها وتنظيم مقاومة شعبية تحت قيادة نفر من الضباط الأحرار .

دور الإذاعة

وتبدأ الإذاعة على الفور فى خدمة توجهات عبدالناصر .. ويتم استخدام متقطع للمذيعين فى توجيه نداءات تنطوى على شفرات توجه قواتنا المسلحة فى سيناء، إلى تأمين الانسحاب السريع المطلوب .. فى نفس الوقت الذى حملت الإذاعة عبء إشاعة الطمأنينة بين نفوس مواطنى مدن وقرى القناة تأمينا لتهجير جزئى متسارع، للكثير من الإناث والأطفال مع تركيز إيحائى يضمن تواجد الرجال وغرس فكر المقاومة والدعوة لتماسكها وانضباطها استعدادا لمقاومة شعبية مجدية ..

ثم ..

أفاجأ مع منتصف أول نوفمبر اليوم الرابع منذ بدء عدوان إسرائيل، والثانى من بدء هجمات بحرية وجوية فرنسية بريطانية بفتحى الديب ضابط المخابرات المسئول عن الشئون العربية، وصاحب فكرة إنشاء صوت العرب يتصل بى تليفونيا ويخبرنى بأن الصاغ عباس رضوان فى طريقه إلى مبنى الإذاعة للإشراف على مهمة إذاعية هامة، متصلة بالقتال الدائر، قرر الرئيس تكليفى بها ، وأن المطلوب منى أن أذهب به فور وصوله إلى مكتب مدير الإذاعة محمد أمين حماد، للبدء إداريا وفنيا فى تنفيذ المهمة العاجلة، وأتذكر وأنا فى انتظار عباس رضوان أننى سمعت كثيرا عنه كرجل مهام خاصة يكلفه بها الرئيس عبدالناصر والقائد عبدالحكيم عامر، وفور وصوله يذكر فى مكتب مدير الإذاعة الذى تم إغلاقه على ثلاثتنا بأن أعد نفسى وطاقم إذاعى من ستة مذيعين أكفاء غيرى، لديهم إحساس بالمسئولية وإدراك شامل للحرفية، يتم تزويدهم بكم مكثف من أشرطة تسجيلات القرآن الكريم حول الجهاد، بالاضافة إلى ما تم ويجرى تسجيله تباعا من أحاديث ونداءات المشايخ والأساقفة تأمينا لإذاعة متنقلة، سينتهى سلاحا الإشارة والمهندسين من إعدادها فنيا بأطقم بشرية من ضباط مختارين متمرسين، ويشير عباس رضوان إلى أهمية اختيار مذيع مسيحى ضمن الإذاعيين المقترحين، مثل

الرئيس بن بيللا يستقبل أحمد سعيد فى الجزائر

المذيع المسيحى بصوت العرب ديمترى لوقا، وإذ أبلغه باستقالته منذ أسبوع وهجرته إلى كندا وأن هناك زملاء مسيحيين من مترجمى ومحررى نشرات الأخبار مثل عزيز قسطندى واسحاق حنا، إلا أنه يأبى مؤكدا أن مثل هذه الإذاعة السرية ستحتاج إلى جانب موهبة التحرير حرفية الأداء، فأتذكر أستاذنا المذيع السابق سامى داود والذى أصبح صحفيا فى جريدة الجمهورية، فيضيفه إلى قائمة المرشحين حسنى الحديدى وجلال معوض وفاروق خورشيد والسيد الغضبان والتى تم اعتمادها مخابرتيا خلال ساعة زمن.

مسئولية خطيرة

ويجئ يوم الجمعة الثانى من نوفمبر حاملا إلينا فى الإذاعة مسئولية خطيرة مفاجئة تهدد صمود الشعب وانهيار المقاومة مصريا وعربيا وتتطلب تحركا سريعا يستنفر كل الطاقات، وهزيلها قبل جليلها، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه..

بدأ خطر المأساة بعد قصف جوى فرنسى بريطانى لمواقع عسكرية ومدنية فى أنحاء متفرقة من مصر، مع تركيز نوعى على بورسعيد وسط نداءات تهديد بقصف مواقع تجمعات كثيفة السكان، وبالتحديد مبنى الإذاعة بشارع الشريفين وسط القاهرة ، مما اضطرنا يومها بدورنا إلى أن نوجه النداءات إلى المذيعين والمحررين العرب العاملين فى إذاعتى بريطانيا الناطقتين بالعربية فى لندن وقبرص الشرق الأدنى، نطالبهم فيها باستقالات فورية قبل أن يعتبروا خونة يطاردهم العرب فى كل مكان ..

ولنفاجأ على الفور بصمت إذاعة الشرق الأدنى نحو نصف الساعة، عاودت بعدها توجيه تهديدات المعتدين بقصف مدمر لمبنى الإذاعة المصرية ووسط القاهرة، بصوت لأجنبى ينطق العربية بلكنة أجنبية مثيرة للسخرية والاستهزاء، دفعت يومها - كما بينت الوثائق المنشورة أخيرا - ضابط المخابرات البريطانية مسئول الحرب النفسية فى قوات المعتدين، إلى إصدار أمره الفورى، بإيقاف إرسال إذاعة الشرق الأدنى وخروجها تماما من معركة الدعاية ضد مصر وعبدالناصر .

ولكن ..

وبينما كنا نتبادل التهانى على النهاية الهزلية للإذاعة البريطانية الشرق الأدنى : فوجئنا مع الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة والخمسين صباحا بتوقف إرسال إذاعاتنا، نتيجة قصف جوى بريطانى أصاب مجمع

محطات الإرسال فى أبى زعبل .. غير أنه وسط حالة الإحباط التى أصابتنا أجمعين، يتصل بى ضابط المخابرات فتحى الديب، يذكرنى بجهاز الإرسال القابع فى مبنى المخابرات العامة، والمخصص أساسا لخدمة اتصالات قادة الخارج بقادة الداخل من زعماء الثورة الجزائرية، ويجرى إعداده ليتحول إلى إذاعة ثورية باللغة الفرنسية، مؤكدا لى أن المهندس المختص بهذا الجهاز يرى إمكان استخدامه كبديل سريع محدود نطاق الاستماع إليه على الموجة المتوسطة، داخل نطاق القاهرة فقط حتى يتم إصلاح محطات الإرسال فى أبى زعبل، أو يكتمل إعداد عربة الإذاعة المتنقلة .. وأبادر مسرعا إلى مبنى المخابرات فى شارع حجازى بالمنيرة خلف مبنى مجلس الوزراء مصطحبا معي المذيع الزميل فهمى عمر والزميلة نادية توفيق وعدة أشرطة مسجل عليها أناشيد نضال وكفاح .

ويتم فيما يشبه المعجزات، تحويل محطة الإرسال للموجة القصيرة إلى محطة إرسال للموجة المتوسطة غير أن أجهزتها تأبى أن يتم ضبط مؤشر بثها على رقم إذاعة القاهرة، أو صوت العرب، مما دفعنا إلى الإسراع بالاتصال بمدير هيئة الاستعلامات يومها البكباشى عبدالقادر حاتم، حتى يوجه سيارات المصلحة المزودة بمكبرات الصوت بالتجول فى أحياء القاهرة المختلفة والإعلان عن رقم الموجة التى بدأنا نبث عليها النداءات الداعية إلى الصمود والأمل فى النصر، بينما انطلق نفر كثير من مجلس الوزراء والمخابرات العامة كان من بينهم على صبرى مسئول مكتب الرئيس، يتصلون تليفونيا بأهاليهم ومعارفهم فى مساكنهم بمختلف أنحاء القاهرة لإعلامهم برقم موجة إذاعتنا الطارئة، كذلك تم يومها الاتصال بأرقام عشوائية تليفونية ودعوتهم إلى الاتصال بدورهم بمعارفهم وإعلامهم برقم المحطة بهدف إشاعة الطمأنينة والثقة فى القدرة على استمرار المقاومة حتى النصر ..

هدف عسكرى

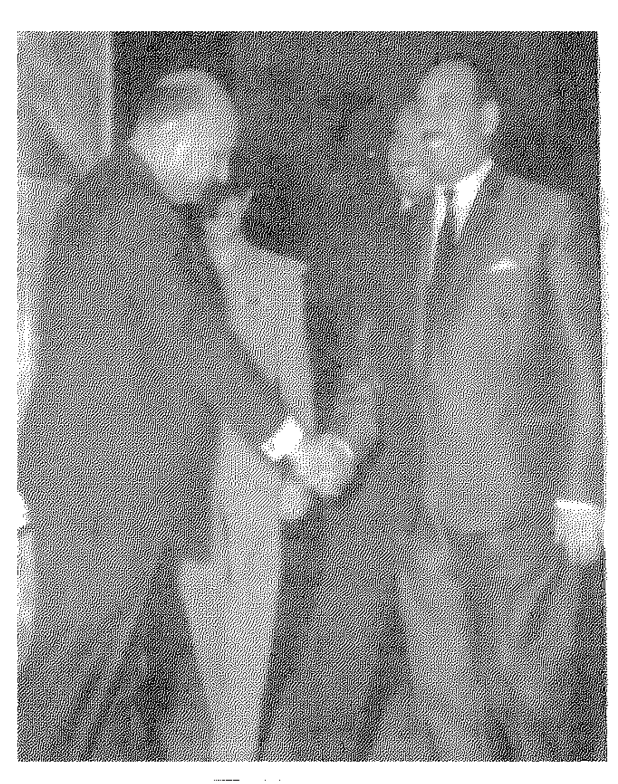
ومع ظهر نفس اليوم يتم إصلاح بعض الأعطال التى سببها القصف الجوى البريطانى لأبى زعبل .. وينجح المهندسون المصريون بقيادة على أبو قنديل من تدبير استديو احتياطى ومحطة ارسال، كان قد بدأ تركيبها فى جبل المقطم شرق القاهرة .. ويقف جمال عبد الناصر فوق منبر الأزهر مؤكدا فى خطابه التاريخى إرادة المقاومة والقتال، ذاكرا عدوان طائرات الغزاة على محطات الإرسال بأبى زعبل، هادفة تدميرها قائلا بالحرف (صوت العرب هدف عسكرى .. جت طيارات العدو تضربه .. عايزه تسكت صوت الحرية العربية .. صوت القومية العربية .. صوت العرب رجع أقوى مما كان .. بيتكلم أقوى مما كان .. بيدعى العرب للحرية والوحدة .

ويحدث وسط ما انتابنا من قلق متزايد كمواطنين أولا تتهدد بلادهم قوى جيوش دولتين كبيرتين مثل بريطانيا وفرنسا بالإضافة إلى جيش إسرائيل وكإذاعيين ثانيا فقدوا سلاحهم الذى

يخوضون به معركة الحرية المصرية العربية، أن تأتينا ونحن نتعامل مع إذاعة المخابرات المحدودة أنباء زملاء فى أقسام الاستماع الإذاعى بالتقاطها إذاعات سوريا والأردن ولبنان والسعودية وليبيا تردد بعد أقل من نصف ساعة من صمت إذاعات مصر، نتيجة للقصف الجوى نداءات بأصوات مصرية وعربية تردد (صوت العرب من دمشق وصوت العرب من عمان وصوت العرب من بيروت وصوت العرب من جدة وصوت العرب من طرابلس) وأتذكر حامدا المذيعين الخمسة الذين أوفدناهم قبل بدء العدوان بأربعة أيام إلى بعض العواصم العربية لتزويد صوت العرب بصور صوتية، لتظاهرات ومقاطعات شعوب العرب، ردا على مقاطعة ميناء نيويورك الامريكى للسفينة المصرية كليو بترا وخطف فرنسا للزعماء الجزائريين الخمسة .

ثم ..

تكتمل فرحتنا كإذاعيين أن يلبى السوريون فى البدء نداءات تدمير مصالح العدو، عندما فجروا تحت اشراف ثلاثة من الضباط السوريين (عبد الحميد السراج وهيثم الأيوبى وكامل عرنوس) محطات ضخ البترول العراقى فى أنابيب ممتدة عبر سوريا، مما يثير حماس العراقيين العاملين فى شركات استخراج البترول العراقى فى كركوك، فيقدمون تحت إشراف الضابط ناظم الطبقجلى الذى اسهم فيما بعد فى ثورة العراق عام ١٩٥٨ مع المناضل العراقى الشاعر عدنان الراوى .. فى نفس الوقت الذى تشهد الكويت مظاهرة شعبية رسمية بوليسية

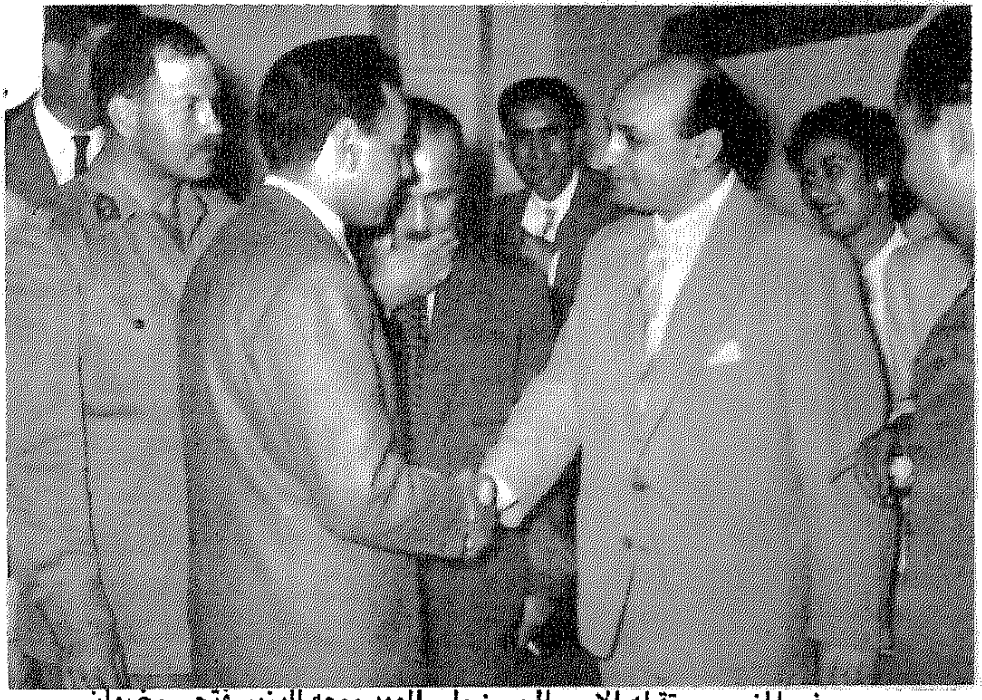


.. وفى لقاء مع الرئيس العراقى عبد السلام عارف

يقودها نائب مدير الشرطه جاسم القطامى تدعو شيخ الكويت يومها عبد الله السالم الصباح. إلى إيقاف ضخ البترول إلى السفن حتى يتوقف العدوان ويرحل عن مصر .. ولتتوالى من بعد مواجهات عارمة ضد كل ما هو بريطانى وفرنسى فى بلاد العرب دفعت أنتونى ناتينج وزير الدولة للخارجية فى حكومة انتونى إيدن البريطانية إلى الاستقالة من منصبه رافضا المشاركة فى تواطؤ عدوانى غير مبرر يتسم بالحمق الذى يهدد مصالحها واصدقاءها فى كل منطقة الشرق الأوسط.

واليوم

بعد خمسين عاما على حرب السويس ومؤامرة العدوان الثلاثى على مصر، تنشر بريطانيا عدة وثائق عن أحداث أكتوبر نوفمبر ١٩٥٦ نجد بينها وثيقة يشير ما



.. وفى المغرب يستقبله الامير الحسن ولى العهد ومعه الوزير فتحى رضوان

ورد فى بعض سطورها من حقائق يعترف بها أحد المسئولين البريطانيين المشاركين فى التدبير للعدوان وتنفيذه، بما يمكن أن ينجح فى توفيره من إسهام نافذ فى تأمين نضال الشعوب من أجل الحرية والاستقلال .. فقد سجل ضابط المخابرات البريطانية جون فيرجون المسئول عن إدارة الحرب النفسية ضد مصر والعرب، فى قيادة التحالف الفرنسى البريطانى ضمن صفحات تقريره الذى قيم فيه عمله قائلا :(من أن تقديره للإنجاز الذى تم بإسكات إذاعات ناصر عن مخاطبة المصريين، والتواصل الدعائى مع العرب صباح يوم الجمعة الثانى من نوفمبر ، فلم يلبث أن أفسدت تدابيره أخطاء صاحبت القصف الجوى لمحطات إرسال الإذاعات المصرية، مكنت مهندسيها من تدبير إصلاح سريع لأغلبها وإعادتها إلى البث فى نفس يوم القصف الذى أرادته مدمرا فى نفس الوقت الذى فوجئنا فيه بقسم إدارة الحرب النفسية بقيام إذاعات، أكثر من إذاعة عربية فى آسيا وإفريقيا، باستضافة مذيعين مصريين يعمل أكثرهم بإذاعة ناصر للعرب وهم يرددون على أرقام الموجات إذاعات سوريا ولبنان والأردن وليبيا والسعودية نداءات إذاعة ناصر العربية، إذاعة صوت العرب من دمشق، إذاعة صوت العرب من بيروت، إذاعة صوت العرب من عمان ، إذاعة صوت العرب من جدة ، إذاعة صوت العرب من طرابلس ، وكأننا بقصف إرسال إذاعة واحدة أطلقنا مكانها خمس إذاعات عربية، من دول غير مستهدفة فى تخطيطنا للحرب ، مما ساعد كثيرا في إشاعة روح العداء ضد الدولتين المتحالفتين ، وهو ما ساعد من بعد على

الصحف البريطانية تحتفي ب احمد سعيد وصوت العرب

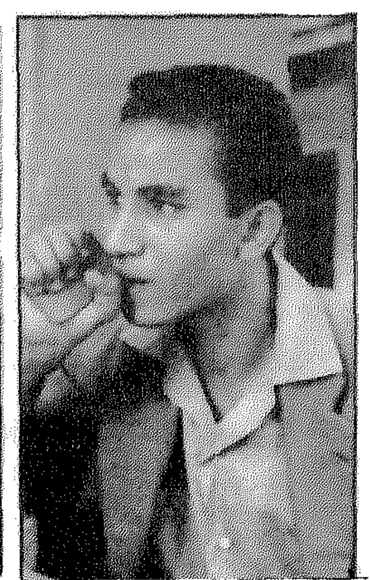
تصاعد الرفض العالمى للسياسة البريطانية الفرنسية ، وانتهاء العمليات الحربية فى غير صالح الدولتين فى نفس الوقت الذى استقرت فيه ولو إلى حين شعبية ناصر وسياساته التى يدعو إليها وإلى مبادئها المصريون والعرب فى كل مكان) .

وهكذا

يحق لجيل القرن الميلادى الحادى والعشرين أن يجد لنفسه جوابا عن تساؤل واجب عما يمكن أن يتعلمه لحاضره ومستقبله، من ماضيه وتجاربه في مجالات العمليات الإعلامية، على سبيل المثال. وبعد أن أصبح اليوم فريسة ٢٥٧ قناة إذاعية و١٢٥ قناة تليفزيونية أرضية وفضائية، مقابل ٢١٠ إذاعة، فقط كانت في أثير عرب عام ١٩٥٦ : لماذا حرصت قوات التآمر الفرنسي البريطاني مع بدء عدوانها على مصر، قصف محطات إرسال الإذاعات المصرية لتدميرها وحرمان مصر وعبد الناصر من التواصل مع العرب، وحشدهم ضد المعتدين ، بينما لم تسع قوات التحالف الذى تقوده أمريكا من قاعدتها الحربية فى إمارة قطر تدمير ولو قناة واحدة من القنوات التليفزيونية التى تتنافس منذ بدء حروب الخليج، واحتلال العراق على عرض الأنباء والصور والتحليلات والانتقادات، فيما يتصل بكل التوجهات الغربية والعربية بين معادية وعبثية، وكأنها تستهدف تكريس التفوق الأجنبى مع الدونية العربية !؟ .. فما أكبر الفارق المتناقض الصارخ بين إعلام معاصر يدعى المعارضة في توجهاته، بينما هو من خلال حرفية متميزة يستهدف فيما يقدمه ويعرضه إشاعة القنوط واليأس وروح الاستسلام ، وبين الإعلام الإذاعى الثورى التثويرى فى الخمسينيات من القرن الميلادى العشرين، بكل زخم صدقه التفعيلى المفجر لثورات الشعوب، الباعث فيها روح النضال التى تستعذب التضحية وتزغرد للشهداء .

نداء لتكريم بطل بورسعيد

السيد عسران



البطل فى شبابه



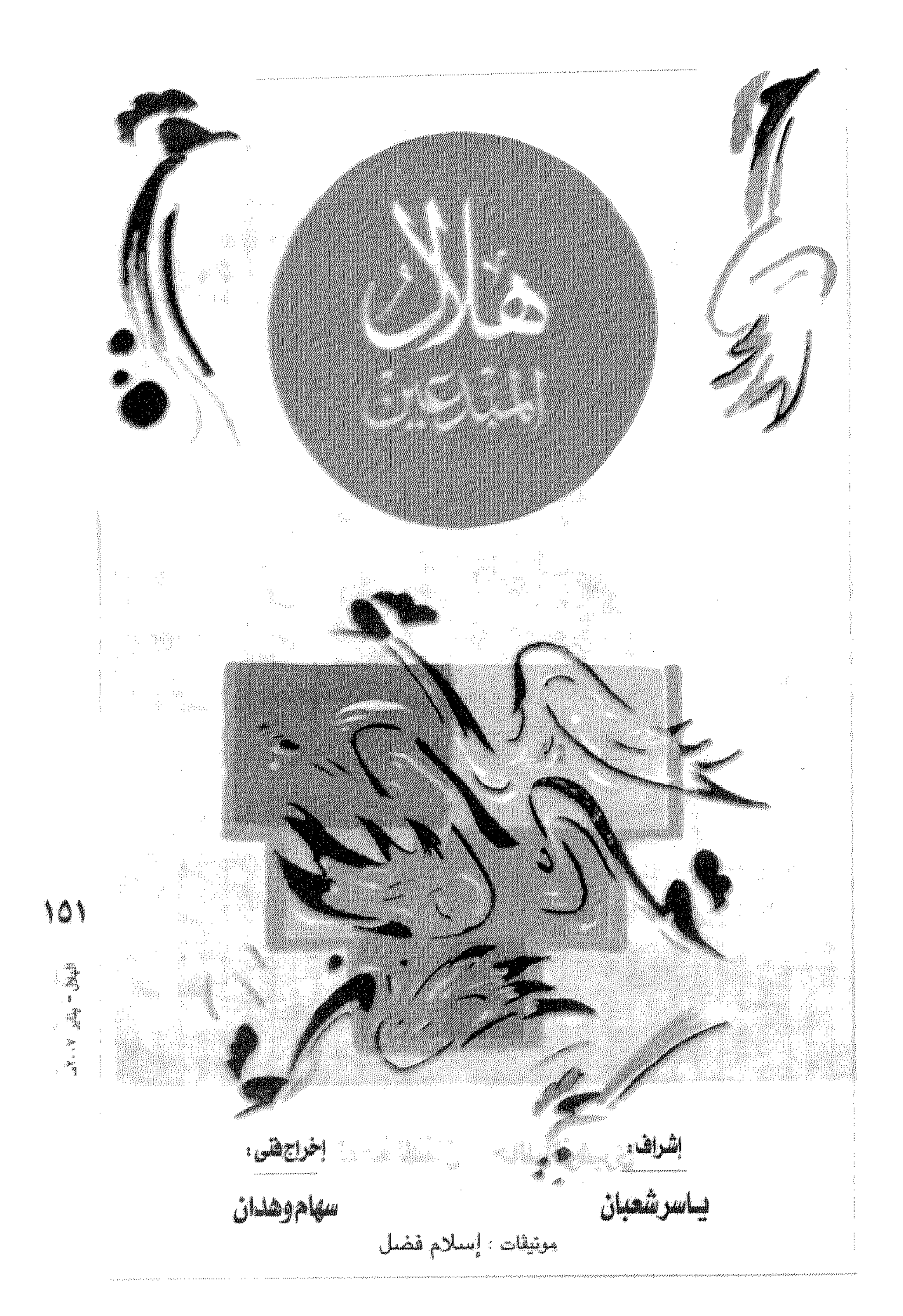
عدد ديسمبر ٢٠٠٦

وقبل رحيله

«شيخ فدائيي بورسعيد»، البطل «سيد عسران».. اسم يعرفه مقاتلو وفدائيو بورسعيد الذين عايشوا العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، فحينها كان ابن الثامنة عشرة رمزاً من رموز المقاومة، وهو صاحب فكرة «القنبلة الرغيف» التى أطلقها لتقضى على واحد من كبار ضباط الجيش البريطانى «ويليامز».

وقبل شهور قليلة من الاحتفال بمرور خمسين عاماً على دحر العدوان الثلاثى، توفى البطل «سيد عسران». ولأن مصر لا تنسى أبطالها الذين ضحوا بأرواحهم دفاعاً عنها، ندعو المجلس المحلى لمحافظة بورسعيد أن يُطلق اسم هذا البطل على أحد شوارع المحافظة، الشوارع المحيطة بنشأته وحياته، أو شارعى «بنما» أو «رمسيس» اللذين شهدا أعماله البطولية، فهذا البطل يستحق، أسوة برفاقه الأبطال «مهران» و«حمدالله»، أن يكون اسمه عنواناً لأحد هذه الشوارع، حتى تحفظه عيون الأجيال القادمة ويظل رمزاً للبطولة والفداء.

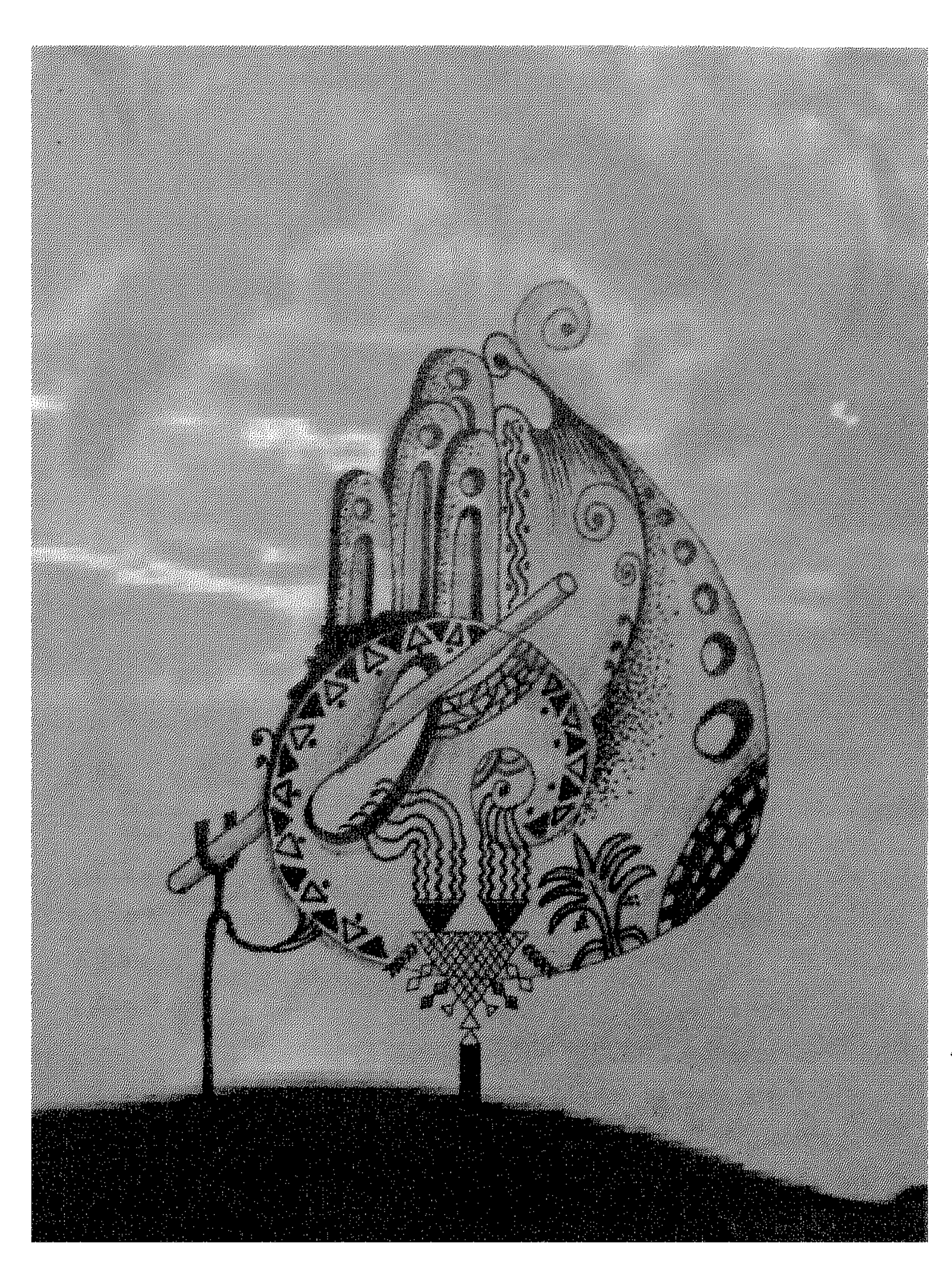
أدباء وفنانو ومثقفو بورسعيد



إشراف: **ياسر شعبان**

إخراج فنى: **سهام وهدان**

موتيفات: إسلام فضل



لوحة للفنان: خالد الزهيرى



شعر

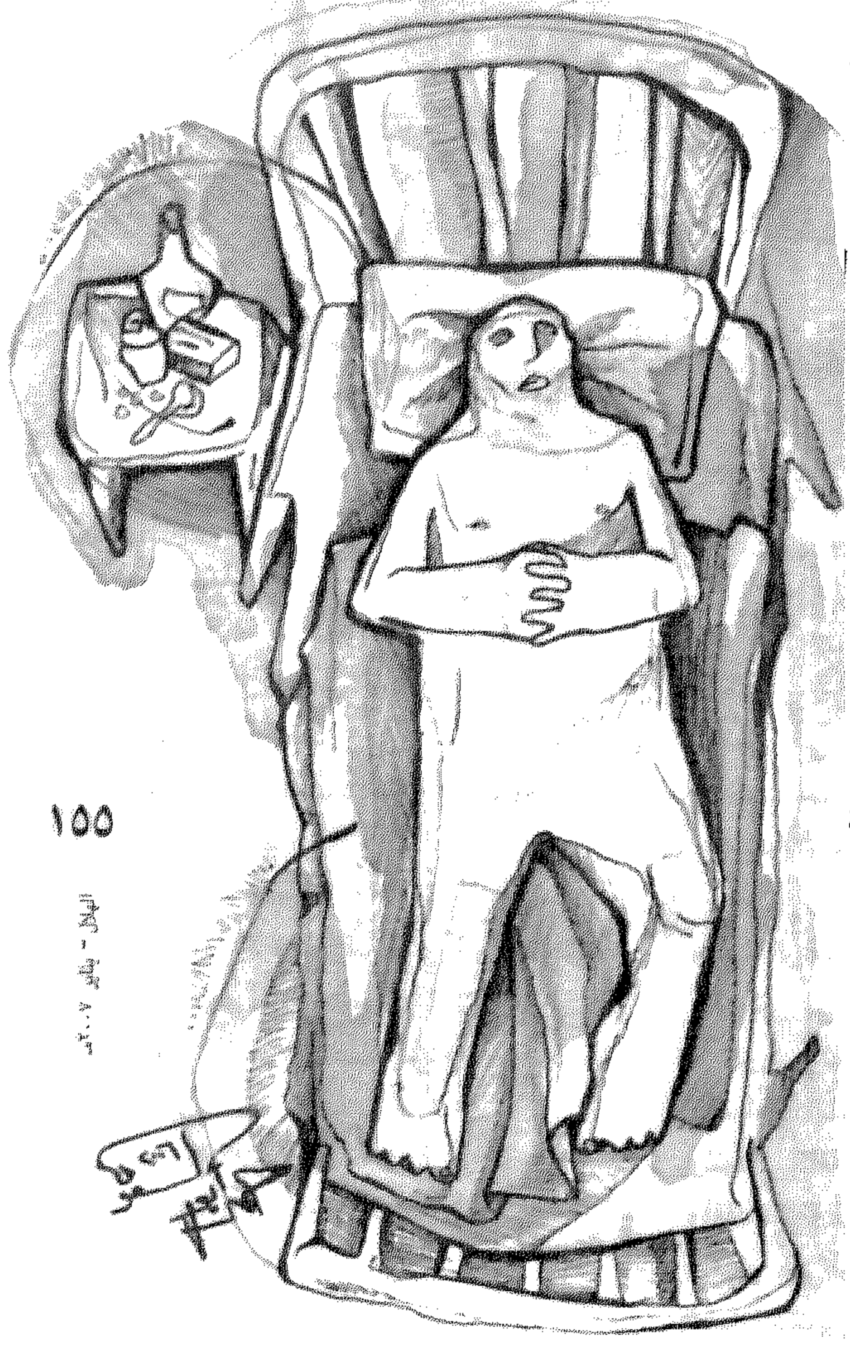
عن سيرة حياة رجل تافه

محمد آدم

أنا رجل تافه بما يكفى
لم تنفعنى حياتى الماضية بشئ
ولم يتقرر مصير خيباتى بعد
نزيل خمارات سابق
وصديق دائم لمستشفيات الدرجة الثالثة
وكذلك لنوبات الجنون
والصرع !!
أنا أستاذ وأبله
فقيه فى علم الروث الكونىّ
وصديق دائم لسقراط
مقامرٌ ولا أملك سوى أزرار بنطلونى
وفردتى حذاء من مخلفات حرب كونية سابقة
لم يقل لى أحد ما هى الحياة
وماذا يحدث بعد الموت
أصاب بالزكام لمجرد عبور امرأة على سطح الذاكرة
أشعر بالأمراض الجمة وأتعلل بالأوجاع
حتى لا أذهب إلى العمل اليومى مثل حمارٍ بعويناتٍ
فى الحمامات العامة
أصاب باسفكسيا الغرق
وأبصق على كافة الجماهير البلهاء
التى لا تعرف غير معنى واحد للحياة
أبول بضجر
وحميمية على كافة النظم السياسية والديكتاتوريات

أكاد أنتشى حماسا لإحساسى الدائم بالعبث واللاجدوى
أنا رجل تافه بما يكفى
أتقلب فى فراشى مثل رجل مصاب بالصدفية
ومثل درقة
أحلم بالشئ
ونقيضه فى نفس الوقت
أتوقف أمام كافة الشوارع
وأقول :
يجب علىّ أن أجلس على كافة الأرصفة المعادية
- دعنى أحيى هذه الأرصفة التى كلت من الوطء -
أرفع تحياتى الحارة للشمس
وأقول :
أنا الكائن العابر بشكل غير منتبه ولا إنسانى
كل امرأة تعبر من أمامى ألمح تحت ثوبها جسدا يتكلم
أو أسدا يزأر
كل نجمة تظهر
أو تختفى
تكون بمثابة روح ضالة أو عين شريرة
كل قمر يضئ - هو بالتأكيد - نسيان أخير لرائحة الموت
كلما أتوقف لأتذكر اسم شارع

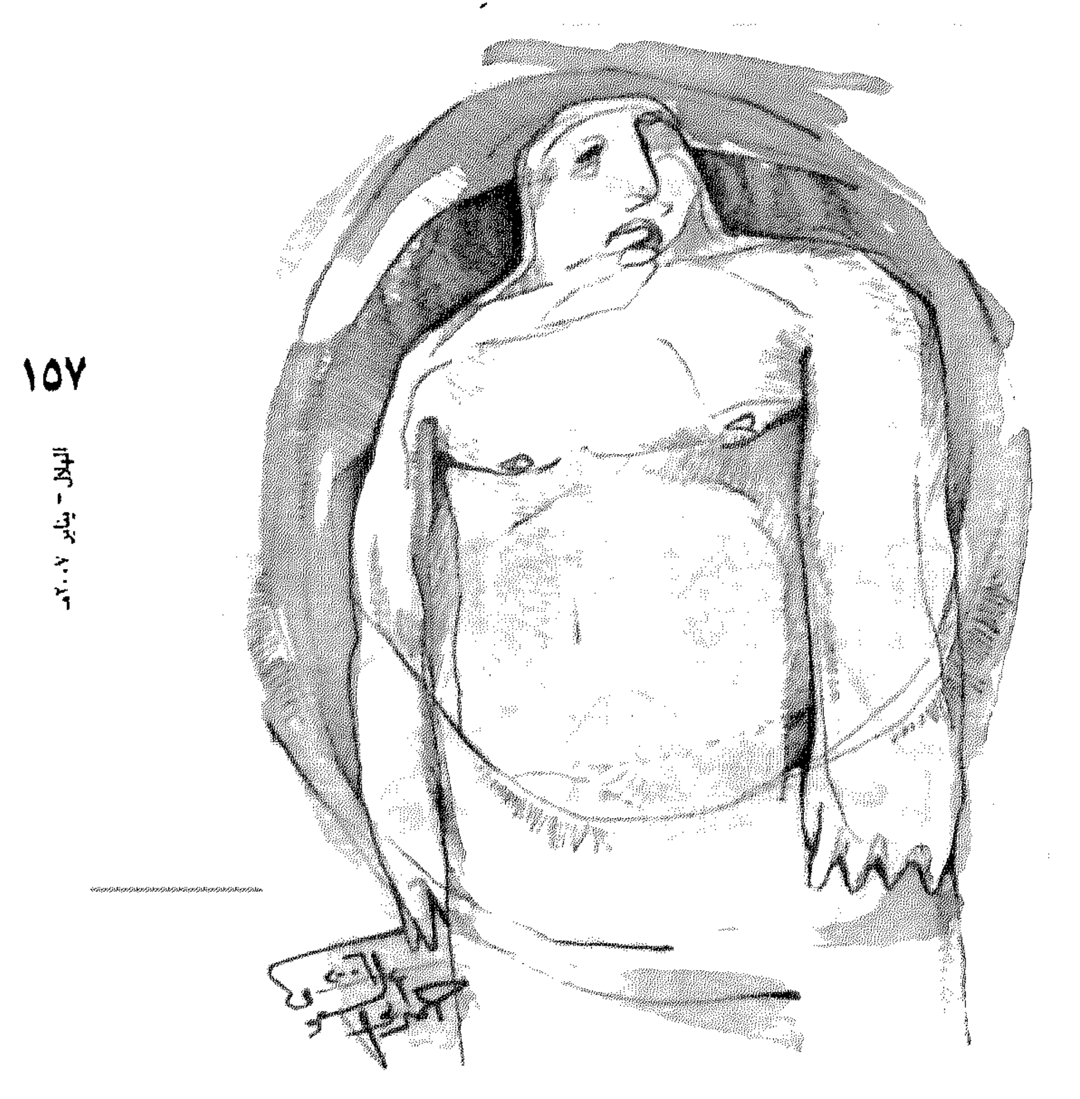
تهبط على رأسى حمامة ضالة
كلما أنحنى لأربط حذائى
تسقط منى دمعة متآكلة
أنا رجل تافه بما يكفى
اللايقين يصير حقيقيا لمجرد أننى أفكر فيه
المادة تتحول بين أصابعى إلى
الآب والإبن والروح القدس
كافة المحسوسات تتحول
إلى اللامحسوسات
الميتافيزيقا تنتقد كل
فلسفة الأبعاد وفلسفة
اللاأبعاد
وتخترع لنفسها
ميتافيزيقا جديدة
العالم يستحيل إلى مائدة
من وساخات كونية
ومجموعة من الكلاب
الضالة
وقطط من الفخار
المضمحل
فى الطبق الذى أتناول فيه
طعام إفطارى
تسقط كافة ذكرياتى الميتة
والحية
على السواء!!
أنا راجل تافه بما يكفى.
لعدم درايتى الكاملة
بقوانين الدولة الاستثنائية
وألاعيب رجال السياسة
الوقحة
والتشريعات العجائبية
الغريبة عن مجمل الخير
والشر
ورفع أسعار الفائدة
وزيادة معدلات البطالة أو التنمية
وانتشار الفقر فى العالم الثالث
وزيادة معدلات مرض الإيدز
ولماذا ظَلّ الرجل الأبيض هو السيد





وبامتياز
على كافة العصور
ولماذا ظل الرجل الأسود هو العبد وبامتياز
على كافة العصور
هل كان الله منحازا للرجل الأبيض -
وطوال الوقت -
إلى هذا الحد
أم أنها الصدفة غير المبررة ولا منطقية
أنا رجل تافه بما يكفى
أقرر السير فى هذا اتجاه
أقرر
عدم الكلام مع أحد البتة
فتنفجر كل خلية - فىّ - بالضحك
أتطلع من فوهة غرفتى
نحو قبة السماء الصافية فأرى القمر
بازغاً ينظر إلىّ
بنصف عين والنجوم تتجول فى تلك
الناحية من الغرفة
أجلس على الأرصفة
ودائماً ما أجلس على الأرصفة فأرى
الشمس أرنباً
والقمر فأراً
وبقوة الرغبة فى الحياة أواصل السير
والتفكير فى اللامفكر فيه
لا أدرى لماذا ودائماً أفكر فى اللامفكر فيه
فأصاب بالشلل التام
وتتوقف كافة خطوط مواصلاتى
وأفقد الثقة فى العالم
وأنهارُ على أول رصيف مقابلْ
أحياناً تنتابنى الرغبةُ الملحةُ فى أن

أُخرج عضوى لكل شئ فى العالم
وأبول على كل شئ
وأقول إلى الجحيم لكل هذه المهزلة
الأرضية!!
يا لها من مسرحيةٍ فجةٍ
اللهُ والشيطان
وأنا بينهما
مثل كرةِ البلياردو
يا لها من حفلة تنكريةٍ
وميتافزيقية كذلك
لا تكاد تنتهى إلا لتبدأ
ولا تبدأ إلا لتنتهى
فى اللحظة الواحدة أكون الشئ ونقيضهُ
غالباً
مـا أرتكن على الرصـيف لأرقبَ حـركـةَ
الشارعِ العضويةَ
وهى تنقبض وتنبسط مثل رحمٍ
بألف فمْ
لم لا أقول:
أن هذه السماء صندلٌ
وأن هذا الليل
جورب بثمانية أزواجٍ
لم آت لأقلق أحداً
فقط
أقلقت روحى الجريحة
أنا سائق العربةِ المعطوبةِ
لست أكثر من دودةٍ تسعى على الأرضِ
و٧٠ كيلو غراماً
من اللحم المخلوطِ بالعظمِ
والمخاطاتِ!!



قصائد

محمد الكفراوى

هدية لطفلتى

لا أعرف ماذا أهديها
إذا أحضرت لها رشاشات وبنادق
من تلك التى تخرج أصواتاً مرعبة
وألواناً مبهرجة
ربما تصبح البنت دموية
ولا تفـرق بين من يحـبـونهـا ومن يكرهونها
وإذا أحضرت لها عروسة
ربما تفكر فى البحث عن عريس لها
فى هذا السن الخطر
فكرت أن أشتري لها مسدساً حقيقياً
ولكن .. عليها أن تكتشف بنفسها
سواء عاجلاً أو أجلاً
أن هذا العالم غير آمن .
عرفت ..
سأهديها وردة
وأوصيها أن تضعها على قبرى
حين أموت قريباً جداً
فى حادث سير تافة .

قانون الصدفة

الصدفة البحتة
هى التى جعلت تلك الرصاصة
تخترق رأس هذه الشخص دون سواه





الصدفة أيضا
هى التى جمعت بين أبى وأمى
تحت سقف واحد .
وبالصدفة ..
تحولت من لعبة كرة القدم القذرة
إلى شخص حساس
يحب الشعر .

ترحما على كافكا

لا أمل فى الهروب
سأظل مرمياً هكذا فى سريرى
حتى يأتى إلىّ العالم
على هيئة صرصار ضخم
بحجم المنزل كله
يقترب منى مثل وحش بشع
ويفتح فمه ويبتلعنى .
لست مهووشا ..
كل ما هنالك أننى
دخنت سيجارة حشيش
وقتلت صرصاراً فى الحمام
وأجلس هادئاً
فى انتظار العقاب

مسكون بالغرباء

إنهم أقرب مما تظن
يتلبسون وجهك ويحتلون ملامحك
يسكنون تجاعيد جبهتك العريضة
تحت الجلد مباشرة - بمحاذاة الروح
يظهرون أحياناً على هيئة تكشيرة
أو نظرة زجاجية باهتة من عيونك
تسرب إلى من تقع عليه
إحساساً بالمحو .

مات أبى

د. أمانى فؤاد

مات أبى
اتشح الهواء بالسواد
لفظ البحر أصدافه
تلون بالرماد
وانفتحت ثغرة فى السماء
ما الموت ؟ وأين أنت ؟ ولم أنا ؟
شجيرات التين وزهرات النرجس
فغرت كل منهما الفاه
شطرت ضحكات الصباح وحكايا
المساء
وانغرست أشواك الصبار فى مسام
الأشياء
لم يعد الكون يتنفس فوق شفاه أبى
لم تعد أصابعه القصيرة هى الفرشاة
لم يعد جبينه الأحمر المجعد
فعل الريح والمطر
فى الأيام
البقاء لله
لا تحزن أبى
البقاء لك أيضا
ليس فقط فى الصور التى أعادت
طبعها أمى
وأضافت الرتوش
تأتينى تأكل
تغضب وتنام
ترتدى الملابس
أحادثك
لم يزل لسانك شهد وعسل الأيام

كبرياؤك لم يزل
رجفة أزنُ بها الأنواء
أنت من يسحب فوق ساقى الرداء
حين أقف قبالة الموج
وأنا أخشى الماء
البقاء لك
بقاء فقد
لكنه بقاء
أبى ، لا أحد يملك فيك العزاء
لم تزل أنت
لم يحتلك أنصاف العطاء
موزعو العبارات الجوفاء
أنصاف الدفء

ذرّافو دموع الزجاج
المسافات يا أبى بينى وبين الأشخاص
تمتد طرقا شاسعة
وعرة الأحداق
مشهد موتك أحياه آلاف المرات
فى هذه العاصمة الصماء
فزع معدنى يركض فى نتوءات النفس
ورم خرسانى ينعق فوق الرأس
فى الشارع الذى أقطن
فوق طريق أسود
أعانق فيه كراهية أو قدراً
ألصق خدى بخشونة الأسفلت
أهبك أمانا
بكلتا يدى
أدفع دائرة الفزع الملتهب
الرعب القاتل من عينيك إلى القلب
إلى روحك تنسكب فوق الأرض
فوق تلال مدينتنا البيضاء
ونخلات الشط
دوامات البحر
تنغرز بكنه الأشياء
تستأنف أسئلتى دوما ما بدأت من نحيب
الموت قبر ؟
صدرك المتسع وأكتافك البيضاء
رحيق تمتصه ديدان الأرض ؟
جدار الجامع ؟
حطب حطام الأحياء ؟
الموت ذهاب فى سماء ؟
عودة أجزاء
لكل أوحد
تنفصل لزمن
تعترك بأرض

جسد قد أرهق ؟
الحنين يا أبى يدفعنى إليك
أمازلت متورداً حليق الذقن
أم صفيت ذاتك
صرت طاقة وضياء
أبى يصفعنى الغياب
لم الموت باغتك واغتال الحصاد ؟
لم موتك دهس الفرح
أخرج وحش الوحدة
انطلقت شرهة
الآن يلفحنى الفراغ
قدمى حين تخطو
تهيم فى فضاء
تتعثر فى ظل الأشياء
أفقدت جاذبيتها الأرض ؟
أأنت بقيت بالسماء ؟



قصيدتان من باريس

حمزة قناوى

برق على جسد البنفسج

- «أقبل إلىَّ»!
أشارت امرأةٌ تُدلِّلُ نهدها بالشمسِ
نحوىَ
وانثنت فوقَ النجيلِ
فأنَّ تحت حريرها العشبُ الندىْ
- «.. من أنت؟ ما اسمُكَ؟
راودت قلبى ابتسامتُها وقد نفذت إلى
أعماقه
تلقيهِ فى حُلمٍ تشرَّدَ فى يدىْ
- «إنى غريبٌ»!



للَمت أزهارها فوقَ النجيلِ ورفَّ عطرٌ
فاغمُ
وانداحَ فىْ!
توهَّجت مثل الشموسِ
وثار موجٌ عاصفُ
فوق البساط المرمرى
- «تعالَ قد تلقي على جسدى الهويةَ»!
تَمتَمَت..
ونسيتُ ذاكرتى وحزنَ أصابعى التعبى
وضحكتها تجلجلُ في هواءٍ..
أشعلتهُ كهوفُ فتنتها البعيدةِ
فى مدى وعدٍ خفىْ
- «إنى..»
- تعال».
- «وكـيف لى؟ ومـلامـحى رحلت
ملامحها إلى تيهِ اغترابى
.. كالمياه ولم تعُدْ
وتمرَّدَ الإعصارُ فى جسدى علىْ
- «تعالَ وانثرنى مسافاتٍ وبعثر فتنتى
لوزاً وأزهاراً على الجسدِ الفتىّْ!
- «إنى أخافُكِ!
فالغريبُ يمرُّ برَقاً فوق ذاكرةِ البنفسجِ
إن تعرَّى
ثم تنساهُ الأناملُ بعد رعشتها
وتفترق المساءاتُ الشريدةُ فى مفاوزها
إلى الحزن القصىْ»!



- «خذني إليكَ فنحنُ ملتقيانِ عاصفةٌ تحاصرُ عابراً
.. وسحابةٌ تهفو لكي تنضو بياض مياهها عن عريها
وتُحلُّ فوقَ صداكَ إمطاراً ورداً»
- «أنا..»!
- «تعالَ»!
تداخلت في الأفق أكوانُ
على إيقاعِ عاصفتينِ تلتقيان..
.. يُنثرُ في فضائهما البنفسجُ
إن ندت من شهقةِ المسافر للشواطىء آهةٌ نحو الغريب..
.. تضوّعت مدنٌ من الفردوسِ
وامرأةٌ تُحلُّ كما الغناء على ذراعِ مسافرٍ
ترنيمتانِ اندلحتا
نغمانِ
في لحنٍ شجيْ!

أغنية لإيرين

إيرينُ وردةٌ
تفتّحت على الجبال والسهول في الشمال
عينانِ نجمتانِ تهديانِ حيرةَ الغريب
زورقانِ أزرقانِ في بحيرةِ المساء
للما من عمقها اللآل
سحابةٌ بيضاءَ تقطعُ السماء
ودفقةٌ من العبيرِ في الهجير
واحةٌ لمن تقطّعت به السبيل في مهامهِ المحال
إيرين أغنيةٌ
سمعتها تجيءُ من مدىً بعيد
حين لفّني الظلام باحثاً كلها وردٌ لي النهار
مموجاً أنغامَهُ على رُبى الرياحِ كالخرير
إيرينُ يا سحابة الحرير
يا وجهة الذي عيناهُ في الطريق
تبحثان عن طريقه وعن مصيرْ
لو أن كفُّكِ الدفوقة الحنانِ لم تُمدّ لي..
.. بهذه المدينة الثلجية العيون لانتهيت في شتائها الأخير
لكنما عيناكِ كانتا مدينتا السلام والوداد
مدتا ضياهما للعابر الوحيد
جاءتا لتُسرجا خيولَ حُزنهِ الضّرير
وتأخذاه تعبرا به المدى إلى الغيوم
لولاكِ يا رفيقة الشمال يا مظلة النجوم
لاقتاتت الفؤاد ظلمة الهموم
لولا ابتسام وجهك الدفىء
في جليدِ هذه المدينةِ الوَجوم
ما أقبلت وسائد الربيع نحو قلبي الكليل
في مواكب النسيم

إني أحب الآن

فولاذ عبدالله الأنور



حين لمحت وجهك الطفلى
تنهبت مشاعرى
وانفتحت عيناى فجأة،
على سنين عمرى القصىّ
رأيت فيك سمرة القرى
وهبة النخيل
رأيت فيك سمتها، وخدها الأسيل
ووجهها المُدَوّر النبيل
سمعت فيك صوتها الجميل
عيناكِ آهِ آهِ ياعينيك،

أنتِ أنتِ من أحببت فى طفولتى
أوشك أن أقول
أوشك أن أهتف ياحبيبتى
رجعت لى على المدى الطويل
على المدى البخيل
أكاد أن أقول
لكننى أرجع فجأة، ويعقد اللسان
صديقتى معذرةً
إني أحب الآن

قصة

خاتم فضى كبير

«عنتر عبد الهادى»

سيد الوكيل

حين وقف أمامها بجلبابه الأزرق وعصاه ، امتد ظله طويلاً حتى غطاها، هى لم تلحظه وهو يتأملها بابتسامة غائمة .. هى كما هى ..الكحلة الزرقاء ..الأسنان الذهبية .كفين مخضبين بحناء أرجوانية .وعطر ثقيل فواح ، فى كل مرة كان يكلفه غطساً فى الترعة ، قبل أن يعود لبيته .

– إزيك يا ألاجا ..

رفعت رأسها وضيقت عينيها حتى تراه ، بدا فى ضوء الشمس الذى يعشى عينيها مجرد قامة طويلة وصوت عميق متهدج خفق له قلبها فابتسمت ، ولما تربع بجوارها فى مساحة الظل ، وأراح عصاه على فخذيه ، مدّ يده فى صدره وأخرج علبة الدخان المعدنية

– والله ما عرفتك يا عنتر .

– الكبر عبِر يا سيدة .

قالها بإذعان وهو يهز رأسه ، وينظر ناحية حسونة الذى بدأ شخيره يعلو.

– الولد ده لازق لك على طول ؟

– غلبان ..

مد يده بالسيجارة، فرأت الخاتم الفضى الكبير ، وفص أزرق مموه بخيوط دخانية وأصابع طويلة جافة شوهها الروماتويد،صدت كفه بدلال، فلامست الحناء زرقة الفص بخفة..

– خد منى واحدة ماكينة ..لساك بتلف ؟

– اللف كيف يا سيدة .مانتى عارفة.

قالت .طول عمرك كييف الحلو .رقصت حاجبيها المزججتين وقالت .ياحلو أنت يا حلو..

ابتسم حتى بانت سنتاه الوحيدتان .ياه .. لسه فاكره ؟

كلمة السر بينهما ، كلمة واحدة فقط ، كان يرددها ، وكانت هى تردد نفس الكلمة ، كلمة واحدة كانت كافية لتصاحب إيقاع لذة الوصال ، وبنفس الصوت العميق المتهدج يهمس فى أذنها .حلو يا بت ؟

وبنفس الصوت الصافى تلهث تحته .حلو

وفى لحظات ذروتها ترددها بسرعة .حلو .. حلو .. حلو يا بن الكلب .حلو ، وفى لحظة كهذه فقط ، يسمح لامرأة أن تشتمه.

فجأة قالت .. إزى مراتك يا عنتر ؟

– يوووه ..تعيشى انتى .

غالبت ابتسامة بمكر جميل ، ونظرة انتصار قديم فى عينيها، لكنه لم ينظر إليها ،كان منهمكاً فى لف سيجارته ، أو هكذا ادعى ، ولما وجدته صامتاً قالت ..تلقاها ماتت بحسرة ليلتها ، وكادت الضحكة تنفلت منها ، أما هو فظل صامتاً للحظة ، مرر فيها سيجارته على لسانه ، هز رأسه وقال ..افتكرى لها الرحمة، وغالب ابتسامة شجية وهو يضع سيجارته بين شفتيه ، ويشعلها بهدوء ويحدق فى اللهب الصغير، ينفس دخاناً كثيفاً ، ويسرح بعينيه فى زمان بعيد ..

فاكرة يا سيدة لما عملتى لى عمل ؟

أنا ؟..تنقطع أيدى يا خويا ..دا أنت الغالى .

يلملم شروده قليلاً..غريبة ..ا أنا قعدت تلاـ

تشهر مربوط .



تعودها نفس الابتسامة الما

– مربوط ولا نفسك مسد

برضو بعد الحلو يروح للمش؟

تضحك ، ويضحك ، ويتد

دخان كثيف ، دخانه ودخانها ،

بطيئاً تحت المظلة ، فيهيج ا

اللصيق بالخيش والجريد ، و

حول فم حسونة المفتوح على آ

تهشه فتشخلل الغوا يش فى ي

، ينظر إليها وتنظر إليه ، لد

طويلة تمر ، أشواق قديمة تتذ

بدلال ، فتلمع وراء زرقة الكحل

عينيها، ويلعق شفتيه بلسان

صفرة الدخان ، ثم فجأة تنف

الضحكة من جديد ، واحدة عم

متهدجة ، وواحدة رنانة صاف

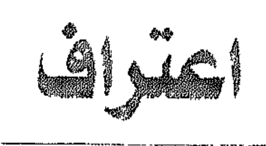
فيما كانت مساحة الظل تت

والشمس تزحف نحوهم ، ،

ساقين نحيلتين بعروق زرقـ

بخاتم فضى كبير ممسكة بعد

كعب نحاسى يلمع فى الشمس.



اعتراف

عماد الغندور □

دخلت من هذا الزقاق وهى تحمل نصف ثوبها الأسفل، تلتفت وهى ترتجف من شدة البرد من غرابة الطريق ومن فضول الرقيب...

الآنسة لم تطرق الباب حين وصلت، حبيبته فى غيبوبة، تسترجع الغائب وتأتى بالمأمول... لحظة...

* الغائب كانت كلمة جرحت حواسها وبكت كأول مرة وأخرجت دموعها الغالية، دموع بتول لم يلمسها إنس ولا جان، سامحتهم حين اعتبروا سنها عيبا، سامحتهم حين كانت تضحى بوقتها الشبابي وحين تمشى من «شبرا» إلى مكان بعيد تطلق عليه عملها، لم لا والعمل هنا عبادة وربه غير رحيم بها، سامحتهم عندما جاء العريس ورحل وكان المبرر بأنهم يحتاجون لحسنات عبادتها، سامحتهم وسامحتهم...

ثورة ...

* المأمول هو قرار تأخذه وهى فى طريقها لعبادة، لا يهم غضب رب العمل، ولاتسأل إن سألت أسرتها عنها، أقصد عن حسناتها... تهرول الأربعينية حتى تقترب أكثر من الباب الضخم صاحب جرس كبير وناقوس لم يسمح بعد لرجل أن زعزعه، وبأعلى الباب يوجد قوس لبناء عجوز يحمل آلامه المثلث. أصرت أن تدخل بين أعمدة الذهب وثريات الكريستال وضوء الشموع...

دهشة ...

من الذى جاء بها إلى كنيسة فى يوم ليس به طقوس، ما الذى جعلها تخطئ وتحب كل هذه المدة الطويلة رجل منافق يستغلها ويتركها تحكى...

لم تعد الحكايات تنفعها، فهى ذاقت حلاوة حبها لرجل المنبر، صاحب الصوت الوقور والعينين العسيلتين، الرجل الشاهد على شئ حضّرت له بالمئات، إكليلاً يتبعه إكليل، دون احترام لشعور هذه «الشبراوية»، وكم تمنت وتمنت أن تكون البطلة أو أن تقذف بالورود من خلفها...

ترتمى اليوم على صدره بجرأة تجعل دقات قلبها تختلط بدقات الأجراس، وتتنهد فى اعترافاتها بحبها السابق له، حب من أول صلاة أمامه، وتستمر فى حماسها كأنها أبصرت أو كأنها تمحى السنين عن صبرها بإلحاح منها على قلب تاريخها، كان صامدا قاسى القلب ولم يبادلها قبلاتها الحارة والهادئة المنافسة لهدوء المذبح، صامد المشاعر متحجر القلب يعرف الرب ولا يعرف الحب... صدفة...

□ كاتب وسينمائى من المغرب

لكن الرب عادل ولم يسمح لابنته بأن تتوسل أكثر....

إنه الخيط الرفيع الماسك بصليبه الفضى الثقيل والمتلئ بالتراب ونسيج العناكب...

كان لابد من أن يكون «حنا» المراهق العجوز هنا لينظفه فى الأعلى، وكان لابد أن يحيا حبه لابنة حيه الجميلة، وكان لابد بالغيرة أن تقطع الخيط ويقع الصليب على جسدها...

ترانيم الموت تمسح خطية الفتاة، و«حنا» العجوز يتأسف.. آه.. لماذا لم يقتل القسيس القاسى القلب لماذا؟! لم يعد العجوز يصدق بأن هناك أشخاصا يصمدون أمام الإغراء... تنتهى اللحظة..

لقد تعبت المسكينة من الوقوف أمام الباب، وتعب «حنا» بتكرار أنها لم تجد أحدا من القساوسة اليوم، وليس وقت الاعتراف الآن، حتى إنه من غيظه كاد ينعتها بالعانس..

لكنها شاردة وتصر على أن تدخل قبل أن تأتى مواعيد عملها المتعب البعيد، الذى ينسيها أنها وحيدة بلا حبيب يسمع اعترافها.



السعيد

محمد صفوت

أمام مبنى شرطة قسم أول بورسعيد، انتظم السعيد فى جمع كبير من زملائه الجنود، يستمعون باهتمام بالغ إلى أوامر وتعليمات قائدهم، وكل منهم يرحب بما يكلف به، مدفوعا برغبته الشخصية فى تلبية نداء الواجب الوطنى المقدس.

أصدر الضابط أمره قائلا:

- عسكرى الشرطة.. السعيد محمد حسن حمادة.. حراسة القنصلية الإيطالية.
- سمعا وطاعة.

أدى السعيد التحية العسكرية لقائده، ضرب الأرض بقدميه ودار على عقبيه، ثم انصرف مسرعا ومعه سلاحه وذخيرته، متخذا طريقه إلى دار القنصلية الإيطالية وكله حماس وتحفز، ملامح وجهه جامدة صارمة ونظرات عينية قاسية متوعدة، يجز على أسنانه ويقسم أن يشرب من دم أى معتد يقع فى يده، بعد أن يمزق جسده تمزيقا.

جرى ذلك فى منتصف الساعة السادسة من صباح اليوم السادس من شهر نوفمبر، عام ستة وخمسين وتسعمائة وألف.

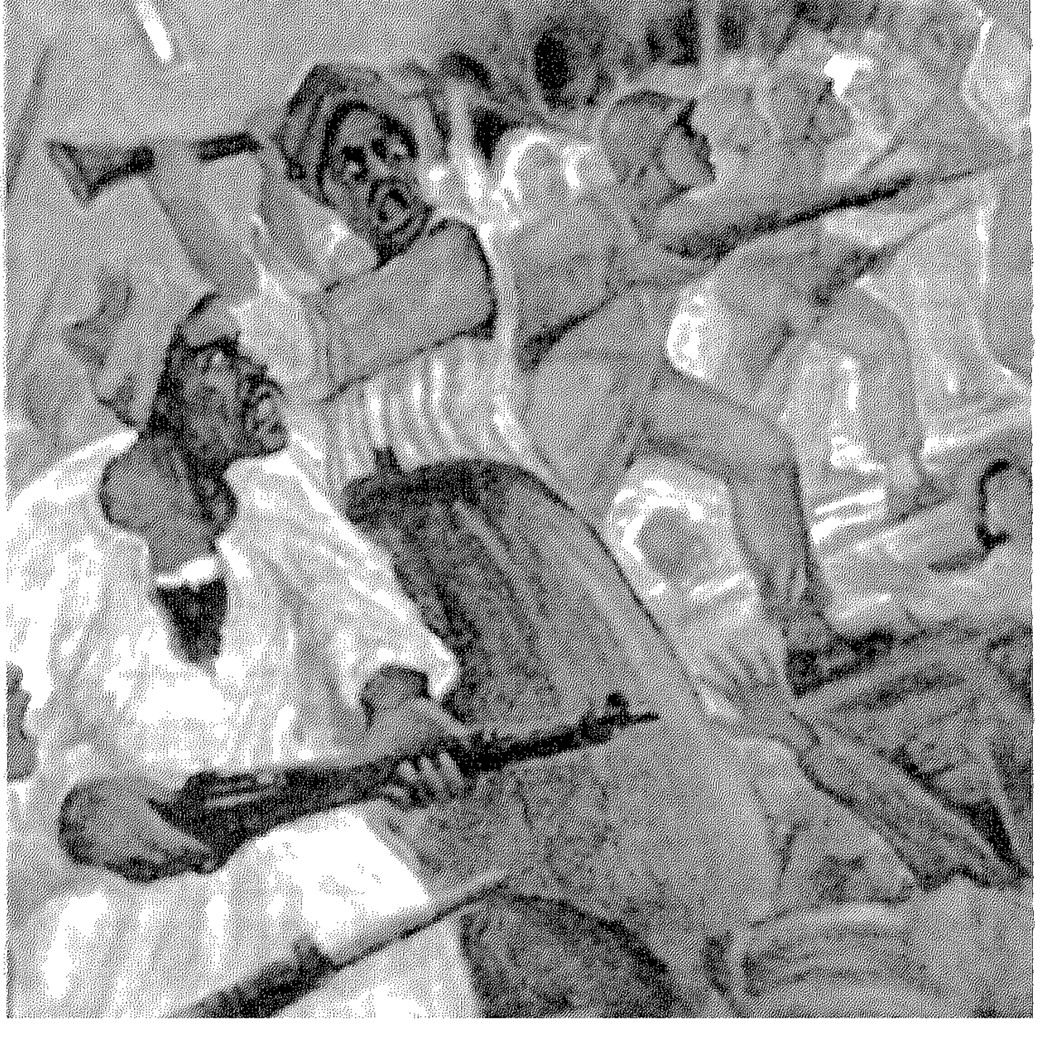
قبيل الفجر التقى السعيد كعادته اليومية بأفراد أسرته فى بيتهم، لم يكن فى حاجة إلى إيقاظهم من نومهم، فقد كانوا مستيقظين ينتظرون لقاءه مع إشراقة الفجر، كما أن أهوال الحرب المشتعلة حولهم تجعلهم يقضون ليلهم قلقين مسهدين، يملأهم الخوف والرعب من طائرات الأعداء المغيرة، وقنابلهم المدمرة وقذائفهم القاتلة، وغيرها من أسلحة الموت المتربص بهم فى كل لحظة، على أيدى جيوش ثلاث دول ركبها الجنون، بفعل إعلان الرئيس جمال عبدالناصر تأميم قناة السويس!

أمام باب القنصلية الإيطالية وقف الحارس السعيد رابط الجأش قوى العزم، متخذا بسلاحه وضع الاستعداد للدفاع عنها.

بعد الساعة السابعة صباحا، تضاعف عنف الهجوم واشتدت قوة الضرب، الطائرات المعادية تحوم فى سماء المدينة وتلقى بقنابلها من الجو دون تمييز بين المنشآت العسكرية والأحياء السكنية، الأسطول الحربى يطلق مدافعه وصواريخه على قلب المدينة وهو رابض فى البحر، القذائف النارية تنفجر هنا وهناك فتحصد أرواح المواطنين دون تفريق بين شاب وكهل أو امرأة وطفل!

لقاء الأهل بالسعيد كان حارا، وكأنهم لم يروه منذ سنوات، لم تكف أمه عن عناقها معه إلا ليستقبله صدر أبيه وأحضان شقيقاته السبع.

أدى السعيد صلاة الفجر جماعة مع والديه وبعض أخواته، وكانت اثنتان منهن قد



أعدتا له إفطارا خفيفا، فتناول جزءا محدودا منه على عجل وهو واقف يتحدث إلى أبويه والملتفات حوله من أخواته، دون أن يستجيب لرجائهم المتكرر ويجلس، ليستقر طعامه فى معدته ويستريح بدنه المكدود.

بأسلحتهم الثقيلة دمر المعتدون المنشآت، ودكوا العمارات على من فيها مستهدفين إحداث أكبر قدر من الخسائر فى صفوفنا، توطئة لمعركة البيوت والشوارع بالسلاح الأبيض!

من البحر والجو دفع الأعداء بمجموعات كبيرة من رجالهم ليشعلوها حربا برية، غير أنهم فوجئوا بجنودنا الأبطال ومواطنينا الشجعان بكل فئاتهم يتصدون لهم وينقضون عليهم بقوة تكاد تحطمهم تحطيما، وتخيب آمالهم فى تحقيق أى نصر علينا.

ظل السعيد واقفا كالمعتاد يتناول لقيمات الطعام وهو يقص على ذويه بإيجاز ملخصا للمعارك التى شهدها وشارك فيها بنفسه.

فى الوقت ذاته كان أبوه يستمع إليه وهو ينظف له سلاحه ويتأكد من نخيرته، فهو محارب قديم وعضو سابق فى ثورة ١٩.

فى الوقت نفسه أيضا كانت أخته الصغرى قد صنعت له الشئ الوحيد الذى تجيد صنعه، وتحرص على تقديمه بيديها لأخيها البطل، كوبا من الشاى باللبن.

اعتقد الرعايا الإيطاليون أن الطائرات المغيرة لن تضرب القنصلية الإيطالية، فتوافدوا إلى داخل مبناها يتحصنون به هربا من الموت غدرا فى تلك الحرب الظالمة!

وثمة صحفى إيطالى يعمل مراسلا فى بورسعيد لجريدة «دومينكا دى لكوير» الإيطالية، جاء ليحتمى أيضا بالقنصلية، وعلى بابها لفت نظره الحارس المصرى بطلنا السعيد، الواقف بسلاحه فى منتهى الثبات والشجاعة، دون أى خوف من القذائف القاتلة التى تروح وتغدو حوله!

لم يسع الصحفى الإيطالى إلا أن يبادر بالتقاط أكثر من صورة للسعيد، قبل أن يدخل القنصلية، ويمسك بقلمه ويكتب لجريدته، ممتدحا ذلك البطل المصرى، ومشيدا بصلابته واستبساله، وإصراره على الدفاع عن أرضه وحماية المقيمين عليها من الضيوف الأجانب، حتى فى أقسى ساعات المعركة.

نظر السعيد فى ساعة يده، وأدرك أنه قد أمضى عشرين دقيقة كاملة فى لقائه بأهله، فاكتفى بشرب نصف كوب الشاى فقط، واضطر أهله إلى ابتلاع دهشتهم كالمعتاد، لأنهم يعلمون سلفا بحكم تجاربهم معه أن أى محاولات منهم لن تفلح فى دفعه لتناول المزيد من الطعام أو الشراب، وكلما قالوا له:

– يجب أن تتغذى جيدا لتجد لديك القوة اللازمة للتغلب على العدو.

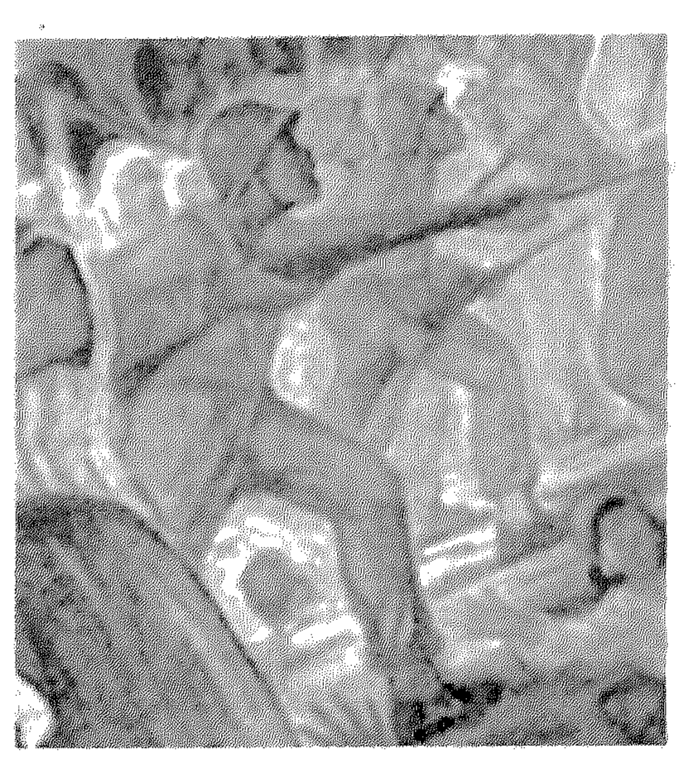
رد عليهم قائلا:

– يقينى أن القوة تأتينى من عند الله.



علم القنصل الإيطالى بالموقف البطولى للسعيد فأعجب به وأشفق عليه، وخرج إليه بنفسه ودعاه للدخول معه إلى مبنى القنصلية لينجو من الموت الذى يتربص به، ولكن السعيد شكره فى أدب جم ورفض أن يترك مكان حراسته ويدخل معه!

أخرج السعيد من جيبه



معظم المبلغ المتبقى معه من راتبه عن شهر أكتوبر وأعطاه لأمه، وعبثا حاولت هى وأبوه وأخواته إقناعه بأن يحتفظ بنقوده لنفسه، وبدا عليه أنه يتأهب ليغادرهم فحاولوا استبقاءه معهم وقتا أطول، ولكن دون جدوى!

أهالى بورسعيد جميعا ضربوا أروع الأمثلة فى الدفاع عن مدينتهم الغالية، من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع، وجنبا إلى جنب مع رجال جيشنا المقاتل، فسيطر الذهول على الجيوش الثلاثة للدول المعتدية، وغشيهم الخوف من أن تلحق بهم هزيمة ساحقة على أيدى جنودنا ومواطنينا، الذين توحدوا معا فى تلاحم وطنى حميم، وجن جنون المعتدين فاعتزموا تحويل سماء المدينة وأرضها إلى قطعة من جهنم!

حانت لحظة الوداع بين السعيد وأهله، فكانت مليئة بالمشاعر والانفعالات والدموع والقبلات بشكل أقوى وأشد من كل ما كان يحدث فى المرات السابقة، وقبل أن يخرج السعيد من باب البيت تذكر شقيقه رفاعى الغائب فى عمله بالقاهرة، وعصف الشوق بقلبه فعاد مثقل الخاطر، وقبل صورته المعلقة على الجدار، وهو يشعر بإحساس غريب غامض لم يستطع تفسيره!

مرة أخرى خرج القنصل الإيطالى إلى السعيد يرجوه ألا يخاطر بحياته، ويطلب منه فى إلحاح أن يرافقه إلى الداخل ليحتمى بمبنى القنصلية من الموت الذى يلاحقه، قائلا له أنه يعفيه رسميا من حراسة القنصلية، وسيعطيه إقرارا كتابيا موقعا منه بذلك، ليواجه به قائده إذا اتهمه بالجبن أو التقصير.

ولكن بطلنا السعيد أصر على تمسكه بواجبه الوطنى، وبأسلوب مهذب أبدى عدم استجابته للقنصل شاكرا ممتنا.

لم تهدأ الحرب إلا بعد أن دمرت العديد من الأحياء السكنية والمؤسسات الحكومية، وفتكت بالكثير من المواطنين والجنود، سقطوا قتلى وجرحى بالمئات والآلاف!

خرج القنصل الإيطالى ومعه مراسل الصحيفة الإيطالية للاطمئنان على السعيد واستطلاع آثار المعركة فى المنطقة المحيطة بالقنصلية، بيد أن أقدامهما تسمرت على باب

المبنى، فقد فوجئنا برؤية جسد السعيد ممددا على الأرض فى بركة من دمائه، وحوله جثث خمسة قتلى من المعتدين!

صدم المشهد بقسوته وعظمته عيون الرجلين الإيطاليين، خاصة وأن البطل المصرى كان لا يزال قابضا على سلاحه بيمناه فى عزم وإصرار.

دفعهما الأمل والرجاء إلى التقدم خطوات قليلة، والتعامل بأيديهم المرتجفة مع جسد السعيد، ولكنهما فجعا باكتشاف أن روحه قد فارقته منذ وقت غير قصير!

مات السعيد شهيدا وغاب عن بيته، وطالت غيبته دون أن يعود لأهله، فغرقوا فى دوامات طاحنة من القلق واليأس، وتدهورت أحوالهم النفسية أكثر فأكثر بعد انتهاء الحرب وعودة معظم المحاربين إلى أهليهم، ولو فى لقاءات خاطفة لتبادل الاطمئنان.

رغم أن الكثيرين من الأهالى كانوا يهاجرون من بورسعيد إلى القاهرة وأقاليم مصر الأخرى طلبا للعمل والأمان، إلا أن رفاعى شقيق السعيد فجع باعتبار أخيه فى حكم المفقودين، واستقال من عمله فى القاهرة وجاء إلى بورسعيد ليشد من أزر أهله، ويشاركهم فى البحث عن أخيه!

أبو السعيد وأمه وأخيه وأخواته انطلقوا أزواجا أزواجا يبحثون عنه بين تجمعات جنودنا وجنود الاحتلال كل على حدة، وفى شوارع المدينة وجميع الأماكن العامة المحتمل تواجده بها حاليا أو سابقا..

فى قسم الشرطة التابع له السعيد قيل لأهله إن توزيع العساكر تم شفويا بسبب ظروف الحرب القهرية، وهو لم يكن قد ذكر لهم شيئا عن تكليفه بحراسة القنصلية الإيطالية، حرصا منه على سرية التعليمات العسكرية.

فى سجلات المستشفيات لا وجود لاسم السعيد بين أسماء جرحى الحرب!

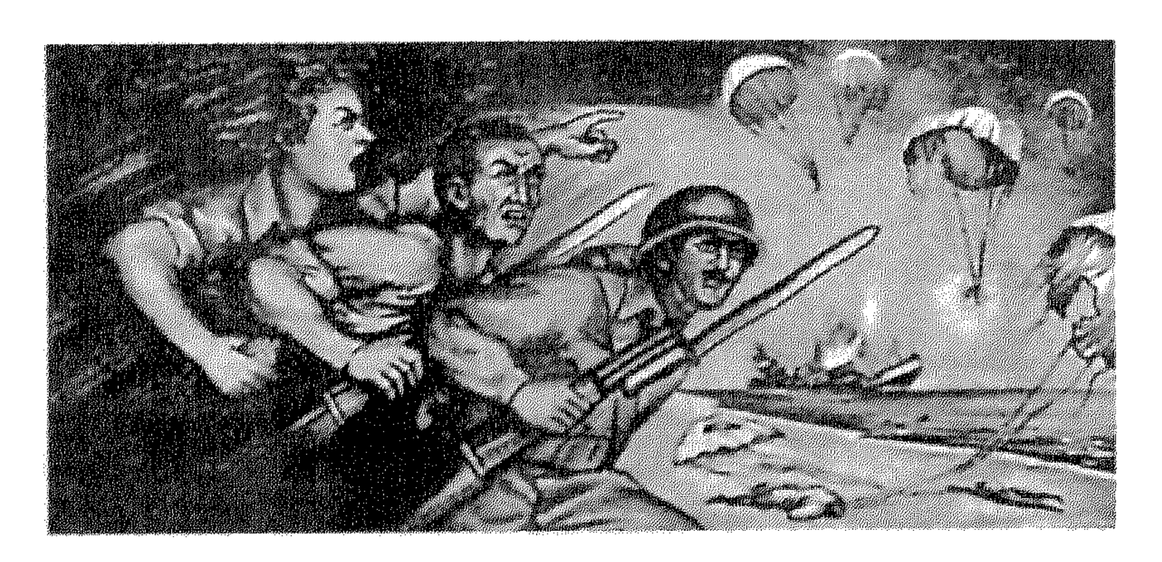
بين الأطلال وتحت الأنقاض أضناهم البحث مع فرق الانقاذ عن أى أثر للسعيد!

الجنود والأفراد الذين يعرفون السعيد، أو يحتمل أن يكونوا قد التقوا به لسبب أو لآخر، لم يذكر أى منهم أى معلومات مفيدة!

تغلغل الحزن والقنوط فى نفوس أهل السعيد، واعتلت أبدانهم لعزوفهم عن الطعام، وكلت عيونهم من كثرة البكاء، ولم تكتحل بالضرورى من النوم على مدى مئات الليالى!

ولم يعد لأهل السعيد وجيرانهم من شئ يتحدثون فيه غير سيرة البطل الغائب، والأمل فى عودته إليهم فى يوم من الأيام، وكلما فكروا فى احتمال أن يكون قد مات شهيدا طردوا الفكرة من رءوسهم سريعا، لخوفهم من تحققها، واعتقادهم أن الحكومة كانت ستبادر بإبلاغهم مهما يكن لديها من المشاغل والمسئوليات.

محاولات رفاعى المتواصلة فى البحث عن أخيه قادته إلى متحف كفاح بورسعيد الكائن بميدان الشهداء، هنالك راح يتأمل بعض الصور المعروضة والمسجلة أثناء المعركة.



أمام إحدى الصور وقف يحملق مصعوقا وكاد يسقط على الأرض وهو يصرخ:

- أخى السعيد.. آه ياحبيبى يا أخويا!

ركع على ركبتيه باكيا منهارا وهو يلتقى بأخيه مقتولا فى الصورة، وخيل إليه أنه يرى دمه الزكى الطاهر لايزال أحمر دافئا يقطر من الصورة!

انتبه إلى أن الصورة تتوسط صورتين أخريتين، قرأ التعليق المترجم المكتوب تحت الصورة الوسطى:

«الجندى المصرى البطل.. السعيد محمد حسن حمادة.. حارس القنصلية الإيطالية فى بورسعيد، وقد استشهد أمام بابها وهو يؤدى واجبه.. فى الصورة الأولى إلى اليمين نرى الحارس السعيد يقف مدافعا بسلاحه أمام باب القنصلية، وفى الصورة الأخيرة إلى اليسار نرى الشهيد السعيد وحوله خمس جثث لبعض من قتلهم من جنود المعتدين».

الصور الثلاث منشورة فى صدر صفحة من جريدة «دومينكا دى لكوير» الإيطالية، ومعها مقال كبير بعناوين بارزة تمتدح السعيد وصموده وبطولته.

مات الأمل العقيم فى قلوب أهل السعيد، تاركا إياهم لحزنهم الجليل، ورغبتهم الملحة فى معرفة موقع قبره والمزيد من التفاصيل عن حياته فى أيامه الأخيرة وظروف استشهاده!

توجهوا إلى القنصلية الإيطالية، فرحب بهم قنصل غير الذى كان، وذكر لهم أنه لم يكن موجودا فى بورسعيد أثناء العدوان الثلاثى الغاشم، ولكنه علم بقصة البطل السعيد من قراءته لما نشر عنه، وأهداهم نسخة من الصحيفة المنشور بها صور السعيد ومقال الإشادة به.. ثم أضاف قائلا:

- جميع موظفى القنصلية السابقين قد نقلوا وتركوا أماكنهم لغيرهم، ما عدا ذلك البواب النوبى الواقف بالباب، وهو قد عايش السعيد وعرف كل ما جرى له، ولعله لم يستطع أن يهتدى إليكم ليبلغكم بما حدث!

طقوس

إبرهيم محمد حمزة

١ - البصق :

.... ليس بسبب القرف أو الزعل أو غيره إنما الأمر لا يعدو العادة، ورغم ضيق الكابينة، وساعد السائق المتحرك كالبندول فى «جنبى» أثناء تغيير السرعات، رغم ذلك فقد انشغلنا بالحديث، «عم رجب» حلمه الوحيد زيادة الأجرة من خمسين قرشا للنفر إلى خمسة وسبعين.

- وهكذا تكون عال، أربعة عشر نفرا، حوالى عشرة جنيهات فى الدور، قل عشرة أدوار.....

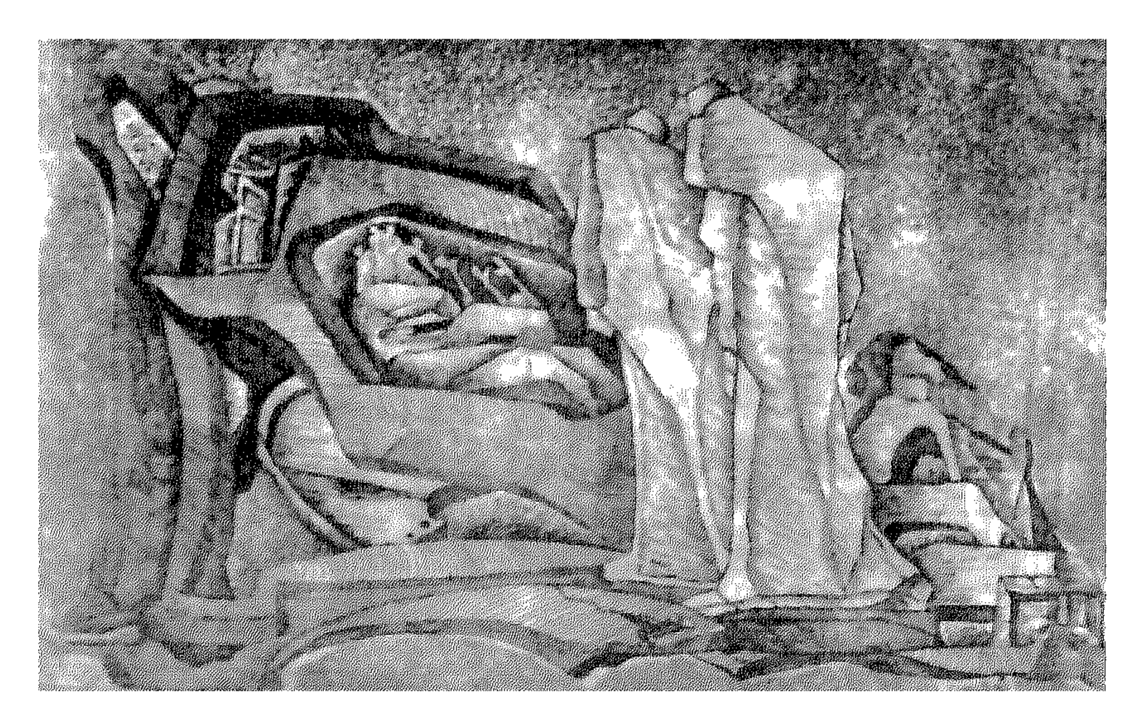
ويرد عليه من بجوارى: لديك الحق، الأسعار زادت، ما ذنبكم؟

ويستمر الحوار، أجد نفسى أجمع ما فى فمى، وأتمخط، فألم جميع البصاق تحت لسانى وأنظر بغيظ لزجاج الشباك المغلق والأكرة المكسورة (من يوم ما عرفت عم رجب والأكرة مكسورة) فيظل فمى على إغلاقه.

ثمة أشياء كثيرة، أكثر من عم رجب تستاهل هذه البصقة.

٢ - تلصص :

كانت مصادفة أن مددت جسدى ذات يوم على بلاط الحجرة، نصيحة صديق مجرب لأمراض الظهر. سنينا، مددت جسدى وشددت أطرافه بقوة، فجأتنى أصوات تأوهات عذبة.. جيراننا الجدد (ونعم الجيرة) عروسان مازالا فى أيام عسلهما، أطلقت لخيالى العنان، بالخبرة أدركت بعض طقوسهم، هى تستحم كل يوم مرتين (قبل وبعد)، أدركت



جدول المواعيد بأكمله، اكتشفت أن شباك حجرتي الصغرى يطل على الحمام لديهما، فصرت أغلق الباب بقوة وأدعي الخروج، لتصير هي أثناء حمامها على هواها، كنت أتأمل هذا الجسد النابض الحي من وراء زجاج الحمام، كانت تصب الشامبو على رأسها، وهي مغمضة عينيها، ثم تدعك رأسها بيديها ثم تغسل نهديها، وتتألم بدلال لنزول قطرات الماء، فأذوب وأذوب.. وأذوب...

٣ - عشـــم :

ولما وصلنا لرجم إبليس، أمسكت الحصوات وعزمت،، فوجدت إبليس يخرج لي بعينيه الناريتين، وحواجبه المرفوعة لأعلى وضحكته الساخرة دائما، وهو يقول لي: «عيب عليك يا أبا العزم، ترجمني بعد هذه العشرة الطويلة... إخص!!

وأخذ يذكرني يوم سحبت البنت العبيطة في عشة الطيور، وأمرتها أن ترفع أطراف ملابسها وتضعها في فمها، وكله بتدبيره، هو الذي ألهمني الإجابة وستر فضيحتي، حين فاجأتني بناتي سائلات عما أفعله، فقلت أني أعطي المسكينة حقنة.. «هكذا تنساني يا أبا العزم وأنا الذي بنيت بيتك، جمعت معك قروش السائقين، حتى امتلأت بطنك وحسدك زملاؤك من مساعدي الشرطة، حتى بعد أن صرت على المعاش بنيت بيتك، فساعدتك، ماطلت في دفع ثمن الحديد، سرقت سعر الطوب، فما شكاك أحد وكله بفضل نصائحي.. إخص إخص يا أبا العزم».

حمحمت وتلفت أطمئن على أسراري.

أمسكت الحصوات ومرجحتها في يدي واستعذت وألقيتها معتذرا.

خوف

على شوك

الليل خوف .. وصوت «عربجية» الجيزة وصياعها خوف وعتمة الليل فى برد قارص خوف .. المدرسة خوف وعصى المدرسين خوف وصوتهم الخشن الأجش خوف وأساليب التعذيب من صفع الوجه إلى مد القدمين إلى «العبط»، وهو الضرب على المؤخرة، ووجهنا للحائط ورفع أذرعنا لساعات، وضرب المؤخرة بالساق ... خوف، خوف، البيت خوف وعينى أبى تكشر خوف، أبى كان جلادا يذرف الدموع ويضعف لكنه كان يخيفنا، قد آلفت الخوف .

لم يعد مشهد العسكر مخيفا، ولم تعد عرباتهم المصفحة والتى تتوغل فى أرجاء القاهرة، الميادين والأحياء والأزقة لم تعد هذه المشاهد ذات مغزى كان الرعب يدب فى قلبى ويهتز جذعى كنخلة هاوية، وأسير متصنعا الثبات وأنا أتلفت حولى بركن عين، ذات اليمين وذات اليسار، وأحيانا أنظر خلفى لأتيقن تماما أن أحدا منهم لا يعيرنى اهتماما....

كانت كثيرا ما تأتى عيناى فى عيونهم فجأة، فأرى تركيز عينى كبيرهم فى عينى كأنه ينتظر منى تلك البصة المفاجئة، يرشق جسدى كله ببصاته، يمسحنى تماما، فأشعر أننى حتما المجرم الهارب منهم، ربما أنسى أننى لم أقترف ذنبا لكن بصاتهم كانت أكثر تأكيدا من يقينى بنفسى .

بجوار محطة المترو فى شوارع حلوان الجانبية، فى شارع منصور فى وسط البلد، أمام القضاء العالى، فى محطة عبدالناصر، عند السادات، شارع القصر العينى، أمام نقابة المحامين شارع ٢٦ يوليو، وأمام نقابة الصحفيين، ثم يتركز المصدر، عند مبارك والرتب الكبيرة والصف والجنود، كل شوارع القاهرة صارت ثكنات لهم، صار الأمر عاديا، لكنهم قادرون على زرع الخوف، عربات كبيرة محشورة بعشرات الجنود المغلوبين على أمرهم، يمسكون بنادقهم، ينتظرون الأوامر فى أى لحظة، كنت أشاهدهم وأرقب تصرفاتهم حتى ألفت وجه بعضهم رغم تغير مكان خدماتهم، أقترب منه وأسأله بتودد:

– هو فيه إيه ؟

– أوامر .

– تاخد سيجارة ؟

– شكرا .

- يا عم خد ماحدش واحد باله .

يتلفت الجندى حوله ثم يمد يده يسحب سيجارة من علبتى الممدودة له، يسحبها مسرعا، ثم يسحب أخرى لزميله يعودا لثباتهما، وقبل أن أشعل له عود ثقاب يكون قد أشعلها من عقب سيجارة لزميل أخر .

فى اليوم التالى نفس العربات، نفس الأماكن، غير أن الجنود غير الجنود لكنهم متشابهون،. كل يوم تزاد مساحة أحتلالهم واستعانوا أخيرا بدبابات أمريكية الصنع. قالت علياء الصغيرة : هى إسرائيل دخلت مصر يابابا؟



- ليه ياحبيبتى ؟

- الجيش ده زى اللى بنشوفه فى التليفزيون بيضربوا الفلسطينيين ؟

- ....

- هو فى إسرائيل هنا يابابا ؟

- ....

- بابا رد علىّ !!

- ....

أصبح مشهد الجنود مألوفا حتى أننى لم أتخيل القاهرة بدونهم، ولم أتخيل كيف أسير فى شوارعها الجميلة دون أن أرى وجه أولئك الملائكة وهم محشورون فى عربات مصفحة وأياديهم على الزناد. صار مشهدهم من معالم قاهرة المعز.

أخت حبيبتى

مكاوى سعيد

جارتنا التى كنت أحبها قديماً .. أدس لها الرسائل فى كرسى المصعد .. أرقب وجنتيها المحمرتين وضفائرها المرتعشة وبسمتها الخجلى ، وهى تختلس النظر إلى ظلى المختبئ خلف الزجاج المصنفر لباب مسكننا . وكنت أعدو طائراً إلى الداخل بينما صوت جرس باب مسكنها الحاد- وهى تضغط على زره بلا توقف- يغرد فى أذنى ....

جارتنا التى كنت أحبها قديماً كانت لها أخت أكبر ، تكرهنى ولا تطيقنى دونما سبب .. وكلما وجدتنى بالشرفة تكورت شفتاها كالحرباء التى تتأهب لصيدها ..مرسلة سبابها الذى لا يسمعه سوانا..

كنت أكتب كل يوم رسالة لحبيبتى لكنى لم أطلب أبداً لقاءً بالخارج ، كنت سعيداً بعالمى الذى رسمت كل حدوده فيما وراء باب مسكننا وفيما أمام الردهة التى يتوقف عندها المصعد وفى خطواتها القليلة المهرولة حين تدخل شقتها .. وقد تتسع حدود عالمى أحياناً للشارع الذى به منزلنا حين ترتفع رأسى بحذر تترقب شرفتها التى نادراً ما وجدت بها حبيبتى بقدر ما وجدت أختها الكبرى التى كانت تكرهنى وهى واقفة تتوعدنى.

لم تصعد حبيبتى بالمصعد هذه المرة .. التى صعدت أختها التى تكبرها بسنوات قلائل وتكرهنى . فتكت بحشوة كرسى المصعد حتى وجدت رسالتى ودخلت بها إلى مسكنها غاضبة .. انساب البول رغماً عنى ملوِّثاً بنطلونى القصير وجوربى وحذائى .. وفررت من عالمى الصغير إلى غرف إخوتى الكبار فلم أجد من يجيرنى .. حتى أختى التى تكبرنى بسنة واحدة. رمقتنى بنظرة بائسة ولطمت بيدها على خدها وأبى يطلبنى بصوت جهورى .. لم أجرؤ على الذهاب إليه طوعًا وتطوع إخوتى الكبار بحملى إليه كاتمين ابتسامات التشفى.

كانت الرسائل فى حجر أبى وأخت حبيبتى الواقفة قبالته تمزق كل رسالة بعد أن يتأملها أبى .. أصبح أبى قاسياً جداً معى بعد تلك الحادثة.

سنوات قليلة مرت ومات أبى وتزوجت أخت حبيبتى الكبرى برجل ضئيل مسن أقام معهم فى مسكنهم .. لم يدْعُنى أحد لحضور حفل زفاف أخت حبيبتى الكبرى ، ولا حتى حفل زفاف حبيبتى اللاحق ، وإن كان كل إخوتى بلا استثناء حضروا كلا الفرحين ..

أخت حبيبتى لم تكن تصعد معى بالمصعد أبداً .. إن وجدتنى أنتظره تباعدت أمتاراً

حـتى أوشكت أن تلتـصق ببـاب المنزل الخارجي ثم تدير لى ظهرها حتى أصعد .. وإن كانت بانتظاره ولمحتنى خلفها أسرعت بالدخـول وهـى تغلق البـاب فى وجـهى بصوت مدو .

لم يعـد أخـوتى يتكلمـون عن جيراننا وأنا موجود بينهم وإن دخلت فـجأة وهـم يتـحـدثون عنهم قطعوا الحديث ومضوا يتحاورون بأعينهم .. ورغم ذلك علمت أن زوج أخت حبيبتى الكبرى مريض جداً وتألمت بحق لكننى لم أجرؤ على الذهاب إلى المستشفى .

كـانت الليلة شـتـوية والمطر الملوث بالوحل الملتصق بورق الشجر يتسـاقط برتابة .. وأنا أحاذر أن أسقط فى حفرة أو أقتـرب من إحـد أعـمـدة الإنارة المفتـوحـة بطونها وأسلاكها الكهربية تومض على فترات ، ودخلت إلى بهو المنزل واستدعيت المصعد .. وهو فى منتصف المسافة .. تصاعدت إلى أذنى خطوات مـهرولة تجتاز الشارع ثم تتوقف فجأة فى بهو المنزل .. التفت بالتزامن مع نزول المصعد .. كانت أخت حـبيبتى الكبرى تتـراجع ببطء إلى ركنها الأثير .. لكنها لم تُدرْ لى ظهرها هذه المرة .. فقط أشاحت بوجـهـا عنى .. كـانت ملابسها مبللة وجسدها يرتعد من البرد .. تجـاهلتـهـا وصـعـدت لكنى بمجرد دخولى مسكنى داهمنى صـوتها الحاد الصاعد من أسفل يصرخ بجنون ..

كل الجيران هرولوا ونزلوا، وإخوتى الموجودون بالمسكن، على الدرجات الحجرية بعد أن فاتهم المصعد .. وظللت بغرفتى ساكناً متوجساً منتظراً شراً أجهله .. رجع أخوتى واحداً



إثر الآخر وبعد أن أنهوا اجتماعاتهم أخبرني أحدهم بأن زوج أخت حبيبتي الكبرى مات بالمستشفى وسنقوم بالواجب تجاه العائلة نيابة عنك ..

سنوات مرت أكثر وأكثر ، وما عدنا نلتقي أنا وأخت حبيبتي لا بالصعود ولا بالهبوط ولا حتى في الشرفتين المتجاورتين .. ومهما اجتهدت كي أسترجع اسمها فشلت أكثر .. وحتى ظلها بالرداء الأسود الذي لم تغيره منذ وفاة زوجها والذي كان يخيفني جداً إذا ما لمحته مصادفة اختفى نهائياً.

أخت حبيبتي الكبرى والتي تكبرها بسنوات قليلة .. ماتت أمس .. وسار إخوتي الذين صاروا شيوخاً الآن في جنازتها التي لم أجرؤ حتى على الاقتراب منها خوفاً من أن تخرج إليّ وتوبخني ... أختي التي تكبرني بعام تركت أولادها وزوجها ولازمتهم .. تشارك بهمة حماس إعداد الولائم للمعزين وغسيل الأواني والملابس وفاءً لجارتها وصديقتها ..

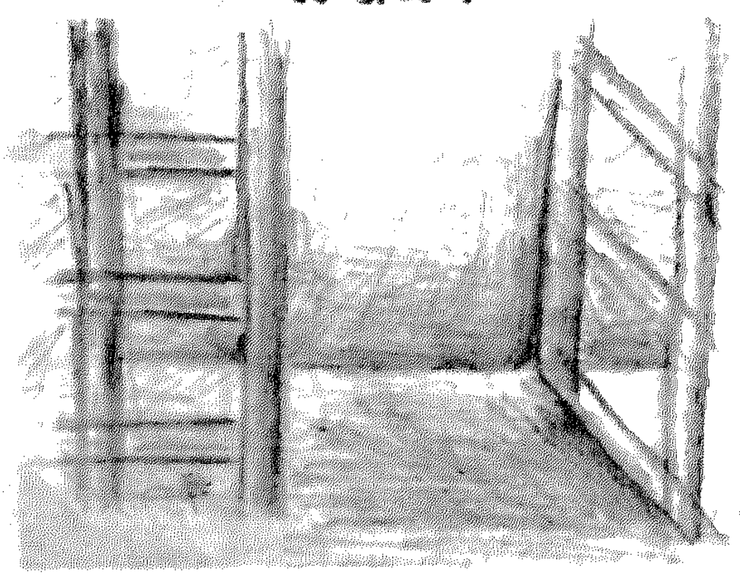
وأنا بغرفتي وحيداً بعد كل هذه السنوات .. انسلت أختي من مسكنهم ليلاً في اليوم التالي للعزاء .. وجثمت على بغرفتي .. جلست أمامي متثاقلة وأزاحت بيدها الضخمة المجلة التي كنت أتصفحها، ثم ألقت أمامي بسلسلة ذهبية تنتهي بحلقة بلاتينية .. وأومأت إليّ بأن أتلمسها .. تفحصت الحلقة كانت بها صورة شخصية باهتة لزوج الراحلة خلف زجاج يكاد يكون معتم .. قلبت شفتي متسائلاً .. أمسكت أختي الحلقة وفتحتها بعنف فسقطت صورة كانت منزوية خلف صورة الزوج الراحل .. كانت الصورة راقدة على الأرض بين قدمي .. ولم أكن بحاجة لتأملها .. كانت صورة لفتى في السادسة عشر من العمر .. وكانت صورتي .. أعادت أختي إحكام الحلقة وقامت غير مبالية بقدمها التي تطأ صورتي وقالت وهي تمضي ..

– ها روح أسلمهم بقيت الصيغة .. يا ريتهم ما خلوها في عهدتي ..

كان صدى صوت خطوات أختي الثقيلة يتباعد وأنا منهمك بإخراج رسائلي القديمة التي كنت قد أعدت لصقها بمهارة .. كان الصمغ مازال قوياً .. لم أفلح في تمزيقها ولم تعد بي حاجة لقراءتها .. كنت فقط أرقبها وهي تحترق واحدةً تلو الأخرى.

من فتحة شباك..

بشرى أبو شرار ◻



انحنت بسيارتها تدخل شارع بيتها، تبحث بعينيها عن فتحة شباك فى الطابق الأرضى.. نور باهت يسكن النافذة، نظرت لعقرب ساعتها، ألقت حقيبتها خلف كتفها، مدت يدها تسحب المزلاج، تدفع الباب الخشبى، ترهف السمع لأصوات قد تأتيها من الداخل، وقفت بجوار النافذة، كانا نائمين وقد تلاصق رأسيهما، ينسجان أحلامهما معا..

يدها الصغيرة تقبض على قطعة خبز لم تكمل قضمها، آثار أسنانها باقية عليها، همست تنادى أمهما، لم يجبها أحد، تتأملهما فى فرشتهما على لحظات الانتظار، نهض الصبى النائم أسفل النافذة يهذى بكلماته الصغيرة:

– ليست هنا.

يهز رأسه وقد أسدل أهدابه، يكرر ذات كلماته:

– أمى ليست هنا.

ثم ألقى بجسده، جوار أخته مستسلماً لأحلامه.

القفل المغلق عليهما حال بينها وبينهما، همست له ما بين فتحات النافذة:

– شد الغطاء جيدا يا حمدى.

شدت يده النائمة طرف الغطاء الصوفى على جسد أخته المتكوم بجواره وما تبقى منه أسدله على كتفيه.. انفرد الغطاء وظهرت فتحاته المهترئة جليا، ألوان رمادية زاحفة على الأبيض، دفء فراشهما سرى إليها، عادت أدراجها، تنظر شباك حجرتها، ستائره المسدلة تتراقص لريح تصفر لبرد ساكن فيها.

◻ كاتبة من فلسطين تعيش فى مصر

بطة أنچيل !!

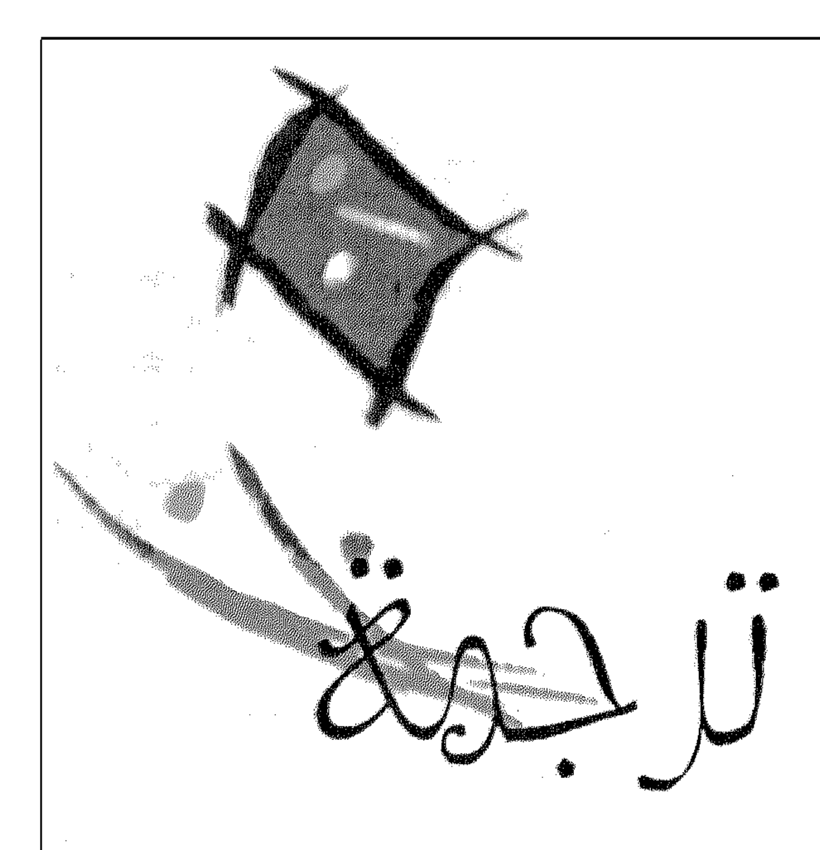
محمد خضير

ذهبت «أنچيل» متلهفة إلي السوق وراحت تتجول بين محال الطيور وبعد اللف والدوران والمعاينة والفحص والدوخة، وقع نظرها على بطة سمينة، حيث قام الفرارجى بوضعها على الميزان. وبعد فاصل من المداولات معه على السعر قام بذبحها وترييشها ثم وضعها فى كيس وأعطاها إياها.

حملت «أنچيل» البطة وراحت تتبختر بها فى الطريق وكأنها تتراقص على أنغام باليه بحيرة البجع، وهى فرحة سعيدة، حتى وصلت إلى دارها ووضعتها فى الثلاجة تمهيداً للاحتفال بها فى ليلة العيد.

.. كم سبحت بخيالها أثناء الصيام فى أمر هذه البطة السمينة وفى كيفية إعدادها وتقديمها للطعام مع الأصناف المختلفة من الخضراوات التى أتت بها من السوق حتي استقر رأيها النهائى على أن تضعها فى صينية وتغلفها بالورق المفضض مع البطاطس والصلصة داخل الفرن.

.. وفى ليلة العيد ذهبت «أنچيل» إلى عم «سكر» الفران بصينية البطاطس تتوسطها البطة حيث قام بوضعها داخل «المحمة» إلى جوار بيت النار كى يسويها على نار هادئة حتى فاحت رائحتها واكتمل سواها، فحملتها وراحت تطير بها كالفراشة إلى البيت.. وفور الانتهاء من القداس عادت وهى تحلم بتلك اللحظة، وتخيلت وهي تقدم لرفيق دربها، الذى كم انتظرته طويلاً، ولكنه لم يأت بعد، تخيلت وهى تناوله قطعاً من لحم البطة «المستوى» اللذيذ، وسرحت مع صوت فيروز وهي تغنى (نظرتك على بابى بليلة العيد، مروا كل أصحابى وحدك إللى بعيد) وفور وصولها للمنزل وصعودها لشقتها لم تجد سوى العظم فقط، فتحسرت من ذلك المشهد المروع حينما اكتشفت أن النافذة مفتوحة فأدركت أن قط الجيران قد قفز داخل مسكنها حين راودته رائحة البطة التى فاحت، فسال لعابه وقد انفتحت شهيته عليها فأخذ يلتهمها التهاماً وكأنه فى معركة حربية ولم يترك منها فتفوتة واحدة!!! تسمرت أنچيل فى مكانها وراحت تتلعثم غيظاً فى نفسها، ولم تنبس ببنت شفه!! فيما كان القط يهز ذيله مغادراً!!


ترجمة

وقع أقدام الماء

سهراب سبهرى □

ت: محمد محمد السنباطى

أنا من كاشانْ
أيامي ليست سيئةً
أملكُ كسرةَ خبزٍ
بعضَ ذكاءٍ
نوقاً أكبرَ من رأس الدبوس
عندى أملٌ أنضر من فنٍ
وصحابٌ أفضل من نبعٍ رقراق .

□□□

وأنا مُسلمْ
قبلتىَ الوردةُ حمراءْ
ومصلاى عيون الماءْ
ومكان سجودى النورْ
وسجاداتى الصحراءْ
ووضوئى هزاتُ شبابيكْ
وصلاتى يجرى فيها القمر كما الطيفْ
وحين أصلى
تتقارب أشجار السرو وتتناجى بذوائبها

□□□

وعلى حافة ماءٍ جارٍ تتبدى الكعبةُ
تعلوها أشجار الطلح ، وإن الكعبةَ
مثل نسيم تسرى من روضٍ لرياضْ
من بلد لبلادْ
أما حجرى الأسود فهو ضياءُ حديقةْ
أنا من كاشانْ
عملى الرسمُ ، وأصنع أحياناً
قفصاً من ألوانٍ ليباع لكمْ
كى يتجدد قلب الواحدة فيكم بنداء
الورداتْ
بذاك السجنِ فأىُّ خيال أى خيالْ !
أعلم أن حجابى لا روحَ لهُ
أعلم أن حياضاً أرسمها .. دون سمك!
أنا من كاشانْ
نسبى قد يمتدُ إلى عشبٍ بالهند
وقد يصل إلى غانيةٍ من أهل بخارى

□□□

وأبى ، بعد مجيئ سلاحفَ أكثر من مرةْ
بعد سقوط ثلوج أكثر من مرةْ
بعد النوم وقد غطاه القمر الأبيض أكثر من مرةْ
مات أبى
فزعت أمى الغافلة .. من النومِ
وأختى أزدادت حسناً
كان الحراس بأجمعهم شعراءْ
بقالُ يسألنى : كم رطلاً ترغب من هذا الشمام؟

□□□

كانَ أبى رساماً
كان يشد الأوتار
ويعزف فوق الأوتار
وكان الحظ يحالفُهُ
وحديقتنا فى جانب ظل المعرفة
حديقتنا نقطة ضوءٍ فوق المائدةَ ، المرآة ،
القفص ، حديقتنا كانت قوساً من دائرةٍ
سعادتنا الخضراءْ

□ سهراب سبهرى : ولد عام ١٩٢٨ تخرج فى كلية الفنون الجميلة بطهران وتوفى عام ١٩٨٠ بمرض مفاجئ



أمضغ فاكهة الله الفجة فى
النوم وأشرب ماءْ
وبلا معرفةٍ أقطف ثمرات
التوت
مادام الرمان التركى به ثمرٌ
فيدى ترغب فى ماء
النافورة
حين يغنى العصفورُ الدوريّ
فهذا جسدي يحترق غراماً
فى الإصغاءْ
كانت تلصق خداً بالنافذة
الوحده
يأتى النورُ يطوق بيديه الجيدَ
حياتى كانت أشبه بالمطر
النسائى
وبأشجار السنار الممتلئة بطيور
الزرزورْ
كانت صفا من نورٍ ودُمَى
كانت حوضاً للموسيقا.
ورويداً ... ينأى الطفلُ عن الحارةِ
والحارة ملأى بجرادْ
وحملتُ الزادْ
غادرت مدينةَ أخيلتى
وإلى الدنيا ، وتجاه الهم
وإلى بستان العرفان
وإلى إيوانِ مصابيحِ المعرفةِ
صعدت إلى درجات الإيمانَ
ثم هبطت إلى الشك الخاوى
وإلى جو الاستغناء النشوانْ
وذهبت لرؤية شخص يملك سر العشقِ
ذهبت إلى المرآةْ
حتى مصباح اللذةِ
حتى الصوت المتكدس بالوحدةِ
وعلى وجه الأرض تبدت أشياءَ:

طفلُ كان يشمُّ القمر
وقفصُ ليس له بابُ ويرفرف فيه النورْ
والسلمُ ، جاء العشقُ ليصعده حتى سقف
الملكوت .
وامرأةُ ماذا كانت تصحنُ فى الهاونِ ؟
ليس سوى النور !
وعند الظهر على المائدة تبدى الخبزُ،
الريحانُ ، وأطباق الطلِّ ، وأكواب الدفءِ
وشحاذُ يتسول صوتَ القبرةِ
وكان الشاعر يخشع فى حضرة سوسنةٍ
فرأيت كتاباً فيه الكلمات حرائق
أما تلك الورقة فهى كما نيسان
هذا المتحف ناء عن نَفَس مدينتنا الحى
هذا المسجد ناءٍ عن ذاك الماءْ
وفقيهُ فى البؤسِ وفوق وسادتهِ
كوزُ يقطر ألف سؤال.

قلوب جميلة

جلاديس دالاس

ت: على منصور

لكم يبدو كئيبا، وبشعا، هذا العالم
مع هذا
فلابد من الالتفاف على المأزق.
لابد من العثور على
جدوى عظيمة،
جدوى، أننا أحياء .
تحت حطام العواصف والأعاصير
اصغ ..
صوت واهن ضعيف
والرجال المتطوعون يتدافعون للمساعدة
هؤلاء، ذوو الشهامة،
دائما يكونون حولنا.
لا بأس، وهذه الحياة تمضى
مثل سيرة امرأة ساقطة
والأمل فيما هو جميل يخبو، ويتلاشى
عندئذ يطفق:
(طهروا قلوبكم أيها البشر)
كى ينبض العالم القذر - ثانية - بالحيو
والنشاط .
ذوو الشهامة هؤلاء
لهم أجورهم أضعافا مضاعفة
وبالنسبة لى
فمن المؤكد أن هذا اليوم
هو بمثابة اكتشاف كنز الذهب.
لدىّ ما لايزال حيا من الذكريات الجميلة
سوى أنه

لا شىء سوف يفوق هذا الذى يحدث الآن
أنتم ترون
كل هؤلاء الناس الطيبين
قد لونوا اليوم بيتى بقلوبهم الجميلة .



نقد

سحر أسود

شرك الأنماط السائدة

أسامة عرابى □



تشي الرواية الأولى للكاتب الشاب حمدي الجزار «سحر أسود» الصادرة عن «دارميريت للنشر» عام ٢٠٠٥ ، بموهبة لافتة، تملك حساسية خاصة في التعامل مع عالمها الفني، وآليات مقاربته .. بيد أنه استطاع بحرفية عالية، وأدوات ناضجة، الإمساك بمسرحه، وإدارة علاقاته بمهارة واقتدار، فنأى عن الترهل والتزيد، واقترب من حقيقته اللحظية.

فما «السحر الأسود» الذي اتخذه الكاتب عنوانا لروايته هذه؟. ما الذي يحيلنا إليه، ويسعى إلى بلورته من وراء مجازه هذا، الذي يعتمد تقنية يمكن أن ندعوها ، بـ «السلب والمجاوزة» .. أي التصريح بالضدية على نحو يستولد الصورة المنشودة، ويومىء إلى فحوى شبكتها العنكبوتية، فتشف وتبين عن ماهية الشيء لذاته، لافي ذاته؟.

إنه «كاميرا التصوير» التي عاينها وخبر طبيعتها وإمكاناتها اللامحدودة «ناصر عطا الله»، يوم كان في الرابعة عشرة من عمره، وجاءته «كاميرا ياشكا» هدية من أبيه الذي فوجيء بنجاحه الباهر غير المتوقع في الشهادة الإعدادية، فأحبَّ «جسدها الأسود الخشن، الذي كنتُ شغوفا بملمسه بين كفيَّ، وعدستها البارزة الكبيرة» ص ٢٠. وأدرك فيما بعد عبر علاقته المديدة بها، ووقوفه على أسرارها أن «ما تفعله الكاميرا ليس أقل من سحر أسود» ص ١٢٤ .. في إشارة لاتخفى إلى ماهية صنيعها وماتنهض به حيال الواقع والأشياء، منِ تحوير وتمويه وختل وتدليس .. وهو ما عبَّر عنه «ناصر» بوضوح وجلاء في غير موضع وتجربة.. سواء في قاعة المؤتمرات الكبرى، أثناء قيامه بنقل وقائع مؤتمر «مستقبل مصر في الألفية الثالثة»، فرأى كيف «تضع - أي الكاميرا - على الواقع غلاله رقيقة شفافة، تجعل الألوان الكابية الكالحة ألوانا ساطعة مبهجة، وتجعل المشهد مكثفا موجزا مقطوعا من الحياة ألوانا ساطعة مبهجة، وتجعل المشهد مكثفا موجزا مقطوعا من الحياة» ص ٢٣، أو في أثناء اضطلاعه بالتقاط صورة لشقيقه «مأمون عطا الله»، فاستقر في روعه أن «المصورين هم الذين يكوِّنون، بدرجة ما، أفكار الناس عن القادة السياسيين ونجوم السينما والمجتمع والرياضة والمشاهير، وكل من له علاقة بالظهور العام. نحن كهنة الضوء والظلمة .. نحن الذين بإمكاننا أن نفسر بعض

□ كاتب وناقد



ألغاز الكون المعقد» ص ١٢٠، أو خلال محاولاته الفرار من صديقته «فاتن شهدى»، لكى لايجيبها إلى طلبها فى التقاط صورة لها، إيمانا منه بأن «وضع شخص أمام عدسة كاميرا يعنى لى الآن أن أقوم بعمل جاف وبليد .. يعنى أن تصير الكاميرا آلة طحن. ماكينة هائلة الضخامة ذات ترس حديدى كبير يدور، ويدور بسرعة الضوء. فارما فى وجهه كل ما يلقى إليه. آلة خرافية تسحق كل شىء دون هوادة، دون أن يهتز قلبها الحديد، وقد تقتل فى عملها البارد أبا أو أما، عاشقا أو عاشقة .. أو قد تقتلك أنت» ص ١٢٢ . الأمر الذى أفضى - فى مآله الأخير، حين أذعن لرغبتها وانصاع - إلى أن «رمت الصورة فى وجهى، فسقطت على الأرض، وهرولت خارجة من المطعم» بعد أن «صفقت الباب الزجاجى خلفها بقوة» ص ١٢٦ .. وعلى هذا النحو، مضى «ناصر عطا الله» ينعى على الكاميرا صنيعها هذا .. وراح ينعتها أثناء قيامه بتصوير مولد جبل المقطم، مستمعا إلى صوت الشيخ محمد الأشرفى، بـ «الكاميرا المخبولة، الوحش، تقترب وتفضح، تبتعد وتكشف، تغوص فى التفاصيل، تبصر الأعمى، تصدم وتذل، تجمل وتكذب وتعرى الجميع من الثياب والنيات، تصطنع وتدارى، تجمع الأضداد والمتناقضات، مزهوة بوجودها وحده، تسلبنى الإرادة والاختيار، متهورة وهمجية، بربرية من زمن الأصنام الجديدة... » ص ١٦٢. حتى لكأنه يشاطر

العالم المعروف «شانجو» رأيه بأنه ليس ببعيد ولا بمستبعد ذات يوم أن تنهض «الكاميرات ذات البوزيترون» باستعراض صورة الأشياء الذهنية على الشاشة فى يوم من الأيام! بفضل التقنيات الجديدة التى تستخدم فى معالجة الصوت والصورة رقميا، وإمكان الدمج بين الحقيقة والخيال على الشاشة ذاتها، كما فعل المخرج «روبرت زيماكى» فى الفيلم الأمريكى المعروف باسم «فورست جامب» وسواه .. مما دعاه إلى أن يسر لنفسه يوما بأمنية بدت عزيزة لديه، علها تخلص من ركام الأكاذيب التى باتت تحاصره، وتمنعه من التنفس بحرية فى أجواء صحية «لايمتلك أحد، الآن فرصة ابتكار تليفزيونه الخاص، بنفسه، لنفسه. لامنفذ .

أنا أعمل في خدمة كل ما أكرهه، فلماذا ينتابني كل هذا الغضب الآن على شيء تافه وعادي مثل التحقيق القانوني والعقاب والخوزقة إن أمكن» ص ٤٣، لذا لم يأل جهدا في فضح «جمهورية ماسبيرو»، وما تعج بع من «زيف وأونطة» محاولا أثناء تقمصه شخصية «شارلوك هولمز»، ودخوله «الاستديوهات ووحدات المونتاج والمكاتب في غفلة من الجميع» «شم الروائح العفنة والدسائس والمؤامرات والفساد والأموال المنهوبة». لكنه لايدري كيف يحمي نفسه ويصوتها من هذا المستنقع الإعلامي الآسن الذي ألقى نفسه فيه، وجعله مغلول اليد، فعمد إلى وصمه بما هو أهل له وخليق ..

(فقط أحس جردل ماسبيرو الضخم المليء بكل شيء في هذه الدنيا ينسكب فوق دماغي لآخره، ويترك ملابسي قذرة .. ملوثة، وجسدي عفنا خربانا، يحيلني إلى آلة جيدة لحشو أدمغة الخلق بالزيف والباطل والحقائق والأوهام والجمال والقبح والمتعة» ص ص ٤٤ ، ٤٥.

وقد تعددت هذه الهجائيات وتنوعت، عبر المواضع والمواقف التي مرّ بها، واصطدامه برئيسيه: «نعمان» و«صبري غريب» بحماقتهما وضيق أفقهما، وافتقادهما المنظور الأشمل والرؤية المغايرة، حتى أضحى «ناصر» يردد بشكل شبه دوري، وكأنه فعل تطهري يخفف من وطأة إحساسه بالذنب والمشاركة في عمل لايلبي طموحاته، ولايتناغم وما تعلمه واستقر في وعيه، حتى غدت الصورة أمامه انتهاكاً للأفلاطونية التي رأت الحوار طريقا للوجود والحق، وثلماً للكانطية التي دعت إلى حرية الكوني العام: «صرت أكثر المصورين شهرة في صنع مايريده لمخرج، مايريده تماما بدقة وإحكام بالغ، مهما كانت عيوبه الفنية وبلاهته وتفاهته .. أنا أصنع فقط مايريدون» ص ٢٢. غير أنه لم يستسلم .. وقرّر الرد بطريقته الساخرة التي لاتعبأ بالأعراف المرعية في عمله الوظيفي وتقاليد الاضطلاع به على النحو المحدد والمقنن سلفا، وبذلك لايخون شرف المهنة، ولايفقد احترامه لنفسه، فقام بتسليط الكاميرا على دواخل هؤلاء المسئولين المدلسين الذين التقاهم في «قاعة المؤتمرات الكبرى، وفرض عليه «نعمان» «زاوية تصوير ميتة بالنسبة لي، كادر متوسط يظهر الجميع، وأنصاف أجسامهم العليا ملتصقة بالخلفية، كادر مسطح بلاعمق ومختلط الألوان والإضاءة التي وضعتها وحاولت بها إضفاء بعض العلاقات بين كتل الأشخاص والمكان، صارت من هذه الزاوية أشبه بإضاءة ملهى ليلي تحتفي بالراقصة النجمة» فوجد أنهم «لايرتدون ملابس داخلية تستر أعضاء أجسامهم وعوراتهم المسترخية. كنت أرى أفخاذهم السمينة مترهلة وشاحبة تكسوها التجاعيد والعروق الزرقاء النافرة، والدوالي المنتفخة، وأعضاءهم المنذورة للإثمار منكمشة نائمة رخوة، مجدبة مثل بركة صغيرة آسنة سوداء.

خرجت قهقهتي عالية صاخبة، لم أستطع السيطرة على مخيلتي وعلى ضحكي المتواصل الذي بدا نابيا وغريبا، فتوقفت السيدة التي كانت تتحدث بحرقة عن المستقبل النسوي المأمول عن الكلام،

وران صمت ثقيل في القاعة التى رددت حيطانها صدى ضحكي الهستيرى ..» ص ٢٤. ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى تعمد فيها إماطة اللثام عن خوائهم وأقنعتهم الكاذبة، بل كررها فى غير مكان وموقف، كما فعلها مع عمدة إحدى قرى وسط الدلتا الذى ضبطه متلبسا بالكذب فى حواره مع المذيعة، فقرّب الكاميرا من وجهه وعينيه الصغيرتين الضيقتين» فعرفت أنه يكذب. يكذب بصدق ماهر يبدو أنه اعتاد عليه طويلا» ص ٣٣، ولم يتوان عن إعطاء الكلمة لامرأة نحيلة شاحبة الوجه فى نحو الخمسين، لتقول الحقيقة التى ينتهك شرفها العمدة بكل وقاحة وبجاحة، وترك وجهها «يملأ الشاشة المحايدة الميتة .. يملأ عينى الدميمة القبيحة التى لاترى ولاتعرف ولاتفعل شيئا» ص ٣٤.


حمدى الجزار

وعلى هذا النحو، استطاع «حمدى الجزار» باقتدار أن ينزع القشرة الخادعة التى تتدثر بها الصورة فى ادعائها حرية النطق بالحقيقة، وحق تمثيلها «الزائف بالطبع» للواقع، كوسيلة عصرية لتسويق المعايير والسلوكيات، وللتنميط الاجتماعى، بعد أن جـقـقت وسائط الإعلام دمجا تاريخيا بين عالم الاتصال والقطاع السمعى - المرئى والمعلوماتية، واستطاعت أن تخلق مايدعى الـ Telea-gora أى مواطنة من نوع جديد.

أجل .. يفعل «ناصر عطا الله» ذلك، بذات اليقين الداخلى الذى دفعه وهو بعدُ غض طرى ليكون «ماكينة تصوير فتحت خط إنتاج سريع فى حارات وعطفات السيدة زينب» فى مقابلة كشفت ربما عن علاقة بالمكان حدت به إلى استبدال الزيغ بالحقيقة، والتبعية والاغتراب بروح الانتماء الأصيلة وحرارة الرغبة فى تجاوز واقع مكبل .. وذلك على نحو ما تقودنا إلى فهمه كلماته الدالة «لست مثل مثقفى اليوم، أتحدث عن السياسة والفاقة والأزمة الاقتصادية والفساد، والديكتاتورية والعولمة والقطب الواحد والإرهاب، وإحساس الناس بالهزيمة والفشل والإحباط، ونجوم شبابيك السينما الجدد والهوس بالاستهلاك والسعادة والفردية، ولا أنا أتكلم عن الأشياء الصغيرة والتفاصيل الحميمة والجسد والجنس وموت القضايا «الكبرى» وسقوط الأيديولوجيات وحياد النصوص والكتابة الباردة. الأجدى لى أن أتحدث عن الحرب والقتل والعنف والموت، لأننى لا أتحدث سوى عن العشق .. العشق فحسب» ص ٨٢.. غير أن ناصرا هنا ليس بعدمى .. ولا بمنسحب من واقعه .. ولا بفاقد الاتجاه والطريق .. بل هو امرؤ «يصر على التشبث بالخطأ مقابل كل الآخرين، مقابل العالم كله» على حد تعبيره ص ٨٢. منطلقا فى هذا من وجدان مترع باللايقين، متحرر من الإيمان الأعمى، ومن إلف العادة وسلطان الموروث، مثل «عدم تأكده من معنى كلمة «يحب» هذه أبدا».. ص ١٠٩. ساعيا إلى زمن جديد، قوامه النسبى والواقعى، لا المطلق والسرمدى .. لذا احتفى بـ «فاتن شهدى» كامرأة «تخلو من الزيف والتصنع والتكلف الذى صرت

لا أحتمل التعامل معه في النساء والرجال» ص ٤٦ .. واستطاعت «بإصرار ومثابرة أن تعوض الزمن الذى ولىّ بلا عودة .. خمسة عشر عاما غائمة مهزوزة غير واضحة الأحداث، تقع بين هجرتين: الهجرة الأولى إلى الخليج العربى .. وهجرة عكسية فى الاتجاه المضاد إلى القاهرة، وللأسف كانت القاهرة تستقبل الألفية الثالثة بوجه عجوز نحيلة مريضة، هشة وفقيرة» ص ٤٧. ورأى أن الجنس «أيقونة أيامنا هذه» لايفرض سلطانه سوى لأنه التعبير الأتم الكامل عن خراب حياتنا، حياتنا هنا والآن التى تجعل من المستحيل على الواحد أن يقول شيئا ما، أى شيء عن الجنس» ص ٦٢، ٦٣.. بيد أنه فقدها «فقد فاتن» إثر التقاط صورة فوتوغرافية لها، لم تعجبها، بل رأت فيها وجهة نظر «ناصر» تجاهها، فغادرت المطعم الذى كانا يتناولان فيه الطعام، واختفت!!. وظل يهجس بها وبذكرياته معها، محدسا بأماكن وجودها، مستعيدا .. حالما بلقاءاته معها .. لكنها لم تعد، ولم تظهر ثانية فى حياته .. وظلت كسائر شخصيات الرواية تطاردها لعنة العجز واللا اكتمال وعدم القدرة على التواصل الحى المستمر «مثل موت لمياء زوجة «باسم» خطأ فى حادث غير مقصود، وانسحاب «باسم» إلى ذاته وهجره شقته فى «مصر الجديدة» لينتقل إلى «الحرّانية»، حيث مرسمه وانطواؤه .. ضجر «فاتن» بصحبة المرضى وهجرها مهنة الطب .. خشيته من ظهور أخيه «مأمون» فى حياته فجأة، فيوقظ خوفه ورعبه القديم منه» فى ظل واقع معتل .. تنوشه التناقضات، وتحدد توجهاته مواضعات برجماتية رديئة، دفعت الزوج أن يقول لزوجته «فاتن»: «النقود لاتصنع السعادة، إنها تصنع الحياة » ص ٨٨ .. وأن يقول «ديدييه» لـ «فاتن» وهو يبيع لها أريكة عربية من الأرابيسك والصدف: «أنت تعجبينني أكثر من الكنبة» ص ٩٢ !! .. أو أن تعد «فاتن» علاقتها بـ «ناصر» ضرباً من التواصل الروحى؛ فلا يروق له المعنى ولا يستطيبه، ويرى فيها «توقعاً، حدساً بدائياً به يعرف الذكر موقع أنثاه» ص ١٢٨ .. أو أن يكتسب الجنس «فى هذه الأيام شكل السلعة» ص ١٣٥ إلخ..

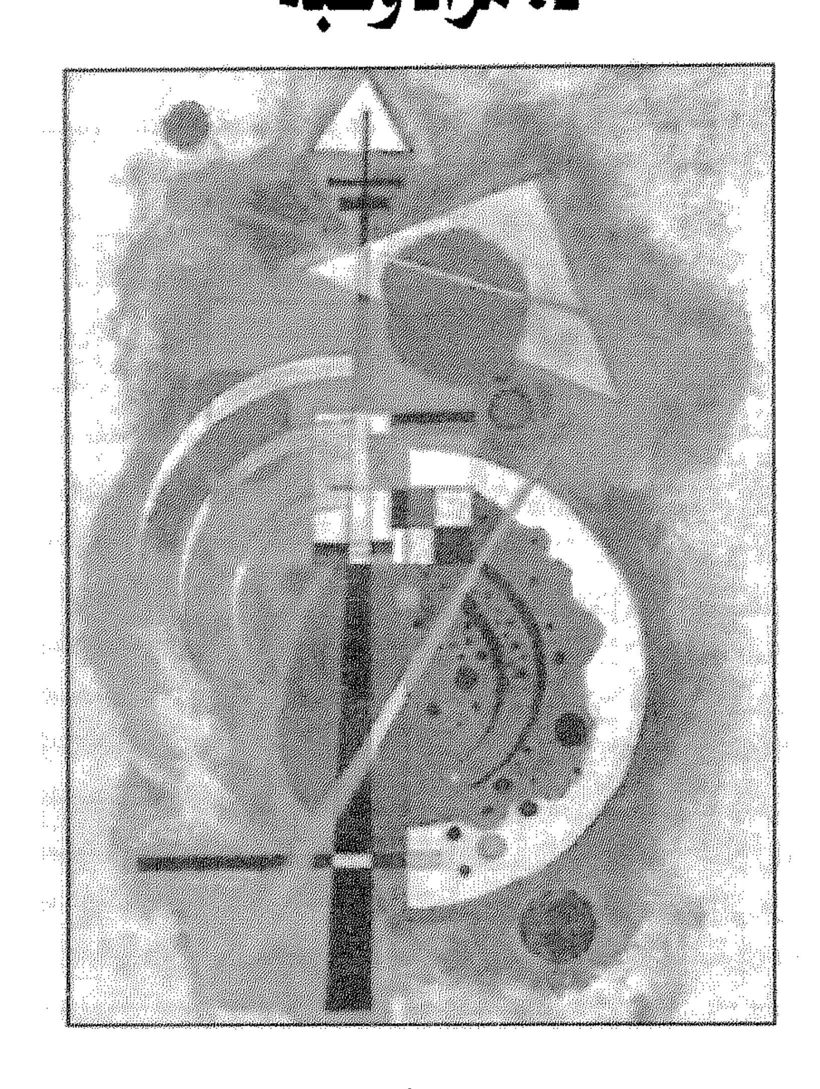
حقاً .. إنها شخصيات تعيش آمالاً مهدورة .. وأحلاماً مؤجلة .. فى ظل واقع شحيح يضن بالفرح وبالسعادة .. لكنها .. ويا للمفارقة المؤسية – تبدأ باكتناه الذات، وتنتهى برفض العالم .. دونما قدرة على التغيير الذى يتيح لروحها فسحة بلاحدود .. فظلت مكبلة ..مشلولة، لاتملك بديلا ولا مشروعا متكاملا يعينها على التجاوز والتخطى.

تحية لـ «حمدى الجزار» ولروايته الجميلة .. الآسرة .. ولغته التى قُدت من الألم والشعر معا .. الألم بمعناه الإنسانى النبيل، والشعر الذى يمتح من نبع صاف رقراق .. فيسافر بعيدا فى سويداء قلق داخلى لاينى يحايث أبطاله، ويشكل دراما تحولاتهم، فيقف على مجالى الأزمة المجتمعية الراهنة، ولا يقينية الأنماط السائدة للخطاب والتواصل، وهى تعيش مفارقات واقعها الخشن والفظ، بلغة جارحة .. متمردة .. لا تكف عن البحث عن المعنى، ومواجهة زمنها التاريخى المسكون بالتناقض والتنوع.

كتاب في مجلة

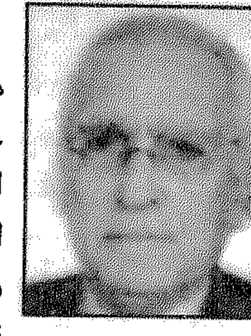
الفلسفة في شمال إفريقيا

د. مراد وهبة



الفلسفة في شمال إفريقيا

د. مراد وهبة □



في كتابه المعنون «صعود وسقوط الإمبراطورية الرومانية» يتحدث جيبون عن النهاية المأساوية للفيلسوفة المصرية «هيباتيا». يقول إنها كانت تعلم الفلسفة اليونانية فارتأت أن ليس ثمة تناقض بين الأفلاطونية الجديدة والمسيحية، ولهذا تبنت نظرية «نسطور» في أن المسيح له طبيعتان، طبيعة إلهية وطبيعة إنسانية. والجدير بالتنويه أن هذه النظرية قد أدانها مجمع أفسس في عام ٤٣١، وأدانت صاحبها «نسطور» بأنه هرطيق، وبالتالي حلت اللعنة على «هيباتيا» باعتبارها من أتباع نسطور. وفي عام ٤١٥ قتلها بعض الرهبان بطريقة بشعة. وذلك بأمر من البابا كيرلس بطريرك الإسكندرية.

وفي عبارة موجزة يمكن القول بأن الفلسفة في مصر انتهت في النصف الثاني من القرن الخامس. أما في أوروبا فقد ظهرت «هيباتيا» لأول مرة بسبب شهرتها في مجال الإشكاليات الدينية والفلسفية، وكان ذلك في القرن الثامن عشر المعروف بعصر التنوير. وفي عام ١٧٢٠ نشر «جون تولاند» مقالا تاريخيا مطولا عنوانه «هيباتيا» ركز فيه على كهنة الإسكندرية برئاسة البطريرك البابا كيرلس المدبر لهذا الفعل المرعب وهو قتل هيباتيا من قبل الكهنة الذين قاموا بتنفيذ غضبه المتعصب.

أما «فولتير» فقد استعان بصورة «هيباتيا» للتعبير عن اشمئزازه من الكنيسة ومن الدين الموحى. ففي رأيه أن قتل «هيباتيا» مردود إلى تفكيرها العقلاني وثقتها في قدرات العقل الإنساني عندما يتحرر من الدوجما، أي المعتقد المفروض عليه (١). هذا الرأي وارد من القرن الثامن عشر.

أما في القرن العشرين ففي كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» اقتبس «برتراند رسل» وصف جيبون لقتل «هيباتيا» وقال معلقا بامتعاض أن الإسكندرية، بعد هذا الحادث، خلت من متاعب الفلاسفة» (٢).

وفي القرن الثاني عشر حدث في قرطبة بأسبانيا في عام ١١٩٨ حادث أكثر مأساوية من حادث «هيباتيا» حيث اتهم الفيلسوف الإسلامي ابن رشد بالإلحاد، فأحرقت مؤلفاته ونفي إلى قريته أليسانه. وكان مفهومه عن التأويل هو سبب هذا الاضطهاد. قال :

□ كاتب ومفكر



ابن رشد





فولتير

«إن كان المعنى الظاهر للشرع مخالفا لما أدى إليه البرهان فيه طلب تأويله مجازيا. وإذا كان هذا هكذا فإن أدى النظر البرهانى إلى نحو ما من المعرفة بموجود ما فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه فى الشرع أو نطق به، فإن كان مما سكت عنه فلا تعارض هناك وهو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعى، وإن كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ذلك النطق أن يكون موافقا لما أدى إليه البرهان فيه أو مخالفا، فإن كان موافقا فلا قول هناك وإن كان مخالفا طلب هناك تأويله. ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية».

وأظن أن هذا التعريف للفظ «تأويل» هو السبب فى اضطهاد ابن رشد لأنه يعطى مشروعية لتعدد التأويلات، وبالتالى يستبعد الوهم بأن الحقيقة مطلقة. وإذا استبعد هذا الوهم فلا أحد له الحق فى اتهام الآخر بأنه كافر، وبالتالى يتم استبعاد الإجماع وما يتبعه من دوجماطيقية. وتأسيسا على ذلك أصبح ابن رشد هامشيا فى الثقافة الإسلامية، أو بالأدق تم اهماله. أما فى أوروبا فقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية والعبرية فى القرن الثالث عشر بقرار من فردريك الثانى. وسبب هذا القرار أن هذا الإمبراطور قد نشأ فى مجتمع تبزغ فيه ثقافة جديدة هى الثقافة العلمانية، وبالتالى أدت فلسفة ابن رشد دورا حاسما فى بزوغ حركتين متكاملتين. الحركة الأولى هى الإصلاح الدينى الذى قاده لوثر وكان شعاره «البحث الحر فى الإنجيل». ويمكن القول بأن هذا الشعار هو خلاصة لعبارة ابن رشد، وهى أن الإجماع ليس ممكنا عند تأويل القرآن.

وقد أدين كل من لوثر وابن رشد بالهرطقة بسبب تماثل موقفهما. وأعلن

جان دى جاندون الفرنسي، (١٢٧٥ - ١٣٢٨) والذى كان معارضا سياسيا للبابوية، أن ليس ثمة اعتقاد سوى العقل والتجربة. ثم أيد النظرية القائلة بأن ثمة تمايزا بين المستويات الفلسفية والدينية فى الخطاب الذى تبناه الرشديون اللاتين فى القرن الرابع عشر. وأضاف رفيقه فى السياسة مارسيل دى بادو تمايزا بين العقل والإيمان، وبين الزماني والروحاني، وبين الكنيسة والدولة فى مجال السياسة. وفى إطار هذا التمايز ارتأى أن أساس السياسة ينبغى أن يكون علمانيا وليس دينيا.

عصر العقل

أما الحركة الثانية فهى التنوير أو عصر العقل، أو سلطان العقل. ففى منتصف القرن الثامن عشر تحدى الفلاسفة نظريات التاريخ وطبيعة الإنسان وطبيعة الكون التى كانت تدعو إليها كنيسة روما. وكان كانط ينظر إليه على أنه الفيلسوف الذى أوجز منجزات التنوير. فقد أعلن فى كتابه المعنون «نقد العقل العملى» أن مفهوم الواجب يمتنع تحديده من العالم المادى المكون من الظواهر المدركة. وهذا القول يتضمن رفض إحالة الواجب إلى السلطات الدنيوية، كما يتضمن مفهوم العقد الاجتماعى المضاد لنظرية الحق الإلهى للملوك، وللتدليل على أن سلطان العقل هو المصدر النهائى لسلطة الأخلاق. وكان ابن رشد هو الممهد لهذه الرؤى.

بيد أن انتشار أفكار هاتين الحركتين لم يكن بالأمر الميسور للرشديين، إذ واجهوا صراعا مريرا، وبالأخص فى الجامعات الأوروبية. فقد أصدر ألبرت الكبير كتابا عنوانه «وحدة العقل ضد الرشديين» كما أصدر توما الأكوينى كتابه المعنون «ضد الرشديين». ومن ثم أدينت الرشدية فى عام ١٢٦٥ على أنها هرطقة. وفى ديسمبر عام ١٢٧٠ حرم أسقف باريس إيتين تامبييه خمس عشرة نظرية، منها ثلاث عشرة ذات توجه رشدى. وأكتفى هنا بذكر ثلاث نظريات عن فناء الروح، ووحدة العقل الفعال، وإنكار العناية الإلهية.

رفض تام

والآن، ماذا حدث فى العالم العربى فى شأن ابن رشد ؟

كما ذكرت آنفا، رفض تام له حتى من قبل المصلحين المسلمين من أمثال محمد عبده. ورفض للعلمانية، التى هى من أهم ملامح عقلانية ابن رشد، من قبل المفكرين المسلمين. وهذا الرفض هو صدى للاستجابة الجماعية فى العالم العربى التى يمكن تصنيفها إلى ثلاث : السلفية والتحديث المجهض والحداثة المعتدلة.

إن السلفية تعنى اتجاها سلبيا نحو الحضارة الغربية ولأية رؤية مستقبلية لأن العصر الذهبى مطروح فى الماضى وليس فى المستقبل. والتحديث المجهض هو اتجاه ايجابى نحو الغرب، ولكنه فى الوقت نفسه محكوم بالتراث. إنه ليس أكثر من



محمد عبده



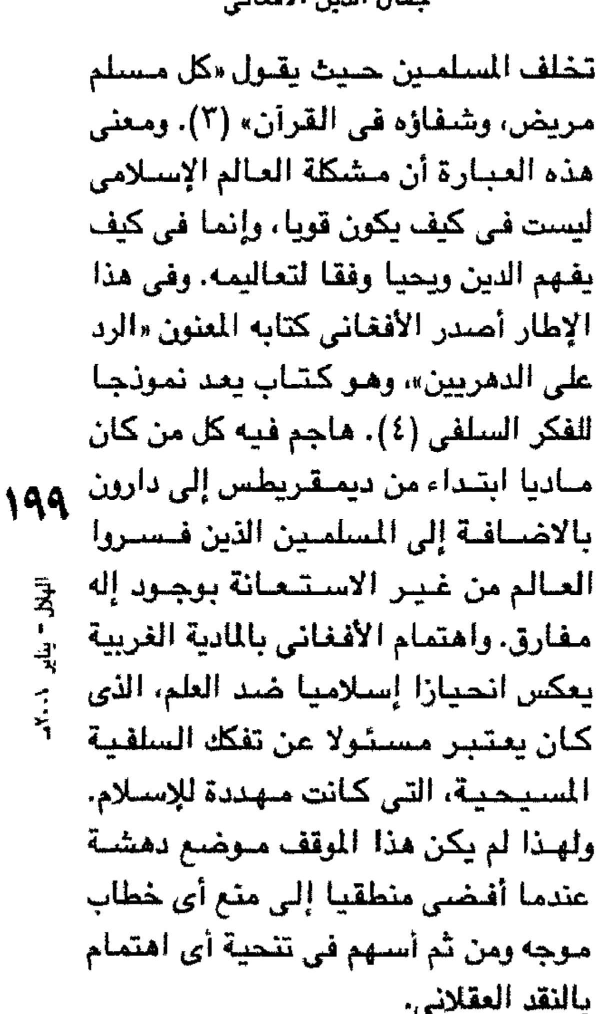
جمال الدين الأفغاني

أن يكون سلفية مستنيرة، وهذا هو السبب فى أن التحديث المجهض، سواء فى مقدماته أو فى نتائجه، معارض للعناصر العلمانية الكامنة فى التحديث الاجتماعى وليس فى السلفية. أما الحداثة المعتدلة فهى علاج مقترح للشرطين اللذين أشرنا إليهما وهما يختصان بالعقل، ذلك أن هذه الحداثة تؤول التراث فى إطار علمانى خال من المحرمات الثقافية.

من مشاهير الحركة السلفية إثنان هما : جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥). ولكن ينبغى التنويه، منذ البداية، بأن هذه الحركة لم تضع العقيدة موضع التساؤل، إذ كانت مهمتها الأولى مواجهة تحدى الغرب للعالم العربى، وذلك بتدعيم العقيدة الإسلامية وليس نقدها نقدا عقلانيا.

كيف نفهم الدين ؟

وكان الأفغانى واضحا فى تعبيره عن



تخلف المسلمين حيث يقول «كل مسلم مريض، وشفاؤه فى القرآن» (٣). ومعنى هذه العبارة أن مشكلة العالم الإسلامى ليست فى كيف يكون قويا، وإنما فى كيف يفهم الدين ويحيا وفقا لتعاليمه. وفى هذا الإطار أصدر الأفغانى كتابه المعنون «الرد على الدهريين»، وهو كتاب يعد نموذجا للفكر السلفى (٤). هاجم فيه كل من كان ماديا ابتداء من ديمقريطس إلى دارون بالاضافة إلى المسلمين الذين فسروا العالم من غير الاستعانة بوجود إله مفارق. واهتمام الأفغانى بالمادية الغربية يعكس انحيازا إسلاميا ضد العلم، الذى كان يعتبر مسئولا عن تفكك السلفية المسيحية، التى كانت مهددة للإسلام. ولهذا لم يكن هذا الموقف موضع دهشة عندما أفضى منطقيا إلى منع أى خطاب موجه ومن ثم أسهم فى تنحية أى اهتمام بالنقد العقلانى.

وهكذا صاغ الأفغانى الاتجاه العام نحو السلفية ولكن محمد عبده هو الذى حدد هذه الصياغة بدقة متأثرا فى ذلك بتعاليم الأفغانى باعتبارها أداة القفز نحو هذه الدقة. وتضمنت هذه المهمة مسألتين: المسألة الأولى خاصة بإعادة الإسلام إلى نحو ما كان فى الماضى. والمسألة الثانية خاصة بتطبيق هذا الإسلام على المجتمع الحديث. فيما يختص بالمسألة الأولى كان رأى محمد عبده أن على العقل قبول كل ما هو وارد فى القرآن بلا تردد. فبمجرد اعتراف العقل بالنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) يلزم الاعتراف بكل ما ورد فى رسالته النبوية. والمسألة الثانية لازمة من المسألة الأولى. إذا كان العقل محكوما بالقرآن فالمجتمع المثالى ينبغى أن يكون خاضعا لأوامر الله لأن هذه الأوامر هى أيضا مبادئ تنظيم المجتمع الإنسانى. والسلوك الذى نتعلمه من القرآن لإرضاء الله ينبغى أيضا أن يكون نفس السلوك الذى يعلمنا إياه الفكر الاجتماعى الحديث ليكون مفتاح التقدم. إن الإسلام هو علم الاجتماع على الأصالة، وهو علم السعادة فى هذا العالم وفى العالم الآخر. وهكذا يتقدم المجتمع بطاعة الشرع وينحل برفض هذا الشرع.

رفض للمجتمع العلماني

أما عند محمد عبده فذلك المجتمع ليس هو المجتمع المثالى وإنما هو مجتمع كان قائما فى الماضى. وقد تصلب خياله عند هذا العصر الذهبى للإسلام. وهذا هو السبب فى رفضه للمجتمع العلمانى. ودليلنا على ذلك الجدل الذى دار بينه وبين فرح أنطون بمناسبة نشر هذا الأخير لكتابه المعنون «ابن رشد وفلسفته» (١٩٠٣). ويوجه الإهداء إلى عقلاء الشرقيين فى الإسلام والمسيحية وغيرهما، ويقصد أولئك العقلاء فى كل ملة وكل دين فى الشرق، الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين فى عصر كهذا العصر فصاروا يطلبون وضع أديانهم جانبا فى مكان مقدس محترم ليتمكنوا من الاتحاد اتحادا حقيقيا ومجاراة تيار التمدن الأوروبى الجديد لمزاحمة أهله وإلا جرفهم جميعا وجعلهم مسخرين لغيرهم»(٥).

ثم يستطرد متسائلا : لماذا أكتب عن ابن رشد ؟

ويجيب قائلا : لفصل ما هو زمانى عن السلطة الدينية. وهذا الفصل ضرورى لأسباب خمسة، وأهمها السبب الثالث: الذى يقرر أن السلطات الدينية تشرع للحياة الأخرى، ولذلك فهى تصطدم مع الهدف الذى تتبناه الحكومة وهو التشريع لهذا العالم الدنيوى. وهذا السبب يفترض أن الدولة ينبغى أن تكون محايدة أمام الأديان، وبالتالى تكون متسامحة. وهو الأمر الذى يعارضه محمد عبده لسببين السبب الأول : أن فصل الدين عن الدولة ليس فقط غير مرغوب بل هو أيضا أمر محال لأن الحاكم ينبغى أن يكون منتميا لدين معين. والسبب الثانى : أن الدين يشترط تنقيته، وفى هذه الحالة يمكن أن

تشارلز داروين

فردريك الثانى

يكون أساسا للحياة السياسية. وكان جواب «أنطون» أن الدول لم يعد أساسها الدين بل الوحدة الوطنية والعلم الحديث والتكنولوجيا. ومع ذلك فقد هيمنت فلسفة محمد عبده مع صعود الإخوان المسلمين بقيادة حسن البنا (١٩٠٦ - ١٩٤٩) الذى هو مبدع الأصولية الإسلامية فى مصر فى الأربعينيات من القرن الماضى.

والآن ننتقل إلى الحركة الثانية وهى الحداثة المجهضة وأهم روادها: يوسف كرم (١٨٨٦ - ١٩٥٩) وعثمان أمين (١٩٠٥ - ١٩٧٣)، وزكى نجيب محمود (١٩٠٥ - ١٩٩٣)، وعبدالرحمن بدوى (١٩١٧ -)، ومالك بن نبى (١٩٠٥ - ١٩٧٨)، ومحمد عزيز الحبابى (١٩٢٣ - ١٩٩٣).

نبدأ «بيوسف كرم» الداعية للعقلانية المعتدلة. ألف ثلاثة كتب عن «تاريخ الفلسفة اليونانية» و«تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط»، و«تاريخ الفلسفة الحديثة» مع تعليق على كل مذهب فلسفى إما بالرفض أو التأييد فى ضوء مذهبه الفلسفى الذى يسميه «العقلانية المعتدلة» المطروح فى كتابيه «العقل والوجود»، و«الطبيعة وما بعد الطبيعية».

والعقلانية المعتدلة، لدى يوسف كرم، تعكس تأثره «بجاك ما ريتان الذى تتلمذ له فى المعهد الكاثوليكى فى فرنسا مع بداية الحرب العالمية الأولى. فمذهبه يدور على أن العقل يتجه إلى الحقيقة وهو لهذا يقتنص اليقين. فالعقل قادر على إدراك ماهية الأشياء بسبب قدرته على التجريد، الذى هو وسيط بين العقل والوجود. وهذا هو الضامن للموضوعية العلمية. ولهذا فإن يوسف كرم ضد الحسيين، لأنهم يحذفون العقل ولا يعتقدون إلا فى الحواس. ولكنه أيضا ضد العقليين الذين ينكرون التجريد لأنهم يفشلون فى معرفة العلة الحقيقية التى توحد بين العقل والأشياء.

خلود النفس

والتجريد تبرير لتأسيس الميتافزيقا، إذ بفضله يتجاوز العقل الطبيعية الحسية إلى أصولها غير الحسية، ومن ثم يتجه إلى الموجود فى ذاته موضوع الميتافزيقا. وإذا كان ذلك كذلك فإن العلم، من هذه الزاوية، يفضى بيوسف كرم إلى أبحاث تنتهى به إلى براهين خلود الروح ووجود الله.

خلود الروح له براهين ثلاثة : الأول: برهان ميتافزيقى ويستند إلى أن الروح لها وجود وفعل مستقلان عن البدن. ويقصد بالوجود العقل وبالفعل الإرادة. ولهذا فإن الروح خالدة ولا تفنى بفناء البدن. والثانى: برهان نفسى مشتق من الميل الطبيعى نحو البقاء الأبدى.

والثالث : برهان أخلاقى لازم من ضرورة وجود عقاب نهائى لأفعالنا الحرة. وهذا العقاب يستلزم حياة أخرى لأنه لا يمكن أن يتحقق فى الطبيعة لأنها ليست إنسانية، ولا يمكن أن يتحقق فى المجتمع لأن المجتمع لا يهتم إلا بالأفعال الظاهرة، ولا يمكن أن يتحقق فى الضمير لأن الضمير لا يمكن أن يقاضى نفسه.

والله موجود وبراهين وجوده متعددة، وأهمها ثلاثة : برهان من الحركة إلى المحرك الدائم، ومن النظام إلى المنظم، ومن الممكن إلى الضرورى.. والبرهان الثالث مثل البرهان الأول يستند إلى مبدأ العلية وصياغته لكل موجود علة. والبرهان الثانى يعتمد على مبدأ الغائية وصياغته لكل فعل غاية بالضرورة. ويوسف كرم يرى أن مبدأى العلية والغائية هى مبادئ العقل، ومبادئ العقل كلية.

العقلانية المعتدلة

وعند يوسف كرم العقل وظيفته الحكم وليس الفعل لأن الفعل من شأن الإرادة، والعلاقة بين العقل والإرادة تكمن فى أن كلا منهما علة، والعلة لها علاقة بالحكم. ومع ذلك فهما متباينان من حيث إن الإرادة علة فاعلة فى تكوين العقل للحكم، لأنها هى التى توجه العقل فى اتجاه معين. وحكم العقل هو العلة الغائية للإرادة لأنها هى التى تقدم للإرادة علة معينة. وتوجيه الإرادة للعقل هو الذى يمنع التصادم بين العقل والدين لأن الإرادة وليس العقل هى التى تدعم الإيمان. يقول يوسف كرم : «إذا كان سلوك الإنسان مستقيما وحاسما فإرادته مهيأة للإيمان، وهى التى ستوجه العقل نحو إيجاد سند لعقيدة بعينها».

ومغزى هذه العبارة أن العقل من حيث هو كذلك لا يقبل أو يرفض عقيدة بعينها، أى لا ينجذب نحوها، إنما العقل موجه نحو عقيدة معينة عندما يقبل أسبابا خارجية تحت تأثير الإرادة. والنتيجة الحتمية لهذه «العقلانية المعتدلة» هى أن الإيمان مجاوز للعقل.

أما «عثمان أمين» فهو يدعو إلى «فلسفة الجوانية» (٦). وهى فلسفة تحاول رؤية البشر والأشياء من الزاوية الروحية، أو بعبارة أخرى هى فلسفة تحاول رؤية



زكى نجيب محمود



د. عثمان أمين

العالم غير المرئى بتجاوز ما هو مرئى. إنها تبحث عن الوجود الجوانى ولا تقف عند البرانى.

وثمة أحاديث نبوية تؤكد هذا التعارض بين المرئى وغير المرئى، «إن الله لا ينظر إلى وجوهكم وثروتكم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وأفعالكم». (أمين، ١٩٧٣). ومن هذه الزاوية الدينية الجوانية مرادفة للحرية لأن الحرية لا تقوم فى امتلاك الأشياء مثل الثروات والشرف ولكن فى الروح، أى فى شئ مستقل استقلالا مطلقا، أعنى الإيمان بالله واحترام الإنسان. وفى هذا الإطار يربط عثمان أمين بين الفلسفة الغربية والتراث الإسلامى. يقول : «والآن نعود إلى التفسير الفلسفى للجوانية. ومن هذه الزاوية فإن مين دى بيران معين لنا؛ إذ يقول لنا إن ثمة فارقا بين معرفة الحقيقة بالعقل، وأن تكون حاضرة دائما فى نفوسنا» (أمين، ١٩٧٣). ثم يستطرد قائلا: «إن فلسفة الجوانية تتبنى التفرقة التى اصطنعها برجسون بين طريقين من طرق المعرفة أحدهما هو طريق الرؤية الجوانية، أى اختراق الروح بالتعاطف العقلى. والآخر هو طريق الرؤية الخارجية مستعينة بشهادة الحواس أو بالتحليل المنطقى وحده».

مفهوم الحرية

أما عن مفهوم الحرية فيرى عثمان أمين أنه وارد فى الأخلاق الديكارتية التى تنشد تحكم النفس فى الشهوات، وفى فكرة كانط عن القانون الخلقى الذى هو جوانى وسابق على التجربة، أى أنه شرط لكل تجربة وليس مشتقا من العالم الخارجى.

وبسبب اتجاهه المثالى فإن عثمان أمين ضد الوضعية المنطقية وضد المادية التاريخية. هو ضد الوضعية المنطقية لأنها

تقف عند الحواس والتجربة، وتنكر أصالة العقل. وهو ضد المادية التاريخية لأنها تستعين بالعلم للقضاء على الإنسان، وبالتالى على الدين لأن الإنسان، فى تعريف عثمان أمين، حيوان دينى.

والنتيجة المحتومة بعد ذلك مواجهة المسائل الاجتماعية ليس فقط مواجهة مثالية، بل أيضا مواجهة دينية. وهو يتخذ من الاشتراكية مثالا لهذه المواجهة المزدوجة، فالمواجهة المثالية تقضى بأن الاشتراكية فكرة أولا، أى حقيقة مطلقة موجودة فى عالم الأذهان وجودا غير شخصى، وغير مقيد بقيود الزمان والمكان. أما المواجهة الدينية فتقضى بأن اللازمانى أو اللامكانى لا يصلح أن يكون نظرية أو أيديولوجيا أو خاضعا لقانون، بل إنه يصلح أن يكون موضوعا للعقيدة الدينية. ومن ثم فالاشتراكية إسلامية وروادها : جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، والكواكبى، ومحمد إقبال. فهؤلاء جميعا هم الذين أيقظوا الوعى الاشتراكى فى المجتمع.

والغاية من وراء هذا المذهب الفلسفى، على حد تعبير صاحبه محاولة أن يعيد إلى العصر الذرى، عصر المادية التاريخية والوضعية المنطقية، الإيمان بالله والولاء للإنسان، غير أن محاضرات عثمان أمين بالجامعة لم تكن تخلو واحدة منها من توجيه النقد للوضعية المنطقية دون المادية التاريخية. وتفسير ذلك أن الوضعية المنطقية لها من يمثلها فى قسم الفلسفة، وهو زكى نجيب محمود.

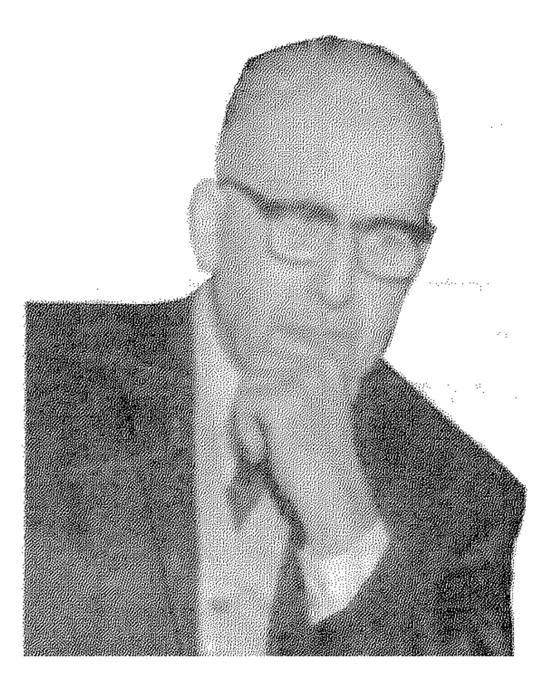
مفهوم العلم

و«زكى نجيب محمود» يتبنى وجهة نظر الوضعية المنطقية فى مفهوم العلم، فالعلم، عنده، هو العلم الطبيعى التجريبى، ووسيلة المعرفة العلمية هى الحواس، وليس لنا من مصدر سواها. والنظرة العلمية تقتضى من صاحبها ألا يجاوز «أوضاع» الأمور الواقعة. ولما كان «وضع الأمور» فى عالم الواقع هو وحده مجال البحث العلمى أطلق على النظرة العلمية اسم الوضعية، فإن كان «الوضع» القائم الذى يشغل الباحث عبارة من عبارات اللغة كانت الوضعية، فى هذه الحالة «وضعية منطقية». ومن ثم كان اسم الوضعية المنطقية مميزا لطائفة من أصحاب الفكر صمموا على ألا يجاوزوا الواقع بنظرهم، وعلى أن يكون هذا الواقع الذى يختصوه به، هو اللغة التى يصوغ فيها سائر العلماء علومهم على اختلاف موضوعاتها. ومن ثم فإن أمر الفلسفة ينبغى أن يقتصر على التحليل اللغوى للعبارات العلمية.

وثمة نتيجتان هامتان يخلص إليهما زكى نجيب محمود من هذا التحليل اللغوى. النتيجة الأولى أن التحليل المنطقى للجملة الرياضية يبين أنها تحصيل حاصل، وأن يقينها مردود إلى أنها لم تقل شيئا. يقول «ومغزى هذا الكشف العجيب عن طبيعة الجملة الرياضية هو أنه لم يعد ما يبرر لنا القول بأن للإنسان مصدرا



عبد الرحمن بدوى



مالك بن نبى

يستقى منه العلم غير حواسه. ولم يعد ما يبرر تصور عنصر وراء الحواس ومستقل عنها وهو العقل». والنتيجة الثانية أن القيم «تعبير ذاتى صرف لا شأن له بالعالم الخارجى»، ومغزى ذلك أنه إذا اختلف اثنان فى حكم تقويمى «فلا سبيل إلى الرجوع إلى مقياس خارجى لنقرر به أيهما مصيب وأيهما مخطئ».

والسؤال الآن :

ما هو دافع «زكى نجيب محمود» إلى تبنى هذا التأويل لمفهوم العلم ؟

فى رأينا أنه دافع اجتماعى. ففى كتابه «تجديد الفكر العربى» يقول إن غايته هى التوفيق بين التراث العربى والحداثة. ولكن ما معنى التراث العربى ؟ فى رأيه يعنى جملة التكنيكات التى كان يحيا عليها أسلافنا. وتبقى مهمتنا، بعد ذلك، محصورة فى انتقاء التكنيكات التى تساعدنا فى حياتنا المعاصرة، ومن ثم لا يكون التراث العربى مسألة أيديولوجية وإنما مسألة تكنولوجية (٧).

والسؤال الآن :

ماذا يعنى التحديث ؟

إنه، فى رأى زكى نجيب محمود، الوضعية المنطقية «التى تمثل روح الحداثة. وهذا هو السبب الذى من أجله يميز زكى نجيب بين حكم الواقعة وحكم القيمة. الأول علمى والثانى ليس كذلك، وبالتالى فليس فى إمكاننا الحديث عن تناول علمى لدراسة التغير الاجتماعى لأن هذا التغير مسألة خاصة بالقيم ومن ثم فالأيديولوجيا ليست علمية كذلك، ومن العبث بعد ذلك الحديث عن صراع أيديولوجى. وهو لذلك يرى إحلال مصطلح «مجتمع تكنولوجى» أو «مجتمع ما بعد الصناعى» «بديلا عن «مجتمع رأسمالى» أو «مجتمع اشتراكى».

وقد حدد هذا المفهوم التيار الرئيسى

فى الأيديولوجيا البرجوازية الحديثة والذى أطلق عليه اسم «نفى الأيديولوجيا»، وهو محاولة لنشر حالة ذهنية لا سياسية لا تكترث بالتغير الاجتماعى أو المجتمع. ولهذا كان زكى نجيب متسقا مع فلسفته عندما قال فى كتابه المعنون «أيام فى أمريكا» (٨)، «وأنا بحكم اتجاهى الفكرى أرحب بكل ما يقوى فردية الفرد وكل ما يهدم المجتمع إن كان تماسك المجتمع على حساب الأفراد، وكل ما عدا ذلك ما هو إلا وسائل لتقوية ذلك الوجود»، وهذه العبارة تؤيد وجهة نظره فى أن نفى الأيديولوجيا هو سلاح أيديولوجى موجه ضد التغير الاجتماعى.

الطفرة

وإلى مثل هذه النتيجة ينتهى عبدالرحمن بدوى، ولكن من خلال الوجودية الملحدة. فعنده أن طبيعة الوجود من طبيعة الزمان. يقول فى كتابه «الزمان الوجودى». «إننا نقرر هنا فى صراحة تامة وبلا أدنى مواربة أن كل وجود غير الوجود المتزمن بالزمان وجود باطل كل البطلان»، ولما كان الزمان، عنده نوعان : زمان فزيائى وزمان ذاتى، فالوجود كذلك نوعان : وجود فزيائى ووجود ذاتى.

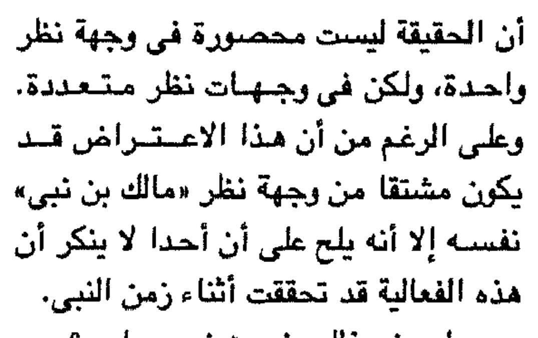
الوجود الفزيائى : هو وجود الأشياء فى العالم الذى يوجد به الإنسان، والوجود الذاتى : هو وجود الذات المفردة، وهو وجود مستقل بنفسه فى عزلة تامة. ولهذا فالاتصال معدوم بين الذوات، ولكن يمكن اجتياز ما بينها من هوة بواسطة الطفرة، أما كيف تفسر الطفرة فسؤال لا يمكن أن نجيب عنه بطريقة معقولة، فى رأى بدوى، لأن الطفرة لا تفهم إلا بفضل فكرتين : اللامعقول واللاعلية. تفصيل ذلك: إن العدم عامل جوهرى فى تركيب الوجود، واللامعقول هو التعبير الفكرى عن العدم الوجودى. والفزياء الحديثة تقرر فكرة اللا معقول هذه. فظاهرة التأثير عن بعد شئ لا معقول، أى غير قابل للرد إلى عناصر معقولة خالصة. أما اللاعلية فمقررة كذلك فى الفزياء الحديثة فى نظرية الكوانتم والميكانيكا الموجية. وبدوى هنا يعتمد على فقرة «للوى دى بروى» تقول بأن على الفزياء أن ترفض فكرة الاتصال وتقتصر على استخراج القوانين التى هى إحصائية بالضرورة. ويترتب على ذلك أن معرفة الذات لذاتها لا يمكن أن تتم بالعقل، ولكن بملكة أخرى هى الوجدان. ومنطق الوجدان منطق متوتر. وبدوى يقصد بالتوتر عدم رفع التناقضات. وهذا هو معنى الجدل، مكانه الذات ولا يتعداها، أما خارج الذات فليس ثمة جدل.

وبدوى بعد ذلك يرى أن مذهبه هذا يصلح أن يكون أيديولوجيا للمجتمع العربى - فى بحث منشور له عام ١٩٦٧ - وتبريره لهذه الصلاحية هو التراث الإسلامى ممثلا فى التصوف. فهو يرى أن ثمة علاقة وثيقة بين التصوف والوجودية. فكل منهما يبدأ من الذاتية ويضع الوجود الذاتى فوق الوجود الفزيائى. والتجريد، عند الصوفية، غايته



د. محمد عابد الجابرى





محمد إقبال

التخلص من الآخر حتى لا تبقى إلا الذات وحدها. بل إن فكرة الإنسان الكامل، عند المتصوفة، لا تعنى إلا استقطاب الوجود كله فى الإنسان دون أى كائن آخر، وبذلك تصبح الإنسانية بديلا عن الله، ولكنها الإنسانية على صعيد الذاتية وليس على صعيد الموضوعية.

أما الفيلسوف الجزائرى «مالك بن نبى» فالفكرة المحورية، عنده، هى الدعوة إلى تأسيس مجتمع إسلامى متحرر من الاستعمار، ومواكب للحضارة المعاصرة، وليس ذلك فى الإمكان إلا إذا استعادت الفكرة الإسلامية «فعاليتها»، ولكن ماذا تعنى فعالية الفكرة؟ تعنى القدرة على إحداث انقلاب فى العالم، ومن ثم تعنى القدرة على صناعة التاريخ. وهو يقول إن هذا الضرب من الفعالية قد تحقق فى زمن النبى صلعم، وذلك بخلق إمبراطورية إسلامية وتأسيس الحقيقة الإسلامية. وقد تكون هذه الفكرة موضع اعتراض بدعوى أن الحقيقة ليست محصورة فى وجهة نظر واحدة، ولكن فى وجهات نظر متعددة. وعلى الرغم من أن هذا الاعتراض قد يكون مشتقا من وجهة نظر «مالك بن نبى» نفسه إلا أنه يلح على أن أحدا لا ينكر أن هذه الفعالية قد تحققت أثناء زمن النبى.

ما معنى ذلك عند بن نبى صلعم ؟

معنى ذلك أن الحقيقة ذاتية والفعالية موضوعية، ويترتب على ذلك أن تكون الفعالية مرهونة بتوفر ظروف موضوعية. والظروف الموضوعية ليست متوفرة فى اللحظة الراهنة للفكرة الإسلامية. وعدم توفرها مردود إلى سببين : ظهور الاستعمار وغياب الأفكار.. السبب الأول واضح أما السبب الثانى فغامض وفى حاجة إلى تفصيل. فى رأى مالك بن نبى أن كل حضارة تدور على عوالم ثلاثة : عالم الأفكار وعالم الأشخاص وعالم الأشياء. وعالم الأفكار يأتى فى المقدمة لأن الإنسان يتميز عن الحيوان بالعقل.

ومعنى ذلك أن فكرتنا عن شئ ما تسبق تحقيق هذا الشيء في الواقع. ولهذا فإن الأفكار لديها القدرة على تغيير عالم الأشخاص وعالم الأشياء.

عالم الأفكار

وهنا ثمة سؤال لابد أن يثار : ماهي مكانة عالم الأفكار في العالم الإسلامي في هذا الزمان ؟ جواب ابن نبي أن عالم الأفكار غائب وغيابه مردود إلى عاملين : عامل موضوعي وعامل ذاتي. وعنده العامل الموضوعي هو الاستعمار الذي يدمر طاقات الإنسان الابداعية، وذلك بأن يجعله يحيا في عالم الأشياء بدلا من عالم الأفكار فيرتد إلى مرحلة الطفولة التي تتميز بتناول الأشياء من غير استعداد لفهمها. ولهذا فإن الاستعمار يحرص دائما على أن يبيع لنا الأشياء دون الأفكار. بل حتى إذا قبل الاستعمار أن يبيع لنا الأفكار فهو لن يبيعها إلا بعد تشويهها وتزييفها. أما الإمبريالية من حيث هي عامل موضوعي فليست لها أية فعالية بدون العامل الذاتي الذي هو القابلية للاستعمار من قبل الضحية. وهذه القابلية كامنة في عدم قدرة الإنسان على استثمار قدراته لرفع مستوى معيشته. يقول بن نبي في كتابه «وجهة العالم الإسلامي» أنه لكي نتحرر من آثر الاستعمار يجب أن نتحرر من القابلية لتبني الرأسمالية. ولهذا فعندما تتجاهل الثورة هذا العامل الذاتي فإنها تحكم على نفسها بالفشل.

ولكن كيف تتجنب الثورة مثل هذا الفشل ؟

جواب بن نبي : بالثورة الثقافية. إلا أن هذه الثورة وإن كانت شرطا ضروريا إلا أنها ليست شرطا كافيا. ولكي تحقق فعاليتها عبر الفكرة الإسلامية فلابد من وجود «مفجر اقتصادي» قادر على إطلاق القوى الإنتاجية (٩). ولكن ما هو تعريف هذا «المفجر الاقتصادي» ؟ تعريفه، عند بن نبي، ليس كامنا في النموذج الرأسمالي أو النموذج الماركسي. فماذا هو ؟ ليس لدى بن نبي جواب وهذه معضلته لأنه ليس في الإمكان التحكم في التغير الاجتماعي وتوجيهه بدون فكرة واضحة عما هو مطلوب لإحداث هذا التغير.

والآن أنتقل إلى الفيلسوف المغربي «محمد عزيز الحبابي». لديه تحليل جذري لانحطاط العالم الإسلامي في ضوء الينابيع الأصلية للإسلام، أي القرآن والسنة. وعلى هذا الأساس يدعو الحبابي إلى تغيير عاجل للوضع القائم وما يلازمه من اتجاهات هي في غاية التخلف. كما يدعو إلى العودة إلى الإسلام الأصيل وإلى نبذ الإيمان الأعمى بالنصوص المقدسة، أو بالتقليد، وإلى ضرورة الاجتهاد، أي إعادة النظر في معنى الرسالة النبوية. وفي ضوء هذا المفهوم للإحياء الإسلامي، أي للسلفية يحدد الحبابي التباين الجذري بين السلفية وعصر النهضة في الغرب.

السلفية

يرى الحبابي أن عصر النهضة، في


عبد الرحمن الكواكبى


حسن البنا

الغرب، هو لحظة بتر فى مسار الحضارة؛ إذ تحرر الإنسان من أسلوب التفكير فى العصر الوسيط ليسجن نفسه فى أسلوب التفكير فى العصر اليونانى القديم.. وهكذا تحرك هذا الإنسان خطوة إلى الأمام في مقابل خطوتين إلى الخلف. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن السلفية عادت إلى مصادر الإسلام بدون رفض أية مكتسبات ثقافية جديدة سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية.

وهكذا تتحقق العودة إلى القرآن والسنة لتحرير الدوجما والشرع من الخرافات. إن السلفية هى بحث عن القوة الأصيلة للإسلام، وبذلك تكون عودة خلاقة فى مقابل عصر النهضة الذى كان رد فعل ضد العصر الوسيط. والمفارقة هنا أن التقدم تحقق برد فعل عبر محاكاة فكر اليونان والرومان. أما المسلمون فعلى الضد من ذلك، إذ كان العصر الوسيط، لديهم، هو عصر الإبداع والتأويل الحر فى جميع المجالات. وبهذا المعنى يمكن القول بأن الزواج قد تم بين المقدس والعلمانى. فقد استعار المسلمون كلاسيكيات العصر اليونانى القديم، وبوجه خاص فى الفلسفة والعلوم لا على أنها نماذج كاملة كما كان الحال فى عصر النهضة، ولكن على أنها قابلة للتكيف مع الإسلام (١٠).

وفى نقديرى أن نظرية الحبابى تعانى من ضعف مزدوج. الأول: يكمن فى أن الحبابى لا يتبنى منهجا محددا، والثانى: أنه لا يتناول النتائج الاجتماعية لنظريته. والجدير بالتنويه، ها هنا، أن الحبابى لم يكن فى إمكانه قهر شبح الغرب. ومن المؤكد أن النتاج الدينى للعصر الوسيط الإسلامى ليس فى مقدوره أن يكون مرشدا معقولا لمسلمى اليوم أو الغد على الرغم من ثراء المخزون الفكرى لذلك العصر.

ولهذا كان الحبابى محقا فى القول بأن ضعف المثقفين العرب مردود إلى أنهم

محكومون بأسلوبين فى التناول : السلفية والتلفيقية. ومن شأن هذين الأسلوبين أن يقضيا على البعد التاريخى، إلا أن هذا التفكير اللا تاريخى ليس له إلا نتيجة واحدة : الفشل فى رؤية الواقع. والوسيلة الوحيدة لمجاوزة هذين الأسلوبين تكمن فى الإلتزام الصارم بالتفكير التاريخى وقبول ما ينطوى عليه من فروض وهى على النحو الآتى : وجود قوانين للتطور التاريخى، ووحدة التاريخ وفعالية الدور السياسى للفيلسوف. إلا أن هذه الفروض مرفوضة. ذلك أن السلفى يعتقد فى العناية الإلهية، والتلفيقى منبهر باللحظة العابرة. أما أنا فرأيى أن تبنى التفكير التاريخى ليس بالأمر الميسور، إذ هو يستلزم مرحلة معينة من التطور الحضارى وهى التنوير الذى يعنى تحرير العقل الإنسانى من أية سلطان ماعدا سلطان العقل.

أما عن التوجه الثالث فى الفلسفة الإسلامية الحديثة وهو الحداثة المعتدلة فروادها : الفيلسوف الجزائرى محمد أركون والفيلسوف المغربى محمد عابد الجابرى. يزعم «أركون» أن ثمة ضربين من النصوص : شفهى ومكتوب وهو القرآن. ولكن هذا النص المكتوب لا علاقة له بالوحى. فاللغة المقدسة قابلة للعلمنة. فإذا تم ذلك على وجه السرعة فبها ونعمت. وإذا لم يتم ذلك فقد يتحول النص المقدس إلى ضرب من الآرثوذكسية. وإذا تم ذلك فإن محاولة أى مفكر لعلمنة النص قد تعرضه للاتهام بأنه كافر ومدمر للنظام السياسى. وفى الحالة الثانية يبدو فيه الدين على أنه هو الذى يحكم. ولكن إذا تعمقنا المسألة نجد أن الدين ليس هو الذى يحكم، وأن الحاكم لم يكن خاضعا له. أما إذا تأخرنا فى التعمق فإننا نخدع أنفسنا فى أن معتقداتنا لا تقبل الجدل، وبالتالى نتمرغ فى وحل المعتقدات الخيالية الكامنة فى اللغة الدينية وفى الطقوس.

وتأسيسا على ما يراه أركون نحن أمام ضربين من العقل : العقل الدوجماطيقى والعقل العلمانى. ولكن مهمتنا محصورة فى تحقيق الانصهار بينهما بحيث نقضى على الثنائية الزائفة، وبذلك نؤسس ما يسميه أركون الإنسانية الإسلامية ذات النكهة العلمانية. إلا أن هذا النوع من الإسلام قد أجهض فى القرن الحادى عشر بدعوى أن الإسلام ضد العلمانية بسبب المحرمات الثقافية. ومع ذلك فإن أركون يدافع عن نظريته بقوله إن العلمانية قد بزغت فى عام ٦٦١هـ، أى بعد موت النبى (صلى الله عليه وسلم) بثلاثين عاما. وهكذا لا تناقض بين العلمانية والدين من حيث هو كذلك (١١).

أما «الجابرى» فمستغرق فى تحليل العقل العربى فى إطار التقليد. وهكذا يتناول إشكالية التحديث والأصالة من أجل تأسيس مشروع النهضة لمواجهة التخلف. والمشكلة، فى رأيه، تكمن فى أن الثقافة الإسلامية ليس فى مقدورها إنتاج أشياء



كانط



محمد أركون

جديدة وبالتالى فإبداعاتها نادرة. ومعنى ذلك أن البيئة العربية المعاصرة مرادفة للتقليد، والمفارقة هنا، فى رأى الجابرى، أن العرب هم الشعب الوحيد على وجه المعمورة الذى يتميز بتراث معاصر مع تفكيرهم المعاصر (١٢).

هوامش

* هذا البحث حررته باللغة الإنجليزية بناء على طلب من الناشر الإنجليزى الشهير «بازل بلاكويل» فى عام ٢٠٠٢، لكى ينشر مع بحوث أخرى فى مجلد ضخم تحت عنوان «الفلسفة الإفريقية». وقد صدر عام ٢٠٠٤.

(1) Dzielska M., Hypatia of Alexandria, Harvard Univ. Press,1995, pp. 109-110

(2) Russell B., History of Western Philosophy, LONDON: ALLEN AND UNWIN, 1946, p.368.

(٣) الأفغانى، جمال الدين، الرد على الدهريين، ترجمة محمد عبده من الفارسية، ط٢، القاهرة، الحلبى، ١٩٩٥.

(٤) المخزومى، محمد، أفكار جمال الدين الأفغانى، بيروت، ١٩٣١، دار الكندى، ص٨٨

(٥) أنطون، فرح، ابن رشد وفلسفته، القاهرة ١٩٠٣، ص٣

(٦) أمين، عثمان، الجوانية، القاهرة، دار الكلام، ١٩٦٤.

(٧) تجديد الفكر العربى، دار الشروق، ١٩٧١.

(٨) محمود، زكى نجيب، أيام فى أمريكا، القاهرة، ١٩٥٥.

(٩) بن نبى، مالك، نهضة الاسلام، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٠.

(10) Lahbabi, A., Le Persalisme Musulman, Paris: P.U.F.,1967.

(١١) أركون، محمد، العلمانية والدين، دار الساقى، ١٩٩٣.

(١٢) الجابرى، محمد عابد، التقليد والتحديث، ١٩٩١.

أنت والهلال

العدد الذى أصدرناه فى الشهر الماضى ديسمبر ٢٠٠٦ «العدوان الثلاثى ٥٠ عاما» جعلنا مضطرين وآسفين لتأجيل باب «أنت والهلال»، وهو باب عزيز علينا، لأنه بمثابة همزة الوصل الحقيقية، بيننا وبين القراء، ومنهم أساتذة أجلاء وكتاب يتمتعون بحس أدبى عال.

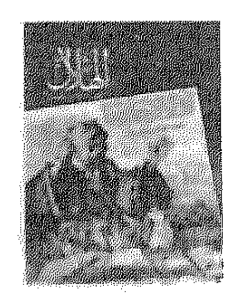
لهذا سنفتح الباب كله لرسائل هؤلاء الأعزاء وسيكون تعليقهم كما ستقرأون عن العددين السابقين وهما: «أولاد حارتنا» كما نحب أن نطلق عليه، وعدد «الجبل الغربى» أى شهرى أكتوبر ونوفمبر ٢٠٠٦.

وستلاحظون أن بعض الأساتذة ومنهم الدكتور سامى منير عامر، قد أرسل تعليقا على العددين، وللأسباب التى ذكرناها لم ننشرها فى حينها، لذا قررنا أن يكون «أنت والهلال» هذا الشهر متضمنا هذين العددين.

وسنواصل نشر بقية المراسلات -وهى كثيرة- فى أعدادنا القادمة، وعذرا للقراء الأعزاء، أن الأعداد الخاصة، تجعلنا نؤجل باب «أنت والهلال».

«المحرر»

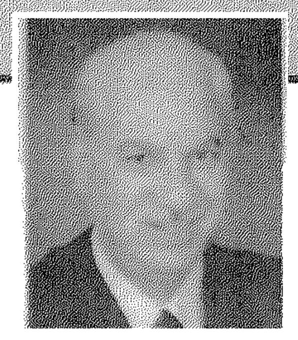
محاكمة نجيب محفوظ حيا والدفاع عنه ميتا



السيد رئيس تحرير مجلة الهلال

أرجو أن أسهم معلقا على قدر خبرتى على موضوع «أولاد حارتنا- النشر دون وصاية» والذى أسهم فيه بالنقد والتعليق «العميق والإخبارى» قلمات كبار فى النقد والشعر وكتابة الرواية والفلسفة والفن التشكيلى.

والعجيب فى هذا الدفاع عن حق المؤلف فى وضع مؤلفه دون الرجوع إلى جهة غير متخصصة، كى تسمح له بجواز مرور «حتى لو طلب صاحب المؤلف ذلك فى آخريات أيامه أو تخفى وراء عدم موافقته بحجج شتى فى سنى قوته وشبابه وفحولته المقتحمة» أقول مع كل ذلك فإن هذه الجلسة التى فى سويدائها- جلسة محاكمة يقف فيها



عاطف مصطفى

رجالات الإبداع بشتى مناحى مواهبهم التخصصية مدافعين عن عمل أدبى محير فى تفسيراته إزاء رجل ميت جسدا حى إبداعاً وفكراً، هذا الأمر عجيب لأنه قد عقدت «محاكمة لأدب نجيب محفوظ» سنة ١٩٧٠ فى عدد فبراير من الهلال، وكان صاحب الأمر «نجيب محفوظ» هو المدافع بقلمه حيال من كانوا يطرحون عليه أسئلة تقض مضاجعهم، وكان معظمهم من كبار الأدباء والنقاد: الأساتذة «أنيس منصور» «ألوان الطيف» رجاء النقاش «بين العنصرية والماركسية» الدكتور رشاد رشدى «التسجيلية والأخلاقية» الأستاذ رشدى صالح «جيلك وجيلهم» الدكتورة فاطمة موسى «تطور الرواية بعدك» فؤاد دوارة «ألغاز وفوازير» الدكتورة لطيفة الزيات «أنت ومن بعدك!» الدكتور لويس عوض «مشكلة بلا حل» كاتب المسرح الفلسطينى معين بسيسو «سر انتقالك للمسرح» الدكتور مصطفى سويف «ترجمة ذاتية صادقة» ضياء الدين بيبرس وهو صاحب عرض هذا التحقيق «ماذا يبقى منك؟» «هذا التحقيق من صـ٣٥ وحتى صـ٤٩» والقارئ للدفاع عن محفوظ «الهلال أكتوبر ٢٠٠٦» يلمح تلخيصا لكل إجابة أجاب بها محفوظ «الهلال عن نجيب محفوظ فبراير ١٩٧٠» وخاصة تلك الإجابة الجامعة للخط الفكرى الذى دار حوله أدب نجيب محفوظ وكتب نقاطها السبع رداً على الناقد رجاء النقاش «صـ٤١ فبراير ١٩٧٠» وهى هى نفسها التى أعادها هذا الناقد الكبير الأكثر محبة وقربا لأدب نجيب محفوظ بما صدر عنه «كتاب الهلال ١٩٧١ رقم ٢٤١/ فى حب نجيب محفوظ ١٩٩٥/ وفى ١٩٩٨ نجيب محفوظ صفحات من مذكراته وأضواء» أعادها بهلال أكتوبر ٢٠٠٦ ولخصها فى كلمات «هى الديمقراطية والعدالة والحرية وسيادة القانون على الجميع وعدم السماح بألا يجد الفرد أن دخله أقل من احتياجاته الأساسية فيتعرض للبؤس والضياع والمهانة «صـ١٥» «صـ١٦» هكذا سار الخط الفكرى خلال الأعمال الأدبية للراحل العظيم محفوظ مهما تعددت أشكال تلك الأعمال رواية/ قصة/ أقصوصة/ وجهات نظر/ حتى الأحلام، والسبب فى عدم تحقيق ذلك قول نجيب صـ٥٤٦ «من أولاد حارتنا/ الصادرة عن دار الآداب بيروت ١٩٦٧» «...الموت الذى يقتل


د. سامى منير عامر

الحياة بالخوف حتى قبل أن يجئ.. لا تخف.. الخوف لا يمنع من الموت.. ولكنه يمنع من الحياة، ولستم يا أهل حارتنا أحياء، ولن تتاح لكم الحياة مادمتم تخافون الموت».

ويردد نفس الكلام على لسان الشيخ عبدربه «محفوظ» التائه فى العنصر «عندما» بأصداء السيرة الذاتية صـ١١٩ حين يسأل أحدهم:

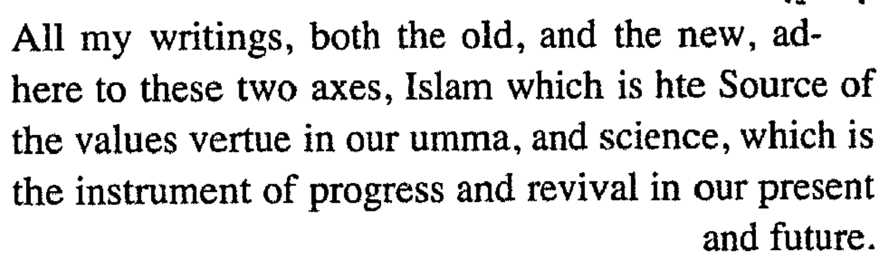
- متى يصلح هذا البلد؟

فيرد عبدربه «نجيب» محفوظ «التائه» قائلا:

- حين يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن، أوخم من عاقبة السلامة.


رجاء النقاش

ولقد تحدث محفوظ كثيرا عن أولاد حارتنا إما فى الأهرام «وجهة نظر» يوم الخميس ١٩٩٥/٦/١- العدد ٣٩٦٢٣ بقلم محمد سلماوى، وكذلك فى كتاب الناقد الكبير رجاء النقاش عن نجيب محفوظ «صفحات من مذكراته وأضواء» صفحات صـ٢٤٣، ٢٤٤، ١٩٩٨ بالإضافة إلى عدد الأهرام الصادر يوم الخميس ٢٠٠٦/١/٢٦ العدد ٤٣٥١٥ وهو الذى طلب فيه السماح لأهل الحل والربط فى الأمور الدينية أن يقدموا لعمله هذا الأدبى الضخم «المتعدد التفاسير» بمقدمة أعطاها الناقد الكبير رجاء النقاش حقها، ونشرت مقتطفات من هذه المقدمة للرواية بقلم الدكتور أحمد كمال أبوالمجد فى الأهرام الأسبوعى Weekiy يوم الخميس ٢٠٠٦/٢/٩ العدد ٧٨١ حيث جاء فيها:


All my writings, both the old, and the new, adhere to these two axes, Islam which is hte Source of the values vertue in our umma, and science, which is the instrument of progress and revival in our present and future.


لويس عوض

الترجمة إلى الإنجليزية: هالة حليم

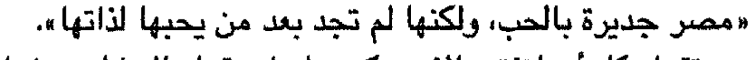
ورغم هذه الاستفاضة فى مجال الدفاع عن موقف الأديب وما يجب على أمته، حيال نشر أدبه يحسم كل من الاستاذين الناقد رجاء النقاش والكاتب كامل زهيرى رئيس تحرير الهلال ١٩٧٠ رأيهما فى أن رجاء يرى أن كل مفكر كبير، أديبا كان أم غير أديب له جمهوريته المتمثلة فى الخط الفكرى لأعماله، وأولاد حارتنا هى جمهورية نجيب محفوظ. بينما يرى زهيرى أن مقدمة الدكتور كمال أبوالمجد هى نوع من «الفتوى الليبرالية» ونوعا من المواء مة مع الظروف التى أحاطت

بنشر الرواية. ويخيل إلى أن الاستاذ كامل زهيرى نفسه فى عدد فبراير ١٩٧٠ صـ٤، صـ٥ تحت عنوان «لماذا نجيب محفوظ» قد سبر أغوار أدب نجيب إذ قال:

إن نجيب محفوظ منذ أول سطر كتبه، حتى آخر سطر، يضع عينيه دائماً على: مصر، إنه يستمع باستمرار إلى نبض مصر.. كل ما كتبه نجيب محفوظ له صلة بمصر وبالتاريخ والإنسان والمستقبل فى مصر..»

كامل زهيرى

ولعل فى نفس عدد فبراير ١٩٧٠ بحث تحت عنوان: نجيب محفوظ بين الدين والفلسفة من صـ١١٦ وحتى صـ١٢٧ للدكتور صبرى حافظ، وبحث آخر تحت عنوان: الزمن الروائى عند نجيب محفوظ لعبدالرحمن أبو عوف من صـ١٦٨ وحتى صـ١٨١ ما يكفى لدرء الشبهات عن أولاد حارتنا والكل في رأيى «قدامى ومحدثين» ينضمون تحت لواء مقولة محفوظ فى روايته «قشتمر» صـ٣٢ الصادرة عام ١٩٨٨.



«مصر جديرة بالحب، ولكنها لم تجد بعد من يحبها لذاتها».

مع تقبل كل أساتذتى الذين تكرموا على قراء الهلال بحشاشة محبتهم لأدب نجيب محفوظ الخالد أدباً وإنساناً.

د.سامي منير عامر
كلية التربية - الإسكندرية

الهلال: نشكر الباحث والكاتب المبدع د. سامي منير عامر علي دأبه المستمر، ومتابعته لكل ما ينشر في الهلال وأيضاً استعراضه الأمين لما جاء من مقالات وآراء في العدد الخاص عن «نجيب محفوظ» ١٩٧٠ وما تناولناه في عدد «أولاد حارتنا» كما نحب أن نطلق عليه والمنشور في أكتوبر ٢٠٠٦.

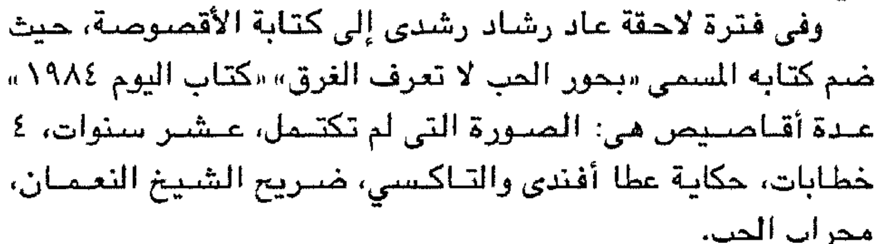


د. صبرى حافظ

رشاد رشدى قاصا

فى رؤيته النقدية لعدد أغسطس من «الهلال» ذكر الزميل الكريم الأستاذ الدكتور سامى منير عامر أن رشاد رشدى «ناقد لم يحترق بحميا تجربة كتابة الأقصوصة»، ولكن الواقع أنه احترق بها منذ فترة مبكرة من حياته الأدبية!

ففى سنة ١٩٥٥ أصدرت له مكتبة الأنجلو المصرية مجموعة

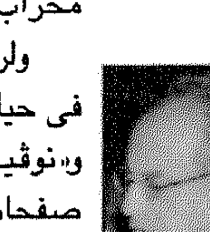


قصصية عنوانها «عربة الحريم وقصص أخرى» «كان ثمنها على الغلاف الخلفى ثمانية قروش!» وضمت ثمانى أقاصيص هى: فى عربة الحريم- يوم القيامة- بعد المصيف- عذاب الجسم وعذاب الروح- فى إجازة- ذراعا امرأة- فرح بنت العمدة- كذاب، إلى جانب مسرحية قصيرة عنوانها «ساحر اسمه الحب» «ترجمت أغلب هذه الأقاصيص إلي اللغة الإنجليزية».


د. رشاد رشدى

وفى فترة لاحقة عاد رشاد رشدى إلى كتابة الأقصوصة، حيث ضم كتابه المسمى «بحور الحب لا تعرف الغرق» «كتاب اليوم ١٩٨٤» عدة أقاصيص هى: الصورة التى لم تكتمل، عشر سنوات، ٤ خطابات، حكاية عطا أفندى والتاكسي، ضريح الشيخ النعمان، محراب الحب.

ولرشاد رشدى بالإضافة إلى ذلك «لا رواية» تحمل عنوان «الحب فى حياتى» صدرت فى سلسلة «مطبوعات الجديد» فى فبراير ١٩٧٤، و«نوفيلا» قصة متوسطة الحجم- رمزية الطابع، نشرت منجمة على صفحات مجلته «الجديد» فى منتصف السبعينيات.


د. ماهر شفيق فريد

د.ماهر شفيق فريد
الاستاذ بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الأداب- جامعة القاهرة



تحية للهلال

إلى رئيس تحرير الهلال

أبعث إليك بكل تحية وتقدير فى سعيك فى ألا يحرم القارئ المصرى من الإطلال على درة كاتبنا الكبير نجيب محفوظ، أولاد حارتنا، فى طبعة شعبية، وأن تتحمل أكبر وأعرق الدور الصحفية المصرية، «دار الهلال»، العبء الأكبر لتحقيق ذلك.

يا سيدى لقد ألقيت بحجر فى بركة الثقافة والنشر فى مصر، أرجو أن تكمل بكل شجاعه ما بدأت ولتكن هذه البداية.

لا أنسى أن أبعث إليك بتحية خاصة على المحاورة التى أجريت معك فى «قناة الحرة» حول ما نشرته «الهلال» عن أمين الريحانى، أثق تماما «أنك محاور شجاع وصنديد مدافعا عن حرية الرأى، لا يهاب، ولا يخضع للابتزاز.

يزيد يوسف ثابت
كاتب

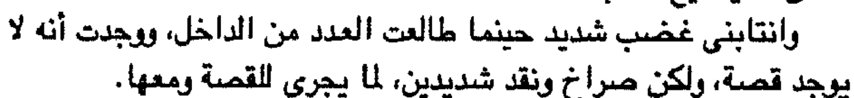
فكرة لنشر أولاد حارتنا

د. ماجد صفوت

السيد رئيس التحرير

أرجو أن تفسح لى صدرك لكى أطلعك على مشكلة، هى شخصية، وفى نفس الوقت وجدت أن أخرين قد عانوا منها معى.

بينما أبحث بناظرى ماسحاً طاولة بائع الجرائد والمجلات الذى أتعامل معه، فوجئت بالهلال وعليها عنوان «أولاد حارتنا» وتحتها «ضد الفتاوى والمقدمات» وبدون تردد اشتريت العدد مسترجعا تاريخا قديما، كانت فيه مطبوعات «الهلال» أحد الاركان الرئيسية للقراءة، وذهبت للمنزل متوقعا ليلة سعيدة أعيد فيها قراءة القصة، التى قرأتها منذ زمان طويل، وغاب عنى الكتاب نفسه، لعله أستعير ولم يرد، لأن عندى لا يضيع كتاب!



وانتابنى غضب شديد حينما طالعت العدد من الداخل، ووجدت أنه لا يوجد قصة، ولكن صراخ ونقد شديدين، لما يجرى للقصة ومعها.

فى البداية اعتبرت أن مطبوعة الهلال قد خدعتنى بهذا العنوان الزائف، واتصلت بالمطبوعة، فرد علىَّ أحدهم وبدأ النقاش بحدة وانفعال واتهام صريح من جانبى بأن «الهلال» قد خدعنى بهذا العنوان.

واستمر النقاش، ووضح أن من يقوم بالرد على اتهاماتى ليس بالقطع عامل التليفون، أو حتى أحد الموظفين بالمجلة، ولم اسأل متعمداً عمن يرد على، ولكن مع استمرار النقاش والأخذ والرد اتضح أن المخطئ هو أنا، إذ أن الرواية حينما تصدر، تصدر عن مطبوعة «روايات الهلال» وليس «مجلة الهلال».

واستمر النقاش ووضح أن محدثى شخص على درجة عالية من الثقافة والمقدرة الفائقة فى الدفاع ببسالة عن رسالة المطبوعة. واخيراً قرب نهاية النقاش عرفنى بنفسه، إنه هو رئيس التحرير الاستاذ مجدى الدقاق.

ومع كراهيتى الشديدة لمدح احد، فى تعاملى معه من خلال عمله، إلا أن الحق أولى بالاتباع، لقد أعجبنى فكر الرجل، وخاصة فى دفاعه الرائع والمحق عن طبع ونشر الرواية، ووصل النقاش إلى النهاية المسدودة أمام محاولة النشر.

عزيزى القارئ

أنا لم أرسل خطابى هذا من أجل كل ما سبق، ولكن ما ذكرته كان لازماً لطرح ما أريد فعلا أن أقوله.

ونحن طلبة كانت هناك لعبة اتضح فيما بعد أنها لعبة لاوزن لها ولا قيمة، كنا نجد على درج أحدنا ورقة بها ما بها، ومعها تحذير بأن من لم يقم بكتابة عدد من النسخ - محددة فى كل رسالة - سوف يحدث له ما لا يحمد عقباه، وسوف يكابد من الشرور ما يتم توضيحه بجلاء.

عزيزى القارئ

ما رأيك لو حولنا هذه اللعبة الفارغة، إلى لعبة حقيقية نلعبها كلنا معا، لكي نضرب بغلين بحجر واحد «لا يوجد خطأ مطبعي أو لغوى».

البغل الأول هو الجمود والتخلف واسهال الفتاوى التى خرج بها علينا ممن يفهم وممن لا يفهم، لكي يحكم على عمل لنجيب محفوظ «أيا كان هذا العمل» والذى بسببه نحن فيما نحن فيه.

البغل الثاني: هو بيزنس المصالح والمنافع الذى تدخل لمنع نشر آخرين للرواية والنتيجة أننا لم نحصل على الرواية لا من «دار الهلال» ولا من أية دار أخرى، ودار الزمان بنا إلي الوراء، وبدلا من أن ينشر أحدهم الرواية ويطلب لها قراء، صار الحال فى بلدنا، أن القراء يطلبون القراءة ويستجدونها ممن يستحق وممن لا يستحق.

عزيزى القارئ

إليك اقتراحى، ليشترى كل قادر منا الرواية، وهى معروضة فى كل مكان، صادرة عن دور نشر أخرى خارج البلد. وليقم بتصوير الرواية ٣ نسخ، وهى الآن مهمة ليست صعبة مع الأجهزة الحديثة فى التصوير، ويوزع النسخ الثلاث على ثلاثة أفراد، ثم يقوم بإعطاء النسخة الأصلية لثلاثة آخرين لقراءتها وإعادتها إليه مرة أخرى. وهذا العدد طبعا قابل للزيادة. هل وصلت الفكرة؟ إذن كل رواية سيقرؤها على الأقل سبعة أفراد. وبهذا ستنتشر الرواية ويقرؤها كل محب للقراءة، ونصبح فى غنى عن الطابع والناشر، فيخسر كل من وقف فى صف الرواية من جهة عدم نشرها.

وبهذا يصبح للمثقفين وسائلهم للرد على المنع والتحجيم والتسلط، ويقف كل من كان فى موضعه. ويدفع ثمن اختياره.

شكرا على سعة صدركم

د.ماجد صفوت نخيلة
القاهرة- شبرا

الهلال:

وصلت الفكرة، وطبعاً نحن معك فمن الضروري طبع رواية «أولاد حارتنا» لتكون بين يدي القراء، وحتي تتحقق حرية النشر مع حرية الفكر الذي ننشده جميعاً.

مواجهة أعداء النشر


نجيب محفوظ

كان هلال أكتوبر الماضي دفعة تقدم وليس وقفة تردد في نضاله من أجل حرية الفكر والرأي والإبداع، وأثبت الهلال باقتدار، قدرته في الدعوى إلي كسر حاجز الصمت حول رائعة الراحل العظيم نجيب محفوظ «أولاد حارتنا»، وهذا ما نجح فيه الهلال فعلا، وكانت افتتاحية العدد «أولاد حارتنا وكوكب القردة» مقالا ممتازا سطره رئيس التحرير، كشف عما يراد لأدبنا وفكرنا المعاصر، من رغبة أعداء حرية الفكر والإبداع من قهر كل رأي حر، وقصف كل قلم مستنير، من الألف إلى الياء من خلال قصد محاولة الهلال ورئيس تحريره نشر رائعة نجيب محفوظ، والذي أؤكده كقارئ للهلال على مدى أربعين عاما، أنه سوف ينتصر على قوى الظلام والإرهاب الفكري، ولم يكن الهلال أو رئيس تحريره في المعركة وحده، فقد كانت معه جمهرة من المثقفين الأحرار، وأعلنت رأيها بصراحة في قضية نشر «أولاد حارتنا» ففي العدد ٥٨٧١ بتاريخ السبت ١٠ ديسمبر الماضي وفي مقال نشرته جريدة الوفد لكاتب هذه السطور بعنوان «افرجوا عن أولاد حارتنا»، «ناشد فيه السيد الرئيس محمد حسني مبارك التدخل بما له من سلطات دستورية بالإفراج عن الرواية، ويرفع الحظر عنها بعد أن نشرت في بيروت في طبعات بلغت العشرين، وأن تنشر عن طريق مؤسسات الدولة الثقافية وبرعايتها في وزارة الثقافة، واختتمت هذا المقال بالقول: إنني اعتقد أن أقيم هدية تقدم إلي صاحب نوبل نجيب محفوظ في عيد ميلاده الرابع والتسعين من رئيس الدولة ورأسها هي اصدار امره بطباعة ونشر «أولاد حارتنا»، دفاعا عن حرية الفكر وكرامته وحرية التعبير عنه، وحماية لقيم الإبداع الفني والأدبي».

وبتاريخ ١٦ سبتمبر ٢٠٠٦، وفي جريدة الوفد أيضاً كتبت مقالا بعنوان «نجيب محفوظ.. ما بعد الرحيل» أكدت فيه على أن التخليد والتكريم لشخص نجيب محفوظ وأدبه وفكره إنما يكمن في نشر أعماله كاملة غير منقوصة، وفي مقدمتها «أولاد حارتنا».. وطالبت في هذا المقال بأنه لو اقتضى الأمر إلى اللجوء إلى القضاء لا ستصدار حكم قضائي بإلزام وزير الثقافة وفي مواجهة الجهات التي فرضت الحظر على الرواية، بنشرها، وكان ينبغي على

رئيس التحرير أن يكشف عن أشخاص من لهم مصلحة فى عدم نشر الرواية ممن أطلق عليهم «البيزنس الثقافى السرى»، ومن أطلق عليهم اسم «البطانة التاريخية» لأستاذنا الرائع، وأخيرا، فإن «الهلال» ورئيس تحريره سوف ينتصر فى معركته فى ترسيخ حرية الفكر والإبداع، وسوف تنشر «أولاد حارتنا» عاجلا أو آجلا.

عمرو عبدالمنعم حمودة
كاتب وباحث

الهلال:

نحيي الصديق عمرو حمودة علي رسالته، ونواصل الجهد كي يتحقق بالفعل نشر هذه الرواية، ولن يطول الزمن حتي يتحقق أمل ينتظره القراء في مصر.

مناخ ديموقراطى

لقد قرأت فى عدد الهلال لشهر نوفمبر ٢٠٠٦ ما كتب بأقلام العديد من المثقفين تعكس رؤى هذه الصفوة حول العراقيل التى تحول بين نشر رواية أولا حارتنا لأديبنا الكبير الراحل نجيب محفوظ. هذه الرواية الإبداعية التى كنت لا أتوقع فى يوم ما أن أقرأها ولكن اسعدنى الحظ أن تنشرها جريدة حزب التجمع «الأهالى» عام ١٩٩٤ بعد ما تعرض كاتبنا الكبير لمحاولة اغتيال، وإنى أود أن أضيف لكل ما قيل فى هذا الصدد أن مصر أصبحت الآن تنعم بمناخ ديمقراطى غير مسبوق، وعلينا أن نستثمره لصالح ثقافتنا المصرية، وإنى على قناعة تامة بأن تقدم الشعوب ورقيها يبدأ بالاهتمام بالتنوير الفكرى، الذى يكمن فى كل أنواع الثقافة ومنها على وجه الخصوص الأدب. فأتمنى أن تخطو مجلة «الهلال» إحدى خطواتها التنويرية الجريئة وتنشر هذه الرواية الإبداعية لأديبنا الكبير نجيب محفوظ، هذه الرواية التى تحمل فى طياتها باختصار شديد، رؤية أديب كبير له باع طويل فى درب الثقافة، تعكس نمطا سياسيا يشمل العالم أجمع، لا ينتهى إلى يومنا هذا وهو تحكم الأقوى فى الأضعف، واعتقد أن هذه الرؤية سائدة ونراها فى جميع بلاد العالم كل يوم. إذن فهذه الرواية رؤية أدبية صالحة لكل العصور، وبنشرها فى مجلة من أعرق المجلات الثقافية سوف تثبت للعالم أجمع أن مصر بمبدعيها ومثقفيها قد تغيرت للأفضل وتتحدى قهر الإبداع.

سامح صبري أيوب

الهلال: القارئ العزيز.. كما تري نبذل الجهد انطلاقا من حرصنا علي نشر هذه الرواية، حتي أننا وبعد إصدار العدد الخاص عن نجيب محفوظ، أعددنا الرواية وجهزناها للطبع، وكان من الممكن أن تكون الآن فى بيت كل مثقف ومحب لأدب نجيب محفوظ.. ولكن وللأسف مازالت الرواية حبيسة حتى الآن!

جبل الجداوى وابن خفاجة

السيد رئيس التحرير

تحية التواصل الثقافى وتجديد الثقة الممتدة المستديمة.

ما إن انتهيت من مقدمتكم التى تنم عن الوفاء لكاتب تميز بصدق الكتابة فى لون معين من ألوان الآدب «معايشة الإنسان حين يقع تحت طائلة الجريمة» أعنى الأديب المرحوم عبدالمنعم الجداوى، حتى ألفيتنى أستعيد ما قد وعيته مما قد وفره لنا من حديثه عن أدب الجريمة فى مجلة المصور، وما أمتعنا به فى كتاب الهلال «الجريمة فى الرواية العربية» ويكفى تعليقكم الذى جاء تحت عنوان «عاشق الكلمة» إذ قلتم صـ١٠ استطاع الأستاذ الجداوى وهو المسكون بروح الأدب والأديب أن يحول خبر جريمة إلى قصة أدبية، تقفز فيها مشاعر البشر قبل مشاهد القتل والدماء، يكفى هذا التعليق كى يجعل قارئ الهلال يلج عالم الجداوى مستنيرا بهذا التعليق خاصة فيما قد استحدثتموه فى نهاية العدد «كتيب فى مجلة» مفتتحين هذا الباب بالرؤية الأدبية للكاتب الجداوى عن «الجبل الغربى» الذى قال عنه.

«اسمه فى آذان الصعايدة - والجداوى طبعاً صعيدى - كما جاء فى مقدمتكم يوحى بالكثير كجوهرة لاتكف عن إرسال عشرات الأضواء فى كل اتجاه. ارتبط بالمطاريد» و«السفاحين» كما ارتبط بالرهبان والزهاد ولهؤلاء وهؤلاء مئات القصص والأساطير.. «الجبل الغربى» رمز لمجهول مقدس غامض يعظمونه ويحبونه ويخافونه.. وقد لايعرف أبناء سوهاج وأسيوط والمنيا شيئاً عن جنوبه أو شماله، فهم يكتفون بأنه يطوقهم من الغرب حتى مدى البصر، هذا الوصف الذى قدمه الجداوى لذلك الجبل جعلنا نحس بأنه البطل الرئيسى لكل ما أورده من أحداث فيما بعد، احتوتها مغاراته بكل ما دار فيها من قصص تقترب من مغامرات ألف ليلة وليلة فى أدبنا العربى - وعلى الخصوص أقصوصة «هدية رفاعى» الذى أجبره ظلم استشراء عادة الأخذ بالثأر إلى أن يقطع الشقة بعيدة المدى فى الصيف القائظ حتى

يصل قمة الجبل الذى استقبله على إحدى مصاطبه شيخ الخفراء - واحدا من المظلومين المطاريد - وكان شيخا لهذا الجبل الغربى، واستن هو ومن معه دستورا لمن يلتحق بركب قمة هذا الجبل العملاق ذى الأسرار المتوارية فى أنحائه وأول هذا الدستور أن يضع فى حسبانه أن «الجبل» الذى آوى الرهبان والنساك والزهاد ليعبدوا الله فيه - له حرمة فلا يخترقها، ولا يجور عليها ولا يدنسه بفعل غير شريف، ومن يفعل ذلك فإن «الجبل» يلفظه كما يلفظ النهر جثث الغرقى، غير مأسوف عليهم «صـ٢٠٩» وليس أدل على تغلغل مهابة هذا الجبل الغربى فى نفوس أهل الصعيد ممن تحدث عنهم الجداوى، من أنهم كانوا يرون فيه صلة قرابة «جدى الجبل» أو عمى أو خالى «٢٠٩».

وما أشبه الواقع الحيوى لإنسانية العلاقة بين آل الصعيد والجبل الغربى بما ورثناه فى تراثنا الأدبى العربى، مما هو أقرب فى نفوس شعرائنا خاصة شاعر الطبيعة الأندلسى ابن خفاجة فى القرن السادس الهجرى، وكان حال كبار رجالات الدولة فى الأندلس أيام المرابطين والموحدين، أقرب فى تطاحنها وواقع أحداثها مما هو واقع فى صعيد مصر من ثارات يطل عليها جبل. وأدار ابن خفاجة الأندلسى على لسان هذا الجبل فى الأندلس حواراً مستنطقا إياه بما هو أشبه بما يدور فى ثنايا الجبل الغربى فى رؤية عبدالمنعم الجداوى يقول ابن خفاجة:

وأرعن طماح الذؤابة باذخ ... يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة ... ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالى مفكر فى العواقب
أصخت إليه وهو أخرس صامت ... فحدثنى ليل السرى بالعجائب
وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أواه تبتل تائب
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب ... أودع منه راحلا غير آيب؟

هذا بعض حديث جبل ابن خفاجة الأندلسى «وهو فى سويدائه مناجاة داخلية فى وصف واقع حال الأندلس آنذاك من خلال الرؤية الشعرية للشاعر» حاولت قدر جهدى أن أنقله إلى القارئ كى يتكشف له مدى ما أمدنا به كبار رجالات تحرير الهلال من تعريفنا برؤية أدبية معاصرة، حركت فينا أن ننقب فى تراثنا الأدبى كى نتعلم أن الجديد هو لون متجدد موصول بأمراس القديم، وتلك إحدى أعظم

مكرمات صرحنا «الهلال» علينا جميعا شيبا وشبانا. لكم جميعا خالص الدعاء بالتجديد الدائم.

د.سامى منير عامر
كلية التربية - الإسكندرية

الهلال: الدكتور سامى العزيز.. إن ما ذكرته عن الأستاذ الجداوي يستحقه فعلا لأنك تنصفه كما أنصفه الهلال، فهو يستحق ذاك وأكثر وهذه المفارقة بين جيله وجيل الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، إضافة لكاتبنا الراحل العزيز نشكرك عليها.

الجداوى كاتبا فى مجلة الشرطة

وصلتنا هذه الرسالة من رامى يوسف إبراهيم من المنصورة دقهلية يتساءل فيها، وبعد استعراضه لحكاية «الجبل الغربى» المنشورة فى عدد نوفمبر ٢٠٠٦.

لماذا أغفلتم دور الراحل الكبير عبدالمنعم الجداوى وكتابته فى مجلة الشرطة، حيث عمل لعشر سنوات مستشارا للتحرير فيها، ونشر عدة حلقات أثارت إعجاب القراء، أما حواراته الصحفية، فهى كثيرة، وبخاصة حواره مع الموسيقار محمد عبدالوهاب، الذي نشرتم صورته معه بوجود اللواء الرائد «حينئذ» عبدالمنعم معوض.

إن ما كتبه الكاتب الكبير فى مجلة الشرطة طوال عشر سنوات، يحتاج لتجميعه ونشره فى كتاب.

وأعتقد أن إدارة الإعلام بوزارة الداخلية تمتلك أعداد هذه المجلة، وعليها بالفعل أن تساعد فى تجميعها وإعدادها للنشر، ولتخرج تجربته متكاملة.

الهلال: نتمنى من إدارة الإعلام بوزارة الداخلية، وهى إدارة نشطة بحق أن تتحقق رغبة القارئ العزيز وكل محبى أدب وكتابات الراحل عبدالمنعم الجداوي.



اللواء عبد المنعم معوض «الرائد حينذاك» يتوسط الجداوي وعبد الوهاب

عن الجداوى ونجيب

الاستاذ رئيس التحرير

لقد اعدتنا إلى عصر مجلة الهلال الذهبى، أعدت إلينا منذ ما يقرب من العام ونصف العام إلى قراء مجلة الهلال، وكتاب الهلال ورواية الهلال بعد أن تركناها مرغمين لا راغبين!

ولكن لى سؤال: فقد قرأت وبكل الفرحة العدد الصادر فى أكتوبر ٢٠٠٦ وظننت أنى سوف أمتع نفسى بقصة أديب نوبل الراحل نجيب محفوظ ولكن سرعان ما اكتشفت بأن العدد غير ما رغبت فحزنت على فشل المحاولة منك لنشر رواية «أولاد حارتنا»

ثم قرأت من أخذ رأيهم فى النشر: الاستاذ رجاء النقاش، ود.خالد منتصر، والأستاذ كامل زهيرى، والأستاذ محمود أمين العالم، والاستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى.


عبد المنعم الجداوى

المهم أننى خلصت أن منهم من طلب النشر بمقدمة الدكتور أحمد كمال أبوالمجد، ومنهم من رفض هذه الفكرة وأنا معهم.

وما عرفته مما قرأت حول الرواية أن هناك من يملك حق النشر، ولكنه يستفيد إلى أبعد حد من هذه الثورة على الرواية، ثم يطبعها ويجنى من ورائها الآلاف، هل هذا هو من نعتبره ناشراً للثقافة؟ وهل يستحق لقب ناشر لإنارة العقول المصرية.

أستاذى ارجوك أن تطرح فكرة من يرغب فى نشر الرواية فى «مجلة الهلال» أن يرسل لك فى استفتاء تقوم به المجلة، وستجد معك مليون مثقف مصرى وطالب جامعى ومصرى حر وليقم قضية صاحب الحق فى النشر على كل المصريين إن كان يملك هذا!

ولما كنت إنسانا نبيلا فى مشاعرك وقرأت عدد نوفمبر ٢٠٠٦ ووجدت به قصة الكاتب الصحفى.. عبدالمنعم الجداوى «الجبل الغربى» شعرت بالفخر لشاب مثلك يحمل قلما حرا، ومشعل الثقافة أن كتب رواية أديب رحل عن دنيانا، وأعترف كما نعترف جميعاً بوزن هذا الكاتب الذى جعل من قراءة الجريمة أدبا وثقافة.

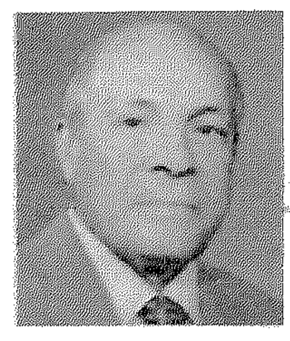
لقد امتعنا الجداوى سنوات وسنوات بعبقريته فى الكتابة وتطويع جمال اللغة العربية وبعثرتها على الورق فى صورة أدبية فلسفية رائعة.

لذلك أهدى مجلة الهلال أحد كتابات الرائع والمتعدد المواهب فى كتابته، بين الكتابة الدينية والكتابة الشعرية والكتابة الأدبية. أهديك كتابته الزجلية وهو يتحدث عن ابن القرية وصدقه وهى لم تنشر قط من قبل.

أنا ذنب يرهقه الندم.. موجود يبدده العدم.. نفسى تلاشت
ذاتي توارت.. سياط الإثم تطاردنى.. آمال العفو تراودنى..
يارب هل تكفي التوبة.. كى أتطهر من رجس الرغبة؟
نشأت في الريف عفيفا.. مغسول الأعماق نظيفا.. لا أنظر قط
إلى أنثي.. ألقانى ظهر مهدود.. فى بطن أحمق مكدود
ما مر العيب بخاطرها.. كبرت فإذا بى أعتصر طفولتى فى حقول الناس
وكنا أطفال عدة.. حياتنا تحكمها الشدة.. والوالد فوق الستين
لا شيء إلا بمعين.. لا بد له من كيف خاص.. ومعروف
وطعام خاص.. وعلى تأجير شبابى وليالى طويلة من عمرى.. كى أعطى
للوالد حقه.. أما الأسرة فقد كانت على عاتق باقى الأخوة
وكان يسعدنى رضاه.. أنتظر بسمته الحلوة التى تملأ محياه
وفى يوم قلت له أبى أريد الهجرة -القرية تأكل أيامى..
القرية تسجن أحلامى.. فى القاهرة يمكن أن أكسب.. ذكائى
أكبر من قرية.. مواهبى تدفنها الساقية.. فأنا أقرأ وأنا اكتب.
سكت كأنما أخذته السكتة – تمزقه – تتنازعه مشاعر شتى
كانت أعماقه تتلوى.. يوشك أن يبكى البلوى.. قلت ياوالدى
لا تغضب منى.. اسألك الله تقصدنى.. وسأسافر مصر..
فزودنى.. بكلام يحفظ قلبى.. استمع إلى مذهولا..
ما رفض ولا ابدى قبولا.. واصفر وازداد خجولا..
وتركنى أشعر بالذنب.. وبعد الصمت المصطخب.. الدامى
كجزور الغضب.. تكلم فى صوت عصبى.. لكنه يقطر أحزانا
يا ابنى أفديك بعينى.. اسمعنى أو لا تسمعنى.. القاهرة
تعطى المستغنى.. القاهرة إن أعطت أخذت..
القاهرة إن أخذت سلبت.. القاهرة إن سلبت تقتل
قد تقتل فيك الإنسان

فاروق محمد خزيم
سوهاج





د. عاصم الدسوقى

العولمة .. مأزق الحتمية وحرية الاختيار

شاع مصطلح «العولمة» فى مطلع تسعينيات القرن الماضى مقترنا بمقولة «نهاية التاريخ» التى أعلنها فوكو ياما الكاتب الأمريكى اليابانى الأصل، ثم مقولة «صراع الحضارات» التى صاغها صمويل هنتنجتون وذلك فى أعقاب تفكيك الاتحاد السوفيتى وانهيار حكم الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الشرقية، كناية عن سقوط المركزية الشيوعية وانتصار الليبرالية الرأسمالية. ولأن طرح العولمة جاء من بنات أفكار الحكومة الأمريكية، فقد استقر فى الأذهان أن هذه الحكومة تريد إعادة صياغة حياة الشعوب وفق النسق الأمريكى فى الحياة دون مبالاة للاختلاف الثقافى بين الشعوب، حتى لقد أصبحت «العولمة» مرادفة لكلمة «الأمركة».

والعولمة بهذا المعنى حلم بشرى قديم، منذ كان أصحاب الأفكار الإنسانية الكبرى يحلمون بأن تسود أفكارهم العالم، وحين كانت كل قوة من القوى الكبرى على مدار التاريخ تحاول أن تفرض نموذجها فى الحياة على الآخرين. ولكن ومع نجاح عملية التثاقف بين المجتمعات طوعا واختيارا، بفعل الهجرات والتنقلات، ظهرت إشكالية «الأصالة والمعاصرة»، أى النزاع بين القديم القائم، وبين الجديد الوافد والتى تبلور معها مصطلح «الخصوصية الثقافية».

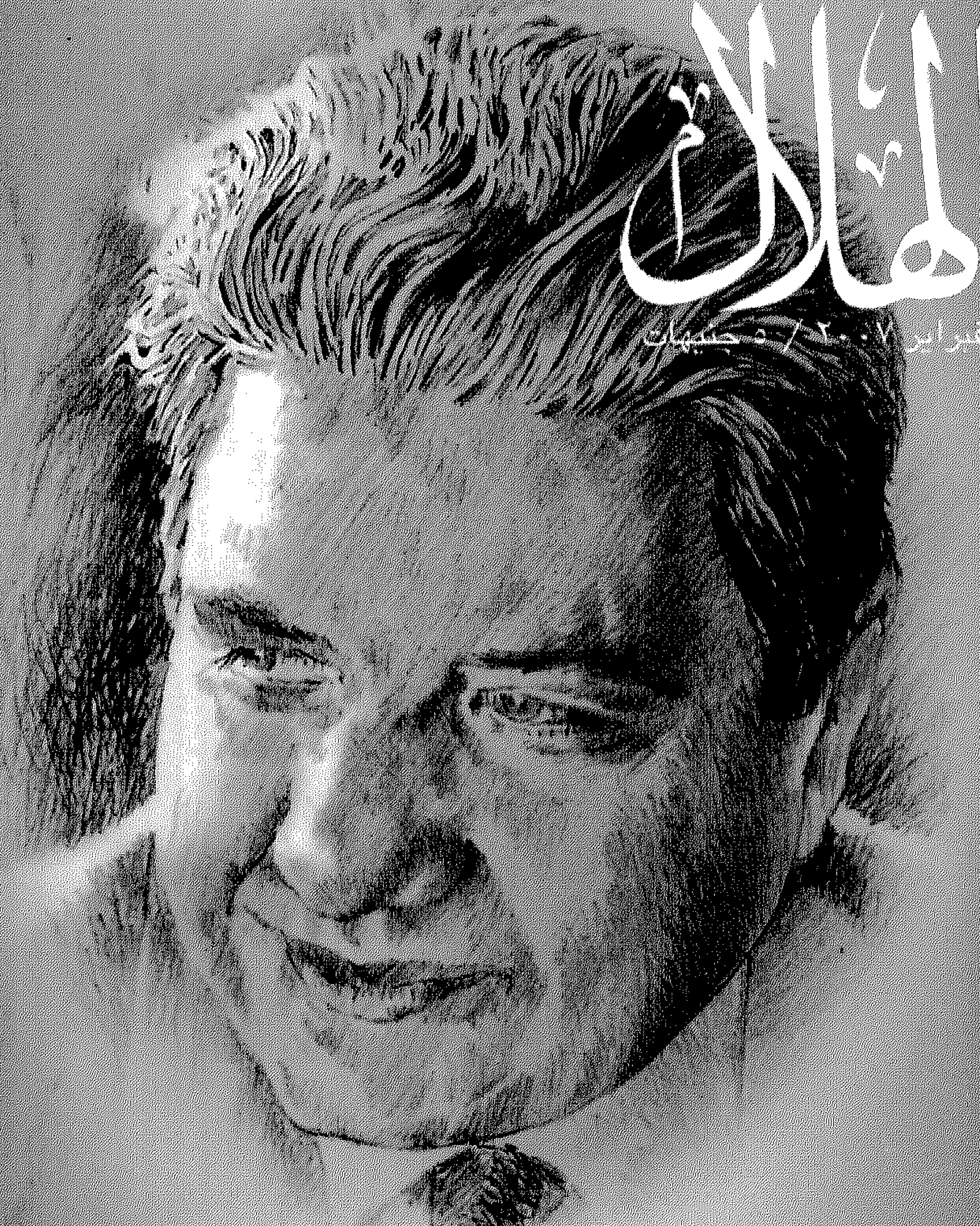
ولايزال هذا النزاع يمثل جوهر مشكلة العولمة.. فريق يقول : إنها آتية لا ريب فيها، وعلينا أن نقبل التعامل معها، وفريق يرفض هذه الحتمية الآلية اعتمادا على حرية الاختيار عند أبناء البشر، خصوصا أن خطاب العولمة منذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ترافق مع اتجاه سياسى قوامه تفتيت الدولة القومية إلى طوائف دينية ومذهبية وعرقية، وغلق أبواب النادى النووى على أصحابه القدامى، واستبقاء العالم الثالث فى حوزة السوق الرأسمالية العالمية، الأمر الذى أخفى صورا قد تكون إيجابية للعولمة.

والحقيقة أن العولمة ليست كلها شرا مستطيرا، فمن الممكن لأبناء مجتمع ما أن يستفيدوا من الإنجازات العلمية التى حققتها مجتمعات مغايرة، استنادا إلى حقيقة «أن العلم لا وطن له» مع تطويع هذا العلم للاحتياجات الذاتية. ولا يعنى هذا الكفر بالموروث الثقافى أو التمرد على التقاليد.. فاليابان مثلا بعد تدميرها فى الحرب العالمية الثانية، بدأت تنميتها الحديثة بنقل أسرار التقدم الصناعى من الغرب الأوروبى دون أن يؤثر ذلك على التقاليد اليابانية التى لا تزال تحكم العلاقات بين أفراد المجتمع.

ويبقى القول أخيرا.. إن حرية الشعوب فى الاختيار خير مصفاة لفرز ما يتناسب مع خصوصيتهم الثقافية وتجنب ما لا يتلاءم دون قسر أو إكراه.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ ش كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٥٩٦٦٥٠١ - ٦٨٢٧٠٠٢ / ٢٠٢ ج.م.ع ٤ش بدوى محرم بك - الإسكندرية .

الهلال
فبراير ٢٠٠٧ / ٥ جنيهات
عدد خاص



رجاء النقاش

القلمُ.. الإنسَان



إهـــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور/ خالد عزب

الإسكندرية



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

مجدى الدقاق

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

مدير التحرير

عاطف مصطفى

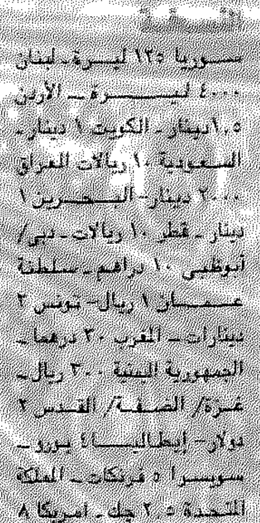
سكرتير التحرير

أحمد البكرى

العام الخامس عشر بعد المائة
فبراير (شباط) ٢٠٠٧م
محرم ١٤٢٨ هـ
طوبة ١٧٢٣ ق

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط). المكاتبات ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
تليفون: ٣٦٢٥٤٨١
فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩
البريد الإلكترونى
helalmag@yahoo.com



الأسعار

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات - العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات



صلاح فضل – ٢٨ | تليمة – ٣٠ | حجازى – ٣٤ | سميح القاسم – ٤٠

ماهر شفيق – ٧٢ | خيرى منصور – ٨٠ | محفوظ – ٨٤ | المقالح – ٨٨

فريدة الشوباشى – ١٣١ | محمد المخزنجى – ١٢٨ | على سالم – ١٣٩ | فريدة النقاش – ١٤٠

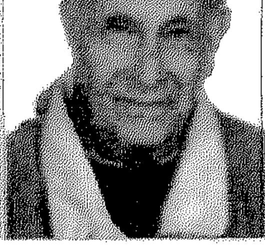
رأفت الميهى – ١٨٨ | حلمى سالم – ١٩٤ | سعد هجرس – ٢٠٠ | مهدى الحسينى – ٢٤٦






جابر عصفور – ٤٢ خيرى شلبى – ٥٨ إبراهيم فتحى – ٦٠ فاروق جويدة – ٧١





أحمد درويش – ٩٠ محمد حسن عبدالله – ٩٨ وديع فلسطين – ١٠٨ محمود سالم – ١١٦

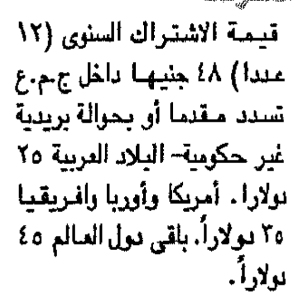




فكرى النقاش – ١٤٢ أمينة النقاش – ١٥٢ أنور عكاشة – ١٦١

مجدى الدقاق – ٦/ حلمى التونى – ١١٤/ أبو المعاطى أبو النجا – ١٢٠/ عبد المنعم رمضان – ١٣٦/ حسين عبدالرازق– ١٥٦/ سعيد إسماعيل على – ١٥٨/محمد أبوسنة – ١٦٤/ لينا كيلانى – ١٦٦/ أحمد زكى عبدالحليم – ١٦٨/ البهجورى – ١٧٢/ أحمد بدوى –١٧٨/ إبراهيم عبدالمجيد – ١٩١/ الفقيه – ٢٠٨/ ياسر شعبان – ٢١٨/ سعيد شعيب – ٢٢٢/ أحمد كشك – ٢٢٤/ سلوى بكر– ٢٢٦/ سعيد الكفراوى – ٢٢٧/ ناصر عراق– ٢٣٠/ عبدالنور خليل – ٢٣٣/ على حامد – ٢٣٦/ عبدالغنى داود – ٢٥٢/ صبحى حديدى – ٢٥٥/ صلاح عبدالصبور ٢٥٨



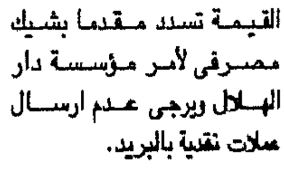


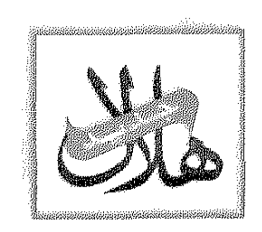
قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية– البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

بريد الاشتراكات

subscription_dep@yahoo.com





رجاء النقاش



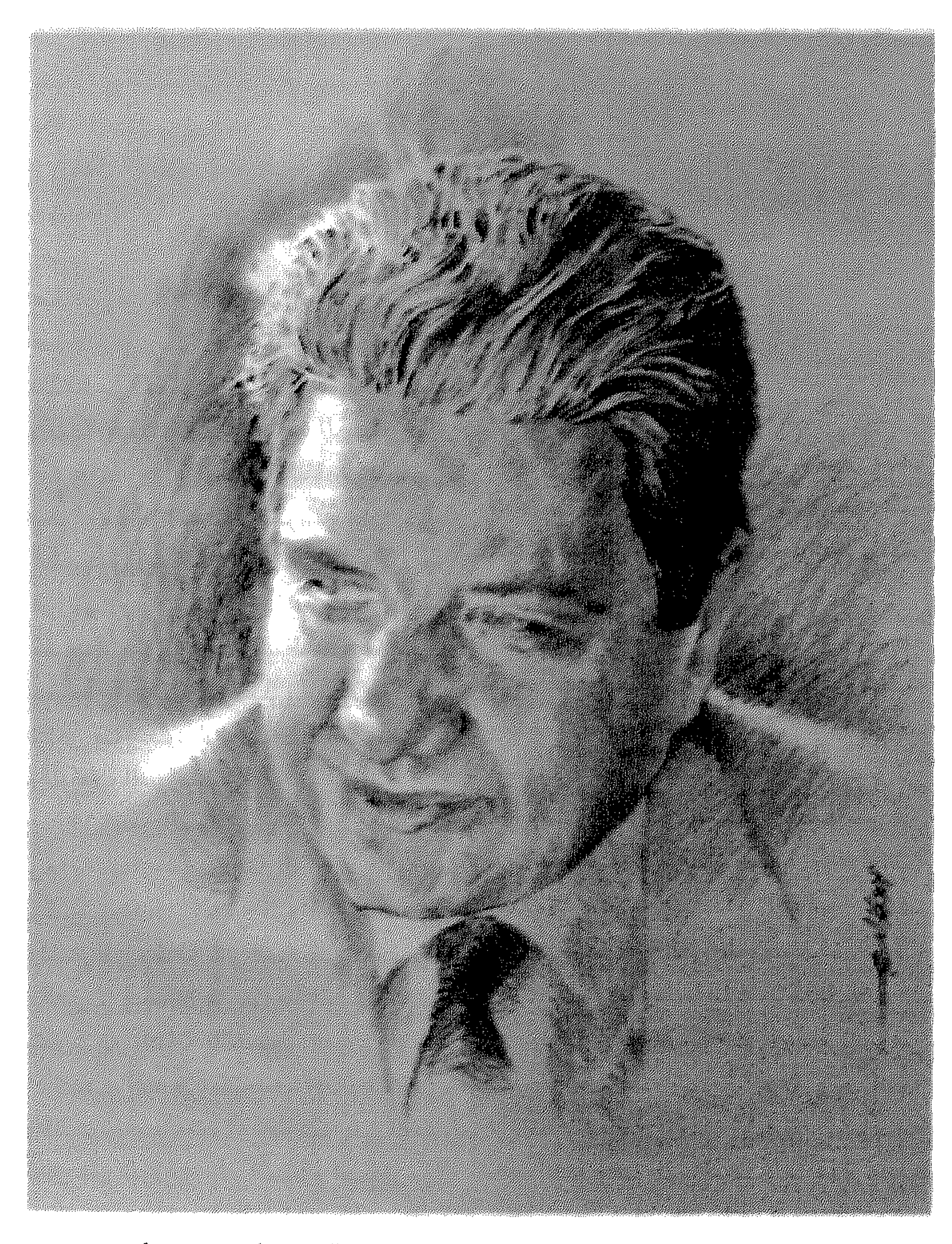
□ **مجدى الدقاق**

لهذا العدد قصة تستحق أن تُروى، فقد فكرت «الهلال» فى إصدار عدد خاص عن الكاتب والناقد الكبير الأستاذ رجاء النقاش، وبدأت فى إعداد خطة تنفيذه، وتم الاتصال بمجموعة من الكتاب للمشاركة فيه.

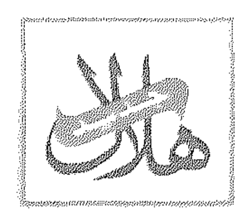
كان ذلك فى شهر يناير من العام الماضى، وفى غضون أيام قليلة تجمع لدينا ما يقرب من ١٠ مقالات، منها ما كتبه الأستاذ أحمد زكى عبدالحليم، الذى قُدر له أن يرحل منذ شهور قليلة ولا يرى سطور ما كتبه منشورة، ووعدنا عشرات المفكرين والأدباء والكتاب بالمشاركة فى هذا العدد، تقديراً لاسم وقلم «الأستاذ» ودوره الكبير فى الحياة الثقافية المصرية والعربية، ولكن تنفيذ العدد اصطدم برفض الأستاذ رجاء نفسه. وبكل تواضع لم يستحسن أستاذنا الكبير الفكرة، وفشلت جهودى «الصحفية» فى إقناعه، وبرقته المعهودة وأدبه الجم، أحرجنى قائلاً: «إذا كنت بتحبنى بلاش تكتب عنى»!!.

ولأننى أحبه وأحترمه وأقدره، احترمت رغبته، ولكننى لم أقتنع بأسبابه التى ساقها ومنها.. «لا يهم الناس أن تقرأ عنى»!!

ومنها أيضاً.. «من أكون حتى تصدر الهلال عدداً خاصاً عن رجاء النقاش»، وفهمت أن رفضه جزء من سياق شخصية أستاذى المتواضعة الرافضة للأضواء، المفضلة للعمل فى صمت. واكتشفت أن جزءاً من رفضه هو حرصه علىّ، وخوفه من حملة هجوم محتملة على «الهلال»



البورتريه للفنان محمد أبو طالب



بسبب الكتابة عن قلم ناقد شريف لايزال يكتب ويبدع دون حسابات شخصية!

ظلت الفكرة كامنة فى داخلى، ولكنها مؤجلة احتراماً لرغبته، ولكن قناعتى فى إصدار العدد ظلت قائمة وملحة لأسباب عديدة، فرجاء النقاش ليس كاتباً أو صحفياً عادياً، فهو فى تقديرى وتقدير المثقفين المصريين والعرب، حالة فكرية وأدبية، فقد ظل يثرى هذه الحياة طوال ٥٠ عاماً، ولا يزال قلمه الناقد، المستنير، يحرك مياه الثقافة العربية، وهى حالة أسست مدرسة فى النقد والإبداع لابد من قراءتها ودراستها، ربما يساعد هذا فى تعميم منهجها، وسط حياة أدبية مضطربة، ونقد لا يأخذ بأسباب الإبداع بقدر ما يعود للعلاقات الشخصية والمواقف السياسية.

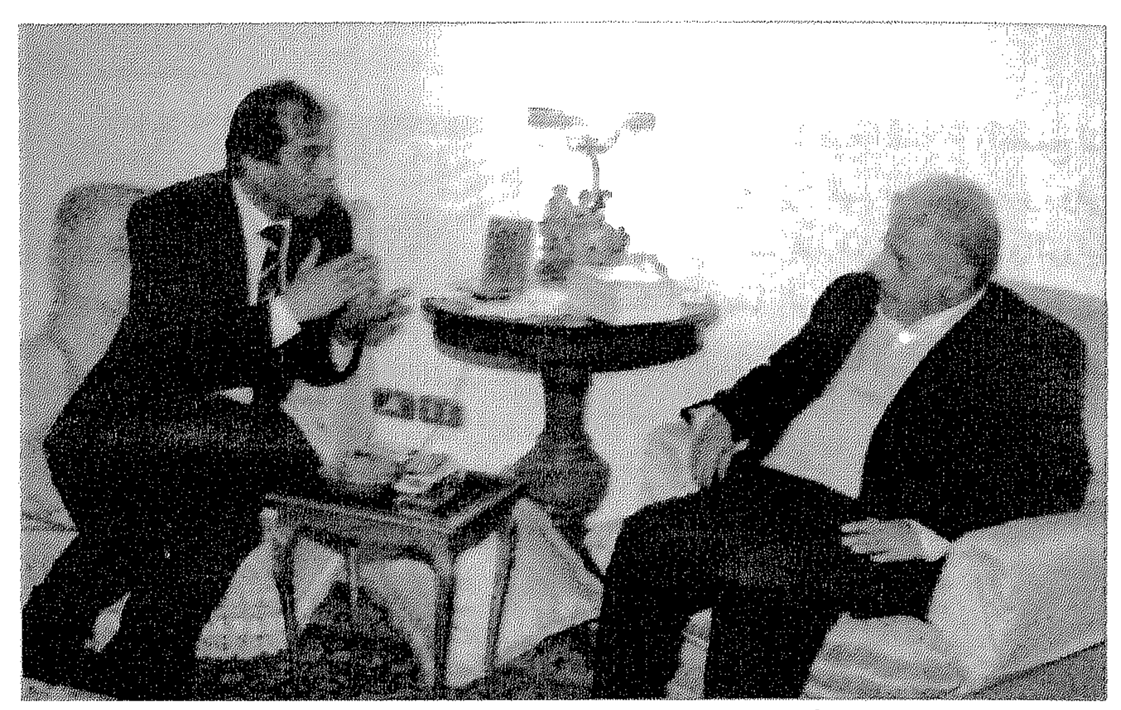
إن الدور الصحفى، والنقدى الذى لعبه رجاء النقاش فى حياتنا الفكرية، كان أحد ركائز تواصل الإبداع الروائى والشعرى والمسرحى وطاقة نور للمبدعين المصريين والعرب، فضلاً عن دوره الإنسانى الذى تميزت به علاقاته بالجميع.

عدت إليه فى منتصف العام الماضى، وطلبت منه «متعشماً» موافقته على العدد، فظل على موقفه، ولم أستطع إصداره إلا بموافقته، فأنا هنا صحفى يحترم رغبة مصدره ويحترم مهنته.

فى ديسمبر الماضى وعقب عودتنا من ندوة مجلة «العربى» بدولة الكويت الشقيقة، وبعد تقديمه لى ولمجلة «الهلال» أمام جمع غفير من المثقفين العرب، وإشادته بالمجلة وإصداراتها، ونكران دوره المهم والمؤثر فى مسيرة الهلال، قلت لنفسى، لقد طال الأمر، وعليك أن تمارس عشم التلميذ على أستاذه، وببعض من الأسباب الواقعية واستغلالا للحب والتقدير الذى يكنه لك، يمكنك أن تنجح فى إقناعه وانتزاع موافقته، وفعلت ذلك وأنا العارف بنقطة الضعف الأساسية لدى أستاذى وأخى الأكبر، فهو يحب النجاح ويفرح لنجاح الآخرين، ويملك قلباً يفيض حباً للبشر، وهو إنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى العطاء والمساندة، وإنكار الذات.

ذكّرته بنصائحه لى عندما عملت معه فى «المصور» منذ أكثر من عشرين عاماً، ومساندته لى، واختياره لى - وأنا الوافد الجديد - أخاً وصديقاً له، وكذلك بسؤالى المباشر له: لماذا يخصنى ببعض من همومه العامة والشخصية أثناء لقائنا اليومى بمكتبه فى «دار الهلال»، وكيف أجابنى بقوله: «إننى ألمح صفاء نفسك، وصدقك، وإخلاصك لعملك ولزملائك».

وذكرته ببرقيته لى عقب تشرفى بمسئولية رئاسة تحرير الهلال ومساندته لى منذ اللحظة الأولى، وزيارته الخاصة جداً للدار وهو الذى لم يدخلها منذ عشر سنوات، وقلت له: إن ما سأفعله هو حقك الذى يليق بك وبقلمك، فأنت صاحب فضل على الجميع، وكنت سندا وكاشفاً لكل


الأستاذ رجاء النقاش مع مجدى الدقاق رئيس التحرير

مبدع، ولكل قلم حاول نقش حروفه على سطح البحر الثقافى المتلاطم، فلماذا تحرم الأجيال الجديدة من قراءة تجربتك وإبداعك، الذى لم يعد ملكاً لك، بل هو ملك للحياة الثقافية المصرية والعربية؟ ولماذا لا تساعدنى على إرساء مبدأ تكريم من يستحق التكريم فى حياته؟ ولماذا تحرمنى
- بسبب أخوّتك وصداقتك وأستاذيتك لى
- من إصدار عدد خاص عن دورك وقلمك؟

ويبدو أن عريضة الدفاع هذه، واستغلال بعض الحب والعشم قد مسّا قلبه الرقيق، وبعد لحظات مرت كدهر علىّ، ابتسم ابتسامته الجميلة قائلاً: «اعمل اللى انت عايزه».

انتزعت موافقة الأستاذ، وحركت فريق العمل، فهالنى ما حدث، ٥٠ كاتباً رحبوا بالفكرة من مصر وفلسطين وسوريا واليمن وليبيا والأردن، وخلال ١٥ يوماً فقط كان بين أيدينا ٥٠ دراسة ومقالاً وقصيدة ونحو خمسة عشر بورتريها ولوحة ترسم ملامح رجاء النقاش (القلم والإنسان).

مارست عشمى مرة أخرى، طلبت منه ومن السيدة الفاضلة الدكتورة هانية عمر زوجته، أن يمدنى ببعض الإصدارات التى لا أملكها وملف الصور الخاصة برحلته ومسيرته الحياتية والثقافية والصحفية، وطلبت نفس الشىء من شقيقتيه الزميلتين الأستاذتين فريدة وأمينة النقاش وكذلك من كل أصدقائه ومحبيه. وزاد طمعى المهنى، وقلت له أريد أن أفتتح العدد بحوار خاص، فابتسم وهو «الصنايعى» و«المعلم»، وحدد لى موعداً قائلاً: «أهلا بيك أنت ومن يحضر معك من أسرة الهلال».

ذهبنا إلى منزل الأستاذ، يتقدمنا الفنان المبدع الصديق محمد أبو طالب ورافقنا الكاتب والشاعر العربى الصديق الجميل خيرى منصور، وزميل الدراسة المهووس بالحَرْف والصحافة على حامد



والزميلة الجميلة الفنانة التشكيلية سهام وهدان ومعنا بالطبع الفنان المصور الفوتوغرافى الزميل إبراهيم بشير وهو يحمل آلة التصوير ليسجل بعدسته صور اللقاء.

بترحاب وأخوية تعودناها من أسرة كاتبنا الكبير، استقبلتنا الدكتورة هانية عمر زوجة الأستاذ ورفيقة عمره وكفاحه وإبداعه.

امتدت جلسة الحوار لساعات، ودارت شرائط التسجيل.. وكان الحوار والعدد الذى انتظرناه عاماً كاملاً.

❑❑❑

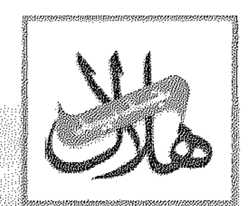
عبقرية القرن العشرين

❑ ....

- كان لى رأى قديم مازلت متمسكا به وهو أن القرن العشرين فى الثقافة العربية هو قرن عبقرى وقد ناديت مراراً بأن نعيد إحياء الإنتاج الثقافى لهذا القرن ونضعه بين أيدينا وأمام أجيالنا الجديدة، فهذا الإنتاج الثقافى الذى أصفه بالعبقرية دون مبالغة هو بداية نهضة كبيرة نحتاج إليها، ولا يمكن لهذه النهضة أن تتم دون أن نكون على صلة وثيقة بإنتاج القرن العشرين. فهو قرن تجديد اللغة وتجديد الفكر الدينى وفتح الأبواب أمام الفكر السياسى الغربى الذى بدون استيعابه والاستفادة منه لا يمكن أن نقيم حياة سياسية سليمة، كما أن هذا القرن هو القرن الذى عرفنا فيه المسرح وأصبح لنا فيه كتَّاب موهوبون لهم أهمية وتأثير. وفى هذا القرن عرفنا فن القصة والرواية ووصلنا فيهما إلى درجة عالية من القيمة والأهمية وهو ما اعترف به العالم فى شخصية عظيمة مثل نجيب محفوظ، أصبح قراؤه فى قارات الدنيا المختلفة وفى لغات الأرض المتعددة أكثر من قرائه فى العالم العربى، وكذلك يوسف إدريس أحد سادة القصة القصيرة فى العالم كله باعتراف النقاد الأجانب قبل النقاد العرب، وفى هذا القرن العبقرى، أى القرن العشرين ظهرت لأول مرة مواهب فى الفنون التشكيلية اعترف بها العالم ووقف أمامها مندهشا مبديا إعجابه بهذا الانفجار الفنى الرائع المفاجىء الذى ترجمته تماثيل مختار ولوحات سيف وأدهم وانلى وراغب عياد وأحمد صبرى وتحية حليم وغيرهم، وقد جاءت هذه الأعمال كلها بعد أن توقفت مسيرة الفن التشكيلى فى بلد كان سيدا عملاقا فيها مثل مصر منذ آلاف السنين حتى مطلع القرن العشرين، وفجأة دبت الحياة فى النهر الذى ظن الجميع أنه جف إلى الأبد، فإذا به يسيل بنهر بديع يثير الدهشة والمتعة والاحترام فى كل مكان فى العالم، ولابد من الإشارة هنا إلى أن الموسيقى العربية الحقيقية الجديرة بأن نطلق عليها هذا الاسم قد ظهرت فى هذا القرن، ويكفى أن نشير فى هذا المجال إلى عبقرية سيد درويش المدهشة والتى أحيت الموسيقى العربية ومنحتها قوة لم تكن



الأستاذ رجاء النقاش مع زوجته ورفيقة عمره وإبداعه د. هانية عمر



موجودة فيها بل إن الموسيقى العربية نفسها - هى فى ظنى - لم يكن لها وجود محسوس أما الأدباء والمفكرون والشعراء فما أروع وما أجمل وما أعمق هذه الأسماء: طه حسين، وتوفيق الحكيم، العقاد، المازنى، زكى مبارك، الزيات، أحمد أمين، عبد الرحمن الرافعى وغيرهم مما لا يتسع المجال لذكرهم.

هذا القرن الجبار كيف نهمله كل هذا الإهمال إنك لو حاولت الآن أن تعثر على كتاب واحد لطه حسين أو العقاد أو المازنى على سبيل المثال لكان ذلك من أصعب الأمور بينما الواجب كان أن نجعل من هؤلاء جميعا مثل لقمة الخبز متاحة للجميع، وخاصة لأبناء الأجيال الجديدة، فمن هذا التراث المعاصر تتعلم هذه الأجيال لغتها، وتكّون شخصيتها الأخلاقية، وترتقى بأفكارها بعيدا عن التعصب والتطرف وضيق الأفق والسقوط فى أيدى الجاهلين أعداء الحضارة والتقدم.

إننى أكرر النداء بأن تكون لنا نهضة بل ثورة فى إعادة نشر تراث القرن العشرين بأمانة وعناية وحرص على أن يصل للجماهير الشعبية الواسعة وإلا - والله - إن لم نفعل فسوف نكون من الهالكين فى خضم البحر الهائج الخطير للحضارة العصرية .

أول كتاب في حياتي

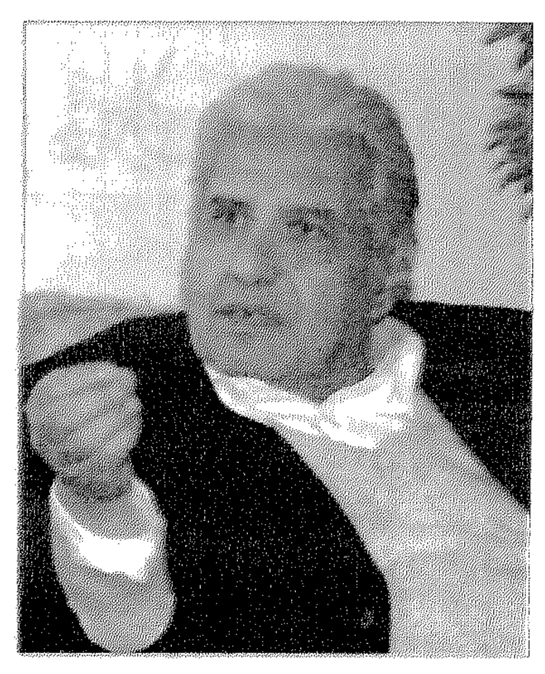
□ ....

- كان أول كتاب له تأثير فى حياتى هو القرآن الكريم ولا أعنى بذلك الجانب الدينى من القرآن، فهذا الجانب هو جانب عام مشترك بينى - كمسلم - وبين سائر المسلمين فى كل أنحاء الأرض.

وقد كتبت فى السنوات الأخيرة كثيرا عن التأثير القرآنى فى حياتى الأدبية والأخلاقية، بعيدا عن التأثير الدينى البديهى عند كل مسلم يقرأ القرآن ويقترب منه، ولا أرى بأسا فى أن أعيد بعض ما قلته عن هذه القضية فى السابق، وعندما أحاول أن أراجع مطالعاتى الأولى فإننى أجد صعوبة كبيرة فى تذكر أول كتاب قرأته، ولكننى لا أستطيع أن أنسى أننى فى هذه المرحلة كنت شغوفا جداً بأن أحفظ بعض سور القرآن الكريم فى هذه السن المبكرة. وقد ساعدنى والدى المرحوم عبد المؤمن النقاش على ذلك لأننى كنت أجد صعوبة فى قراءة أى سورة من سور القرآن وحدى، وكان أبى رحمه الله شاعراً أديباً كما كان من علماء الدين فى قرية صغيرة «منية سمنود» محافظة الدقهلية (المنصورة) وكان أبى يقول لى: عليك أن تفهم أولاً قبل أن تحفظ، ولابد أن تعرف معانى الألفاظ الصعبة ثم عليك أن تقرأ قراءة صحيحة من حيث التشكيل، وهو ما نسميه فى علوم اللغة باسم الإعراب، ويعد فهم الألفاظ وتشكيلها تشكيلا صحيحاً فإن الحفظ يكون سهلا، ولا أزعم أننى استطعت أن أحفظ كل القرآن ولكننى

حفظت بعض السور، وخرجت من هذا الحفظ المعتمد على فهم للألفاظ وصواب فى نطقها، وأنا فى حالة حب شديد للغة التى يمكن أن نسميها باسم اللغة القرآنية، وقد ساعدتنى هذه المحبة التى تكونت عندى فى بداية حياتى على قراءة القرآن كله بعد ذلك مرات عديدة، وقد يبدو غريبا أن أقول هنا: إن القرآن الكريم هو الذى يضم العهد القديم وهو «التوراة» والعهد الجديد وهو «الإنجيل»، وذلك لأن القرآن يعلمنا أن نؤمن بالأنبياء والرسل السابقين على سيدنا محمد(ص)، وما جاء فى القرآن عن موسى وعيسى يرسم لهذين النبيين الكريمين صورة رائعة مليئة بالتقدير والتكريم والمحبة، ولذلك فقد خلق القرآن عندى رغبة فى قراءة الكتاب المقدس فقرأته وكثيرا ما أعود إليه بين الحين والحين.

أريد أن أتحدث هنا عن جانبين من جوانب المتعة والفائدة العالية من قراءة القرآن الكريم، أما الجانب الأول فهو جانب أدبى وفنى وذوقى، ذلك أن القرآن ملىء بالصور الفنية الرائعة المؤثرة، وهى صور مدهشة من الناحية الأدبية الخالصة، عندما نقرأ الآية التى تقول:«ولما سكت عن موسى الغضب»، فإننا نتخيل على الفور أن الغضب له صوت زاعق داخل النفوس، وإن الغضب لا يهدأ ولا ينتهى ولكنه «يسكت»، وهذه صورة بالغة الحيوية والجمال والتأثير، وعندما نقرأ آية كريمة أخرى تقول: فوجدا جدارا يريد أن ينقض، فسوف نجد أن هذا الجدار الذى



القرآن الكريم هو الذى دفعنى لقراءة التوراة والإنجيل

هو على وشك الإنهيار وكأنه قد أصبح كائنا حيا له إرادة، وهو يريد أن ينقض، أى أن ينهار، وهذه صورة رائعة أخرى تهز شعر الرأس، لأن الجدار وهو جماد فى جماد، قد أصبح فى هذه الصورة واحدا من الكائنات الحية، ولعلك تصدقنى إذا قلت لك أن هذه الآية الكريمة بعد أن قرأتها وحفظتها، أشعر أن الأشياء المادية جميعها فى هذه الدنيا لها روح، ولذلك فأنا لا أستطيع أن أتعامل معها على أساس أن عندها إحساسا خاصا بها، وأن من واجبى أن أحافظ على إحساسها ولا أجرحه.

والخلاصة أننى استفدت من القراءة المتأنية الحريصة على فهم كل كلمة وكل آية الكثير من المعرفة باللغة العربية، لا من حيث الألفاظ فقط، ولكن من حيث التذوق والتصوير الفنى القادر على التأثير الكبير



فى النفس، ولا أتصور أن هناك من يحب الثقافة، ويريد أن يكسب لنفسه ذوقا رفيعا سليماً يمكنه أن يصل إلى شىء من ذلك دون أن يقرأ القرآن قراءة فهم واستيعاب من الناحية اللغوية والأدبية والأخلاقية، أما الناحية الدينية فمن البديهى أنها واجب على الجميع.

الشعر والرواية

□........................

- ما يقال الآن هو أن الزمن الأدبى الراهن هو زمن الرواية وليس زمن الشعر. لقد اختفى الشعراء وظهر الروائيون، والروائيون هم نجوم الأدب الذين يسعى وراءهم الجمهور ويحرص على متابعتهم وهذا صحيح فى الظاهر، فهناك عدد كبير من الروائيين الذين ظهروا بعد نجيب محفوظ وأحبهم الناس ووثقوا بهم ومنهم على سبيل المثال وليس الحصر بهاء طاهر وخيرى شلبى وعلاء الأسوانى وإبراهيم عبدالمجيد وجميل عطية إبراهيم، وغيرهم ولكننى لا أرى فى هذه الظاهرة إلغاء أو إقصاءً لدور الشعر والشعراء، فما يزال عندنا حركة شعرية قوية يغذيها شعراء كبار خاصة إذا أضفنا إلى هذه الحركة الشعرية ما يكتبه شعراء العامية الموهوبون مثل الأبنودى وسيد حجاب وجمال بخيت وبهاء جاهين وغيرهم، فالشعر موجود والرواية لم تنزل الشعر من عرشه. والأصح أن نقول إن الثقافة كلها بما فيها من شعر وأدب روائى هى فى وضع عام على هامش الحياة العربية الراهنة. الثقافة للأسف لا تشغل إلا هامش الحياة العربية فلا أهل السلطة ينظرون إليها نظرة اهتمام جدى ولا الجمهور يهتم بها ويقبل عليها، فقد ابتلعت السياسة والهموم الاقتصادية دور الثقافة وأعادته كثيرا إلى الوراء. وفى هذا الوضع خطر عظيم على الأمة لأنه عندما تختفى الثقافة الحقيقية تحل محلها ثقافة زائفة مليئة بالخرافات والانحرافات، وتلك هى البيئة التى يظهر فيها التعصب والتطرف وانعدام الحوار والاهتمام بالشكليات والبعد عن جوهر الأمور.

وهذه الثقافة الزائفة هى ثقافة التخلف وهى التى تعوق نهضة الأمة وتقدمها. وبدون ثقافة قوية حقيقية مستنيرة نابضة بالحياة فإنه يستحيل على الأمة أن تتقدم وأن تعالج مشاكلها الصعبة علاجا صحيحا نافعا، فالمسألة إذن فى النهاية ليست فى تقدم الرواية على الشعر أو الشعر على الرواية، وإنما هى أن الثقافة الحقيقية مطرودة إلى هامش الحياة ولابد من معالجة هذا الوضع وتصحيحه إذا أردنا أن نمشى إلى الأمام، وأن نواجه تحديات الحياة، الكبيرة وننتصر فى هذه المواجهة بدلا مما هو حادث الآن من أننا ننهزم وننكسر فى كل مواجهة جدية، لأننا لانملك المقومات الثقافية الحقيقية لمثل هذه المواجهة.

رؤساء مصر

□....................

- عندى وجهة نظر قد يعترض عليها

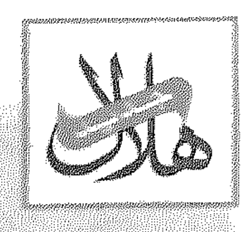
البعد ، ولكن أومن بها وأتمنى أن يؤمن بها غيرى، أنا أدعو إلى معاملة زعماء مصر عند دراستهم تاريخيا معاملة منصفة تقوم على الاحترام ومحاولة الفهم الصحيح والظروف الصعبة التى كانت تحيط بهؤلاء الزعماء فى فترة قيادتهم، أما النظرة العشوائية العاطفية الشخصية إلى هؤلاء الزعماء، فأظن أنها غير موضوعية وغير مرضية، فالزعماء لايتصرفون من فراغ ولكنهم يكونون محاطين دائما بظروف داخلية وظروف خارجية عليهم أن يحسبوا حسابها ويضعوها أمام عيونهم وهم يتخذون قراراتهم، وبعض هذه الظروف تكون ظاهرة للرأى العام وبعضها الآخر يكون معروفا للزعماء فقط، ويكون من الصعب الكشف عنه لما قد يترتب على ذلك من نتائج سلبية.. وأضرب لذلك مثلا بأن مصر فى عهد عبدالناصر وفى لحظة من لحظات الأزمات القاسية لم يكن لديها سوى مخزون قمح لا يكفى إلا لأكثر من أيام قليلة، وما لم يتم العثور على حل عاجل خلال ساعات قليلة، فإن معنى ذلك أن مصر سوف تصحو بعد نفاد المخزون القمحى على صباح لا يجد فيه الشعب كله رغيف خبز واحد . وقد استطاع عبدالناصر بجهد خالص أن يحل هذه الأزمة العسيرة بفضل ما كان يحظى به من ثقة واحترام عند السوفييت، فقاموا بتحويل شحنات من القمح كانت فى طريقها إلى الاتحاد السوفييتى لكى تفرغ حمولتها فى الموانىء المصرية، ولولا هذا الحل الذى لم يكن سهلا على الإطلاق لوقعت كارثة، وقد تم إخفاء أنباء هذه

بدون ثقافة مستنيرة نابضة بالحياة لن نحقق التقدم والنهضة

الأزمة ولم يعرف بها الرأى العام إلا بعد أن تم حلها، وعلينا هنا أن نتصور كم كان ذلك أمرا مثيرا للقلق والتوتر والتعب عند القائد المسئول وهو عبدالناصر، وليس من الإنصاف أن يتم الحكم على أى زعيم دون دراسة ما كان يحيط به من مصاعب وعواصف من ضغوط داخلية وخارجية .

وأحب أن أضرب مثلاً آخر فى عهد السادات، فقد عرفنا بعد حرب ١٩٧٣ أن مصر كان فيها خزانة فارغة توشك على الإفلاس التام قبل قيام الحرب بفترة قصيرة، وكان لابد من إخفاء هذا الأمر وتدبير ما يمكن به أن تستمر الحياة ولو لفترة قليلة حتى يمكن للحرب أن تحقق بعض أهدافها، والحق أن هذه كانت أزمة خطيرة تحتاج إلى أعصاب قوية وصبر شديد واتساع فى الحيلة لانقاذ البلاد من الإفلاس والانهيار الاقتصادى فى وقت حساس مثل هذا الوقت .

هذان مجرد مثالين للأزمات الخطيرة



التى تحيط بالزعماء ولابد أنها تتحكم فى القرارات التى تصدر عنهم، فإذا نظرنا للقرارات وحدها فربما اعترضنا عليها، ولكننا إذا نظرنا إلى ما يحيط بهذه القرارات من ظروف واعتبارات، فإن ذلك يكون أقرب للفهم الصحيح والإنصاف العادل .

هذا ما أدعو إليه عند أى دراسة تاريخية، أى احترام الزعماء ودراسة ظروفهم المحيطة بهم، ولابأس بعد ذلك من أن يكون هناك اختلاف واعتراض على بعض ما يستحق الاعتراض، ولكن بعد البحث والدراسة والتأنى فى معرفة الظروف والأحوال .

أعود بعد ذلك إلى كلمات سريعة حول زعمائنا الثلاثة: عبدالناصر والسادات وحسنى مبارك .

فعبدالناصر كان زعيما عظيما وكان عصره مليئا بالأحلام الكبيرة التى تحقق بعضها وانكسر بعضها الآخر. وقد كان عبدالناصر يمثل إرادة الشعب فى نهضة سريعة قوية عادلة، وكان لا يتردد فى عمل أى شىء من أجل تحقيق ذلك. ولأن مشروع عبدالناصر كان يعنى أن تصبح مصر الصغيرة الضعيفة بلدا آخر قويا له تأثير محسوس على المحيط الذى تعيش فيه، فقد اجتمع الأعداء لتحطيم عبدالناصر وتحطيم مشروعه، مما تجسد فى نكسة ١٩٦٧، ولكن مشروع عبدالناصر سيظل هو المشروع الأساسى للنهوض بمصر وتحقيق العدالة لشعبها. وبصرف النظر عن التفاصيل التى يمكن أن تتغير وأساليب العمل التى يمكن أن يحل محلها أساليب أخرى، فإن العناصر الأساسية فى المشروع الناصرى تبقى صحيحة، ولا بديل عنها وعلينا، أن نتخلص من كل المشاعر الخاصة والتفكير الشخصى وغير ذلك، لكى نواصل العمل من أجل إكمال هذا المشروع .

السادات نموذج آخر مختلف تماما عن عبدالناصر. ولكن السادات هو صاحب الفضل فى حرب ١٩٧٣، وصاحب التخطيط الناجح الذى جعل من هذه الحرب فى مراحلها الأولى - نصرا تاريخيا لاشك فيه، فهذه صفحة مشرقة فى تاريخ السادات لايمكن تجاهلها، بعد ذلك فاجأنا السادات بنظريته الواقعية التى تقوم على رفض الأفكار السابقة والاعتراف بالحقائق الموجودة أمام العين، وهذه النظرية فيها جوانب إيجابية لأنها تقلل من تأثير الأوهام والخيالات والأحلام على المواقف والقرارات. ولكن السادات فيما يبدو لى قد بالغ فى واقعيته، وأضاف إليها «لزوم مالا يلزم». فإذا كان السادات على حق فى محاولته ترميم العلاقات المصرية الأمريكية وإزالة الغيوم الكثيفة فى هذه العلاقات، وعدم الاستهانة بقوة أمريكا بالنسبة لنا وبالنسبة للعالم كله .. إذا كان هذا صحيحا، وكان السادات فيه على حق، فما الذى يدفع السادات إلى إيذاء السوفييت وتوجيه الإهانات لهم فى كل مناسبة بل وبدون مناسبة، فقد طرد

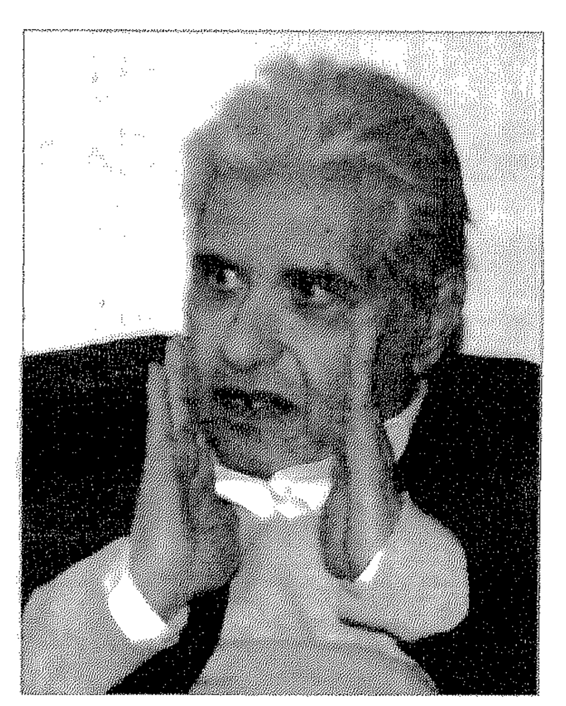
السادات السوفييت من مصر فى مسرحية تهدف إلى إهانتهم، وكان يمكن تحقيق ذلك دون إهانة هؤلاء الذين ساعدونا فى أشد أزماتنا خطرا، ثم ماهى الصلة بين تصحيح العلاقات المصرية الأمريكية وإعادة النظر فيها وبين الصداقة المبالغ فيها، والمفتعلة والتى وصلت إلى حد العشق بين السادات وشاه إيران، وما هى العلاقة بين ذلك وبين تسليح المجاهدين الأفغان وتحريضهم على السوفييت، وغير ذلك من المواقف التى اتخذها باندفاع شخصى شديد لم يكن يبرره شىء من الحكمة السياسية ولم يكن يفسره ما نادى به السادات من الواقعية، فالواقعية ليست ضد الحكمة وليست ضد الحسابات السياسية الدقيقة. وأظن أن الواقعية على طريقة السادات ستظل لوقت طويل موضع جدل بين خصوم كثيرين وأنصار كثيرين .

أما الرئيس حسنى مبارك فأنا لا أملك أن أقول عنه شيئا لأننى من المحبين له والمقدرين لجهوده كما أننى أثق فى وطنيته وإنسانيته وأنا مدين له كثيرا فلولا رعايته لى بعد محنة مرضى منذ حوالى عامين لكنت الآن فى عداد الموتى منذ وقت طويل والحمد لله الذى قدر لى أن أكون موضع رعاية الرئيس مبارك وعنايته .

٥٤ سنة صحافة

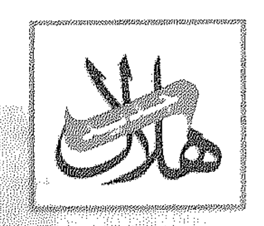
□ ....

– أعمل بالصحافة منذ سنة ١٩٥٣، عندما اختارنى أستاذى الفنان الإنسان زكريا الحجاوى لكى أعمل فى جريدة كانت تحت الإنشاء فى ذلك الوقت وهى جريدة «الجمهورية» وكان زكريا الحجاوى



لابد من إعادة إنتاج التراث الثقافى والفكرى للقرن العشرين لأنه قرن عبقرى فى كل مجالات النهضة

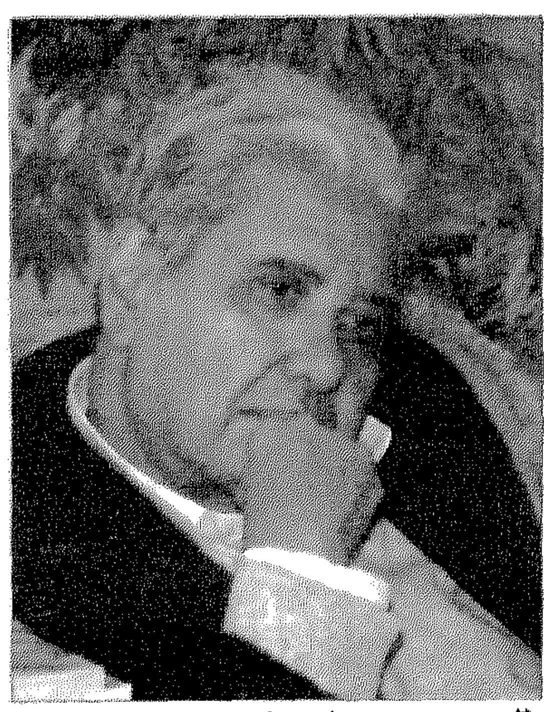
سكرتيرا للتحرير أما المدير العام للجريدة فكان أنور السادات وكان رئيس التحرير حسين فهمى وكان من المعروف للجميع أن زكريا الحجاوى هو أقرب صديق للسادات لأنه كان يعرفه منذ ما قبل الثورة وكان يعرفه عندما كان السادات مطرودا من الجيش وقد وقف الحجاوى إلى جانب السادات بصورة قوية وسانده مساندة كبيرة فى أزماته المختلفة ومن هنا كان الظن أن الحجاوى سوف يكون رجل السادات القوى فى مشروع جريدة الجمهورية والحق أن زكريا الحجاوى قد ساعد مساعدة أساسية جدا فى بناء الجمهورية حيث إستطاع أن يجمع لها عددا من أفضل الكفاءات الصحفية التى كانت معروفة فى تلك الفترة مثل إبراهيم موسى رئيس القسم الخارجى وإبراهيم



عامر المحرر السياسي وعبدالسلام الشريف أمير فن الإخراج الصحفي في تلك الفترة وغيرهم وقد اختارني الحجاوي للعمل في وظيفة متواضعة هي وظيفة التصحيح وكنت طالبا في الجامعة وكنت بأشد الحاجة لمثل هذا العمل حيث أن ظروفي الاقتصادية لم تكن تساعدني أبدا على إكمال تعليمي الجامعي بدون ذلك وكان مرتبي عشرة جنيهات في الشهر، كان لها فضل كبير على تمكني من الاستمرار في الدراسة وهو فضل لا أنساه لأستاذي زكريا الحجاوي بل وأقول أنه فضل لا أنساه للسادات، رغم أن السادات لم يكن يعرفني ولم تكن لي به أية صلة، وإنما كان تعييني في هذه الوظيفة بناء على طلب من الحجاوي. على أنني في هذه الفترة تعرضت لما أسميه أول صدمة ثقافية في حياتي ذلك أننا فوجئنا قبل صدور العدد الأول من الجمهورية بعدة أسابيع بصدور قرار تم تعليقه على مدخل الجريدة بإيقاف زكريا الحجاوي عن العمل ومنعه من دخول الجريدة وقد كان هذا قرارا عجيبا وغير مفهوم لأن الحجاوي، كان صاحب الفضل الأول في تأسيس الجريدة وإعدادها النهائي للصدور وقد كان ما أصابه جزاءً ظالما ومتناقضا مع ما كان شائعا لصداقته لأنور السادات وقد كان هذا القرار صادرا من أنور السادات وبتوقيعه ولم نعرف للأمر سببا واضحا سوى ما كان يتردد من شائعات بأن هناك تقارير سرية تم تقديمها للسادات تقول له إن زكريا الحجاوي يتآمر عليه وقد صدق السادات ذلك وتصرف بناء على ما جاء في هذه التقارير العجيبة .

على أنه لم تمض سوى فترة قصيرة بعد صدور الجمهورية، حتى تعرضت أنا للفصل لأنه لم يعد في الجريدة من يعرفني أو يحميني بعد خروج الحجاوي، وكانت نفقات الجريدة قد زادت بصورة عالية جدا، نتيجة للمجاملات وسوء الإدارة، وكان لابد من أن تصدر قوائم متتالية للذين يتم الاستغناء عنهم.. وكنت أنا من هولاء، ولحسن حظي أنه لم تمض سوى أسابيع قليلة على فصلي من الجمهورية، حتى رشحني أستاذي الناقد الكبير أنور المعداوي للعمل في مجلة الإذاعة الأسبوعية، وقد عملت في هذه المجلة مراجعا لكل المادة التي تنشر فيها، وكان من حسن حظي أن أجد في نفس المجلة أخي وصديقي الفنان الكبير صلاح جاهين الذي كان مسئولا عن إخراج المجلة، وكنت أنا وهو نشغل غرفة واحدة، ونلتقي كل يوم بصورة منتظمة ومن الطرائف التي قابلتني في الفترة الأولي من عملي بمجلة الإذاعة أن أول رئيس تحرير عملت معه كان اسمه عبدالعزيز أحمد عرابي وهو النجل الأصغر للزعيم عرابي، وسبحان الله كان عبدالعزيز صورة طبق الأصل من والده العظيم، وكنت كلما رأيته أهب واقفا وأحيانا مذعورا لأنني كنت أتخيل أن ما

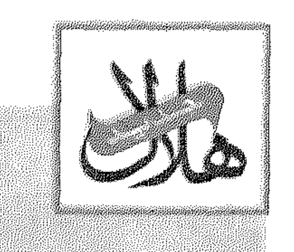
أعيشه ليس حقيقة وانما هو وهم وخيال وكان الرجل يسعد لمعاملتي له وإن مندهشا من شدة مبالغتي في إجلالي واحترامي له، على أن هذه الفترة لم تطل وتغير عبدالعزيز عرابي ولم أعرف شيئا عن مصيره بعد ذلك وجاءني رئيس تحرير جديد. وقد بقيت في مجلة الإذاعة من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٥٦ وبعد أن تخرجت من كلية الآداب في يونيه سنة ١٩٥٦ عملت في الإذاعة نفسها في قسم التمثيليات مع الأستاذ الكبير يوسف الحطاب الذي كان رئيسا لهذا القسم وقد عينني معه قارئا للنصوص ورغم أنني والحمد لله نجحت في هذا العمل ولفتت تقاريري الفنية عن نصوص التمثيليات أنظار المسئولين إلا أنني لم أستمر طويلا في هذا العمل لظروف لا مجال لشرحها الآن وانتقلت للعمل مع الكاتب الفنان سعد الدين وهبه في المجلة التي كان يحررها في ذلك الوقت وهي مجلة البوليس. ورغم أن المجلة كانت مجلة عامة ممتازة، وكان يكتب فيها عدد من كبار كتابنا في ذلك الوقت مثل الدكتور محمد مندور ومحسن محمد والدكتور عزالدين إسماعيل، إلا أنني كنت أشعر بالخجل الشديد، لأنني كنت أعمل في مجلة تحمل اسم البوليس ولم يكن في هذا الشعور شيء ضد البوليس.. نفسه ولكن في تلك الفترة وفي السنوات الأولى من الثورة كانت قبضة الأجهزة الأمنية قوية وعنيفة. وكان الاتصال بهذه الأجهزة من شخص مدني لا علاقة له أصلا بها يثير الشك عند



قصيدة النثر ثورة كبيرة في الشعر العربي وعدم استقرارها فيه خطر غير محدود

الكثيرين لأن هذا الشخص هو مخبر يكتب تقارير سرية ضد الآخرين وقد كان مثل هذا الاتهام قاسيا جدا وكفيلا بتعكير صفو حياة من يتعرض له خاصة إذا كان مثلي مجرد صحفي لا علاقة له بهذه الأمور ولا يسمح له ضميره أبدا بالمشاركة في شيء منها، ولكن لم يكن أمامي حيلة سوى الاستمرار في العمل، خاصة أني كنت أكتب باسمي الصريح مقالات أدبية هي كل ما كنت أرجو أن يحاسبني الناس عليه.

بقيت في مجلة البوليس لمدة سنتين، ثم خضت تجربة عجيبة هي العمل في جريدة يومية كانت تصدر في دمشق في أيام الوحدة هي «جريدة الجماهير» التي كان يرأس تحريرها الدكتور جمال الأتاسي،

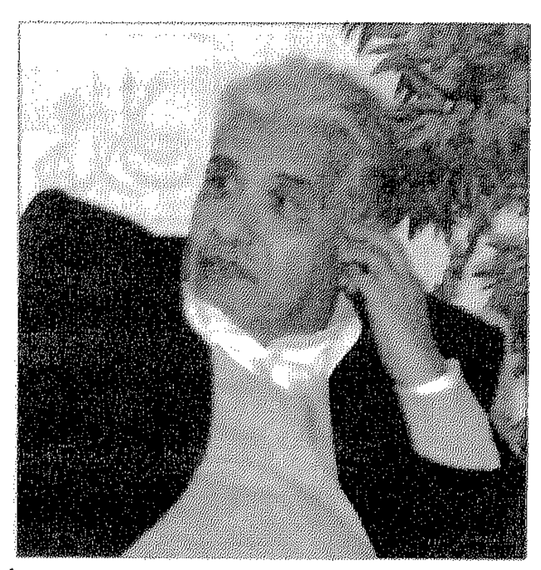


وقد أصبح معروفا بعد الانفصال أنه زعيم الانفصاليين في سوريا ولكن أيام الوحدة كانت التقارير لا تنتهي ضده على أنه يتآمر على عبدالناصر ونظامه، ولذلك لم تستطع «جريدة الجماهير» الاستمرار بعد توالي التقارير السرية الأمنية ضدها وضد رئيس تحريرها، ولذلك توقفت عن الصدور في سبتمبر سنة ١٩٥٩ واضطررنا نحن المصريين العاملين فيها إلى العودة لمصر في ظروف بالغة الصعوبة فلم يكن لدينا مرتبات ولم نحصل على مكافآت ولا على أي شيء وقد امتد عملنا عدة شهور فقط هي عمر الجريدة من أبريل سنة ١٩٥٩ إلى سبتمبر ١٩٥٩، وأذكر من الذين شاركتهم في العمل بالجريدة الأخوين العزيزين أحمد عبدالمعطي حجازي الشاعر الكبير وحمدي قنديل الإعلامي المشهور.

عدت إلي مصر وعملت تقريبا في كل المؤسسات الصحفية المصرية وكانت البداية في «روز اليوسف» ثم انتقلت منها سنة ١٩٦١ إلى أخبار اليوم وفي أول سنة ١٩٦٤ انتقلت إلى جريدة «الجمهورية» وبعد عام واحد استدعاني أستاذي أحمد بهاء الدين للعمل معه في دار الهلال ومع الأستاذ بهاء توليت رئاسة تحرير مجلة «الكواكب» لفترة ثم توليت رئاسة تحرير مجلة «الهلال» ابتداء من سنة ١٩٦٩ واستمر عملي فيها حتى ١٩٧١ حيث انتقلت للعمل في مجلة الإذاعة والتليفزيون رئيسا لمجلس الإدارة ورئيسا للتحرير ولم يستمر بقائي طويلا في المجلة حيث أن الوزير الذي اختارني للعمل فيها وهو الأستاذ الكبير محمد فائق كان قد دخل السجن في انقلاب ١٥ مايو المعروف ورغم أن الاعداد التي أصدرتها من مجلة الإذاعة والتليفزيون «١٩ عدداً» قد لقيت نجاحا غير محدود بين الجمهور والرأي العام الصحفي والثقافي إلا أن الظروف التي أحاطت بهذا العمل كانت من الصعوبة بمكان كبير. وقد حمدت الله على أنني خرجت من هذا العمل دون أن يزج بي في السجن بتهمة الانتماء لمراكز القوى وهي تهمة ملفقة تعرض لها الكثيرون حيث أن مراكز القوى هذه كانت هي الدولة وكان لا يمكن لأحد أن يعمل خارج نطاق هذه الدولة.

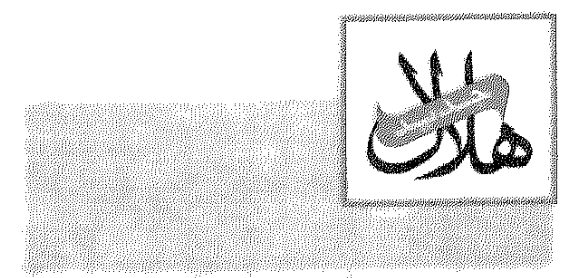
عدت بعد ذلك إلى دار الهلال مرة أخرى في أوائل عام ١٩٧٢ حيث عملت محررا أدبيا في مجلة المصور وبقيت في عملي هذا عدة سنوات حتى تولت أستاذتي الكبيرة أمينة السعيد رئاسة مجلس إدارة الهلال فعينتني مسئولا عن مجلة الهلال وحاولت أن تصدر قرارا برئاستي لتحرير المجلة التي كنت أنا عمليا رئيسا لتحريرها في تلك الفترة حوالي سنة ١٩٧٦، وأرادت أمينة السعيد تثبيتي في رئاسة التحرير بدلا مما كان يكتب في كل عدد من عبارة «أشرف على تحرير هذا العدد رجاء النقاش» وكانت هذه العبارة تتكرر في كل عدد، وفوجئت

أمينة السعيد بأن الرئيس الراحل أنور السادات يستدعيها ويقول لها لا تصدرى قرارا بتعيين رجاء النقاش رئيسا لتحرير الهلال لأن يوسف السباعي جاءني وقال لى إذا حدث ذلك فسوف أستقيل من كل مناصبي، وكان السباعى أيامها رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ورئيسا للتحرير وقد كان السباعي يعترض أشد الاعتراض على تعييني رئيسا لمجلة ثقافية شعبية مهمة هي الهلال لأنه كان يرى أننى منحاز إلى نجيب محفوظ ضده والحقيقة أننى لم يكن فى ذهنى شيء من ذلك ولم أكن أتصور أن الإعجاب بنجيب محفوظ يعنى إغضاب يوسف السباعي حتى حدثت هذه القصة الغريبة فعرفت أن يوسف السباعي يحمل فى نفسه مرارة تجاهى لا يمكن التخلص منها أبدا ولما كنت على معرفة بأن يوسف السباعي كان فى مركز من أقوى المراكز فى عصر السادات فقد علمت أن هناك فيتو سوف يظل يطاردنى ولن أستطيع التغلب عليه أو التحرر منه وكنت سنة ١٩٧٤ تلقيت دعوة من صديقى الأديب الكبير الطيب صالح الذى كان يعمل مديرا للإعلام فى قطر للعمل فى قطر ولإنشاء مجلة الدوحة ولكننى ترددت لأننى فى الحقيقة لست من الذين يحبون أن يتركوا مصر ويعيشون خارجها.. فمهما كانت الصعوبات والمشاكل والتعقيدات فإن الحياة فى مصر هى البيئة المناسبة لنفسيتي، وهى التى تعطينى قدرا كافيا من الإحساس بالأمان. ولكن عندما أحسست باشتداد الحصار حولى، أدركت



عبد الناصر كان زعيما عظيماً ومشروعه للنهضة لا يزال قائماً

أن المطاردة التى أتعرض لها لن تهدأ حتى أختفى من مصر خاصة وأن أبواب الرزق بدأت تضيق أمامى، فقررت أن أستجيب لأول فرصة تتاح لى للعمل فى الخارج وفرضت على نفسى شرطا واحدا التزمت به هو أننى عندما أخرج من مصر سوف أعمل فقط بمهنتى وهى الصحافة والكتابة وأننى لن أعمل خارج مصر فى السياسة.. وكنت قد تلقيت عروضا للعمل فى بعض العواصم العربية، فاخترت قطر وذهبت إليها سنة ١٩٧٩، حيث ساهمت فى إنشاء جريدة الراية التى لاتزال تصدر حتى الآن وكنت أول مدير لتحريرها وبقيت فى هذا العمل سنتين، ثم انتقلت إلى رئاسة تحرير مجلة الدوحة سنة ١٩٨١، وبقيت رئيسا لتحرير هذه المجلة المهمة حتى توقفها عن الصدور سنة ١٩٨٦ ثم عدت إلى مصر لأعمل فى دار الهلال وفى مجلة المصور بالتحديد ابتداء من سنة ١٩٨٧ وبقيت فى عملى فى دار الهلال



حتى انتقلت إلى الأهرام ككاتب متفرغ حيث مازلت أعمل حتى الآن.

تلك هى الملامح الرئيسية لرحلتى الطويلة خلال ٥٤ عاماً متصلة فى عالم الصحافة.. والتفاصيل فى هذه الرحلة لا يستوعبها سوى كتاب كامل.

قصيدة النثر

□ ....

– لاشك أن قصيدة النثر تمثل ثورة كبيرة جديدة فى الشعر العربى والمفروض أن ننتظر من هذه الثورة خيرا ونتائج طيبة ولكننى ألاحظ – للأسف – أن هذه الثورة الأدبية التى بدأت منذ حوالى نصف قرن مازالت مستمرة إلى الآن والثورة إن استمرت لفترة طويلة بهذه الصورة ولم تتحول إلى نظام فإنها تصبح خطرا على الجميع حتى أصحابها أنفسهم وهذا هو ما يحدث مع قصيدة النثر فإنها ثورة مستمرة لم تتحول بعد إلى نظام له قواعد ثابتة، وهذا يعنى أن قصيدة النثر لاتزال تعمل ما يعمله السيل الجارف المندفع والذى لا يبنى وإنما يهدم ويحاول أن يدفع بكل شىء فى طريقه إلى العدم.. فالثورة المستمرة فى أى شىء هى هدم مستمر وتغيير لكل ما هو قائم. أما الثورات العظيمة حقا فإنها تضع حداً للثورة عندما تثق بنفسها وتتمكن من سلطانها ثم تتحول إلى نظام واضح المعالم يستطيع الناس جميعا أن يفهموه وأن يتعاملوا معه، أما أن تبقي قصيدة النثر ثورة تحطم اللغة، وتحطم الموسيقى المعروفة فى الشعر العربى بجميع مدارسه السابقة، وأن تسدل بينها وبين التراث العربي ستارا كثيفا وكأنها لا هى منه ولا هو منها.. أما أن يحدث هذا فقط ولا يحدث شىء سواه، فإن النتيجة هى الدهشة والانتظار لما قد تأتى به الأيام لأن ما جرى على ساحة قصيدة النثر ليس عملا متكاملا حتى الآن وإنما هو شلال هادر لم يصل بعد إلى أن يصبح نهرا يجرى بين ضفتين، ويعرف الناس معالمه الواضحة ولا يخافون إن وقفوا على شاطئه أو سبحوا فى مياهه أو أجروا سفنهم على سطحه أن يكونوا من الغارقين الهالكين.

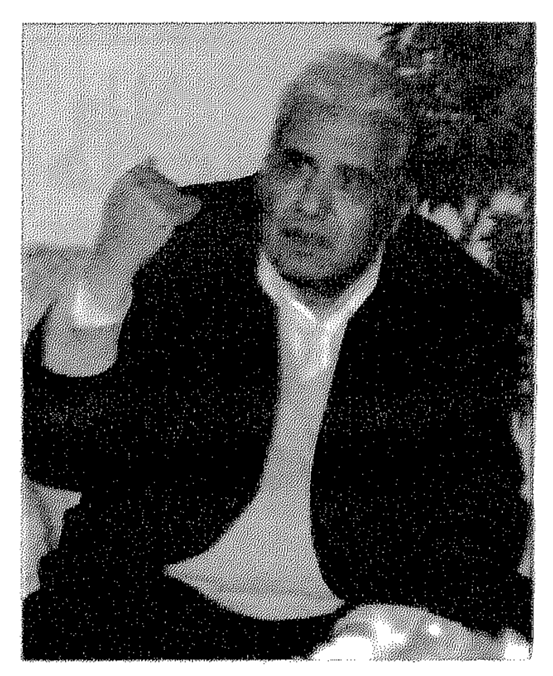
والخلاصة أننى أرى فى قصيدة النثر ثورة وأنا أؤيد الثورة التى تتحول إلى نظام ولا يمكننى أبدا أن أؤيد الثورة المستمرة بل أرى فيها خطرا غير محدود.

قريتى

□ ....

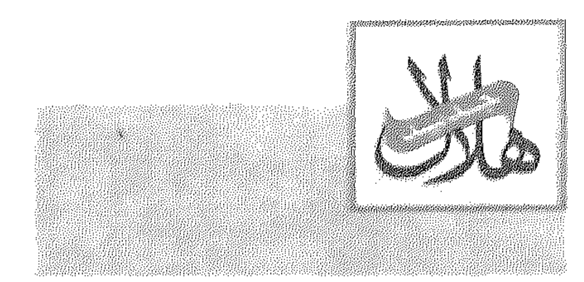
– هى قرية صغيرة نائمة فى حضن النيل على الضفة الشرقية لفرع دمياط. وعندما أتذكر هذه القرية الآن أجد العديد من المتناقضات فهى قرية ذكية أنجبت لمصر عددا من الشخصيات العامة المهمة واللامعة وهو الأمر الذى يندهش له الإنسان عندما يفكر فى هذه القرية الصغيرة الفقيرة بل المسحوقة من شدة الفقر. وأنا أتحدث طبعا عن هذه القرية حتى ما قبل الثورة وقد تركت هذه القرية

سنة ١٩٥١ لألتحق بالجامعة وحتى ذلك التاريخ كانت القرية تعانى من ظروف بالغة السوء فلا مياه نقية ولا كهرباء ولا مستشفى ولا حتى مستوصف ولا شارع واحد نظيف ومع ذلك أنجبت هذه القرية فى ظل ظروفها الصعبة شخصيات منها محمد بدوى الخولى أحد الضباط الأحرار ومحافظ السويس البطل أثناء حرب سنة ١٩٧٣، ومن هذه الشخصيات أيضا الدكتور محمد عبدالمقصود النادى وهو فيما أعلم أحد كبار علماء الذرة العرب وقد كان شقيقه الذى لا أتذكر اسمه الآن هو أيضا أحد النابغين فى العلوم الذرية، ومن هذه الشخصيات أيضا فتحى البيومى الذى كان رئيسا لاتحاد الإذاعة والتليفزيون، ومثل هذه الشخصيات هى دليل على أن أرض مصر وإن تعرضت للمصاعب والمصائب قادرة على إنجاب شخصيات رائعة ذات كفاءة وقدرة عالية على القيادة والإسهام فى نهضة البلاد كلها. ورغم الظروف الصعبة التى كانت هذه القرية تعيش فيها إلا أنها كانت قرية فيها نوع من التفتح الغريب، ولعل ذلك يرجع إلى قربها الشديد من بعض المدن الكبيرة مثل مدينة سمنود التى تقع على الضفة الغربية المقابلة للقرية، ومثل مدينة المنصورة التى تبعد - فيما أذكر- عن قريتى بحوالى عشرين كيلو مترا فقط، ومدينة المحلة الكبرى القريبة جدا من القرية، وبفضل هذه المدن كانت قريتنا تحس بكل ما يجرى فى مصر من أحداث. وعلى قلة من كانوا يعرفون القراءة



حرب أكتوبر صفحة مشرقة فى تاريخ السادات لا يمكن تجاهلها

والكتابة فيها، إلا أن الكتب والمجلات والصحف كان لها انتشار عجيب فى هذه القرية، ولازلت أذكر أن والدى قال لى يوما إن قريتنا وحدها تحصل على ستين نسخة من مجلة «الرسالة» الأدبية الشهيرة، رغم أن عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة فى القرية لا يمكن أن يزيدوا بأية حال من الأحوال على خسمائة شخص، ومجلة «الرسالة» كانت مجلة ثقافية مدهشة وكانت تجمع بين الاهتمام بالتراث العربى والثقافة الغربية الحديثة، وكانت تحرص على أن تعرض ذلك كله فى مقالات واضحة حسنة الأسلوب سليمة اللغة، ودخول هذا العدد الكبير إلى قريتى يدل على ما كانت القرية تحس به من تعطش كبير إلى الثقافة. ومن ذكرياتى في هذا المجال أيضاً أن بيتنا الصغير الضيق كان مليئا بالكتب فى كل مكان، حيث كان أبى



عاشقا للثقافة ينفق عليها من مرتبه القليل كمدرس إلزامى، وهو المرتب الذى لم يكن يزيد فى أواخر الأربعينيات من القرن الماضى عن ثمانية جنيهات.. رغم هذا المرتب الضئيل والمسئوليات الكبيرة التى كان يتحملها أبى عن والديه وأبنائه فإنه كان ينفق على الكتب والمجلات الثقافية ما يفوق قدرته فقد امتلأ بيتنا بهذه الكتب وكانت هى البيئة الثقافية الأولى التى كونتنى أدبيا وساعدتنى على أن تتسع أفاق المعرفة أمامى فى اللغة والشعر والقصة وسائر فنون الأدب والثقافة. وأذكر أيضاً أن زميلا لوالدى اسمه الأستاذ محب مشالى، كان من عشاق اقتناء الكتب وتجليدها تجليدا فاخرا، ولم يكن متزوجا حتى ذلك الوقت، وكان يعيش وحده فى بيته الصغير الأنيق مع كتبه وكان رجلا فاضلا لا يضن بكتبه على أحد، وكنت أنا وأخى المرحوم وحيد أكثر المترددين عليه والمستعيرين من مكتبته، وكان يحبنا ويساعدنا كأننا أولاده. ومن مكتبة الأستاذ محب قرأت أول رواية وقعت فى يدى لنجيب محفوظ، وهى الرواية الفرعونية «رادوبيس» وقد فتنتنى هذه الرواية، وكانت بداية رحلتى الطويلة فى حب نجيب محفوظ.

مواطنون ومستبدون

❑ ....

كانت قريتنا خلية من خلايا مصر يجرى عليها كل ما يجرى على البلاد من شئون وشجون ومتاعب ومصاعب، ولذلك فقد كانت القرية تئن من سلطان الاستبداد، كما كانت الأمور تجرى فى كل أنحاء البلاد. وكان ممثل الاستبداد هو العمدة الذى كان يستمد قوته من احتلال أو من حكومات الأقلية، وكان يفعل بالقرية ما يشاء بشرط أن ينفذ تعليمات أسياده الذين فوقه، وقد سمعت من جدى رحمه الله قصة تكفى لشرح هذا الأمر بوضوح شديد وذلك عن العمدة الذى كان يحكم قريتنا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد كان هذا العمدة يعامل المواطنين أسوأ معاملة ويفرض عليهم ما لا يطيقون، ولكى يخيف الجميع فقد كان يقبض على فلاح ويقيد يديه من الخلف ويربط قدميه بعضهما البعض ثم يحلق له شعر رأسه بالموس حتى يبدو جلد الرأس بلا شعر تماما ثم يلبس الفلاح المسكين طاقية فيها بعض الخنافس ويتركه هكذا والنتيجة أن الفلاح يموت بعد عذاب شديد ولا أدرى ما هو التفسير العضوى للموت بهذه الطريقة الفظيعة، ولكن لاشك أن مثل هذا الفلاح كان يتعرض لصدمات عصبية مستمرة نتيجة لحركة الخنافس فوق جلد رأسه، وأظن أن مثل هذه الصدمات كانت كفيلة بأن تؤدى إلى موت مفزع للإنسان.

هذا العمدة بلغ حداً من الظلم لم يسبق له مثيل، وقد قال لى جدى إنه يوم أن مات هذا العمدة وتم دفنه فى مقبرته وإغلاقها رأى الناس جميعا دخانا يتصاعد من هذه المقبرة أى أنه قد دخل

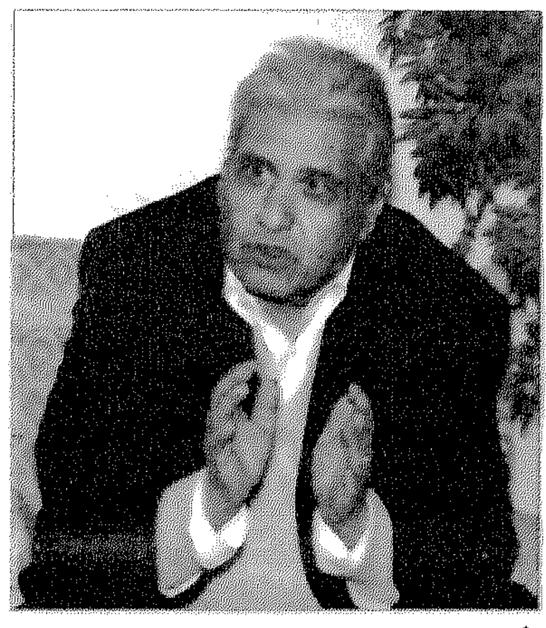
النار فور دخوله المقبرة ولعل ذلك كان خيالا فى أذهان الناس، ولكنه كان خيالا يعبر عما يحمله المواطنون لهذا المستبد من كراهية وتمنيات لأن يعذبه الله بما جناه على أهل القرية.

جريمة

□ ....

ومما أذكره عن قريتى فى أربعينيات القرن الماضى، أن جرائم القتل كانت تقع بكثرة غير معهودة، وكانت معظم هذه الجرائم يتم تسجيلها ضد مجهول لأن الذين كانوا يرتكبونها هم الأثرياء ورجال السلطة تحقيقا لمصالحهم المختلفة وعلى رأسها شهوتهم التى لا تنتهى للاستيلاء على الأراضى الصغيرة التى كان يمتلكها بعض الفلاحين.

ولا أنسى أبداً تلك الحادثة المفزعة التى مر عليها الآن ما يزيد على ستين عاما، ولكنى الآن مازلت أذكرها كما لو أنها وقعت بالأمس، وهذه الحادثة تتصل بفلاح شاب أحب ابنة عمه الفلاحة الجميلة التى بادلته الحب، وقد كان أحد أثرياء القرية قد أعجبته هذه الفلاحة الفاتنة وطلبها من أهلها لتكون زوجة ثالثة أو رابعة له، ولم يمانع الأهل خوفاً من سلطته ونفوذه ولكن الفتاة تمسكت بابن عمها، وبكت كثيرا وصممت على ألا تتزوج غير الذى تحبه وأظهر الثرى أنه تنازل عن طلبه للفتاة مادامت غير راغبة فيه وظن الجميع أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد واستعدوا لإقامة الفرح والزواج بين الفتاة وابن عمها، وجاءت ليلة الفرح وسهرت



أقدر جهود الرئيس مبارك وأثق فى وطنيته وإنسانيته وأنا مدين له بحياتى

القرية وعبرت عن مشاركتها للعروسين وتمنياتها لهما بالسعادة. وفى صباح اليوم التالى سمعت القرية كلها بخبر عجيب وهو أن العريس الشاب قد تم ذبحه ذبحا فى سرير عرسه، ولاشك أن العروس كانت تعرف من هو الجانى ولكنها لم تستطع أن تنطق بحرف وتم تسجيل الجريمة ضد مجهول، ولم أتابع ما حدث بعد ذلك. ولعل الفتاة قد تزوجت من الثرى وأسلمت أمرها لله، ولكن فزعى مما حدث والذى مازالت له آثار باقية حتى الآن، لم يسمح لى أبدا بمتابعة أى شئ فى هذه القصة الدامية.

لعل مثل هذه القصة تثبت للذين لايزالون يقولون إن ثورة يوليو لم يكن لها ضرورة، أنهم ليسوا على حق، فما كان بالإمكان أن تستمر أمور الحياة فى قريتنا أو أى مكان آخر على هذا المستوى الدموى المهين لكرامة الإنسان.



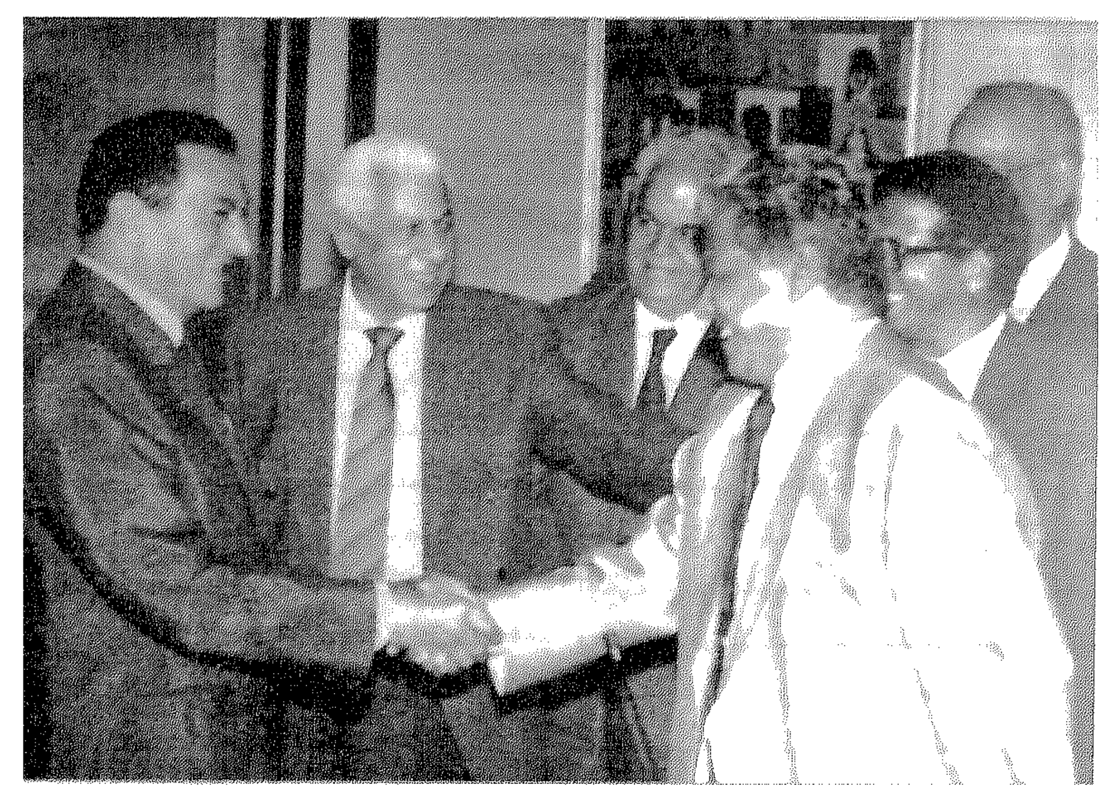


أسرة الهلال في منزل الأستاذ رجاء وزوجته د. هانيه
من اليمين محمد أبو طالب، مجدى الدقاق، سهام وهدان، خيرى منصور، على حامد

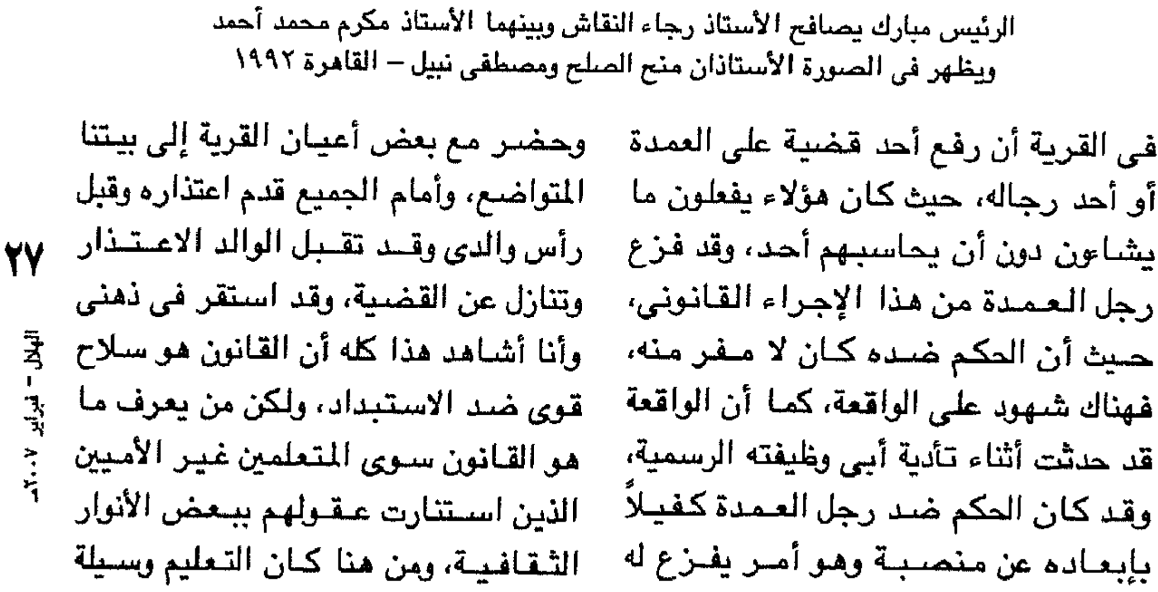
القانون ضد الاستبداد

□ ....

كان أبى وفدياً عن حماس واقتناع، وكان أنصار الوفد فى تلك الفترة معرضين للمطاردة والاضطهاد، وذات يوم ذهب أحد رجال العمدة إلى المدرسة التى يعمل فيها والدى قاصدا إرهابه واتهامه أن وفديته سوف تؤدى به إلى أن يدفع ثمنا غاليا، لأن معنى الوفدية فى القرية أن يكون الوفدى ضد العمدة، ووقف والدى بشجاعة كاملة كانت معروفة عنه فى وجه رجل العمدة، وقال له لا حق لك فى أن توجه لى هذا الكلام، وأنا أؤدى عملى فى المدرسة ونحن فى المدرسة، لا نتكلم فى السياسة ولا نتصرف على أساسها، وإنما نؤدى واجبنا تعليميا ليس فيه تفرقة بين تلميذ وتلميذ أو مدرس ومدرس، فما كان من رجل العمدة إلا أن ضرب والدى قلما على وجهه ثم انصرف الرجل شاعرا أنه قد انتصر، وأوصل إلى أبى رسالة الترهيب والتهديد، ولكن أبى أصر فى اليوم التالى على أن يذهب للمركز الذى تتبعه قريتنا والذى يضم محكمة، وأن يرفع قضية على رجل العمدة وفوجئ الرجل بذلك، فلم يكن متعودا على هذا النوع من المعاملة. ولم يحدث من قبل قط



الرئيس مبارك يصافح الأستاذ رجاء النقاش وبينهما الأستاذ مكرم محمد أحمد
ويظهر فى الصورة الأستاذان منح الصلح ومصطفى نبيل - القاهرة ١٩٩٢



فى القرية أن رفع أحد قضية على العمدة أو أحد رجاله، حيث كان هؤلاء يفعلون ما يشاءون دون أن يحاسبهم أحد، وقد فزع رجل العمدة من هذا الإجراء القانونى، حيث أن الحكم ضده كان لا مفر منه، فهناك شهود على الواقعة، كما أن الواقعة قد حدثت أثناء تأدية أبى وظيفته الرسمية، وقد كان الحكم ضد رجل العمدة كفيلاً بإبعاده عن منصبه وهو أمر يفزع له أصحاب السلطان فى القرية، وسرعان ما تحول هذا المستبد المغرور الواثق بنفسه وسلطته إلى خائف مرتعد، لا من أبى ولكن من القانون، فسعى للصلح مع الوالد وحضر مع بعض أعيان القرية إلى بيتنا المتواضع، وأمام الجميع قدم اعتذاره وقبل رأس والدى وقد تقبل الوالد الاعتذار وتنازل عن القضية، وقد استقر فى ذهنى وأنا أشاهد هذا كله أن القانون هو سلاح قوى ضد الاستبداد، ولكن من يعرف ما هو القانون سوى المتعلمين غير الأميين الذين استنارت عقولهم ببعض الأنوار الثقافية، ومن هنا كان التعليم وسيلة لمعرفة القانون، وكان القانون وسيلة لمقاومة الاستبداد.

مجدى النقاش

البراءة والعشق



د. صلاح فضل □

إذا كان النقاد عادة هم قضاة الفكر الأدبي، ورعاة العدالة الثقافية، الممسكون بميزان الإبداع، فإن تاريخهم يحفل عادة بأحكام القيمة، والزمن والجمهور وتطور الاتجاهات درجات لاستئناف هذه الأحكام أو نقضها، وتمحيص مدى نزاهتها أو مصداقيتها ، فإذا خرج الناقد من كل ذلك بريئا من الهوى، بصيرا بأقدار الناس، عزيز الثقة بمستواه، وترسخت قيمته في ضمير قرائه على مدى الأجيال المتعاقبة.

ورجاء النقاش الذي تميز بنبوغه المبكر في مجال الكتابة النقدية، وهي عادة تتطلب نضجاً متمهلاً واستحصاداً بطيئاً، بهر قراءه بعين الصقر التي يمتلكها منذ صباه، فقد كان موهوباً في اكتشاف المواهب الكبرى والتنبؤ بمستقبلها الواعد، سواء كان ذلك في الشعر أو الرواية، وليس أدل على هذه المقدرة الفذة التي صدقتها الأيام من اسمي محمود درويش والطيب صالح وغيرهما، ولعل نشأة رجاء في أسرة حافلة بالإبداع والذكاء المبكر من الرجال والنساء - أن تكون عاملا مؤسسا لهذا الوعي الناضج والرؤية الثاقبة، لكن ما صانه من التميز الساذج والاندفاع وراء الهوى الشخصي في الدرجة الأولى هو براءته من العمى الأيديولوجي الذي كان سائدا في أوساط المثقفين من اليسار المصري، في العقود الوسطى من القرن العشرين، فكم ضلل هذا العمى كبار النقاد وجعلهم يخطئون في النبوءة ويقدمون من لا يستحق التقدير بالرغم من ثقافتهم العالية وإخلاصهم الشديد، لكن احتكام رجاء النقاش إلى وجدانه الوضيء وضميره الفني، وضعه في زاوية الرؤية الصحيحة لمستقبل الإبداع، ومكنه من احتضان الكتابة بعشق وحنان ودأب، وأتاح له فرصة امتلاك نعمة إذا فقدها الناقد - اختلت البوصلة في يده، وهي الإصابة في معرفة أقدار الكتَّاب، ونصيبهم من الإبداع، مهما كانت علاقته الشخصية بهم ، وجعله في نهاية المطاف قادرا على الإسهام الفعال في صناعة استراتيجية الثقافة العامة.

بيد أن هناك نعمة أخرى ظفر بها رجاء النقاش، وتفادى ما تضمره من نقمة، وهي براءته من التقعر الأكاديمي الذي سقط فيه كثير من أساتذة الأدب والنقد، عندما سجنوا أنفسهم داخل

□ ناقد وأستاذ جامعي

أسوار الجامعات والمعاهد العلمية، فحرموا من الإنصات لنبض الواقع الحى والكفاءة فى قياس حرارته وجمالياته، وقد نذكر بشيء من الأسى بعض المناوشات الخفيفة التى قامت بينه وبين هؤلاء الأساتذة، وكيف خرج منها منتصرا مؤمنا برسالة الفكر النقدى فى التنوير والتحديث والتقدم دون تعصب أيديولوجى أو تقعر أكاديمى ممقوت.

لكن نقطة الضعف التى حالت بين رجاء النقاش وتصدره مشهد النقد الأدبى بعد مندور ولويس عوض - وقد كان مؤهلا لذلك - أنه لم يعبر محنة الاتصال المباشر بالثقافة الغربية فى إحدى عواصمها الكبرى، ولم يتقن بالقدر الكافى إحدى لغاتها باعتبارها منفذا للتواصل الخلاق مع روح العصر والحضارة المجسدة له، فظل معلقا بما يقدمه الآخرون من ترجمات دون أن يصنع بنفسه أو يعجن بيديه فطيرته الخاصة، معتمدا على فطرته ويقظته فى التقاط ما يجود به الآخرون، وقد ترتب على ذلك فى فترة السبعينيات المفصلية فى تاريخ الفكر النقدى العالمى أن خرج صديقنا من دائرة القيادة للفكر النقدى العربى مع كفاءته العالية فى ممارسته، ولم تشغله مشكلة المناهج المتغيرة، فاكتفى بمزاجه الشخصى وثقافته الموسوعية ونضارة حساسيته فى تلقى الأعمال الإبداعية وإضاءتها بمقارباته الواعية .

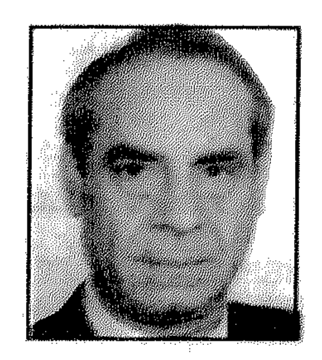
على أن إنجازات رجاء النقاش فى مجال الصحافة الأدبية والثقافية، سواء



كان ذلك خلال رئاسته لتحرير الهلال أو تخليقه لتيار عارم من الإبداع الصحفى والأدبى فى مجلة الدوحة التى تعتبر من أنفس ما عمّر الذاكرة العربية من مطبوعات ثقافية، قد أسهمت فى مضاعفة دوره فى مجال الفكر والكتابة، حتى أصبح اسمه يتوهج بالمعرفة والعطاء النبيل، المثمر فى فلك التاريخ والتأصيل، مما جعله يحقق فى نهاية الأمر إحدى أجمل رسالات الخطاب النقدى فى حمل قارئه على عشق الفن والأدب والثقافة .

احتفظ رجاء النقاش - عبر مسارات متقلبة عنيفة فى الحركة والعمل - بقدر عظيم من التوازن ، محافظاً على طابعه الطفولى البرىء حتى وهو فى شيخوخته، فجعل من النقد الصحفى منبراً لتأكيد القيم العظمى فى الوطنية والحق والخير والجمال، الأمر الذى جعل من كتابته منبعاً ثراً للمتعة الراقية ونموذجاً بديعاً للتواصل الجمالى الخلاق مع قرائه ومريديه.

هو أخي وإن لم تلده أمه



د. عبد المنعم تليمة □

بدأ الجيل الرابع من طلائع النهضة المصرية الحديثة ينشط حول منتصف القرن العشرين ، وأخذ ينضج ويؤثر عبر العقود إلى يوم الناس هذا . وقاعدة النهضة التحديث والتعقيل، الإحياء والتجديد ، الموروثات المتواترة والمؤثرات العصرية . وكانت لدى الأجيال الثلاثة الأولى الرائدة مفهومات لكل ذلك، تتفاوت في البيان والوضوح لكن عمومها كان موجهاً : غلبت لدى الجيل الأول ــــ رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده ــــ الموروثات الدينية والروحية والشرعية والفقهية وجدلية النقلية والعقلية ، وغلبت لدى الثانى أحمد شوقى وأحمد لطفى السيد وطه حسين- الموروثات الأدبية والإبداعية وجدلية الوجدانية والعقلية والإحياء والتجديد ، وغلبت لدى الثالث ــــ مصطفى عبد الرازق وأمين الخولى وزكى نجيب محمود ــــ الموروثات الفكرية وجدلية التحليلية والمنهجية . وتحيط بعمل الأجيال الثلاثة قضايا تحرير الوطن وإقامة الدولة المدنية والاتصال بعطاءات الثقافات الحديثة واصطناع نهج المحاورة والتعددية الفكرية والسياسية. وأما هذا الجيل الرابع ــــ الراهن – فقد ورث عن رواده وحمل الألوية ووعى التوجيه: تعلموا منا ولا تلتزموا بنا . يجرى ذلك فى شروط تاريخية جديدة متجددة من التقدم العلمى والتقنى والتعقد المنهجى والفلسفى والتداخل بين المذاهب والتآزر بين الفنون والتحاور بين الأبنية الإيديولوجية والثقافية والقومية والحضارية.

ونقف هاهنا ــــ فى النهضة الحديثة والمعاصرة ــــ عند حقل الإبداع الأدبى والنقدى. وسيجد مؤرخ هذه النهضة أن قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة القاهرة قد نهض بدور بارز فى ريادة حركات تجديد الإبداع وضبط قواعد الدرس الأدبى ومناهج النقد . خَرج مؤسسو القسم وعلماؤه، طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولى ، أعلام النقد الجديد ــــ محمد مندور ومن حوله ــــ وأعلام محققى التراث ومؤرخى الأدب ــــ شوقى ضيف وبنت الشاطئ ومن حولهما ، وأعلام درس الآداب المحلية والشعبية ــــ سهير القلماوى وعبد العزيز الاهوانى وعبد الحميد يونس ومن حولهم ــــ وخرجوا النابهين من المبدعين والنقاد من هذا الجيل الرابع الراهن ، صلاح عبد

□ كاتب وأستاذ جامعى



الصبور وشكرى عياد وعز الدين إسماعيل ورجاء النقاش ومن حولهم.

فى الأربعينات والخمسينات اتسعت دائرة التعليم المصرى الحديث اتساعا هائلا ، وسعت الطبقات الفقيرة والفئات الصغيرة من البرجوازية إلى الدفع بأولادها وبناتها إلى هذه الدائرة. وتنتمى الأجيال المصرية الفاعلة بعد الحرب العظمى الثانية إلى هذه الفئات ، ولهذا كانت أكثرية أبناء الجيل الرابع من طلائع النهضة ترجع إلى أصول اجتماعية متواضعة مجاهدة . كان الواحد منهم يحمل أشواقا إنسانية رفيعة وهموما اجتماعية ماثلة وصلات وروابط أسرية مباشرة . ورجاء النقاش أكبر أخوته وأخواته ، فصار بينهم الرائد والأستاذ . اتجهوا جميعا- حبا له وتأثرا به — إلى نفس الحقل وتفوقوا — برعايته — فى مجالات الإبداع والتفكير والتعبير : كنا — وحيد النقاش وأنا — من مواليد نفس السنة ومن خريجى نفس الكلية ، هو من قسم اللغة الفرنسية وأنا من قسم اللغة العربية . كنا فى سنوات الطلب صديقين حميمين ، ولما تخرجنا اتفقنا



على دراسة اللغات القديمة ، اليونانية واللاتينية . ومضيت فى هذا الأمر ومضى هو إلى جوار ربه. وتخرجت فريدة بعدنا بعامين ، فى نفس الكلية ، قسم اللغة الإنجليزية ، وسعت سعيها النشط فى العمل العام حتى احتلت مكانها فى الصفوف الأولى من الكتابة الصحفية اليقظة والنقد الأدبى المسئول . ودرست أمينة ـــ بأكاديمية الفنون- الأدب المسرحى والنقد الأدبى وتوفرت على الكتابة فى التحليل السياسى والنقد الاجتماعى . وأما فكرى فله كتاباته المسرحية الموهوبة . وحمل الأخوة والأخوات كل الحب والوفاء لرائدهم وراعيهم . فلما بلغ رجاء السبعين ـــ أطال الله عمره – كتبت فريدة إليه رسالة عذبة (الهلال ، أكتوبر ٢٠٠٤):

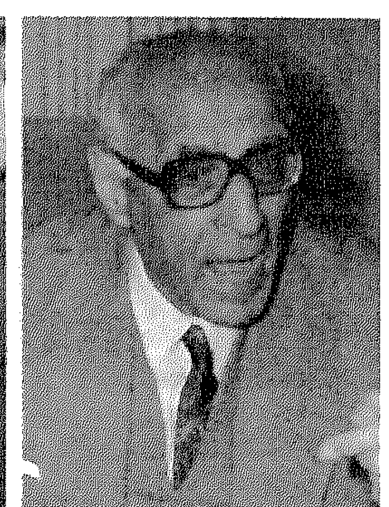
(أذكر الآن جيدا الكلمات الأولى للرسالة التى كتبتها له حين سافر إلى القاهرة عام ١٩٥٢ ليلتحق بالجامعة . وكنا ما نزال فى قريتنا (منية سمنود) دقهلية قبل أن نشد رحالنا إلى العاصمة حتى نكون إلى جواره وندخل على الجامعة تباعا، نحن الأشقاء الثمانية من الأسرة الريفية المستورة بالكاد ، والتى وجدت من التعليم قارب نجاة سيره أبى المدرس والشاعر عبد المؤمن النقاش رحمه الله بمهارة وتفان.

(كان أول من أعطانى كتاباً، قال خذى واقرئى فلم أكف عن القراءة أبدا بعدها.

(أخى رجاء محب للتأمل ، وهو فضلا عن ذلك حكاء من طراز فريد وشوقه للمعرفة بلا حد.

وإنما وقفت عند هذا الجانب) الشخصى) لأننى أراه – ومعى كثيرون- واحدة من القرائن المبكرة الدالة على التكوين النفسى والروحى والأخلاقى والاجتماعى ، وهو التكوين الذى نضج ونما وتبدى فى شخصيته العامة مفكرا مسئولا وناقدا جادا.

كان النقاش ـــ ولا يزال ـــ طرفا ملموحا فى المنازلات والمعارك الفكرية المشهودة فى أفاق الهوية المصرية والحركة القومية والثقافة العربية . ونهض بدور ثابت فى تأسيس الصحافة الأدبية والفنية ، ورأس تحرير أعرق الدوريات العربية الثقافية ، أبرزها (الهلال) . لكن منجزه الساطع الباقى فى حقل النقد الأدبى ، وهو فى هذه الساحة من أعلام السباقين إلى التقديم والتقويم ، قدم الطيب صالح (موسم الهجرة إلى الشمال) ومحمود درويش)شعراء المقاومة) وأول دواوين أحمد عبد المعطى حجازى(مدينة بلا قلب)، وتابع أعمال الجدد من الشعراء وكتاب الرواية والمسرحية والقصة القصيرة . اتصل رجاء النقاش اتصالا حميما بأنظار الأجيال الثلاثة التى سبقته وعلمته . وكان أعلام تلك الأجيال قد تفتحوا ـــ بأصالة ـــ على الأصول التى أثمرها العلم الحديث فى تحديد البنية الثقافية والعوامل


زكى نجيب محمود


محمد مندور


لويس عوض

التاريخية الاجتماعية الفعالة فى تكوينها وتطورها ، وفى درس الفن ونقد الأدب : جعل طه حسين الإبداع ــ فكرا وفنا وأدبا ــ مرآة لعصره ، وبقيت معالجته التطبيقية فى هذا الضوء منذ الجاهليين والإسلاميين إلى معاصريه من الاحيائيين والمجددين والرومانسيين. وجعل أمين الخولي الإبداع ثمرة لبيئته ، مؤكدا جدلية الاجتماعى والطبيعى ، حتى تحقق سعيه بإنشاء كرسى الأدب المصرى الذى صاغ له بيانا فكريا شهيرا فى (الأدب المصرى، (فكرة ومنهج) سنه ١٩٤٣ . أما محمد مندور فقد توجه إلى إعمال مقولة المجتمع). لقد رأى أن الفن يعبر عن المجتمع ، فئاته وطبقاته وصراعاته وتناقضاته وعلاقات حاكميه بمحكوميه ومستويات تطوره الثقافى . ودرس مندور الأدب العربى الحديث فى هدى كل ذلك ، بخاصة فى كتابه الشامل (الشعر المصرى بعد شوقى)الذى أخرجه فى ثلاثة أجزاء صرف كل جزء منها لمرحلة من مراحل تطور الأدب العربى فى عصر نهوضه الحديث : مرحلة الأحياء ومرحلة التجديد ومرحلة المعاصرة . وأما لويس عوض فقد بنى عمله النقدى على مقولة (الفكر). نظر عوض إلى العمل الفنى من جهة أنه (محتوى) فكرى، وراح يفتش فى الأعمال الأدبية ، قديمة وحديثة عربية وعالمية ، عن العقائد والملل والنحل والمذاهب والفلسفات والايديولوجيات.

يصدر رجاء النقاش فى عمله النقدى عن الجوهرى المشترك فى تلك المقولات والأصول مع التزود الدائب بالجديد فى المذاهب والمناهج وطرائق التعبير ، وهو ــ النقاش ــ على الحقيقة من أصحاب ما سماه الرواد(المنهج التاريخى الاجتماعى)الذى يعتد بالنفسى والروحى والفكرى ثمرات لعوامل تاريخية اجتماعية ثقافية ، والذى يستند ــ فى التطبيق والتعامل مع الأعمال الأدبية والفنية ــ إلى ذائقة جمالية مدربة وتخليص الانطباعية النقية من الذاتية والهوى.

رجاء الصديق.. رجاء الناقد



أحمد عبد المعطى حجازى ◻

أنا متهيب متحير لا أدرى من أين أبدأ حديثى عن رجاء النقاش. من رجاء الصديق أم من رجاء الناقد؟ لكنى أتمالك نفسى، وأضبط عواطفى، وأكتشف أن الناقد والصديق واحد فى رجاء النقاش. فرجاء يكتب لأنه يحب موضوعه وينفعل به. وهو يحب لأنه كاتب حقيقى ملتزم، لا يستطيع أن يكون لا مباليا، ولا يستطيع أن يكون محايدا فى الصراع القائم الدائم بين الخير والشر، أو بين العدل والظلم، أو بين الجمال والقبح، أو بين الحرية والعبودية.

الحب مفتاح المعرفة

رجاء النقاش خُلق ليحبَّ ويكتب. أعنى لينتصر للخير والعدل والجمال والحرية. ولاشك أنه وجد نفسه فى الكلمة التى قالها الروائى الفرنسى رومان رولان عن الكاتب النمساوى ستيفان زفايج، ونقلها عنه رجاء وهو يتحدث عن هذا الأخير فى كتابه «أدباء ومواقف» الصادر عن المكتبة العصرية فى لبنان: «يقولون إن الحب هو مفتاح المعرفة، وهذا صحيح بالنسبة إلى ستيفان زفايج، ولكن العكس صحيح أيضاً. إن المعرفة مفتاح الحب. إنه يحب بالعقل، ويفهم بالقلب».

رجاء النقاش يحب ويكتب بكل كيانه، وهذا ما قصدته وأنا أتحدث عن التزامه. الالتزام الذى قصدته ليس الالتزام السياسى أو المذهبى الذى كنا نتحدث عنه فى الخمسينيات والستينيات، وإنما هو هذا الالتزام التلقائى الذى يندفع إليه الإنسان للوقوف إلى جانب القيم التى يقدسها حين يراها مستباحة أو مهددة.

هكذا يعلن رجاء النقاش فى التمهيد الذى قدم به كتابه الأول «فى أزمة الثقافة المصرية» الصادر فى يناير عام ١٩٥٨ عن دار الآداب فى بيروت أن كتابه ليس مجرد كتاب، وإنما هو «محاولة للمساهمة فى عملية المراجعة التى تهدف إلى التغيير والتبديل، ومن هنا فلم يكن تاريخ الحركة الثقافية فيه مستقلا عن تاريخ الحركة الاجتماعية».

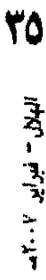
ورجاء فى هذا الكتاب كما هو فى كتبه جميعا ناقد متحمس يناصر من يحبهم، ويحب من يدافعون مثله عن «الإنسان فى معركة البقاء» كما يقول عن محمود أمين العالم وعبدالعظيم أنيس. وقد استطاع صلاح عبدالصبور أن يكشف فى كلمته الجميلة التى ظهر بها غلاف هذا الكتاب عن العلاقة الحميمة بين

◻ شاعر وكاتب

البورتريه للفنانة نيفين إمام

الحياة والكتابة عن رجاء النقاش. يقول صلاح: «إذا كان بعض الناس يعبرون الحياة، وبعض الناس يعيشونها، فإن رجاء يعاينها. يحمل رجاء فى قلبه الفجيعة دائماً، ولكنه لا يبكى، ولا يعلن بطلان الكل، ولا يخاف. إن الفجيعة فى قلبه تصبح حياة ومحبة وشهوة لإصلاح العالم».

هذه الروح هى التى قادت رجاء النقاش إلى الأسماء التى اهتدى إليها



قبل غيره، وكشف عنها قبل غيره، وأتاح لهـا أن تنمـو وتزدهر وتنال اعـتـراف الجميع.

لقد كان رجاء أول من بشرنا بالروائى السودانى الكبير الطيب صالح، وبالشاعر الفلسطينى المبدع محمود درويش، وكان أول من قدم لنا الديوان المخطوط للشاعرة المصرية التى انطفأت قبل الأوان ناهد طه عبدالبر.

وهو فى حديثه عن الذين قدمهم لقرائه يلتفت ويلفت القراء معه إلى قيمتين جوهريتين يضعهما دائماً فى المقدمة: الصدق، والجمال.

كان يشده إلى هؤلاء الذين كتب عنهم أنهم يتمتعون بموهبة حقيقية تمنحهم هذا الجمال الذى يفتننا فى الموهوبين. وكان يشده إليهم أيضاً أنهم متألمون محرومون من حق طبيعى أو من ظروف ملائمة، لكنهم يقاومون عجزهم بالموهبة، ويصارعون بها الظروف الصعبة التى تحيط بهم وتحرمهم من الشعور بالطمأنينة ومن الفرح بالحياة. وفى هذا الصراع الأليم تتوثق الصلة بين الإبداع والحياة تتألق مواهبهم ويتجسد صدقهم فيما يقولون وفيما يفعلون.

ولقد وقف رجاء النقاش بإجلال واحترام أمام طه حسين الطفل الضرير الفقير الذى ارتفع فوق عذابه وقاد المصريين والعرب جميعا إلى النور. وأمام العقاد الذى حرمه الفقر من التعليم المنظم، لكنه أوتى من الإرادة ومن الكبرياء ما صار به الشاعر العبقرى والكاتب الجبار. ووقف أمام عبدالحميد الديب الشاعر الموهوب والصعلوك البائس. ووقف أمام تولستوى الذى منحه الله الموهبة وجمال العقل والشعور، لكنه كان دميما إلى الحد الذى دفعه وهو شاب إلى التفكير فى الانتحار. ووقف رجاء أمام والده عبدالمؤمن النقاش متذكرا «تلك الأيام الصعبة التى كنا نعيش فيها فى قريتنا «منية سمنود» حيث كنت تستعين على متاعب الأيام بقراءة الكتب، وكتابة الشعر فى مدح الرسول الكريم وفى حب الطبيعة وفى شكوى الزمان. ولم نكن نجد فى قريتنا البعيدة فرصة لنشر قصائدك الجميلة، حيث كانت صحف تلك الأيام تنظر إلى القرية على أنها عالم مجهول ومنسى ولا أهمية له.. ومن أيامها تعلمت منك أن الأدب حب وجهاد وصدق فى معاملة النفس والحياة. وتعلمت منك أن الأدب مثل الدين يقتضى الكثير من التجرد والبعد عن الإغراءات السهلة».

وأرجو ألا أكون متطفلا إذا تحدثت فى هذا السياق عن علاقتى برجاء النقاش، فهى تجربة من تجاربه العديدة فى محبة الفن ومحبة البشر. وربما تميزت عن غيرها بعض الشئ، فقد أتيح لى فيها أكثر مما أتيح للآخرين.

رأيت رجاء النقاش لأول مرة فى أواخر عام ١٩٥٥ ولم أكن أعرفه من قبل، ولم أكن قرأت له شيئاً. كنت فى العشرين من عمرى، حديث عهد الإقامة فى القاهرة، أعيش فى البطالة ولا أملك من حطام الدنيا إلا الشعر الذى لا يغنى كما



مع محمود درويش وياسين الشريف ود. هانيه وليس - الدوحة ١٩٨١

يفنى المال ولا يغنى عنه شيئ. ففى ذلك العام أنهيت دراستى فى مدرسة المعلمين بشبين الكوم، لكن أجهزة الأمن اعترضت- ولها الشكر الجزيل!- على تعيينى مدرسا بعد أن اعتقلتنى فى العام السابق إثر قيادتى مظاهرة طلابية اعتبرتها هذه الأجهزة معادية للنظام العسكرى الذى قمع الحركة الشعبية التى تفجرت فى مارس عام ١٩٥٤ وطالبت بإعادة العمل بالدستور وعودة الجيش إلى ثكناته.

البحث عن الشعر

حاولت العثور فى قريتنا على عمل فى إحدى المدارس الخاصة لكنى لم أوفق، فلم يبق أمامى إلا أن أجرب حظى فى العاصمة التى رحلت إليها صفر اليدين من كل زاد ومن كل متاع إلا جنيهات قليلة زودنى بها والدى، وعنوان فى حى السيدة زينب لصديقين من أبناء القرية يطلبان العلم فى الأزهر ودار العلوم، ويسكنان معا فى شقة صغيرة أبديا استعدادهما لاستضافتى أول قدومى للقاهرة، ونسخة من الثانى عشر من مجلة «الرسالة الجديدة» الصادر فى مارس ١٩٥٥ وفيه القصيدة الوحيدة التى كانت قد نشرت لى حتى ذلك الوقت «بكاء الأبد» بالإضافة إلى كراسة تضم ماكنت نظمته حتى ذلك الوقت، وكان حوالى عشرين قصيدة تمثل مرحلة الانتقال من البحث عن الشعر إلى الوصول إليه، ولهذا لم أنشر منها إلا نحو أربع قصائد، واعتبرت الباقى ذكريات شخصية تستحق أن أعتز بها وحدى، ولا تستحق أن تنشر على الناس.

بهذه الهيئة ذهبت إلى قهوة عبدالله التى قيل لى إنها تقع فى ميدان الجيزة،

وإنها المكان المفضل للناقد المعروف أنور المعداوى الذى كنت أتابعه بشغف منذ أصبحت قارئا منتظما لمجلة «الرسالة» رسالة الزيات. وفى قهوة عبدالله تعرفت على عدد من الأدباء الذين كانوا يواظبون على حضور ندوة المعداوى التى كانت فى حالة انعقاد دائم كل مساء، ومنهم الدكتور عبدالقادر القط وعبدالمحسن طه بدر - الدكتور فيما بعد- وزكريا الحجاوى، والمحامى الشرعى الظريف عبدالحميد قطامش- أحيانا، والكاتب الساخر محمود السعدنى- أحيانا، والشاعر محمود حسن إسماعيل، وكان من رواد القهوة دون أن يكون من رواد الندوة. ورجاء النقاش الذى كان أقرب الرواد للمعداوى، فهو معجب به يتفق معه فى الكثير ويعامله معاملة المعيد للأستاذ. وكذلك يفعل المعداوى مع رجاء، فهو يقرأ له ويقربه إليه ويستخدم فى مخاطبته لهجة عائلية دافئة حانية.

ولست أذكر الآن كيف صرنا -رجاء وأنا- صديقين، وكم من الوقت استغرق انتقالى من زائر ريفى طارئ لا تربطه بأى من رواد الندوة علاقة شخصية تؤهله للاندماج فيها إلى صديق حميم لرجاء تجاوزت علاقتنا حدود الندوة وحدود القهوة، فنحن نلتقى فى النهار والليل، فى القهوة وفى المنزل الذى كان رجاء يسكنه مع أسرته وكان يقع وراء المدينة الجامعية غير بعيد عن ميدان الجيزة.

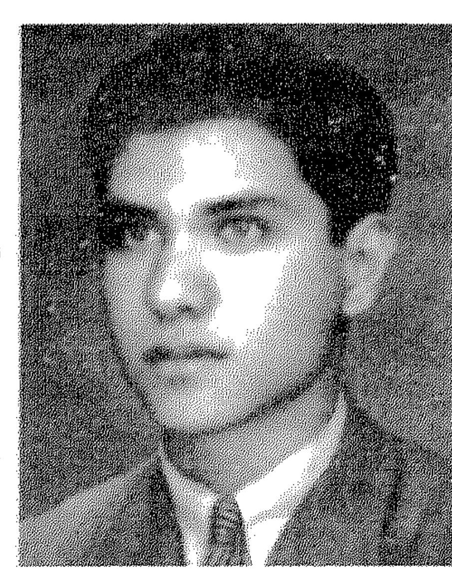
لم يكن رجاء أول من يقرأ قصائدى الجديدة فحسب، ولم يكن هو الذى يرسلها إلى مجلة الآداب التى كان يراسلها فى ذلك الوقت لتنشر فيها إلى جانب قصائد صلاح عبدالصبور، والسياب، ونازك الملائكة، ونزار قبانى وكفى، وإنما كان رجاء أقرب من أحدثهم عن نفسى، وكنت أقرب من يحدثهم هو عن نفسه. وهو لا يقرأ قصائدى ويسكت، وإنما يقرأها للآخرين ويحدثهم عنها وعنى. وهو يناقش أفكارى وينبهنى لما قد يجده فيها من سذاجة أو خطأ.

كان أكبر منى بعام، قارئا نهما، تتلمذ على أيدى طه حسين، وأحمد أمين، وأمين الخولى، وعاش حياة حافلة بالمصاعب حافلة بالتجارب التى شحذت عقله، وأرهفت ذوقه، وأيقظت ضميره. كانت الفجيعة تتحول عنده- كما قال عنه صلاح عبدالصبور، إلى حياة ومحبة وشهوة لإصلاح العالم.

فرد من أسرته

أصبحت علاقتنا شرطا من شروط حياتى وربما أصبحت كذلك بالنسبة له. كأنى صرت فردا من أفراد أسرته الذين ربطتنى بهم العلاقة التى ربطتنى به. فوالده والد، وشقيقه وحيد، وشقيقته فريدة شقيقان. وعن طريق رجاء تعرفت على العالم الذى يتحرك فيه زملاؤه فى الجامعة، ومعارفه من الكُتّاب والشعراء والصحفيين الذين كان يعمل معهم وأصبحت أعمل معهم أنا أيضاً. فقد توسط لى أنور المعداوى لدى صديقه مرسى الشافعى الذى كان يعمل مديرا لتحرير «المصور» من أجل أن يجد لى

عملا فى «دار الهلال»، وقد عرض علىّ أن أعمل مصححا فى الدار فقبلت، وتسلمت عملى بالفعل فى أواسط عام ١٩٥٦ وانتظمت فيه خمسة عشر يوما لم أجد خلالها ما يشجعنى على الاستمرار فقد كانت قواعد الحضور والانصراف صارمة، ولم يكن المناخ الذى أعمل فيه هو المناخ الذى كنت أحلم بالعمل فيه، فلما عرض علىّ أن أعمل مصححا فى مجلة «صباح الخير» بأجر أقل قبلت على الفور، إذ كان العمل فى دار «روزاليوسف» يعنى أن أعمل مع محمود أمين العالم، وحسن فؤاد، وأحمد بهاء الدين، وصلاح جاهين.



فى تلك الفترة كانت قصائدى الجديدة تنشر، وكانت علاقتى بالأوساط الأدبية تتسع، فتقرر «صباح الخير» أن تستعين بى فى إعادة صياغة موادها الصحفية، وهكذا تحولت من مصحح إلى محرر، وتضاعف مرتبى مرتين فى شهور قليلة، وسكنت غرفة مستقلة مفروشة فى ميدان الدقى، واستيقظت ذات صباح كما حدث لـ «لورد بايرون» فوجدت نفسى مشهورا. إذن أصبحت كفؤا لرجاء النقاش.

أظن أنى كتبت أول كلمة ترحيب تنشر فى الصحف المصرية عن كتاب رجاء الأول «فى أزمة الثقافة المصرية». وقد نشرت كلمتى فور صدور الكتاب عام ١٩٥٨ فى «صباح الخير»، وقبل ذلك بعام نظمت قصيدة استوحيتها من تجربة قاسية مَر بها رجاء. وقبل هذه القصيدة بعام أهديته قصيدة «إلى اللقاء» التى مجدت فيها صداقتنا. وأستطيع أن أقول إن فى مجموعتى الأولى «مدينة بلا قلب» ثلاث قصائد على الأقل مستوحاة من رجاء وعالمه، غير قصائد أخرى فى مجموعاتى التالية تتصل به من قريب.

وكما نظمت عن رجاء، كتب هو عنى. فمقدمته الطويلة المتحمسة لمجموعتى الأولى – أسهمت بقوة فى تقديمى للقراء وشكلت صورتى عندهم. بل أقول بكل ثقة إن هذه المقدمة أسهمت بقوة فى تقديم حركة الشعر الجديد، والدفاع عنها، وبيان مشروعيتها، ومساعدة جمهور الشعر على الاقتراب منها وتذوق إنجازاتها الفنية والفكرية.

ولقد أتيح لنا أن نعمل معا فى صحيفة «الجماهير» فى دمشق عام ١٩٥٩، ثم عدنا معا إلى القاهرة لنعمل معا فى روزاليوسف، ثم نفترق، ثم نلتقى لنكتشف أننا لم نفترق.

إننى أدين بالكثير لرجاء النقاش. فقد وضع يده على ما لم أكن أعرفه فى نفسى، وما لم يكن القارئ يعرفه وحده عنى، ففتح لى طريقاً نحو الشعر، ونحو الناس، ونحو نفسى!

سلامات يا عم رجا..

سميح القاسم ◻



يوم سمعت الاسم «رجاء النقاش» وقرأت له ، قبل قراية الأربعين عاماً ، فقد ومضت فى القلب شرارة نبضة خاصة ، وتولدت طاقة استثنائية ، أسميها الألفة وأسميها الإعجاب وأسميها الصداقة .

لماذا ؟ لأن هذه ، كما يبدو ، هى طبيعة الكائنات فى تفاعلاتها وتحولاتها . وها هى قصتى الأولية البسيطة والإنسانية مع رجاء النقاش .

كان للمرحوم والدى ابن عم اسمه رجا الحسين .. وتعودنا على لفظ اسمه مخففاً دون لفظ الهمزة فى نهايته .. رجا .. هكذا .. عمى رجا .

وكان عمى رجا شخصية ذات حضور متميز فى بلدتنا الجليلية الجبلية «الرامة» ، واحة الزيتون المعتزة بتاريخها الثقافى ، والمباهية بخضرتها الأبدية .

وورث عمى رجا عن والده مختار البلدة (العمدة) طبعاً عربياً أصيلاً متشبثاً بالعادات والتقاليد ، وفى مقدمتها مبدأ البيت المفتوح للضيفات ، وطقوس القهوة السادة (المرة) فى الديوان العامر بالحضر وبالبدو ، ورواة الأخبار والعبر والشعر الشعبى ، وحكايات الكرم والشجاعة والعسر واليسر والسراء والضراء ..

وهكذا ، عفو الخاطر ، ارتبط اسم رجاء النقاش بوجدانى ، بمثل الحميمية التى أحسستها فى فتوتى إزاء عمى رجاء العربى الأصيل والإنسان الجميل والنبيل.

حين توسعت فى قراءة أعمال رجاء النقاش ، فقد كان طبيعياً أن أحس بالنبض القومى العربى التقدمى ، وبالزخم الإنسانى الحضارى ، فى ذاته وفى قلمه وفى وعيه ونهجه .

كان عمى رجا يطلق الألقاب ذات اليمين وذات اليسار على كل من يصادفه من أبناء العائلة والبلدة .. وقد طالنى منه لقبان، «أبوعلى تارة» .. و«البلبل طوراً» .. ولماذا أبوعلى ولماذا البلبل ؟ فهمت منه أنهما استبشار خير بالمستقبل .

أما العم رجاء النقاش فقد أطلق على ابنه ، وحيده الاسم «سميح» تيمناً .. جزاه الله وذريته كل خير ، وليس من قبيل المجاملة ، بل من قبيل الاعتراف بالحقيقة الناجزة ، فإن اسم رجاء النقاش أصبح ، بمرور الزمن وتراكم المعرفة وتتابع الإنجازات ، من أسماء الثقافة العربية الحسنى ، ولا ريب لدى فى أن المناخ الذى أحاط به من محبة ذويه والسيدة الدكتورة هانية ، الإنسانة النبيلة الرائعة ، والأسرة الكريمة والأصدقاء والمعجبين

◻ شاعر وكاتب فلسطينى

الكثر ، الذين أعتز بكونى واحداً منهم ، هذا المناخ شكل خلفية مواتية لتدفق العم رجاء ، موهبة وإبداعاً وإضافة ثقافية بارزة، ومنزها عن الشخصية والذاتية المنغلقة ، فقد كان للعم رجاء النقاش دوره المتميز فى تقديم الأدب العربى الفلسطينى إلى القراء، لا فى جمهورية مصر العربية فحسب، بل فى جميع أرجاء الوطن العربى الكبير ، كما كانت له اليد الطولى فى إبراز الطاقات الثقافية العربية الخارجة على قوانين الخنوع وطقوس الهوان، وأعراف الانحناء فى مواجهة الطاغوت .



ويمثل ما أعتز بلقب «أبو على» الذى أطلقه علىّ عمى رجا الحسين، فأنا أعتز بلقب «شاعر الغضب الثورى» الذى أطلقه علىّ العم أبوسميح ، رجاء النقاش.

ولأن قصائد الحب المكثفة والصغيرة تستطيع التعبير عن مشاعر المحبة الكبيرة والعميقة ، فأكتفى بكلمات قليلة :

البورتريه للفنان السورى حسن أدلبى

أحبك أيها العم رجا النقاش (بدون الهمزة ومعها) .. أحب ما تمثله من أصالة ونبل .. وأستطيع قولها بصيغة الجمع ، مطمئناً واثقاً : نحبك يارجاء النقاش .. نحبك ياعم رجا .. ونحب محبيك.

بوركت من أخيك سميح القاسم

قيمة مصرية نادرة

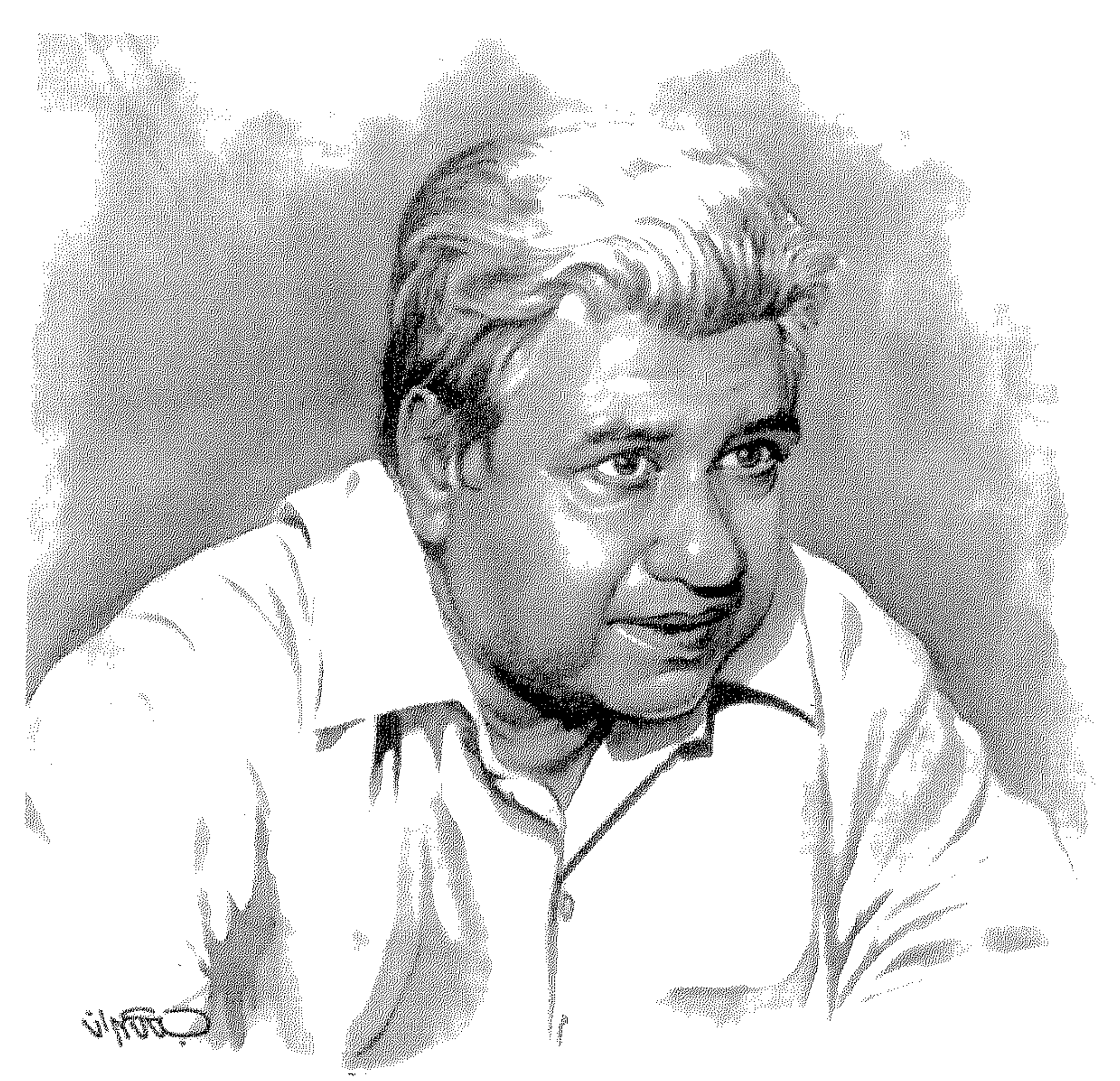


د. جابر عصفور □

عندما اقتربت من سنة التخرج فى قسم اللغة العربية، كلية الآداب بجامعة القاهرة، بدأت أسمع عن اثنين من خريجى القسم، أصبح لهما شأن فى الحياة الثقافية من حولنا. وكنت أقرأ لكليهما فى صحف ذلك الزمان ومجلاته الأدبية. أولهما الشاعر صلاح عبدالصبور (١٩٣١ - ١٩٨١) رحمه الله رحمة واسعة، وكان الملحق الأدبى لجريدة "الأهرام" الذى يشرف عليه لويس عوض هو نافذته على الحياة الثقافية التى كان يملؤها شعرا ونقدا ومتابعة فى ذلك الوقت، خصوصا بعد أن انتقل من دار روزاليوسف التى نشر فى مجلتيها - "روزاليوسف" و"صباح الخير" - مقالاته الأولى التى جمع عددا منها فى كتابه "ماذا يبقى منهم للتاريخ" الذى سعى فيه إلى إعادة تقييم كل من طه حسين وعباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم والمازنى، فيما أذكر. وكان صلاح عبدالصبور قد أصدر قبل سنة تخرجى عددا من أهم دواوينه التى جعلته أبرز شعراء قصيدة الشعر الحر فى مصر، وذلك ابتداء من "الناس فى بلادى" الذى صدر فى "دار الآداب" البيروتية بتقديم بدر الديب سنة ١٩٥٧، مرورا بديوانه "أقول لكم" الذى صدر عن بيروت سنة ١٩٦١، وانتهاء بديوانه "أحلام الفارس القديم" الذى صدر سنة ١٩٦٤. أما الثانى فهو رجاء النقاش - مد الله فى عمره، ومتّعه بالصحة والعافية - وقد ولد سنة ١٩٣٤، فى محافظة الدقهلية القريبة من بلدتى المحلة الكبرى فى محافظة الغربية. وكنا نتابع رجاء النقاش كما نتابع زميله صلاح عبدالصبور، وكان رجاء النقاش قد عمل محررا أدبيا بمجلة "روزاليوسف" من ١٩٥٩ إلى ١٩٦١، وانتقل منها إلى "أخبار اليوم" (١٩٦١ - ١٩٦٤) ثم "الجمهورية" (١٩٦٥ - ١٩٦٩).

ومن المؤكد أنه زامل صلاح عبدالصبور الذى يكبره بعامين فى "روزاليوسف" كما تعرّف على زميلهما الثالث الذى عمل معهما فى الدار نفسها أحمد عبدالمعطى حجازى الذى يكبره رجاء النقاش بعام واحد، فقد ولد حجازى سنة ١٩٣٥، ورجاء سنة ١٩٣٤. وأتصور أن ذلك هو ما قارب بينهما إلى أبعد حد، ودفع رجاء إلى كتابة مقدمة ديوان حجازى الأول "مدينة بلا قلب" الذى صدر سنة ١٩٥٩، بعد صدور ديوان صلاح

□ ناقد وأستاذ جامعى



البورتريه للفنان جلال عمران

عبدالصبور بمقدمة بدر الديب بعامين. وظنى أن تقارب العمر بين صلاح وحجازى كان الوجه الأول من تقارب الفكر، فقد كان كلاهما أقرب إلى الفكر القومى، مع ميل إلى أفكار البعث، بينما صلاح عبدالصبور كان أقرب إلى التيار اليسارى مع بدر الديب، مع ميل إلى الماركسية التى ظهرت آثار واقعيتها الأدبية فى قصائد "الناس فى بلادى"، وبخاصة قصائد من طراز "الملك لك" و"الناس فى بلادى". وطبيعى أن يكون موقف اليسار من أزمة الديمقراطية التى حدثت سنة ١٩٥٤ منعكسًا على القصيدة التى هجا بها صلاح عبدالصبور انتصار تيار عبدالناصر فى ذلك الوقت. أعنى قصيدة "عودة ذى الوجه الكئيب" التى أهداها إلى "الاستعمار وأعوان الاستعمار" فى نوع من التقيّة.

وثيقة

أما حجازى فكان، مثل رجاء النقاش، قوميا، رومانسيا، ابتداء من عنوان ديوانه "مدينة بلا قلب" وليس انتهاء بقصائده



البارزة، وذلك فى المنحى الذى صدرت فيه قصيدته المدوية - فى ذلك الوقت - "أوراس" فى السنة نفسها التى صدر فيها ديوانه الأول الذى كتب مقدمته رجاء النقاش. وبعيداً عن الاختلاف فى الرؤية والمعالجة، فقد كانت مقدمة رجاء لديوان "مدينة بلا قلب" لا تقل أهمية عن مقدمة بدر الديب لديوان "الناس فى بلادى". ولذلك ظلت كلتا المقدمتين وثيقتين تأسيسيتين من أهم الوثائق التى صحبت ثورة شعراء القصيدة الحرة فى مصر التى كان يتنازع موضع الصدارة فيها عبدالصبور وحجازى، بالطبع إلى جانب أسماء فوزى العنتيل والفيتورى وتاج السر حسن (وكلاهما سودانى كان يدرس فى مصر) فضلا عن أسماء كمال نشأت ثم مجاهد عبدالمنعم مجاهد وغيرهما من الشعراء الذين كان قدرهم أن يتحدوا المؤسسة النقدية والشعرية التقليدية فى مصر، وأن يواجهوا العملاق عباس العقاد رئيس لجنة الشعر فى "المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب" (المجلس الأعلى للثقافة حاليا) الذى كان يحيل قصائدهم ودواوينهم إلى لجنة النثر للاختصاص.

المهم أنه بقدر ما كانت مقدمة بدر الديب بطاقة دخول صاحبها إلى صدارة جيل جديد من النقاد، جيل ينطوى على رؤية جديدة مغايرة فى تمردها على الرؤى الجامدة القديمة، كانت مقدمة رجاء النقاش تنطوى على المعنى نفسه، وتضعه فى زمن مبكر فى الصدارة من نقاد الشعر الذى لم تنقطع علاقته النقدية به على امتداد نصف قرن، لم يتوقف فيها عن الانحياز للشعراء الذين يكتبون من المنظور القومى ثائرين على أوضاع التخلف العربى. وأعتقد أن ذلك ما دفعه إلى تقدير شعر صلاح عبد الصبور وتقديمه والإشادة بموهبته، خصوصا فى قصائد صلاح التى لم تخل من نزعة قومية، وذلك منذ زمن يرجع إلى سنة ١٩٥٧، حين استهلّ رجاء كتابته عن صلاح عبدالصبور الذى سرعان ما حطم القيود التى كانت تصله بالمجموعات الشيوعية، وفتح لنفسه آفاقا واعدة فى النزعة الإنسانية التى تجاوبت مع الشعور القومى الذى برز فى الكتابة ضد الاستعمار البريطانى، وضد العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦. وهو العدوان الذى خرج منه عبدالناصر منتصرا، زعيما لكل العرب، وخرج منه التيار القومى عفيا واعدا مكتسحا، يبشر بالحرية والوحدة والاشتراكية فى وعود التفاؤل بالمستقبل الذى سطعت نجومه الوضاءة بالحرية والعدل تقترب من الأكف على امتداد الأمة العربية التى أصبحت وطنا واحدا، هادرا، يمتد من المحيط إلى الخليج.

التنبؤ

وكان واضحا أن رجاء النقاش يتمتع بقدرة تنبؤية عالية على اكتشاف معدن الشعر الأصيل الذى يضع يديه المرهفتين عليه بالكتابة عنه والتقدير له منذ البداية.



.. ومع نجيب محفوظ وابنتيه فاطمة وأم كلثوم

وهكذا، كان أول من كتب بإسهاب وعمق وتفصيل عن أحمد عبدالمعطى حجازى، وأول من ناقش، فى حرارة، نازك الملائكة فى أفكارها عن القومية. وأول من أسرف فى الهجوم على الحزب القومى السورى فى هويته الفينيقية، وهو الهجوم الذى جمع فى الرفض ما بين الدعوة الفينيقية والرموز التى استخدمها الأدباء القوميون السوريون فى كتاباتهم، حالمين بإعادة فينيقيا التاريخ والرمز إلى الوجود، ورأى رجاء فى مثل هذا الحلم "بذرة من بذور الشر فى حياتنا الأدبية والسياسية". وكان طبيعيا - فى ذلك الوقت - أن يتركز الهجوم على أدونيس، أبرز شاعر قومى سورى فى ذلك الزمان، وأن يحلل الناقد - فى رجاء - قصائد أدونيس التى تقدم "صورة كئيبة للحياة" وحلما رجعيا بالعودة السعيدة إلى فينيقيا القديمة. وكان ذلك عبر أربعة مقالات بالغة الدلالة والأهمية بعنوان "القوميون السوريون والأدب"، نشرها - بعد ذلك - فى كتابه "أدب وعروبة وحرية" الذى يؤكد - فى استهلاله - أن ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت ثورة اشتراكية وعربية فى الوقت نفسه، لأنها اكتشفت الطابع القومى الأصيل للشخصية المصرية، وهو الأمر الذى صنع الفارق الحاسم بين زعامة مصطفى كامل الذى اقتصرت رؤيته السياسية على تحرير مصر، بينما امتدت رؤية عبدالناصر الزعيم الذى جعل من مصر جزءا لا يتجزأ عن محيطها العربى الذى تبادلت معه التأثر والتأثير. واعية بدورها القيادى فى تحريره، والانتقال به إلى كل ما يحقق أحلام الوجدان الاشتراكى العربى ووحدة أراضيه. ولذلك كان خط تطورنا الفكرى فى مصر يمتد منذ مقدمات ثورة ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢ فى مسيرة طويلة صابرة "من الوجدان القومى المصرى إلى الوجدان الاشتراكى العربى".

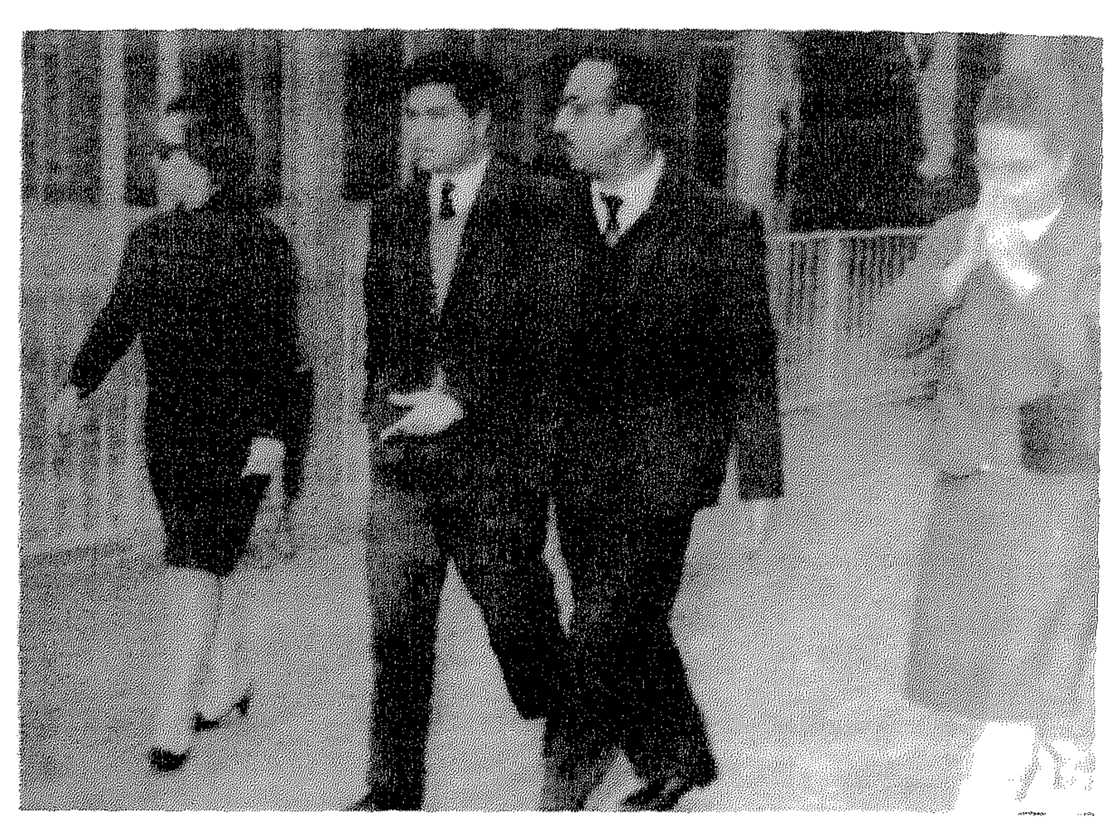


احتفاء بشعراء المقاومة

ولم يتخل رجاء النقاش عن منظوره القومى الذى دفعه إلى الاهتمام البالغ بالمأساة الفلسطينية - جرح العرب النازف - والكتابة عنها، ومرة ثانية تظهر فى أفق رؤيته النقدية للإبداع الفلسطينى قدرته التنبؤية الفائقة على اكتشاف عروق الذهب الصافى فى شعر هذا الإبداع. ولذلك كان احتفاؤه حماسيا بشعر محمود درويش الذى كتب عنه مقالاته التى فتنتنا حين نشرها متفرقة، وحين نشرها كتابا بعنوان محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة". وهو الكتاب الذى كان - بعد المقالات - مدخلنا إلى معرفة أعظم شعراء فلسطين بلا منازع، ومعرفة قصائده التى حفظنا الكثير منها عن ظهر قلب، دون أن نهمل - أو يهمل رجاء النقاش - أقرانه من أمثال سميح القاسم الذى كتب عنه للمرة الأولى فى مصر، وراشد حسين الذى مات قتيلا فى نيويورك، وتوفيق زياد الذى أضيف إليه فدوى طوقان التى كتب رجاء عن شعرها، وعن المراسلات التى كانت تدور بينها والناقد المصرى أنور المعداوى، كاشفا بذلك، حقا، عن صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر. وأتصور أن رجاء النقاش لو جمع ما كتبه عن الشعر والشعراء والشاعرات فى فلسطين لشغل ما كتبه أكثر من مجلد، يؤكد كل واحد منها اهتمامه البالغ بهذا الشعر، والانحياز لأهم شعرائه، ومتابعته الدعوية له، وأتصور، أخيرا، أن تضافر هذين الوعيين كان وراء اهتمامه بكتابات أحمد مطر، مؤخرا، والتعريف النقدى بديوانه "لافتات" الذى أعطى لتيار الشعر الفلسطينى المعاصر دفقة جديدة من الغضب والتمرد والسخرية فى آن. وكان رجاء فى ذلك كله الكاشف عن كنوز الإبداع الفلسطينى، قبل أى ناقد غيره فى مصر، وذلك من منطلق وعيه القومى الذى صاغ - بالقطع - الذائقة الجمالية لوعيه النقدى.

رؤية مغايرة

ولم يكن من المستغرب - والأمر كذلك - أن يبقى رجاء النقاش - ناقد الشعر - على رفضه لتجربة أدونيس الشعرية، خصوصا فى تحيزاتها الفنية، وعدائها للثقافة القومية ونزعاتها السياسية. وقد تواصل هذا العداء فى مقالات من قبيل "أيها الشاعر الكبير إنى أرفضك" و"مع أدونيس مرة أخرى" و"ظاهرة العبث فى الشعر العربى المعاصر". وأذكر أننى كنت أعترض على رجاء النقاش فى موقفه النقدى السلبى من أدونيس، محاولا تنبيهه إلى الفارق الكبير بين أدونيس الذى كان منتميا إلى الحزب القومى السورى وأدونيس الذى تباعد عن موقف الحزب وصاغ رؤية مغايرة، للعروبة فيها مكان أساسى. وهو الفارق الذى يظهر ما بين قصيدة "قالت الأرض" أو ما ماثلها من قصائده وقصائد من طراز" الصقر" و"تحولات الصقر" فى "كتاب التحولات والهجرة فى أقاليم الليل والنهار" أو



رجاء النقاش مع زوجته د. هانيه «على اليمين» والشاعر صلاح عبد الصبور وزوجته سميحة غالب فى بيروت - مارس ١٩٦٧

"مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف" من ديوانه "وقت بين الرماد والورد". وقصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف" التى جعلها قومية فى الإهداء، وجعلها "تحية لجمال عبدالناصر، أول قائد عربى حديث عمل لكى ينتهى عصر ملوك الطوائف ويبتدئ العصر الآخر". وقد أعلن أدونيس نفسه عن تحوله فى أحد خطاباته إلى يوسف الخال، وقد نشر الخطاب فى كتابه "زمن الشعر" (بيروت ١٩٧٢) مؤكدا ما يلى: "الوجود العربى والمصير العربى يؤسسان حقيقتى، لا الشعرية وحسب، بل الإنسانية كذلك. هذا واقع لا يغيره أى شىء: لا إنكاره اضطرارا ولا رفضه اختيارا. فليس العرب شيئا وأنا شئ آخر يقابله.. فلا هوية لنا خارج الهوية العربية"، ويعود أدونيس - فى الخطاب نفسه - إلى تأكيد هذه الصفة حين يقول جازما "إننى أرى العرب فى نفسى. إننى أسكن وأتنفس على الرغم من كل شىء فى الجذر والنسغ".

وأذكر جيدا أن العزيز أمل دنقل - رحمه الله - كان مفتونا بقصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف". وكان يقرأها لى، معجبا بها، ومفتونا بصورها، وذلك على طريقته العجيبة، فقد كان ينام على بطنه بطريقة عكسية فوق سرير حديدى صغير، وينزل بجذعه إلى الأرض، مادا رأسه إلى الديوان الموضوع فوق بلاط الغرفة الصغيرة، ويستمر فى القراءة، متوقفا ما بين مقطع ومقطع لينقل لى انطباعاته،

بعد القراءة بصوته المميز. وأكاد أتخيل صوته الآن، وهو يقرأ:

وجه يافا طفل

هل الشجر الذابل يزهو؟ هل تدخل الأرض فى صورة عذراء؟

من هناك يرج الشرق؟

جاء العصف الجميل

ولم يأت الخراب الجميل

صوت شريد..."

ويمضى صوت أمل يقطع صمت الغرفة إلى أن ينتهى المقطع الأول:

ابتدئ من هنا يدأوا من هناك

حول طفل يموت

حول بيت تهدم فاستعمرته البيوت

وابتدئ من هنا

من أنين الشوارع من ريحها الخانقة

من بلاد يصير اسمها مقبره

مثلما تبدأ الفجيعة أو تولد الصاعقه.

ولم يكن أمل يتوقف إلا ليلتقط أنفاسه التى كانت تتدافع مع تدوير القصيدة العروضى وتدفق تجليات تفعيلة الرمل (فاعلاتن) التى كانت تتداخل وتفعيلة الرّجز (مستفعلن). ولم يقرأ لى أمل غير هذه القصيدة لأدونيس سوى قصيدة أخرى لسعدى يوسف، لم يكن أقل إعجابا بها، هى قصيدة "الأخضر بن يوسف ومشاغله" التى لا تزال تحتفظ ببهائها فى ذاكرتى مثل قصيدة "مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف" رغم بعد ما بين البناء الفنى وعلاقات الصور فى القصيدتين.

أدونيس العربى

ولا أزال أذكر أننى تعلمت من حواراتى مع أمل وتأملى الطويل فى شعره أن عنفوان رفض الشاعر للواقع والإدانة المستمرة له والكره الشديد لمفرداته لا تعنى عدم الانتماء بالضرورة، بل قد تعنى عمق الانتماء الذى يهتاج فيه المحب إذا لم ير المحبوب على الصورة التى يرجوه عليها. وهذا هو السبب فى هجوم أدونيس على التاريخ العربى المليء بالقتل والدماء، على نحو ما يظهر بوضوح فى أجزاء "الكتاب" الثلاثة. ولا تزال هذه النقطة مصدر خلاف بينى والعزيز رجاء الذى لا أناقشه، الآن، فى الأساس القومى لرفضه أدونيس القومى السورى، وإنما أنبهه إلى أدونيس العربى الرافض لمهانة العرب، الباحث فى اللحظة التى تتوسط ما بين الرماد والورد، لعل الرماد يتحول إلى ورد، ويعاود العرب نهضتهم فتتحول ممالك ملوك الطوائف إلى دولة عربية كبرى، شعارها العدل والحرية، تنبعث من مماتها كما ينبعث الفينيق من رماده بالمعنى الأسطورى الإنسانى وليس بالمعنى المتحزّب لأفكار أنطون سعادة.

لكن يبقى لرجاء النقاش، وسيظل باقيا فى وجدانى، إدراكى درجة الصدق الحقيقى مع النفس، والإيمان القومى العميق الذى لم يتزعزع، لكن دون أن يقلل من احترام رجاء النقاش لقيمة شعر

أدونيس الفنية بوجه عام، ورفضه التقليل من شأنه، أو الحجر الظالم على إبداعه. وأذكر أنه أوضح موقفه من خلافى معه فى مقاله "أدونيس مرة أخرى"، فأشار إلى اختلافى معه، وأشار إلى خطاب تلقاه من صديقنا المشترك عبدالعزيز المقالح فى اليمن، ولكن دون أن يذكر اسم عبدالعزيز. ومضى رجاء النقاش فى توضيح أسباب رفضه لرؤية أدونيس الشعرية التى هى تجسيد لرؤيته الفكرية فى النهاية. ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد تجلى المعدن الأصيل لأخلاق رجاء النقاش واحترامه لحق الاختلاف، عندما قمت بدعوة أدونيس إلى أمسية خاصة، يلقى فيها شعره بالمجلس الأعلى للثقافة. وقام بعض الأصدقاء - ولا داعى لذكر الأسماء - بشن حملة هجوم تخوينية تكفيرية على أدونيس فى "الأهرام"، وحاولت رد الصديق عن ما انتوى فعله لمنع أدونيس من دخول المجلس الأعلى للثقافة وإقامة الأمسية، فلم أفلح، فقد توجه الصديق إلى الوزير فاروق حسنى لعله يأمرنى بالمنع، وما كان فاروق حسنى يمكن أن يقوم بذلك بالقطع. وكانت المفاجأة أن اتصل رجاء النقاش بى، مؤكدا تأييده لدعوة أدونيس، موضحا أن الاختلاف لا يعنى الحجر أو العداء، وأن احترامه لأدونيس لا يمكن أن يتخلى عنه، وهو الذى يدفعه إلى ضرورة استمرارى فى إقامة الأمسية. وقد عرفت أنه خاطب فاروق حسنى فى ذلك، داعما حضور أدونيس إلى القاهرة وإقامة أمسيته الشعرية فى المجلس الأعلى.


ومع الشاعر العراقى عدنان الراوى عام ١٩٥٤

وبالفعل أقمنا الأمسية، وكانت ناجحة إلى أبعد حد، وألقى فيها أدونيس قصائده التى خالفت نزعته القومية السورية القديمة. وجلست أستمع إلى إلقاء أدونيس الذى لم يفعل شاعر عربى ما فعله للتراث العربى، درسا فكريا، واختيارا إبداعيا، ومعرفة مذهلة بأسرار اللغة العربية وكنوز مفرداتها التى ضاعت بين شواعير لا شعراء هذا الزمن الردىء، ومضت بى التداعيات إلى تذكّر ما كتبه أدونيس عن إحدى خطب جمال عبدالناصر التى تحدث فيها عن دور المثقفين، ولم أعد أذكر فى أى كتاب نشر أدونيس هذا التعقيب الذى رأيته رائعا فى ذلك الزمن الذى انقلب رأسا على عقب بعد كارثة ١٩٦٧، وكان علينا أن نرثى عمرنا الجميل معه كما فعل حجازى فى



قصيدته الشهيرة.

وظني أن الرحابة الفكرية التي يتمتع بها رجاء النقاش هي التي باعدت بينه والجامدين من القوميين، أو البعثيين، ذوي الرؤية الواحدة. ولذلك كتب عن شعر العامية، مشيدا بتجربة فؤاد حداد الذي كان الأب الروحي لصلاح چاهين ومن بعده الأبنودي وسيد حجاب. ولا أزال مدينا له بأنه أضاف إلى معرفتي ليس بشعراء الفصحى والعامية في مصر والعالم العربي، بل أدين له بالسماحة الرحبة في التذوق، والقدرة على تقدير التيارات الإبداعية المتباعدة، تباعد ما بين محمود درويش، مثلا، ونزار قباني، أو بعد ما بين أدونيس وخليل حاوي، وذلك في السياقات التي جعلته ينتبه إلى الاتفاق والاختلاف وتشابه الرؤى الذي يصل ما بين الشرق والغرب. ولذلك كتب عن تشابه قصيدة صلاح عبدالصبور عن "دنشواي" وقصيدة للشاعر اليوناني كفافي، كما كتب عن العلاقة الشعرية بين كفافي وأمل دنقل.

تعلمنا منه

ويمكن، بالطبع، لناقد مناكف مثلي، لا يعجبه إلا الروائع أن يختلف مع رجاء النقاش في اهتمامه بشعراء من الدرجة الثانية، دون ذكر أسماء، واتهامه بالمجاملة، والوقوع في شراك التشجيع الحاني في بعض الأحيان، لكن هذا الاختلاف لا يقلل من حقيقة أن جيلي تعلم من رجاء النقاش الكثير، ابتداء من الشعر وليس انتهاء بالمسرح والرواية. ولا أنسى حرصي على متابعة نقده المسرحي الذي جمعه في كتابه "في أضواء المسرح" و"مقعد صغير أمام الستار".

أما الرواية فهي الميدان الموازي للشعر في تميز رجاء النقاش الناقد. ولا أزال، إلى اليوم، أذكر مقالاته عن نجيب محفوظ التي كان ينشرها في "أخبار اليوم" حين عمل محررها الأدبي (١٩٦١ - ١٩٦٤)، وكنت لا أزال طالبا لم أتخرج بعد في قسم اللغة العربية، وقد نشر في "أخبار اليوم" سلسلة مقالات عن نجيب محفوظ، في موازاة سلاسل أخرى عن العقاد وغيره، إن لم تخني الذاكرة. وكم كنت معجبا بهذه المقالات التي لم يكن يعدلها عندي، في ذلك الوقت، سوى ما كتبه يحيى حقي عن الديناميكية والإستاتيكية في روايات نجيب محفوظ. أما رجاء فكان يكتب عن "مرحلة جديدة" متتبعا الشخصيات التي كان يطلق عليها "شهداء ومنتحرون" و"الأب الضائع" و"بين المادية والوجودية" و"الشحاذ". أما المقال الذي ظل عالقا بذهني لوقت طويل فهو "بين الروح والجسد". وكان عن رواية "الطريق" التي تظهر للوهلة الأولى بطلها صابر الرحيمي حائرا بين الجسد الذي كنت أظن - كما ظن غيري - أن كريمة هي التمثيل المادي له، وإلهام الذي كان اسمها دالا، بعيدا عن الحسية، ومرتبطا بالعقل العملي الذي كان يمكن أن يقود البطل في أزمته إلى الانسجام مع العالم، والخلاص من الأزمة الخانقة التي كان يعانيها بوضع الحلول المنطقية لمشكلاتها.



مع د. سهيل إدريس وزوجته السيدة عايدة

وكانت براعة إلهام بالقياس إلى كريمة النقيض تجعلها أقرب إلى رمزية الروح، تاركة لكريمة رمزية الجسد الذى يفور بالشهوة، ولا يتردد فى منح المتعة الحسية لمن يشتهيها. وقد كانت هذه هى النظرة الغالبة التى جعلت المخرج حسام الدين مصطفى يختار لشخصية كريمة الممثلة شادية التى أدّت الدور فى براعة جعلت الشبان يحدقون فى الشاشة، وهم يتابعون تفاصيل جسدها المثير. وبالطبع طغى جسد شادية على شخصية إلهام التى قامت بإداء دورها سعاد حسنى. ولا أزال أذكر أننى كنت، فى ذلك اليوم البعيد الذى شاهدت الفليم فيه، قد حصلت على مكافأة التفوق التى تجمعت عند صراف كلية الآداب لأكثر من شهر، وحملت الثروة الصغيرة فى جيبى فى الصباح إلى مكتبة «دار المعارف» والمكتبات المحيطة بها فى شارع عبدالخالق ثروت وعدلى وبعض عماد الدين، وظللت أطوف على المكتبات، أحمل ما استطاعت ثروتى الصغيرة شراءه من الكتب، وانتهى بى المطاف فى مقهى اكسلسيور الذى راقبت من نافذته الزجاجية الممتدة بامتداد الحائط الإعلان الضخم عن فيلم «الطريق» يتصدره جسد شادية الفاتن، أعلى مدخل سينما ميامى، فخرجت من المقهى، بعد احتساء فنجان شاى والتهام ساندوتش. وعبرت الطريق لأشاهد الفيلم الذى تأكدت معه فى وعيى الثنائية الضدية بين «كريمة» الجسد و«إلهام» الروح والعقل. وجاء مقال رجاء النقاش عن هذه الثنائية مفاجئة لى، فقد قلب الثنائية فى ذهنى، وجعل «إلهام» تمثل الجانب العملى من الحياة، بينما «كريمة» التى تبدو مسرفة فى الحسية على مستوى السطح هى التى تقود البطل إلى الطريق الصعب الشاق الذى لا يسيطر عليه المنطق أو العقل، وتدمدم فيه كالطاقة المتفجّرة فى أعماق الروح، وهو التفسير الذى يؤكد أن «الروح» - فى



طريق نجيب محفوظ الإبداعي - لا توجد إلا حيث توجد أعتى شهوات الجسد. وأصحاب الروح الحقيقيون هم الذين ينطوون على الحيوية الجسدية العنيفة. ويؤكد رجاء، في هذا التفسير المفاجئ، أن نجيب محفوظ من الفنانين الذين ينفذون إلى أعماق الأشياء ولا يخدعهم المظهر الخارجي، وأنه، في مرحلته الجديدة، يتتبع جذور الشر ويردّها إلى الاضطراب الروحي الذي يعتري الإنسان ويعذبه ويشقيه. ولذلك فالدلالة الرمزية لكريمة ليست مجرد دلالة جسد فائر شهواني، وليس صابر مجرد قاتل دفعته كريمة إلى القتل، فكلاهما روح شقية قلقة، تشبه روح «نور» التي تبدو بالغة الحسية في «اللص والكلاب»، ولكنها تتكشف عن نفس رهيفة شفيفة نبيلة، وروح صافية مضيئة، كان يمكن لسعيد مهران أن يصل إلى خلاصه من خلالها وعن طريقها. ولكنه رفض ما قدمته إليه من عطاء نبيل، واستبدل به رغبة الانتقام، فضلّت خطاه، وأصبح لصا وقاتلا. وهذا أمر طبيعي، فالمومسات واللصوص والقتلة في أعمال نجيب - مع اللص والكلاب وما بعدها - هم أصحاب الروح الحقيقيون.

وأعترف أن هذا التفسير قلب ما فهمته عن الرواية في ذلك الوقت رأسا على عقب، فكان من الطبيعي أن أرفضه في البداية، ولكني مع التأمل وجدته منطويا على قدر كبير من المعقولية، وعلى حس مرهف بعالم نجيب محفوظ الذي لا تتوقف عين الناقد على أسطحه، بل تنفذ من الأسطح إلى ما وراءها، في طريقها إلى الأعماق التي لا يراها القانعون بالسطح. ولم أكن أرجو لنفسي أن أكون واحدا من هؤلاء، وكنت - ولا أزال - أتطلع إلى الكشف عن كل ما يظل في حاجة إلى الكشف من الطبقات الرمزية للأعمال المتعددة التي لا تمنح نفسها لقارئيها للوهلة الأولى، وإنما بعد صبر ومجاهدة وتتبع لكل الاحتمالات الدلالية والعلاقات البنائية. هكذا آمنت - مع رجاء النقاش - أن الأرواح القلقة كما يصورها محفوظ، غالبا ما توجد مع الحيوية الجسدية الفائرة، فليست الروح هي الزهد والتصوف الجاف، أو العقل الهادئ البارد والإرادة الصارمة المستبدة المتحكمة، ولكنها الطاقة العنيفة الكامنة في داخل الإنسان، وتتفجّر في أكثر الأجساد حيوية، فالجسد المشتعل هو طريق الروح المتوقدة بالعنفوان والعرامة، كأنها الطاقة الروحية المنطوية على الوثبة الحيوية التي تحدث عنها برجسون في أحد كتبه التي كنت قرأتها في ذلك الوقت بترجمة المرحوم سامي الدروبي.

علامات مضيئة

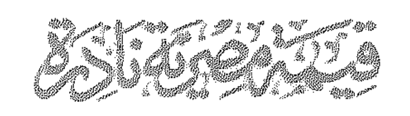
ولا يزال مقال رجاء النقاش «بين الروح والجسد» إحدى العلامات المضيئة في ذاكرتي على نفاذ بصيرته النقدية وعمق حاسته الأدبية المرهفة. ولذلك ظللت أتابع مقالاته، وأقرأها بنهم المحب، وشغف المستفيد، وفوق ذلك تعصب خريجي القسم الواحد لأبناء قسمهم



مع يوسف إدريس والطيب صالح عام ١٩٧٧

الذين سبقوهم إلى الطريق الذى لا يختلف كثيرا عن طريق صابر صابر الرحيمى الباحث عن المعنى الكلى الذى يعيد للحياة كمالها، سواء تجلى فى رمز زعبلاوى أو الجبلاوى أو غيرهما، فالمهم هو السعى، حيث متعة الطريق المستحيل لا تقل عن متعة الوصول منه إلى غاية، فهو طريق لا يخلو من الغواية التى تلبست روح صلاح چاهين - وهو من جيل رجاء - عندما وصف نفسه فى إحدى رباعياته بأنه الذى «بالأمر المستحيل اغتوى». ولا يعنيه الوصول ما دام الطريق إليه مليئا بالنشوة التى تتقد بها رغبة الكشف إلى ما لا نهاية.

لا أعرف إذا كان رجاء قد اهتم بمبدع روائى آخر اهتمامه بأعمال نجيب محفوظ، فأغلب الظن أن قائد الروائيين إلى نوبل شغله عن الاهتمام بغيره، فأصدر عنه عددا خاصا عندما تولى رئاسة تحرير مجلة «الهلال» (١٩٦٩-١٩٧١)، وأحسب أنه أغرى محفوظ بأن ينشر «المرايا» فى مجلة «الإذاعة والتلفزيون» التى تولى رئاسة تحريرها (١٩٧١-١٩٧٣): وكانت ضربة معلم منه أن يتفق مع المبدع العظيم سيف وانلى على نشر لوحات عن الشخصيات التى تقدم الرواية مرايا لها. وهو الذى نشر قصص نجيب محفوظ القصيرة عندما كان رئيس تحرير مجلة «الدوحة القطرية» (١٩٨١-١٩٨٦) التى جعل منها أفضل مجلة ثقافية عربية، يتهافت عليها القراء فى كل مكان. وكان نشره لقصص محفوظ القصيرة ضربة معلم أخرى كسرت طوق المقاطعة العربية لنجيب محفوظ، بحجة موقفه من السلام مع إسرائيل، وهو الموقف الذى أثار عليه عداء الكثيرين الذين قاطعوا رواياته ومنعوها من دخول «أقطار الصمود والتحدى».

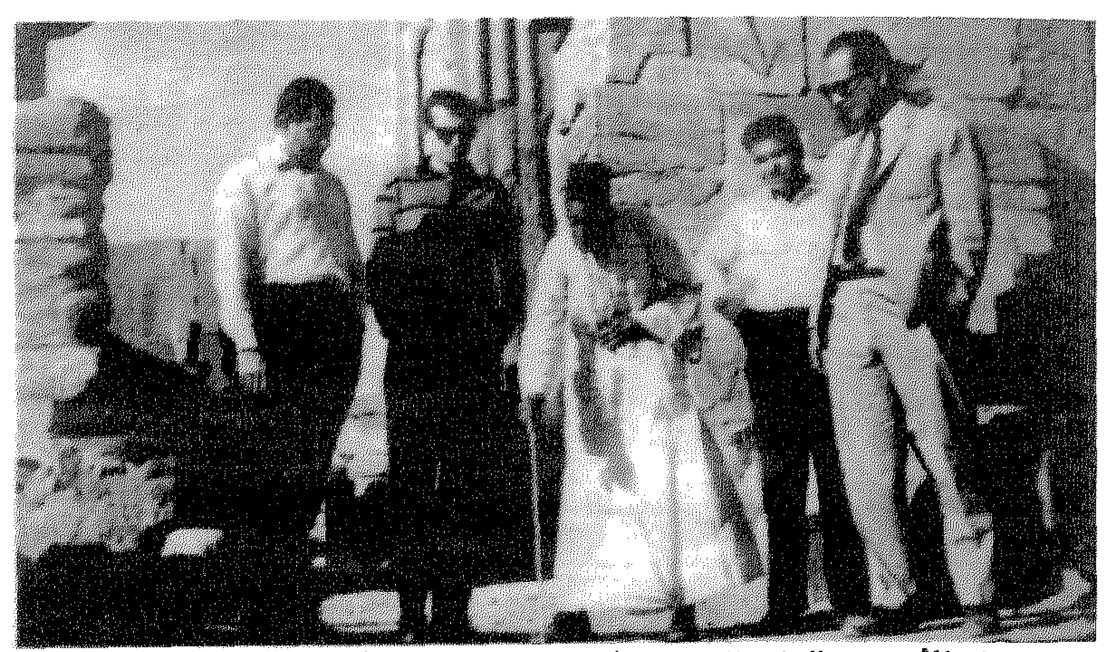


وقد ظل رجاء النقاش متعلقا بنجيب محفوظ الروائي حتى في المنفى الاختياري الذي فرضه على نفسه، أو فرضته عليه المتغيرات السياسية، عندما عمل في قطر، رئيسا لتحرير «الراية القطرية» (١٩٨١-١٩٨٦) ورئيسا لتحرير مجلة «الدوحة» (١٩٨١-١٩٨٦)، حيث ابتعد نسبيا عن متابعة متغيرات القصة في مصر، ولم يكتب كثيرا عن جيل الستينيات ثم السبعينيات ومن جاء بعدهما.

إبداع الطيب

ولم يكن هناك استثناء سوى اكتشاف رجاء النقاش لإبداع الطيب صالح، كما اكتشف إبداع محمود درويش، فكتب عن الطيب صالح بعد أن قرأ له رائعته «موسم الهجرة إلى الشمال»، مؤكدا في مقال كتبه سنة ١٩٦٨ أنه إزاء عبقرية روائية جديدة، يمكن أن يضعها في موازاة أفضل الروايات العالمية فنا وعمقا ومتعة. وكان كشف رجاء النقاش لعبقرية الطيب صالح الروائية علامة مضافة إلى علامات قدرته التنبؤية على اكتشاف العبقريات الإبداعية قبل غيره. وهي القدرة نفسها التي جعلته يرى عالمية نجيب محفوظ في الأفق المواتي للمشهد الأدبي العالمي. ومن المؤكد أن انشغال رجاء بمحفوظ جرّ عليه غضب جيل الستينيات الذين عاب عليهم تقليد نجيب محفوظ الأب، وطالبهم بالثورة والتمرد الإبداعي على «الأب» كي يكون لهم صوتهم الخاص ورؤيتهم لأمور الفن والحياة. وقد تسبب ما كتبه، في ذلك الوقت، في مجلة «المصور» سنة ١٩٦٩ تحت عنوان «هل أصبح نجيب محفوظ عقبة في طريق الرواية العربية؟»، في ثورة الكُتَّاب الشبان في ذلك الوقت، إذ لم يعودوا شبانا، فهاجمه عدد منهم، فردَّ عليهم بمقال عنيف، مؤكدا اقتناعه بأن الحضور العملاق لنجيب محفوظ أخفى الكثيرين تحت ظلاله، فلم يعد هناك من حضور إلا له.

لكن المؤكد أن رجاء النقاش لم يمنح نفسه الوقت الكافي لقراءة إبداع الشباب في تنوعه، بسبب مشاغله العديدة وإيمانه بفكرة المبدع الواحد الأحد، وهي البقية الباقية من رؤية العالم عند المثقف القومي الذي يظل يؤمن بأقانيم الحرية والوحدة والاشتراكية إيمانه ببطولة الزعيم الذي هو المركز الذي تدور حوله كل الأشياء، كالبطل الذي لا نظير له في رؤاه، والمبدع الذي لا شبيه له في علاه. ولذلك ظل نجيب محفوظ الموازي الإبداعي للمركزية السياسية للبطل المتفرد قوميا. صحيح أن رجاء التفت إلى عبقرية الطيب صالح، كعادته في اكتشاف المعادن النادرة للمواهب الأصيلة، لكن رؤيته القومية حالت بينه ورؤية الآفاق المغايرة، بل المعادية للأفق القومي، في كتابات الستينيات، خصوصا حين اقترنت غاياتها الإبداعية بتعرية الكوارث التي انطوت عليها وأدّت إليها الدولة التسلطية للمشروع القومي، ولنتذكر أعمالا مثل «الزيني بركات» و«مذكرات شاب» لجمال



في الأقصر مع الشاعر الروسي «ايفتشنكو» وكامل زهيري وأنيس منصور عام ١٩٦٧

الغيطاني، وكتابات يوسف القعيد وسليمان فياض وبهاء طاهر ويحيى الطاهر عبدالله وغيرهم من الذين كانت أعمالهم القصصية «تمردا» إبداعيا على الأب وقتلا له على السواء. وإن لم تخنى الذاكرة كان رجاء النقاش لا يزال على حماسته القومية رغم كارثة يونيو ١٩٦٧، وما أدت إليه من انقشاع أوهام، وانكسار أحلام أبناء جيله، خصوصا حين كتب حجازى «مرثية العمر الجميل» فاصما العلاقة بينه والمشروع القومى إلى الأبد، وتوقف صلاح جاهين عن الغناء لـ «بستان الاشتراكية» أو الحديث عن مهارة الريس الملاح الذى سوف يبنى عالما جديدا، فيه «أوبرا» على كل ترعة، فى كل قرية عربية، ودخل فى عوالم الاكتئاب التى حاول علاجها بكتابة مطولته «على اسم مصر». وانهمك صلاح عبدالصبور فى كتابة «تأملات فى زمن جريح» (١٩٧٠) و«شجر الليل» (١٩٧٢) التى صمت بعدها طويلا، بينما ظلت جذوة المشروع القومى وأحلامه متقدة داخل رجاء النقاش، فكتب فى السبعينيات مقالاته المدوية التى نشرها، دفاعا عن «عروبة مصر» و«القومية العربية»، ضد ما كتبه توفيق الحكيم ولويس عوض وحسين فوزى، واختص رجاء النقاش لويس عوض بأغلب هجومه الذى نشره - بعد سنوات قليلة - فى كتابه «الانعزاليون فى مصر» الذى صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٩٨١.

اعتزاز

وكانت المصادفة الدالة أننى قابلت رجاء النقاش وعرفته عن قرب، وتبادلنا طويلا الحديث حول رؤيته النقدية، وحول المثل القومية التى لا يزال معتزا بها، منطويا عليها انطواء الجسد على روحه، بعد صدور كتاب الانعزاليين، وكان ذلك فى بغداد التى جاء إليها رجاء من الدوحة



في قطر التي كان لا يزال رئيس تحرير مجلتها، وكنت قادما من الكويت التي كنت أعمل أستاذا معارا في جامعتها، وكان الاقتراب من رجاء مصدر سعادتي طوال الأسبوع الذي قضيناه في بغداد التي كانت تريد أن تحل محل القاهرة، وأن تواصل الرسالة القومية لعبدالناصر، لكن تحت قيادة حزب البعث، وزعامة صدام حسين الذي كان يسعى إلى وراثة عبدالناصر. ولا أزال أذكر اقترابي الحميم من رجاء وإهدائي كتابه «الانعزاليون في مصر» الذي لا أزال أعتز بكلمات الإهداء التي خطّها بقلمه على الغلاف الداخلي. وكان المرحوم غالي شكري قادما، هو الآخر، من باريس، في زمن الشتات الذي تسببت فيه السياسات الساداتية، وأذكر جيدا أن رجاء النقاش آثرني بالقرب، فأنا خريج القسم نفسه الذي تخرج فيه قبلي بتسع سنوات، بينما تخرج غالي شكري من قسم آخر هو قسم الفلسفة. ولن أنسى سحابة الأسى التي ملأت عيني رجاء عندما قلت له إنني قرأت عنوان أطروحته التي سجلها للحصول على درجة الماجستير، تحت إشراف أستاذتنا سهير القلماوي، فصمت لبرهة، كأنه يستسلم إلى أفكاره الشاجية، وحدثني عن أنه كان يحلم بحياة أكاديمية خالصة مثل حياة أساتذته الذين وهبوا حياتهم للجامعة، ولكن الصحافة سرقته من الحلم الذي ظل منطويا عليه لا يفارقه.

وافترقنا في بغداد التي لم أدخلها بعد ذلك، وعاد هو إلى القاهرة قبلي بسنوات، فقد عدت من إعارتي سنة ١٩٨٨، وكان هو في «دار الهلال» التي قبل العمل فيها بمنصب رئيس تحرير مجلة «الكواكب»، وظل يؤدي في الدار ما لا يرضى عنه، تحت إشراف مكرم محمد أحمد الذي لم يكن مسموحا له بأن يمنح رجاء المكانة التي يستحقها. وظل الأمر على ذلك الحال إلى أن انتهى الزمن الساداتي، وأصبح رجاء، بعد سنوات، أحد كُتّاب «الأهرام» التي يواصل فيها مقالاته الأسبوعية منذ سنة ١٩٩٥ إلى اليوم، لا يتوقف عن كتابة مقاله الأسبوعي الذي لا يكف فيه عن العطاء، مواصلا إيمانه بحلمه القومي ورؤيته السياسية التي تنبني على مبادئ العدالة الاجتماعية والحرية والوحدة، ورؤيته الإبداعية التي ظلت ترعى إبداع الأجيال الجديدة، حانية عليها، مبرزة الأصوات الغاضبة المتمردة فيها، باقيا على حبه القديم لنجيب محفوظ، الحب الذي دفع نجيب محفوظ إلى أن يخصه بكل ما يتعلق بحياته، حاكيا له في بوح حر كل المسكوت عنه، فأخرج رجاء الكتاب الذي سيظل وثيقة بالغة الأهمية لكل من يريد أن يدخل إلى عالم نجيب محفوظ، ويعرف ما لم يكن معروفا من قبل عن أدب نجيب محفوظ وحياته على السواء. وقد ظهر ذلك كله في كتاب نادر المثال عن مركز الأهرام للترجمة والنشر سنة ١٩٩٨. وكم أتمنى أن يجد رجاء النقاش ويجد أكثر المقربين إليه من تلامذته الوقت لأن يبوح رجاء النقاش بكل ما عنده وهو كثير، وكل ما



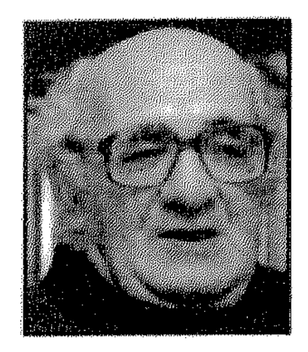
البورتريه للفنانة صفاء علاء الدين

يكتمه وهو كثير أيضا. وسواء فعل ذلك أو لم يفعل فسيظل قيمة مصرية نادرة، وأستاذا كبيرا، أدين له وأبناء جيلى، فقد تعلمنا منه، ولا نزال نتعلم، الكثير الذى يملأ حياتنا معرفة متجددة، وإحساسا نقديا مرهفا، وخبرة أدبية من طراز رفيع.

مدّ الله فى عمره، ومنحه الصحة والعافية التى ندعو له بها ونرجوها له من أعماق قلوبنا، كى نحتفل معه بعيد ميلاده الثالث والسبعين فى الثالث من سبتمبر القادم، وأعياد ميلاد أخرى عديدة قادمة بإذن الله

.. **وقبلاتى يا رجاء.**

للأخضر السمنودي



□ خيري شلبي

في صبانا المبكر - في القرية المصرية- استشعرنا طزاجته في كتاباته النقدية السخنة، وجرأته في التصدي لكبريات القضايا الأدبية والفنية، والتعامل معها ببساطة العارفين بأسرارها، والواعين بأساليب علاجاتها الكلاسيكية.. ولأن الصحافة السيارة كانت نافذته على عموم القراء، فإنه عرف - مبكراً- كيف يجعل منها صحافة ثقافية لها عمقها وتأثيرها القوى فى خلق رأى عام ثقافى حول كافة روافد الثقافة، كالسينما والمسرح والرواية والقصة والشعر، وصناعة الكتاب والنشر وكل ما يتصل بالثقافة بسبب.. وكانت صورته الحميمة تنشر على صدر مقاله الأسبوعى فى مجلتى «البوليس» و«الإذاعة»، فإذا هى صورة جاذبة مستقطبة للحب والإعجاب والتعاطف، شاب وديع حالم أسمر البشرة يشف لونها الخمرى، أو القمحى، عن دم عربى لعله من أصول شامية، بعينين خضراواتين تعكسان اخضرار المستقبل المصرى العربى المرموق، فى ظل ثورة يوليو البازغة الجالبة معها كل جديد، كل حديث مثير مبهر. إن اخضرار هاتين العينين الشاميتين كحمامتين استوطنتا برجاً مصريا نابتاً فى غيطان «قرية سمنود» يحمل لون الشمس المطروحة عليه وهى شمس مصرية الهوى ومزاجها مصرى يستنبئ قلوبا من أطهارها ينشدون فى هواها مزامير العشق وأناشيد الخلود.

كنز ثمين

أحببنا نحن قراء ذلك الجيل هذا الشاب الفتى النابه الجرئ الحاد فى قول الحق رغم وداعة مظهره، والحياء الذى لا ينى يصبغ وجهه القمحى بعصير الفراولة، أحببنا حتى اسمه: «رجاء النقاش»، حفظته أعيننا بجميع ألوان الخطوط من الرقعة إلى النسخ إلى الثلث. تداولنا كتابه الأول عن «أزمة الثقافة المصرية» الصادر عن دار الآداب، كأنه كنز ثمين يخصنا نحن. تابعنا صعوده على صفحات جريدة «أخبار اليوم» حيث المقال صفحة كاملة فى النقد الأدبى، الملاحق للواقع الثقافى الحى، المساهم فى بنائه، الموسع لمعنى الثورة بفتح آفاق مترامية الأطراف للثقافة. ثم انتقل «رجاء النقاش» إلى جريدة «الجمهورية» فانتقلنا معه، ثم انتقل إلى «دار الهلال» رئيساً لتحرير مجلة «الكواكب» الفنية فقام

□ روائي وكاتب



بتطويرها ومنحها ثقلاً ثقافياً دون أن يخرجها عن طبيعتها الفنية، وهذه فى حد ذاتها قدرة استثنائية فى بعض الموهوبين من أبناء صاحبة الجلالة، إلا أنه سرعان ما انتقل إلى المقعد الذى يلائمه ويستوعب طاقاته الكبيرة، أصبح رئيساً لتحرير الشقيقات الثلاث: الهلال.. روايات الهلال.. كتاب الهلال.. الحق يقال لقد بذل جهوداً عظيمة فى تحديث هذه السلاسل الثلاث وربطها بالواقع الثقافى العالمى الراهن، نهض بمجلة «الهلال» وجدد شبابها، فتح «روايات الهلال» على ترجمات حديثة وكاملة ودقيقة لدرر الأدب العالمى الحديث، ولروائيين مصريين وعرب محدثين، نقل «كتاب الهلال» من الموضوع التقليدى التراثى إلى آفاق أوسع فى الأدب والفكر والعلم والاقتصاد والسيرة الذاتية.. ثم انتقل «رجاء النقاش» إلى رئاسة مجلس إدارة وتحرير مجلة «الإذاعة والتليفزيون» فينهض بها فى زمن قياسى..

الكتابة التنويرية

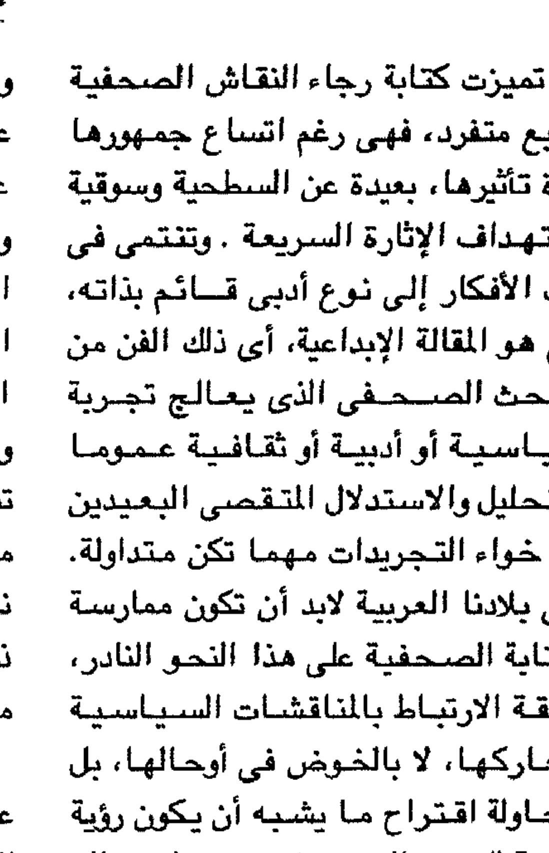
المثير للإعجاب والتقدير حقاً أن كل هذه المهام الجسام وهذه الرحلة الطويلة بين مقاعد المسئولية والعمل الثقافى العام، وما ينتج عن هذا وذاك من وجع دماغ وحرق دم وإرهاق أعصاب، كل ذلك لم يعطل «رجاء النقاش» عن موهبته الأساسية: الكتابة النقدية، التنويرية، المسئولة، المتمسكة بالمنظومة الأخلاقية التى تربينا عليها، وشكلت وجداننا المتجذر فى التربة المصرية. وحتى فى بلاد الغربة حينما سافر رجاء لاستكمال رسالته الثقافية بتأسيس جريدة «الراية» القطرية ثم انتقاله إلى مجلة «الدوحة»، فى زمن كان أشبه بموسم انهيارات لجميع القيم على جميع الأصعدة، كان رجاء حذراً غاية الحذر، فلم يكتب إلا فى الحدود التى يكون صادقاً فيها تمام الصدق مع نفسه ومع قناعاته الفكرية.

لرجاء النقاش دور عظيم فى حركة الشعر العربى الحديث، ليس فحسب لأنه قدم لديوانى «عن القمر والطين» لصلاح جاهين، و«مدينة بلا قلب» لأحمد عبدالمعطى حجازى، وإنما لأنه واكب الحركة بالنقد والإسهام النظرى والتشجيع والترشيد، ويشهد على ذلك كتابه «ثلاثون عاما مع الشعر» أما بقية كتبه الكثيرة فتشهد له بأفضال جمة..



بين الصحافة والسياسة

رؤية نقدية

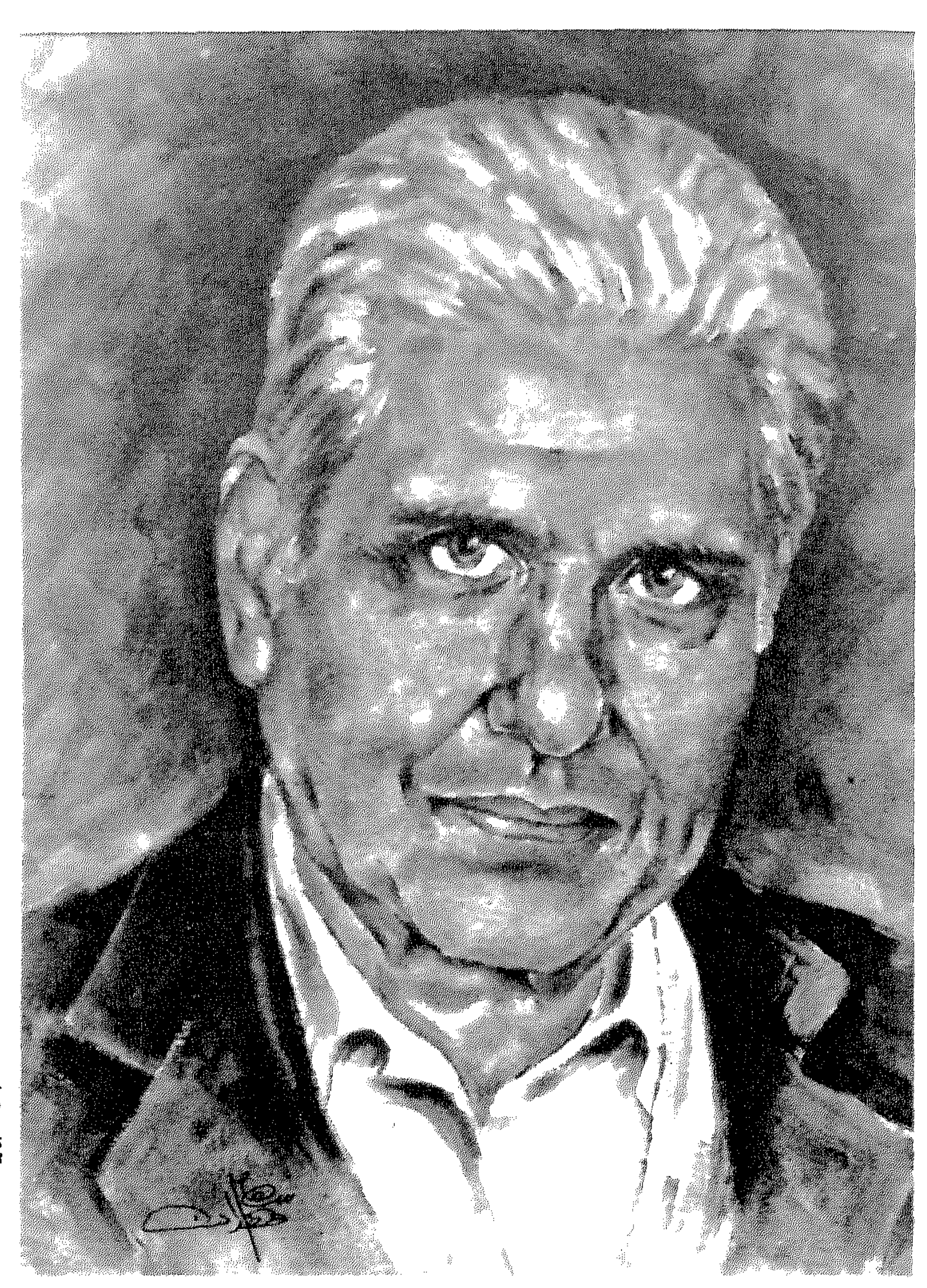


□ إبراهيم فتحى

تميزت كتابة رجاء النقاش الصحفية بطابع متفرد، فهى رغم اتساع جمهورها وقوة تأثيرها، بعيدة عن السطحية وسوقية استهداف الإثارة السريعة . وتنتمى فى أدب الأفكار إلى نوع أدبى قائم بذاته، نوع هو المقالة الإبداعية، أى ذلك الفن من البحث الصحفى الذى يعالج تجربة سياسية أو أدبية أو ثقافية عموما بالتحليل والاستدلال المتقصى البعيدين عن خواء التجريدات مهما تكن متداولة. وفى بلادنا العربية لابد أن تكون ممارسة الكتابة الصحفية على هذا النحو النادر، وثيقة الارتباط بالمناقشات السياسية ومعاركها، لا بالخوض فى أوحالها، بل بمحاولة اقتراح ما يشبه أن يكون رؤية معينة للوضع العربى فى تغييرات عالم اليوم إنها رؤية يمكن أن تعطى لأحداث هذا الوضع وشخوصه الفاعلة وما تثيره من أهواء حادة وانفعالات عنيفة شكلاً ومعنى، وأسلوب رجاء النقاش اللغوى يؤدى بوضوح شكل أو معنى الموضوع الذى يختاره للاختبار أو التجربة التى يستكشفها دون التباس. فاللغة التى يؤثرها فى أعمال الآخرين وفى أعماله هى «لغة ناصعة مصقولة، غنية بالأضواء والظلال مليئة بالشحنات العاطفية بعيدة عن التبذير والثرثرة». وهى مع ذلك تعتمد على المخاطبة المباشرة الحميمية للقراء، ومحاولة إشراكهم بطريقة ودية فى طريقة الكاتب التأملية والتفسيرية. كما أن الانتقالات من فقرة إلى فقرة عنده تحرك الفكرة أو التقييم نحو هدف الاستمالة والإقناع، وأحيانا وصل التداعيات التى تبدو حرة حول موضوع التناول وكأنها محاورات مع قراء مفترضين إلى تركيب نظرى نهائى (وقد يكون مذهبياً) ونعرف ذلك من اللوازم التى يكررها الكاتب فى مقالاته الكثيرة المتنوعة.

ومع ذلك يبدو فن المقالة عنده مرتكزاً على اختبار حر فى مجال التأمل السياسى والثقافى، ونشعر كما لو أن طريقة رجاء النقاش فى «سوق الحجج» وضرب الأمثلة وعقد المقارنات نابعة من تجربته الشخصية فى المحل الأول، دون أن تحركها أى فكرة ختامية جاهزة. فهو يقدم مناقشاته وتأملاته حول الأعمال والمذاهب والأهداف وكأنها فى عملية التشكل لم تستقر بعد أو كأنها لاتزال متفتحة على تأويلات حرة جديدة، وكأنها تبنى جسوراً بين السياسة العربية القومية

□ كاتب وناقد مصرى يعيش فى لندن



البورتريه للفنانة سهام وهدان



وحرية الإبداع، وقراءة الشعر والروايات والمسرحيات وفنون الأداء المختلفة.

تجارب الحس

المقالة الصحفية الفنية عند رجاء النقاش تتميز باعتمادها على تجارب الحس والانفعال، وكثافة اليومى المعيش والانخراط فى الذاتية أى ما يسمى بالحضور الكلى، باستغراق شامل لشخصية الكاتب فى الكتابة مهما تكن موضوعية.

وهو يقدم ما يقوله من آراء باعتبارها طبيعية تلقائية منبثقة من ذاته ومن الذوق العام، بديهية كأنها الشمس فى كبد السماء، حقيقية تمحو كل أشكال البهتان وكأننا فوضنا الكاتب ليدحض لنا وعنا كل الأكاذيب السياسية والحضارية.

فهو يواصل تقليداً لم يستقر بعد فى الصحافة العربية إلا عند قلائل (تقليد سونتيني وهازليت وإمرسون.. إلخ) كان يسمى فى مطلع القرن العشرين فصلاً ويجمع على فصول عند العقاد ومقالاً عند طه حسين ولويس عوض ومندور والمازنى وحسين فوزى وأحمد بهاء الدين وبمعنى مختلف «استطلاعاً» قبل أن يصبح استطلاعاً مصوراً. ولكن التجربة الذاتية فى المقالة الصحفية الإبداعية ليست من قبيل تغريد البلابل. فالسلطة السياسية فى البلاد العربية التقليدية أو فى أنظمة ما يسمى الثورات القومية هى التى تقوم بتنظيم الصحافة وكل مجالات النشر. وليس التعبير السياسى أو الثقافى عند هذه السلطة بعيداً عن رقابتها الخانقة أو التوجيهية، فحتى الأحلام يجب أن تمر عبر القنوات «الشرعية»، ولم تسمح لأن يصل أى كاتب إلى موقع من مواقع المسئولية فى الصحافة ما لم يكن سجل انتمائه إلى خطها السياسى العام دون شائبة اختلاف. وفي مصر كان الخط السياسى العام ولوعاً بفكرة الثورة التى تقترب من فكرة النهضة التحديثية بالإضافة إلى توحيد الأقطار العربية وتحريرها من السيطرة الاستعمارية، وكذلك كان الحال مع التيار القومى فى تحزيه البعثى الذى وصل إلى الحلم فى سوريا والعراق، وكان له نفوذه الملموس فى الكثير من البلاد العربية. وكان قاموس التمرد والثورة والجماهير والوعى والمعركة والالتزام والتوحيد القومى عندما بدأ رجاء الكتابة يواصل انتقاله من ألسنة مناضلى اليسار فى الحركة الوطنية المصرية ومن مطبوعاتهم السرية التى تؤدى بهم إلى السجون والمعتقلات، ليصبح هذا القاموس حكراً على الواجهات الرسمية الإعلامية المضاءة بالنيون أو مصحوباً بالموسيقى فى الإذاعة جهيرة الصوت الدعائى.

ومنذ الخمسينيات الأولى كان رجاء النقاش متميزاً بين حركة ثقافية تضم القادمين من المجال الأدبى شعراء وقصاصين ونقاداً، الذين ينتمون إلى «رمزية» ذلك المجال الجمالية، وقد ارتبط عندهم نوع من التوفيق التلقائى بين التجديد الأدبى والثورة السياسية. الشعر «الجديد» فى الفصحى والعامية





حسين فوزى

عبد الرحمن الشرقاوى

محمد زكى عبد القادر

(عبدالصبور، حجازى، الشرقاوى، فؤاد حداد، صلاح جاهين)، القصة المصرية «يوسف إدريس» ، وبطبيعة الحال صاحب كسر القيود العتيقة على الإبداع. تسييساً واسعاً للمجال الأدبى دون أن يقع المجددون فى خطيئة التبشير السياسى الفج، وفى الكتابة الصحفية برزت إلى جانب مدرسة محمد التابعى، (مدرسة الخبر المثير فى السبق الصحفى، وحكاية النوادر الطريفة عن الأشخاص والعلاقات الشخصية.

عزيزى القارىء تعالى معى) فى أسلوب أقرب إلي لغة المخاطبة اليومية مدرسة أخرى عند محمد زكى عبدالقادر وأحمد بهاء الدين وكامل زهيرى وهذه المدرسة الأخرى أفادت من الأولى الحرص على سهولة الفهم وتجنب التعقيد والتقعر والتكلف ولكنها اتجهت نحو جمع الوقائع والحقائق العميقة وتحليلها والذهاب وراء الحدث للكشف عن معناه ودوافع حركته وما يترتب عليه وما يتعين اتخاذه من مواقف إزاءه.

ومنذ السنوات الأولى كانت كتابة رجاء شديدة الانغماس فى العصر وفى الحاضر مقسمة بالطزاجة لا تقع فى سهولة مفرطة سطحية أو عاطفية مائعة.

المثقف والسلطة

وقد كانت للسلطة السياسية فى مصر سيطرة قوية على الصحف التى عمل بها رجاء النقاش طوال حياته، ولم يخف قط تبنيه للخط السياسى للرؤساء الثلاثة، ومدحه لأشخاصهم، إذا استثنينا فترة قصيرة أعقبت الانتقال من جمهورية ناصر إلى جمهورية السادات وإذا جمعنا ما كتبه وما قاله من مدائح لأشخاص الرؤساء لكان فى أيدينا سفر من النثر الفنى يحفظ لرجاء مكاناً مرموقاً بين ناظمى المدائح.

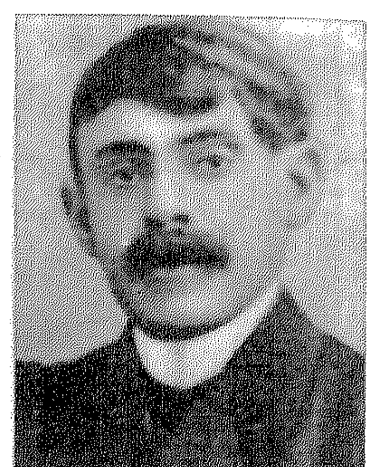
وهو قد يرتدى قناع المتنبى أو أبى تمام مدافعا عن هذا الغرض الشعرى أو الثقافى، غرض المدح. فالمسألة عنده أننا العرب نعانى من عقدة عدم الثقة بالنفس على العكس من الغربيين الذين يفخرون «بأنشودة رولان» والتى يراها رجاء

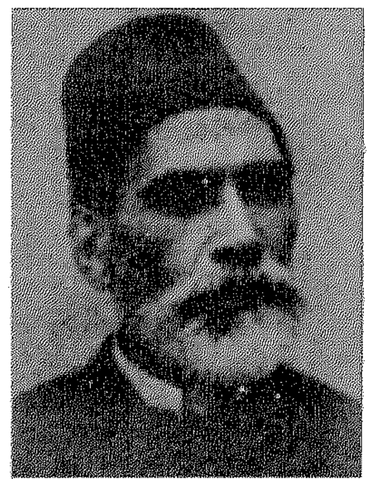


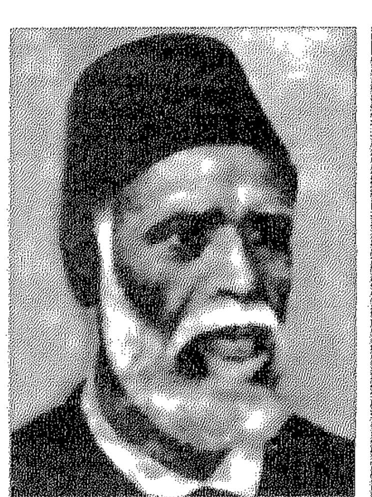
قصيدة مدح لشارلمان ورولان. دعك من الارتزاق وعدم الصدق فى التجربة الكتابية فما الخطأ عند رجاء في أن يمدح هو أو المتنبى أو أبو تمام شخصية سياسية مهمة لها مواقف يوافق عليها المثقف ويؤيدها. إن المتنبى لم يكن يمد اليد ليحصل على المال والثراء فى بلاط سيف الدولة بل يراه رجاء وزير إعلام عند سيف الدولة، «إعلام راقٍ رفيع لتعبئة الروح المعنوية وتمجيد للهدف الكبير الذى يسعى إليه الأمير»، وكان هناك تطابق بين سيف الدولة وجمال عبدالناصر (أو ربما صدام حسين فى كتابة رجاء النقاش الذى يؤكد أن نزار قبانى وقف وقفة صريحة إلى جانب عراق «صدام» فى دفاعها «كذا» عن شعبها «كذا» وعن الأمة العربية كلها ضد العدوان الإيرانى «ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء ص ١٨١». هدف الأمير قديماً والآن حماية الحدود العربية من غارات الروم. إن هذا الشعر «أو المدح الصحفى» «شعر مبدأ وعقيدة والتزام وإيمان بالبطل الذى يجسد الهدف» (نفس المصدر ص ٤١/٤٢) ، وتأييد مبدأ وفكرة وموقف وبطل سياسى. وكذلك الحال مع موقف أبى تمام من الخليفة المعتصم ضد الروم. فهناك تأييد سياسى كامل للمعتصم وللجهاد الحربى فى قصيدة فتح عمورية (لا مجال هنا للحديث عن استعانة الخليفة العباسى الثامن بعساكر الترك الذين سيطروا على الخلافة العربية فيما بعد)

وما معنى المقارنة بين قصيدة أبى تمام وملحمة شعبية سردية لها بناء ملحمى شبه تاريخى يضم آلاف الأبيات، وتنشد تأثر أبطال قد يكونون أسطوريين صاغتها تعبيرات جماعية فى أزمنة مختلفة، ثم بلورتها جهود فردية تتغنى بالمثل الدينية والإنسانية، ولا تتعرض للفرد إلا باعتباره يجسد هذه المثل، كما هى الحال فى أنشودة «رولان» ذات الجملة الملحمية. وبطبيعة الحال لا يسترجع رجاء موقف مترجم كتاب أرسطو طاليس «فى الشعر» أبى بشر متى بن يونس القنائى حينما ترجم التراجيديا وأحياناً الملحمة بكلمة المدح.

وإسقاط الحاضر على الماضى يتجلى فى تفسير رجاء لموقف المتنبى بين مدح كافور الإخشيدى وهجائه، وكأنه مثقف صحفى معاصر انتقل من مصر إلى العراق أو الشام أو الخليج. فحينما تعرض المتنبى لاتهامات ظالمة فى بلاد سيف الدولة تلقى عرضاً من كافور فى مصر التى استقلت عن سيطرة الخلافة العربية وهذا العرض الذى ينفرد به رجاء النقاش يعطيه حق المشاركة السياسية فى الرأى والسلطة. ولم يسمع أحد من المؤرخين عن مجرد إمكان أى شكل من أشكال هذه المشاركة فى هيكل حكم مستبد بالمصريين بعيد عما يسميه رجاء بالعروبة. وما الذى يمكن أن يشارك به شاعر كالمتنبى فى فن الإدارة وممارسات السلطة؟. وقد صبر المتنبى خمس سنوات يمدح «العبد الأسود المخصى» ويتسول سؤر «بقية أو حثالة» الكأس ويغنى


قاسم أمين


عبد الله فكرى


على مبارك

وكافور يشرب. فقد وعد كافور المتنبى بولاية يسلب دخلها مشاركاً فى الغنيمة. ولكن هل لأن المتنبى كما يقول رجاء لم يكن مجرد شاعر، بل كان رجلاً سياسيا صاحب مبدأ وفكرة (سياسى بلا قوة جماهيرية أو قبلية، جنرال بلا جيش أو سلاح، عند نبطى من أهل السواد لا علاقة له بمقاومة «العروبة» للغزو الأجنبى) فلا لوم ولا تثريب عليه فى أن يغير تحالفاته لكى يحقق أهدافه (تلك التى قد لا تتعدى اختيار المكان الطيب الذى ينبت العز). هل يكفى المثقف الإيمان بالعرب والعروبة ووحدة الأرض العربية وضرورة أن يكون الذين يحكمون العرب عرباً من بينهم؟ ويصل رجاء إلى أن طه حسين صورة من المتنبى، رجل سياسة لا لوم فى أن يكون من رجال السلطة (فسلم السلطة متعدد الدرجات). فالمثقف الجدير بالمدح هو الذى يرفض الانطواء والاعتزال والابتعاد عن الحياة العامة!

صور متغايرة للمثقف

والآن بعد عقود يواصل رجاء ما بدأ به. ففى تعقيبه بالأهرام على رواية «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسوانى يقول إنها رواية غضب على الواقع وحنين إلى تغييره . الغضب من أجمل ينابيع الفن الجميل؛ لأن الفنان والكاتب خصوصاً لابد أن يكون غاضباً يريد أن يرتقى بالواقع والإنسان، ويرفض التطرف الدينى الذى يقود إلى العنف والفساد الذى يشوه الواقع والإنسان. وقبل ذلك كان رجاء النقاش يرى فى حجازى أوجه شبه مع المتنبى فى تحدى العاصفة، تحدى الواقع الذى يعيشان فيه ويعانيان منه أشد المعاناة وحجازى لم يخلع لقب الفارس يوماً «فوق» أمير أبكم.

وقد احتفل رجاء فى رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» بالجرح الإنسانى الذى ينزف، جرح الإنسان الأفريقى ضد التشويه الإنسانى الذى حملته أوروبا إلى الأفريقيين وبمواجهة مشكلة الخطو إلى الأمام دون نزع الجذور من الأرض.

وفى اكتشاف رجاء لشعراء المقاومة الفلسطينية، وهو اكتشاف ثقافى عظيم،



وفى التعريف العميق بهم يحتفى بالثورة والتمرد بل وبالبطولة.

بعيداً عن الثورة والتمرد

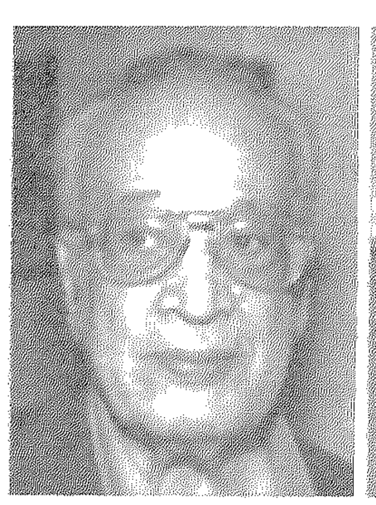
فى الكتابة الصحفية عن الواقع الثقافى الحالى نزول إلى الأرض وتناول واقعى للأمور وانتقال من المبدع الضمنى الماثل فى الأعمال، إلى المبدع الذى يمشى فى الأسواق، أى من الفارس القديم إلى الموظف كاسب العيش. ورجاء يصيح: هل يطالبون كل من يحمل القلم بأن يكون بطلاً مقداماً وفارساً مغواراً يخرج من سجن إلى سجن ويتعرض للجوع والتشرد هو وأولاده وبقية أهله؟ فإن لم يفعل ذلك فلتحل عليه اللعنة وليصبح خائنا منبوذاً؟ ورجاء يرصد ظاهرة المهادنة فى المعارك المثارة. ويتناول صلاح عبدالصبور ويصفه بأنه من أهل التقية. يتقون إعلان آرائهم الصريحة عندما يدركون أن إعلان الرأى ثمنه قطع الرأس أو قطع الرزق أو تشريد الإنسان. وذلك لم يكن فى العهد البائد الملكى الاستعمارى وحده، بل كان فى عصر بطل العروبة ثم في عصر بطل ثورة مايو التصحيحية. ورجاء يقوم بتأصيل ظاهرة المهادنة. وهو يراها فى طبيعة مفكرين كبار منذ رفاعة رافع الطهطاوى، ويتكلم باسمهم حين يرون الاصطدام المباشر فى الفكر والحياة لا نتيجة له إلا أن ينكسر المفكر أو الفنان انكساراً سريعاً، وتضيع عليه فرصة الإنتاج وفرصة التأثير الذى يستطيع من خلاله أن يخدم وطنه وشعبه ويعتقد رجاء أن رفاعة الطهطاوى أول مفكر مستنير ظهر بعد عصر الظلام العقلى الطويل، ولم ير إمكان التغير بين ليلة وضحاها، بل آمن بالتدرج المهادنة وسياسة الصبر والنفس الطويل. وهو لم يدخل أى معارك مع السلطة بل حاول أن يؤسس عصراً كاملا من عصور التنوير عن طريق هادىء وديع ويغير صدام مع أحد (هل تركه الحاكم يؤسس ذلك بالإمكانات المادية والمؤسسية التى أعطاها الحاكم له طواعية؟). ويضع رجاء على لسان رفاعة أنه وجد ذلك أنسب لطبيعته الخاصة ولإمكانياته وأجدى عليه وعلى وطنه وأهله. صبر وثابر حتى استطاع أن يخلق جيلا هو الجيل الذى صنع النهضة وأنشأها فى مصر ويرتفع صوت رجاء قائلاً: إن هذا النوع من المثقفين «المعتدلين» له نماذج أخرى: على مبارك وعبدالله فكرى وقاسم أمين وتمتد السلسلة حتى تصل إلى طه حسين والعقاد ونجيب محفوظ الذين كانوا فى مراحل طويلة مهادنين فى الفكر والحياة لا بدافع الانتهازية والجبن، ولكن بدافع البحث عن الاستقرار والقدرة على الإنتاج وتحقيق الممكن. والمسألة عند رجاء متمثلة في فرد مثقف أو موهوب أمام أجهزة البطش فى السلطة الغاشمة. وما من وسائط مثل حركة علماء أو قوى مصرية، من أرباب صناعات وتجار، بل وحركات تمرد واسعة النطاق بين الفلاحين، وما من أفق ممكنات إلا الفرد فى عريه والجلاد فى جبروته. فكان لابد أن يعتمد كل المثقفين الأحرار مثل «طه حسين» على الأحزاب غير الشعبية



بيرم التونسى



فؤاد حداد



كامل زهيرى

وقادتها الذين كانوا قادرين على تيسير تعليمهم فى الخارج وحمايتهم، وكذلك الحال مع العقاد بعد سنة ١٩٣٥ - حيث ربط نفسه بأحزاب غير شعبية لقدرتهم على توفير الاستقرار له الذى يساعده على الإنتاج كما يريده (الأدق أنه كان ينتج كما يريدون). وفى ذكرى العقاد هذه الأيام يحتفى رجاء بشىء مغاير تماماً فالعقاد لم يعرف أى مواقف معتدلة يمكن أن نقول عنها إنها مواقف وسط. وهو يحتفى بكلمة العقاد فى البرلمان: إننا على استعداد لأن نسحق أكبر رأس فى البلاد إذا امتدت يده إلى الدستور. وأكبر رأس كان هو الملك فؤاد وقد دفع العقاد ثمن موقفه الشجاع، ودخل السجن لمدة تسعة أشهر. وهنا لا يذكر رجاء تغير موقف العقاد فى قصائده التافهة التى يمدح فيها الحاكم المستبد فاروق، ومقالاته التى عنوانها «ملك دستورى وسوقة مستبدة» والسوقة هم الأغلبية الشعبية الوفدية.

ومن الممكن استنتاج أن رجاء يرجح كفة ما يسمى بالاعتدال أو المناورة، والالتفاف حول الهدف والبعد عن المعارك المباشرة. وكل كاتب من حقه أن ينتمى إلى المدرسة التى تناسب طبعه وقدراته وإمكانياته واستعداده الخاص. فالمثقف فى عصر سيف الدولة الناصرى أو بطل الحرب والسلام يحس بأن حريته ككاتب وإنسان مرهونة بأى سوء فهم، وما كان أيسر أن يفقد حريته من جانب الذين يملكون السلطة والقدرة على حرمان الآخرين من حريتهم. وينكمش المثقف فى دور الموظف الذى ليس لديه سوى وظيفته مصدراً لقوته «لطعامه» وقوت أسرته. فقد تبعثر المثقفون غباراً من الأفراد لا يعتمدون على حركة وطنية ديموقراطية جماهيرية، تمتلك نقابات وأحزاباً ومنظمات ومراكز ودور نشر. ولكنهم رغم ذلك ظلوا يحترمون قدرات عبدالله النديم وسيد درويش وبيرم ومحمد مندور ويطرحون للتساؤل أدوار الذين قدموا أفضل ما لديهم فى كنف سلطة باغية، ولن يكف رجاء عن تمجيد الغاضبين ضد المسوخ الشائهات. ولكنه فى بعض

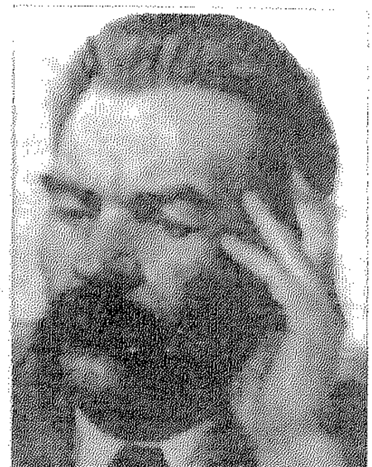
الأحيان؛ لأنه مثقف شريف يبغض اتهام الناس في شرفهم يتلمس الأعذار للذين تهادنوا شارحاً الظروف والملابسات تفادياً لاتهامات الخيانة التى تلقى جزافاً.

وقد يغالي في الدفاع الإنساني حتى ليظن القارىء أنه اتخذ موقفاً يرجح كفة التهاون. فهو يقول: ما أكثر الذين بدأوا حياتهم بآراء تجديدية بلغ بعضها حد الثورة والتمرد ثم صححوا هذه الآراء أو تراجعوا عنها تراجعاً كاملاً أو جزئياً عندما تقدم بهم العمر وازدادوا خبرة وتجربة.

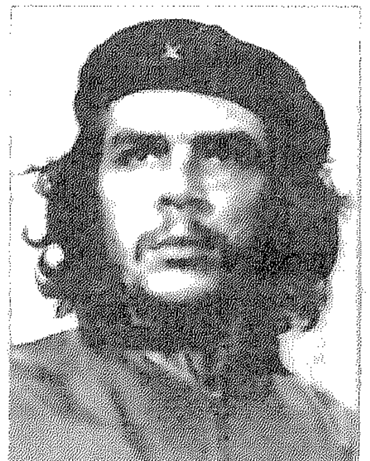
ولكنه حاد كالسيف حينما يدين من يسميهم الخوارج أو التكفيريين من أهل الدين أو اليسار.

ضد التكفير

يكرر رجاء في تناوله للماركسية كل بيانات مكتب مكافحة الشيوعية عند القبض على ضحاياه، فهي نظرية مادية لا بالمعنى المعرفي بل بالمعنى الأخلاقي القيمي، ولابد أن تكون ضد الدين، ويزعم أن الماركسيين العرب يتنصلون من النظرة الفلسفية إلى العالم ويكتفون بالمطالب الاقتصادية التى هي جزء من كل دعوة الأديان من حيث الوقوف مع الفقراء (لا أعرف أي ديانة ناقشت ارتباط التركيب الطبقي المتغير بالهيكل السياسي على طول التاريخ). وربما لم يتسع وقت رجاء لدراسة الماركسية ولم يكن ذلك مطلوباً منه، ولكنه لتبنيه موقف الحزب الواحد في مصر أو الحزب العربي القومي في الشام والعراق يعلو صوته بالإدانة. ففي مصر كان الموقف الرسمي من الأحزاب واضحاً، اليمين عميل للحزب الرأسمالي واليسار عميل للشرق الشيوعي. والمادة ٩٨ من قانون الجنايات تتهم الماركسية بقلب نظام الحكم بالقوة المسلحة. وكنا أمام موقف تكفيري حرفيا وصل إلى حد الاعتقال والتعذيب والقتل والافتراء ضد نشاط سلمي تنويري. جيفارا لم يكن إلا دون كيشوت القرن العشرين عند رجاء (من قصة روايتين ص ٨٢)، وحديث بلا سند عن استعمال العنف المسلح وتكفير المجتمع حينما يتعلق الأمر بحكم عصابات استعمارية ومواجهة فرق الموت في أمريكا اللاتينية. إن رجاء لا يتردد في وصف حركة سياسية بالتطرف والعنف استناداً إلى مواقف هامشية. لبعض الأفراد أدانتها هذه الحركة نفسها. ولا تتفق هذه النغمة الاستئصالية مع رحابة صدر رجاء في التعامل مع معظم ألوان الطيف السياسي. فهو محق في إدانة التكفير المسلح، ولكنه ليس محقاً في أن ينسب إلى أسرى جميع العصور ما ليس فيهم وما يدينونه ولكن العداء المرير للماركسية عند رجاء يحجب عنه الحقيقة التى ظل يعشقها دائماً. إنه ينقل عن أحد المصادر المشكوك فيها أن جوركي قد ضاق منذ اللحظة الأولى بالأساليب الدموية للثورة في سعيها لتطبيق أهدافها النبيلة (قصة روايتين ص ٩٠). ففي اللحظة الأولى دخلت جيوش ضخمة من أربع عشرة دولة أرض روسيا، لتهزم الثورة واستمر القتل



مكسيم جوركى



ارنستو جيفارا



سيد درويش

والحصار أربع سنوات، صوت فيها الشعب الروسى بالسلاح ضد قوى التدخل:

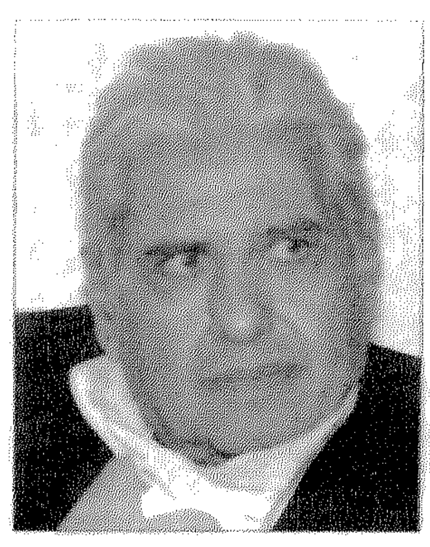
ويزعم رجاء أن جوركى أصر على رغبته فى مغادرة روسيا بعد الثورة، وأنه عاش منذ ١٩١٧ حتى ١٩٣٦ فى كابرى. ومن المضحك أن جوركى كان من أهم أنصار ستالين ولم يكن رئيساً لاتحاد الكتاب السوفييت فقط بل بقى طويلاً وزيراً للثقافة. ولم يكن بعيدا عن «الحزبية» بل لقد كان قائد الدعوة إلى حزبية الأدب فى مؤتمر الكتّاب السوفييت عام ١٩٣٤. ونحن فى الحركة الماركسية كنا نقرأ هجوم التروتسكيين على ستالينية جوركى. ويتميز رجاء بالروح الفكاهية حينما يزعم أن العامل فى الحزبية الماركسية لابد أن يكون بطلاً وشريفا نقيا كما تنظر الحزبية الماركسية إلى أى إنسان من الطبقة الوسطى على أنه لابد أن يكون شخصية سيئة. فهذا الهراء المضحك على النقيض من الماركسية التى تنتقد الحركة التلقائية بين العمال من حيث خضوعها للأيديولوجية البورجوازية السائدة، وتسخر من الذين يسيرون فى ذيل هذه الحركة، وأفراد الطبقة العاملة فى الكثير من الأحوال تضللهم الطبقة الحاكمة وقد يسيرون وراء الكهنة. أما ماركس وإنجلز ولينين فهم من أفراد الطبقة الوسطى وإن كان إنجلز من أبناء البورجوازية الكبيرة، وبليخانوف من الطبقة الارستقراطية. ومن المدهش أن كاتبا مدققاً مثل رجاء يزعم أن بريخت كان متحرراً فى أدبه «التعليمى» من الالتزامات الحزبية، كما يزعم أن بريخت لم يطق أن يعيش فى ألمانيا الشرقية رغم أنه ظل متمتعاً بكل الامتيازات المادية والمعنوية وواصلت كتاباته تأييد أخطاء الحزب وهو ما عرضه لنقد كتّاب ماركسيين مثل تيرى إيجلتون. وليس عيبا أن رجاء لم يتابع الأعمال الأدبية التى كتبها ماركسيون أمثال شولوخوف «الحائز على جائزة نوبل» وفادييف وإيليا اهرنبورج وإلكسى تولستوى «حفيد ليو تولستوى» فى الرواية وايفتشنكو

وتفاردوفسكي وفوزنيسنكي في الشعر ولكن ما كان أجدره أن يمتنع عن إصدار الأحكام القاطعة التي روجتها الحرب الباردة.

الصنم الذى هوى

هذا عنوان الكتاب الذى يرى رجاء أنه كتاب رائع بالغ الروعة والعمق. وقد صدر كتاب الحرب الباردة الثقافية وعنوانه الفرعى «المخابرات المركزية الأمريكية وعالم الفنون والآداب» تأليف فرانسيس ستونر سوندرز. ترجمة طلعت الشايب.

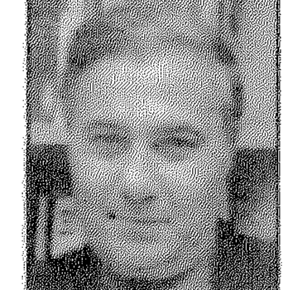
هذا الكتاب يضم وثائق المخابرات التى أفرج عنها وتؤكد هذه الوثائق أن الصنم الذى هوى كان نتاج عمل المخابرات مثلما كان عملاً من إنتاج المثقفين . ومن أعلام المثقفين الذين امتدحهم رجاء لهجومهم على الشيوعية ريتشارد رايت. ولكنه مثلنا جميعاً لا يعرف أنه أعلن خروجه عن المشاركين فى الصنم الذى هوى وأن اختلافه مع الشيوعية شخصى وليس سياسياً. وعاش فى باريس تحت رقابة المخابرات الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالى إلى أن مات فى ظروف غامضة ١٩٦٠ (ص ٩٤ من الكتاب الوثائقى). أما الشىء الذى لم نكن نعرفه جميعاً وكانت فجيعتنا فيه جارحة فهو وضع ايجنازيو سيلونى مؤلف فونتمارا والخبز والنبيذ (وقد ترجمت له قصة الثعلب ونشرتها مجلة القصة برئاسة تحرير محمود تيمور فى



سبتمبر ١٩٦٤) والوثائق التى لم تعد سرية، سوفيتية وفاشية وأمريكية تدل على أنه كان فى العشرينيات يدير شبكة سرية لحساب السوفييت. ثم من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٠ تعاون مع الأوفرا OVRA جهاز مخابرات موسولينى رغم أنفه ثم هرب منها إلى سويسرا ليعمل مع آلان دالاس أثناء الحرب ثم أصبح رئيسا لعمليات التجسس الأمريكية فى أوروبا وفى عام ١٩٥٠ تم جره وهو فى إيطاليا إلى العمل السرى لحساب المخابرات الأمريكية (ص ١٠١ - ١٠٢).

حقا إن التحزب ضيق الأفق شديد الضرر بالفن والسياسة وخصوصا إذا عمد إلى استئصال الاتجاهات المخالفة، وقد عانى العالم العربي من النزعة التى تدعى القومية أو تحتكرها، ومن احتراف العداء لليسار والاستهانة بالماكارثية داخل الليبرالية. ولكن التجربة الفنية فى الصحافة والسياسة التى أهداها الكاتب الكبير رجاء النقاش إلى كل القراء العرب تؤكد جدوى منهجه، منهج مائة زهرة تتفتح.

فارس جميل



فاروق جويدة

أعتقد أن من الصدف الجميلة في حياتي كمبدع وكشاعر أنني عرفت رجاء النقاش وإن كنت قد ندمت لأنني عرفته متأخرا.

التقينا عندما جاء مع د. لويس عوض ليشاهدا معا مسرحيتي «الوزير العاشق».. كان ذلك في عام ١٩٨٣ أو ربما في عام١٩٨٤ وبعد أن انتهى العرض ذهبنا نحن الثلاثة إلى أحد المطاعم في وسط القاهرة وتناولنا العشاء وجلسنا نتحاور ونتشاور ونختلف حتى الثالثة صباحا.

من يومها وأنا أعتبر رجاء النقاش من أقرب الناس إلى قلبي، وللنقاش عدة مميزات جعلتني اقترب منه بشدة، بعضها على المستوى النقدي، ولو بدأنا بالمستوى النقدي فسوف نجد أنفسنا أمام ناقد لا يتخلى أبدا عن قلبه وهو يكتب، وفي تقديري أن رجاء - بجانب أنه ناقد كبير - فهو أقرب للإبداع منه للنقد، وإن كان قد احترف كتابة النقد إلا أن موهبة الابداع بقيت هوايته.. إن رجاء النقاش يكتب النقد بنبضه ودمه، ولذلك تختلط دماؤه مع دماء المبدع فلا تدرى أيهما كان الأصدق؟

الجانب الثاني أن رجاء النقاش ينحاز بشدة لكل ما هو جديد، حتى ولو اختلف معه، ولديه القدرة على أن يفصل بين الخاص والعام في نقده، فهو قد لا يرتاح لإنسان على المستوى الشخصي ولكنه ينصفه نقديا إذا كان عمله يستحق الإنصاف.

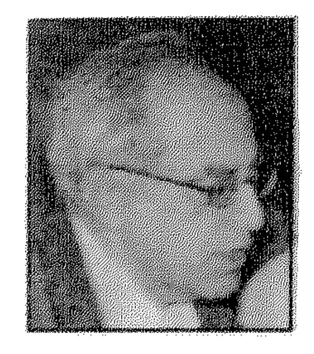
الجانب الثالث أن رجاء قارىء جيد للتراث، وغواص ماهر في أعماق التاريخ، والخلاصة على المستوى العام أن رجاء النقاش من أفضل النقاد الذين تعاملوا مع النص الأدبي في تاريخنا الحديث، وفي تقديري أنه أفضل قارىء - ولا أقول ناقدا فقط - للشعر، فهو يحب الشعر جدا، ويعشق الشعر الجميل.

على المستوى الشخصي يتحلى رجاء بصفات كثيرة، فهو إنسان دمث الخلق، متواضع إلى أبعد الحدود، محب للناس، شفاف ولماح وصادق، وقبل هذا كله.. هو شديد الوفاء لأصدقائه عندما يحب..

هذه الصفات هي التي جعلتني اقترب أكثر من رجاء النقاش منذ كان لقاؤنا الأول بعد مشاهدته لمسرحية «الوزير العاشق».. كتب عني كثيرا.. كتب عني كشاعر وككاتب مسرحي وتناول أعمالي في أكثر من دراسة بكتابه الجميل «ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء» وهو من أفضل ما كتب عن الشعر العربي الحديث، ولا شك أن رجاء النقاش ناقد عصري بكل المقاييس.. ناقد لا يدور في فلك المدارس التقليدية ولكنه يلجأ دائما.

□ شاعر وكاتب

الناقد مبدعا



د. ماهر شفيق فريد □

نصف قرن من الإبداع النقدى : فالنقد - وإن ضرب بسهم فى مناهج العلم المنضبطة - يظل أقرب إلى الفن. إنه - كما قيل بحق - إبداع مواز . ورجاء النقاش الذى يدخل الآن عامه الثانى بعد السبعين - أمدّ الله فى عمره ومتعه بالصحة والعافية - قد كان دائما ناقدا فنانا : فنانا فى رهافة حسه وتفتحه على التجارب الإبداعية المختلفة، فنانا فى فطنته إلى ما تقوله السطور وما تسكت عنه، فنانا فى قدرته على التمييز بين الجواهر الحقة والجواهر الزائفة .

إنما الناقد - كما يقول إزرا باوند- دليل يأخذ بيد القارئ ويجول به فى أرجاء مكتبه، شارحا محتويات هذا الركن، وملقيا الضوء على أساليب ذاك. ورجاء النقاش هو الرجل الذى فطن إلى موهبة أحمد عبد المعطى حجازى فكتب مقدمة ديوانه الأول «مدينة بلا قلب» وهى المقدمة التى وضعت حجازى على الخارطة الشعرية بين عشية وضحاها، على نحو ما صنع بدر الديب بمقدمته لديوان صلاح عبدالصبور الأول «الناس فى بلادى» .

عطاء غزير

ورجاء هو الذى نشر فى سلسلة «روايات الهلال» ترجمة جبرا إبراهيم جبرا لرائعة شكسبير «هاملت»، وهو الذى نشر «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، وهو الذى عرفنا بشعراء المقاومة فى فلسطين، وأعاد تقويم أبى القاسم الشابى بنظرة جديدة . وهو الذى جعل من مجلة «الهلال» المصرية و«الدوحة» القطرية - فى فترة إشرافه على تحريرهما - منارتين من منارات الاستنارة . ومازال حتى هذه اللحظة - يبسط لنا صحائف مشرقة من التاريخ الأدبى بمقالاته على صفحات «الأهرام» و«أدب ونقد» وغيرهما .

يحار المرء أين يبدأ فى مواجهة هذا العطاء الغزير، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فلنسر معه - تاريخيا- فى عدد من أعماله . ولنبدأ بتلك الباكورة القوية التى لفتت الأنظار إليه منذ اللحظة الأولى : أعنى كتابه «فى أزمة الثقافة المصرية» (دار الآداب، بيروت، يناير ١٩٥٨) وقدم له الدكتور سهيل إدريس . هنا، بنبرات حارة مخلصة وجدنا ناقدا شابا يتحدث عن مصر والثقافة الأمريكية، وقضية السودان والفكر السياسى، ويتساءل : هل من رواية جديدة ؟ ويناقش

□ كاتب وأستاذ جامعى



البورتريه للفنان محمود الهندى

الأزهر والثقافة الجديدة، وديوان صلاح جاهين «كلمة سلام»، وأزمة النقد الأدبي، وسياسات دار أخبار اليوم .

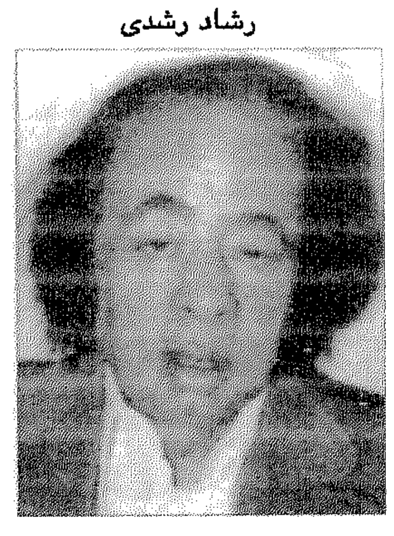
وفي «أدب وعروبة وحرية» (الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة كتب ثقافية، العدد ١٦٧، د. ت) راح يتحدث عن الوجدان القومي والوجدان الاشتراكي، والأدباء والمواقف الإنسانية، وإنسانية الأدب الاشتراكي، والرغيف والكتاب بوصفهما أثمن رأسمال في المجتمع الاشتراكي، والقوميين السوريين والأدب (حيث هاجم أدونيس في مرحلته الباكرة)، ونوبان الجليد (متخذا من سارتر مثلا)، والقومية العربية والخياليين (وتمثلهم نازك الملائكة)، والثورة في أحلام الأدباء، ويتساءل : أدب الثورة : أين هو ؟ وحرب الإبادة الثقافية، ونماذج من أدباء حائرين .

وكتابه «التماثيل المكسورة : «تأملات في الأدب والحياة» (سلسلة اقرأ ٢٤٤، دار المعارف، أبريل ١٩٦٣) يضم مقالات عن جيمس دين، والمنتحرين، وزوجة تولستوي، ووتمان، والطفل المدلل أوسكار وايلد، وكامي، ورسالة كافكا إلى أبيه، وغير ذلك من الموضوعات .

أما كتاب «في أضواء المسرح» (سلسلة اقرأ ٢٧٠، دار المعارف، يونيه ١٩٦٥) فيتحدث عن نماذج من المسرح العالمي (شكسبير، تولستوي، يوريبيديس، دورنمات، تنيسي وليمز) وأخرى من المسرح المصري (نعمان عاشور، الحكيم، ألفريد فرج، شوقي عبد الحكيم، ميخائيل رومان، يوسف إدريس، فتحي رضوان، عبد الرحمن الشرقاوي).

وهناك كتابه الرائد «محمود درويش شاعر الأرض المحتلة» (كتاب الهلال، يوليو ١٩٦٩) وفيه يلقي الضوء على أوضاع العرب في إسرائيل، ومذبحة كفر قاسم، وملامح درويش الشخصية والفنية، وتوجهه الإنساني لا المتعصب، وخيوط الطبيعة والحب والمرأة في شعره، والدين والثورة، والاتهامات الظالمة التي وجهت إليه، ثم يتساءل : ماذا نتعلم منه ومن رفاقه ؟

ويعود رجاء إلى النقد المسرحي في كتابه «مقعد صغير أمام الستار» (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١) حيث نجد مقالات عن الحكيم ونعمان عاشور وألفريد فرج ويوسف إدريس وسعد الدين وهبه ورشاد رشدي والشرقاوي وميخائيل رومان ومحمود دياب وعلى سالم ومحمود السعدني وهدى زكا وشوقي عبد الحكيم ونبيل فاضل .


رشاد رشدي

وبعد ذلك بعامين أخرج «عباس العقاد بين اليمين واليسار» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، أكتوبر ١٩٧٣) حيث تحدث عن مواقف العقاد من

الوفد، والإخوان المسلمين ومصر الفتاة، والماركسية، والنازية، والصهيونية، والوحدة العربية، وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وذيل رجاء كتابه بعدة وثائق : نص الحديث الذى أجراه العقاد سنة ١٩٠٨ مع سعد زغلول : نص حيثيات الحكم فى قضية اتهام العقاد بالعيب فى الذات الملكية سنة ١٩٣٠ وهى القضية التى انتهت بالحكم على العقاد بالسجن لمدة تسعة أشهر ؛ نص دفاع مكرم عبيد عن العقاد حيث كان مكرم سكرتيرا للوفد وكان العقاد كاتب الوفد الأول فى تلك الفترة (١٩٣٠) ؛ «آخرة عباس العقاد – حقيقة الكاتب وما كتب» وهو مقال كتبه مكرم عبيد أيضا سنة ١٩٣٥ يعكس تحول علاقة العقاد بالوفد حين اختلف مع النحاس وخرج على الوفد، رد العقاد على مقال مكرم عبيد وذلك بمقال عنوانه «لسنا عبيدا يا عبيد» .

ويزداد تقدير المرء لنزاهة رجاء وموضوعيته فى هذا الكتاب، حين يتذكر أن العقاد لم يعفه من سخريته القاسية ولسانه اللاذع وذلك فى صدد الحديث عن الاشتراكية وعن لورنس دريل (جريدة الأخبار فى ١٩٦٢/٦/١٣ – و١٩٦٣/٤/٢٤ – و ١٩٦٣/٥/١) (انظر الجزء الرابع من يوميات العقاد – دار المعارف – الطبعة الثانية ١٩٨٥) . وقد وضع رجاء ذلك كله دبر أذنه وعالج العقاد



عباس محمود العقاد

بما يستحقه من احترام وتقدير لدوره الأدبى وحضوره الشامخ الذى بسط ظله، كجناحي عقاب، على الأدب المصرى منذ بواكير القرن العشرين حتى مطالع العقد السادس منه .

ومن النقد الفنى أخرج «لغز أم كلثوم وكلمات أخرى» (كتاب الهلال، يوليو ١٩٧٨) وفيه ثلاث مقالات عن كوكب الشرق، ولقاء فى الخيال بين سيد درويش ومحمد عبد الوهاب، وشوقى في حياة عبد الوهاب، والمشايخ والفن، ولقاء مع سميحة أيوب، وبين شادية ونجيب محفوظ، وكامل الشناوى، وهوليوود المدينة المتعصبة فى موقفها من التفرقة العنصرية، وكتاب «الأغانى والموسيقى الشرقية بين القديم والجديد» لأحمد أبوالخضر منسى .

ومن كتبه المهمة فى السنوات الأخيرة «نجيب محفوظ : صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على «أدبه وحياته» (مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٨، وقد صدرت منه طبعة فريدة منقحة فى ٢٠٠٥) . هنا يتوقف رجاء عند محطات دالة فى مسيرة محفوظ : الطفولة والشباب ، الوظيفة والأدب، من علموه، أدباء عرفهم، الحرافيش وشلة العباسية، نساء فى حياته، صلته بعالم السينما، متاعبه مع السلطة، أزمة رواية «أولاد حارتنا»، مسيرته من جائزة قوت القلوب الدمرداشية إلى جائزة نوبل عام ١٩٨٨،

ثورة ١٩١٩، ثورة يوليو ١٩٥٢، زعماء مصر، ذكرياته مع المظاهرات، موقفه من المذاهب السياسية، نكسة ١٩٦٧، التطرف الديني، الله والإنسان، أزمة الخليج والمأزق العربي، مع فصل ختامي عن جريمة الاعتداء على حياته .

النقاش وشكسبير

ومن أحدث أعمال رجاء النقاش كتابه المسمى «نساء شكسبير» (دار شرقيات للنشر والتوزيع ٢٠٠٥) ويستهله بالحديث عن حياة شكسبير، والنساء في حياته (سيدة السوناتات السمراء وغيرها) قبل أن يتحدث عن قصيدتيه القصصيتين «فينوس وأدونيس» و«اغتصاب لوكريس» ومسرحياته «هاملت» و«عطيل» و«روميو وجولييت» و«أنطوني وكليوباترا» و«ماكبث» و«الملك لير» و«تاجر البندقية».

وهذا الكتاب - الذي أريد أن أتوقف عنده وقفة طويلة بعض الشيء- سفر ممتع جميل، بل هو من خير المداخل إلى عمل شاعر الإنسانية الخالد، وإضافة إلى المكتبة الشكسبيرية العربية التي تضم دراسات وترجمات قيمة لمطران والعقاد وإبراهيم ناجي وكامل كيلاني وفريد أبو حديد وباكثير وأحمد خاكي وزكي نجيب محمود ومحمد عوض محمد وعبد العزيز جاويد ولويس عوض وعبد القادر القط ومصطفى بدوي وشفيق مجلي وفاطمة موسى محمود ومحمد عناني وجمال عبد الناصر ونهاد صليحة وتوفيق منصور ومحمود صابر وبدر توفيق وجبرا إبراهيم جبرا وجريس القسوس وغيرهم .

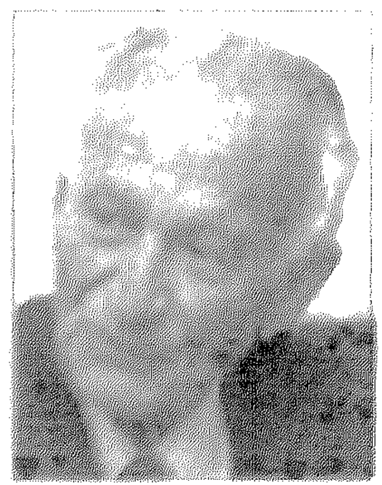
لن أنوه بمزايا الكتاب وفي طليعتها بناؤه المبتكر الذي يتخذ شكل مسرحية كبرى تضم فصولا أبطالها من أبطال شكسبير وبطلاته، فضلا عن غزارة العلم وجاذبية العرض وإشراق الأسلوب، وإقامته جسورا بين شكسبير وشعراء عرب كالمتنبي والشريف الرضي إلى آخر هذه اللفتات العقلية البارعة (ثمة، رغم ذلك، نواحي قصور تعتور معرفة رجاء : إنه يذكر مثلا أن كتاب «روائع شكسبير» (صواب العنوان : «حكايات من شكسبير» من تأليف تشارلز لام وزوجته ماري (ص ٣٦٦) والصواب أن ماري لام شقيقة تشارلز لام لا زوجته).

إنما أريد أن أتوقف عند نقطة أساسية أخالفه فيها، ولن أجامله، فقد عودنا - منذ قرأنا له في يناير ١٩٥٨، كتابه العلامة «في أزمة الثقافة المصرية» ثم تابعناه في رسائله على صفحات مجلة «الآداب» البيروتية و«الشهر» المصرية وغيرهما، على فضائل الشجاعة والصدق والصراحة .


أبو القاسم الشابي

أخالفه في منهجه الأساسي ومنطلقه في فهم شكسبير وتذوقه، وهو منطلق تلخصه كلماته في مطلع الكتاب : «نكاد ونحن

نعيش مع نساء شكسبير، ننسى أننا نعيش فى عالم فني خيالي، ونحس على العكس من ذلك أننا نعيش في واقع حي، وأننا نرى هذه النساء بعيوننا، ونشعر بهن يتحركن بيننا كما تتحرك الكائنات الحية، وهذا جانب من عظمة فن شكسبير الذى يفيض بقوة الحياة ويكاد يخرج بالشخصيات التى يرسمها من صفحات المسرحيات لتمشى على الأرض وتعيش بين الناس وتتعامل معهم تعاملا واقعيا لا خيال فيه» (ص٩).


عبد القادر القط

هو إذن ينظر إلى نساء شكسبير (ورجاله) على أنهن كائنات حية تسعى على قدمين، صادقة مع الطبيعة البشرية كما نعرفها، وهذا - فيما أزعم - تصور جاوزه الزمن، ونقضته أبحاث نقاد محدثين كثيرين .

إن شكسبير رجاء هو شكسبير النقد الرومانسى فى القرن التاسع عشر (هازلت، كولردج، دى كونسى، تشارلز ومارى لام، إلخ) وأ . س. برادلى صاحب «التراجيديا الشكسبيرية فى مطلع القرن العشرين» (١٩٠٤). ولكن شكسبير قد تلقى الضربة القاضية التى طرحته أرضا، وأخرجته من الحلبة - أو كادت - منذ عام ١٩٣٣ على الأقل .

وأنا أخص هذا العام بالذكر لأنه عام المحاضرة التى ألقاها الناقد البريطانى ل . ت . نايتس على «الرابطة الشكسبيرية» تحت عنوان «كم من الأطفال كان لليدى ماكبث» (والسخرية فى العنوان واضحة) ثم أدرجها فى كتابه المسمى «استكشافات» (١٩٤٦) وفى هذه المحاضرة هوى نايتس بمعوله على نقد الرومانسيين وبرادلى، ذاهبا إلى أنه لا يجوز النظر إلى شخصيات شكسبير، رجالا ونساء، على أنها شخصيات حية من لحم ودم، وإنما هى مصنوعات درامية تنتمى إلى عالم الخيال أكثر مما تنتمى إلى عالم الواقع. إن كل مسرحية من مسرحيات شكسبير قصيدة درامية تقوم على عناصر المفارقة والتوتر والتورية الساخرة والإبهام والصراع .

هذه خلاصة مقالة نايتس، وقد سبقه إلى هذه الأفكار وواكبه وجاء بعده متأثرا به - كثيرون : سبقه ت . س. . إليوت فى تعليقاته على هاملت وعطيل إذ رأى أن المسرحية الأولى (على عظمتها التى لا تُنكر) فشل فنى لأن انفعالات هاملت تجاوز الحدث المقدم، ومن ثم تفتقر إلى معادل موضوعى يكون كفوا لها . وسعى إليوت إلى أن ينزع عن شخصية عطيل هالة السحر الرومانتيكى الذى وقع نقاد الماضى (ومعهم رجاء) تحت طائلته . فعند إليوت أن عطيل لا يعدو أن يخدع نفسه ويحاول أن يرى ذاته - فى لحظاته الأخيرة - فى ضوء بطولي يكفل له، من بعد رحيله، طيب الذكر وحسن الأحدوثة .

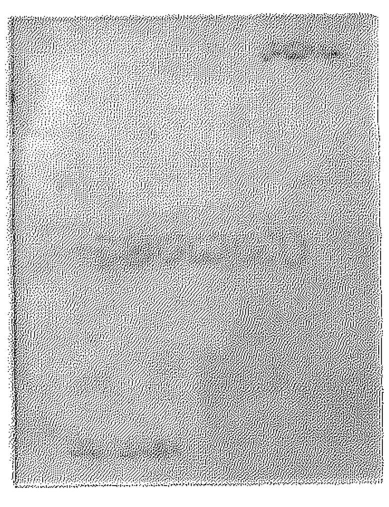
وقد تابع الناقد ف . ر . ليفيس - إليوت فى نظرته هذه وذلك فى مقاله المسمى «الذكاء الشيطانى والبطل النبيل : أو عطيل كما يبدو للمسرفين فى العاطفية» (فى كتابه «السعى المشترك» ١٩٥٢) فرأى أن عطيل لم يكن إلا مغفلا كبيرا، ترك نفسه ألعوبة فى يد صاحب ذكاء شيطانى هو ياجو .

ومنذ كتاب برادلى الذى يشير إليه رجاء فى أكثر من موضع، جدّ الكثير فى عالم النقد الشكسبيرى : ظهرت كتب ج . ولسون نايت «عجلة من نار» و«إكليل الحياة» و « العاصفة الشكسبيرية» وغيرها، وكتب آيفور إيفانز وفرانك كيرمود عن لغة شكسبير، وكتب و . هـ . كليمن وكارولاين سبيرجون عن صوره الشعرية، وكتاب الناقد البولندى يان كوت «شكسبير معاصرنا» الذى وجه النظر إلى صلة شكسبير بمشكلات عصرنا السياسية والرابطة بينه وبين مسرح العبث عند بيكيت وأقرانه، وكتب ركزت الاهتمام على رمزية مسرحيات شكسبير والخيوط المترددة فيها وأبعادها الميتافيزيقية وفكرها الفلسفى، وكتب أصحاب مدرسة النقد النسوى التى قوضت التصور التقليدى لبطلات شكسبير بحيث أصبحت طهارة أوفيليا وبراءة دزدمونا وأمانة كورديليا، إلخ .. موضع مساءلة جادة، إن لم نقل : موضع رفض صريح .

خلاصة ما أريد أن أقوله هنا : إن مدخل رجاء إلى شكسبير (رغم كل مزاياه) من تراث الماضى، لا يتسق وعام ٢٠٠٥، فقد جرت مياه كثيرة تحت الجسر منذ برادلى والرومانسيين، وتغيرت صورة شكسبير فى الأذهان تغيرا جذريا .

منذ نصف قرن أو نحو ذلك، كتب الدكتور محمد مندور : ويل للأدب إن حده شىء غير الحياة . هل لى أن أرد على مقولته هذه (و«الحياة » كلمة فضفاضة إلى حد يكاد يجعلها بلا معنى) فأقول : ويل للأدب إن حده شىء غير الأدب . أعنى أن المعول فى هذه الأمور (كما علمنا إليوت وأصحاب مدرسة النقد الأنجلو - سكسونى الجيد وتلميذهم رشاد رشدى) إنما هو على التقاليد الفنية السائدة فى كل عصر، ومواضعاته الكتابية والشفاهية، فهى التى تحدد نوعية الإنتاج الأدبى، وتمنح الأديب أدواته التقنية، وتحله - فى النهاية - فى مكانه من الموروث .

ليست مسرحيات شكسبير - فى رأيى، صورا من الحياة، ولا أبطاله وبطلاته نماذج بشرية يمكن أن تقع عليها العين، على نحو ما يظن رجاء، مدفوعا - ربما - بسليقته الفنية الأقرب إلى إبداع الفنان منها إلى حياد الدارس . إنما مسرحيات شكسبير عوالم تخيلية مركبة من عناصر



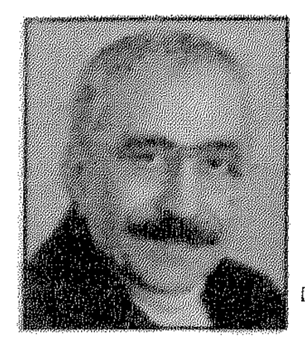
عد صبه ن عقله الخالق وصنع منها سـ ـائك . ـديدة، تحت ضـغط فكرى وا عالى بان القوة، كأنها حمم خارجة من باطن الأرض المتلظى، مندفعة من فوهة بركان . وشخصياته ليست إلا «صواميل» فى آلة تخيلية دوارة لا يلبث أن يتسارع معدل دورانها فترمى شرارات أشبه ببروق الحدس التى تنير ظلمة الوعى .

ناقد ذو ضمير

لم يكن شكسبير فيلسوفا ولا مؤرخا ولا مصلحا اجتماعيا ولا حتى محللا نفسيا يجلس أوفيليا أو كورديليا أو دزدمونة أو الليدى ماكبث على أريكته، ويستخرج من أعماق لا وعيهن مركباتهن أو عقدهن النفسية المتخلفة منذ الطفولة . إنه ببساطة، صانع كلمات (لا أنكر أن لها دلالات فلسفية ونفسية واجتماعية ودينية وسياسية إلى آخره) إنما أعذب الشعر أكذبه كما كان يقول بعض نقادنا العرب القدامى، والشاعر - كما يقول أ. أ. رتشاردز ومن بعده زكى نجيب محمود - لا يقدم حقائق عن الطبيعة البشرية، أو الواقع الخارجى وإنما كل تقريراته «تقريرات زائفة» بمعنى أنها لا تخضع لمعايير الصدق والكذب بمعناهما المألوف، ولا تقبل التحقيق العلمى لأنها لا تردنا إلى واقع خارجى قدر ما تردنا إلى واقع داخلى من مشاعر النفس وأفكارها وأوهامها وذكرياتها ومخاوفها ورغباتها وأحلامها وكوابيسها - وهذه هى المادة التى نسج منها شكسبير قماش بطلاته وأبطاله .

يختلف المرء مع رجاء النقاش فى هذا كله وفى غيره، ولكنه يظل الخلاف النابع من اختلاف المنظور والتكوين والرؤية، ولا يتحيف فى شىء من مكانته فى العقول والنفوس : ناقد ذو ضمير، كما دعاه صلاح عبد الصبور بحق، وعقل نافذ إلى الجوهر، وروح سمحة رحبة تتذوق الفن الجيد فى مختلف الأزمنة والأمكنة والألسنة، وشجاعة لا تتردد فى الجهر بآرائها ولا فى الرجوع عنها حين يتبين لها خطؤها (انظر تغير موقفه من أدونيس وهو - عندى - أعظم شعراء العربية منذ أبى العلاء . فبعد أن كان يحمل عليه حملة شعواء فى كتاب «أدب وعروبة وحرية» صار يفيه حقه من التقدير والاحترام). هذا ناقد قد نضج مع الزمن ونضجنا معه، بل نضجنا - إلى حد ليس بالقليل - بفضله، وبفضل استبصاراته التى أنارت لنا من زوايا الفن والأدب ما كان مظلما، ومكنتنا من أن نتذوق نماذج قديمة وحديثة، شرقية وغربية، من الإبداع الشعرى والقصصى والمسرحى على نحو أعمق وأصدق وأرهف .

جيل رجاء النقاش



خيرى منصور ▫

الكتابة عن رجاء النقاش كناقد رائد من جيل حاور أقسى الشروط وتجاوزها لاتحتاج إلى مناسبة، فهو جدير بعرفان واعتراف استحقهما، عبر مسيرة كابد خلالها مصدات ومعوقات تم تصنيعها بعناية استراتيجية لخلع المثقف العربى من سياقه القومى، وجذوره التاريخية.

وإذا كان من صميم دور الناقد أن يمسك بيد القارىء الضال ويدله على المفاتيح كما قال «ستانلى هايمن»، فإن رجاء النقاش أعان القارىء فى مصر والوطن العربى على طرق الكثير من الأبواب وإدارة المفاتيح فى أقفالها بحيث تنفتح على مصاريعها.

لقد كان من جيل ولد فى الفترة الحرجة، بين حربين كونيتين وعدة حروب إقليمية، وعلى مرمى من قنبلة لا حجر، من نكبة قومية عصفت بما كان قد اصفر وتيبس فى خريف سياسى عربى له معادلات ثقافية، وتجليات اجتماعية، لهذا حمل جيل رجاء عبئا لم يحمله جيل أو يقوى على حمله جيل آخر، وبقى الرجل على قيد عروبته، وهويته رغم كل عوامل التعرية التاريخية والوجودية لهذه الهوية، وله دور لا سبيل إلى التقليل من شأنه فى الدفاع عن الحداثة الشعرية، التى حوصرت منذ بواكيرها بإرهاب اتباعى، وبتأويلات سياسية حاولت حذف شرعيتها لصالح رؤى تقليدية أفقدها الزمان صلاحيتها.

وإذا كانت المقدمة التى كتبها الراحل «إحسان عباس» لديوان «البياتى» البكر هى بمثابة تحديث للحساسية الشعرية ودفاع باسل عن حق الشاعر العربى فى اجتراح آفاق غير مطروقة، فإن مقدمة رجاء النقاش لديوان الشاعر «أحمد عبدالمعطى حجازى» «مدينة بلا قلب» كانت هى الأخرى دفاعاً عن الحداثة وعن الذائقة الجديدة التى كانت تشق الدرب بصعوبة بالغة.

ولم ينقطع رجاء النقاش عن دوره إلا لإعادة شحذ سلاحه، أو لاستراحة محارب يتهيأ لجولة قادمة، فكتب فى معظم مجالات النقد، مقدماً وشارحاً ومؤولاً وقبل ذلك كله مضيئاً وكاشفاً لما نعت بالغموض.

وله يعود الفضل فى الكشف عن ظواهر فذة فى ثقافتنا العربية المعاصرة، لأنه كان أول من استدل بحاسته النقدية ومسئوليته القومية على شعر المقاومة الفلسطينية بعد هزيمة حزيران حين استبد الظلام وأتى على المشهد القومى

▫ كاتب وشاعر من الأردن



البورتريه للفنان أحمد أبو السعود

برمتـه، فجاء ذلك الكشف عن شـهـود الحرية والقيـد، وكل ثنائيات الحـقـبـة السوداء بمثابة التبشير بقيامة قومية، كان البعض ممن احترفوا التحليق فوق الخـرائب والأطلال قـد أعلنوا نعـيـهـا وودعوها بمناديل منقعة فى لعابهم وليس بالدموع!

وكــان الكشف عن تلك الظاهرة الشعرية التى جسدت أطروحة مضادة للهزيمة قد اقترن برجاء النقاش، ناقداً وناشـراً ومـبـشـراً، مـثلمـا سيظل اسم الروائى العربى الكبير «الطيب صـالح» مقترناً باسم النقاش الذى كان أول من كشف عن الأهمية الإبداعية الفائقة لرواية «موسم الهجرة إلى الشمال».

وبالرغم من أهمـيـة دور رجـاء النقــاش فى الكشف عن ظواهر ثقافية ونصوص إبداعية استثنائية إلاَّ أن اختزال الرجل فى هذا الدور به جور مزدوج، عليه وعلى القارئ الذى استضاء به لعدة عقود ..

فـرجـاء النقاش عـاش المحنة كلهـا، فى بلاده وعلى امـتـداد خطوط الطول والعرض السياسية والثـقـافـيـة فى الوطن العـربى، وكان من قلة تشبثت بما صار عـرضـة للتـشكيك والالتـبـاس، واحتملت لسع الجمر، والقراءات المتعسفة والاسقاطية، بل الثأرية لأصـحـاب هذا الموقف! ولم يقف رجـاء غـريب اللسـان فى شـعـب «بوان» أو أى شعب آخر، لأنه وجد من حوله من يحرسون القلاع والقبور مـعـا، وهم المنحدرون من السلالة ذاتها التى قاومت الامتثال بالممانعة، ورفضت مـقـايضـة الجـوهر بالعـارض، والأبدى بالعابر، والقطرى بالقومى والإنسانى!.

إن رجاء ينتمى إلى سلالة معرفية قد تكون أقرب إلى الموسـوعـيـة منهـا إلى الأكاديمية وإلى الغابة أكثر من الحديقة الداجنة أو النباتات الزجاجية، لهذا كتب تحت مختلف العناوين، وطرق أبواباً تردد كثيرون من أبناء جيله فى طرقها!

ولعله كــان ملدوغــاً بتلك الشـــهــوة المعـرفـيـة التى سـادت فى مـصـر خـلال عقدى الأربعينات والخمسينات، يوم كانت المقالة الأدبية مساحة خضراء غزيرة الظلال، ولم تكن الصــحــافـة بمعناها

جميل رجاء النقاش

التسطيحى الذى طرأ عليها لاحقاً قد أصيب بالأنيميا الثقافية لصالح الأورام اللفظية والتكرار العقيم!.

لقد عرفت رجاء النقاش عن بعد عدة عقود، وكنت وما أزال قارئا لكل ما يصدر تحت توقيعه، لكن مناسبة خاصة جمعتنى به قبل عام، عندما منح جائزة الشخصية الإعلامية العربية لعام ٢٠٠٤ من نادى الصحافة العربية فى دبى، وشرفت بأن أزامله بالحصول على جائزة المقالة فى العام ذاته.

يومها قال لى ساخرا إننا نفوز فى حقول قد لاتكون هى حقولنا الأولى، واعترفت له بلا مجاملة على الإطلاق، فإن منحه تلك الجائزة أضاف لى اعتبارا ما كنت لأحصل عليه لولا اقتراب اسمينا فى المناسبة ذاتها.

وكان رجاء قد استحق منذ زمن طويل أكثر من جائزة قومية وأكثر من تكريم وعرفان، فهو تنويرى، ومحارب من أجل حق المبدعين فى المغامرة ويشهد له جيل من المبدعين العرب بأنه ساهم فى تعبيد طرق وعرة، بل كانت شبه محرمة.

وما يضاعف من إحساسى بما أقول فى هذه المناسبة أننى أكتب عن رجاء النقاش فى القاهرة وأنا أتنقل بين أمكنة طالما قهرها رجاء بأصابعه وبين أصدقاء مشتركين.

لهذا لم أشأ أن أكتب فى هذه المناسبة نقداً للنقد، أو تحليلاً أو تعليقاً حول أعمال رجاء وهى عديدة ومتنوعة وتثير الشهية للسجال، وقد يكون لهذا كله مقام آخر عبر «الهلال» العريقة التى اقترن اسم رجاء بها زمنا!.

ولا يفوتنى بهذه المناسبة الرجائية أن أشير إلى مسألتين كان لرجاء فيهما باع طويل، هما السير الذاتية وندرتها فى الأدب العربى إضافة إلى مساحات الصمت والمسكوت عنه فى حياة المثقفين والناس جميعا، وأذكر أن ما قاله معلقا على رسائل متبادلة بين الراحلين الناقد «د.أنور المعداوى» والشاعرة «فدوى طوقان»، استحق أكثر من وقفة، خصوصاً وهو يستشهد بكتابات بعضها استشراقى عن السبب فى ندرة السير الذاتية لدينا، بحيث علق أحد الفرنسيين على كتاب الأيام «للدكتور طه حسين» متسائلاً عن الأسباب البيئية والنفسية الموضوعية التى دفعت «طه حسين» إلى التحفظ على البعد الجسدى فى مذكراته.

والمسألة الثانية هى ذلك النهج أو المقاربة التى قدمها رجاء النقاش للمزاوجة بين الأدب والصحافة، لكن على النحو الذى لا يلحق الأذى بالأدب، بل يجعله مقروءاً على نطاق واسع، وفى كل المرات التى تولى فيها رجاء مواقع أمامية لمنابر صحفية، حاول أن لا يجعل الصحافة رهينة للتعريفات الاختزالية الجديدة لها، بحيث يبقى النشر فيها وظيفياً وبالحد الأدنى للأسلوب الإخبارى.

ومحاولات رجاء بل إنجازاته على هذا الصعيد لم تكن داخل مصر فقط، بل فى العواصم التى عمل بها بشكل مباشر أو عن بعد من خلال النشر والرصد والمتابعات!.

ويخطىء من يتوهم أن مهمة الناقد التنويرى تخلو من بعد «مناقبى» إنه



رجاء النقاش وخيرى منصور - القاهرة ٢٠٠٧

جـوهرى لأنه وثيق الارتبـاط بالنزاهة، والتحرر من الهوى الذاتي، والشخصنة، والمفاضلة التى تتأسس على معيار وافد إلى الإبداع من خارج ملكوته، ورجـاء من جيل عاش بين سندان ومطرقـتين مـعـا، سندان واقع عـربي يمور بالتـحـولات، ويعـيش صـراعـاً لا حـدود له بين القـديم والجـديد، والمرتهن والمحـرر، والبـشـيـر والنذير.

أما المطرقتان، فإحداهما غزو متعدد الأقنعـة ووصـاية تحـرم التـابع من بلوغ رشـده السيـاسى، هذا الجيل، الذى رثاه قـبل الأوان أحـد فـرسانه وهو الشـاعـر الراحل «صـلاح عبدالصبـور»، شـهـد من الأشواق والأحلام ما لم يشهده جيل آخر، وتجرع من الهزائم المتعاقبة ما لم يتجرعه جيل آخر أيضـا، لكنه كان وفياً للتـاريخ فى وجهيه.. ومنه منّ نزف حتى الموت وهو يحول العقبة إلى رافعة، وأسباب الإبادة إلى أسـبـاب نجـاة وتجـاوز، ولا أظن أن هذا الجيل قد أنصف، فهو قرىء لكنه لم يستـقـرأ بعد، والغرابيل التى استـخـدمت فى فـرز قمحـه عن زؤانه أغلبـهـا تهـرأت ثقـوبه واتسـعت، وقـد يكون الوقت الآن مناسبا لمثل هذا الاستقراء.. كى لانبقى نراوح بين تعميم ظالم، وتجريد معمىً!.

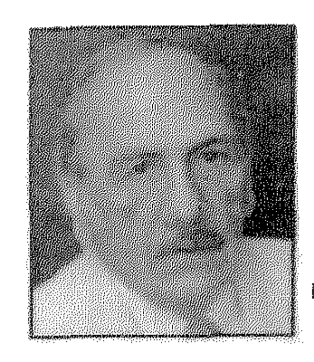
ويكفى أن نعترف لهذا الجيل بأنه كان يقـرأ أكثـر مما يكتب، ويكتب أكثـر مما يتكلم لهـذا تعلمنا منه الكثـيـر، ومنا من استـبد بهم العقوق فذهبوا مبكرا وفى نعومة الأظفار لاقتراف جرائم قتل الآباء.

وحبذا لو تبادر المنابر الثقافية الجادة التى لم تجـرفـهـا ريـاح العـولمة بعـد إلى تقديم مساحات للمراجعة، وإعادة الاعتبار لمن أسـسـوا، وشـيـدوا ووفـروا لنا هذا الميراث الذى لولاه لكنا أيتاما!.

هى تحية إذن بمقياس ..

واعـتـراف وعرفـان بمقـيـاس آخـر، فـرجـاء النقـاش هو مناسـبـة مـسـتـمـرة بذاتهـا، والكتـابة عنه مبـررة فى كل أوان، وككل أصـدقـائه ومـحـبـيـه وقـارئيـه على امـتـداد وطنه العربى الكبـيـر الذى أحب، أتمنى له عافية القلب والقلم، فما لم يقله رجاء لايزال بانتظاره.

الفتى الذي يكلم المساء



□ محفوظ عبد الرحمن

لأسباب كثيرة نعرفها، ولأسباب لا نعرفها، تقع أجيال في حب إحدى الشخصيات العامة. ورجاء النقاش من هؤلاء. ومنذ معرفتنا الأولى به، وهي مبكرة جداً، ونحن نلاحظ هذه العلاقة، ولا أريد أن أقفز إلى عيوب رجاء النقاش، ولكن من أبرزها أنه لا يصدق هذا، وهذا ما ورطه وورط بعض محبيه في أزمات، ولكنني هنا لا يشغلني ما يحسه بقدر ما يشغلني كيف رأيناه أكثر من نصف قرن، وهي مهمة صعبة، ولم أكن أظنها هكذا، إلا عندما توقف القلم في يدي أسابيع، وأنا أحاول أن أخط أول حرف.

وعندما تحب شخصاً تبحث عن صفة تلصقها باسمه، أو ربما أحياناً تنوب عن اسمه. ولذلك كنا نقول عنه دائماً: «الفتى الذي يكلم المساء»، مقتبسين ذلك من قصيدة للشاعر حجازي. وكنا نظن – وربما كنا على حق – أن حجازي كان يصفه فعلاً بهذا. ولكن هذا التعبير لم يكن واقعياً بالنسبة لنا، وإن كان جذاباً فهو لم يكن يكلم المساء بالمعنى الرومانسي للكلمات، فلقد كان نهارياً واضحاً. ولقد لفت نظري مبكراً «خط» رجاء النقاش، ولقد كان لي شرف مصاحبته فترة، عملنا فيها معاً، وكانت مقالاته تذهب إلى المطبعة عن طريقي، فصادقت خطه، وكان لافتاً للنظر لي جداً، فلقد كان واضحاً حاداً عميقاً كأنه يكتب بإزميل. وقلت لنفسي إن هذا رجل لايخفي شيئاً، إنه يكتب ما يريد أن يكتب بوضوح لا يخفي مشاعره في خطوط ملتوية، ولا يتعثر في أخطاء يشطبها ويصلحها، فهو يعرف تماماً ما يسعى إليه. وأظن أن كثيراً مما قلته لنفسي ثبت مع الزمن أنه صحيح.

عندما دخلت الجامعة كان نجومها : سليمان جميل ويوسف السيسي وسعد زغلول فؤاد وعادل فهمي وحسن دوح، وأيضاً رجاء النقاش عمدة بوفيه كلية الآداب الذي تحول إلى ندوة يومية. ونشأت صداقة عميقة بيننا وبين وحيد النقاش، ومازال رجاء حتى الآن كلما سأله أحد عن أخيه الأصغر، أشار إلينا قائلاً: اسألوهم فهم يعرفونه أكثر مني.

وكان رجاء النقاش – وأظنه لم يكن قد تخرج بعد – مراسل مجلة (الآداب) اللبنانية التي كانت آنئذ منارة ثقافية مهمة. ولم يكن من الممكن فهم المشهد الثقافي دون قراءتها، وكانت تزخر بتيارات ثقافية ساخنة: الوجودية، والقومية والماركسية.

□ كاتب وأديب

ولم يكن رجاء النقاش مجرد مراسل أو مدير مكتب، بل كان مشاركاً فى توجهات المجلة واختياراتها. ولا أظن أنه كان يستطيع التوقف عند مسمى الوظيفة. فهو بطبيعته يفكر فى الكليات، ويحاول أن يتابع تنفيذ أفكاره. لقد كان شعلة من الأفكار والحركة.

حقاً هذا قلَّ بعض الشىء نتيجة الزمن القاسى الذى عشناه جميعاً لكنك تستطيع أن ترى دائماً فى رجاء النقاش ما كان.

وأظنهم قلة الذين أثروا فى الشارع الثقافى مثلما أثر رجاء النقاش. ولم يكن يفعل ذلك من فوق منبر يتغير دائماً، بل كانت مقابلته، حتى لو كانت عابرة تغير من الآخرين وكأنه ميدياس الذى يحول كل ما يلمسه إلى ذهب.. حتى لو كان الذهب لعنة فى بعض الأحيان.

وإذا رصدت علاقتى الطويلة به سأجد أنه قد أثر فىّ، وهذا ما أستطيع متابعته أكثر من متابعتى لتأثيره على الآخرين.

ولا يعرف رجاء النقاش أننى قد اعتزلت كتابة النقد الأدبى بسببه، أو على الأقل كان أحد الأسباب القوية لهذا، فلقد كتبت نقداً لمجموعة قصصية كتبها لطفى الخولى. وكنت قاسياً فى انتقاده. وبعدها اعترض رجاء النقاش قائلاً : إننى أتصور مجتمعاً مثالياً على الكاتب أن يصوره، لكنه يصور مجتمعا ليس هكذا. وإنه ليس من حقى أن أفرض عليه مثاليات ليست موجودة.

وصمت. لكن طوال عام أخذت أرى فيما كتبت ما قاله فى كلمات عابرة. ثم كانت الصخرة التى قصمت ظهر البعير، عندما أعدت قراءة مقالى النقدى بعد عام من كتابته فإذا بما فيه يفزعنى. ورأيت أننى تغيرت فى عام، فى حين أن الكتاب لم يتغير. وقررت أن أكف عن كتابة النقد الأدبى.

وإذا كان هذا هو الأفضل فله ثوابه. وإذا لم يكن فإنه يتحمل بعض الذنب!

وفى مهرجان فى قطر - وكان ذلك فى الثمانينيات - وكان من حسن حظى أن التقيته بعد غياب طويل. وكنت مشاركاً بمسرحية (ما أجملنا) التى كانت تعرض هناك لأول مرة. ورغم الاستقبال الجميل للمسرحية، إلا أننى رأيت الهنات التى أغضبتنى، فتسللت من المسرح إلى فضاء خلفه. وأخذت ازدرد ما اعتبرته فشلاً فنياً، وخيانة العاملين فى المسرحية، وسوء الحظ.. و.. وكان ذلك فى فترة أصابنى فيها ضيق بالكتابة وبكل شىء.

وفى العتمة التى سادت خلف المسرح، وجدت أمامى مجموعة بينها رجاء

النقاش، وإذ به يبدى إعجابه الشديد بالمسرحية، وأنه يعرف أن خجلى من النجاح هو الذى جعلنى أهرب من المسرح!!

كنت أعرف رجاء النقاش منذ أكثر من ربع قرن. ولم يكن كتب عنى - حتى ذلك الوقت - حرفاً.. لكن ما قاله كان مثل الكتابة، فرجاء النقاش كاتب وناقد حتى وهو يتحدث. ليس له لغة للحديث وأخرى للكتابة، وليس له رأى يبدله. حتى لو جامل - وهو كثيراً ما يجامل - فهو يأخذك إلى ممثل ثانوى: من أين أتيتم بهذا الموهوب؟ لقد كان رائعاً على المسرح، أو إلى ديكور. يتساءل لماذا وافق المخرج على ديكور بهذا الشكل؟

وفى تلك الليلة فى «الدوحة» عدت إلى الكتابة فى مرحلة كنت قد كرهت فيها الكتابة.

وفى المرة الثالثة حدثنى على أن ماقدمته من أعمال تاريخية هى رسالة، وأن من واجبى أن أستمر فيها. لكن لم تكن اكتملت كما يمكن أن تتخيلها، فرجاء النقاش كما يكتب بإزميل، يتحدث بإزميل، دائماً ما يتحدث فيه هو القضية الكبرى وكان أحد الأسباب فى ارتباطى بالدراما التاريخية.

ولا أدرى إذا كان رجاء النقاش يعرف هذه الحكاية التى سأرويها هنا: فلقد كان إحسان عبدالقدوس فى الخمسينيات والستينيات يكتب الروايات والقصص فتسرى كالبرق فى البلاد.

وكان نشر رواية مسلسلة فى «روز اليوسف» يعنى ارتفاع توزيعها إلى عنان السماء. وكان الفيلم المأخوذ عن قصة لإحسان يحقق إيرادات فلكية. وكان تأثيره على وجدان الناس قوياً، وكلماته على شفاه الشابات والشبان.

ومع ذلك لم تكن هناك متابعة نقدية لأعمال إحسان عبد القدوس، رغم أن البلاد كانت فى تلك الفترة تحظى بحركة نقدية نشطة. وفسر البعض هذه الظاهرة بأن الحركة النقدية يسارية فى الأعم، ولذلك احتفت بيوسف إدريس ولطيفة الزيات وأحياناً بنجيب محفوظ، وببعض الكتب التى يكتبها من ليسوا روائيين أساساً، لكنها تعبر عن أفكار اليسار، فضلاً عن متابعته الأعمال الأجنبية القديمة والحديثة.

ودار حديث عن النقاد المؤثرين فى الحركة الأدبية: محمد مندور وأنور المعداوى (ولقد توفيا فى عام ١٩٦٥) ولويس عوض وعبد القادر القط، لكن قفز اسم رجاء النقاش على أنه ربما كان أكثر النقاد تأثيراً فى الشباب، كما أنه أقرب إلى الحياة الصحفية.

واقترح أحدهم أن يطلبوا من رجاء النقاش العمل فى دار (روزاليوسف). ووافق إحسان عبدالقدوس فى حماس.

وتم ترتيب لقاء بين إحسان ورجاء ليتحدثا عن العمل. وقال رجاء فجأة: أحب أن أعمل فى روزاليوسف، ولكن لى شرط هو ألا تطلب منى أن أكتب عنك!

وسارع إحسان برفض الخاطر مستنكراً أن يكون قد فكر فيه.

وكان موقفاً جميلاً من الاثنين. لم يتخيل إحسان عبدالقدوس أن يضغط على كاتب فى مجلته ليكتب عنه. وفى

نفس الوقت أكد رجاء النقاش أنه قد يمتلك قلماً حراً، وهو ما دفع من أجله ثمناً غالياً، فلم يكن كل المسئولين فى نبل إحسان عبدالقدوس. ولقد استطاع الكثيرون أن يضغطوا على رجاء النقاش حتى العظم، لكنهم لم يأخذوا منه ولا بعض ما أرادوا.

وكانت الضغوط تزيد أحياناً عن المعقول. وأحياناً تكون آثارها أكثر مما تبدو.

ولا أدرى هل من حقى أن أحكى هذه القصة المضحكة المبكية فلقد رُشح رجاء النقاش لمنصب صحفى كبير (ورجاء لم يعمل فى غير الصحافة). ويبدو أن جهة أمنية اعترضت على تعيينه. وإلى هنا كان من الممكن أن ينتهى الأمر، فهو نفسه لم يكن يعرف أنه مرشح. ولكن وصله فى البريد نسخة من تقرير الرفض. ولا أحد حتى الآن يدرى السبب فى ذلك. قيل إنهم أرادوا التنكيل به. وقيل إن ماحدث مجرد خطأ إجرائى. لكن الأمر أفزع رجاء الذى كان دائماً فى علاقة معقدة مع السلطة. فلقد كان دائماً معارضاً، ومع ذلك يخشى يد السلطة الثقيلة. وأظن أن رجاء النقاش نموذج للعلاقة بين السلطة والثقافة.

ولقد اضطر إلى أن يسافر إلى قطر ليعمل هناك سنوات طويلة (ولم تكن أول مرة يعمل فيها خارج مصر) لكنه أيضاً تعرض للعنف لنشره فى مجلة (الدوحة) التى كان يرأس تحريرها، ما أغضب بعض الجهات الدينية.

وكنت أظن أن الكتابة عن رجاء النقاش أمر سهل. فأنا أحفظه منذ سنين طويلة، وهو مُغر بالكتابة فهو موجود فى



أشعار وروايات وقصص الخمسينيات والستينيات. لكننى عندما حاولت الكتابة تسرب من بين أصابعى كالماء. وأظن أنه لم يبن بين يدى شىء. وإن كان فى الخزانة ثروة كبيرة: دور رجاء النقاش فى نقد الشعر، وهو أكبر أدواره الأدبية وأهمها. ولا أظن أن ناقد شعر مهما علت مكانته يستطيع الوقوف إلى جواره. وأيضاً دوره كمكتشف للجواهر، فهو الذى قدّم لنا الطيب صالح والشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وعفاف راضى. وهو الذى عرَّف المصريين بكثير من نواحى الثقافة العربية.

وأستطيع أن أغفر لنفسى تأجيل الكثير، لكننى لا أستطيع أن أتجاهل سؤالاً: لماذا رجاء النقاش هو رجاء النقاش؟

لأن أكثر النقاد يدرسون ويبحثون ويكتبون. أما رجاء النقاش فهو أيضاً يبدع ما يكتب وهذا شىء نادر. إنه ناقد يكلم القارىء كما يكلم المساء!

أديبٌ فنّان مفكرٌ أصيل



د. عبدالعزيز المقالح □

كانت المرة الأولى التى تعرفت فيها على الكاتب الكبير رجاء النقاش ناقداً من خلال مقدمته الضافية والمهمة للديوان الأول للشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى (مدينة بلا قلب) حيث استوقفتنى إشاراته المبكرة إلى الحداثة فى الشعر وصيرورة هذه الحداثة لدى روادها الأوائل بدءاً بأحمد شوقى وشعراء النهضة الذين مهدوا بقصائدهم للتجديد والتحديث فى القصيدة العربية مروراً بجهود الرومانسيين العرب والجماعات الفكرية والفنية التى دعت إلى التغيير والتطور فى الشعرية العربية.

وفى شتاء عام ١٩٦٣م أسعدنى الحظ بأن التقيت فى القاهرة رجاء النقاش شخصياً ليبدأ بيننا تعارف أولى، فيمتد لاحقا ليغدو صداقة عميقة تتعزز مع الأيام. وتحفظ الذاكرة عن هذا اللقاء الأول، أنه كان بعد صدور كتابه (ثورة الفقراء) عن الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى. وكان لكلمة الثورة فى ذلك الحين سحرها وألقها، سيما حين ترتبط بالفقراء كما أراد رجاء فى عنوان كتابه الذى صار الطلاب العرب فى مصر يتسابقون إلى اقتنائه وقراءته واحتفظت الذاكرة لرجاء النقاش، بتلك الصورة لمثقف لطيف وودود فى حضوره الشخصى والإنسانى كما فى حضوره الصحفى والأدبى عبر ما كان يكتبه بانتظام فى دوريات وصحف مصرية وعربية واسعة الانتشار.

ولقد تابعت رجاء النقاش فى كتبه ومؤلفاته العديدة ولا سيما انتباهاته المبكرة إلى شعراء عرب. يدين له القراء بأنه لفت إلى شعرهم الأنظار مبكراً، نقول هذا وفى الخاطر كتابه عن (الشابى) وكتابه عن (محمود درويش) وغيرهما، فضلاً عن كتاباته عن الأدب العالمى وأعلامه البارزين. وفى مناسبة استرجاع الجهود المميزة لرجاء النقاش لا يمكن أن نغفل تأسيسه لمجلة ثقافية عربية نادرة هى مجلة (الدوحة) التى ترك فيها أهم البصمات، حيث جمع بين الفكر الأصيل والثقافة الجادة إلى جانب ماحظيت به من جماهيرية لدى أوساط القراء.

ويشير حضور رجاء النقاش فى النشاط الثقافى العربى من تجربته الكتابية فى دار أخبار اليوم، والمصور، والهلال حتى أسبوعياته الأخيرة فى الأهرام ثم اللقاء الشهرى معه فى مجلة

□ شاعر وكاتب وأستاذ جامعى من اليمن

(دبى الثقافية) وما يثيره فيها من قضايا تتصل بالفن والثقافة والفكر وليس آخرها ما قدم من قراءات واعية ممزوجة بذكرياته الخاصة حول نجيب محفوظ وأعماله الروائية.

ومما يحسب لرجاء النقاش فطنته العميقة بالقضايا العربية فهو لا يتوقف عند الموضوعات المحلية والقضايا الخاصة بمصر بل يوسع دائرة اهتماماته وهمومه الثقافية لتلامس هموم وطنه العربى وما تعانى ثقافته من أزمات وهو من قلة من مثقفى أمتنا الذين جعلتهم جهودهم وكتاباتهم فى قلب الثقافة العربية وفى المراكز من دائرة الهم القومى، والانشغال بمعاناة الأمة، التى كان قدر رجاء النقاش أن يعيش شطراً كبيراً من نكباتها وأحلامها ، والنظر إلى مصر داخل إطارها العربي الذى بدونه لا يكون لمصر ولثقافتها هذه الصورة التى تجعلها فى وعى المواطن العربى وضميره وإحساسه.

هكذا نجد رجاء النقاش من أوائل مثقفى مصر العربية الذين امتدت بهم الجسور إلى بلدان عربية كثيرة فنحن فى اليمن نذكر له بامتنان وقوفه مع الثورة اليمنية واهتمامه بقضايا هذا البلد شبه المنسى وخروجه إلى العالم بعد سبات طويل. وأستطيع أن أشهد عن معايشة ودراية بأن لرجاء النقاش مواقف تتسم



بالجرأة والمسئولية، لعل أبرزها وقوفه مع المثقفين العرب بشتى انتماءاتهم الحزبية والفكرية ودفاعه عن حقهم فى أن يروا ما يرون ويكتبوا ما يعتقدون لإيمانه بالتعددية والتنوع، وبضرورة أن لا تعم فكرة الحزب الواحد التى أدت فى كثير من الأقطار العربية إلى كوارث سياسية واجتماعية وثقافية .

واللافت أن رجاء النقاش - برغم اهتمامه بشئون اليمن وأحوال اليمنيين وثقافتهم وعلاقته المباشرة بثوار اليمن طيبة منذ وقت مبكر، لم يزر اليمن إلا فى السنوات الأخيرة فى زيارة قصيرة لم تتعد صنعاء وضواحيها ، وربما كان ذلك حاله مع أقطار عربية أخرى كتب عنها وعن تحررها واستقلالها دون أن يتعرف عليها مباشرة بالإقامة أو الزيارة .

أخيراً نقول بثقة أكيدة بمناسبة الاحتفاء بهذا الكاتب الكبير، أننا مع تجربة النقاش نكون فى رحاب مثقف متعدد الأبعاد، فهو فنان وناقد وأديب ومفكر تصب فى شخصيته روافد ذلك التعدد والغنى إلى جانب تسامحه وإنسانيته المفرطة التى طبعت شخصيته وكونت صورته فى أذهان أصدقائه وقرائه، على السواء. وهى إنسانية قل نظيرها من أبناء جيله، رغم تصديه لأعنف الظواهر فى حياة الثقافة العربية، ودفاعه المستميت عن الشخصية والوجود والهوية العربية.

فن المقال الأدبي



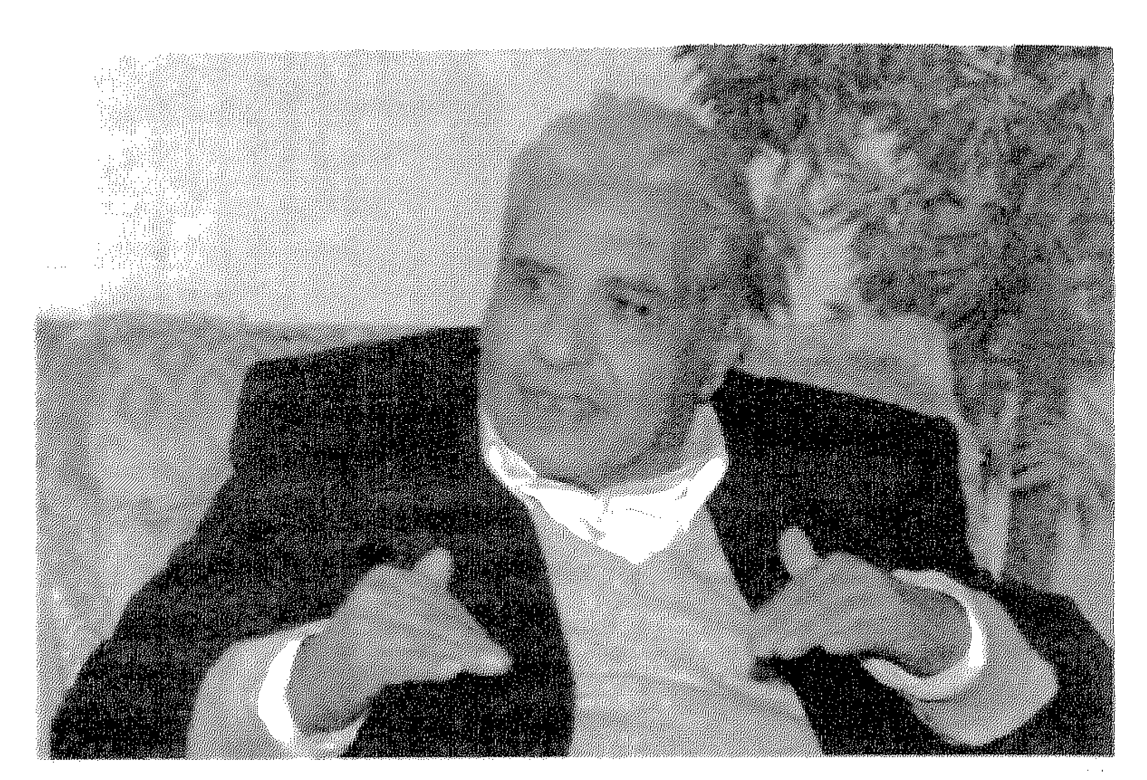
د. أحمد درويش □

من المصادفات الطريفة أن يقودنا تتبع معانى مادة "نقش" فى معاجم اللغة إلى كثير من الظواهر التى نجدها فى كتابات رجاء "النقاش" الأدبية ، فيقال نقش الشئ نقشاً : بحث عنه واستخرجه، ويقال نقش الشوكة بالنقاش، ونقش الحق من فلان، ويقال : ناقشه مناقشة ونقاشاً: استقصى فى حسابه وناقش المسألة : بحثها، كما يقال : نقش الشئ: لوّنه بالألوان وزيّنه.

ومجمل ما فى هذه المعانى المعجمية يعود إلى دقة البحث والتنقيب، وجمال العرض والتفصيل وهما صفتان تقفزان أمام العين لكل قارئ لمقالات رجاء النقاش الأدبية قبل وبعد أن نكتشف أن "النقّاش" الأدبى، نقّاش بالاسم وبالمسمى معا. وسوف تظل فكرة "اكتشاف"القامات الأدبية الشامخة، والتحمس لها وتقديمها قبل أن تتضح معالمها كاملة للمثقف العادي، ملمحا مميزا لكتابات رجاء النقاش ويكفى فى هذا المقام أن تشير إلى الشاعر المصرى الكبير أحمد عبدالمعطى حجازى، وتقديم رجاء لديوانه مدينة بلا قلب، والروائى السودانى الكبير الطيب صالح وروايته موسم الهجرة للشمال، والشاعر الفلسطينى الكبير محمود درويش ـــ وكتاب رجاء عنه عام ١٩٦٩، تكفى الإشارة هنا لتأكيد فكرة البحث عن الكنوز واستخراجها فى كتابات النقاش وهو بحث لم يتوقف عند هؤلاء المبدعين الكبار فى الأدب العربى، وإنما امتد إلى تشجيع كثير من المواهب الناشئة، وتقديم كثير من الأعمال فى التراث العربى والعالمى لقارئ الصحافة الأدبية العربية، وهى النافذة الرئيسية التى أطلت منها أعمال رجاء النقاش على المثقف العربى.

وإذا كانت "الصحافة الأدبية" تشكل النافذة الرئيسية التى انطلق منها صوت رجاء النقاش للقارئ العربى، فقد استطاعت هذه النافذة أن تحمل من تنوع الأصوات وتعددها، ما يستجيب لحاجة القراء على اختلاف وتنوع رغباتهم وتصوراتهم لما يشبع الظمأ الثقافى، ويبقى جذوة التفكير والحوار مشتعله إن لم تكن متوهجة. ومن هذا الإطار حدثنا رجاء النقاش على امتداد نحو نصف قرن حول قضايا متنوعة، مثل أزمة الثقافة المصرية، وأبى القاسم الشابى شاعر الحب والثورة وثورة الفقراء، وتأملات فى

□ كاتب وأستاذ جامعى



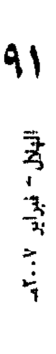
الإنسان، وأدباء ومواقف ، مقعد صغير أمام الستار، وأصوات غاضبة فى الأدب والنقد وكلمات فى الفن، ومحمود درويش، وأنور المعداوى وفدوى طوقان ولويس عوض وتوفيق الحكيم والعقاد وطه حسين وأحمد بهاء الدين وأمل دنقل وأدونيس ، ونزار قبانى وكفافى ومحمد الماغوط وفاروق جويدة وحسن طلب وفؤاد حداد وصلاح عبدالصبور وحجازى وأحمد مطر وعفيفى مطر، وغير ذلك من الشخصيات والقضايا المتنوعة الشيقة الحية والتى ضمنت للنافذة أن تكون نوافذ وشرفات ومآذن وللصوت الواحد أن تتشكل منه إيقاعات وألحان متنوعة.

ومع أن كثيرا من إنتاج رجاء النقاش ظهر فى شكل "كتب" و "دراسات" فإن طابع "المقال الصحفى الأدبى" الجيد. ظل هو السمة المسيطرة على هذا الإنتاج بل أن الكثير من خصائص "المقال الأدبى الناجح" يمكن أن تنسج من أمثال هذه المقالات.

النقد الصحفى

ونحن غالبا ما نغفل عن قيمة النقد الصحفى " (ربما نتيجة لإساءة استخدام المنبر من قبل كثير ممن يقفون عليه أو يتسلقونه) ونقارنه عادة بنوع آخر من النقد هو النقد الأكاديمى أو النقد المحترف، وتكون النتيجة غالبا فى غير صالحه، حتى إننا نستقبل فى ريبة اعتماد بحث جاد، على كتابات نقدية صحفية، معتبرين أن أمثال هذه الكتابات ينقصها الوقت الضرورى للتروى والمراجعة والاستقصاء، وتشدها الاعتبارات المتصلة بجمهور الصحافة وتأثيراتها، فيصدر الحكم متأثرا بهذه الاعتبارات.

لكننا ننسى أن كثيراً من الأعمال التى أصبحت "نقدا كلاسيكيا" معتمدا



صدرت فى البداية فى شكل مقالات صحفية ربما كان من أشهرها، مقالات سانت بيف الشهيرة مزن موفرضن "أحاديث الاثنين" والتى كتب طه حسين على غرارها "أحاديث الأربعاء" التى أصبحت بدورها من أشهر مقالات النقد الأدبى الصحفية فى النصف الأول من القرن العشرين وأدرجت فيما بعد، حين ضمها كتاب من عدة أجزاء، فى مصاف كتب النقد الكلاسيكية، ومراجعه التى تحظى بالتقدير، دون أن يقلل منها مهدها الصحفى الذى ولدت فيه.

وينطبق هذا بالتأكيد على كتابات أعلام النقد الأدبى الصحفى من أمثال العقاد وهيكل والحكيم والزيات وأحمد أمين، وغيرهم ممن أصبحت كتاباتهم تشكل المصادر الرئيسية التى ترسم من خلالها حركة النقد الأدبى فى عصرها، عندما ننظر إليها من عصر تال لها باعتبارها " ماضيا نقديا" كما تسهم فى تشكيل الذوق الأدبى فى عصرها حين ينظر إليه على أنها "حاضر نقدى" تستصفى من عناصره ما يمثل ذلك الحاضر وما يبقى منه فى المستقبل، حين يصير هذا الحاضر بدوره "ماضيا نقديا".

ولاشك أن المقال النقدى" عند رجاء النقاش، يأتى فى قائمة أهم الأعمال التى تسهم فى شكل هذا "الحاضر النقدى" فى النصف الثانى من القرن العشرين، مع ألوان النقد الأخرى التى يتشكل منها هذا الحاضر مثل الندوات، والصالونات، والتعليقات مما يهتم به مؤرخو النقد فى العرب، ويطلقون عليه La Critique Spontanee، فيما يمكن أن يترجم بالنقد التلقائى، فى مقابل النقد المحترف Critique Professionelle، كما يرى الناقد الفرنسى البير تيبوديه، والذى يرى أن النقد الذى يتخذ الصحافة نافذة له يستقطب كل خصائص الحيوية المتفرقة فى أنواع النقد التلقائى الأخرى، وأن هذا النقد هو الذى يتتبع إنتاج العصر بروح العصر وبلغة العصر، لكى يعبر فى النهاية عن نبض العصر، وهو إذا وجد فى ثقافة شديدة الحيوية، قد يجد نفسه مطالبا لا رصد نبض الفكر عاما بعد عام ولا شهرا بعد شهر بل ربما يجد نفسه مطالبا برصد ذلك الفكر الأدبى يوما بعد يوم- وهو يتطلب مهارات قد لا تتوافر عند النقاد المحترفين ولا كبار الأساتذة الذين قد يميلون إلى شد ظواهر الحاضر إلى دائرة الماضى لكى تُرى من خلالها. وفى هذه الحالة قد يتحول النقد الصحفى الجيد إلى مهنة لا يتاح النجاح فيها لكل ناقد. لكن هناك فارقا هاما بين نمطين من النقد الصحفى، نمط منه يكتب لكى يُقرأ مرة واحدة، ونمط آخر يكتب لكى يُقرأ وتعاد قراءته، وقليلون من نقاد الصحافة من ينتبهون إلى الفروق الدقيقة بين النمطين خلال انتقائهم للمعلومات التى تشكل مادة المقال. أو اختيارهم لمستوى لغة الصياغة المؤقتة أو الدائمة، والتفرقة بين الأدلة الذاتية والموضوعية وغير ذلك من فروق ينتج عن مراعاتها أو الغفلة الجزئية أو الكلية عنها، آثار

واضحة عندما يعمد الكتاب إلى تجميع مقالاتهم فى كتب نقدية فى فترات لاحقة، ونحس على الفور عند قراءة أمثال هذه الكتب بأن بعضا منها كتب لكى يُقرأ مرة واحدة من خلال نشره فى مقالات اكتسبت أهميتها فى حينها، وفقدت كثيرا من مشروعيتها عند قارئ لاحق، وأن بعضها الآخر كان صالحا لأن يقرأ فى زمن كتابته باعتباره مقالا نقديا حيويا، يقدم من خلال الجدل قدرا كبيرا من المتعة والفائدة، وما زال صالحا لأن تعاد قراءته مرة أخرى للقارئ اللاحق دون أن يفقد الكثير من أهميته، لأن الكاتب كان على وعى ببناء عناصر المقال من الجوهريات لا من العرضيات، وإلى هذا النمط الأخير تنتمى مقالات رجاء النقاش النقدية.

لكن الإنصاف يقتضى أن نقول : إن المقالات التى كتبت لكى تقرأ مرة واحدة ولكي تثير حولها نقاشا فى حينها، وقد يختفى بعد عام أو أكثر، تمثل بدورها قاعدة ضرورية لرصد وتحليل إنتاج أدبى لفترة ما، سواء كان تحليلا دقيقا أو غير دقيق، منصفا أو متحيزا، قوى الحجة أو ضعيفها" وهو رصد يبدو ضروريا قبل انتقاء ما يصمد من نتاج العصر ليواصل المسيرة فى "تراث الأمة" فى الصدارة أو الصفوف الثانية أو الثالثة، وما يسقط فى هوة النسيان، بعد أن يكون قد كوّن جمهورا وأثار نقاشا وأعطى فرصة للاختيار، ومن هنا فإن بقاء أسماء مثل البارودى وشوقى. وحافظ ومطران وإسماعيل صبرى لامعة، كان يتطلب



أحمد أمين

وجود عشرات الشعراء الآخرين، وأن يدور الحوار حولهم حتى ننتهى إلى أنهم أقل لمعانا، وكذلك الشأن فى بقية الأجناس الأدبية وبقية للفترات التاريخية ولا تتم هذه المهمة من الحشد والحوار والانتقاء والتصفية إلا على أيدى نقاد الصحافة الذين يواكبون ميلاد المواهب على اختلاف درجاتها، قبل أن يأتى النقاد المحترفون والأكاديميون، فيما بعد، لكى يدخلوا إلى مختبر ثم انتقاء عيناته من قبل، فى غالب الأحيان.

الحاضر والمستقبل

"المقال الأدبى" عند رجاء النقاش إذن يمثل هذا النمط الحى فى الكتابة الأدبية النقدية الصحفية فى أرقى صورها، ويأخذ مكانه فى تجسيده "للحاضر الأدبى والنقدى" وفى تمثيله "للماضى عندما يواصل الزمن مسيرته محتفظا من ذلك الحاضر بأفضل عناصر تمثيله. وهذا النمط من المقالات يقدم لقارئه) الحاضر أو المستقبل) نصا متكاملا تتجاوب فيه المتعة مع الفائدة، والعناصر الآنية



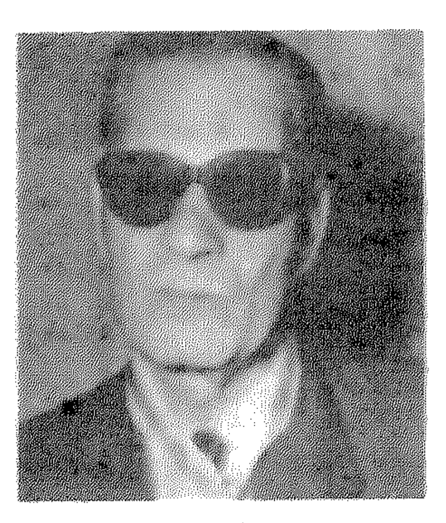
المتغيرة مع العناصر الثابتة الباقية، والمادة الأدبية التى توجد فى الموضوع المدروس، مع المادة التاريخية والفلسفية والتراثية المنتمية إلى الفكر المحلى أو الإقليمى أو العالمى مع محاولة مستمرة لمزج حرارة الواقع الذاتية العاطفية، برصانة الحقائق الموضوعية وعملية المزج بين هذه العناصر الكثيرة، لا تبدو أمام القارئ إلا من خلال "مُنْتَج" متكامل ــــ قد يصعب الفصل بين عناصره المكونة له، إلا إذا حاولنا اعادة تفكيكها. ومعرفة ما حاول الكاتب أن يصنعه وهو يجمع الفسيفاء المتفرقة أمامه ليشكل منها لوحته المثالية.

وقد يكون كتاب رجاء النقاش ــــ ثلاثون عاما مع الشعراء- واحدا من النماذج الطيبة للمقال الأدبى النقدى المتنوع، وهو فى ذاته صالح لإلقاء نظرة عليه لملاحظة جانب من عملية التكامل والنسيج فى بنية المقال، والكتاب معا، فحجم الكتاب يشارف الستمائة صفحة، وموضوعاته تشارف الخمسين، والسنوات التى كتب خلالها تبلغ الثلاثين، وموضوعات المعالجة وإن كانت تنطلق من الشعر، فإنها تستعين بكل فروع المعرفة اللازمة لإثراء الحوار والنقاش وتعميق المعرفة والتواصل مع أكبر دائرة من شريحة "المثقف العام" الذى يُشكّل جمهور الصحافة الأدبية، من خلال لغة ملائمة تتخفف من كثير من المصطلحات المتخصصة دون أن تتخلى عن الجدية فى التناول.

وقد يلفت النظر حجم المعلومات التى يستدعيها المقال فتأتى طواعية، وربما بدا أنها تبتعد للوهلة الأولى عن العنوان الأصلى للمقال، ولكن براعة الكاتب تضع المعلومات كلها فى نفس متآلف متجانس، وإذا أخذنا المقال الذى يحمل عنوان "المتنبى بين أحمد بهاء الدين وطه حسين" ونظرنا إلى حجم المعلومات المتنوعة والجولة الواسعة التى بدأت بين بداية المقال ونهايته، فسوف يتضح لنا طريقة النقاش فى نسج مقاله، فهنالك إشارة عابرة إلى جملة قالها أحمد بهاء الدين فى إحدى يومياته وهى عبارة : "إن المتنبى كان أعظم الشعراء، وأحط الشعراء فى آن واحد" وهذه الجملة المكونة من عشر كلمات كانت كل نصيب أحمد بهاء الدين فى مقال من إحدى عشرة صفحة تضم نحو ثلاثة آلاف كلمة، ولم يكن لطه حسين أيضا نصيب كبير فى المقال سوى الإشارة العابرة إلى موقفه من المتنبى وعدم الإعجاب به وبسلوكه فى المديح مقارنة بأبى العلاء الذى يقف فى الإتجاه المضاد فى رأى طه حسين . مع أن أبا العلاء - فيما لاحظ رجاء بحق- كان من أشد المعجبين بالمتنبى، لكن هذه الإشارات لبهاء وطه حسين تفجر عند النقاش ، قضية أعمق وهى تصحيح المفاهيم الخاطئة، وقصور النظرة فى معالجة ظواهر الأدب العربى وسرعة تعميم الأحكام دون تمحيصها، وفى هذا الإطار ينطلق الكاتب لكى يصحح مفهوم المديح نفسه وعلاقته بالتكسب، لافتا النظر إلى قيام أعمال

أدبية رئيسية فى الآداب العالمية تسلك نفس المنهج دون أن تتهم بالتكسب مثل أنشودة رولاند فى الأدب الفرنسى وشعر بنداروس اليونانى ويربط الكاتب بين المديح والدور الإعلامى للشعر. وفى هذا الإطار تتماثل عمودية أبى تمام مع أنشودة رولاند والمعتصم مع شارلمان، ويعود لمناقشة موقف المتنبى فى مدائحه ويربطه بالأدب السياسى وطموحاته فى استعادة العرب لسيادتهم ويناقش موقفه مع كافور من خلال إشارات المؤرخين لوعود سياسية لم يتم إنجازها" ثم يعود إلى جوهر القضية، وهو إنكار الجمع بين المجد الأدبى والمجد السياسى وهى التهمة التى وجهها طه حسين إلى المتنبى، ووقع فيها هو نفسه حين كان سلوكه السياسى أقرب إلى المتنبى الذى يهاجمه من أبى العلاء الذى يمدحه وحين قاده ذلك السلوك إلى التقلب بين الأحزاب، والوصول إلى مقعد الوزارة وعمادة الأدب وهو ما عاب على المتنبى السعى إليه، وهكذا ينتهى القارئ من المقال بعد أن جمع له الكاتب أركان القضية فى بوتقة متجانسة التقى فيها الحاضر والماضى والأدب والسياسة والتراث العربى والأجنبى انطلاقا من عشر كلمات لبهاء الدين.

إن منهج التقاط المعلومات المناسبة وصهرها فى بوتقة واحدة يبدو واضحا كذلك عند الكتابة عن أحمد شوقى فى مرآة سكرتيره وفى مرآة ابنه، فالتمهيد للمادة المدروسة يكون أولا من خلال التفريق بين طبيعة الشرق والغرب فى



طه حسين

الكتابة عن الحياة الخاصة للعظماء، واهتمام الغرب بفن "الاعترافات" وإلقاء الضوء على حياة كبار الشخصيات بما فى ذلك الجوانب الخاصة منها وتجاوز الخطوط المألوفة فى ذلك كما حدث مع أوسكار وايلد وجيته وهمينجواى، وفى الجانب الشرقى يلاحظ الكاتب ضمورا فى الاهتمام بالكتابة عن حياة كبار الشخصيات تتناقض مع نزعة الثرثرة التى تمتلئ بها أحاديث الناس الشفوية عن حياة الآخرين. لكن المقال لا يكتفى بهذا التمهيد الذى يتيح له عرض ما كتبه سكرتير شوقى وابنه عنه، لكنه ينتقى كتابا ثالثا لزكى مبارك عن حياة شوقى ليكون موضعا للمقارنة معهما، وينتقى من المواقف الطريفة فى حياة أمير الشعراء، ما يقدم به متعة للقارئ تمتزج مع الفائدة المقدمة من التعريف بأصول فن كتابة السيرة الذاتية أو الغيرية.

وقلم النقاش فى مقالاته النقدية مولع بالبحث عن "الأشباه والنظائر" وهو مبدأ يقف وراء كثير من أسباب الإمتاع فى

الفنون الشعبية الأدبية السردية، ومن ثم يجد لدى المثقف العام، استجابة وإغراء بالمتابعة، فالحديث عن مرض الشاعر أمل دنقل فى بداية محنته، يأتى تحت شعار صارخ، يقرع الأجراس : "لماذا نقتل الشعراء؟" ويمر عبر مفهوم عالمى يحرص على الاحتفاظ بالمواهب والإعتزاز بنتاجها، حتى أن تشرشل يفضل تراث شكسبير على كل مستعمرات انجلترا، ونابليون لا تتحرك جيوشه الا فى صحبة العلماء ، ثم يقود الحديث عن محنة أمل دنقل إلى محن متشابهة تعرض لها حافظ ابراهيم وأبو القاسم الشابى وعبدالحميد الديب ونجيب سرور لينهى المقال وقد احتشد القارئ للتعاطف مع الظاهرة والإلمام بأبعادها التى تتسرب إليه فى هدوء من مختلف روافد الثقافة والتجارب التى يسيطر عليها الكاتب.

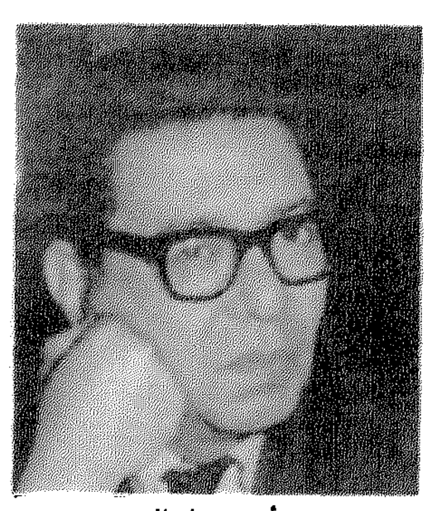
وسواء كان المقال عن صوت أو شخصية أو ظاهرة ، فإن روافد الثقافة لدى الكاتب تهب فى سخاء، وقلمه المدرب ينسج الأشباه والنظائر بل والأشياء المتباعدة فى لغة لا يبدو عليها التكلف ولا التعسف ولا التعالى على القارئ الذى يتعامل؛ معه فالحديث عن الشعر ولغة الحياة اليومية يبدأ من شعر صلاح عبدالصبور وتعليقات لويس عوض، لكنه ينطلق فى سلاسة إلى تجربة إليوت، وورد زورث وشعر العقاد، وترجمة الكتاب المقدس، وأحزان أبطال صلاح عبدالصبور من البسطاء وأبطال شكسبير من الأمراء.

والحديث عن عبدالصبور نفسه فى لحظة موته المبكر المفاجئ يفتح ملف "المهادنة والمواجهة" بين الأدباء والسلطة، ويتناول القلم المدرب مواقف الطهطاوى والعقاد ومحفوظ وطه حسين من ناحية ومواقف الجبرتى والنديم وزكى مبارك ومندور من ناحية أخرى كى يضع الخطوط الفاصلة بين المهادنة والخنوع، والمواجهة والتهور.

وأشعار نزار قبانى القومية بعد النكسة تجر إلى ساحة المناقشة أطراف السياسة والأدب، من جمال عبدالناصر إلى محمد فائق إلى أحمد بهاء الدين إلى صالح جودت إلى جهاد فاضل إلى شعر نزار ونثره ونبض الحياة السياسية فى القاهرة وبيروت مما يجعل صورة من دقات قلب العصر تنتقل بحيويتها إلى العصور التالية.

ولا يقف الأمر عند التعامل مع القضايا الساخنة المثارة وانتقاء ما يصلح منها للديمومة، وإنما يمتد إلى القضايا الهادفة العميقة المتصلة بالبنية الأساسية لثقافة الشعراء، ومن أهم القضايا التى أثارها النقاش فى هذا الاتجاه قضية أهمية البعد التاريخى فى ثقافة الشاعر وتوظيفه فى الإبداع الشعرى، وهى قضية أثارها وهو يتحدث عن الشاعر السكندرى اليونانى كفافى وقصائده التاريخية التى استلهم فيها التراث الإنسانى اليونانى والرومانى من خلال المؤرخ بلوتارك ، ولم يتوقف النقاش عند الإشارة الى أهمية


محمد الماغوط


أحمد بهاء الدين

القضية ، وإنما قدم ترجمة جميلة لمعانى بعض قصائد كفافى عن النص الإنجليزى، ولم يفوت الفرصة لكى يقدم منظوره لترجمة معانى الشعر، لا كلماته، ولكن النقاش امتد بالقضية فأثارها وهو يناقش الشاعر أمل دنقل فى احتمال تأثره بكفافى فى بعض قصائده (وإن كانت الواسطة التى أوردها النقاش بين كفافى ودنقل، والتى تتمثل فى الإسكندرية التى توفى بها كفافى فى ١٩٣٣، وزارها دنقل بعد هذا بنحو أربعين عاما وسمع أصداء شعره هناك، لا تبدو قوية لإحداث التأثير).

ثم يعود مرة أخرى خلال مناقشته الجميلة الهادئة لبدايات حسن طلب إلى إثارة البعد التاريخى عند كفافى ، وضرورة الاستفادة منه، مع ضرب نموذج.

مؤثر من التاريخ العربى فى لقاء هولاكو والخليفة المستعصم لم يتم استثماره، شأنه فى ذلك شأن عشرات الأمثلة التاريخية الهامة.

وقد يبدو المقال الأدبى عند النقاش كذلك بذرة لكتاب تال، أو تلخيصا لكتاب سابق من إبداعه، كما كان الشأن فى كتاباته عن شعراء المقاومة، محمود درويش وسميح القاسم، أو عن الشاعر أبى القاسم الشابى، أو عن الشاعر اليونانى كفافى، أو عن الشاعرة فدوى طوقان والناقد أنور المعداوى، أو عن الشاعر أدونيس وانتماءاته القديمة والحديثة، أو عن الشاعر أحمد مطر ونزعته القومية، أو عن الشاعر محمد عفيفى مطر وتجاربه الرائدة أو عن محمد الماغوط وكتاباته النثرية الشعرية، وفى كل هذه الأشكال الموجزة أو المفصلة، يعرف رجاء النقاش كيفية المحافظة على الملمحين الرئيسيين اللذين يميزان "النقاش" فى الأصل اللغوى، وهما دقة البحث والتنقيب وجمال العرض والتحليل، ويحرص على أن يقدم لقارئ الصحيفة الأدبية وللمثقف العام نموذجا للنقد الرشيق الذى يجمع بين المتعة والفائدة ، ويصطنع لغة المثقف العام، دون أن يفوته شئ من دقة المثقف الخاص.

ناقد ومبدع



د. محمد حسن عبد الله □

يقول رجاء النقاش في كتابه الإشراقي ، وعنوانه : «في حب نجيب محفوظ» : ربما كان نجيب محفوظ أطيب إنسان عرفته في حياتي، فهو رجل بعيد عن التعصب شديد التواضع ، يعيش حياته كلها علي أساس من مجموعة مبادئ أخلاقية هي نفسها المبادئ التي يسعي الدين إلي ترسيخها في حياة الناس ، فهو أمين صادق لا ينافق أحداً ، ولا يسعي إلي منصب أو جاه ، ويعتمد في تأمين حياته كلها علي عمله وجهده ومحبة الناس له ، وهو متسامح ، ومستعد للحوار مع أشد الناس أختلافا معه ، ومستعد دائما لصداقة من يمدون إليه اليد ويطلبون منه هذه الصداقة ، ولذلك فإن أصدقاءه يعدون بالمئات ، وعندما أقول أنا - علي سبيل المثال - إن نجيب محفوظ هو صديقي ، فإنني لا أري ذلك ميزة خاصة بي ،لأن نجيب محفوظ لم يغلق بابه في وجه أحد ، ولم يرفض صداقة أحد، أي أن صداقة نجيب محفوظ هي أمر متاح لكل من يريدها (ص ٢٩٨).

كاتبه المفضل

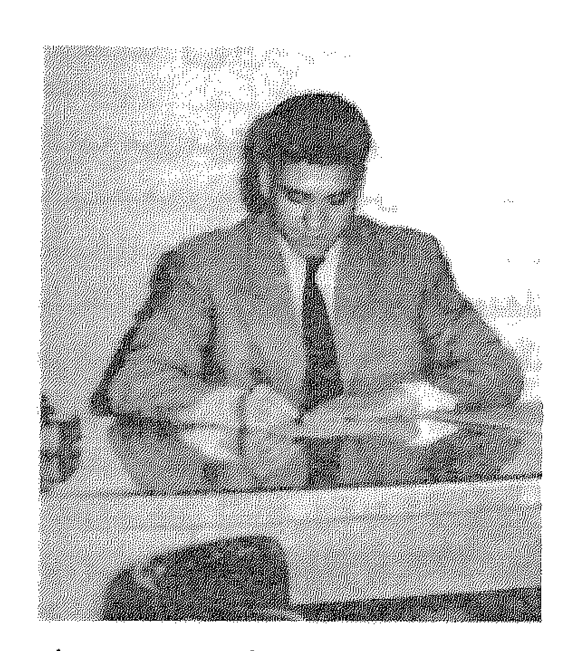
إننى أبادر فأقول مطمئنا إن هذه الصفات الإنسانية النبيلة التى رسم بها رجاء النقاش الجانب الخلقى السلوكى لكاتبه المفضل - هى بذاتها صفات «ناقدى المفضل» رجاء النقاش ، وإنه لولا تحققها فى رجاء ما أمكن أن يفطن إليها فى نجيب ، ولا أن تستوعبها عباراته بكل ما تحمل من حب - معلن فى عنوان الكتاب ، وفى صفحة الإهداء، وفى جميع الصفحات مهما تنوعت القضايا التى تثيرها.

هناك كتاب آخر طرفاه نجيب ورجاء ، يتصدر عنوانه اسم نجيب محفوظ ، يتلوه عنوان شارح: «صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته» (١٩٩٧) وإن نظرة عامة فى محتوى هذين الكتابين تدل على مدى الاهتمام بالإنسان فيهما ، سواء المكتوب عنه (نجيب محفوظ) أم المكتوب إليه (القارئ) ، فصورة نجيب محفوظ الشخصية العملية المتشابكة مع طبائع عصرها وقضايا مجتمعها وضرورات محيطها وأهل قرابتها ، تتداخل بقوة - بدرجة لا يمكن فصلها أو عزلها عن صورته الفكرية أو الفنية التى تتثقف ، وتقرأ ، وتفكر ، وتدبر ، وتتوقى ، وتختار ، فتبدع ، وتتلقى

□ كاتب وأستاذ جامعى

الأصـداء بوعى ، فـتـتـدبرها لتبـدأ دورة جديدة.

وكذلك كـان شـأن رجـاء النقـاش مع القـارئ (قـارئـه أو قـارئ نجيب مـحـفـوظ) لدرجة أنه أشرك قراءه - عبر مقالته فى الأهرام - فى تفسير أو تأويل شـخـصـية عثمان جلالى فى قصة «الخوف» - إحدى قـصص مجموعة بيت سيئ السـمـعـة - التى أشـار إليـهـا نجيب اقـتـضـابا فى مذكراته وعلق عليها رجاء باقتضاب أيضاً (هامش ص ٢٤٤) غير أنه عاد إليها فى كتابه الآخـر : فى حب نجيب مـحـفـوظ ، باسـتـفـاضـة وتفـصـيل مـشـركـاً قـراءه مستعيناً بما فهموه من شخصية الضابط الذى مارس دور الفتـوة ، وهل قـصـد به جـمـال عبد الناصر أم معنى آخر (ص ٢٢٨ - ٢٤٣) وهذا النهج من النقـد الأدبى بدأه رتشـاردز الذى يوصف بأنه مؤسس النقد الأدبى الحديث ، وتوسع فيه دعاة نظرية التوصيل ، وقد صادف هوى عند رجاء النقاش فى هذه المسألة خاصة ، ولكن عنايته بالقارئ - (المؤسسة على موقف اجتماعى سياسى متوازن ، يؤمن بحق الناس - كل الناس - فى الكرامـة والحرية والعدل والأمن) - ظاهرة بقوة فى هذين الكتابين ، وعلى المستوى المنهجى الراصد لجملة إنتاج رجاء النقاش النقدى سنجد «الإنسان» يتصدر عناوين كتبه ، ومقالاته ، كما فى الكتابين اللذين نحن بصددهما ، وفى كتابه عن محمود درويش ، وكتابه عن أبى القاسم الشابى ، وكتابه عن أنور المعداوى وفدوى طوقان ، وحتى فى كتابه الموسوعى : «ثلاثون عاماً مع



الشعر والشعراء» يأخذ الشخص أو الأشـخـاص مكاناً بارزاً مـحـدداً فى العنوان: أحمد شوقى فى مرآة سكرتيره - المتنبى بين أحمد بهاء الدين وطه حسين - بين عبد الناصر ونزار قبانى - نازك الملائكة والشعر الحر - أمل دنقل شاعر الرفض - فـاروق جـويدة وعـودة إلى الصفاء والبساطة - والد الشعراء فؤاد حداد .. إلى آخر دراسات هذا الكتاب ومحتوى كتبه الأخرى . وهذا الأسلوب فى صياغة العناوين حين يتكرر لا يكون وليد المصادفة ، ومثل رجاء النقاش لا يوصف بالكسل عن انتقاء العنوان الدال المطابق لما يختزن فى ذاكرته تجاه موضوعه ، من ثم لا يبقى إلا ما يدل عليه منهجه النقدى ، المتـوافق ونزعـتـه، الفكرية ومـوقـفـه الاجـتـمـاعى ، إن كلمـة السـر هى «الإنسان» - والعبارة لأندريه جيد - وأنه - مع التقدير لمناهج الحداثة - ليس من الإنصاف عزل الإبداع عن مبدعه ، ولا تجريده من سياقه وسائر ظروفه، ولا

إقامة عزل مفترض بينه وبين حاجات مجتمعه وتطلعاته ، ليس من العدل المساواة بين الإنسان والماكينة (الآلة) ، يشغلنا أو يلهينا ما أنتجت عن وجودها في محيطها ما دامت تنتج ، من ثم لا مندوحة عن النظر بعين العدل على الفريقين - والعبارة لابن قتيبة .

بين الناقد والمبدع

هذا على المستوى المنهجى العام، أما المستوى الموضوعى الخاص فيما بين رجاء النقاش (الناقد) ونجيب محفوظ (المبدع) فقد دلت عليه العبارة الافتتاحية في هذه المقالة ، التى عنيت بالإنسان فى كيان نجيب محفوظ ، أما العناية بالفنان الروائى ، الرائد ، المؤسس ، فيدل عليها قوله إنه يكتب عن أدب نجيب محفوظ منذ أربعين عاماً (وهى عمر كامل) مفتوحة على أزمنة أخرى (حفظه الله ومد فى عمره) ، كما يدل عليها هذان الكتابان الثريان بمادتهما العلمية ، وما تحقق فيهما من بصيرة الناقد ووعى المثقف الموسوعي ودأب الباحث وأمانة المحقق ، وبالإضافة إلى هذين السفرين الجليلين ، فإنه قد حمل نجيب محفوظ فى قلبه ، ووضع إبداعه على سن قلمه فى أى موقع حل به ، فإذا ترأس تحرير مجلة الهلال أصدر عنه عدداً خاصاً نادراً ، وثائقياً تحليلياً (فبراير ١٩٧٠) وإذا ترأس تحرير مجلة الإذاعة وجدها فرصة لتأكيد خصوصية عقله الخصب وخياله الخلاق وشجاعته الهادئة المستقرة على صفاء نفسه المتصوفة فى عشق الحقيقة .. فيخرج بهذه المجلة الإعلامية عن نمطها الرتيب وقدرها القاسى ، لينشر «المرايا» بفصولها التى تحمل أسماء شخصيات ، مقرونة بلوحة لكل شخصية رسمها الفنان العالمى (السكندرى) سيف وانلى . لا نغفل تجاه هذا الصنيع عن نفاذ الخيال وفاعلية التحرك وبخاصة بعد أن اعتذر «الأهرام» عن نشر المرايا ، وهنا رأى ضرورة إعادة نشر المرايا مقرونة بلوحاتها النادرة فى طبعة خاصة تجمع بين عبقريتين من صانعى الصورة بالكلمات ، وبالفرشاة.

وهكذا يستمر رجاء النقاش إذا ما ترأس مجلة الشباب ، أو ذهب إلى قطر فترأس مجلة «الدوحة» (وهذا ما ذكره بشئ من التفصيل فى كتابه : فى حب نجيب محفوظ - ص ٢٧٩ - ٢٨٣) وفى مرات غير قليلة كانت القصص التى يقتنصها رجاء وينشرها هى تلك القصص ذات المعنى السياسى الناقد أو الرافض التى أخذت حجم الظاهرة فى تطور أسلوب نجيب محفوظ عقب النكسة (١٩٦٧) وكانت صحيفة الأهرام (فى زمن هيكل) ترفض نشرها تجنباً لإغضاب أهل السلطان وضناً بالحقيقة أن تتجلى بازغة فوق رءوسهم فتزعج رؤيتهم السعيدة لأنفسهم ، ولما يريدون أن يعتقده الناس فيهم ، ولكن الشجاعة البصيرة كان لها قول آخر استطاع أن يضخ هذا الإبداع النادر الشجاع فى شرايين العقل العربى ، حتى وإن كان نجيب محفوظ هاجساً مثيراً للقلق عند الجهات الرقابية المتعددة

فى مصر ، حتى وإن كان التعامل مع مصر ذاتها محظوراً - فى قطر - زمن المقاطعة !!

الحب

وخلاصة القول فى هذه المنزلة (العملية) التى نالها نجيب محفوظ من رعاية رجاء النقاش تلك الرعاية المنزهة عن الغرض لدى طرفيها ، غير الإعجاب الصافى بعبقرية نجيب محفوظ من طرف الناقد ، وغير الثقة المطمئنة إلى رجاء شخصاً ومسئولاً وناقداً من طرف المبدع ، ولكن : هل يصلح الإعجاب ، الذى يرقى فى هذه الحالة إلى درجة الحب - مدخلاً إلى النقد ؟ ألا يمكن أن يكون الحب - مثل الكراهية فى هذا المقام - عاملاً معطلاً عن التلقى الموضوعى للإبداع ؟ إن هذا الأمر لا يغيب عن فطنة رجاء ، وهو لا يهمله ، وإنما يواجهه ، ويُفنده بأسس موضوعية أيضاً .

يقول عن إبداع نجيب محفوظ (فى مقدمة الطبعة الأولى من كتابه: فى حب نجيب محفوظ):

«إن حبى لنجيب محفوظ لم يتغير ، بل ازداد قوة ورسوخا مع الأيام .. ما يقرب من خمسة وأربعين عاما متصلة ، وصاحب الفضل فى استمرار هذا الحب هو نفسه نجيب محفوظ ، فلو أن نجيب محفوظ قد توقف عند مرحلة أدبية واحدة لتوقف الحب عند هذه المرحلة وانتهى به الأمر إلى أن يصبح نوعاً من الذكريات ، ولكن نجيب محفوظ كان يتقدم ويتدفق يوماً بعد يوم ، كأنه وردة نادرة تجدد عطرها وألوانها كل صباح».

بمثل هذه الدماثة ، وهذا الشغف يكتب رجاء النقاش عن نجيب ، معللا - تعليلاً علمياً إنسانياً لمدخله النقدى إلى قراءة الإبداع من منظور الحب ، مع التسليم بأن النقد «تفكير وعقل» ، مسقطاً التعارض بين الحب والفكر ، ويلفتنا فى عبارة رجاء إيثاره ذكر الاسم (العلم) حيث يغنى الضمير ، كأن يقول «وصاحب الفضل فى استمرار هذا الحب هو نجيب محفوظ نفسه ، فلو أن نجيب محفوظ توقف ... «وكان يصح أن تكون العبارة» فلو أنه توقف » ، وهذا التعبير الأخير أوجز ولا تنقصه الدقة ، ولكنه لا ينطوى على مزيد الإيثار والفرح الذى يدل عليه العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر ، وفى هذه العبارة ذاتها برهان صدقها النقدى إذ ربط بين الحب الذى يتجدد وبين تطور فن الرواية عند محفوظ ، فلو أنه توقف لتوقف الحب وأصبح من الذكريات .

ثقة بلا حدود

وإذا كان هذا ما أعطاه رجاء النقاش لنجيب محفوظ ، فما الذى أعطاه محفوظ للنقاش ؟ لقد أعطاه ثقة بغير تحفظ ، وصدقاً قراحاً خالصاً ، وأعطاه ما لم يعطه لأحد قبله أو بعده من درجات المكاشفة ، وإذا كان لإنسان أن يفرغ حقائبه إفراغاً كاملاً (أو شبه كامل) أمام شخص آخر أياً كانت درجة القرب منه ، فإن نجيب فعل هذا عن طواعية ، بل عن رغبة ، نم عليها هذا الزمن الطويل - بكل المقاييس - الذى خصصه لتسجيل مروياته ، إذ يصف رجاء الطريقة التى

حصل بها على مادة المذكرات فيقول فى المقدمة :

«فى أول أغسطس سنة ١٩٩٠ بدأت لقاءاتى مع نجيب محفوظ ، وكنت أطرح عليه الأسئلة ، فيجيبنى عنها بصبر شديد ورحابة صدر كاملة وتوضيح لكل استفسار من أى نوع ، وكنا نلتقى فى الصباح الباكر فى حدود الساعة الثامنة ، ونواصل هذا اللقاء ما يقرب من ثلاث ساعات ، واستمرت هذه اللقاءات حتى أواخر عام ١٩٩١ ، وكنت ألتقى مع نجيب محفوظ فى هذه المواعيد أربعة أيام فى الأسبوع، وأحياناً كنا نعيد الأسئلة ونعيد تسجيل الإجابات طلبا لمزيد من الدقة والوضوح ، وأخيراً توافر لى من هذه التسجيلات ما يقرب من خمسين ساعة كاملة» . إن هذه العبارات المختصرة تكشف عن حجم المعاناة التى بذلت فى تصفية مادة هذه المذكرات فيما لو أعدنا حسابها بأرقام تقريبية ، فنحن حيال ١٧ شهرا = ٧٥ أسبوعاً ، كان اللقاء أربعة أيام كل أسبوع ، فجملة أيام اللقاء ٣٠٠ يوم ، مدة كل لقاء ٣ ساعات ، فقد تحدثا إذاً نحو ٩٠٠ ساعة ، أسفرت عن ٥٠ ساعة من التسجيلات الصوتية الخاصة بالمذكرات (الصافية) التى تم تفريغها كتابة ، أنتجت بعد التفريغ والتنسيق وحذف المتكرر ٣٧٦ صفحة من القطع المتوسط !! غير أنه لا يمكننا – مهما بالغنا فى عزل مشاعرنا عن تقدير هذا الجهد – أن نتغاضى عن الاختلاف (الفادح) فى نظام الحياة اليومية ، فإذا كان نجيب محفوظ ينام عند منتصف الليل ويصحو مبكراً ليكون فى شرفة مقهى على بابا فى الثامنة، كل يوم ، ولا يقبل أى إخلال بنظامه الصارم ، فإن رجاء النقاش الذى ينام قبيل الفجر ويصحو عند الظهيرة ، لابد أن يكون قد عانى الكثير طوال هذه الأشهر المقلقة ، لتضاف إليها أشهر أطول وأقسى فى اصطفاء المادة وتنقيتها وتصنيفها لتكون على النحو الذى نقرؤها عليه فى الكتاب.

إن كتبا أخرى قامت مادتها على محاورة ذاكرة نجيب محفوظ ومحاولة بسط جوانب مما مضى من صفحات حياته ، ومن الملاحظ أنها تختلف فى محاور اهتمامها وقدرتها على استدعاء المعارف المختزنة فضلا عن مساحة ما تكشف من أسرار الحياة والفن وعلاقات الأشخاص ، ولكنها مفردة ومجتمعة – مع التقدير للمحاولة – لا تقترب مما خطه قلم رجاء النقاش فى هذه المذكرات ، فإذا أضفنا إليها كتابه الآخر ، وما رعاه ووجه سياسته من الكتابة عن نجيب، ونشر أعماله ، سنكون بإزاء عمل هو بالحب فى الذروة ، وبالعلم أقرب المكتوب إلى الكمال ، وبالأخلاق آية فى الوفاء فى زمن يجدّ فى البحث عن شواغل تسوغ الجحود . ولقد كان الرجلان يقايضان عن رضا وإعجاب متبادل «حباً بحب» (والعبارة عنوان مسرحية من تأليف وليم كونجريف) ويصدق فى كل منهما قول زهير بن أبى سلمى فى مدح أحد كرماء عصره الجاهلى .

تراه إذا ما جئتــه متهللا
كأنك تعطيه الذى أنت سائله
محبة دائمة

يلتقى محتوى الكتابين (فى حب نجيب محفوظ - ونجيب محفوظ ، صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته) فى كم غير قليل من المعلومات الخاصة بحياة نجيب محفوظ ، وبخاصة أن زمن صدور الكتاب الأول (فى طبعته الأولى) ١٩٩٥ ، وصدور الكتاب الثانى ١٩٩٧ ، فليس بينهما ثغرة زمنية تسمح بإضافة معلومات لم تكن متداولة ، وبخاصة بعد نوبل - ١٩٨٨ ، وانفجار الفرح القومى به ، واهتمام مثقفى العالم بأدبه ، أما الفارق الأساسى بين الكتابين فإنه لا ينحصر فى أن الكتاب الأول من تأليف رجاء النقاش ، والآخر رواية عن نجيب محفوظ ، إذ يمكن أن نلاحظ - وهذا مدرك بالبديهة - أن مادة الكتاب (المذكرات) محكومة بما وجّه النقاش من أسئلة ، وهذا لابد أن يختلف كثيرا عما لو كان محفوظ، بمبادرة ذاتية ، واستجابة لتداعياته الخاصة ، قد أمسك بالقلم وكتب مذكراته بدافع ذاتى متحرر من عنصر ضاغط لا يمكن إغفاله . وهذا يعنى أن اختيار محاور الارتكاز وأنساق الأسئلة ، وتوجيه تداعياتها قد تدخلت فيه تصورات السائل أكثر مما صنعته إمكانات المجيب قبل تلقى المثير (وهذا يفسر لماذا تفوقت هذه المذكرات على كل ما سبقها وما أعقبها أيضاً مما يجرى فى مضمارها) من ثم لا نتصور - بأية حال - أن دور النقاش كان «اختراع» الأسئلة وتسجيل الأجوبة ، وسنتعرف على جهده الخلاق فى تشكيل مادة المذكرات ، بعد أن نتعرف - حسب التدريج الزمنى - على أهم ما أثار الكتاب الأول - فى حب نجيب محفوظ - من قضايا وموضوعات ، معتمدين فى هذا على طبعته الثانية (صدرت عام ٢٠٠٦) فمن الواضح أن هذه الطبعة التى صدرت بعد المذكرات بعدة أعوام حاولت أن تتحرك فى اتجاهين ، أو - بعبارة أخرى - حاولت أن تحقق هدفين : أن تكون بمثابة الشارح والمعلق على بعض الإشارات الموجزة التى نبهت إليها المذكرات ولم يتسع المجال بحكم السياق لتوضيحها ، كما رأينا قبل مما يتعلق بقصة الخوف ، وكما نجد فى رفض نجيب محفوظ لوصف لويس عوض لأدبه ، والربط بين الثلاثية وكتاب وصف مصر ، أو تاريخ الجبرتى ، لقد عبر نجيب عن غضبه فى عبارة متوترة لا تخلو من الألم خلاصتها أن لويس عوض ظلمه فى أوراق العمر (أوراق العمر عنوان سيرة ذاتية كتبها لويس عوض ١٩٨٩) وأنه لن يسامحه !! - المذكرات ص ١٨٧ - ١٨٨ - أما رجاء النقاش فقد أفرد لمطالب الكتابة التاريخية والفرق بينها وبين الرواية التاريخية ، ثلاثة فصول فى كتابه عناوينها : نجيب محفوظ واتهام غير صحيح (ص٦٢) - نجيب محفوظ والدفاع عن اللغة العربية (ص ١٧١) وضمنينا فى فصل بعنوان : نجيب محفوظ والنقاد من الإهمال إلى الاهتمام المحدود (ص ١٧٧) - ففى مثل هذه الفصول يأخذ الكتاب الأول - فى

طبعته الثانية - موقع الشرح والتوضيح بالنسبة لبعض ما أشارت إليه المذكرات . وكذلك أفاض هذا الكتاب الأول فيما لا يجمل بنجيب أن يتوسع في ذكره أو يفصل ، مثل موقف يوسف إدريس من حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ، أو التعريف بالجائزة في ذاتها وملابسات اختيار الفائز بها . ويلحق بهذا ما أضافه رجاء متعلقا بمناسبة لقائه الأول بنجيب ، ووصف الاعتداء عليه وتوثيق الحادثة .. إلخ . أما الهدف الثاني فأن يكون هذا الكتاب (الأول) جامعا لكل ما كتب رجاء عن نجيب وإبداعاته عبر أربعين عاما ، من ثم اختار من الظاهرات الفنية ، ومن مراحل التطور في أسلوبه ، كما اختار عددا من الروايات بعينها حتى يقدم - عن طريق الانتقاء المنهجي وليس الحصر النوعي أو الكمي - تصورا شاملا لمكانة نجيب محفوظ في الرواية العربية ، ومكانه في سياق الإبداع الروائي العالمي ، من ثم كان الاهتمام غير المسبوق بأشعار حافظ الشيرازي (الصوفي الفارسي) التي تتخلل بصيغتها الفارسية حكايات ملحمة الحرافيش، فبذل رجاء في تدقيقها وتأويلها جهداً واضحاً ، كما كتب فصلا عن شعرية الرواية ، وعن مزامير محفوظ ، وأثار قضية أولاد حارتنا من عدة زوايا ؛ فناقش المعنى والمغزى والقضية ، وخطأ التفسير (الديني) للرواية ، ومن زاوية المطالبة بمحاكمة نجيب محفوظ على الرواية كما حوكم طه حسين وعلى عبد الرازق من قبل ، ومن زاوية ثالثة وثق ما كتبه الدكتور أحمد كمال أبو المجد عن هذه الرواية ، وقد جاء وصفُه لها منصفاً ، وغير بعيد عن مفاهيم وأساليب الكتابة الأدبية التي لا يستوعبها أصحاب الثقافة الدينية التقليدية ، كما قدم رجاء تحليلاً وافيا لروايات : الشحاذ والطريق ، والسمان والخريف .. إلخ ، مما يجعل من مادة هذا الكتاب سبرا حقيقياً لموهبة نجيب محفوظ ، وإن أي فصل فيه يملك من الإثارة المعرفية ما يملأ مساحة أطروحة جامعية في الموضوع نفسه.

وإذ نختم هذا التعريف بالكتابين من منطلق دلالتهما على أصول وضوابط الكتابة النقدية عند رجاء النقاش ، بوقفة تتأمل جهده في تشكيل مذكرات نجيب محفوظ بالصورة النادرة التي ظهرت بها ، فإننا نستبعد تماما أن يكون الناقد في حجم رجاء النقاش مجرد ناقل لأى كلام مهما ارتفعت درجته أو قيمة قائله، وإننا نعرف أن الحوار إذ لم تستقر درجة من «الندية» بين طرفيه فإنه لابد أن يفقد اتزانه وحيويته ودراميته ليتحول إلى نوع من عرض وجهة النظر أو وصف بعض المشاهدات والتعريف ببعض الأفكار (المعروفة) . إن ندية وتوازنا قد تحققا بقدر من التكامل الرهيف الحريص على أن تكون هذه المذكرات صورة ناهضة بذاتها معبرة عن قدرات طرفيها في نفس الوقت ، وكما تتحقق هذه الندية في مجال الخبرة بأساليب الكتابة ، فإنها تتحقق في موسوعية المعرفة بالأدباء العالميين وخصوصية إبداعاتهم ، وإن إحصاء

أسماء الروائيين والمفكرين والفلاسفة والزعماء السياسيين الذين استدعتهم ذاكرة نجيب محفوظ إلى سياق مذكراته ، أو أضافهم رجاء النقاش إلى هوامشه ، أو ذكرهم في دراساته النقدية عن أدب نجيب .. ليدل هذا الإحصاء على مستوى رفيع من المعرفة ومستوى رفيع من التوافق والتناغم ، وهذا الجانب بمفرده قادر على أن يؤكد لنا أن الناقد والمبدع استجابا لنداء داخلي عميق التأثير ، وأنهما - بلغة المجاز - من مشكاة واحدة . إن تنظيم المادة لا يقل أهمية ، بل إنه يصبح ضرورة علمية منهجية تتفوق على المادة بذاتها ، وهذا الجانب التنظيمي واضح في عناوين الفصول وتعاقبها قبل أي جانب آخر، وفيه تجاوز النقاش التقسيم التاريخي حسب مراحل العمر ، أو تعاقب الوظائف ، أو صدور الروايات ، لقد حرر فصوله من الرتابة التي تسيطر عادة على «الأكاديميين» الذين يستولي عليهم هاجس دقة الترتيب والرغبة في الحصر ورصد التراسل بين حركة المجتمع وأطوار حياة الشخصية وقد حملت عناوين بعض الفصول عناوين كتب مشهورة في جيل نجيب محفوظ مثل : هؤلاء علموني (سلامة موسى) وأدباء عرفتهم (عباس خضر) ونساء في حياتي (محمد التابعي) والمذاهب السياسية (محمد أبو زهرة) والله والإنسان (مصطفى محمود) ولا شك أن هذه الألفة النسبية تريح المتلقي وتخفف من وطأة توسع محفوظ في تشريح سياسات عصره ومواقفه من زعماء زمانه الممتد من عصر الخديو إلى زمن السلطان ، فالملك ، فالزعيم ، والرئيس . يدخل في تنسيق المادة وتقديمها هذا الملخص المستوعب لأهم ما ينطوي عليه كل فصل من أحداث ، يضعه تحت العنوان ، ثم يتصدر مادة الفصل خلاصة لما تعنيه هذه الأحداث ذاتها بالنسبة لنجيب محفوظ ويبدأ سرد المحتوى منسوباً إلى نجيب محفوظ ، مباشرة، وبأسلوبه الذي يهجم على جوهر الأشياء فلا يدور حولها ولا يبدد جهده في المقدمات . وتتوالى فقرات الفصل دون مقاطعة وكأن نجيب محفوظ رواها على هذا السياق دون تدخل بسؤال ، أو تذكير بمعلومة فائتة أو تجنب للتكرار أو احتمال التناقض ، وهكذا أفرغت فصول المذكرات إفراغا وكأنها قوالب أجيد صهرها وسبكها، وهذه موهبة محفوظية مشهودة في كتابته الروائية ، إذ تتاح مساحات للتأمل ، والتهيؤ ، والمراجعة ، وهو بدرجة ما - ما كان يحدث في لقاءات الناقد والمبدع، كما أشارت عبارة لرجاء ذكرناها سابقا ، ولكن من الواضح أيضاً أن هذا كان يتم بجهد الناقد وإعمالاً لتصوره ، وليس بتلقائية الراوي الذي يترك العنان لذكرياته ، وإذا لم يحرص الناقد على أن يشير إلى جهده التنظيمي بالتحديد فإنما فعل هذا تقديراً لشخص نجيب وتعبيراً عن محبته له ، وقد ترك مؤشراً يدل على هذا في إشارته إلى الزمن الصعب الذي استلزمه تفريغ أشرطة التسجيل ، ومراجعتها ، وتنسيقها ، حتى أوشك المتشوقون إلى الكتاب أن يدركهم اليأس من ظهوره.

الهوامش

وقد أضاف رجاء النقاش إلى مادة الكتاب إيضاحين على درجة من الأهمية ، أولهما أنه وضع على متن الكتاب ثلاثة وثلاثين هامشاً ، ما بين هامش قصير من سطرين أو ثلاثة ، وهامش قد يبلغ حجم الصفحة أو يقاربه ، ولم يكن هدف هذه الهوامش توثيق المادة بالإشارة إلى مصادرها، وإنما هدفها الشرح والإبانة ، ورفع الالتباس الذى يمكن أن يواجه القارئ الذى لم يعاصر الأحداث والإشارات التى ترد على لسان نجيب محفوظ وهذا القدر على أهميته البالغة لأجيال ما بعد جيل نجيب بصفة خاصة - قد يبدو قليل العدد ، مما يعنى أن الناقد لم يكن بحاجة إلى الإعلان عن وجوده ، أو راغباً فى مزاحمة الراوى بالتقاطع مع رواياته ، إنه يتدخل حين يستغلق الأمر أو يصعب التجاوب ، ولهذا مرت فصول عديدة دون أية إضافة ، فى حين نال الفصل العاشر أربعة هوامش ، وتصاعد الرقم إلى ستة هوامش فى الفصل الثالث عشر ، وهذان الفصلان - على الترتيب - تحت عنوان : متاعبى مع السلطة ، وثورة ١٩ ، وهما موضوعان متناقضان ، ويحظى ثانيهما بمكانة عالية فى نفس نجيب محفوظ ، فى حين يأخذ الأول موقع الأثر السلبى الذى لم يسفر عن خير.

أما الإيضاح الثانى فهو ما ألحقه بالمذكرات من فهارس : فهرس الأعلام - ثم فهرس الأماكن، ولا شك أن الفهرسة إحدى أسس التوثيق التى تيسر الخدمة العلمية وتساعد على توجيه المؤشرات ، وإذا كان فهرس الأعلام - أسماء الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى سياق هذه المذكرات مهما اختلفت أزمنتهم وأوطانهم - يدل على حضور ذاكرة نجيب محفوظ ومدى اتساع آفاق تواصله مع جوانب الحياة بكل معطياتها ، فإنه يدل - من جانب آخر - على مدى اعتداد نجيب محفوظ بأشخاص بأعيانهم فى صلته المباشرة بهم وحضور مجالسهم تحت مسمى الصداقة ، أو استحضار هذه الأسماء من خلال الاستشهاد بآرائهم التى رأى فيها إضافة مطلوبة لتوضيح صورته وإضاءة جانب من فنه ، وقد يدل السكوت عن ذكر أسماء كانت تملأ أجواء الثقافة بالتصايح حول نجيب محفوظ وإبداعاته وكأنها التى تمسك بمفاتيحه وتملك أسرار فنه، قد يدل السكوت عن ذكرها على تحفظ مهذب لم يكن يتقبل ما أطلقت من مزاعم وما ادعت لنفسها من أدوار..

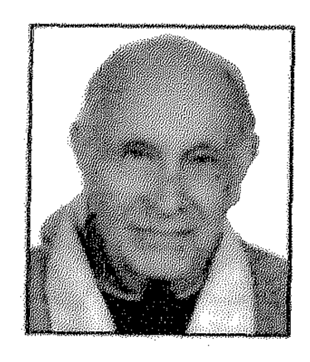
لقد أفضى نجيب محفوظ فى مذكراته بالكثير من أسرار حياته ، وبصفة خاصة : تكوينه الثقافى ، ووعيه بتنمية موهبته وحراستها من التشرذم وسوء الاستهلاك ، ولم يقصر فى تحديد المصادر التى استمد منها بعض موضوعات رواياته وعدداً من أهم شخصياته ، كما أشار - أحياناً - إلى وجه التطابق أو أسباب الاختلاف والتغيير ، وهو ما لم يكن حريصاً على تبيانه من قبل ، وما كان

باستطاعته أن يضع مفاتيحه في غير اليد الأمينة التى تقدرها وتحرص عليها ، وكانت هذه اليد هى يد رجاء النقاش ، المدربة الخبيرة، المحبة ، التى امتدت إلى المصباح المضاء فى المشكاة ، فوضعت فى خلفيته مرآة ، وبحركة خبيرة ، واثقة ، متواضعة تحول المصباح إلى مصباحين فى مشكاة واحدة ، غير أننا نشعر أحياناً بحقنا فى طرح بعض الأسئلة ، وهو حق - فيما نرجح - لم يتقبل رجاء النقاش أن يكون نائباً عنا فى توجيهها ، وأضرب مثلا لهذا فيما ذكره نجيب محفوظ من أن روايتيه: الكرنك والحب تحت المطر قد نشرتا وقد طالهما النقض والتحريف بفعل الرقابة (ص ١٣٣) وصحيح أنه قال إنه لا يملك الصيغة الكاملة لهاتين الروايتين ، ولكننى أشعر أنه ليس بدافع التطفل وحده كان القارئ يحرص على التعرف على وجه اعتراض الرقابة ، وطريقة التعامل معه ، كما يشير نجيب محفوظ إلى رواية بدأها وتحدث بشأنها مع عبد الرحمن الشرقاوى ، وكانت بعنوان «العتبة الخضراء» ، ولم تكتمل ومن ثم لم تنشر ، ولعل سؤالاً عن مصير ما أنجز منها وهل تسرب فتماهى فى أعمال أخرى أم أنها وئدت فى مهدها كان باستطاعته أن يكشف لنا عن جانب من مراجعات أو تراجعات العبقرية.

هناك جانب (سلبى) فى كل علاقة حب على أى وصف كان طرفاها ، والجانب السلبى فيما نحن بصدده أن الناقد استمع إلى كل ما رغب المبدع فى أن يفضى به ، فلم يحاول اقتحام مساحات بقيت أقرب إلى الغموض .. سنقبل من نجيب قوله إنه لم يكتب عن الريف أو الصعيد لأنه لم يتعرف على الحياة فى الريف أو الصعيد ، ولكنه ذهب إلى اليمن فلم يكتب عنها ، وعاش فى زمن الوحدة المصرية السورية ولم يكتب عنها ، وعاصر القضية القومية فى مستواها الفلسطينى ولم يكتب عنها ... ولا أظن أن هذه الجوانب كانت غائبة أو غائمة فى ذهن الناقد الأستاذ الذى نعرفه ، وغاية ما نفسر به هذا أنه التزم بأصول الحب ، فاكتفى بسرد ما جرى ، ولم يعط لنفسه الحق فى التساؤل عن مدى صوابه ، فضلاً عن أن يسأل عما كان ينبغى أن يكون . وهذا حال الناقد العاشق ، ولا نملك أن نطالبه بأن يغير طبيعته ليرضى توترنا..

لقد كان ما بين الناقد والمبدع حوار حقيقي ، حوار بين المبرد والسكين ، وما كان باستطاعة السكين أن تكتسب بريقها دونه ، ولقد أدى مهمته ، ثم ترك الساحة لها لتومض وحدها فى الفضاء..

أنا والنقاش والعقاد



وديع فلسطين □

سمعت باسم رجاء عبدالمؤمن النقاش للمرة الأولى فى أربعينات القرن الماضى، كنت فى ذلك الوقت أمثل مجلة «الأديب» اللبنانية لصاحبها ألبير أديب (١٩٠٨-١٩٧٩) فى مصر متطوعا، وأعمل على ترويجها بين المشتغلين بالأدب، عندما التقيت بصديقى الشاعر كمال نشأت الذى قال لى: إن هناك شابين يقيمان فى شبرا، ولهما اهتمام بالأدب على الرغم من أنهما مازالا طالبين فى الجامعة. ونصحنى بأن أرسل إليهما هذه المجلة، ثم أملى علىّ عنوان رجاء وشقيقه الراحل وحيد، وثابرت على إرسال المجلة إليهما دون أن أتلقى من أى منهما ما يفيد وصول المجلة إليه أو السؤال عن بدل الاشتراك الذى سددته من جيبى، وفوضت أمرى إلى الله فى هذه الخسارة المادية، ولست الآن بمقام المطالبة بهذا الدين فقد سقط بالتقادم بتعبير جلاوزة الضرائب!

وطوال السنوات التى انقضت بعد ذلك، لم ألتق بالنقاش إلاً مرتين مرة فى مكتب تلميذتى السابقة نوال المحلاوى التى أسست مركز الأهرام للترجمة والنشر، ومرة فى إفطار أقامته نوال فى شهر رمضان لعدد من أفراد أسرة «الأهرام» وأصدقاء مركزها .

بداية مبكرة

ومع أننى تابعت كثيراً مما نشره رجاء النقاش فى الصحف والمجلات المصرية والعربية، فلا أعرف على وجه التحديد متى بدأ الكتابة فى الصحف، والمؤكد أنه بدأ فى سن مبكرة جداً، ولعله بعد تخرجه من الجامعة، وكان يدهشنى منه انتشاره فى صحف الداخل والخارج، حتى ذكّرنى بصديقى صالح البهنساوى المحرر «بالأهرام» الذى كان يقولُ عن نفسه إنه أوسع انتشاراً من «الأهرام» نفسها !

ولاحظت أن رجاء النقاش درج على مهاجمة أستاذنا العقاد فى صحف عربية تصدر خارج مصر، وكنت أُطلعُ عليها، وأعرف أن العقاد لا يراها، وحرصت وقتها على موافاة العقاد بها، فكان تعليقه : إنّ هؤلاء العيال يهاجموننى فى صحف خارجية حتى لا أرد عليهم ولو هاجمونى حتى فى مصر فلن أرد على عيال الأدب !

والنقاش يهوى البحث عن القضايا التى تكاد تكون مجهولة من الحياة الأدبية، ليكون بذلك أول المكتشفين لها

□ أديب وكاتب



انور المعداوى





فدوى طوقان

والميطين اللثام عنها. فهو أول من نشر آثار من سمَّاهم «شعراء الأرض المحتلة أو المقاومة» وغلا فى تقديرهم غلوا رفعهم إلى مستوى غطى على سابقيهم من شعراء فلسطين الذين يفوقونهم – فى رأيى – قدراً وأهمية مثل على وهارون هاشم رشيد وتلميذى السابق معين بسيسو، ودع عنك من سبقوا هؤلاء مثل إبراهيم طوقان وعبدالكريم الكرمى المكنى «بأبى سلمى» وكنت وصفت شعراء المقاومة، ولاسيما كبيرهم محمود درويش، بأنهم إنما ينشرون عرائض ومنشورات سياسية هى أبعد ما تكون عن الشعر.

ومن مكتشفات رجاء النقاش أنه عثر فى كتاب للأديب اللبنانى جهاد فاضل على هجوم شرس على رائد «أبوللو» الدكتور أحمد زكى أبو شادى، فعزَّ عليه أن يتعرض أبو شادى بعد وفاته لهذه الحملة الجائرة فكتب ثلاث مقالات مسهبة فى الدفاع عن رائد أبوللو فى مجلة «الوطن العربى» الباريسية فى فبراير ٢٠٠٠ فضلاً عن مقالين نشرهما فى «المصور» فى إبريل ١٩٩٥، وبذلك رفع كثيرا من الضيم عن رائد أبوللو الذى اقتربت منه كثيرا بعد هجرته إلى أمريكا فى عام ١٩٤٦ وحرصت على زيارة قبره فى ولاية ميرليز عندما زرت أمريكا عام ١٩٥٥ وأسهمت فى نشر دواوينه المخطوطة والناقدة. لقد كانت هذه الشخصية المتوهجة هدفاً للحزازات والملاحقات، سواء وهو فى مصر أو بعد هجرته الدائمة حتى وصف جحود مصر بقوله:

وطاردتنى إلى منفاى حانيةً
وعددت صفو آثارى كآثامى

قصة حب

ومن مكتشفات النقاش التى أحب أن أتوقف عندها فى هذه العجالة ما نشره عن قصة الحب بين الشاعرة فدوى طوقان والأديب المصرى أنور المعداوى، وهو فى رأيى أشبه ما يكون بقضية الحب بين الأديبة «مى» والأديب الشاعر المهجرى جبران خليل جبران رسائل كثيرة متبادلة بين الطرفين فيها كثير من الثرثرة الأدبية

وقليل من العـاطفـة دون أن يكلل هـذا «الحب البـربرى» لا بلقـاء ولا بزواج. ولو كـانت لدى «الفـارس» فى الحكايتين أى رغبـة صـادقـة فى الاجـتمـاع فى عش الزوجيـة، لما استـعصى عليه اتخاذ ولو خطوة واحـدة عـمليـة فى هذا الاتجـاه. كـانت فـدوى تتـردد على مـصـر ولكن المعداوى كـان مشـغولا عنها بطمـوحـه الأدبى من ناحيـة وبنرجسيتـه الطاغيـة وشـخـصيتـه المتـعجرفـة التى نفرتنى من التـواصل مـعـهـا، مع أننى عـرفـتـه منذ البدايات الأولى لحياته الأدبية، ودع عنك أنه وصفنى فى مجلة «الرسالة» بالبعوضة فى حين وصف نفـسـه بالفـيل الذى لا يحس بلسعة البـعوضـة ! كما كـانت مى تتـردد على أوروبا ولاسـيمـا فى أشـهـر الصيف، وكان جبران خليل جبران يقيم فى باريس، حيث أوفـدته راعيتـه مـارى هسكل للدراسـة هناك ولمتـابعـة الحيـاة الفنية فى عاصمـة النور. ولم يكن صـعبـاً على جبران أن يأتى إلى مصـر، ولا كـان عسـيراً على مى أن تزوره فى باريس ولو من قبيل التأكد من عاطفته التى عبر عنها فى رسـائله «بالشعلة الزرقـاء» . ولكن هذا اللقاء لم يتحقق، بل إن جبران كـان غارقـاً إلى فـروة الرأس فى عـلاقـات نسـائيـة كـثيـرة، سـواء فى باريس أو فـى أمـريكا، وقد فضح أمرها صديقه الأديب المهجرى ميخائيل نعيمة.

الرسائل

والنقـاش نشـر ١٧ رسـالة بعث بهـا أنور المعـداوى إلى فـدوى طوقـان، أمَّـا رسـائل فدوى إليـه فـلايعرف مـصيـرها، ويقـال إنَّ المعـداوى أعدمـهـا بنفسـه، والمفروض بل المسـتنتج أن رسـائل فـدوى لم تخل من إمارات صـريحـة أو ضـمنيـة على العاطفة . ولكن مـاذا قالت فدوى فى سيرتها الذاتية المعُنونة «رحلة جبلية رحلة صعبة»؟ إنها لم تورد اسم أنور المعداوى ووصـفت مـشـاعـرها بقـولهـا (على الصفحتين ١٤٠و١٤١) :

«قـبل الخـروج من القـمـقم (وتعنى التزمُت المقيت الذى كان مفروضا عليها من العائلة) كانت مراهقتى العاطفية حادة مشـتعلة. نفس مكبوته تتفـتح لأول كلمـة حب تأتيـهـا على صـفـحـة رسـالة «حب المراسلة» . كنت أقـع فى هذا اللون من الحب الخـيـالى وأغوص فيـه، وبينى وبين التجربة الواقعية جدران القمقم الأثرية . فكانت المراسلة والخـيـال همـا ميـدانى الضيق والواسع فى آن. كنت جائعة إلى شىء غير موجود . ضـائعة . وحيدة ، لا أملك شيئاً سوى هذا الخيال المشتعل» .

ثم تقـول «لاغرابة فى أن يحب القلب الواحد أكثر من مرة، فمن الشذوذ أن يتجمد قلب الإنسان عند شخص معين طول الحيـاة. إنها ظاهرة طبيعـية . أن تنشـأ فى القلب وتتكرر أكثر من عـلاقـة. وفى كل مـرة تكون للعـاطفة نفس القـوة السابقة والصدق والفوحان ، ولامكان هنا للأهواء العرضية والطيش والعربدة».

وتستطرد فتقول : «فى أحيان كثيرة أجـد أن الماضى لم يذهب فـقط بمعناه المادى، بل بمعناه النفسى أيضا، فما كان

فى اضى عمل قيمة معـ ة تكون لمرتى إليه فى لحاضر .د اختلفت تماماً، ففقد بالتالى معناه النفسى. وأحس أنى - أنا نفسى - شخصية أخرى لاتمت إلى تلك القديمة بصلة ولاتكاد تتعرف عليها إلا فى ساحة ذكرى».



وإذا كان الاعتراف هو سيد الأدلة، فإن فدوى تكون بهذه العبارات قد نفت وهج الحب الذى نسبه إليها النقاش حيث قالت : « لاغرابة فى أن يحب القلب أكثر من مرة» أى أن المعداوى -حتى وإن كان فارس الأحلام الذى تلهى بعذرية قلبها - فهو مجرد واحد من كثيرين أحبوا فدوى أو أحبتهم .

وها هى فدوى تحسم هذه القضية بقولها على صفحة ٢٥٤ من سيرتها الذاتية :

«عودة إلى القاهرة ، ما أغرب قلب الإنسان . على غير ميعاد أو توقع وجدتنى ألتقى فجأة بإنسان - لعلها تقصد المعداوى - كنت قد أحببته قبل أكثر من عشرين عاماً لم نلتق خلالها أبداً . كنت قد أحببته إلى حدّ الرغبة فى الموت. كان أول حب واقعى وحقيقى. التقينا، ولدهشتى وجدتنى أسلم عليه بنفسى الحيادية الشعورية التى أصافح بها أى شخص لم تربطنى به يوماً أى عاطفة . نظر إلىّ مصدوماً، ورجعت ببصرى ألقى نظرة على أعماقى ، قالت لى الأعماق : هذه هى الحياة. فى كل لحظة من لحظات عمره يولد الإنسان جديداً، ويترك وراءه شخصية غير شخصيته إلى لحظته الحاضرة» .

وإذا كانت فدوى لم تذكر اسم المعداوى فى سيرتها الذاتية، فقد ذكرت اسم شاب انجليزى قابلته فى لندن واكتفت بالحرفين الأولين من اسمه A.G وعنه قالت على صفحة ٢٠٦ من السيرة الذاتية «كان شقيق الروح، جنة لقيت فى ظلها الهدوء والسلام والراحة والسكينة. إنسان مؤنس وديع. بجانبه يغيب شعورى الدائم بأننى قد ألقى بى فى عالم أقوى منى». وقد أهدت فدوى إلى A.G قصيدة عنوانها «أردنية فلسطينية فى إنجلترا» .

ثم تقول «ياتلك الأيام مع ذلك الصديق الرائع، ما كان أغناها بالغبطة واكتساب المعرفة. لقد كان لكل شىء مذاق خاص فى إحساس ووجدانى . وكان هناك إلى جانب هذا كله ذلك الشعور الملازم بتسرب الزمن والأشياء بين أصابعى، حيث تُفلت منا المعطيات الجميلة فلايبقى لنا إلا الذكرى والحنين» (ص ٢٠٦) .

كما تقول : « ويا صيف إنجلترا، ما كان أغنى أماسيك المضيئة بالحب ،

أماسيك ذات الأصيل الطويل .. سأترك فيك جزءاً من حياتي . سوف يؤلمني الحنين ، ولكني سعدت وأسعدت . لقد حببت وجودي ولو لفترة محدودة، وهل حياتنا إلا هذه اللحظات المعاشة بعمق؟».

اللعب بالعواطف

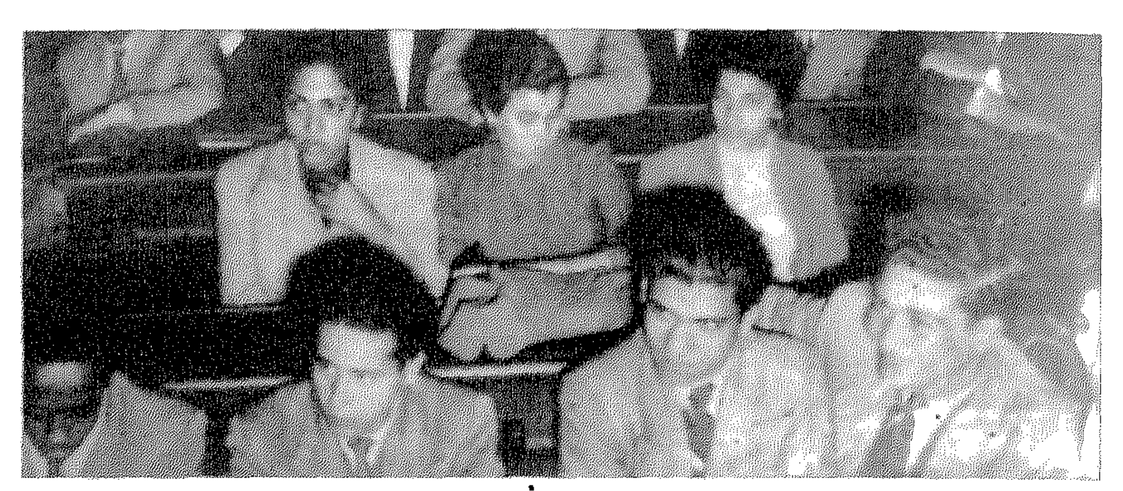
أليس هذا اعترافا من فدوى بحب صادق عميق لا غش فيه ؟ لقد نسيت فدوى أنور المعداوي و «حب المراسلة» معه، وأدركت كما يقول رجاء النقاش أنه «كان يحب اللعب بعاطفتها تجاهه» أو بتعبيري الخاص أن المعداوي كان يتلهى بإغواء قلب فدوى البكر، ويستدرجها إلى الإعجاب العاطفي به دون أن يكون جادا في عواطفه تجاهها. وعندما اكتشفت فدوى هذه الحقيقة الصاعقة، كفت عن الرد على الرسالة السابعة عشرة، وهي آخر رسائل المعداوي إليها .

هذا عن فدوى .. ولكن ماذا عن المعداوي؟

واضح أن النقاش معجب بالمعداوي حتى اعتزم أن يجمع مقالاته المتناثرة في الصحف وهي - حسب تقديره - تقع في ثلاثة مجلدات . ولو أن النقاش دقق في هذه المقالات لاستبانت له حقيقة النرجسية الطاغية، أو بتعبير النقاش نفسه «ذاتيته المكثفة» وهي سبيله في أن يبلغ شأوه الطامح في ميدان النقد الأدبي . وفي هذا المقام أذكر واقعتين : الأولى أنه هاجم توفيق الحكيم هجوماً شديداً مما حدا بالحكيم إلى دعوته والتعرف إليه. وبعد هذه الجلسة نشر المعداوي مقالا في مجلة «الصياد» اللبنانية التي كانت قد نقلت طباعتها إلى القاهرة بعنوان «صالحني توفيق الحكيم على زجاجة كوكا كولا» . ما شاء الله زجاجة كوكا كولا هي التي غيرت رأي المعداوي في الحكيم!

وأما الواقعة الثانية التي تدل على وصولية المعداوي ، فقد رواها زميله عباس خضر في كتابه «ذكرياتي الأدبية» حيث قال إن المعداوي رغبة منه في التقرب من أحمد حسن الزيات والمشاركة في تحرير مجلته لجأ إلى «مهارشة» - بتعبير الدكتور عبدالحميد يونس - «فأنشأ» مقالا في مجلة «العالم العربي» وازن فيه بين كتابة الزيات عن ولده المتوفى وكتابة محمود تيمور عن ولده المتوفى أيضا، وكان عنوان المقال : «بين الفن والصنعة» ، وجعل كتابة تيمور في كفه الفن وكتابة الزيات في كفة الصنعة. وكان تحامله على الزيات ظاهراً ، فإن مقال الزيات في رثاء ولده الأول «رجاء» الذي فقده طفلاً وكان عنوانه «رجاء خاب» يعد من أروع ما كتب في موضوعه نثرا. وفي محاولة من الزيات لرفع ضرره، سمح له بالعمل في مجلته مقابل راتب قدره ثمانية جنيهات زيد بعد ذلك إلى عشرة!

أما مقالات المعداوي التي يهتم النقاش بجمعها فقد قال عنها زميله عباس خضر في ذكرياته الأدبية إنه «كان يبرز نفسه ويعرض ذاته فيما يكتب - كان يقول «أنا» أكثر مما تقول كتابته .



رجاء النقاش فى الجامعة مع فاروق شوشة ومحمد الفيتورى «١٩٥٦»

كان يشبه العقاد فى عنف عراكه مع خصومه فى الأدب ورقة شخصيته مع الجلساء والخلصاء ، وإن اختلف فى حجم (الأنا) الأكبر عند المعداوى» .

ولئن كان رجاء النقاش متعاطفا مع المعداوى يلتمس له المعاذير مرة بأمراضه ومرة بطموحه ، فهو لم يخرج من رسائل المعداوى إلا بنتيجة أمرة لم يعلنها، وهى إنه أصلا غير مهيأ لا للحب ولا للزواج ، وأنه كان يتباهى حتى فى «تعقيباته» فى «الرسالة» بالمعجبات وكان ينشر رسائلهن وكأنه دون جوان .

هذا وقد ذكر النقاش وعلى شلش أن المعداوى كان يعانى من عقدة أوديب، أى التعلق بالأم، فهل كان المعداوى يرى فى فدوى صورة مصغرة أو مكبرة أو حتى بديلا للأم؟ لقد أخذ يستدرجها بعباراته العاطفية ربما لكى يشبع هذه النزعة إلى التعلُّق بالأم .

ويروى النقاش أن المعداوى سأل فتاة كانت تحبه : هل بالإمكان أن تتزوج دون أن تكون بيننا علاقة جنسية؟ فأجابت الفتاة بالإيجاب، ولكنها ذهبت ولم تعد !

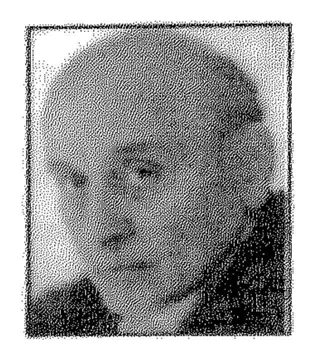
إن هذا السؤال يكشف عن قصور كان المعداوى يعانى منه، فلماذا التغرير ببنات الناس ومنهن فدوى طوقان؟

وصفوة القول أنه برغم الجهد الخارق الذى بذله رجاء النقاش معتمداً فيه على رسائل المعداوى لإثبات صدقه فى عواطفه تجاه الشاعرة فدوى طوقان، إلا أن شخصية المعداوى التى تدور حول ذاتها وتتبجح بلفظة «أنا» فى كل موقف ، ما كان يمكن أبداً أن تقبل شريكا فى حياتها حتى وإن كان هذا الشريك شاعرة رقيقة الإحساس مرهفة العاطفة مثل فدوى طوقان. وسؤال أخير : هل من الرجولة والشهامة ورفعة الخلق أن يلهو المعداوى بقلوب العذارى – والعذارى قلوبهن هواء كما يقول الشاعر ؟

ويهمنى فى ختام هذه الأسطر أن أؤكد أننى لا أحمل ضغينة لأنور المعداوى ، فقد صافيته الود فى بدايات طريقنا ولكنه بغطرسته عاملنى باعتبارى بعوضة وهو فيل !

وليس لى تعامل مع الأفيال بالفاء أو الأقيال بالقاف!

صاحب وحارس "سبيل الثقافة"



حلمى التونى □

منذ أكثر من نصف قرن، ترك رجاء النقاش قريته وجاء إلى القاهرة فى «سبيل» الثقافة.. أى من أجل الثقافة.. من أجل ثقافته .. ومن أجل ثقافة الناس .. تعلم رجاء النقاش وقرر أن يرّد الجميل ويسدّد الدَين إلى مجتمعه الذى احتضنه وعلمه.. ولد رجاء النقاش، وولدت أنا فى نفس العام من القرن الماضى ، العشرين، والتقيته فى بلاط صاحبة الجلالة «الصحافة»، ومن يومها شاركته فى كثير من أحلامه ومشروعاته الثقافية، هو ككاتب ومفكر، وأنا كفنان ورسام، وربما تباعدت مشاريعنا، ولكن بقيت أحلامنا واحدة. الحلم بأن تتاح الثقافة لكل الناس بصرف النظر عن مكانتهم وحظوظهم الاجتماعية، أو قدراتهم المادية، والثقافة هنا ليست ترفا ولا رفاهية ولكنها ضرورة للجميع من أجل إحداث «اليقظة» و«النهوض» فى مجتمعنا «النائم» و«القاعد».

ونعود إلى عنوان هذه الكلمة والرسم المرافق لها، نعود إلى «السبيل».. سبيل رجاء النقاش الذى يسقى الناس، ويقف عليه صاحبه راعيا وحارسا خشية أن يتسلل البعض فيلقوا فى ماء الثقافة ما يلوثه.. فبدلا أن يروى ويطفىء الظمأ ، يكون مصدرا للعلل والأمراض.

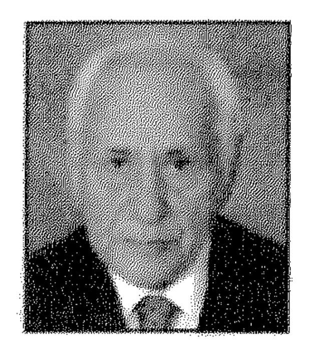
قام «رجاء» بحراسة «سبيله» وعمل على إتاحة مائه للجميع، من خلال مقالاته وكتبه، خاصة كتابه الرائع والذى عرفت من خلاله عالم «رجاء» الثقافى الرحب الواسع: كتاب «تأملات فى الإنسان» ، والذى أعجب كيف لم يتم إقراره حتى الآن فى جميع مناهج الدراسة.. وفى كل المكتبات مدرسية وعامة! وقام رجاء بدوره التنويرى أيضا من خلال مجلات تولى رئاستها . فازدهرت وأينعت. من مجلة «الهلال».. إلى مجلة «الدوحة» القطرية التى تولاها فحولها من مجلة شهرية إلى عاصمة ثقافية ، حتى قال البعض، يومها، فى السبعينيات، إن «الدوحة المدينة» ليست هى عاصمة دولة قطر، وإنما عاصمتها هى «الدوحة المجلة».

ونعود إلى «سبيل» آخر من «أسبلة» رجاء النقاش، سبيل لم يستطع إقامته، وأظن أن رجاء لا يزال يحلم به: «جريدة ثقافية يومية» تجعل الثقافة، كما قال الدكتور طه حسين عن التعليم، «كالماء والهواء» «حق للجميع».

□ فنان تشكيلى وكاتب


سبيل النقاش
حلمي التوني يناير 2007

نحو نظرية نقدية



محمود سالم □

هذه السطور لا تتسع للحديث عما أريد الحديث عنه.. وهو البحث عن نظرية نقدية عند الكاتب الكبير «رجاء النقاش».. وهو موضوع ألح على ذهنى كثيرا ولكنه يحتاج إلى وقت أطول، وبحث أعمق وجهد أوفر!!

وقد كدت أتراجع عن الكتابة فى هذا الموضوع المهم لولا أننى وجدت من الأفضل أن أتعرض له لفتح النافذة أو الباب لمن هم أوفر منى علما بالنقد الأدبى ومدارسه ونظرياته.

لقد كتب الصديق العزيز كثيرا.. بل إنه منذ عرف الورق والقلم لم يكف عن الكتابة، وأظنه من أوفر أرباب القلم إنتاجا وتتسع دائرة اهتمامه لتشمل كل أشكال الإبداع شعرا ونثرا ومسرحاً وسينما وغيرها، متعه الله بالصحة والعافية ومد فى عمره.

وفى هذا الصرح الضخم الذى أنشأه «رجاء النقاش» لابد من منهج أو نظرية أو وجهة نظر تسرى فى أوصاله.. فلتكن نظرية أو منهجا أو وجهة نظر محددة أو دائمة فكيف نصل إليها؟!

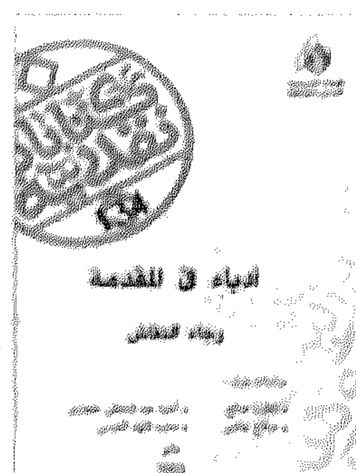
لقد ناقشت هذا الموضوع مع الصديق الكريم أكثر من مرة، وكانت وجهة نظره أنها ليست مهمته، ولكن مهمة الباحثين فى هذا الجانب من الكتابة.. ورأيت أن أضع يده على خطوط عريضة فى مجال خطابه النقدى، فهناك إشارات وعلامات على تبنيه موقفا محددا فى النقد الأدبى، قائم على فكرة إنسانية الإبداع، فهو يرى فى بعض ما كتب - أن أى إبداع يستمد قيمته من إنسانيته، أو من محتواه الإنسانى.. وهذا الرأى يضع محددات تحتاج إلى جهد لإبرازها وتأطيرها ووضعها فى قالب النظرية.

لقد بدأ النقد المصرى الحديث عام ١٩٢١، أى منذ تسعين عاما تقريبا ولم تتبلور - فيما أعلم - نظرية نقدية واحدة يقاس بها أو عليها النقد الأدبى المصرى والعربى عموما.

هذه البداية كما نعرف هى تاريخ صدور كتاب «العقاد» و«المازنى» الشهير الديوان فى «الأدب والنقد».. وهو كتاب جمع بين النظرية والتطبيق.. وقد حدد فيه «العقاد» الأصول التى يجب أن تتوفر للشعر الجيد، وكان مجال دراسته الشاعرين «أحمد شوقى» و«عبد الرحمن شكرى»، وقام «المازنى» بنفس المهمة مع النثر تطبيقا مع الكاتبين «المنفلوطى»

□ كاتب وصحفى







و«الرافعى» ولو قدر لهذا الجهد النقدى التطبيقى أن يمتد لكان عندنا الآن نظرية «العقاد» و«المازنى» أو «العقاد» وحده فقد توزع جهد «المازنى» على العمل الصحفى والترجمة ومات فى سن مبكرة نسبيا.

تياران في النقد

وقد جاء بعد «العقاد» نقاد كبار مثل «محمد مندور» و«لويس عوض» و«رشاد رشدى» و«جابر عصفور» وغيرهم فى مراحل مختلفة.. وأظنهم انقسموا إلى تيارين عالميين فى النقد هما التيار الشكلى (الفن للفن) والتيار (الماركسى) الاجتماعى.

ولكن «رجاء النقاش» يشق طريقا جديدا يقف أو يسير بين الطريقين، فمهمة الناقد كما يرى «رجاء النقاش» تقوم على تفسير أو توضيح العمل الإبداعى، فهو رجل يميل إلى الوضوح ولا يحب التعقيد والغموض.. والنقد التفسيرى ضرورى لأن الأعمال الفنية التى تستحق الكلام عنها بطبيعتها شديدة التعقيد. خذ مثلا كتابه (نساء شكسبير).. «شكسبير» فى حد ذاته شاعر معقد وبعض مسرحياته تحتاج إلى الكثير من التوضيح والتفسير وها هو «رجاء النقاش» بهذا الكتاب يجعل من قراءة «شكسبير» متعة.

إن اهتمام «رجاء النقاش» بالمتلقى يعود إلى رغبة حقيقية فى اشتراك القارىء والمشاهد العادى فى الاستمتاع بالأعمال الفنية التى قد تغمض مقاصدها وجمالياتها عليه، و«سارتر» يقول إن القارىء والمشاهد جزء من العمل الفنى.. وأقرب مثال إلى ذلك المقدمة الضافية التى كتبها «رجاء النقاش» لرواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للكاتب الفخم «الطيب صالح» إنها مقدمة جعلت من الرواية كتابا مفتوحا للقارىء وهى رواية على قدر كبير من التركيب نظرا لتقنياتها الروائية الجديدة، والتى سادت العالم منذ بداية القرن العشرين. و«الطيب صالح» يقدر هذه المقدمة كثيرا، وقال لى إن المقدمة لا تقل أهمية عن الرواية ذاتها وهذا ما فعله «رجاء النقاش» فى مقدمته الجميلة التى كتبها لديوان «أحمد عبد المعطى حجازى» الأول (مدينة بلا قلب) ورغم أن «حجازى» فى ديوانه الأول كان.

سهلا فقد كان دور «رجاء النقاش» أن يوضح جماليات شعر «حجازى» وإبداعه واستخدامه لشعر التفعيلة مما كان فى ذلك الوقت قبل خمسين عاما تأكيدا لدور شعر التفعيلة فى إثراء مسيرة الشعر العربى وتجديده.

ولعل «رجاء النقاش» يستند إلى اللغة الصافية التى يملك نواصيها وليس ناصيتها فقط.. هذه اللغة التى درسها جامعيا، وأحبها وأخلص لها، يمكن أن تكون بجانب إنسانية الإبداع أساسا تبنى عليه نظرية نقدية عند «رجاء النقاش».

ولعل الضلع الثالث فى هذه النظرية أن تم تحديدها فى التراث العربى والمصرى بالذات، فليس هناك فيمن أعلم من هو أعلم منه بالأدب المصرى الحديث.. بين عام (١٨٥٠ - ١٩٥٠) وهو يكتب ويتحدث بإفاضة وبذاكرة ممتازة عن أدباء وشعراء ونقاد هذه الفترة، وأقول يتحدث لأن الزميل والصديق هو بلا شك من سادة المجالس رغم حياءه الشديد.. ورفضه حضور الندوات والتصوير فى التليفزيون.. ولكن فى مجالسنا الخاصة التى تضم صفوة المثقفين فى «مصر» نجلس جميعا كالتلاميذ ونحن نستمع إليه، والشىء الذى أريد أن أذكره أنه يتحدث عن هذه الفترة بأحداثها السياسية والأدبية، بإفاضة وعلم رغم أنه فى كتاباته يتجنب الحديث فى السياسة.

النقد التفسيرى

ونعود للحديث عن نظرية النقد عند «رجاء النقاش» فهل يمكن أن نسميها نظرية النقد التفسيرى؟!

إننى أطرح السؤال ولا أجيب عنه، فهناك كما قلت فى بداية هذه السطور من هم أقدر منى وأعلم بقواعد النقد، وكل ما أرجوه أن ألفت النظر إلى ضرورة وجود نظرية نقدية فى هذا الكم الهائل من الكتابة.

ولم يأت النجاح ولا الشهرة ولا القيمة إلى كتابات هذا الرجل اعتباطا، فأنا لم أر من هو أشد إخلاصا لعمله من الصديق العزيز، إنه يجعل من الكتابة عبادة، وهو يحيطها بجو من الحماية فيقاطع الحياة والناس عندما يتهيأ لها، وأظن أن اختياره مسكنا بعيدا عن «وسط القاهرة» هو جزء من رغبته فى العزلة ليتفرغ لعمله وإبداعه.



ومكتبة «رجاء النقاش» من أكبر -

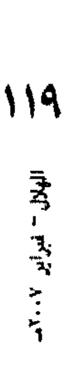


مع الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى «١٩٨٠»

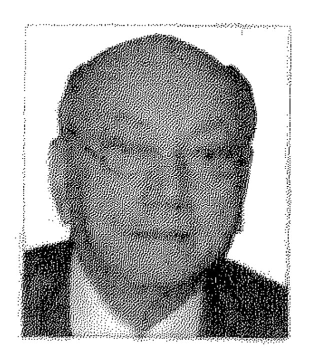
إذا لم تكن أكبر – المكتبات الشخصية فى «مصر» وهو يجرى وراء الكتب الجديدة والقديمة، ولا يترك كتابا ينقص مكتبته الثرية إلا وسعى إليه.. وكثيرا ما لجأ إلى مكتبتى المتواضعة للبحث عن كتب الأربعينيات التى أقتنى معظمها لتصويرها!!

لقد تعرفت – ولا أقول عرفت – «رجاء النقاش» فى أوائل الخمسينيات وفى أتوبيس (١٢) القادم من «الجيزة» إلى شارع «المبتديان».. وكان هو طالبا فى كلية الآداب وكنت فى كلية الحقوق، وكان لقاؤنا صدفة، وقد استمرت هذه الصدفة خمسين عاما أو تزيد، وهى صداقة تقوم على المحبة الخالصة والتقدير المتبادل، وقبل كل هذا المهنة المشتركة..

وأرجو ألا أكون قد ابتعدت كثيرا بسطورى الأخيرة عن الهدف الأصلى من كتابة هذا المقال المتواضع، وهو البحث عن نظرية نقدية فى كتابات «رجاء النقاش»، أو نحو نظرية نقدية عنده، وهو هدف يستحق كما قلت فى بداية هذه السطور،يستحق عملا أكثر وجهدا أوفر، لعل غيرى ممن هم أقدر منى على صياغة هذه النظرية أن يقوموا بهذا الجهد.. فهذا الناقد المتفرد، بقامته العالية، وقيمته النادرة يستحق منا جميعا كل العناية والاهتمام، وقد وضعت بعض المصابيح على الطريق إلى هذه النظرية، ولعل أساتذتنا الكبار يقومون باستكمال إضاءة هذا الطريق.







أبو المعاطى أبو النجا □

كانت فكرتى القديمة أن «رجاء النقاش» واحد من عشاق التاريخ الكبار، ربما ترجع هذه الفكرة إلى أيام الشباب حين كنا نلتقى كثيراً، نتبادل الكتب، ونتحادث حول أيها أولى بالقراءة والاهتمام؟، أتذكر أن رجاء كان أول من طلب منى بلهجة شبه آمرة، أن أقرأ كتاب «تاريخ أوروبا فى العصر الحديث» تأليف «أرنست فيشر»، وترجمة «أحمد نجيب هاشم»، وأول من لفت انتباهى لأهمية كتاب «أزمة الضمير الأوروبى» لبول هازار ترجمة «نجيب المستكاوى» مع مقدمة لطه حسين «كنا أيامها نركز على قراءة القصص والروايات العالمية المترجمة»، ولروعة تلك السلسلة التى كان يترجمها ويقدمها أحمد الصاوى محمد عن حياة مجموعة من كبار السياسيين والأدباء فى الغرب مثل فوشيه، وبلزاك، وهايتى وغيرهم «وكنا ننظر لأحمد الصاوى محمد على أنه كاتب محدود القيمة»، ولكن رجاء هو الذى لفت أنظارنا إلى قيمة الدور الذى قام به هذا الكاتب بتقديم هذه السلسلة من الكتب، وكأن كل هذه القراءات كانت بمثابة تمهيد الأرض، وتهيئة الاستعداد لأكون قادراً على إنجاز ما كان يلح علىَّ أيضا «رجاء النقاش» نفسه لإنجازه وهو كتابة رواية عن حياة المناضل المصرى عبدالله نديم!.

هكذا كان يتحرك «رجاء النقاش» فى حياتنا الأدبية، يتحدث لى أو لغيرى من أصدقائه الكثيرين، فلم أكن سوى واحدا منهم ويكتب بنبرة لاتخلو من الحماس والقلق والشك، وكان شغفه بالتاريخ يبدو لى وكأنه جزء من نزعة فى داخله تبحث فى هذه الحياة الغامضة والفاتنة والعاصفة والمتغيرة عن القواعد والقوانين التى تحكمها أو التى لابد أن تكون هناك لتحكمها، وكأن مايبدو لنا أحياناً فى هذه الحياة من أنه أنواع من الفوضى أو العبث، فإنما هو مجرد نتيجة، لأننا لم نكتشف بعد كل تلك القواعد والقوانين، وأن ميله إلى البحث فى التاريخ جزء من ميله إلى الكشف عن القواعد والقوانين، إذ أن الصورة الكاملة لهذه القواعد إنما تتضح من خلال تواترها فى أزمنة وأمكنة مختلفة ومتعددة، وكان هذا كله يفسر لى ما يلتقى فى شخصية رجاء الإنسان والكاتب من اجتماع هذه الحزمة من درجات الحماس والقلق والشك سواء فيما يتحدث عنه أو يكتب فيه، كان من

□ روائى وكاتب



البورتريه للفنانة نسرين بهاء

الصعب أن تجد رجاء ساكناً أو ناعمًا أو مستقراً أو حتى لائذاً ببرود السخرية واللامبالاة، كان حماسه يبدو وكأنه حماس الباحث عن فكرة صحيحة يثق في وجودها في زحمة من الأفكار السائدة أو الزائفة، وكان قلقه يأتي من شعوره بأن في هذه الحياة الكثير مما هو زائف ومخادع، وأن الطريق إلى الحقيقة ليس واحداً وليس سالكاً، وأن أفضل طريق لاختبار نسبية الحقيقة هو التاريخ أو هو الزمان! وقد يكون أحيانًا هو الشك حين تبدو الشواهد ملتبسة ومراوغة!.

رجاء الناقد الأدبى

تجلى عشق رجاء للتاريخ في عمله النقدى في صور متعددة، فقد كان رجاء ناقداً للشعر وللقصة وللرواية وللمسرح وللسينما وللفنون بشتى أنواعها، وذلك من خلال اشتغاله بالكتابة وبالصحافة ولما كان المجال لايسمح باستعراض كل هذه الجوانب فلابد من اختيار بعضها.

يقول رجاء النقاش في كتابه بعنوان «في حب نجيب محفوظ» ص ٤٦، وهو الكتاب الذى يضم نقده لبعض أعمال نجيب محفوظ الروائية: «إن أعمال نجيب محفوظ تتضمن العنصر التاريخي» وكان الحديث عن أعمال نجيب محفوظ التى تنتهى بنهاية الثلاثية ثم يقول: وهذا العنصر التاريخي هو عنصر أساسي بالغ الأهمية عند كل الروائيين الكبار في تاريخ الرواية العالمية»، «والعلاقة بين التاريخ والرواية علاقة وثيقة خاصة بالنسبة لهؤلاء الروائيين العظام الذين ترتبط أعمالهم الفنية ارتباطا بالغ القوة بأوطانهم وشعوبهم، وفى مقدمتهم أبرز أربعة روائيين عالميين معاصرين، وهم «إيفواندرتش» في يوغسلافيا صاحب رواية «جسر على نهر درينا» الحائز على جائزة نوبل فى أوائل الستينيات، و«ماركيز» صاحب رواية «مائة عام من العزلة» وقد حصل على جائزة نوبل عام ١٩٨٢ والثالث هو «كازنتزاكيس» اليونانى صاحب رواية «زوربا» و«الإخوة الأعداء» والرابع هو «ياشار كمال» صاحب «محمد الناحل» وهو روائي تركي معاصر.

ولو تابعنا ما كان يكتبه رجاء النقاش في نقده لفن السينما في مصر في هذه المرحلة لوجدناه يقول في كتابه «كلمات في الفن» ص١٧٨.

«إن الفكر السينمائى الجديد لن يتوفر لنا إلا إذا ظهر عندنا فنانون «مخرجون وممثلون على وجه الخصوص» يكونون على مستوى عميق من الثقافة القومية التى تساعد الفنان على أن يكون عارفاً بتاريخ بلاده، يحس بهذا التاريخ، ويعرف تياراته وأحداثه المختلفة، فلو كان هذا الفنان موجوداً بيننا لانعكس ذلك على الأفلام وموضوعاتها، وشخصيتها الفنية والفكرية على نطاق واسع.

ولو أخذنا تاريخنا المصرى منذ الحملة الفرنسية إلى اليوم، لوجدنا هذا التاريخ مليئاً بالوقائع والأحداث التى يمكن أن تكون موضوعات رائعة للسينما المصرية.

هناك الصراع بين عمر مكرم ومحمد على، وهو صراع خصب يصور المواجهة

الحادة بين الزعامة الشعبية والسلطة الاستبدادية، وهناك مذبحة القلعة ومغزاها في الصراع السياسي الهائل الذي كان قائماً في بداية القرن العشرين في داخل المجتمع المصرى وهناك حفر قناة السويس، على أن المسألة ليست مجرد نقل أحداث التاريخ إلى الشاشة، فهناك شيء أبعد من ذلك، إنها مسألة الحس القومي عند فناني السينما، وهذا الحس لايتكون بمجرد أن يولد الإنسان على تراب الوطن، ولابمجرد أن يعايش أهل هذا الوطن، كلا إنه يولد بالتعرف على التاريخ القومي تعرفا حقيقيا عميقا حتى يستطيع الفنان أن يفهم شخصية مصر، وأن يعرف طبيعة الشعب ونفسيته وتاريخ أفراحه وأحزانه، وعندما يتربى هذا الحس القومي عند الفنان، فإنه سوف ينعكس حتماً على إنتاجه سواء أكان يقدم فيلماً عن الحب أو الجنس، أو عن أي موضوع آخر.

ويقول رجاء كلاماً قريبًا من هذا كله في نقده لتطور بقية الفنون في بلادنا، وخاصة فن الموسيقى.

إلى متى ظل رجاء النقاش يجد في التاريخ الخاص أو العام المادة الأكثر إغراء للمبدع في الأدب أو في الفن، للكشف عما يختفي وراء أحداثه ووقائعه من قوانين أو قواعد يمكن أن تمنح المعنى والقيمة للأعمال الروائية أو الفنية؟

يقول رجاء النقاش وهو يتابع رحلته مع أعمال نجيب محفوظ الروائية في كتابه «في حب نجيب محفوظ» ص ٧٩:

«إن الحياة مهما وضعنا لها من القوانين، وفسرناها بأقصى ما نستطيع من معرفة، تظل خاضعة لعنصر وإن كان مازال غامضاً علينا في مصدره، فهو واضح الأثر في نتائجه، ونحن نسمي هذا العنصر أحياناً باسم القدر، وأحيانا باسم المصادفة.

ويصطحب رجاء هذا العنصر الغامض أو فلنقل مثل هذه العناصر الغامضة في الحياة، وفي الرواية، ولعله اكتشفها في رحلة بحثه لمغزى التطور الفني الذي يحدث في المراحل الجديدة في روايات نجيب محفوظ، فيما بعد الثلاثية.

يقول رجاء النقاش في الكتاب ذاته ص ١٠٧ «إن القضايا أو المشكلات التي تدور حولها روايات نجيب محفوظ في المرحلة الجديدة وهي «اللص والكلاب»، و«السمان والخريف»، و«الطريق» و«الشحاذ»، و«ثرثرة على النيل» لاتنبع من شخصيات تحركها بالدرجة الأولى ظروف المجتمع في مرحلة تاريخية بعينها، مثلما

كان الحال في روايات نجيب محفوظ في المرحلة الأولى في الثلاثية وما قبلها، حيث كانت المأساة التي يتعرضون لها مأساة عائلية مجتمعية، أما البطل الجديد عند نجيب فهو يعيش وحده، ويواجه العالم وحده، وتحدث مأساته بعيداً عن أسرته، إنها مأساة إنسان وحيد متمرد ومنفرد «سعيد مهران» في اللص والكلاب يرفض أن يقيم لنفسه أسرة، «عيسى» في «السمان والخريف» يفعل الشيء نفسه، وكذلك «صابر» في «الطريق» إنهم جميعاً كائنات برية طريدة النظام العادي للحياة، تواجه العالم دون عون من علاقات إنسانية مستقرة، لقد خرجوا إلى العراء ووقفوا وحيدين في منطقة مخيفة مهجورة، وغير مألوفة في محيط الحياة البشرية، وفي كلمة فإن المشكلة التي يواجهها البطل عند نجيب محفوظ في هذه الروايات هي بينه وبين العالم، وليست بينه وبين المجتمع، إنه يعاني هموماً روحية قبل أن يعاني هموماً مادية، إنه بطل ينتمي إلى جيل الانتقال، الجيل الذي يريد أن يفك طلاسم العالم، ويرفض التقاليد القديمة، ويتقدم إلى التجارب الجديدة، لعله يكتشف ما يضنيه، ويعيد الانسجام والتناسق إلى نفسه وإلى العالم الخارجي معه».

والآن فهل يمكن القول بأن تشخيص رجاء النقاش لأبطال روايات نجيب محفوظ في هذه المرحلة الجديدة بهذه الكيفية، يعني بداية النهاية لاستخدامه لمنهج النقد التاريخي، وبأننا لم نعد في حاجة إلى أن نستظل بمظلة التاريخ لكي نفهم أو نفسر مشكلات هذا الجيل وقضاياه.

بعض الظن إثم

أظن - وبعض الظن إثم - إنه ربما كان رجاء النقاش قد بدأ - مثله مثل الكثيرين من العشاق - يتململ من عشق التاريخ دون أن يتخلى عنه، ولكن دون أن يقع أيضا في غواية الحاضر أو المستقبل!.

كان «الحاضر» آنذاك يقدم في مصر وعود النقد الجديد الذي يركز على دراسة النص، ثم بدأ بعد ذلك يقدم في الوطن العربي كله بروق ورعود «البنيوية» ثم توالت بعد ذلك بروق ورعود «التفكيك» و«التلقي» و«النسوية» وغيرها.

وحتى حين كتب رجاء النقاش مقاله الشهير في مجلة المصور عن رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» ثم كتب بعد ذلك ونتيجة لهذا المقال سلسلة مقالات تحت عنوان: «هل أصبح نجيب محفوظ عقبة أمام تطور الرواية العربية؟».

فلم يكن ذلك كله يعني أن رجاء النقاش قد تخلى تماما عن عشقه القديم للتاريخ أو أنه بدأ يغازل الحاضر والمستقبل!.

أظن مرة أخرى - وبعض الظن إثم - أن رجاء النقاش كان شديد الانتباه لما يجري من حوله، شديد الإصغاء والتحديق لما يحيط بالحياة النقدية من بروق ورعود تأتي من هنا ومن هناك، تومض هنا وتنطفيء هناك، شديد الإدراك بأن الحياة التي تحتوي الماضي والحاضر والمستقبل

هي في بداية الأمـــر ونـهـايـتـــه المـعــشـــوق الحقيقى للجميع، والتى يسعى الجميع كل من موقعه فى خط السباق، وبأدوات علمه وثقافته إلى استجلاء غوامضها والإمساك بتلابيبها عبر النظريات والقـــوانين والقواعد والأدوات التى تتطور وتتغير من جيل إلى جيل.

وأن بروق ورعــود البنيوية والتفكيك والتلقى، تنتمى إلى نظريات المعرفة، بقدر ما تنتمى إلى نظريات النقد الأدبى.

بعض الظن حلال

أظن - وبعض الظن حلال - أنه قرر بينه وبين نفســه أن يتابع ما يجرى من حولنا ، بعقله المستقل، بفكره النابع من تجربته بأدواته الخاصة جداً، واثقاً من أن ما يتبقى من هذه المتابعة سيصبح جزءاً من تجربته ومن أدواته ، ومن عقله ، وأنه من خلال هذا القرار وقبله ومعه أنجز كتابه الجميل ، "العقاد بين اليمين واليسار»، وكتابه الفريد «صفحات مجهولة من الأدب العربى المعاصر» عن علاقة أنور المعداوى وفدوى طوقان، الذى يبرهن فيه فرضا جريئا وصادماً لمن كانوا يعرفون أنور المعداوى معرفة شخصية ، ويستعين فى برهانه بكل ما أتيح له من أوراق وتحليل ومعرفة شخصية بكل الأطراف بعمق وجرأة وتواضع فى الوقت ذاته ، وكتابه عن رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمى الذى يناقش فيه أوجه التشابه بينها وبين رواية «وليمة لأعشاب البحر» لحيدر حيدر في مواجهة الشائعة التى راجت حول أن الشاعر سعدى يوسف هو الكاتب الحقيقى لرواية «ذاكرة الجسد» أو على الأقل هو من أبدع صياغتها النهائية .

فهذه الكتب الثلاثة هى ثمرة من ثمرات الفكر النقدى المستقل الذى يتسم بالجرأة والنزاهة والعمق فى هذه المرحلة وفى مجتمع تروج فيه أحيانا موجات من الأكاذيب والأوهام ، وأن هذه الحياة الغامضة والفاتنة والعاصفة والمتغيرة التى كانت قبل كل النظريات والقوانين ستبقى بعدها لتصحح وتراجع وتضيف ، فلم يمسسه رعب التخلف والتقدم .

أظن - وبعض الظن حلال - أن رجاء النقاش أدرك فى نهاية الأمر أن التاريخ سيبقى مصدراً لكنوز لا تنتهى ، وإذا كان من الممكن أن نميط اللثام عن بعض قوانينه ، وأن نعتبر مثل هذه القوانين من أثمن الجواهر فى خزائنه ، فإن متحف التاريخ يضم جواهر من نوع آخر ، وهي جواهر الشخصيات التى تمتاز بفرادتها، والمواقف التى تمتاز بندرتها، لأن عوامل فريدة ، قد لا تتكرر ، ساهمت فى

صنعهـا، ولأن الإرادة الإنسـانيـة ، وهى الميـزة التي ينفـرد بهـا بنو الإنسـان ، وتصل عند بعض أفراده الى ذرى عالية لا تملك القوانـين أن تنظم حركاتهـا أو تتنبأ بما يمكن أن تقـوم به ، قـد أسـهمت فى صنعها .

والتاريخ وحده هو الذى يقدم لنا مثل هذه النمـــاذج الفـــريدة ســـواء من الشخصيات أم من المواقف ! لننسج على منوالها أو لنتعلم منها!.

وأظن – وبعض الظن حــلال – أن رجـاء النقـاش حين عـاد ليكتب لنا تلك المقـالات البـديعـة التى قد تعني بالوقـوف أمـام مـا تراه فى قـوة القانون أو مـا تراه فى روعـة الفرائد التى قـد لا تتكرر ، قـد فـعل ذلك من فـرط حبـه للحياة ، قبل أن يكون من فـرط حـبـه للتـاريخ، ولعله من المناسب فى نهـاية هذا المقـال أن أتوقف قليـلا أمـام مـقـالين ظهـرا فى كتـاب رجـاء بعنوان «عـباقرة ومجـانين» الأول بعنوان، المقـصلة ليـست حــلا وهو عن الثـورة الفرنسية وفيه يشرح رجاء بتحليل بديع ثاقب منطق الثـوار الذين يلجـأون الى العنف. وكيف أنهم قد يفعلون ذلك بدوافع تبـدو فى غـاية النقـاء والطهـر والنبـالة ، بدعوى إنقـاذ مـبـادىء الثـورة ، وبدعـوى تحـقـيق غـد أفـضل لملايين الفـقـراء والتـعسـاء، ولكنه يكشف فى المقـال ذاته بأن طريق العنف المفجع لابد وأن تنتـهى بتدمير كل شيء ، وفى مقدمتها صانعوه والكثيـر من الأهداف النبـيلة التى كـان العنف يسعى لإنقاذها ! ..

وفى المقال الثـانى الذى كـتبـه رجـاء تحت عنوان «عـاقل بين مـجـانين» والذى يشرح فيه مـاذا حـدث «لتوماس بن» الأب الروحى للثـــورة الأمـــريكيـــة من أجل استقلال الولايات المتحدة وانفصالها عن التـاج البريطانى ، فـهذا العـبـقرى الذى كان من أصدق أصدقاء الثورة الفرنسية والذى ترك بلاده بعد أن نالت استـقـلالها وجـاء إلى باريس ليقف إلى جـوار الثـورة الوليدة مؤازراً ومعينًا ومبصرًا وهو الذى يملك تجربة بلا حـدود، ومن خلالها يحـاول أن يحـذر الثـوار من الاندفـا ع فى طـريق العنف بحـجـة حـمـاية الثـورة ، ولكن لا منطقه الرائع ولا تاريخـه المجيد ولا حـتى كـونه ليس واحــداً منهـم يمكن أن يكون طامـعـاً فى منصب أو سلطة، ولا سنوات عـمـره التى كـانت تمضى نحـو النهـاية الطبـيـعـيـة للبشـر، لا شيء من هـذا كله ينقــذه من جنون العنف المطبق، وتوشك سنوات عـمـره البـاقـيـة أن تنقضى بين جـدران السـجن لولا أن المقـصلة كـانت تواصل عملها فتقضى ضمن من تقضى عليهم على من سجنوه ! .

أما المقال الذى يصور أكثر اللحظات فرادة فى التاريخ فهو المنشور فى كتاب رجـاء النقـاش بعنوان «ملكة تبـحث عن عـريس» والمقـال نفـســه بعنوان «الزواج والانتحار فى ليلة واحدة» .

وفى هذا المقـال صـورة فـريدة لكيف يفكر عـقل بشـرى فى لحظة من لحظات الفزع العظيم .

كيف استجاب هتلر لرغبة عشيقته، «إيفـا براون» بـأن يحـتـفل مـعـهـا بزواج



رجاء النقاش في مكتب إحسان عبد القدوس مع زملائه فى «روزاليوسف» ويظهر فى الصورة صلاح جاهين - يوسف فرنسيس - فتحى غانم - كامل زهيرى - لويس جريس - جمال كامل

شرعى هو ومن بقى معه من القادة والجنود فى مخبئهم الحصين حين أصبحت النهاية ، نهايتهم ونهاية الحرب العالمية الثانية على بعد خطوات أو دقائق .. حين قرر هتلر أن ينتحر هو وعشيقته .... بعد الاحتفال بالزواج الشرعى بلحظات ..!

ومن أجل إقامة هذا الاحتفال استدعى وزير إعلام هتلر المعروف «جوبلز» أحد أعضاء المجلس البلدى فى برلين واسمه «وولتر واجز» وكان يحارب فى وحدة من وحدات العاصفة الشعبية على بعد عدة أبنية من ملجأ هتلر ، وقد قام هذا الموظف وهو مذهول مما يجرى أمامه بإجراء مراسم الزواج فى غرفة الاجتماعات. ووفقاً لوصف المؤرخ وليم شيرر لحفلة الزواج، وأقسم العروسان القسم المقرر فى الزواج الألمانى فى عصر هتلر والنازية وهو أقسم أننى من أصل آرى صاف .

كما أقسم الزوجان «هتلر» و«إيفا» أنهما خاليان من أى مرض وراثى يحول دون اتمام هذا الزواج ، وأصر هتلر أن يتمسك بالرسميات فملأ عقد الزواج بالكامل ، وبدأت عروسه توقع باسمها تكتب «إيفا بـ»ولكن سرعان ما توقفت لتشطب حرف الباء وتكتب «إيفا هتلر» المولودة باسم براون » ..

هل يمكن أن نجد خارج صفحات التاريخ مثل هذه الصورة الفريدة للعقل، وكيف يمكن أن يعمل فى لحظة من لحظات الجنون والهول العظيمين!..





د. محمد المخزنجي ◻

لم يوجه لي أحد الدعوة للكتابة في هذا العدد، ربما لأنني ممن يكثرون الاعتذار، وهو أمر يؤلمني أكثر مما يؤلم من اعتذر لهم، لا لشيء إلا خشية أن يذهب الظن بهم إلى اعتبار اعتذاراتي نوعا من العجرفة، وهو أمر لا أحبه في الناس ولا أحبه لنفسي، وكل ما هناك أنني لا أكتب إلا إذا تملكتني عاطفة قوية، وهو عيب - أعرف - من عيوب الفعالية لمن يختار الكتابة مهنة له أو سبيلا، لكنني لم أملك ولا أملك من أمري تغييرا، ولم أعد أحب أن أتغير، بل أقول في ذلك ما قاله باسترناك: «إن معركتي مع الحياة هي ألا أغير سنتيمترا واحدا من شخصيتي»، ليس احتفاء بهذه العاطفة المربكة، بل تسليما بأن الله خلق الناس مختلفين، ولا بأس أن تكون هذه خلقتي طالما أن هذه العاطفة لا تؤذي أحدا، وهذه العاطفة نفسها هي التي تجعلني أكتب الآن بلا دعوة، وأرجو ملحا من الهلال أن تنشر ما أكتبه، لأنني ممتلئ برغبة قوية في البوح بتاريخ حب عميق لرجاء النقاش، الكاتب والإنسان، ومن أنقذني دون أن يدري من قبضة معتمة خرساء، كادت أن تتوقف في عسر ظلمتها حياة الكاتب الشاب الذي كنته، منذ ما يزيد على عشرين سنة.

مواهب نادرة

ليس الامتنان الشخصي وحده هو ما يدفع كثيرا من القلوب لحب رجاء النقاش، بل هو الامتنان العام لكل تلك المباهج الروحية التي غمرنا بها كقراء وكتاب. فهو ناقد كبير حباه الله بمواهب نادرة نلمح فيها ذكاء الروح والعقل معا، وقدرة على التوصيل والتواصل عبر الكتابة لا يمتلكها إلا آحاد في تاريخ الكتابة العربية، وهو في كل ما كتب يغمر قراءه بفيض من النور الدافئ يشي بسر رحمة جميلة أو جمال رحيم يتحلى به قلب الكاتب، فتصل رسالة مباشرة إلى الروح، وهل الأدب إلا نشاط روحي؟! إنه كاتب يحبه الله حتى يمنحه هذه الهبة النادرة من الحساسية بالغة الرهافة والرؤى الثاقبة في اكتشاف الجمال والجميل، ثم إرسال ذلك كله بسلاسة رفيعة وود بديع، لمن يواتيه الحظ الحسن بإدراك رسائل ذلك الرجاء المضيء.

وجه رجاء

منذ عشرين سنة كنت أدرس الاختصاص الطبي في الاتحاد

◻ قاص وكاتب

السوفييتي السابق، وكنت قد أحرقت كل مراكبي فور هبوطي إلى هذا الشاطئ الذي كان داخلي حلما إنسانيا للعدالة الاجتماعية، وفضاء فسيحا ترف فيه أرواح من أحببتهم كثيرا منذ صباي: تشيخوف وديستويفسكي وتولستوي وليرمنتوف وجوجول وجوركي وتورجنيف وبولجاكوف. كما كان هذا الشاطئ وعدا برقي علمي تعرفت عليه قبل سفري في الأدبيات الطبية لبافلوف وكورساكوف وفيدتوف وسوخاربسكي، وغيرهم من أساطين المقاربة البيولوجية في الطب النفسي. أمام حلم بهذا الحجم تركت الوظيفة التي لم يمنحني حقد بيروقراطيها إجازة مشروعة لمنحة لم تكلف الدولة مليما. وتركت مساحة منحها لي تحقق أدبي بازغ في بلدي، وأدرت ظهري دون ذرة من تردد لمنحة أمريكية براقة لدراسة وتدريس الأدب في الولايات المتحدة. وجدت في الشاطئ الذي كنت متلهفا إليه معرفة علمية رائعة في مجال اختصاصي، ووجدت الأرواح التي أحببتها روحي ترف عاليا في فضاء ذلك البلد الشاسع، لكنني وجدت عتمة كئيبة من الكذب والاستبداد والفساد تنغرز في قلب كل شيء طيب لتقتله بسهامها المسمومة. كانت كفة الحسرة تربو على كفة العزاء، فصرت أمشي بين الأحياء في ذلك الصقيع الغائم وأنا مسكون باكتئاب مميت. اكتئاب لمحه هناك صديقي الدكتور إيمان يحيى، وظل يترصده بقلب الإنسان الطيب والصديق المخلص، حتى إنه فزع يجري وسط الثلوج عندما لمح شيئا معلقا كالمشنوق لاح له من بعيد وراء زجاج نافذتي المطلة على الشارع، ولم يكن خاطره بعيدا عن غور اليأس الذي استبد بروحي آنذاك، وفي هذه العتمة أطل عليّ وجه رجاء النقاش فمنحني نورا ملأني بفرح تعجبت كثيرا كيف كان خافيا عن بصيرتي. وإني لمدين بهذا الفرح حتى آخر تحقق جميل يمكن أن اهتدى إليه.

لم أكن قابلت رجاء النقاش أبدا، ولا كنت أظنه يعرفني، وكان كتابي «الموت يضحك» قد صدر وأنا في تلك الأيام هناك لا أدري بصدوره، وحضر زميل من إجازة في مصر التي كنت لا أستطيع السفر إليها ولا أمتلك تكاليف ذلك السفر، وفاجأني بهدية من حبات المانجو المصرية العبقة وعدد من مجلة «المصور» ضمن بعض المطبوعات المصرية، ولا

المضىء

أعرف لماذا أجلت تصفح مجلة «المصور حتى صرت وسط غابة من غابات شجر البريوزا الموحية جذوعه الفضية بضفاء بديع مهدهد، والذى كنت ألجأ إليه كنوع من العلاج النفسى بجمالات الطبيعة. وما أن بدأت فى التهام السطور التى كتبها رجاء النقاش عن كتابى الذى صدر فى القاهرة دون أن أراه، حتى تهاويت بين الأشجار، أكملت قراءة المقال المحب بصعوبة عبر فيض الدموع، لم تكن تلك إلا دموع تطهر غسلت وجهى وروحى يومها. هدية مباركة من الناقد الذى كنت لا أرى نفسى كاتبا إلا بأن يلتفت إلىّ هو، هو تحديدا رجاء النقاش الذى قدم لنا سيدنا وتاج رأسنا الطيب صالح، وعرفنا بالرائعين محمود درويش وسميح القاسم وإميل حبيبى، وكشف لنا عن القلب الحسن لنجيب محفوظ، والموهبة الوهاجة ليوسف إدريس.

رجاء النقاش عندما يمنح أى كاتب ولو شعاعا واحدا من بصيرته الثاقبة فإنه يضيئه، ولقد أزاح الشعاع الذى منحنى إياه فى تلك الغربة البعيدة التى كانت قابضة للروح زادا من النور جعلنى أواصل، أواصل حتى العلم الذى كنت أدرسه، لأنه منحنى طمأنينة وقوة أننى أديب، وهو أمر أوشكت أن أنساه تماما فى غمرة اليأس المظلم فى تلك الأيام البعيدة هناك. ولا أزال حتى الآن، وهنا، أدين فى استمرارى لذلك الشعاع البعيد الذى منحنى إياه «المضىء رجاء النقاش» وما أبهج وأعجب أننى عندما حظيت بلقائه لأشكره بعد ما كتبه عنى بما يقارب العامين، أن أجده مضيئا بالفعل، مضيئا بذلك الوجه الطيب الودود، وتلكم العينين، الخضراوين اللامعتين ببريق من صدق وحدب، إنه مخلوق جميل مضىء، أقبل جبينه، وأغالب خجلى الأزلى المربك لأقبله من جديد، وكأننى نسيت أن أقبله بما يكفى، وبما يستحق.


للفنانة دينا جمال

صلابة الفولاذ ورقة النسيم



فريدة الشوباشى

مثل معظم العلاقات الإنسانية يظل المرء يكتشف ويكتشف، يتوقف فى محطات كاشفة.. يغوص فيها ليحدد. من منظوره الخاص، الفصيل الذى ينتمى إليه الإنسان مثار البحث والاكتشاف.. ورجاء النقاش ظل بالنسبة لى سطورا أقرأها وأتمعن فيها، وكنت دائما أتساءل كما كتبت فى عام ٢٠٠١، إننى ما من مرة قرأت لرجاء النقاش إلا وثار فى ذهنى ذات السؤال: كيف يجمع هذا الرجل النادر بين صلابة الفولاذ والقوة الخارقة فى الدفاع عن الحق، وعن كل القيم المتصلة به، وبين رقة النسيم وهشاشة الغصن الغض، الذى لا يتحمل أى إيذاء كان، بل ولا يتحمل الآخرون الأسوياء إيذاءه.. كيف يعيش فى رجاء النقاش مقاتل شرس لايثنيه عن قناعاته تهديد أو وعيد أيا كان «السلطان» وكتلة من الرقة والحياء، يستبد به القلق والخجل اذا نمت إلى أذنيه عبارة مديح أو بالاحرى عرفان بجميل عطائه لنا.

أعتقد أن سر قوة رجاء النقاش وصلابته هو زهده العجيب فى كل مغريات الدنيا، إنه يقول كلمته ويمضى دون انتظار لشكر أو جزاء.. وأيضا - دون خوف أو رهبة، ما دام يعتقد فيما يكتبه. ومن هنا لم يكن غريبا أن يثور البعض، وما أكثر المتشدقين بالديمقراطية منهم، لنقد النقاش لأنه يعلم أن قلمه يحظى بمصداقية نادرة.. وأنه.. علم من أعلام حياتنا الثقافية والأدبية.. وإذا قلنا رجاء النقاش، فنحن نقول حياة حافلة بالعطاء، وكأنه نهر كريم يمنح ولا يأخذ .. لذلك كانت فرحتى عميقة وشديدة بحصوله على جائزة الدولة التقديرية والتى أعتقد أنها تأخرت كثيرا.. وكان حصوله على الجائزة مناسبة ليفتح قلبه، وليسمح لى بالغوص فى حياته الحافلة الثرية وما تخللها من محطات ومعارك، وأردت من خلال محاولة الغوص تلك أن «أكمل» الصورة التى أخذت بعدا إنسانيا شديد العمق أتاحها وجوده فى باريس مع الصديقة العزيزة، السيدة قرينته الدكتورة هانية عمر. و«الوجود» فى الغربة يضفى كثافة على الأيام والساعات والدقائق.. لا تتوفر فى زحام الحياة فى الوطن ومشاغلها الكثيرة ومشاكلها الأكثر عبئا.. قضينا ساعات وساعات حققت الاتصال الذى بدأ فى القاهرة قبل سفرنا (زوجى الكاتب الراحل على الشوباشى وابنى

□ كاتبة وإعلامية

نبيل وأنا)، وعمقت جذور العلاقة الإنسانية إلى حد أصبح عصبيا على أية هزات وأضاءت جوانب فى العلاقة ما كان يمكن أن تتحقق إلا فى جلسات حميمية. جلسات فضفضة تتسم بالصدق والصداقة والأخوة والمحبة، ازداد قدر رجاء النقاش عندى وكلماته النبيلة فترجمتها نظرات عينيه بنفس الصدق والنبل.. استمتعت وأنا استمع بشغف وشوق إلى محطات هذا الرجل الفريد وكيف صقلته «الصدمات» فى المثقفين والمبدعين، كما قال لى فى حوارى معه «للعربى» بعد أن اقتربت بصورة واقعية من الحياة الأدبية والفنية والثقافية. أخذت التجربة تعلمنى أن ما كان فى ذهنى عن ملائكية الأدباء والمفكرين والفنانين هو لون من ألوان الوهم والخيال، واتضح من التجربة أن الثقافة هى مهنة من المهن. فيها الطيبون وفيها الأشرار، وأن المسرح الثقافى ملىء بما فى الحياة نفسها من الصراعات القاسية، وأن «التنافس» بين الأدباء والمفكرين والفنانين يلعب نفس الدور الذى يلعبه فى مجالات الحياة الأخري.

أوجز النقاش بحسه النقدى النافذ، وبرؤيته الثاقبة الموضوعية «الحياة الثقافية» وأيقنت، بالتجربة صدق كل كلمة قالها.

مع الجمال الفاضل

ويعدد رجاء النقاش «الأدباء والفنانين» ويصنفهم ليخلص إلى أنه «يحب *الفنان* الموهوب صاحب الشخصية الإنسانية الجميلة ويغفر للفنان صاحب الشخصية المضطربة ، إذا كانت هناك أسباب قوية تبرر هذا الاضطراب وتفسره، ولا يغفر بينه وبين نفسه لمن يتعمدون الشر» باختصار. فإن عدو رجاء النقاش الوحيد والحقيقى هو الشر وأصحابه.. إنه مع الجمال الفاضل ولا يحب «التجريح» حتى لو كان مرتكبه غزير الموهبة .. وحتى تقترب موضوعيته من *الأمانة المطلقة*.. عزل نفسه فى صومعته. بين كتبه ومراجعه - وقال «أفادتنى هذه العزلة كثيرا فى الاقتراب من الأعمال الأدبية بعيدا عن العلاقات الشخصية التى يمكن أن تؤثر فى الأفكار والمشاعر، وخلاصة ما أحب أن أقوله هو أننى أبذل جهدا كبيرا *للسيطرة* على نفسى حتى لا أتأثر بأى مشاعر سلبية وشخصية فى أى موضوع، وعسى أن يقرأ أدباؤنا وفنانونا ونقادنا «درس» رجاء النقاش البليغ الذى لا يطيق الكذب علي نفسه أو على الناس ولا يتحمل مخالفة الضمير الأدبى من أجل إرضاء أحد، وفى المقابل فإننى أتحمل نتيجة آرائي.

يقول النقاش ، مهما كانت النتيجة مؤلمة - ويواصل بدرس ساطع فى التواضع - الشرط الأساسى أن أكون صادقا مع نفسى ، ولا أضمن أبدا أننى أكون دائما على صواب، فإذا تبين لى فى أى لحظة أننى أخطأت، تراجعت عن الخطأ دون تردد. ويذكر النقاش من بين رواد النقد الذين أحبهم الدكتور محمد مندور والدكتور عبدالقادر القط، وكيف دفع الرجلان ثمنا فادحا لمواقفهما

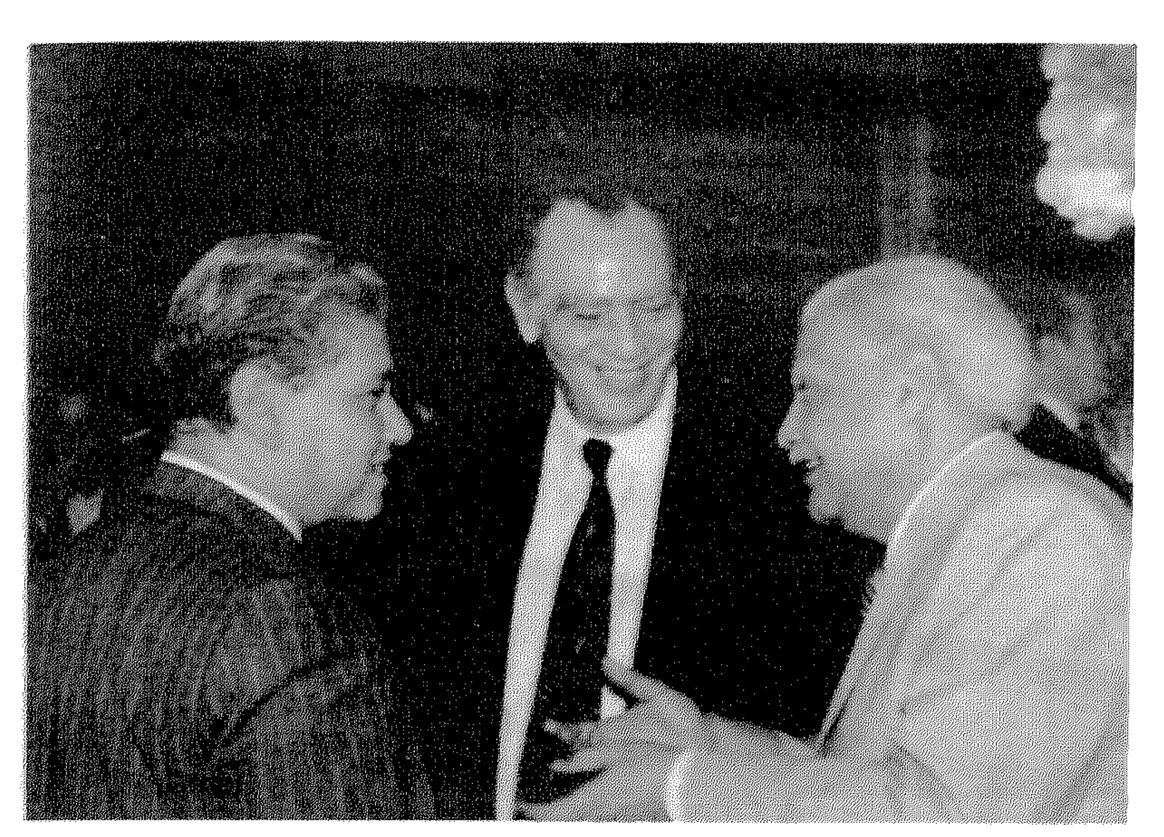


مع فريدة والفنان عادل إمام وخالد عبد الرحمن الخميسى

الشريفة والموضوعية ، وتحملا التهم الجاهزة من بعض رجال السلطة.. يلقى النقاش الضوء على ما عاناه عام ١٩٧٣، وكيف أن محمد عثمان إسماعيل محافظ أسيوط ومستشار الرئيس السادات كان من الصانعين الأساسيين لجماعات التطرف الدينى، وأنه أقنع السادات.. بإنشاء هذه الجماعات لمحاربة الناصريين وسائر اليساريين !! والبقية معروفة فقد أودت «نصائح» المستشار بحياة الرئيس السادات على أيدى هذه الجماعات.. ويروى النقاش كيف دمر يوسف السباعى ورشاد رشدى الدكتور محمد مندور فى نهاية حياته، لأنه قال رأيه فى أدبهما بشجاعة، وكيف أدت تقارير سرية قدمها أدباء ضد د. عبدالقادر القط إلى حرمان الرجل من منصب الوزارة.

صمت !

لرجاء النقاش معارك مع عباس العقاد الذى هاجمه بقسوة، وكيف قاطع السباعى الاستاذة أمينة السعيد بسببه، حيث رأى السباعى فى صمت النقاش حيال أدبه فى الوقت الذى وصل فيه إعجابه بأدب نجيب محفوظ إلى حد الفتنة، موقفا عدائيا.. ويبدو الصمت هنا أشد بلاغة من الكلام!! تحدث النقاش عن مصر التى ضاقت به فى عهد الرئيس السادات والتى عاد إلى أحضانها فى عصر الرئيس حسنى مبارك .. وكيف وهو ابن إحدى قرى المنصورة قد عانق القاهرة بل وأصبح قاهريا بعد تعرفه بأمير الصعاليك زكريا الحجاوى، وبعد أن فتح عبدالرحمن الخميسى «القديس» أمامه قاهرة الأدباء.. وعن الخميسى يقول رجاء النقاش: إن الخميسى كان دائما



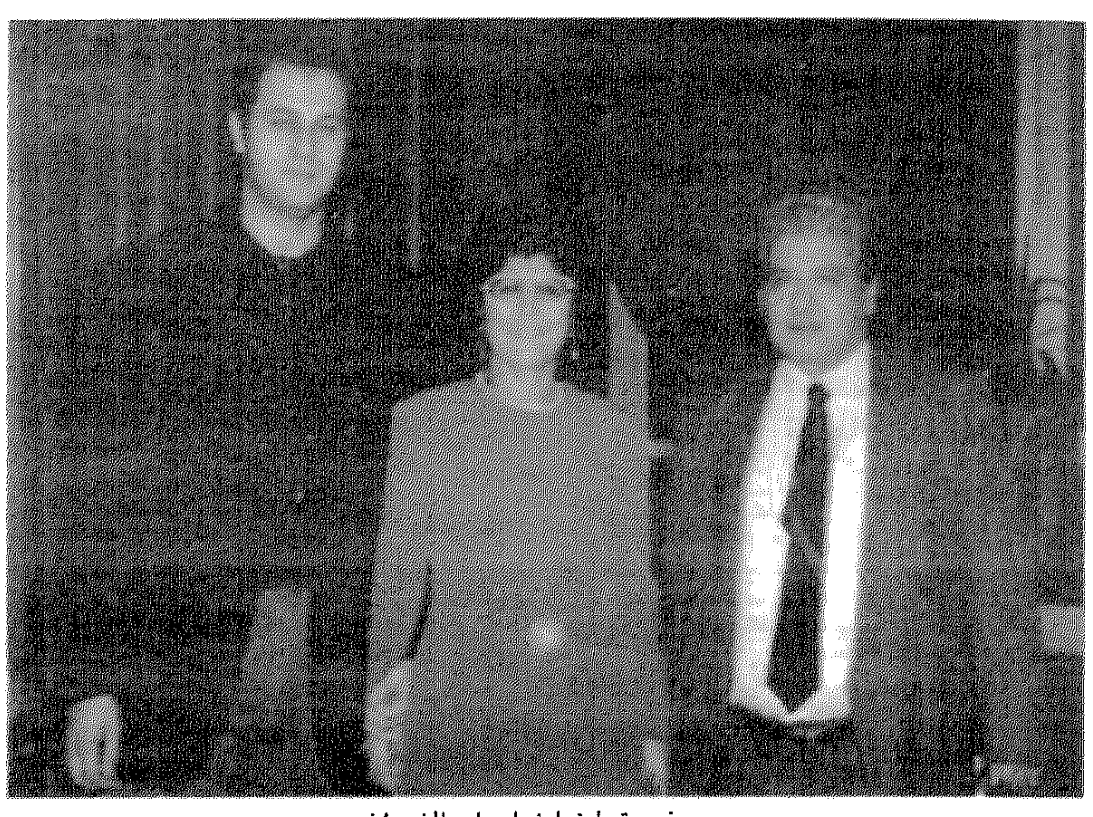
.. ومع محمد جلال وعلى الشوباشى

مفتوح القلب والمكتب.. لم يكن الخميسى من الأثرياء ولكنه كان من الأقوياء.. لقد ذهبت به الدنيا يمينا وشمالا ودخل السجن وخرج منه، وخاض تجارب تكفي مائة رجل، وعن صلاح جاهين قال: كان فنانا حرا، إنسانيا. لا يتقيد بالنظريات تقيدا حرفيا فى أى شىء ، اعتماده على شعوره الصادق ووجدانه الحساس. صلاح جاهين كان دكتوراه فى الثقافة والفن رغم عدم حصوله على شهادة جامعية.

كنز من الذكريات

إن رجاء النقاش كنز من المشاعر الجميلة النبيلة ومن الذكريات .. فلا ينسى أحد كيف «اكتشف» أو بالأحرى قدم للجماهير العربية شعراء فلسطين المحتلة خاصة سميح القاسم الذى سمى النقاش ابنه سميح على اسمه ، ومحمود درويش، وكذلك عرف قراء العربية قدر ومكانة الروائى السودانى الطيب صالح من خلال كتابات النقاش الذى كتب عن هؤلاء وغيرهم الكثيرين، قبل أن يعرفهم أو حتى يراهم بكثير.

فى حواره، قال لى ياعزيزتى فريدة الشوباشي.. أنت فتحت فى عقلى وقلبى بابا كنت أغلقته منذ سنوات بعيدة بالشمع الأحمر لكى أتفرغ لمعارك الحياة الأخرى ومتاعبها الكثيرة التى تلاحقنا ، والتى أحاول أن أخرج منها بأقل الخسائر .. وصدقينى إذا قلت لك إننى لم أعد أعبأ بالخسائر التى تتعلق بى شخصيا، فقد نفضت يدى من كل الآمال الكبيرة والطموحات العالية، ولم أعد أشعر بأى رغبة إلا فى أن أعيش إلى



.. ومع فريدة وابنها نبيل على الشوباشى

جانب أى حائط من حوائط الله فى هذه الدنيا.. وكل ما أحرص عليه هو آن يكون فى نفسى «سلام، وأن أبتعد فى استبسال شديد عن كل ما يخدش «كرامتى» .. فأنا أتحمل أى عذاب فى الدنيا إلا حكاية «الكرامة المهانة والمجروحة، ولعل انسحابى من الحياة العامة فى السنوات الأخيرة يعود إلى رغبتى فى تقليل المناسبات والظروف التى قد تعرضنى لما يجرح كرامتى بصورة أو بأخرى.. فالوحدة والعزلة وكل ما يترتب عليهما من خسائر أفضل عندى ألف مرة من كرامة مجروحة أو كلمة غير مريحة أسمعها من هنا أو من هناك، أو تصرف ينطوى على الخيانة والغدر ويفاجىء الإنسان ويطعنه فى قلبه بخنجر مسموم.

شعرت للحظة أن رجاء النقاش، الذى يحمل نفس شاعر وقلب ملاك، لا يعرف قدره أو مكانته عند القراء عموما وبصورة أعمق عند المقربين منه.. والذى يعرف رجاء النقاش عن قرب لا يمكن أن يفقد إيمانه بأن الدنيا بخير. وهو يرى رجلا يبذل اهتماما وجهدا مضنيا، ليدخل السعادة أو ليساعد أبسط الناس الذين لا يملكون جاها ولا مالاً.. وجوهر الإنسان ومعدنه النفيس يظهر جليا مع «الصغار»، وكيف يتعامل معهم وكيف «يشكر» هو - طالب الخدمة أو المعونة، لأنه أتاح له أن يمارس «طبيعته» ومازلنا فى انتظار ما فى جعبته من كنوز ومازالت المواهب الباحثة عن راع تتطلع بقلوبها وعقولها إلى هذا الصرح المصرى العربى العظيم.. رجاء النقاش.. فكلماته عن أى عمل أدبى شهادة اعتماد لصاحب الإبداع.

تهريب الحوذيات من الجنة

مهداة إلى رجاء النقاش

عبدالمنعم رمضان □

فيما مضى من الريحِ
فيما مضى من أوراق البردى
فيما مضى من الحمامِ
وشجرِ التوتِ
وأعشاشِ النَملِ
فيما مضى من كلِّ بهوٍ
كنتُ أخطِّطُ للبحثِ عن أيقونةِ جدِّى
وعن رئة أبى
وقفت على سورٍ عالٍ جداً
هززتُ قدمىَّ
التفتُّ إلى المرايا الجوفِ
والمرايا المعتمة
كانت السماءُ تَحتى
كانت المراتُ التى تفصلُ الليلَ عن الليلِ
وكان ظلامٌ غُفْلُ
وكانت حقبٌ مائلة
وحقبُ أخَرى تعتدلُ
وكان الناسُ مثل أحفادِهم
ومثل الوقتِ الضائع
ومصابيحُ الشرَفة تنوى السطو على ما يبقى
كانت حافةُ الرَجاءِ
قرب حافةِ جسمىَ
انتظرتُ
هززتُ أنقاضى وقدمىَّ
نظرتُ إلى الأعلى
رأيت فيما رأيتُ ضباباً
رأيتُ خيولَ أعداءٍ تنهبُ الرملَ ولغتى
وخيول أعداء لا تنهبُ الرملَ ولغتى
رأيت سقفاً كأنه سقفانِ
يليه سقفُ كأنه سقفانِ
يليهما السديمُ الذى
كنتُ أظنه السديمَ
احتميتُ بالأودية التى حول جسمى
وبالشمس الهاربة داخل ظلامى
لم أستطع أن أنزع الخوف من دمى
لم أستطع أن أنزع الندى
كانت المتاهاتُ تظهر لى وتختفى
وسقفُ الصدى يظهر لى ويختفى
استعنتُ على نفسى بالآمالِ الجائعةِ
استعنْتُ عليها بالأمثالِ
وعهدِ الراحة
ونشيدِ الإنشَاد
استعنَتُ على نفسى بالصمتِ
والآثار البائدة
خلعتُ أصابعىَ من كفىَّ
غرستُها فى أطرافِ الأرضِ

□ شاعر وكاتب

بعد قليل من اليأس
بعد اليأس
رأيت خيالاً يمشى
ورأيت أجنحةً تتكاثرُ بين يديه
رأيتُ الرجاءَ على حدودى
والغابةَ على حدود اليأسِ
فالتجأتُ إلى الأيام الأولَى
فيما مضى من الحيرة
فيما مضى من أوراقِ البردى
فيما مضى من كلِّ بهوٍ
نزلتُ عن سورى العالىِ جداً
بحثتُ عن رواق الفصول الأربعةِ
بحثتُ عن الزغبِ المكسوةِ به روحى
وعن الحشرات الناعمةِ
وعندما ضللتُ طريقى
رأيتُ الخيالَ نفسه
الذى رأيتهُ منذ سطورٍ يمشى
ورأيتُ الأجنحةَ التى تتكاثرُ بين يديه
وقبلَ أن يخصَّنى بالنعمةِ
كنتُ قد تشبثتُ بثيابه
وعرفتُ أنه الوحيدُ الذى سيقودُنى إلى الجنةِ
سألتهُ : ما اسمُك
فاستدار إلىَّ ، جذبنى من لسانى
وبعد أن اجتزنا العتبة والردهة
بعد أن اجتزنا البابين الخامسَ والسابع
بعد الحديقة
بعد مزرعة الحوريات
استطعت أن أشمَّ رائحةَ يدهِ
استطعتُ أن أتوق إليها
أن ألثمها
أن أمحو خطواتى، وأغمغم،

لا شىءَ لا شىءَ
لن أتكلم مثل العاصفةِ
لن أتكلم مثل الحنينِ
ثم استطعتُ أن أخرجَ
وورائى الحوريّاتُ
وعند منتهى البابِ
عرفتُ أننى الوحيدُ المنبوذ من خلاياى
أننى الطاغيةُ
والعميلُ السرّىُّ
والخائفُ
والمخبولُ
وأنه الوحيدُ الذى سيقودُنى إلى نفسى
سألته: ما اسمُك
فاستدار إلىَّ ، جذبنى من حلقى
وحمل عصاه
اتجه فى كل مكانٍ
فيما مضى من الريحِ
فيما مضى من أوراقِ البردى
فيما مضى من كلِّ صوت
كنتُ أبحثُ عن نداءٍ ما كانٍ بعيداً
كنتُ أبحث عن القادرِ
أن يكون غيمةً فى السماء
وغيمةً فى الماءِ
وأن يكون عمودَ نورٍ
وأن يكون قبطان الأيام القادمة
والذى يحملُ عصاه
والذى هو هو
والذى أنا أنا
والذى لا تخشاه الحورياتُ
والذى لا يفنىٍ
الذى لا يضيعُ



الرسم للفنانة نسرين بهاء

الذى ليس الرجاءُ قبله
الذى ليس الرجاءُ بعده
الذى يتجه إلى كلِّ مكان
الذى سوف تحرسُه الحوريّاتُ
سوف تُغنيِّ معه الحورياتُ
سوف يُغنى مع الحنين الخام
الذى سوف يغنى مع سارق الحوريات

أغنية سارق الحوريات

لو لم تكن شفتى
لو لم تكن أرضى ومزرعتى.
لو لم يكن فى البيت مارغبوا
لَوَهَبْتُهم أسرارَ أغنيتى
لو أنَّ مصباحيِ الذى عبثوا
بضيائه ، لو أنَّ محبرتى
هذا إذَن بيتى وأغطيتى
هذى سراديبى وأوديتى
وشِعابُ مملكتى
هذىَ جذوعى كنت أقطعُها
كالمستجير، وهذه رئتى
وهناك أشعارى وألويتى
وهناك معصيتى
وهناك أهلى يسهرون معى
وهناك بعض دمى وأشرعتى
وهناك أستاذى يعلِّمُنى
أن أختفى وأُشيدَ صومعتى
فإذا أراه تخافُنى لغتى
وإذا أراه أخافُ من لغتى
وإذاه قبل الفجر يمنحُنى
تاجى، وبعد الفجرِ أوسمتى
وحدودُه تمشى على مهلٍ
جهةَ الملاكِ العذبِ أو جهتى
لو لم يكنَ ، لو لم يكن دمُهُ
مثل الرجاءِ ومثل أخيلتى
لو لم تكن شفتى
لو لم يكن قلبى وأغشيتى
ومياهُ حنجرتى
ما كان لى صوتى ومنزلتى.

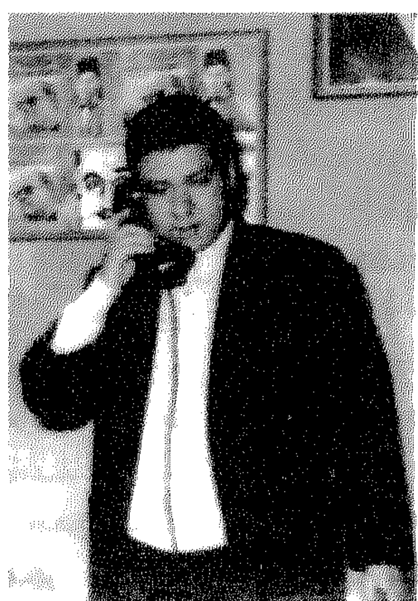
طوق نجاة



رجاء النقاش أخ لى.. أخ أحبه واحترمه وأقدره، واعتبره - بالنسبة لى - بمثابة «طوق نجاة»، وهو من النقاد المهمومين باكتشاف الموهوبين وحمايتهم والدفاع عنهم، وأذكر أنه نشر لى فى دار الهلال مسرحية «إنت إللى قتلت الوحش» وهى مسرحية كان من الصعب نشرها وقتئذ، وكان من المُمكن أن تتسبب لى ولرجاء فى بعض المتاعب والمشاكل ولكنه فعلها ونشرها.

إن رجاء يستحق لقب ناقد بامتياز، وأعتقد إن أهم مقياس هو البحث عن الإنسانية فى العمل الفنى، رجاء النقاش هو ذات نفسه «عمل فنى» وميزة رجاء أن علاقته بالمبدعين لم تكن علاقة ناقد بمنقود أو أستاذ بتلاميذ، ولكنها علاقة حبيب بمحبوب، وكأن بينه وبين من يكتب عنهم غراما حقيقيا فهو يسعد بالشخص الموهوب ويشعره بذلك ولا يمن على أحد بشىء، ويساعد الآخرين حتى على المستوى المادى.. إنه بالفعل بمثابة «طوق نجاة» لى وللآخرين، يكفى طريقة ترحيبه بالمبدع الجديد وكأنه مشروع لمبدع كبير، وعندما يكتشف فيه شيئاً جديداً لا يكف عن الدفاع عنه ويتحول إلى صديق له على الفور.

أنا لا أتفق مع من يروجون بأن النقد ليس عملية إبداعية، وأرى أن النقد فى حد ذاته عملية إبداعية مضاعفة لأن النقد ليس عملية تحليل وتقويم للعمل ولكنه محاولة لإغراء القارىء المتلقى وإقناعه بوجود عناصر جديدة داخل العمل لم يلتفت إليها أحد وهذا إبداع فى حد ذاته، لأنك لن تستطيع إغرائى واقناعى بشىء ما لم تكن مبدعاً عظيماً.



رجاء - على المستوى الإنسانى - شخص لا نظير له، لدرجة أننى أعتقد إن أعظم كتبه هو «رجاء نفسه» وبالتالى نستطيع أن نصفه بأنه أعظم كتاب يمشى على قدمين!!.

□ كاتب ومؤلف مسرحى

ما أجملك



فريدة النقاش □

قبل عامين طلب منى الصديق العزيز «مصطفى نبيل» رئيس التحرير السابق «للهلال» أن أكتب عن شقيقى رجاء فى عيد ميلاده السبعين وكتبت عن «رجاء المحب الغاضب» إذ وقفت طويلا أمام عاطفته الجياشة وحساسيته الإنسانية العالية، وبصيرته الثاقبة وغضبه من البؤس العام وبخاصة بؤس الفلاحين الذى كان بوسعنا أن نتعرف عليه وجها لوجه فى قريتنا منية سمنود - دقهلية. وقد زرع هذا البؤس فينا وفيه على نحو خاص خوفا طاغيا من المستقبل كان قد تراكم فى الأصل من تجربتنا القاسية كأسرة فقيرة كبيرة العدد حاربت من أجل أن تعلم أبناءها، ولاحقتها البلهارسيا منذ الطفولة وخطفت تداعياتها أمنا وهى فى عز شبابها وحاجة أطفالها لها ثم حوم الموت بسببها مرة أخرى ليخطف «وحيد» الشقيق الأصغر مباشرة من «رجاء» وتوأم روحه وجرحه الغائر الذى لم يندمل أبدا.

حين هاجرنا إلى القاهرة حتى يلتحق هو بالجامعة فى مطلع الخمسينات من القرن العشرين ظل يعمل ويعمل ويعمل وهو دون العشرين من العمر صحفيا بالقطعة فى عدد من الصحف والمجلات إلى أن شارك بأفكاره وخياله الخصب فى تأسيس جريدة الجمهورية لتنطق باسم ثورة يوليو وحينها بدأت حياته الصحفية المنتظمة.

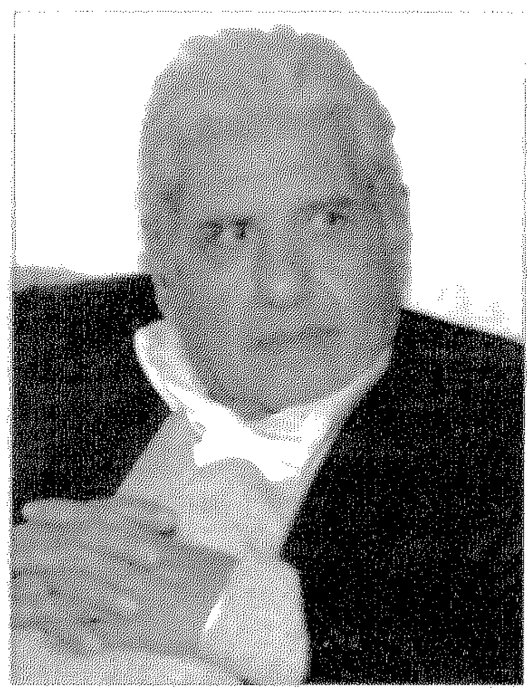
وحين أريد أن أصف أسرتنا فى ذلك الزمن أتخيلنا ونحن نقف فى وضع الاستعداد لتلقى الضربات والدفاع عن النفس والخروج من الدائرة الجهنمية للفقر وشح الامكانيات ومع ذلك تعلمنا الاجتهاد دون أن يعظنا أحد، وأخذنا نتطلع إلى رجاء كقدوة ساعين نحن إخوته الصغار لأن نكون فى قامته وعلى مثاله.

أذكر أننى حين استمعت لصوته فى الراديو لأول مرة وكان يتحدث عن «فرانسواز ساجان» وروايتها الأولى «صباح الخير أيها الحزن» بكيت فرحا ومنحت لنفسى وعدا خفيا أن أكون كاتبة بعد أن كان هو قد ملأ بيتنا الصغير بالكتب مجددا لأننا كنا قد بعنا مكتبة أبى الكبيرة فى واحدة من الأزمات المالية التى اعتدنا مواجهتها:

حين افترقنا على الطريق ليؤسس كل منا حياة مستقلة فاخترت أنا أن أخوض

□ كاتبة وناقدة

في عالم السياسة واختار هو أن يتفرغ للأدب، غضب مني لا لأنه يرى لا جدوى من السياسة وإنما خوفا على من البطش ولهذا اعترض على زواجي من «حسين عبدالرازق» لأنه «هايو ديني في داهية» وسرعان ما أصبحا صديقين، هو وحسين.



انشغل «رجاء» في كتابته وحتى في حياته اليومية بالأسئلة الوجودية الكبرى عن السعادة والرضا والتناغم في هذا العالم، ولو أن أحدا التفت إلى تدوين ما يقوله حتى في السهرات العائلية لخرج بكنز من الأفكار والرؤى الثاقبة والحكمة المغلفة بحزن شفيف لأن الخلل القائم في هذه الدنيا بين الأقوياء والضعفاء يلوح كأنه قدر لشدة ثباته.

صحيح أنه لم يؤسس صالونا كما سبق أن فعل الكتّاب الكبار لكن بقيت صحبته لكل الذين عرفوه متعة فكرية وإنسانية بالغة الرقي ونادرة. حين سألني باحثون شبان يعدون رسائل جامعية للماجستير والدكتوراة عن أعماله احترت أي مدخل يا ترى أنصحهم به.. هل هي مدرسته النقدية وقوامها اكتشاف المناطق المخفية في النص واضاءتها من الجوانب كافة حتى يصبح النص النقدي إبداعا يطاول الإبداع المدروس، فقد نفر «رجاء» دائما من تعقيد لغة النقد وتحويلها إلى لوغاريتمات وأحاجي تعزل كل من النقد والإبداع.. وطالما قرأ الأعمال بروح محبة.

وهل أنصحهم بالتعامل مع كتابة السيرة المبتكرة التي أدخلها هو إلى الأدب العربي الحديث مازجاً بين رحلة الحياة ورحلة الفكر وحتى تقلبات هذا الفكر في الأعمال التي أنجزها وفي سيرة الذين اختارهم وكانوا محظوظين لأنه كتب عنهم. وهل.. وهل..

بوسعي أن أكتب كثيرا جدا وأنا أستدعي حكايات حياتنا الغنية بما فيها من أفراح قليلة وآلام عظيمة. فعلى امتداد هذا العمر لم تكن أفراحنا والامنا تخصنا وحدنا، بل كانت تخص الأصدقاء والوطن والأمة العربية والإنسانية كلها. كانت الثقافة قد حولت الشأن العام في حياتنا إلى هم شخصي..

إنها الثقافة التي جعلت من شقيقي «رجاء» هذا الإنسان الجميل بكل ما له وما عليه بروحه الساخرة العذبة حتى في مواجهة المرض الذي يقاومه ببسالة وقوة في الروع تثير الإعجاب والدهشة.. فيا «رجاء» الحبيب ما أجملك.

أعصاب عارية وقلب جنون



فكرى النقاش ◻

الكتابة عن رجاء النقاش أمر شديد الصعوبة خاصة بالنسبة لى ، فمن أين يمكنني أن أبدأ الحديث عن هذا الرجل، فالعلاقة بينى وبينه شديدة التعقيد والتركيب، فهو ليس أخاً كبيراً ولا هو مجرد أستاذ تعلمت منه الكثير فحسب، بل إن الأمر ليصل إلى حد أننى لا أستطيع أن أحيط إحاطة تامة بعناصر هذه العلاقة المركبة، ولكننى سوف أحكى شهادتى عن هذا الرجل التى رأيت تفاصيلها من موقع قريب، وارتبطت تفاصيلها بتفاصيل حياتى ارتباطاً وثيقاً.

لقد كان رجاء أباً ثانياً حتى قبل وفاة أبينا ، فمنذ طفولتى المبكرة وأنا أرى رجاء يعمل ويكدح وهو مازال طالبا ، ففى ذاك العام يتم رجاء ثلاثة وخمسون عاما من العمل فى الصحافة مقابل أجر دورى ، ففى سنة ١٩٥٣، وكما حكى فى أحد مقالاته، كانت أسرتنا فى أمس الحاجة إلى أى دخل يضاف إلى دخل أبى الصغير والذى اختل توازنه بانتقالنا من قريتنا «منية سمنود» بالدقهلية واستقرارنا بالقاهرة، حيث رأى أبى أنه لن يستطيع أن يوزان إنفاقه بعد أن دخل رجاء إلى الجامعة، وأصبح وحيد – وهو التالى لرجاء فى ترتيب الأخوة – قاب قوسين أو أدنى إلى الجامعة، ورأى أبى أنه لن يستطيع أن يوفق هذه الأوضاع ماليا، حيث سيصبح هناك ابنان من الأبناء فى الجامعة بالقاهرة وبقية الأبناء بالقرية، فضلاً عن أن الأوضاع بالقرية أصبحت سيئة بالنسبة لأبى لأسباب كثيرة، لذلك قرر أبى أن ينتقل بالأسرة كلها إلى القاهرة، لأن ذلك أيسر له ولنا جميعاً، ولكن الأمور أصبحت أكثر تعقيداً، مما قدر هو، إذ أن نفقات التعليم بالجامعة كانت كبيرة والأبناء يكبرون ونفقاتهم تزداد وأبى مصمم على أن يتم جميع الأبناء تعليمهم فى الجامعة التى لم يستطع هو الوصول إليها، ووجد رجاء نفسه وهو شاب فى الثامنة عشرة من عمره مطالباً بحكم أنه هو الأكبر أن يتقدم ليساعد ولو حتى بتولى نفقات تعليمه. وكان رجاء فى أيامها يتردد على مقهى شهير بالجيزة هو «مقهى عبدالله»، حيث كان الناقد الكبير الراحل أنور المعداوى وهو الأستاذ الأول لرجاء يتردد هو الآخر على هذا المقهى ، كما كان يتردد على هذا المقهى نخبة من كبار الكتّاب والفنانين والمفكرين من بينهم كان

◻ كاتب مسرحى



البورتريه للفنان محمد طراوى

زكريا الحجاوى الذى تصادف أن كان مقرباً من الرئيس الراحل أنور السادات فى فترة من الفترات والذى أوكلت إليه قيادة ثورة يوليو أن يصدر جريدة الجمهورية ويشرف على تحريرها، فاتخذ من الحجاوى معاوناً له فى ذلك، وكان الحجاوى يعرف المشاكل المالية التى يتعرض لها رجاء، فاختاره ليكون مصححاً بالجمهورية لقاء أجر شهرى، ويحكى رجاء عن كيفية وصول الحجاوى إلى منزلنا فى شبرا، حيث كان قد التقط اسم الشارع الذى نقطنه ولم تسعفه الذاكرة برقم البيت، فراح يسأل سكان الشارع بيتاً بيت عن رجاء النقاش حتى توصل إليه ودعاه للعمل، ويحكى رجاء عن هذه الفترة من حياته بعد انتقالنا إلى سكن آخر قريب من الجامعة فى حى بين السرايات، يقول إنه كان يصبح كل يوم ليتوجه إلى عمله، فيمر فى طريقه على جامعة القاهرة، فيرى زملاءه فى طرقات الجامعة، فيشعر بالظلم الفادح الذى يقع عليه، ولكنه رغم ذلك كان طالباً متفوقاً، بل كان كما حكى لى أحد زملائه من نجوم الجامعة المرموقين، وظل طوال سنوات الدراسة طالباً فى قسم الامتياز، وحكى لى هو أنه فى ذات يوم وفى أثناء امتحانات السنة الأولى لقسم اللغة العربية الذى كان يدرس فيه، أن دخل إلى قاعة الامتحان الدكتور نجيب البهبيتى الذى كان يدرس له مادة الأدب الجاهلى، ووقف أمام الطلاب وسأل عن الطالب المسمى محمد رجاء النقاش، فقام رجاء وقال أنا هو يا دكتور، فأخرج الدكتور من أوراقه بحثاً كان رجاء قد قدمه لأستاذه كجزء من أعمال السنة الدراسية، وكان هذا البحث عن «المرأة فى الشعر الجاهلى» وقال الدكتور نجيب أمام الجميع إنك قد كتبت بحثاً عظيماً عن المرأة فى الشعر الجاهلى، وأنه يستحق أن يعلن ذلك على الجميع، ودعاه لمقابلته بعد الامتحان ليظل بعدها يراقب تفوق رجاء حتى كانت السنة الرابعة عام ١٩٥٦، حين دخلت أمنا فى مرحلة الاحتضار، ظلت تعانى منها شهوراً طويلة حتى قضى عليها مرض تليف الكبد، بعدها بشهور، واضطربت أحوال الأسرة اضطراباً عظيماً سواء من حيث قلة النفقات التى كان مرض أمنا يستهلك منها جزءاً لا بأس به، أو من حيث تردى حالة البيت الداخلية، نتيجة لغياب الأم معظم الوقت فى المستشفيات، ولم تسلم حياة رجاء الدراسية، فلم يحصل فى سنتها على درجة الامتياز التى كان يحصل عليها فى السنوات السابقة، وترتب على ذلك أنه لم يعين معيداً بالكلية، وقاطعه دكتور نجيب البهبيتى غضباً منه لظنه أنه أهمل فى دراسته.

موهبة مبكرة

وظل رجاء بعد تخرجه يتنقل من عمل إلى عمل، فمن الإذاعة. حيث عمل لفترة فى لجنة النصوص الدرامية بها، ثم استقر لمدة عامين تقريباً فى مجلة كانت تصدرها وزارة الداخلية، ولعمله فى هذه المجلة حكاية بل حكايات تؤكد موهبة هذا الرجل، وقد حكى هو بعضها، وكانت



رجاء النقاش مع زوجته د. هانيه عمر وحفيدتهما ريم سميح النقاش

بداية عمله في هذه المجلة أن رجاء كان يعمل في مجلة الإذاعة في فترة سابقة مصححاً في المجلة، وكان عليه أن يراجع بروفات المجلة في المطبعة، ويعرضها على الرقيب الذي كان يأتي إلى المطبعة في نفس التوقيت، فنشأت بينه وبين رجاء علاقة تشبه الصداقة، حيث كانا يتبادلان الآراء في المجلة وفي أمور ثقافية كثيرة، وتصادف أن كان هذا الرقيب متزوجاً من شقيقة زوجة الراحل سعد الدين وهبة، وفي هذه الأيام اختير سعد الدين وهبة ليكون سكرتيرا لتحرير مجلة «البوليس» التي تصدرها وزارة الداخلية، وكان رئيس التحرير هو وكيل وزارة الداخلية أيامها، وعلى ما أذكر كان اسمه أحمد الوتيدى ، ومدير التحرير صلاح الدسوقى ، وسكرتير التحرير كان سعد وهبة. وألقيت مهمة إصدار هذه المجلة على عاتق سعد الدين وهبة، ربما لأنه كان أكثر الجميع اهتماماً بالأدب والثقافة والصحافة، وراح سعد وهبة يبحث عمن يعاونه في هذه المهمة، فاقترح عليه عديله وهو نفسه الرقيب الذى كان على علاقة برجاء، أن يبحث عن هذا الشاب الصغير الذى كان يعمل مصححاً بمجلة الإذاعة، وبدأت علاقة رجاء بسعد وهبة وبمجلة البوليس، تلك التى اعتمد سعد وهبة على رجاء فى تحريرها اعتماداً كبيراً ، وظلت هذه المجلة تصدر لمدة تقترب من العامين، وأصبحت ذات صدى واسع في الحياة الثقافية، ويكفي أن نعلم أن من بين كتّابها أقلام مثل د على الراعى ود. محمد مندور، وسليمان فياض ومحفوظ عبدالرحمن وصلاح عبدالصبور، والتأم حول صفحاتها جيل من المثقفين ، وظل الأمر هكذا حتى جاء صدام الثورة مع الشيوعيين في أواخر الخمسينيات، وكان من بين الذين عملوا في المجلة واحداً من زملاء رجاء كان ينتمى إلى أحد التنظيمات الشيوعية وقبض عليه، وهو

يوزع منشورات معادية للثورة، وعندما سئل أين يعمل، قال فى مجلة «البوليس» فقامت قيامة مكتب مكافحة الشيوعية ولم تقعد، فكيف لشيوعى أن يعمل فى مجلة وزارة الداخلية، يوزع المنشورات المعادية للنظام القائم، وصدر الأمر بالقبض على رجاء النقاش، وسئل سعد وهبة عنه فقال إنه يعرف هذا الشاب جيداً وإنه لا يمكن أن يكون شيوعياً أبداً، فطلب منه رئيس مكتب مكافحة الشيوعية أن يحضر هذا الشاب إليه ليعرف إذا ما كان شيوعياً أم لا، ولما ذهب سعد ورجاء لمقابلة رئيس مكتب مكافحة الشيوعية، وتناقش الرجل مع رجاء قليلاً ثم طلب منه أن يحضر له مقالاته التى يكتبها، وسوف يقوم بقراءتها بخبرته وعلمه بالطريقة التى يكتب بها الشيوعيون وبأفكارهم، ويقرر بعدها إذا كان رجاء شيوعياً أم لا، وقرأ الرجل المقالات ثم استدعاه، وقال له: إنك لا يمكن أن تكون شيوعياً لأنك تكتب بحماس عن نجيب محفوظ، ولا تكتب ضده، بينما الشيوعيون يكرهون نجيب محفوظ، حيث كان هناك كتاب مهم من الكتب الماركسية كتبه الأستاذان محمود أمين العالم ود. عبدالعظيم أنيس ، ولا أذكر الآن اسمه، وكان الكتاب يتحدث عن الثقافة المصرية من وجهة نظر ماركسية، وكان يعتبر أدب نجيب محفوظ أدباً برجوازياً مرفوضاً . وهكذا كما ذكر رجاء فى مرات عديدة أنقذه نجيب محفوظ من السجن، ووجد رجاء نفسه بعد هذه الواقعة بلا عمل.

انفتاح على العالم العربي

ولكنه كان قد صنع لنفسه سمعة أدبية وثقافية فى العالم العربى من خلال مراسلته لمجلة «الآداب» البيروتية، تلك المجلة التى احتلت أيامها مكان المجلات المصرية التى أنارت العالم العربى فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين مثل «الرسالة» و«الثقافة» ، ولكن هذه المجلات اضطرت لأسباب كثيرة أن تغلق أبوابها فى أعوام متلاحقة، وجاءت مجلة «الآداب» لتحتل موقعاً مهماً فى الحياة الثقافية العربية، وكان رجاء يرسل إليها رسالة شهرية تتضمن المادة التى يكتبها أدباء مصريون، ويكتب مقالة شهرية، فتعرف من خلال «الآداب» على مثقفين من كافة أنحاء العالم العربى ، وكانت هذه السمعة وهذه العلاقات التى صنعها سبباً فى عمله بجريدة «الجماهير» التى صدرت آنذاك فى دمشق أيام الوحدة المصرية السورية ، ورحل رجاء ومعه أحمد عبدالمعطى حجازى ليعملا فى هذه الجريدة، واستمرت الجريدة تصدر لعدة أشهر، ولكن أجهزة الأمن أوقفتها وعاد رجاء مرة أخرى إلى القاهرة بغير عمل.

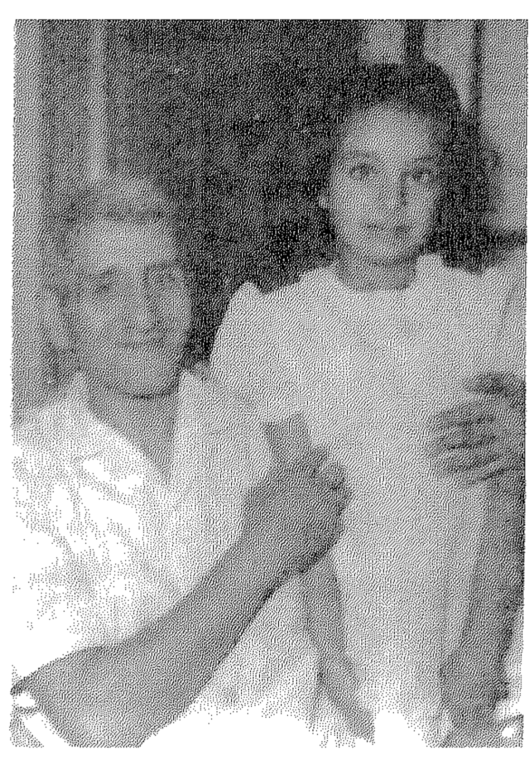
وكانت أياماً كئيبة وسوداوية داخل الأسرة، فأحد المصادر المهمة للدخل منقطع والحالة المزاجية لرجاء – العمود الثانى فى البيت – غير طيبة، وانعكس ذلك على الأسرة كلها، فكانت أياماً كئيبة كما أذكرها كصبى فى مقتبل العمر.

ولكن أخيراً وجد رجاء عملاً فى «روزاليوسف» وكان هو وصلاح عبدالصبور يعيدان صياغة المادة

المنشورة فى المجلة صحفياً ولغوياً، وعانى رجاء معاناة شديدة حتى سمح له بكتابة مقالات فى «روز اليوسف»، وظل الأمر هكذا حتى أممت الصحافة فى سنة ١٩٦٠، فانتقل رجاء فى سنة ١٩٦١ إلى جريدة «أخبار اليوم» وكان يكتب مقالاً أسبوعياً فى هذه الجريدة ثم انتقل منها سنة ١٩٦٣ إلى جريدة «الجمهورية» حيث لمع نجمه ولفت أنظار الحياة الثقافية والأدبية بمقالات «أخبار اليوم» و«الجمهورية».

في دار الهلال

وحينما تولى الراحل الأستاذ أحمد بهاء الدين رئاسة مؤسسة دار الهلال، ضم رجاء النقاش إلى محررى مجلة «المصور» فى أوائل سنة ١٩٦٥ ، وفى صيف هذا العام نفسه أسندت إليه رئاسة تحرير مجلة «الكواكب» فكان واحدا من أصغر الذين تولوا رئاسة تحرير الصحف فى مصر بعد الأستاذ محمد حسنين هيكل والأستاذ أحمد بهاء الدين ومن قبلهم الأستاذ حافظ محمود. ثم أسندت إليه رئاسة تحرير مجلة «الهلال» إلى جانب «الكواكب» فى عام ١٩٦٩ وظل يجمع بين المجلتين لعدة شهور حتى تفرغ «للهلال»، وأذكر أنه فى هذه الأثناء التى تولى فيها رجاء مجلة الهلال، وكنت شاباً فى أوائل العشرينيات، وطلب منى رجاء ذات يوم أن أقابلة فى مكتبه لأمر ما وذهبت إلى المكتب فى الساعة الثامنة مساء أو قريب من ذلك، وكنا فى ليلة شتوية باردة ، وكان رجاء مشغولاً بمراجعة مادة العدد الجديد من «الهلال»،



الأستاذ الشاعر الأديب عبد المؤمن النقاش «١٩١٢ - ١٩٧٥»
مع حفيدته ليس رجاء النقاش عام ١٩٧٠

وطلب منى أن انتظر حتى يفرغ من العمل الذى أمامه، وظللت أنتظر فى مكتب الأستاذ الراحل موريس عزيز سكرتير رجاء أيامها. ومرت الساعات ورجاء مازال منشغلاً بعمله، وأنا لا أجد فرصة لتنبيهه لوجودى، لكثرة دخول المحررين وخروجهم لمراجعة بروفات المجلة، ومضى الوقت، والفرصة للكلام مع رجاء منعدمة، حتى فرغ من عمله، وسأل عن الوقت، فكانت الساعة تقترب من الرابعة صباحاً، ونسى هو فى خضم العمل الوقت ونسينى تماماً حتى أنهى عمله الذى كان مستغرقاً فيه بإخلاص عميق.

تجربة الإذاعة

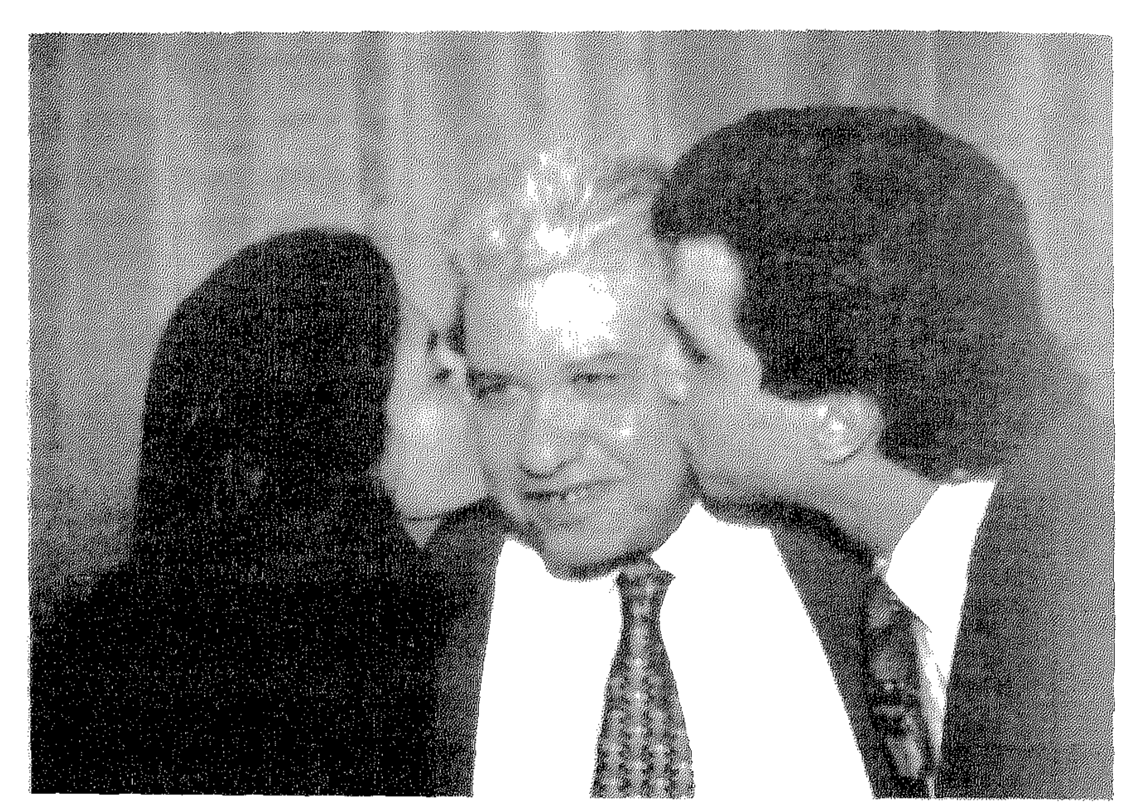
وجاءت سنة ١٩٧١، وانتقل رجاء رئيسا لمجلس إدارة مجلة الإذاعة

والتليفزيون ورئيسا لتحريرها فى فبراير من هذا العام، وكان أول ما فعله أن عدل مرتبات المحررين فى المجلة التابعة لوزارة الإعلام حتى تقترب من مستوى مرتبات الصحفيين فى المؤسسات الأخرى، وأعلن أنه لن يضع اسمه كرئيس للتحرير على صدر المجلة إلا بعد مائة يوم سوف يقضيها فى الإعداد للتغييرات التى سوف يحدثها فى المجلة بعد هذه المهلة، واستغرق فى هذا العمل وفى مناقشات مع المحررين حول مشروعاتهم الصحفية للمجلة، وعندما حان الموعد المقرر وكان أول عدد يحمل اسمه بتاريخ أول مايو سنة ١٩٧١، وكان يحمل فى طياته الحلقة الأولى من رواية «المرايا» وهى أول رواية تنشر مسلسلة خارج الأهرام، وكانت حلقات هذه الرواية تنشر مصحوبة برسوم للراحل سيف وانلى، ثم جاء العدد الثانى يوم ٨ مايو وفى العدد الثالث الذى صدر يوم ١٥ مايو كانت الأحداث السياسية المعروفة قد وقعت والعدد الثالث من المجلة قد انتهى طبعه وأصبح جاهزاً للتوزيع، وكانت صورة الوزير المسئول وهو الأستاذ محمد فائق الذى استقال ضمن أحداث هذه الأيام ثم دخل السجن، بعد ذلك - تتصدر صفحات العدد، وكان لابد أن يوقف توزيع المجلة وتنزع صورة الأستاذ محمد فائق من صدر المجلة قبل التوزيع، وذهب مجموعة من المحررين إلى المطبعة لنزع هذه الصورة من نسخ العدد المعدة للتوزيع، وكانت تربو على المائة ألف نسخة وتم هذا العمل بمساعدة عمال المطبعة، وصدر العدد والصفحة الأولى منه منزوعة. وظل رجاء يعمل فى مجلة الإذاعة والتليفزيون حتى أوائل شهر سبتمبر من نفس العام، حين فوجىء الجميع بما فيهم رجاء، بخبر فى الصفحة الأولى من الأهرام بأنه قد منح إجازة مفتوحة، وهو التعبير الذى كان شائعا فى هذه الأيام لمن ينحون عن مناصبهم وكان السبب الذى نشر لهذه الإجازة هو أن اسم رجاء قد وجد فى أجندة تليفونات الأستاذ الراحل محمد عروق وهو أحد كبار المتهمين فى قضية ١٥ مايو. ومما لابد من ذكره هنا هو أن رجاء النقاش قد خضع لتحقيقات استغرقت ٣٦ ساعة كاملة أمام محققى وزارة الإعلام لإثبات أية انحرافات مالية أو إدارية فى المجلة أثناء رئاسته لها، وكانت نتيجة هذه التحقيقات فى صالحه، ولم تثبت عليه أية مخالفات، ولكن تقلبات السياسة أصرت على أنه كان على علاقة بمراكز القوى.

العودة للهلال

وظل رجاء وهو فى قمة عطائه الأدبى والصحفى بلا عمل لعدة شهور، تمكن بعدها من العودة إلى دار الهلال كمحرر فى مجلة «المصور» وبنفس راتبه الذى خرج به من دار الهلال قبل ذلك بعامين، وذلك لإصرار الإدارة الجديدة فى دار الهلال على عدم الاعتراف بالزيادة التى حصل عليها فى مجلة الإذاعة والتليفزيون.

وعندما تولت الراحلة الأستاذة أمينة السعيد رئاسة دار الهلال فى فترة لاحقة أرادت أن تضع رجاء رئيساً لتحرير مجلة



•وبين ابنه سميح مخرج بالتليفزيون وزوجته المهندسة نهى العلايلى

«الهلال» مرة أخرى ، ولكن أحد كبار الأدباء المصريين المقربين من السلطة آنذاك اعترض على ذلك بشدة، وكان أن تدخل الرئيس السادات ومنع أمينة السعيد من أن تضع رجاء رئيسا لتحرير الهلال. ولكن توصلت إلى حل جيد لإنقاذ المجلة من تردى توزيعها أو هى المجلة التى كانت أعدادها الخاصة فى أيام رئاسة رجاء لها توزع ما يقترب من ربع مليون نسخة، توصلت أمينة السعيد إلى أن يوضع اسمها كرئيسة للتحرير ويوضع اسم رجاء مشرفاً على التحرير على أن يقوم هو بالعمل كله.

وفى هذه الأيام كانت صدامات الحكومة مع المثقفين متوالية، حتى خرج الكثيرون منهم ليعمل فى البلاد العربية، ومن استطاع منهم سبيلاً فإلى أوروبا، حتى جاءت زيارة الرئيس السادات للقدس وأصبحت حداً فاصلاً بين كثير من المثقفين والحكومة، فمن كان منهم مع المبادرة فهو مع الحكومة ، ومن كان ضد المبادرة فهو ضد الحكومة، وأصبحت الأمور فى غاية السوء حتى اضطر رجاء فى أواخر سنة ١٩٧٨، إلى السفر إلى دولة قطر ليصدر جريدة يومية هى «الراية» وكانت تجربة مهمة ومريرة، حيث لم يحتمل المصريون الذين جلبهم رجاء لمعاونته فى إصدار هذه الجريدة ، فلم يتحملوا جو المجتمع القطرى والمغلق وانفلتت أعصاب الكثيرين منهم، وانقلب معظمهم عليه، إما طمعاً فى مكاسب أكبر أو خوفاً من العودة إلى الأوضاع المتردية فى مصر .

وظل رجاء يعمل فى «الراية» حتى

بداية سنة ١٩٨١، ثم انتقل بعدها رئيساً لتحرير مجلة «الدوحة» وقد كانت الدوحة الشهرية الثقافية مجالاً خصباً لموهبة رجاء الصحفية والأدبية، وأصبحت طوال فترة وجوده بها منبراً ثقافياً مهماً مشعاً فى العالم العربى كله، حتى انتهت هذه الفترة بإغلاق هذه المجلة سنة ١٩٨٦ نتيجة لتقشف شديد قامت به الحكومة القطرية، وأغلقت معها عدة مجلات ناجحة كانت تصدر من هذه الدولة الصغيرة منها، مجلة «الصقر» الرياضية ، وفى فترة وجود رجاء رئيساً لتحرير الدوحة وقعت حادثة مهمة لابد من التوقف عندها، ففى سنة ١٩٨٣ إبان رئاسة رجاء لتحرير «الدوحة»، كان الدكتور حسين أحمد أمين ينشر فيها مجموعة مقالات إسلامية أصدرها فيما بعد فى كتاب اسمه «المسلم الحزين». وكان ضمن هذه المقالات مقال عن تأملات الدكتور حسين فى سورة «اللهب» من سور القرآن الكريم، ولم يعجب المقال المسئولين عن الشئون الدينية فى قطر وقتها، ووقف رئيس الشئون الدينية الذى كان له وللشئون الدينية نفوذاً واسعاً فى مؤسسات الدولة القطرية، وقف هذا الشيخ على المنبر يوم الجمعة متهماً رجاء وحسين أحمد أمين بالزندقة ، وكانت الخطبة تذاع على موجات إذاعة قطر، وتردد أيامها أن الشئون الدينية طالبت بجلد رجاء وترحيله عن البلاد جزاء لتجديفه وإساءته للقرآن الكريم، ولكن الدولة القطرية استطاعت أن تصل إلى حل معقول وهو أن يرفع اسم رجاء من مجلة «الدوحة» على أن يظل يمارس عمله واستمر هذا الأمر سارياً لمدة عام تقريباً حتى عادت الأمور إلى مجراها الطبيعى وعاد اسم رجاء إلى المجلة مرة أخرى وأصبحت «الدوحة» جزءاً مهماً من أرشيف أى مثقف عربى يرجع إليها كلما احتاج، وعاد رجاء إلى القاهرة ليعمل مدير تحرير «المصور» ويكتب فى بعض الصحف العربية، ويدير بعض مكاتبها بالقاهرة أحياناً حتى عاد رئيساً لتحرير «الكواكب» مرة أخرى سنة ١٩٩٢، وليصبح واحداً من كتاب الأهرام الأسبوعيين منذ سنة ١٩٩٤، ومازال يواصل كتابته الأسبوعية، ولكنه ترك رئاسة تحرير الكواكب بإرادته سنة ٢٠٠٢ على ما أذكر.

هذه مسيرة قلم مصرى عربى ، كما شهدتها عن قرب إن لم تخنى الذاكرة . هذا القلم الذى يعرف فضله الشعراء العرب أو معظمهم، ويعرف فضله كتاب المسرح ومخرجيه وممثليه، أو معظمهم، ويعرف فضله كُتَّاب الرواية العرب أو معظمهم، ويعرف فضلة المشتغلون بالفكر والصحافة أو معظمهم، لقد ألف رجاء حتى الآن ٢٦ كتابا أو يزيد سيظل معظمها مرجعاً مهماً لاغنى عنه لأى مشتغل بالأدب والثقافة والفكر فى العالم العربي.

إن هذه المسيرة التى تمتلىء بكفاح شخصى ، شهدته بعينى وهى كفاح مهنى لا ينكره إلا جاحد أو حاسد أو قليل البصيرة.

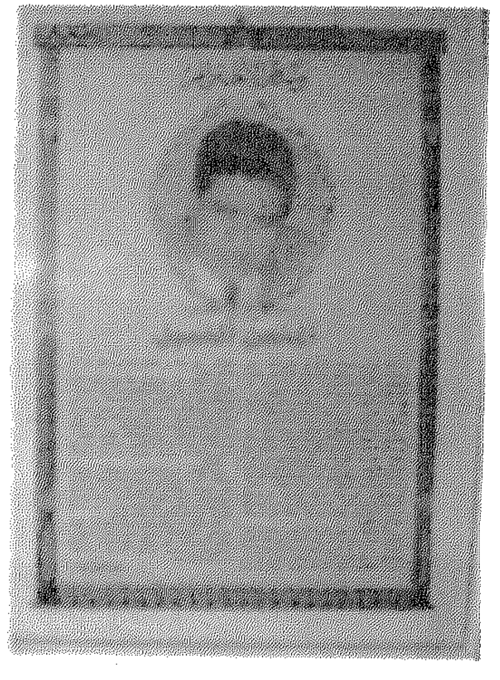
الإنسانية والشرف

كتب عنه صلاح عبدالصبور أحد رفقاء مسيرته الكبار، يقول فى تعريفه برجاء على غلاف أول كتاب أصدره رجاء وهو فى الرابعة والعشرين من عمره، وهو كتاب «فى أزمة الثقافة المصرية» ، كتب صلاح عبدالصبور يقول : اذا كان بعض الناس يعبرون الحياة وبعض الناس يعيشونها، فإن رجاء يعانيها. رجاء صديقى كما عرفته إنسانا عارى الأعصاب. وتلك محنة.. وكثيراً ما يتساءل رجاء.. العيب فينا أم فى الناس أم فى الزمن ؟

يحمل رجاء فى قلبه الفجيعة دائما، ولكنه لا يبكى ولا يعلن بطلان الكل ولا يخاف .. إن الفجيعة فى قلبه تصبح حياة ومحبة وشهوة لإصلاح العالم.

عاش رجاء - كما عشنا جميعا - موزعاً بين القرية والمدينة وبين الثقافة والواقع وبين الحلم والتجربة وبين الرغبة والفعل. ولكنه لأنه إنسان شريف مهما كان لكلمة الشرف من معني. لن يسقط فى هوة اللامبالاة، ولن يتعالى إلى أبراج الترفع، لأن إنسانيته وشرفه يعصمانه».

هذه كانت شهادة صلاح عبدالصبور . وهو من أكبر زملاء جيله وألمعهم، كتبها عن رجاء النقاش، فى بداية مشوارهما فى الحياة والعمل، وأنا أشهد الآن كأخ صغير لرجاء، كنت أراقب مسيرته بفخر واعتزاز وحزن عند العثرات والمحن، أشهد أنه منذ وعيت ما حولى . وأنا أرى هذا الرجل يأخذ حياته مأخذ الجد الذى لا هوادة فيه، ويخلص فيما يفعله إخلاص



«وسام الاحترام» من «روزاليوسف» عام ٢٠٠١

التفانى ، عارى الأعصاب، كما يقول عنه صلاح عبدالصبور ، سريع الغضب، ولكنه يحمل قلب طفل يمكن أن يرضى لأى بادرة محبة ما لم يشعر بسوء النية، وهو عميق الثقافة، قارىء نهم، ولا يشبع، عقله مرتب ومنظم لا يزيغ عما يريد ولا يتشتت صاحب قلم سهل الكلمات . لامع الأفكار تعلمت منه ما لا أستطيع أن أعدده. وأشهد أنه قد أدى واجبه ولايزال يؤديه بأمانة سواء كان هذا الواجب تجاه أسرته القريبة أو البعيدة. وأدى واجبه ولايزال يؤديه تجاه وطنه وأمته، وهو تتلمذ على أساتذة كبار، وزامل أساتذة كبار، وبشر بأساتذة كبار. ورعى تلامذة كبار. وترك بصمة لا تُنكر فى حياتنا الثقافية، وإن كره البعض أن يعترف بذلك. بارك الله فى عمرك يا رجاء ، ومتعك بالصحة والعافية جزاء لما أسديته لأسرتك ووطنك وأمتك.

الأب الثاني



□ أمينة النقاش

أحببت اللغة العربية من والدى ، ومن شقيقى الأكبر رجاء النقاش . عشق أبى اللغة العربية ، ليس بحكم أنه كان مدرسا لها فحسب ، بل لأنه كان شاعراً وأديباً ، وقارئاً نهماً لكتب التراث العربى والإسلامى ، وكانت أجمل اللحظات التى يقضيها، تلك التى يتلو علينا فيها مقطعا من قصيدة لفطاحل شعراء العصرين الجاهلى والإسلامى ، أو يقرأ علينا نصا أدبيا أو آية قرآنية ليكشف لنا من خلال ذلك عن ثراء اللغة العربية، وقدرتها المتجددة على الاستخدامات المختلفة للمفردات والمعانى ، بما كان يستخرجه من تلك النصوص من أنواع شتى من البلاغة ، من كناية وتشبيه واستعارة وما إلى ذلك.

وإذا كانت الموهبة تورث ، فقد ورث رجاء عن أبى عشقه للغة العربية ، وشكّل التراث العربى الإسلامى جزءاً رئيسياً من ثقافته الموسوعية المتنوعة . عودنا رجاء حين يبدأ النقاش فى أى موضوع خاص أو عام ، أن يكون الأدب حاضراً بقوة ، فيستحضر من ذاكرته روائع القصص العالمى ، وأبيات من عيون الشعر العربى القديم والحديث ليدلل بهما على صحة مايقول ، وربما ليقدم لنا من خلال ذلك إجابات فنية لبعض أسئلة الحياة الملتبسة والغامضة ، فيحفزنا على تذوق الأدب ومحبته من جانب ، ويوسع مداركنا عبر استشهادات أدبية ، لفهم ما يجرى حولنا وتخفيف آلامه من جانب أخر .

ارتبطت طفولتى وشبابى برجاء ارتباطا وثيقا وهيمنت قوته المعنوية على نشأتى ، وحين بلغت السادسة من عمرى ، اتخذت أسرتى قرارا بتأجيل التحاقى بالمدرسة الابتدائى لمدة عام ، لملازمة والدتى المريضة آنذاك بالمنزل . فى تلك الفترة من طفولتى ، أصبحت أمى هى كل عالمى ، التصقت بها التصاقا شديداً، وأخذت أنظر بعينيها لكل ما يدور حولى ، أفرح لما يفرحها ، وأغضب لغضبها ، وأشاركها القليل الذى تقوم به ، تعبيراً عن محبتها وإعزازها لابنها البكر . كانت أمى تأبى أن تنام الليل حتى تطمئن على عودة رجاء من الخارج ودخوله إلى غرفته ، كانت تطرب لسماع صوت ارتطام باب المنزل فور عودة رجاء إليه ، لأنه يحمل إليها البشارة بأن ابنها المحبب قد عاد إليها سالما بعون الله، ولم يصبه أى سوء . وبرغم أن أمى كانت امرأة أمية ، لا تعرف القراءة والكتابة ، فقد كانت تستطيع أن تميز اسم رجاء فى

□ كاتبة صحفية



فى فرح ابنته لميس يداعب صلاح عيسى زوج شقيقته أمينة وفى الصورة زوجته د. هانيه عمر وعاصم النقاش

قصاصات الصحف والمجلات ، التى كان قد بدأ يكتب بها وهو لم يتجاوز العشرين من عمره . ولأن المرض أقعدها طريحة الفراش ، فقد جمعت أمى تلك القصاصات ، واحتفظت بها تحت وسادتها ، لتصبح لحظات البهجة الوحيدة التى تهنأ بها ، وتملأ نفسها بالسرور والرضا حين تسحب تلك القصاصات من تحت الوسادة ، وتطيل التأمل فيها بفرح طفولى ، وتغمرها بأحضانها وقبلاتها من حين لآخر ، ثم تعيدها بحرص شديد إلى حيث كانت ، كأنها كنز ثمين تخشى عليه من الضياع . كنت أقلدها تقرباً إليها ، وابتزازاً لعواطفها واقتناصا لأحضانها الدافئة وطبعاً حباً فى رجاء .

يحمل رجاء غصة فى حلقه - كما أحمل أنا - لم تقل مع مرور الزمن ، فحين ماتت أمنا اكتشفنا أنه لم يكن بحوزتنا صورة لها .

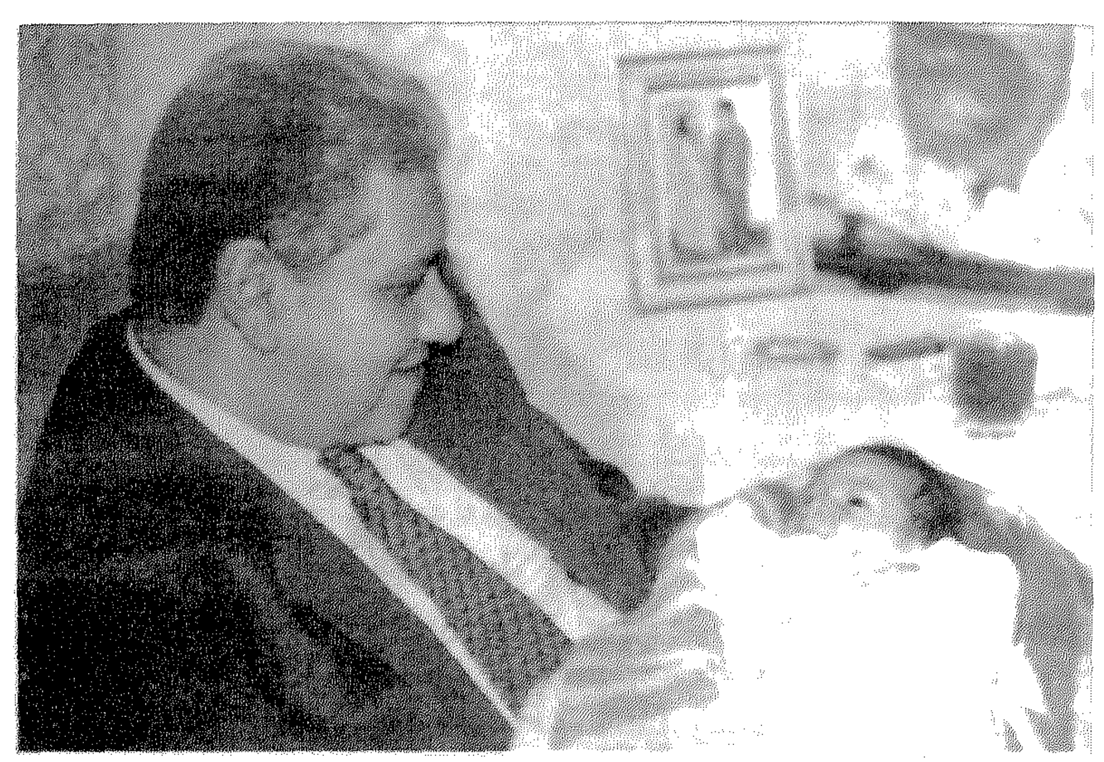
كنا أسرة كبيرة العدد ، قليلة الموارد ، وكان بيتنا فقيرا من كل الإمكانيات وأبسطها ، لكنه بفضل رجاء ، كان غنياً بالكتب وبالمثقفين العرب والمصريين ، الذين كانوا يتوافدون - يكاد يكون يومياً - على منزلنا المتواضع ، الذى ملأته أسرتى بجانب ذلك ، بطموحات كبيرة ، ما كان لها أن تصمد ، أمام شظف العيش ، وخشونة الحياة ، وفقر الموارد ، لولا الدور البطولى الفذ ، الذى تقدم للقيام به بسخاء وبإحساس بالواجب والمسئولية «الأخ الأكبر» ، وهو الدور الذى أمد تلك الطموحات بعناصر البقاء ، وقدم لها دعائم مشيدة ، تزيل من أمام انطلاقها ، كل مبررات التعثر والإعاقة .

وتجربة رجاء في أسرتي ، تكاد تكون تجربة قاعدية للأخ الأكبر في الأسرة المصرية ، التي تنتمي للطبقة الوسطى الصغيرة ، إذ يولد الابن الأكبر لأب فقير ، كثير الأبناء ، يجاهد من أجل أن يضمن لهم مستقبلا أفضل ، مما كفله له أبوه ، فتنوء موارده عن ذلك ، فيتقدم الابن الأكبر لكي يكون أباً آخر ، يشارك في حمل الأعباء . وفي هذا السياق تميز رجاء على كثيرين غيره ممن قاموا بمثل هذا الدور ، بأنه أضفى عليه لمساته الخاصة التي امتزج فيها الذكاء بالحنان ، كما أضفى عليه مواهبه التي ورثها عن أبيه ، مما أثر في كل أخوته ، سواء قصد إلى ذلك أو لم يكن يقصده .

وعلى عكس كثيرين ممن ينتمون لهذه الطبقة الاجتماعية ، فإن أبي الشاعر والأديب ، كان يتسم بدرجة من الوعي السياسي ، مثل كثيرين غيره من مدرسي المرحلة الأولى في الريف المصري ، انتمى بوجدانه ومشاعره نحو حزب الوطنية المصرية وهو حزب الوفد ، وكان حريصاً ألا يضحي بالابن الأكبر ، ويخرجه من التعليم ، ويدفع به إلى وظيفة صغيرة ، تعاونه على استكمال تربية أبنائه الثمانية ، وساعده على ذلك ، بأنه كان طالبا مجتهداً ، يمتلك إرادة حديدية ، ويدرك بوعي فطري بأن عليه أن ينهي تعليمه بسرعة ، وألا يكتفي بذلك ، بل يسعى للبحث عن عمل أثناء دراسته الجامعية ، فيعمل طول الوقت دون أن يتخلى عن طموحه وحلمه ، في أن يصبح كاتبا وأديبا ، وصانعا للنجوم ، في دنيا الأدب والثقافة والصحافة ، ولم يتوقف رجاء أبداً عن العمل ، منذئذ ، وعلى امتداد أكثر من خمسين عاماً ، في رحلة طويلة شاقة ، حفلت بألوان شتى من المعاناة والقسوة والألم ، وقلت فيها الأفراح والمسرات ، لكن مواهب رجاء الإنسانية والثقافية ، أمدته دائماً بالقدرة على التغلب على منغصات الحياة ، والإفلات من الضغوط التي قد تفرضها ، وربما أكسبه هذا العناء بعض الحدة في الطبع وبعض القسوة في الانفعال التي طالت في بعض الأحيان أقرب المقربين إليه ، لكنه يمتلك قلب طفل، يغضب بسرعة ، ويصفو قلبه ويتسع صدره لمن أغضبه بالسرعة نفسها .

رسخت رحلة رجاء العملية ، لدى ولدى أخوتي ، قيمة العمل ، باعتبارها أحد أهم القيم العليا في الحياة ، وزرعت في نفسي اعتقاداً راسخاً بأن أسوأ أنوا ع الفقر ، ليس هو فقر المال والموارد ، بل هو فقر الروح وفقر العقل والوجدان ، وأنه لا سلطة في الحياة تعلو على سلطة الثقافة والمعرفة .

ماتت أمي وأنا في الثامنة من عمري ، وتوفي أبي وأنا شابة أخطو أولى خطواتي في الحياة العملية ، فأصبح رجاء بالنسبة لي أباً وأماً وصديقاً . في صحبته أدركت كثيرا من النشوات العليا في الحياة ، زرت معه الآثار القبطية والإسلامية في القاهرة ، وشاهدت معه المسرح للمرة الأولى ، ومعه وطئت أقدامي دار الأوبرا المحترقة ، وفي بيته استمعت للمرة الأولى أيضا إلى أغاني الشيخ إمام عيسى وأحمد فؤاد نجم ، والتقيت بأدباء



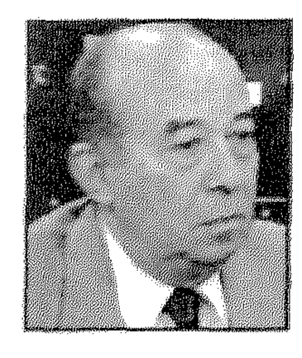
مع حفيده زياد هشام مبارك - ١٩٩٦

ومثقفين لم أكن أعرفهم ، إلا على الورق فقط، كان بينهم صلاح جاهين وصلاح عبدالصبور ولويس عوض وأحمد عبدالمعطى حجازى ، ويوسف إدريس وسهيل إدريس ، ومحمود درويش وعبدالرحمن منيف .

فى هذه الجلسات تبدت موهبة رجاء الأخرى كواحد من الحكائين العظام ، مثله فى ذلك مثل عبدالرحمن الخميسى ومحمد عودة ومحمود السعدنى ، كما تجلت قدرته الفذة على السخرية والتهكم ، التى تبدأ بنقد مالا يعجبه من ظواهر الحياة ، وتنتهى بالسخرية من نفسه إذا اقتضى الأمر ، أو من أخويه الصغيرين فكرى وعاصم ، اللذين كون معهما صداقة حميمة ، طالما أسرتنى بما حفلت به من أبوة غامرة وحنان دافق .

ولم يكن بوسع رجاء أن يواصل مشروعه الثقافى والأدبى ، وأبوته الدافقة لنا ، لولا وجود ملاكه الحارس زوجته ورفيقة مشوار عمره طبيبة الأطفال البارعة الدكتورة هانية عمر ، التى خاضت بذوق رفيع ونفس شفافة نضالا متصلا ، ضد شتى العقبات ، التى إعترضت حياتها المشتركة مع رجاء ، دون أن تشكو أو تتذمر ، أو تخور عزيمتها أو أن تفقد ثقتها أبدا فى موهبة رجاء ، أو فى الأدوار التى اختار لنفسه أن يؤديها فى الحياة .

كان مكسيم جوركى يقول إنه ينام نوماً هانئاً ، عندما يعرف أن تولستوى ، حى يرزق فى نفس العالم الذى يتنفس فيه، وهأنذا على نحو مستبعد التصديق، لا يلتئم هدوئى النفسى ولا أنام نوما هانئا ، إلا لأن شقيقى الأكبر وأبى الثانى رجاء النقاش حى يرزق فى نفس العالم الذى أتنفس فيه .



الأخ الأكبر

حسين عبد الرازق ◻

عرفت رجاء النقاش قبل أن نلتقي. قرأت له في الصحافة واستمعت له في الإذاعة المصرية، وأسرني أسلوبه السهل والعميق والجميل. كان نقده للأعمال الأدبية التى يتناولهاوتفسيره لرموزها بمثابة قراءة جديدة للنص يضيء لك جوانب أخرى لم تلتفت إليها، ويضيف إليك معان لم تلحظها من قبل، ويحببك فى العمل الذى يتناوله. ورغم موضوعيته وقوة نقده، فلم يكن قاسيا أبدا. ومنذ قرأت له مقدمته لديوان «مدينة بلا قلب» للشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى، أحببت الشعر الحديث تذوقته وبحثت عن أشعار صلاح عبد الصبور ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب. وبعد ذلك تابعت بشغف سلسلة مقالاته فى «روزاليوسف»، «نماذج بشرية»، التى تناول فيها شخصيات حية تعيش بيننا دون أن يسميها، مطابقا بينها وبين نماذج قدمها الأدب العالمى والعربى. ومن يومها لم أتوقف عن قراءة كل ما يكتبه رجاء النقاش والتعلم منه، سواء اتفقنا أو اختلفنا. وتابعت أيضا قدرته الصحفية على وضع بصمة لامعة على كل مطبوعة تحمل مسئوليتها خلال رحلته الصحفية من مجلة الإذاعة والتليفزيون إلى الدوحة والهلال والكواكب. كان دائما حريصا على الجمع بين العمق والمتعة معا.. يخاطب الخاصة ولا يتعالى على جموع القراء.



والتقينا فى نهاية الخمسينات ومطلع الستينات فى منزل الأستاذ والصديق محمد عودة. فقد كان عودة قبلة لكل عشاق الوطن من كبار الكتاب والصحفيين والمفكرين. وإلى شباب الصحافة الذين

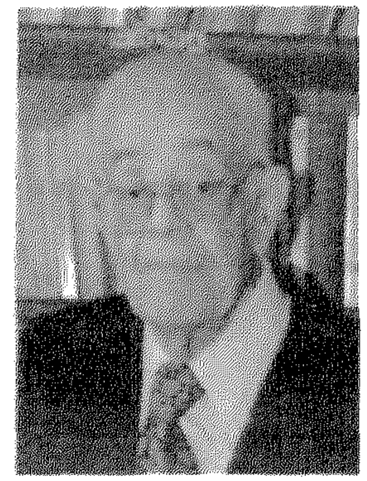
◻ كاتب صحفى



مصطفى نبيل



بدر شاكر السياب



محمد عودة

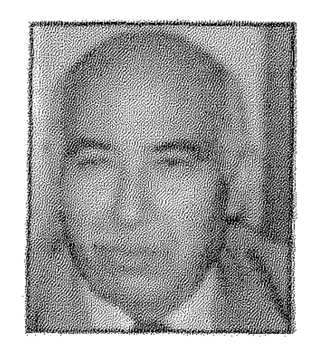
يطرقون أبوابها بشوق وإصرار. كنت فى العام الأخير من دراستى الجامعية بقسم العلوم السياسية بكلية التجارة جامعة القاهرة، وأسعي للعمل بالصحافة حتى قبل التخرج. وعرفنى عودة بكثيرين من كبار صحفى هذا الجيل وشبابهم. وأحببت كثيرين منهم، وكان على رأسهم رجاء النقاش ومصطفى نبيل.

وعن طريق رجاء وعوده تعرفت بعائلة النقاش الواحد تلو الآخر.. فريدة ووحيد وعطاء وأمينة.. أسرة مثقفة من الطبقة الوسطى الصغيرة قادمة من ريف الدقهلية، فقيرة ماديا ولكنها تملك ثروة من العلم والثقافة والمشاعر الإنسانية الفياضة. وتكررت لقاءاتى مع فريدة فى منزل محمد عودة وأحببتها وتزوجنا. وعرفت الدور الذى لعبه رجاء فى حياة أسرته. لم يكن مجرد الأخ الكبير والكاتب والمثقف الذى أثر فيهم جميعا ودفعهم - مع والدهم الذى كان معلما وشاعرا - لحب القراءة والثقافة والصحافة «ففريدة ووحيد - رحمه الله - وأمينة امتهنوا مهنة الصحافة، وعطاء اختار الإخراج السينمائى وفكرى كاتب مسرحي متميز.. ولكنه أيضا شارك والده بالانفاق على الأسرة لكى يتعلم الجميع ويغالبوا مصاعب الحياة. واقتدى به إخوته الكبار فعمل بعضهم وهم مازالوا فى دراستهم الجامعية.

ورغم أن رجاء يشقى من أجل الحصول على المال الحلال، فهو لم يرث عن أهله إلا العلم والثقافة والأخلاق والكرامة، إلا أنه معطاء لكل من حوله. فقيمة المال فى نظره هو إسعاد الآخرين.. الأهل والأصدقاء وكل من يعرف أنه يحتاجه.

لقد منحنا رجاء خلال ما يزيد عن نصف قرن العديد من المتعة الذهنية وطرح قضايا مهمة للتفكير والجدل من خلال إنتاجه الفكرى والنقدى، ومنحنا كثيرا من المشاعر الجميلة.. ولكننا مازلنا ننتظر المزيد والمزيد.. أطال الله فى عمره وفى عطائه.

رجاء يرتحي



د. سعيد إسماعيل على ☐

كان ذلك فى أوائل عام ١٩٧١، حيث كنت أكتب - أحياناً - بعض المقالات فى مجلة المصور، عندما كان الراحل العظيم أحمد بهاء الدين رئيساً لها ولدار الهلال، فسعيت مرة إلى مكتب الأستاذ رجاء النقاش، حيث كان رئيساً لتحرير مجلة الهلال، طامعاً نشر مقال لى. وكانت الكتابة فى الهلال بالنسبة لى - ولكثيرين - شهادة اعتماد لى ككاتب، رغم سبق نشر بعض مقالات لى فى مجلة «الفكر المعاصر»، فى عهدها الأول مع الدكتور زكى نجيب محمود، وعهدها الثانى مع الدكتور فؤاد زكريا، فضلاً - كما أشرت - إلى مجلة المصور نفسها ، وقابلنى الرجل بكل ترحاب، ونشر لى مقالى الأول فى الهلال وكان عن عبد الله النديم مربيا.

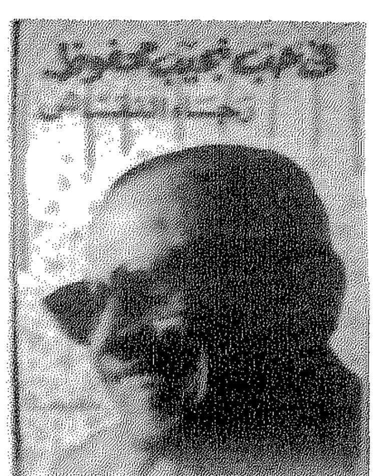
منذ ذلك الوقت وأنا أتابعه حيثما حل بإحدى المجلات، يحمل قلمه المحلل الناقد يجوس بين ديار الثقافة العربية، فإذا بى أشم رائحة العروبة والوطنية، وأتذوق طعم إخلاص، أصبحت قيمة عملته تتراجع شيئاً فشيئاً، وأكاد ألمس كيف يكون عمق التحليل، وصدق النظر، ورشاقة الكلمة تجرى على قلمه فإذا بك تمضى دون أن تشعر بوقت يمر بك، رغم أنه يخوض بك فى قضايا «كبرى»، ومسائل «معقدة»!

لم يكن بى عهد فى متابعة مجلة الإذاعة والتليفزيون حيث لا تتيح لى الظروف مشاهدة التيلفزيون أو برامج الإذاعة، فإذا بى، عندما أرى رجاء النقاش يقود كتيبتها أجد نفسى أمام مجلة ثقافية تطرق معارك ثقافية وقضايا فكرية لم يكن للمجلة قبلها، ولا بعدها عهد، فأحرص على قراءتها، وأشعر بعد كل مرة وقد امتلأت فكراً وثقافة بعد تناول وجبتها الثرية .

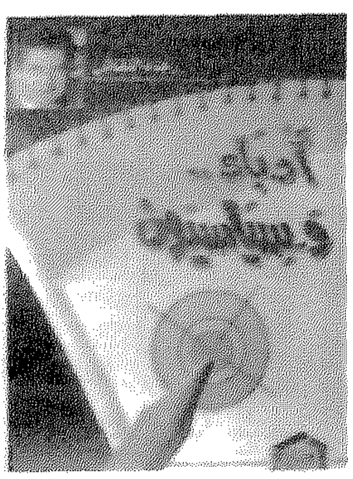
وماذا أقول عن تلك المجلة التى كانت مثل «الشهاب» فى سماء الفكر والثقافة (الدوحة) التى كانت أول إعلان ثقافى عن هذه الدولة - قطر - يبرزها للساحة، ويجعل الناس تتجه بأبصارها إليها، فتجد المجلة بقيادة «رجاء» منارة ثقافية تطاول مجلة (العربى) التى كانت قد احتكرت مساحة كبيرة من الاهتمام والأهمية فى ساحة الفكر والثقافة، ويوم أن توقفت «الدوحة» وكأن صرحا عزيزا قد انهار منبئا بقدوم تراجعات ثقافية وعروبية تلت بعد ذلك.

كانت المرة الثانية التى سعدت فيها بلقاء رجاء، حفل عشاء على مائدة السفير

☐ كاتب وأستاذ جامعى







السعودى السابق، منذ مايقرب من ثمانى سنوات، دعى إليها بعض الكتَّاب والمفكرين، وعند التصافح للوداع سألته إن كان يسمح لى بإرسال مجموعة مقالات قصيرة أعددتها تحليلا اجتماعيا وتربويا ونفسيا لبعض أغنيات أم كلثوم، لنشرها فى مجلة الكواكب التى كان يرأس تحريرها فرحب الرجل بحرارة ووفى بوعده كعهده.

أما كتب رجاء، فقد كان الكتاب الأول الذى قرأته له هو عن «العقاد بين اليمين واليسار» الذى وإن اختلفت مع بعض أفكاره إلا أننى لم أملك إلا الاعتراف بأن الكتاب كان آية أخرى تضاف إلى آيات التقدير والإعزاز لهذا الكاتب النادر حقا، ومثله الكثير من كتبه التى لا أزعم قراءتها كلها، لكنى أزعم أنى قرأت معظمها، وآخرها عن (الانعزاليون فى مصر)، وخاصة فى فترة كتابتى كتاباً عن (الهوية والتعليم)، فأضاف لى الكثير ونبهنى إلى نقاط كنت قد غفلتها.

ولم يكن كتابه الذى ضمنه حوارات له مع نجيب محفوظ مجرد حوارات تقليدية و بدليل أن الكتاب أثار اهتماما واسعاً، وأحدث ضجة ملحوظة، لأن المحاور هنا ليس مجرد صحفى مهتم بقضايا ثقافية وأدبية، ولكنه ناقد أدبى كبير ومفكر فريد، أهلته حرفته الصحفية أن يكون واضح العبارة، سهل التعبير، وأهلته حرفته النقدية أن يكون متعمق الحديث، حتى يمكن أن تستعير عنوان برنامج عمار الشريعى (غواص فى بحر النغم) لتصف رجاء بأنه (غواص فى بحر الثقافة)!

شيئان وحيدان وددت لو تمكنت - ساعتها - أن أبعث برسالة عتاب إليه:

أولهما فى أوائل التسعينيات، وكنت أعقد ندوات فكرية كبيرة برابطة التربية الحديثة، وكان من ضيوفها مرة، الشقيقة الجليلة فريدة النقاش، فسألتها عن «تليفون» رجاء أملا أن نشرف بندوة له، لكنها وهى تعطينى الرقم نبهتنى إلى أنه لا يرد عادة على التليفونات، ولم تكن وسائل الاتصال قد تعددت مثلما هى الآن من «نت» و«محمول» ، وجربت أكثر من مرة، وبالفعل لم أسعد بسماع صوته، فشعرت أنه ليس وحده «رجاء» بل كثيرين

رجاء بنجم



كذلك «رجاءات» توجه إليه، وخاصة منى، حيث تؤكد لنا مهنتنا التربوية والنفسية أن «التفاعل المباشر»- وجها لوجه - أكثر فاعلية من أى صورة أخرى من صور التفاعل، وخاصة التفاعل الورقى!

المرة الثانية، معركة دارت بينه وبين د. جلال أمين، عندما كان رجاء يكتب فى المصور، وإن لم تخنى الذاكرة، كان موضع الخلاف يدور حول تقييم فترة تاريخية حديثة، فإذا برجاء - على غير ما تعودنا منه - يطرق جوانب شخصية تتصل بالدكتور جلال ، فإذا بى أشعر بأن الحدود قد تاهت بين «الذات» و«الموضوع»، وهو أكثر علما منى وخبرة بضرورة أخذ ذلك بعين الاعتبار، حتى أننى نشرت مقالا تعقيباً على هذا فى ملحق الأهرام دون أن أحدد المناسبة أو الأشخاص، كان عنوانه (محاورة أم منافرة؟).

ولا أشك لحظة فى أن مقاله الأسبوعى بالأهرام هو من أكثر المقالات الفكرية قراءة، فهو مما يدخل حقا فى باب ذلك التوصيف الشهير (السهل الممتنع)، حيث لايغوص فى نظريات بلغة متخصصة عصية على فهم القارىء العام، بل يبسط لك أعقد المسائل ويسهل لك أعسر القضايا، وخاصة أن أسلوب «الحكى» يغلب عليها، لكنه «حكى» عقلى، ورواية ثقافية، فإذا بالرسالة تصل، وإذا بالفكرة تترسخ، وإذا بالقلب يشكر ويطمئن ويلهج بالدعاء أن يحفظ هذا الكاتب الفذ ويزيد من عمره عطاء.

الكشّاف



أسامة أنور عكاشة □

يسطع الشهاب فجأة وعلى غير انتظار، ويتحول في لحظات إلى «واقع» مضيء، لأنه من حقائق الوجود الأصيلة، وهكذا يولد الكبار وينبه شأن الأفذاذ، إذ ينبثق عطاؤهم من العمر كأنه ميلاد أمر جليل ويتفاعل مع سير الحياة كأنه بعض من سماتها التي اعتادها الأحياء.

وفي اعتقادي أن الأمر يحدث استثناء من قاعدة الحتمية، يشير إلى حداثة قانون الدهشة .. فالإنسان الاستثنائي هو الإنسان «المدهش» الذي يفجؤنا في أول تجلياته بقدرته على إبهارنا والنفاذ إلى مكامن التوقف والرغبة في المعرفة داخلنا جميعاً.

ويصبح الأمر أكثر استثناء إذا كان المستثنى من مبدعي الجنس الأصعب والأكثر مشقة وجفافا من أجناس الفن والفكر وهو النقد!

ففنون الإبداع الأخرى التي نتلقاها إفرازا من شاعر أو روائي أو قاص أو كاتب دراما، هي بلاشك فنون أكثر جاذبية وتتمتع بما يتمتع به الأشخاص من صفة «الكاريزمية» التي تحقق الشهرة وذيوع الصيت. أما النقد فهو الجنس الإبداعي الأقل حظوة وجاذبية، ويقتضي من صاحبه أن يقطع مشوارا زمنيا طويلا كي «يتحقق» في وعي المتلقي، لذا نعتبر نبوغ «ناقد» في سن الشباب أمرا نادرا ومثيرا للدهشة، حقا إذا فهمنا النقد على حقيقته الإبداعية، وليس على الشائع لدى جمهرة المبدعين الآخرين من أنه مجرد دراسات بحثية، لا تتطلب موهبة خاصة، وإنما تخضع لقدرة الناقد على «التحصيل» واستخدام طرائق البحث في المنهج، وهو خطأ لا يغتفر في النظر إلى العمود الثالث من أعمدة العملية الإبداعية «كاتب + متلقي + ناقد».

والآن .. هل طالت المقدمة التي أريد من خلالها أن أجد بداية للحديث عن الأستاذ رجاء النقاش؟

في الحقيقة أنا لا أعتبرها مقدمة، بل أظنها دخولا مباشرا في الموضوع .. فقد سطع الرجل في أفق حياتنا الثقافية بالنسبة لجيلي في أوائل الستينيات.

كان شابا وكنا بشكل أو بآخر مجايلين له، نترهب في معبد الأدب، القصة القصيرة والرواية، وننهل من مناهل العصير الذهبي لثقافة النصف الثاني من القرن العشرين، ونعرف مشاهير «النقاد»: مندور والمعداوي

□ كاتب وروائي

ورشدى والراعى وعوض والقط، ونتابع معاركهم، ونتعارك نحن أيضا فى ظلها وتحتدم مناقشاتنا ومساجلاتنا حول آرائهم الموزعة فى مقالاتهم عن «الفن للفن والفن للحياة»، وعن «الواقعية والواقعية الاشتراكية»، نضرب على غير هدى فى بحر متلاطم تساعدنا على مغالبة تياراته تلك الشراهة النهمة للزاد الأدبى والفنى فى جميع صوره. كنا فى تلك المرحلة الانتقالية التى وضعتنا على طريق الهجرة من أرض الافتتان بالوجودية وبطاركتها من أمثال سارتر وكامو وهيدجر وياسبرز وكيركجارد، إلى أرض التماهى مع الواقعية الاشتراكية والانبهار بالمادية الجدلية والموقف العام، ضد «التوحش الرأسمالى».

نموذج للازدهار

إنها مرحلة العنفوان حين كانت كل المعارك حقيقية، وشابة، ومفتوحة على كل الاتجاهات والتيارات.

وكان الظهور اللافت لناقد جديد متميز، يعنى فى تلك المرحلة إضافة زخم إلى زخم واستمرار عملية إنتاج الكوادر البشرية الموهوبة فى مصر المحروسة، وفى فترة الستينيات التى مازالت حتى الآن تعد نموذجا لعصور الازدهار الثقافى، كان الأمر يبدو عاديا، فمع شروق شمس كل صباح كانت هناك موهبة تولد وقلم يتألق، وحالة إبداع تتجلى، لكن الأستاذ رجاء ومنذ ضربة البداية لجهده وإسهامه الذى يشكل الآن ما يقرب من نصف القرن، جاء برسالة نذر نفسه لها، وظل وفيا لها، متفانيا فى خدمتها، وكانت رسالة الكشف عن المواهب الواعدة، مساندة الموهوبين الحقيقيين ومتابعتهم حتى يستطيعوا الوقوف على أقدامهم وتحقيق ذواتهم .. وهكذا لم يكن رجاء النقاش مجرد ناقد تقليدى يملك أدواته ويتعامل بها مع كل

.. ومع الطيب صالح «١٩٧٧»



صـــور الإبداع الأدبى راصدا ومحللا ومعلقا، بل كان مع ذلك أو قبله يؤدى بحب وبإخـلاص غـيـر مـسـبـوق دور «الناقـد الكشاف» الذى يبحث فى دأب عن جـواهـر الفـعل الإبداعى ويتابع باهتمام «البـاحث» كل نفس جـديد فى الشـعـر أو الرواية أو الدراما.



مع الرئيس الجزائرى أحمد بن بيللا «١٩٦٢»

وحين يكون هناك ناقد كـشـاف مـثل مـا كـان الأسـتـاذ رجـاء، فـوصـف «النـاقـد» يضـيـق على حجمه ولا يناسبه، ويصبح من الأفضل أن نضعه فى مـصـاف «البنائين» حـملة الرســالات وصــانـعى التـقـدم، وهذا هـو حـجـم رجـاء النقـاش عندى. وأستطيع أن أدعى دون أن أتطفل عليه، أننى واحد ممن تعلموا واستفادوا من فـيـض عطاء الرجل، وعـبـر الأدوار العـديدة التى سلكهـا ناقـدا وصـحـافـيـا ومحاضرا وكاتبا موسوعيا، كان فى كل منها «مـبـدعا» بشكل من الأشكال، وكان فى كل منهـا يفتح نوافذ المعرفـة، ويفسح مـجـالات الرؤية لكل من يريد، لأنه لم يكن ذلك المثقف المتعالى.. فحديثه بالقلم جرى دائمـا على مـسـتـوى التلقى العـادى، أو حـتى «الشـعـبى»، فكان من هذا المنطلق مثقفا «شعبويا»، يسبح دائما ضمن تيار الجماهير، وفى نفس الوقت ضد تيارات السوقية والفظاظة والتعصب.

وأستطيع بلا أى تردد أن أعلن أننى تعلمت من رجـاء النقـاش فى المحل الأول مـعنى الالتزام الحـقـيقى بقضـايا الفن والوطن معـا، وتعلمت كيف يتدفق العطاء عـبـر كل الحـسـابات والتـحـفظات ليـخلق تيـارا تقدمـيـا حـقـيـقـيـا، ينبع من رصد المصالح المرتبطة بمستقبل الوطن، وليس من ارتباط أيديولوجى بعينه.

وتعلمت دروسـا أخـرى كـثـيـرة من الأستاذ! والأستاذ لقب عزيز لا يستحقه إلا من كانوا رواداً معلمين وأصحاب راية ورسالة.

طليعة أبناء جيله



محمد إبراهيم أبو سنة □

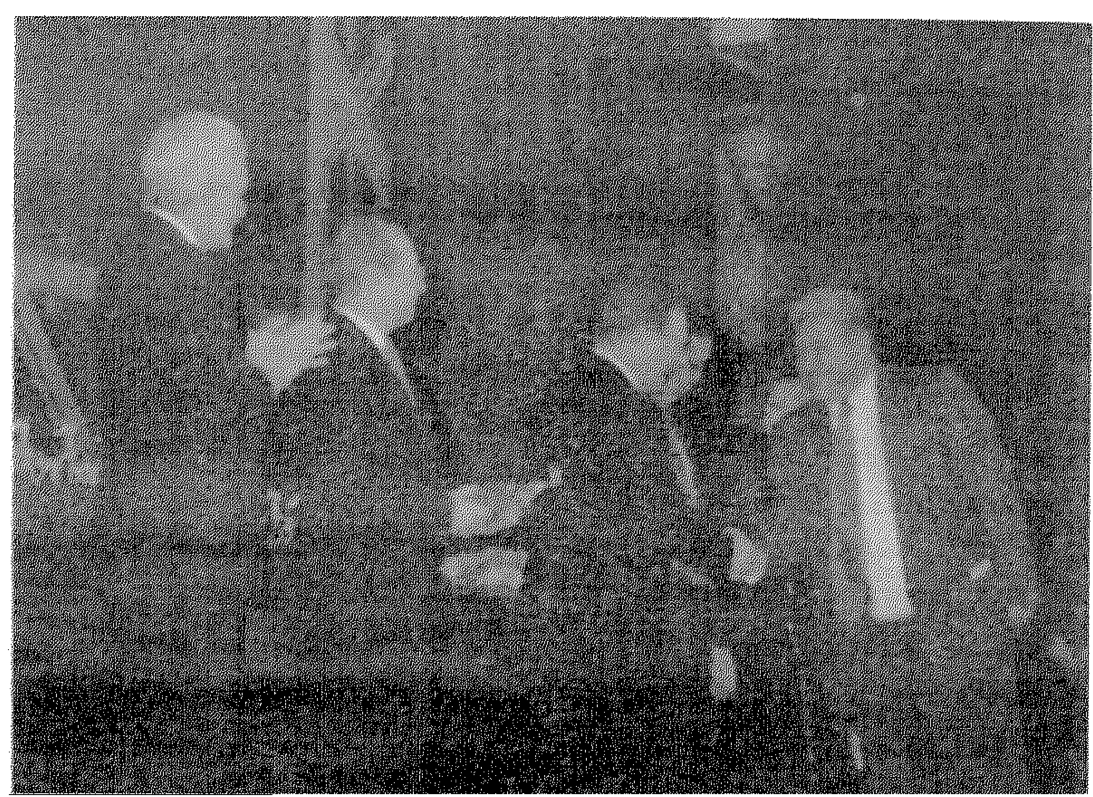
رجاء النقاش ليس مجرد اسم كاتب وناقد كبير يزهو به جيلنا، بل هو حركة ثقافية كاملة. فمنذ سطع نجمة وتلألأ، فى الخمسينيات من القرن العشرين، وهو يزداد تألقا ورسوخا فى الوجدان المصرى والعربى، بسبب عطائه المتنوع الفياض بالجدة والجدية والدعوة إلى التقدم والعقلانية. ظهر كالشهاب وسط أنهار الإبداع الأدبى فى محيط الخمسينيات معروفا بذكائه الشديد وإنسانيته العالية، وتدفق كتاباته وحيوية وجاذبية شخصيته. كنت ألحظ ذيوع اسمه فى المنتديات والجمعيات الأدبية التى كنت أرتادها باعتباره موهبة فذة فى مجال النقد الأدبى.

ورأيته لأول مرة فى مقهى «إنديانا» بالدقى، حيث كانت كوكبة لامعة من الأدباء الشبان يلتفون حول الناقد الكبير الذائع الصيت فى ذلك الوقت «أنور المعداوى»، ودوت شهرة رجاء النقاش بعد أن كتب مقدمة نقدية تفيض بالإعجاب لديوان «مدينة بلا قلب» الذى صدر عن دار الآداب عام ١٩٥٨. ثم التقيت به فى دار أخبار اليوم حيث عمل مع الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، وكانت مقالات رجاء النقاش تصيبنا بالذهول. فقد استطاع فى فترة وجيزة، وفى سن مبكرة جدا، أن يضع اسمه بجدارة فى القائمة الذهبية لكتاب ومبدعى الخمسينيات والستينيات، وقدر راهنت تيارات كثيرة على أن يفوز رجاء النقاش - بسباق الماراثون النقدى بين أبناء جيله، بعد أن خاض المعارك الأدبية بشجاعة ونزاهة وموضوعية.

اقتربتُ منه فى مطلع الستينيات عندما عمل مراسلا نشيطا لمجلة الآداب البيروتية والتى كانت لسان حركة التجديد فى الأدب والحداثة فى الشعر، والانفتاح الأدبى والفكرى على الثقافة الأوربية.

رأيت رجاء النقاش يتسم بهذا التواضع الممتلىء بالثقة والأمل. جاء من الريف ولكنه لم يكن خجولا كريفى، بل كان جسورا مثل أبناء المدينة. ولا أنسى أنه حاول فى عام ١٩٦٣ أن يزكى قصائدى للنشر فى مجلة «الكاتب» التى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت الأستاذ أحمد حمروش، وقد نشرت عددا من القصائد فى شهور متصلة حتى برزت ملامحى الفنية من خلال هذه القصائد. وأظن أن جيلنا مدين فى جانب مضىء

□ شاعر وإعلامى



صفوت الشريف .. رجاء النقاش ولحظة التكريم

من حضوره لمبادرات رجاء النقاش الكريمة والتطوعية.

وينتمى رجاء النقاش إلى نسق نادر من البشر فهو نبيل فى خصومته، سخى فى صداقته، لقد رأيته يعرض خدماته على الكثيرين فى كل موقع عمل فيه. وخلال عمله رئيسا لتحرير مجلة «الهلال» الغراء رحب بنشر قصائدى، وكان ودودا إلى حد أقام بينى وبينه جسرا لا ينقطع مهما تقلبت الأيام. وقد نشر مقالا قاسيا عن ديوانى «الصراخ فى الآبار القديمة» فى مجلة المصور، ورغم إحساسى بالألم بعد قراءة هذا المقال إلا أننى طويت هذه الصفحة، وغفرت قسوته، وبقيت أتعامل مع إنسانيته المشعة ونبله النادر. وكيف أنسى ما حييت استجابته السريعة لنشر قصائدى على صفحات مجلة الدوحة، حين كان رئيسا لتحريرها.

مواقف كثيرة أتذكرها فأشعر بالغبطة لأننى عرفته واعتبرته صديقا وأمتعتنى كتاباته. وتوقفت طويلا أمام كتابه عن العقاد ومحمود درويش- وأبى القاسم الشابى. كاتب يمتلك هذا السحر الذى يفيض مترقرقا فى أسلوب بالغ النضارة والبساطة والوضوح والحسم.

رجاء النقاش يصيبك بالفرح كلما التقيت به ويترك لك أعز الذكريات كلما غاب عنك. ستظل لحظات اقترابنا، رغم تباعدها، تومض هذا الضوء الصافى من المحبة والإعجاب، ومع كل كلمة أقرأها له، وسيظل اسمه وعطاؤه محفورا فى الذاكرة والتاريخ الأدبى فى ثقافتنا العربية المعاصرة.

كلمة من القلب



لينا كيلاني□

لو قرأت كتاباً أو مقالة في صحيفة فهذا يعني أنك مهتم، ولو واظبت على القراءة والدراسة والبحث فهذا يعني أنك مثقف ومتابع، بينما لو أمسكت بالقلم وخضت في عالم الحرف.. أو ركبت سفينة الفن مبحراً إلى شواطىء تعرفها سلفاً فهذا أنك مبدع. والإبداع صفة إنسانية مميزة تتجلى في وجوه عدة .. ليس أولها الإبداع الأدبي ولا آخرها في صيغة تناول الحياة ذاتها.

مبدعون كثيرون تتألق أسماؤهم ويتألق حضورهم على الساحة الإبداعية .. ولكن منهم من هم نجوم حقيقية تلتمع ولا تنطفىء .. تتألق ولا تبهت .. قد تتعب لشدة توهجها فتستكين مدة في فسحة للذات.

في ظلال وهجه كنت أقرأ عنه وله .. صحيح أنها قراءات محدودة لكنها كانت تكفي لأن أتعرف إليه ولو قليلاً .. (رجاء النقاش) .. اسم كبير في عالم الأدب والنقد والصحافة أيضاً .. فماذا سأضيف له في كلمتي الخاطفة هذه؟

أقول إنني عرفته قبل أن أتعرف إليه .. عرفته وأنا صغيرة في السبعينيات، إذ أسمع اسمه في النقاشات الأدبية والنقدية التي تدور في الندوات أو في المجالس الأدبية، ولبيتنا نصيب منها. وكانت المجلات تتدفق من حولي وخاصة التي لمع بريقها في دول الخليج عامة، وفي الكويت وقطر خاصة ، فأتناولها بشغف ، لأنني كنت موزعة بين عالمين، عالم الأدب الذي أتنفس فيه، وعالم العلم الذي توجهت إليه في دراستي حتى الشهادات العليا.. لكنني كنت أحلم بالكتابة أكثر من التقدم العلمي من خلال اختصاصي، وفي العمل .. ويوم أن قطعت نفسي عن عالم العمل الوظيفي، وتوجهت للكتابة، حملت هم الكلمة والحرف، فأصبحت كاتبة للأطفال ومن ثم للكبار ومن خلال اتحاد الكتاب العرب.. والقصة طويلة.

أما كيف تعرفت إلى رجاء النقاش، فذلك كان عندما حملت إنتاجي الأدبي وجئت إلى مصر في منتصف التسعينيات في زيارة خاطفة، ولم أعرف حينذاك أن القاهرة، هذه المدينة الساحرة ستخطفني في قادم الأيام لأن التصق بها. أقول جئت إلى مصر.. مصر الشعاع الثقافي للعالم العربي.. وكنت قد طلبت من أحد المثقفين البارزين من زملاء والدتي، وهو في الوقت ذاته صديق لرجاء النقاش، أن يعرفني إليه، فما كان منه إلا أن حمّلني رسالة قصيرة صغيرة تقبع في مغلف

□ روائية وكاتبة من سوريا

أبيض اللون هى بطاقتى للتعرف إليه. قرأت تلك الرسالة المقتضبة مرات عدة بعد أن سمحت لنفسى أن أفتح المغلف وأنظر بها، طالما أننى سأجلعها سبباً كافياً لأن التقط سماعة الهاتف وأتحدث إليه. تكلمت معه عبر الهاتف وتوجهت لزيارته وأنا أرسم فى ذهنى صورة أحاول أن أطبقها مع إيقاع الصوت الذى أتانى عبر الأثير.



حر وجريء

صحيح أننى لست غريبة عن كثير من أدباء الوطن العربى ومثقفيه وممن عرفتهم منذ الصغر، وأكثرهم إلحاحاً على ذاكرتى الطفولية آنذاك كان (سعد الله ونوس) الشاب المتطلع لعالم الأدب فى ذلك الحين وهو يعقد صداقة من نوع خاص جداً مع طفلة، ولم أكن فى يوم بعيدة عن (زكريا التامر) أو (محمد الماغوط) أو (توفيق فياض) أو غيرهم، ولكن قلبى كان يخفق مع إيقاع خطواتى وأنا أتوجه إلى موعدى فى ذلك اليوم وأحتضن مخطوطى الأخير، وجاءنى صوت أمى عندما قالت لى :لاتذكرى اسمى له .. فهذا ناقد حر وجرىء وصريح وقلمه يجرى فى الضوء .. فلو كان لديك ما يستحق النشر فلسوف يساعدك». ولكنى فى الحقيقة لم أكن أسعى لنشر مؤلفى بقدر ما كنت أسعى للتعرف إليه.

وصلت .. وبمودة وهدوء عذب استقبلنى .. ولا أنسى تلك السيدة الرائعة زوجته .. وفى لقائى الأول هذا معه لمست الجانب الإنسانى الراقى والرفيع قبل أن تتطابق الصورة الأدبية فى ذهنى مع إنتاجه الغزير، والذى كنت أقرأ بعضاً منه فى الصحف المصرية . وكذلك وجدت وجهاً اجتماعياً محبوباً ومحترماً من المستويات الفنية كلها سواء فى المسرح أو السينما أو الأدب أو الصحافة.. إلخ... انتهت زيارتى تلك ولم تكن الوحيدة .. وبالفعل قال لى بعد أن قرأ أحد أعمالى : «هذا أدب حقيقى .. يجب أن يرى النور». عبارة مختصرة وسريعة من ناقد له مكانته العالية فى الثقافة، كانت مفتاحاً وحافزاً لى بدأ معها مشوارى الأدبى فى مصر.

من يجرؤ على نقد الناقد؟.. أنا بالذات لن أفعل .. إذن فلن أتناول إنتاجه الغزير الذى يتوزع بين المقالة الأدبية والمقالة الصحفية والمؤلفات الأدبية والدراسات النقدية، وغيرها وغيرها..

(رجاء النقاش) .. سيرة أدبية وذاتية مشرقة فى سمائنا الأدبية .. وبصمة لها خصوصيتها المتفردة.

فتحية لك يارجاء النقاش ودعاء..

وكلمة صغيرة لك من القلب .. من قلب الوطن العربى «دمشق» التى مدت جسورها ولا تزال إلى مصر ، والتقت معها فى النبض والحب .. وما أنت فى حياتك الأدبية إلا خفقة نابضة فى الوطن كله من محيطه إلى خليجه.

*

مشوار قلم



أحمد زكى عبد الحليم □

من حق الكاتب المبدع والناقد الكبير رجاء النقاش أن يمسك بين يديه بما حققه من حصاد في رحلة عمر ، شهدت إنجازات متعددة سواء في مجال الإبداع أو مجال النقد الأدبي والفني أو مجال الصحافة، حيث كانت له إسهامات متعددة ما بين مجلة الإذاعة والتليفزيون، ومجلة الكواكب، ومجلة الدوحة، ومجلة طبيبك الخاص التى تولى مسئولية تحريرها لفترة من الزمن، دون أن يكون متاحا له أن يبرز اسمه ، بسبب حصار رب السيف والقلم له في هذه الفترة التاريخية.

وإذا كنا نتحدث عن حصاد الأيام الماضية لرجاء النقاش ، فإننا في نفس الوقت ننتظر منه إبداعاً أكبر وعطاء أكثر في قادم الأيام.

بين جيل العمالقة

والحقيقة أن طريق رجاء النقاش لم يكن مفروشاً بالورود والرياحين كما قد يتصور البعض . فقد كان عليه أن يخوض غمار الحياة وهو مازال طالبا في الجامعة ، وكان عليه التزام أدبى نحو آخرين ، وقد استطاع أن يقف على قدميه ، وأن يظل منتصب القامة ، دون أن ينحنى لأحد ، بل أكثر من ذلك فإنه قد شق طريقه في مجال النقد الأدبى بقوة ، وذلك وسط جيل من العمالقة الذين كانوا كفيلين بأن يلقوا بظلالهم على أى قادم ، إذا لم تكن قامته جديرة بأن تطاول قاماتهم ، وأن تتيح له مكانا رحبا يتوازى مع موهبته .

وإذا كانت ظروف الحياة قد فرضت على رجاء النقاش أن يحفر في الصخر في بداياته ، فإن ظروف الواقع قد فرضت عليه أن يواجه تدبيرا خبيثا كان يراد من ورائه تحطيم معنوياته وثقته بنفسه ، بحيث يرتد إلى نقطة البداية وكأنه لم يفعل شيئا طوال السنين الماضية

لكن رجاء النقاش سرعان ما استعاد ثقته بنفسه وبقدراته وإمكاناته وقلمه وعطائه ، فعاد يغرد من جديد من خلال أسلوبه الجذاب ، ومن خلال قدرته على فهم النصوص واستيعابها ، ومن خلال تفوقه في الوصول إلى لحظة التنوير في كل عمل أدبى ، إلى جانب أنه تعود أن يحفل بالنص دون أن يلتفت كثيرا أو قليلا لما إذا كان صاحب هذا النص من أصحاب الشهرة أو من أولئك الذين

□ كاتب صحفي كان قد كتب هذا المقال للهلال في يناير الماضي قبل رحيله

يقطعـــون أولى خطواتهم على طريق الإبداع ، وعندما تولى رئاسة تحرير مجلة الكواكب ، فإن هذا الاهتمام قد امتد من مجال الأدب إلى مجال الفن . ونحن نذكر له أنه كان أول من قدم الشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم والملحن الشيخ إمام. وإذا كان من الصحيح أن موهبة فؤاد ونجم لا تخطئها عين ، فإنه من الصحيح أيضا أن مواهب كثيرة قد ضاعت فى الزحام بسبب فقدان الفرصة . ويحسب لرجاء النقاش أنه فى هذه الفترة الشديدة الحساسية من تاريخ مصر والتى أعقبت النكسة، كانت الصيحة الرائجة أنه لا صوت يعلو على صوت المعركة . ولكن رجـــاء رأى أنه يجب أن تكون هناك أصوات أخرى ، وبخاصة إذا كانت هذه الأصوات تنتقد الأوضاع القائمة ، وهكذا حملت صفحات الكواكب لقرائها تلك الأشعار الصارخة بالحق والجمال والصراحة.

وإذا كان قد أسىء فيما بعد تفسير موقف رجاء النقاش ، فإنه لم يكن يعنيه فى الحقيقة إلا أن يعلو صوت مصر ، وكل صوت يعبر عن مصر ، حتى لو كان هذا الصوت خارجا على السياق العام .

عودة الفارس

ولعلنى هنا أتذكر واقعة خاصة ، ذلك أنه بعد أن تولى رجاء مسئولية مجلة الكواكب ، استأذن من السيدة أمينة السعيد رئيسة تحرير حواء فى ذلك الوقت أن انتقل للعمل معه ، وقدم لها قائمة بأسماء ستة محررين من الكواكب مقابل التنازل عنى . وتركت السيدة أمينة صلب الموضوع لتؤكد أن رجاء يريد أن يتخلص من بعض المحررين بالتحديد ، وهنا وضع رجاء النقاط على الحروف عندما طلب إليها أن تختار أى ستة من محررى الكواكب ، وفى المقابل أعلنت أمينة السعيد أنها لا تتنازل عنى أبدا . وقد دفعنى هذا الموقف المتشدد إلى أن أقول لزميل وصديق أن أمينة السعيد أشبه ما تكون بزوجة ترملت فى شبابها ورفضت أن تتزوج مرة أخرى من أجل ابنها الصغير . فلما كبر وأراد أن يتزوج ، وقفت فى وجهه بإصرار حتى يقابل تضحيتها بتضحية مماثلة ، وأعترف بأن هذه المقارنة قد أقلقت أمينة السعيد وسببت لها متاعب نفسية ، ولكنها لم تغير موقفها أبدا ..

على أن رجاء النقاش قد وجد مكانه الطبيعى فيما بعد ، عندما انتقل من رئاسة تحرير مجلة الكواكب إلى رئاسة تحرير مجلة الهلال . وهكذا عاد الفارس



إلى ميدانه الأصيل ، ووجد تربة صالحة لكى يبذر فيها بذور صحافة ثقافية رفيعة، شهدت عديدا من الإنجازات تمثلت فى أعداد خاصة عن شخصيات أدبية مرموقة ، إلى جانب كتابات رموز الفكر الثقافى ، بحيث يمكن القول أن مجلة الهلال قد شهدت ثلاثة عصور ذهبية بدأت مع الدكتور أحمد زكى ، وامتدت فى عهد كامل زهيرى ، وتواصلت على يدى رجاء النقاش .

الخيار الصعب

ورغم هذا النجاح الكبير ، فإن رجاء النقاش قد قبل أن يخوض تحديا جديدا من خلال مجلة الإذاعة والتليفزيون ، حيث تحول بها من مجلة تهتم ببرامج الإذاعة والتليفزيون إلى مجلة ذات إطلالة فكرية وفنية وثقافية ، فأضاف إليها بذلك روافد جديدة ، جعلت منها كيانا صحفيا متميزا ، واكتسبت جماهيرية كبيرة .

ثم هبت عواصف السياسة لتهدم ماهو قائم وتحاول أن تضع مكانه بنيانا جديدا دون أن يحفل أحد بمن انهدمت المعابد فوق رءوسهم ، وهكذا وجد رجاء النقاش نفسه فى مهب الريح ، وأن كل مابناه فى رحلة عمر وعطاء يكن أن يضيع فى لحظة واحدة ، وكان الخيار قاسيا ، فلم يكن أمامه بعد فترة من المعاناة إلا أن يقبل تحديا جديدا ، ولكنه هذه المرة خارج بلده ، حيث سافر إلى قطر ، وهناك بدأت فكرة إصدار مجلة أدبية جديدة ، والتى تبلورت فى مجلة الدوحة ، والتى كانت بالفعل دوحة لكل أصحاب الفكر والرأى والثقافة والأدب .

وقد جرت مياه كثيرة فى نهر عطاء رجاء النقاش ، ورغم أن مياهه عذبة كنهر النيل إلا أنه دائما مايصادف ورد النيل ، وهو اسم يطلق على تلك النباتات التى تعيق مجرى النهر من ناحية ، والتى تتسبب فى الإصابة بمرض البلهارسيا ، ولذلك كان أحرى بها أن تكون أشواك النيل وليس ورد النيل .

على أية حال ، فقد عاد رجاء النقاش إلى مصر ليجد فى انتظاره «ورد النيل» متمثلا فى رب السيف والقلم ، الذى كان لديه إصرار عنيد أن يحاربه حتى النهاية ، دون اعتبار لما يمكن أن يسببه الحرمان من الكتابة من آثار نفسية لكل صاحب قلم ، فما بالنا إذا كان صاحب هذا القلم رقيقا ، وعذبا ، ومتدفقا ، تماما مثل نهر النيل .

والحقيقة أن السيدة أمينة السعيد ، والتى كانت فى هذه الفترة قد أصبحت رئيس مجلس إدارة دار الهلال ، قد حاولت قدر المستطاع أن تهيىء له طاقة نور يطل منها على قرائه . وعندما ضاقت بها وبه السبل ، لم تجد إلا أن يتولى رجاء رئاسة تحرير مجلة طبيبك الخاص ، على أن يكون ذلك غير معلن من ناحية ، وغير معروف لأطراف معينة من ناحية أخرى .

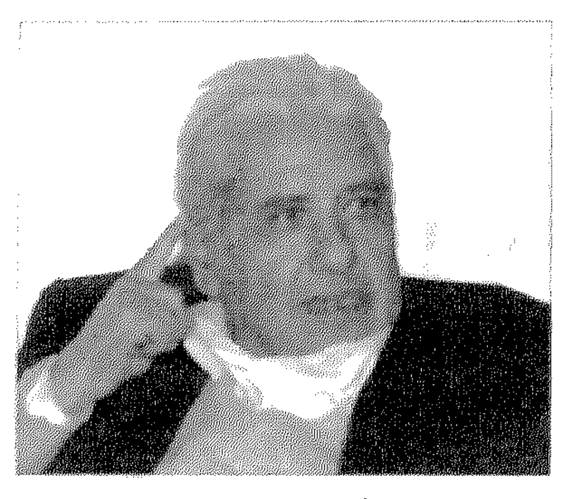
وقد تكون هذه الحقيقة مجهولة فى تاريخ رجاء النقاش الصحفى والأدبى ، ولكن من يعيد النظر فى المجلة هذه الفترة سوف يجد بصمات كاتب متفوق وصحفى متميز وناقد يعرف جيدا كيف يطل على

حياة الناس وكيف يرصد متاعبهم .

وذهب رب السيف والقلم ، وعاد رجاء النقاش إلى مكانه ومكانته فى دار الهلال وكان من الطبيعى أن يستعيد موقعا قديما فى مجلة الكواكب ، رغم أن مكانه الطبيعى كان فى مجلة الهلال ، ولكنه كان قادرا على أن يثبت ذاته وقدراته ، وأن يقف على قدميه من جديد ، وأن يطل على القراء من فوق أى منبر ، المهم هو أن يقول كلمته ، وأن يعبر عن رأيه ، وأن يجتهد مخلصا وصادقا وأمينا . وخلال هذه الفترة أهدى لنا رجاء النقاش كتابه الرائع «فى حب نجيب محفوظ» الذى واصل فيه وبه ومعه رحلة تفوق فى الإبداع ، ذلك أن حواراته لم تكن عملا صحفيا بقدر ما كانت محاولة موفقة وناجحة لأديب وناقد متميز أراد أن يكتشف قارات جديدة فى عالم نجيب محفوظ .

باقة ورد

وبعد ، فقد حرصت على أن أكتب عن رجاء النقاش ، الإنسان الذى عرفته عن قرب ، وظلت بيننا مودة متبادلة على القرب والبعد ، وتلك من مميزات شخصيته ، فهو لا يقطع خيوط المودة مع الآخرين . وكانت له رسالة حب غالية عندما أفرد أكثر من حلقة فى أسبوعياته بالأهرام لكتابى «أحمد شوقى شاعر الوطنية» ، مؤكدا بذلك أنه لايهمل جهود الآخرين ، وأنه يضع كل شىء حيث يجب أن يكون موضعه ، حتى لو مرت فترة زمنية طويلة ، ولعل هذا مايفعله رجاء النقاش كثيرا حيث يعود بنا إلى كتب



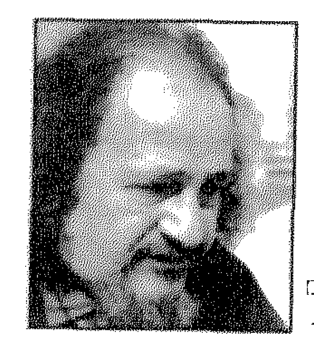
وشخصيات أدبية تركت بصمة فى حياتنا الثقافية ، ولعله أكثر من كتب عن عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين والدكتور زكى نجيب محمود ويحيى حقى وصلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى .

وتبقى هذه باقة ورد متواضعة لكاتب أنصف الكثيرين ، وقد جاء الوقت الذى ننصفه فيه ، ويرى أن ما زرعه من صدق وموضوعية وعطاء واجتهاد لابد أن يكون له حصاد لدى الآخرين .

وهذا بعض حصاد مازرعه الكاتب والناقد رجاء النقاش فى رحلته الإنسانية التى ندعو الله أن تمتد لكى يعطى أكثر ، باعتبار أن أفضل ما لدى الكاتب هو الذى لم يقله بعد .

وليس هناك التباس فى الحديث ، ذلك أن رجاء النقاش الإنسان هو نفسه رجاء النقاش الكاتب ، فهو من الحالات القليلة التى يتوحد فيها الفنان مع الإنسان ، ولذلك فإن رجاء النقاش يعرفه الذى يقرأه ، ويقرأه الذى يعرفه ، وفى الحالتين يجد أجمل صحبة للقلب والعقل معا.

أستاذى فى الأدب



جورج البهجورى □

وجه رجاء النقاش أقرب إلى شكل المربع أو المكعب، إلا أنه ليس هندسياً بصفة سميترية، لأن صعوبة الرسام معه أن نصف الوجه لا يقابل النصف الآخر تماماً، وهو بالنسبة لرسام الكاريكاتير بالذات لا يجد مجالاً للسخرية ولا حتى المداعبة، لأن الفكين غير منتظمين والوجه ليس له مفتاح للدخول إلى شخصيته، ولا يوجد حل سوى متابعة الروح الهادئة الصافية.

كلامه همس وصوته له رنين عاقل، وانتظام فى تسلسل الحديث وترتيب وجهة النظر إذا كانت تمس صميم عمله كناقد.

صريح لا يجامل

ولكنه يضع لمسة النقد الأولى ويرتب عليها سرداً بطيئاً لتكملة نظريته التى يبنى عليها منطقاً وقاعدة علمية وهو صريح لا يجامل ولكنه حاد قاطع فى تحليله النقدى وكشف العيوب.

لا تستطيع كرسام أن تتطلع إلى عينيه لتعرف ما بداخله.. والعين عين الرسام عندما تدور لتبحث عن «السلويت» لا تجد سوى دوران أقرب إلى المربع، ماعدا الخط المرتعش الذى يحدد الرأس من أعلى. ناهيك عن ولعه بالخجل الشديد.

إلا أنى عندما سافرت إلى باريس وعشت يوما مع شقيقه النبيل : وحيد النقاش، كنت أرسمه بسهولة أكثر، لأن وجهه مثلث حاد وعيونه واسعة مفتوحة، تشرح كل ما فى أعماقه من أحاسيس.

إنه يهمس إلى نفسه، يفتح فمه ليتكلم كلمات قليلة. يسكت ثم ينصت ويبدأ بكتابة كلمة واحدة. تصبح الكلمات بكرة خيط بها آلاف الأمتار.

منحنياً على مكتبه وأوراقه، وكنت الرسام الوحيد الذى هجر غرفة الرسامين إلى هذه الغرفة المجاورة يجتمع فيها أعلام الكلمة فى أحلى سنوات العمر والإبداع.

وكنت قد قرأت كلمة فى مذكرات بابلو بيكاسو بأنه لا يحب الجلوس إلى الرسامين أمثاله ولكنه يفضل صحبة الأدباء والنقاد والشعراء والمفكرين.. لذلك تابعته فى مذكراته، وشهد عصره صداقته بإيلوار وماكس جاكوب وجان كوكتو وبودلير.. ودى شامب. تعجبت لبوح بيكاسو فى هذه الآونة التى جعلت هذه المجموعة فى سنوات العصر الذهبى منذ الثلاثينيات والأربعينيات هى قمم مشتركة

□ فنان تشكيلى وكاتب



للإبداع التى تختلط فيها الريشة مع القلم، حتى رينوار الابن الذى أبدع فى مسيرة الفيلم.

يقول أيضا إنه يتغنى فى نغمتين مختلفتين، ولكنهما يكتملان ويزدهران فى آن واحد. لأنه يرسم بعين ويستمع بعين أخرى هى أذنه.. يسمع أشعارهم كأنه يراها فيزداد وهجه وحنينه إلى الرسم وربما يشتعل لهب الرسم بكلمة رنانة قالها صديقه بجواره بحكمه جديدة أو فكرة نادرة أو بيت شعر، حتى النساء فى حياة بيكاسو يكتملون معه فى إطار أجمل مما لو كان وحده، فهذه حبيبته دورا مار التى أضافت إلى إلهاماته من إلهامها، لأنها مصورة فوتوغرافية فى أعمال مستقبلية فى فن التصوير الفوتوغرافى التى كتبت عنه أخيرا، فى مذكراتها معه قبل وداع الحياة، وقالت إنها أجمل فترة فى حياتها هى مرحلة حبها لبيكاسو.. وقد التقت به فى مقهاه المعروف دى ماجواه Deux Magois .

وكنت قد جلست مرات عدة، كلما مررت بالسان جرمان على طاولة بيكاسو. وعندما قدم لى الجرسون نوتة الطلبات الأنيقة كأنها كتيب صغير محلى بالصور، وإضافة فقرة جميلة تقول «هنا على هذه

المائدة جلس سارتر وسيمون دى بوفوار ورينيه ويج ومالرو وألبير كامى وبريتون وبيكاسو وكوكتو وبودلير وإيلوار».

جاءتنى على التو إحدى قفشات اللحظة عندما فاجأت أدونيس أقول له ضاحكاً: هيا بنا نغادر المقهى لأنهم لم يذكروا أسامينا، فضحكنا من جديد وقد كان لى شرف ضيافة الشاعر أدونيس، لأننا أصدقاء باريس أولاً، ولأنه أهدانى نسخة خاصة بورق الرسم (الفبريانو الفاخر) أغلبها أبيض، وهو يعرف جنونى بالرسم، فكان ديوانه الأخـــير هدية متبادلة، كنا قد اتفقنا عليها كصفقة محبة وإعجاب متبادل، لأنى أعدت له الهدية محلاة بهدية منى، حيث ملأت جميع الورقات البيضاء إلى رسوم ليس لها علاقة بكلماته، كما اتفقنا تماما دون أن يكون رسمى كرسوم الكتب والصحافة تشرح فكر الشاعر :

قال لى : أنا أرسم كما الموسيقى، وأنت ترسم بخطوط موسيقية أيضا، ما رأيك أن تلتقى الأوتار سويا من كلماتى ورسومك..

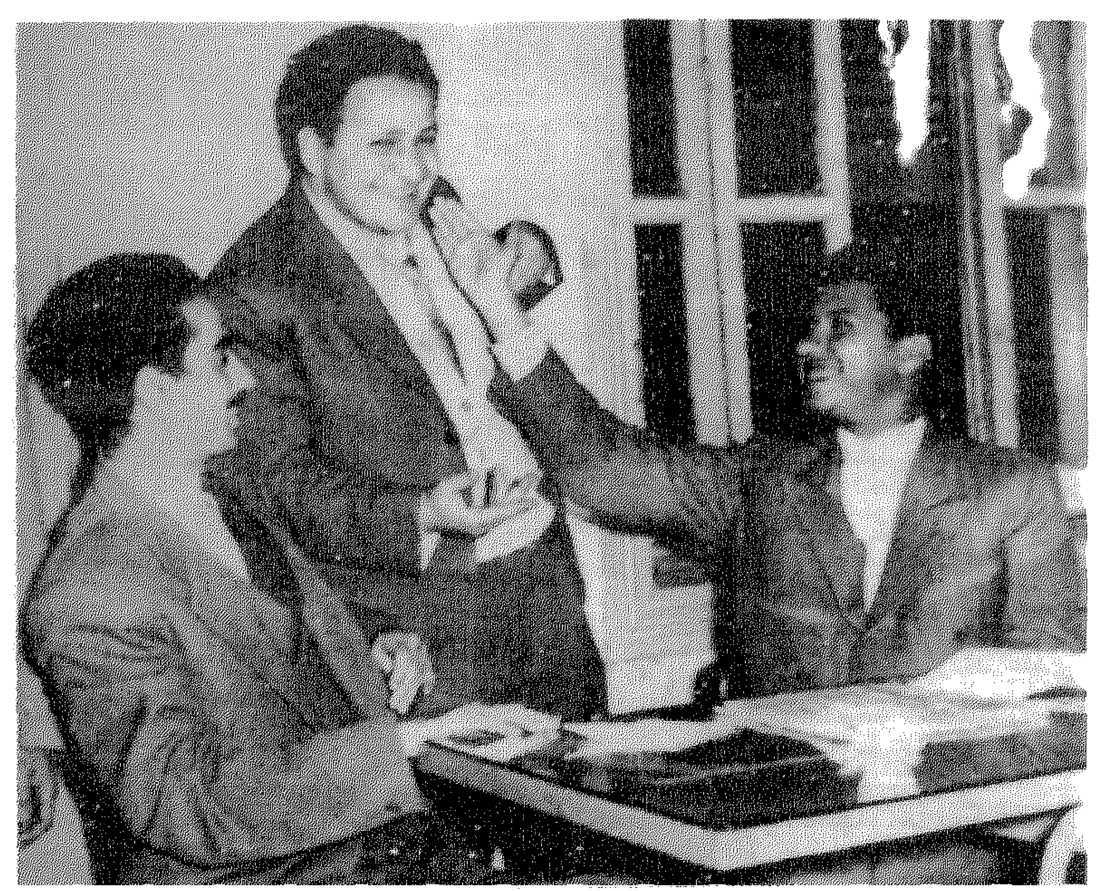
كانت صحبتى له من أسعد لحظاتى كرسام مع الموقع والموضوع وتنفيذ الفكرة، وأذكر أنه أجمل ما قرأت ورسمت، ولكن للأسف إنها نسخة واحدة أضيفت إلى مكتبته بل إنه جعل لى ركنا خاصا بها وضع فيها الكتاب المشترك وقطعة من نحت البرونز اقتناها منى فى إحدى زياراته لى فى مرسم إيفرى، وكنت قد شرعت فى فن النحت بباريس.. وأضيفت إلى هديته أو هديتى دعوة لأقدم مطعم فرنسى فى الحى اللاتينى، اخترت بنفسى أنواع النبيذ المعتق، وازدادت المتعة عندما انضمت لنا صديقتى إيزابيل الرسامة الشقراء وهى تحلم بلقاء أحد شعرائها المفضلين، لأنها قرأت ترجماته وترجمات روايات نجيب محفوظ وإدوار الخراط وآخرين من مكتبة سندباد.

في غرفة الأدباء

كل هذه الثرثرة الباريسية هى مقدمة لعشقى للأدب وللأدباء، ومتابعة لهجرتى من غرفة الرسامين فى مجلة روزاليوسف إلى غرفة الأدباء وهم بالصدفة جوقة نادرة مع لقاء صلاح عبدالصبور على يمينى، رجاء النقاش أمامى، وأحمد عبدالمعطى حجازى على الجانب الآخر.. والثلاثة فى قمة العطاء.

أما المناسبة التى خطفتها هى عثورى على مكتب صديق عمرى الرسام والشاعر صلاح جاهين عندما ترك مكتبه وغادر الدار إلى الأهرام، حتى أنى فتحت أحد أدراجه الخاوية، فعثرت على مسودة الليلة الكبيرة بخط يده احتفظت بها حتى الآن.

أكملت الدور حتى الإتقان.. فأنا لا حضـــور لى ولا لى وجـــود.. ولابد أن ينسونى تماما.. لا أحد يكلمنى، غارقا فى أوراقى، أرسم حتى منتصف الليل وهم الثلاثة ربما ينضم لهم عبدالله الطوخى أو فوزية مهران أو ينضم محمد عودة أو كامل زهيرى أو زينب صادق، أوراقى متناثرة مبعثرة وهم حول رؤوسهم هالات نور كما القديسين، يتداولون



مع جورج البهجورى والكاتب الصحفى عبد الله إمام «١٩٦٠»

كلمات لها مغزى كبير وأنا كنت مازلت طالبا فى كلية الفنون الجميلة (السنة النهائية)، إنهم يتداولون كلماتهم فى صمت وأنا أختزن كأنى لص يلتقط ويحاول أن يعرف سر الخزينة أو المفتاح. أنا جاهل لا أفهم سوى فن التشكيل والرسم وفلسفة التكوين والتعبير والبعد الرابع.

لكننى سعدت به رجاء فى إحدى مقالاته عندما بدأ يقرأ اللوحة، فأسهب فى تحليلاته النقدية التشكيلية فى لوحات سيف وانلى وكانت فعلا مفاجأة.

ثم فجأة ذات صباح، رسمت «بورتريه» لرجاء النقاش؛ وجه مبطط بسيط بملامح عادية، الأنف معتدلة، يبتسم على جانب واحد والذقن لها قوس مبطط والخط السلويت للوجه لا يذكرنى بشىء سوى ملامح جديدة وربما طريقة تصفيف شعره هى التى تعطى نغمة لها جمالية فى الخط بشكل معين.

ورغم أنك تشعر بأنها رأس تحمل قاموسا مزدحما بالثقافة ووجهات النظر الخاصة به، إلا أن هذا التميز تقرأه عندما يكتب ولكنه لا يحكيه تماما وكأنه يقول بعض العناوين لمقالته.

هكذا عرفت رجاء النقاش زميلا لى فى غرفة واحدة عندما هجرت غرفة الرسامين برغم سحر شخصياتها، أمثال الفنان المبدع «جمال كامل» وأحد ظرفاء مصر «بهجت»، والساخر المرير رجائى

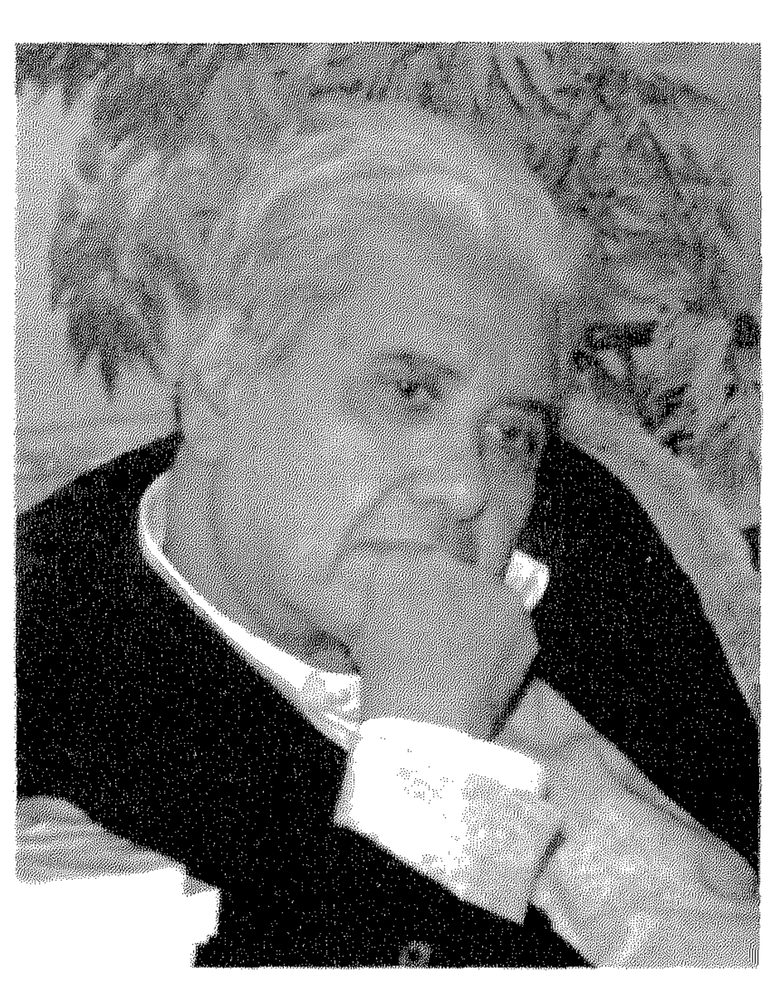
ونيس، والصامت فى ذكاء «أحمد حجازى»، و«صلاح الليثى» الذى نحت ركنا بعيدا فى مكان مجهول ليرسم وحده. بالإضافة إلى صاحب الضحكة الصافية والمرح الدائم «هبه عنايت»، إلا أن نظرية احتكاكى بأعلام الأدب من جيلى كان قد تحول إلى إلحاح بلا منازع مؤمنا بنظرية بابلو بيكاسو إنه يزداد عقله وهو يرسم.. حتى لا يصبح فقط حرفيا أو متقن صنعة الرسم دون تطوير الذهن وازدحامه بوعى الحياة والخروج إلى الكون الواسع من خلال الكلمات فى الشعر والأدب والنقد.

الأدباء يعتبرون أن الكلمة مقدسة، ولا يجوز لفنان من نوع آخر كالرسام والموسيقى والطبيب أن يستعملها ولو فى مذكراته.. فهى مقصورة عليهم فقط ومن يدخل حلبتهم يحتقرونه بأسهل الوسائل وهى التجاهل التام.

إلا إنى دخلت عالمهم بالوضع الطبيعى والجوار الطبيعى، وكأنى أشرب كل صباح ومساء جرعة كاملة من عصير الفيتامينات. وبدأت أحفظ بعض العبارات الساحرة الوقع والاستماع.. عندما يقول عبدالصبور مثلا : صدر جديد.. طائران أزغبان أو يقول عبدالمعطى حجازى: سلمك العالى إلى أين يؤدى. وارتاح لى رجاء النقاش بالذات وبدأ يبتسم لرسومى أو قفشاتى المرسومة وأشهرهم رسالة جاءته من معجب رجل كتب على المظروف إلى الآنسة رجاء النقاش، ورسمت لصلاح عبدالصبور قصيدته، فضحكنا أكثر..

إلا أن حواراتنا زادت وتألقت، وأصبحت أدرس فى صمت فن الأدب عندما يجىء آخرون إلى ذات الغرفة من كبار جيل النبوغ السحرى فى المسرح والرواية والقصة والقصيدة، أمثال سعد الدين وهبة وعبدالقادر القط وأمل دنقل. تركونى فى ركنى الصغير منحنيا على اكتشافات الفنون التشكيلية لإبداع رسم جديد، لأنى لم أكن حرفيا أعمل بالصحافة رغم العشرينات من العمر، ولكنى كنت أجرب واخترع تلخيصات حتى أصل إلى الموجز.. يزداد عندى الشغف فى الرسم فأمحو التفاصيل ثم أعود إلى الخط الأخير الذى يحدد كل الملامح للشخصية ذاتها، أما النكتة فهى تخرج عابرة تلقائية بلا قانون فى فن الرسم.. لا تكوين ولا بعد رابع ولا ثرثرة فى الخطوط.

لذلك ازدادت لدىّ مفهومات جديدة تقترب فى الرسم من الأدب. وتذكرت مرة أخرى كيف يكتب «كوكتو» عن فن لوحة محددة وهو الذى يسميها ويعطى لها عنوانا مثل لوحة (دورامار) الشهيرة، المرأة التى تبكى أو دموع دورامار وكذلك فى لوحة مدموزيل أفينيون، حيث سقط بيكاسو فجأة ذات ليلة فى مدينة أفينيون الجنوبية بعد بوردوا فى ملهى ليلى، فرسم كما لم يرسم فى حياته على أوراق عديدة تشبه أوراق تغليف العلب والصناديق، واكتشف وسط الفتيات مدموزيل أكثر عذوبة من أى عذراء، بالإضافة إلى لوحته الكبيرة



الشهيرة (جورنيكا) القرية التى دمرها فرانكو أثناء الحرب العالمية الثانية.

الفنون عندما تجتمع تصبح صيحة واحدة، كما تلتقى أصوات العازفين فى نغم واحد على مسرح الأوبرا، لذلك كنت أحلم أن تبقى جوقة واحدة بين الرسم والأدب والشعر.

رغم روعة الثلاثة فى غرفتى الجديدة، إلا أن همسى مع رجاء النقاش ازداد يوما بعد يوم، وخاصة عندما نعود سيرا على الأقدام من القصر العينى إلى وسط البلد، وكأننا عثرنا على شىء مشترك هو المناقشة الخافتة الهامسة التى تثمر أكثر فكرا جديدا.

أصبحت تلميذاً للناقد والكاتب الكبير، زميل غرفتى، رجاء النقاش، وطلبت منه نصيحة أو نصائح فأرشدنى إلى أول كتاب يهم قارئاً ناشئاً مثلى وهو (رسائل نهرو إلى ابنته أنديرا).

ثم أدخلنى عالم تشيكوف وجوجول وتولستوى وجوركى ودستويفسكى، فأصبحت مثله أسير بجواره حاملاً كل منا مكتبة كاملة تملأ حيزاً كاملاً تحت إبطنا.

مشكلتى الوحيدة مع أستاذى رجاء النقاش أنه لم يقرأ كلمة لى، وربما لا يعترف بأنى روائى يعتمد على المشهدية المرسومة، بل إنه كان رئيس لجنة تحكيم جائزة نجيب محفوظ للرواية التى تنتظم كل عيد ميلاد للكاتب الكبير الذى بالصدفة يوافق عيد ميلادى.

ثلاث مرات أتقدم وأفشل كروائى، ولكن أستاذى رجاء النقاش لم يعطنى صوتاً واحداً، رغم أن رواياتى الثلاث نالت تقدير د. على الراعى وإدوارد الخراط وصلاح فضل وخيرى شلبى. وهم أكبر رواد أدب الرواية.. لكن الديمقراطية لا تعرف العلاقة الشخصية.





أحمد على بدوى □

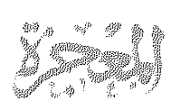
جرت العادة على أن تلحق كلمة "المعجزة" باسم من أسماء الإنسان يدل على واحدة من مراحله العمرية، وهى بالتحديد الطفولة؛ فيطلق على من أتقن العزف الموسيقى فى سن مبكرة وصف "الطفل المعجزة" لأنه فى سنه المبكرة يؤدى العزف بإتقان مماثل لذلك الذى يؤديه به من يبلغون سن النضج. ولأن سن النضج للعازف هى سن العشرين أو ما دونها بقليل فإن الذين يستحقون وصفهم بالمعجزة بفضل سبقهم إلى الإتقان هم الأطفال. هذا عن العازف، اما الكاتب فإنه لا يبلغ سن النضج إلا فى الحلقة الخامسة من العمر؛ لذا حق أن تطلق صفة "المعجزة" على شاب لاح لأبناء جيلى ونحن فى سن العشرين أنه فى سن الثلاثين أو ما دونها بقليل، وهو رجاء النقاش! كانت نصوصه المبدعة فى الصحافة المصرية تصب فى تيار نحت له البعض فيما بعد اسم "الاستغراب" (ليس بمعنى الاندهاش، بل بمعنى التعريف بالغرب؛ كما يسمى التعريف العلمى بالشرق "الاستشراق") هذا التيار الذى بفضله كتبت أسماء أجنبية لأول مرة باللغة العربية؛ فكتبت باللغة العربية أسماء أناتول فرانس وأندريه جيد وفرانز كافكا – ومعها أسماء أخرى عديدة – بقلم طه حسين فى مجلة الكاتب المصرى التى رأس تحريرها فى الأربعينيات من القرن العشرين، وكتب باللغة العربية اسما الأديبين الأمريكيين وليم فوكنر وإرنست همنجواى – ومعهما أسماء أخرى عديدة – بقلم لويس عوض فى مقالاته التى نشرها بين سنتى ١٩٥٧و ١٩٥٩ فى جريدتى "الشعب" و"الجمهورية"، وبقلم لويس عوض أيضا كتب بالعربية اسما الشاعرين الروسيين ماياكوفسكى ويسنين – ومعهما أسماء أخرى عديدة – فى مقالاته التى نشرها بجريدة الأهرام بعد انتقاله إليها فى أوائل الستينيات من القرن العشرين، وبقلم رجاء النقاش كتبت نصوص عمقت معرفتنا بإبداعات أدبية حملت اسمى تولستوى وتشيكوف، ومعهما أسماء أخرى عديدة!

وكان رجاء النقاش الأصغر سنا من بين من تعرضوا لهجمات العقاد الباطشة! العقاد الذى اشتبك فى عنفوانه مع طه حسين وتوفيق الحكيم ثم واصل معركته الفكرية مع توفيق الحكيم ثم ناوش أمين

□ كاتب ومترجم



البورتريه للفنان محمد حجى



الخولى واصطدم بمحمد مندور: كانت آخر معاركه معركته مع رجاء النقاش، ودارت على صفحات "الأخبار"حول كتاب رجاء النقاش "التماثيل المكسورة"؛ ومن بين ما أخذه العقاد على الكتاب خلوه من الهوامش التى تذكر فيها المراجع التى استلهمها مؤلفه، وأجاب رجاء بما يفيد بأن فصول الكتاب هى كالمقالات الأدبية؛ تثقلها إضافة الهوامش إليها.

وبالفعل فإن فصول الكتاب هى كمجموعة من المقالات وإن آثر صاحبها أن يصفها فى المقدمة بأنها صور نفسية، صور كانت المشكلة الرئيسية فيها كلها هى المشكلة التى شغلته سنوات طويلة، فانصرف إلى التفكير فيها بعقله وقلبه معا، وهى نفسها المشكلة التى وجد الكثيرين يفكرون فيها مثله وربما أكثر منه... ويبحثون لها عن حل؛ "وهى مشكلة لا يمكن تحديدها فى كلمة واحدة. إنها مشكلة الخصومة مع الحياة"، تلك الخصومة التى يقول الكاتب إن إنسانا واحدا لم يفلح فى الإفلات منها، وإن كل إنسان يتساءل عن الطريق إلى الحياة فى سلام مع نفسه، وفى سلام مع الناس؟ وعن العقبات التى تقف فى الطريق؟ وعما هو الأمل... والتفاؤل... والتشاؤم... والحزن... والفرح؟ وهى أسئلة يحاول فى كتابه أن يجيب عليها... "مجرد محاولة، لا تزيد فى أنجح صورها عن أن تكون مجموعة من أقراص الأسبرين هدفها تخفيف ذلك المرض القديم: الحزن البشرى والخصومة مع الحياة". والكتاب يبدأ بمقالة تحمل نفس عنوان الكتاب: "التماثيل المكسورة"، وفيها يعرض الكاتب للأشخاص الذين يكرهون الامتياز ويعادون التفوق ولا يحب الواحد منهم "أن يرى تمثالا جميلا تنظر إليه العيون بإعجاب"، ولا يستريح إلا "إذا حطم هذا التمثال ورآه مجموعة متناثرة من الأحجار"؛ ولكن من بين عوامل انتشار تلك الظاهرة - كما يقول رجاء النقاش فى نهاية المقالة - "أن الشخص الممتاز نفسه يتيح الفرصة لمثل هذا الموقف؛ فهو غالبا ما يكون منصرفا إلى الأشياء الجوهرية فى الحياة"، وهو يرجع إهمال الشخص الممتاز تحصينه لنفسه إلى "ما يصح أن نسميه ضعف العظماء؛ وهو الضعف الذى يؤدى إلى عدم رؤية الآخرين رؤية صحيحة، والعجز عن تصور انفعالاتهم الخفية"، وهو تشخيص ينم عن نبل القائل به؛ إذ أن للصورة جانبها الآخر، والذى صوره هو نفسه فى فصل آخر من فصول نفس الكتاب، هو الفصل الذى عنوانه "الطفل المدلل" (يقصد الفنان)حيث أورد ترجمته البديعة لتصريح لأوسكار وايلد قال فيه "أحطت نفسى بأصحاب العقول الصغيرة، وأصحاب النفوس الصغيرة، وأسرفت فى تبديد ذكائى وفى تبذير شبابى الذى كنت أظنه لا يفنى أبد الدهر؛ وكنت أجد فى هذا التبديد وهذا التبذير لذة عجيبة!" إلا أن هناك لذة أسوأ: اللذة الخطرة كما سماها رجاء النقاش فى فصل آخر حمل هذا العنوان. إنها لذة الفشل، الذى "يتحول



فالنتينو فى فيلمه «فرسان نهاية العالم الأربعة»

إلى عـادة ثم اقـتناع... وفى آخـر الأمـر يصبح لذة يمارسـها الإنسان باستمتاع وسعـادة. ولذة الفـشل تبدأ عندما يلقى الإنسان سبب فشله على الآخرين؛ فيشعر أنه برىء أو شهيد، ويبعد عن نفسه تماما مسـئولية الوضع الذى وصل إليه؛ فـلا يحس بالقلق الذى يشـعر به إنسان ينقد نفسه ويراقب تصرفاته ويضع أمامه هدفا يريد أن يحـقـقـه... ثم يتـعب ويعـرق فى سبيل الوصول إليه".

وفى فصل عنوانه "الأمريكى الحزين" يحدثنا رجاء النقاش عن فنان الشـاشة الأمـريكية السـاطع جـيمس دين، والذى عرفه جمهورنـا عندما تألق فى فيلم إيليا كازان "شرق عدن": كيف دفعه حزنه إلى قيادة سيارته بسرعة رهيبة؛ حتى لقى حتفه فيها، وهو القائل عن سلفه رودولف فـالنتـينو الذى لقى مـصـرعـه شابا فى حـادث طائرة "سـأكـون أنا كـذلك.. عش شابا ومت شابا!..."، ونحن نعرف أن هذا المثل قد حدث المقربين إليه عن كابوس يعـاوده يرى فـيـه نفسـه منتهيـا داخل سـيـارته وقـد اصطدمت؛ مما يوحـى بأن المنية قد وافته عن مطلب منه خفى أو غير خـفى، ولكنه هو الذى ألح عليـه، ويقـول رجـاء النقـاش إن جـيـمس دين لم يكن الحزين الوحيد فى أمـريكا، بل إن هناك غيـره وإن بدوا أقل منه تشـاؤمـا، ومنـهم الروائـى جـون شـتـاينبك الذى أبدع فى تصوير الطبيعة (البرية) الأمريكية: "فهو يتحدث كثيرا عن المياه والحقول والسماء والليالى المقمرة والشمس الدافـئة..كأنه يريد أن يقـول للأمـريكان: إن فى الدنيـا شيـئا غيـر الآلة... إن الحقول أجمل من ناطحات السحاب، وأشعة الشمس الدافئة أعظم من تكييف الهواء!"

وفى فـصل عنوانه "ابتـسم!" يقـول لنا رجـاء "إن الابتـسـام هـو سر الحـياة... هو



الترفع على أذاها والتكبر على مشاكلها، وهو الجهد المتواضع النظيف لوضع الزهور على المقابر... واعتصار المحبة من أشواك العواطف الصغيرة، وهو الاستغناء الجميل... والاكتفاء بسعادة الرضا الداخلى، وتدريب النفس على الاحتمال".

وفى صفحات كثيرة من الكتاب يتجلى إعجاب رجاء النقاش بتولستوى؛ فهو فى نظره أشبه بالأنبياء، وهو يذكر عنه أن أسئلة ستة ظلت تراوده، وهى "لماذا أعيش؟ ما سبب وجودى ووجود كل إنسان غيرى؟ ما سبب الخلاف الذى يوجد داخلى بين الخير والشر؟ كيف يجب أن أعيش؟ ما الموت؟ كيف يمكننى أن أصل إلى النجاة؟" وعندما نبلغ هذا الموضع من كتاب رجاء النقاش نكون قد قطعنا منه مئة من الصفحات؛ ونحس لزاما علينا أن نعود إلى أسئلته هو الأولى التى طرحها فى مقدمة كتابه: كيف يجد الإنسان الطريق إلى الحياة فى سلام مع نفسه، وفى سلام مع الناس؟ ما هى العقبات التى تقف فى الطريق؟ ما هو الأمل، وما التفاؤل، وما التشاؤم، وما الحزن، وما الفرح؟" فهل بات فى مقدورنا أن نجيب بأنفسنا عن أسئلة الواحد منهما والآخر، أم أننا لا زلنا فى حاجة إلى ما (أو من!) نتوكأ عليه؟! أيا كانت إجابتنا فإن ما نخرج به من هذه القراءة هو ضرورة البدء بالذات فى سبيل الوصول إلى الموضوع، الذات التى يجب حتما أن نعكف عليها حتى تكتمل قدرتنا على أن ننبرى للموضوع؛ ذلك أن العلاقات الاجتماعية السوية لا يمكن أن تتحقق وتنجح ما لم يتم شفاء النفس، وهو الموضوع الذى كرس له المفكر المصرى الرائد يوسف مراد أحد مؤلفاته، وكان الدكتور يوسف مراد أستاذا بقسم الفلسفة وعلم النفس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وهو الذى أشرف- فى أيام بعيدة سبقت ثورة ٢٣ يوليو - على رسالة للماجستير كتبها فى موضوع "الأسس النفسية للإبداع الفنى" شاب أصبح فيما بعد "الدكتور" (من لندن) مصطفى سويف الذى نعرفه جميعا ونجله، والذى نال - فى السنة الماضية - جائزة مبارك للعلوم الاجتماعية. وقد وضع يوسف مراد أسس منهجه فى علم النفس الذى اتخذ له اسم "التكاملية"؛ وحيث يكون للتأمل الواعى - المشابه نوعا ما لذلك الذى يسلطه المتصوفون على الذات - فضل فهم مشكلات يواجهنا بها الموضوع، مشكلات تتعلق بالوجود والعدم والحرية والعمل والمعرفة والإبداع؛ وهذا بفعل آلية تعاود وصل الذات بالموضوع على نحو يكاد يماثل الحركة اللولبية.

التماثيل المكسورة

وقد صدر كتاب الدكتور يوسف مراد "شفاء النفس" من دار المعارف فى سلسلة "اقرأ" التى صدر فيها أيضا كتاب طه حسين "أحلام شهرزاد" وكتاب رجاء النقاش "التماثيل المكسورة "، والذى أتيحت لى فرصة الاطلاع عليه حين تلقيت نسخة منه هدية فى عيد ميلادي العشرين

فى ربيع سنة ١٩٦٤ من زميل لى فى قسم الصحافة من كلية الآداب بجامعة القاهرة! أجل كلية الآداب التى كانت فى ذلك الوقت تضم من بين أقسامها قسم الصحافة الذى تضمه اليوم كلية الإعلام، وكان الزميل الذى أهدى إلى الكتاب - معبرا بخط يده على الصفحة التالية لغلافه عن أمله أن يلقى الكتاب بما فيه من تجارب وأفكار بعض الضوء على الطريق الذى أسير فيه - أحيانا يتخلف عن حضور بعض المحاضرات: فإذا سألناه - متى رأيناه فى وقت لاحق - عن سبب تخلفه أجاب بأن "مهمة إنسانية" هى التى شغلته. وبعد أدائنا الامتحان وأثناء انتظارنا النتيجة، نشرت الصحف أنباء إحباط مؤامرة سياسية ونشرت أسماء المتهمين بالضلوع فيها، وفوجئنا بأن الثالث أو الرابع من الأسماء بعد اسم سيد قطب هو لذلك الطالب الذى ألفنا صحبته لا فى المحاضرات النظامية طيلة الأسبوع فحسب، بل أيضا فى أيام الجمعة حين دأبت مجموعة منا على ارتياد ندوة العقاد (والتى كان هو نفسه - العقاد - يعتز بتلك التسمية لها؛ ولا يساير مسمى "الصالون" السخيف!!). وقد لحقنا بأواخر أيام الندوة والعقاد فى الرابعة والسبعين من عمره، يضع اللمسات الأخيرة فى كتابه "يوميات" الذى جمع فيه مقالاته المحدثة فى "الأخبار" بمثلما جمع فى كتابه "ساعات بين الكتب" مقالاته المبكرة فى "البلاغ"، ويثابر على كتابة المقالات الأسبوعية فى جريدة "الأخبار" والشهرية فى ثلاث مجلات هى


جون شتاينبك

مجلة "المجلة" ومجلة الأزهر، وأخيرا وليس آخرا فى المجلة الصادرة عن الدار التى نشرت للعقاد كتابه "خلاصة اليومية" سنة ١٩١٢ وهو بعد فى الثالثة والعشرين: ونحن فى الحالين أمام أرفع الأسماء: "الهلال"!

كان ذلك الطالب من أشد المتحمسين للعقاد؛ لذلك فوجئنا نحن طلبة قسم الصحافة المنتظرين نتيجة امتحان الليسانس فى صيف سنة ١٩٦٥ بذلك الذى علمناه عن زميلنا؛ فقد كان المنتظر من أى من التكوينين اللذين نالهما أن يساعده على إلقاء الضوء على الطريق الذى يسير هو فيه، فكر العقاد ومناهج قسم الصحافة بكلية الآداب، ذلك القسم الذى كان يدين بحياته لعلم من أعلام الكلية، أعلام قسم اللغة العربية بها:



والذى كان الدكتور عبد اللطيف حمزة يدرس فيه الأدب المصرى فى العصور الوسطى، بدءا بالفاطمى منها ومرورا بالأيوبى وانتهاء بالمملوكي، وهو تخصصه الذى كتب فيه رسالته للدكتوراه تحت إشراف الأستاذ الكبير أحمد أمين ووضع فيه المراجع وحقق بعض النصوص التاريخية المنسوبة لرجاله. كما كان الدكتور عبد اللطيف حمزة يلقى محاضرات فى معهد الصحافة الذى يلتحق به الحاصلون على الليسانس من مختلف الكليات، الحقوق والتجارة والآداب وربما البكالوريوس من كلية العلوم أيضا! وعلى هذا النحو كانت الدراسة الأكاديمية للصحافة: على غرار نظائرها فى كثير من دول العالم، تالية للمرحلة الأولى من الدراسة الجامعية – مرحلة الليسانس أو البكالوريوس – لا جزءا منها؛ حتى أنشئ قسم الصحافة فى كلية الآداب ليدخله الطلبة الحاصلون على شهادة إتمام المرحلة الثانوية، مثله مثل سائر أقسام الكلية.

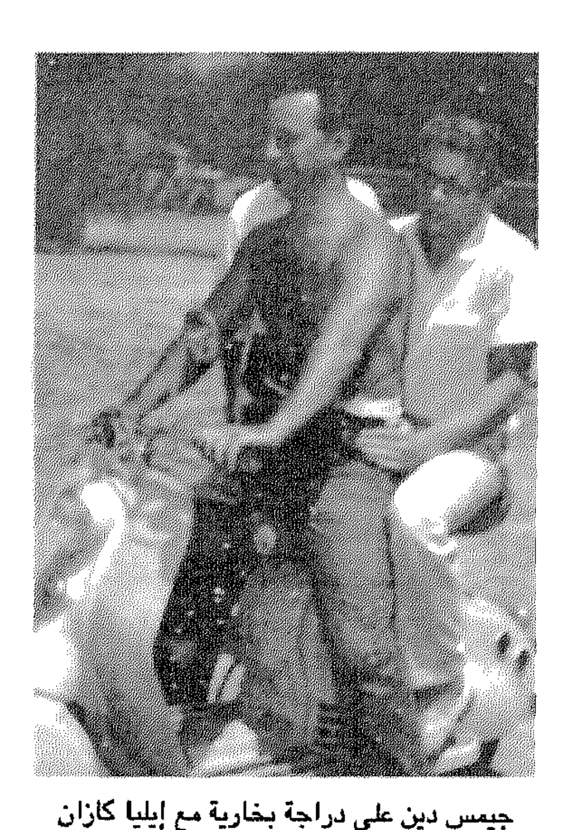
قسم الصحافة

وعندما اتجه الدكتور عبد اللطيف حمزة إلى تدريس الصحافة واختار أن يكون موضوع درسه أصول فن التحرير الصحفى، لم يكن قد بعد به العهد عن تخصصه الأصلي؛ فاستهل سلسلة المراجع التى كتبها فى مادته – وانتقى لها عنوان "أدب المقالة الصحفية" – بصفحات حلل فيها كتابات الأدباء العرب فى القرون الوسطى باعتبارهم أسلافا للكتاب والمحررين المعاصرين؛ فهل يدهش صحفيو اليوم إذا قيل لهم إنهم من سلالة الجاحظ والقاضي الفاضل وبديع الزمان الهمذانى (أول من ترجم الشعر من الفارسية إلى العربية أو الأقدم من بين من فعلوا ذاك) وعبد الحميد الكاتب وابن العميد؟ كلا إن كان هؤلاء الصحفيون من تلامذة الدكتور عبد اللطيف حمزة، والذى واصل – بطبيعة الحال – تحليلاته لنصوص آباء الكتابة الصحفية حتى أدرك القرن العشرين وأدباءه الذين كتبوا فى الصحافة، وصحفييه المحترفين.

وعندما رأس الدكتور عبد اللطيف حمزة قسم الصحافة بكلية الآداب لم يقصر هيئة التدريس فيه على أعضائها من المتخصصين الذين درسوا لنا تاريخ الطباعة (الدكتور خليل صابات) والصحافة العربية (الدكتور حسنين عبد القادر) والأجنبية (الدكتور إبراهيم إمام) والإخراج الصحفى (الدكتور أحمد حسين الصاوى) ومعهم بعض الصحفيين المهنيين الذين حدثونا عن خبراتهم (ومنهم الأستاذ على حمدى الجمال) والذين ظللنا نغترف من نبع عطائهم منذ بدأنا نستمع إليهم وحتى اليوم. بل وجد من بين أساتذتنا من جمع فى شخصه بين النموذجين الأكاديمى والمهنى، وهو الدكتور حسنين عبد القادر؛ فإلى جانب موقعه الأكاديمى الذى أطل علينا من عليائه، كان أستاذنا هذا من بين من تولوا رئاسة تحرير مجلة "بناء الوطن" التى تميزت بدورها الإيجابى فى تلك الفترة من

ماضى بلادنا.

وإنما جعل الدكتور عبد اللطيف حمزة من قسم الصحافة "فلك نوح"! فمن أجل إثراء معلوماتنا انتدب أستاذا من كل قسم من الأقسام الأخرى بكلية الآداب؛ فمن قسم التاريخ جاء الدكتور محمد أنيس ليدرس لنا تاريخ الشرق (فى السنة الثانية) ثم تاريخ أوروبا (فى السنة الرابعة) ومن قسم الجغرافيا جاء الدكتور إبراهيم رزقانة لتدريس الجغرافيا السياسية فى قسم الصحافة! ومن قسم اللغة الإنجليزية جاء "المعيد" (آنذاك) سمير سرحان لتدريس الأدب الإنجليزى، ومن قسم الفلسفة جاء الدكتور مصطفى سويف لتدريس علم النفس الاجتماعى، ومن قسم اللغة العربية جاء الدكتور محمد كامل جمعة ليدرس لنا فن المقالة الأدبية؛ وكان قد نقل إلى العربية مقالات أدبية لميشيل دى مونتنى (١٥٣٣ - ١٥٩٢) رائد فن المقالة الأدبية فى الغرب الأوروبى، ولا زال ما تعلمته من الدكتور كامل جمعة نبراسا لى وأنا أسعى إلى إجادة ما أكتبه - شهرا تلو شهر - من نص أطمع أن تشرفنى مجلة الهلال بقبول نشره؛ وهو شرف لا يعدله لدى أى شرف، شرف تمنيته منذ بدأت قراءة المجلة العريقة وأنا فى السابعة من عمرى!! كما أفخر بأن مكتبتى الخاصة ما زالت تضم - أقرب ما يكون إلى متناول يدى - ثلاثة مجلدات تضم الأصول الفرنسية لمقالات مونتنى، وبأنها تضم أيضا مجلدا يجمع الأصول الإنجليزية لنحو ثلاثين من المقالات الأدبية



جيمس دين على دراجة بخارية مع إيليا كازان

الثمانى والخمسين التى أبدعها السير فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) الذى تأثر فى إنجلترا خطى الرائد الفرنسى مونتنى، وأيضا كتابا جمع بين دفتيه مجموعة المحاضرات التى ألقاها سنة ١٩٥٩ الدكتور محمد عوض محمد، الأستاذ المبرز بكلية الآداب وعضو مجمع اللغة العربية على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية فى موضوع "فن المقالة الأدبية"؛ وهو مرجع واصلت الاهتداء به فى طريق طويل اهتديت فيه من قبل بمراجع الدكتور عبد اللطيف حمزة التى حوت - من بين حوت - نصوص ما ألقاه علينا من محاضرات.

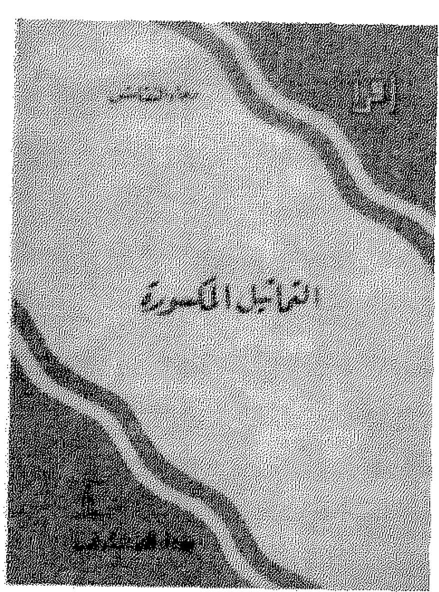
بل لقد انتدب الدكتور عبد اللطيف حمزة أساتذة من كليات أخرى للتدريس لطلبة الصحافة فى كلية الآداب؛ فمن كلية

التجارة جاء الدكتور سليمان نور الدين لتدريس الإحصاء، ومن كلية العلوم جاء الدكتور سيد رمضان هدارة - المتخصص في الذرة! - ليدرس لنا تاريخ العلوم. وبالطبع جاء من كلية الحقوق من درس لنا جرائم النشر، وفي الترم الثاني من العام الجامعي ١٩٦٤- ١٩٦٥ جاء شاب لامع كان عائدا لتوه من باريس التي حصل منها على الدكتوراه في القانون الدولي، جاء يدرس لنا بعد إجازة نصف السنة مباشرة - في يناير سنة ١٩٦٥ أي في بداية الترم - وكان هو أيضا في بداية اشتغاله بالتدريس تماما، يجمع في نفس الترم بين إلقاء المحاضرات علينا وإلقائها على طلبة كلية الحقوق - بالتزامل مع الدكتور حامد سلطان والدكتورة عائشة راتب - في مادتي القانون الدولي والعلاقات الدولية. وكما توجت دراساتنا في قسم الصحافة بالمحاضرات التي القاها علينا الدكتور مفيد شهاب فقد توجت أيضا في نفس العام الجامعي بتلك التي ألقاها علينا الدكتور محمد مندور، أكثر النقاد الأدبيين شعبية في ذلك الوقت! وإذا كانت محاضرات الدكتور مفيد شهاب لنا أول ما ألقاه من محاضرات في أرض الوطن بعد نيله درجة الدكتوراه، فإن محاضرات الدكتور محمد مندور لنا كانت آخر ما ألقاه من محاضرات في حياته! إذ وافته المنية في مايو من نفس العام، ودون أن تقر عينه بقراءة إجاباتنا على أسئلة الامتحان الذي وضعه لنا.

إلى هذا الحد كان قسم الصحافة بجامعة القاهرة في ذلك الوقت! حتى استحق وصفي له في إحدى الجلسات إجابة بعض المستمعين بأن الأجدر كان أن يسمى "قسم الثقافة" بكلية الآداب لا قسم الصحافة!

العودة

كنت من أوائل دفعة سنة ١٩٦٥، و لو بودر منذ ذلك الوقت بتطبيق نظام تقدير الدرجات بالأسلوب التراكمي الذي يطبق اليوم فلربما كنت أول الدفعة لارتفاع تقديراتي البالغ في السنة الأولى وبعض مما تلاها. بيد أن زملائي قد تداركوا الأمر بعد ربع قرن من تجوال فكري تلقتني فيه قاعات البحث العلمي في فرنسا، ومنابر صحفية رفيعة أفردت لي فيها مواقع مرموقة، ودور نشر عريقة نشرت ترجماتي لروائع من الأدب الغربي، بل واستوديوهات للسينما حين استكتبني صاحب واحد من أعظم مشروعات الأفلام التاريخية حوارا بالفصحى لفيلمه الذي حال موته دون إخراجه



إياه، وهو نفسه الذى رشحنى لكتابة نصوص أدبية مصاحبة للأفلام التسجيلية؛ وعندما أديت ما رشحت له نلت عنه أكثر من جائزة رسمية... تدارك الأمر زملائى فى قسم الصحافة - ومنهم من تبوأ فى القسم مواقع تنفيذية - فدعيت إلى التدريس فيه وقد أمسى واحدا من أقسام كلية الإعلام بعد أن اقتلع من كلية الآداب؛ وهكذا عادت القطرة إلى بحرها، وفق التعبير الشهير لعمر الخيام (فى ترجمة أحمد رامى!) ولعل فى هذا البيان ما يبدد كل دهشة قد يثيرها الحديث عن قسم الصحافة بجامعة القاهرة وصحة نسبه!! أما عن خريجه المولع بالحديث عنه فإننى بعد نحو أربع سنين من التدريس بالجامعة طرت ثانية إلى باريس مستأنفا اهتماماتى الصحفية: إذ استهوانى مشروع إجراء حوار فى العاصمة الفرنسية مع أحد الزعماء المنفيين إليها وهو أبو الحسن بنى صدر، أول رئيس لجمهورية إيران بعد ثورة الخمينى الذى غضب عليه: وكاد ينفذ فيه حكم الإعدام لو لم يفلح فى الهرب! وإنما أذكر اليوم هذا الحديث الصحفى، الذى نشر على صفحات "الأهرام ويكلى" فى السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٩٥؛ لما تم الإقرار به من بلوغه مستوى من الإتقان لا يرجع الفضل فيه إلى شخصى، بل إلى قسم الصحافة الذى علمنى وزملائى فأحسن تعليمنا. أما الآخرون من بيننا الذين استهوتهم اهتمامات غير صحفية فعسى أن يتذكروا أن الاهتمامات "الإنسانية" الحقيقية هى



التى تجمع بين الأصالة والمعاصرة، ولا تستلهم من الماضى إلا ما يمكن به استيضاح الحاضر؛ وبالتالى إنارة المستقبل!

إن من أجمل ما نستظهره من كلمات فيلسوف فرنسا جان بول سارتر قوله عن المستقبل إنه أعظم الإمكانيات قاطبة! والطريق إلى المستقبل هو العمل؛ ومن أجمل ما طفقنا - طيلة سنين جاوز عددها اثنتين وأربعين - نذكره من كلمات فيلسوفنا رجاء النقاش فى كتابه "التماثيل المكسورة" قوله فى ختام أحد فصوله عن العمل إنه "كلما كان قائما على أساس من الوعى والإدراك كانت مقدرتنا كبيرة على أن نسعد بالحياة سعادة داخلية عميقة"؛ وهو بهذا يكرر التأكيد على ضرورة معاودة وصل الذات بالموضوع، ويجيب بنفسه على الأسئلة التى طرحها!

الأستاذ



رافت الميهى □

أخيرا .. أخيرا جاءت الفرصة لكى أكتب عن شئ جميل فى حياتنا بعد أن سئمت الكتابة عن سياسة عرجاء وسدنة فساد وفتوات يسيطرون على حياتنا وآخرين يستعدون للانقضاض على أيامنا المقبلة عن طريق إرهابنا بآيات عن الجحيم وحساب الملكين أو بميليشيات تستعد للرد على مليشيات أخرى . وشيعة وسنة وأورثونوكس وأنجليكان وفوضى بناءة وأخرى مطعون فى شرفها.

أخيرا جاءتنى الفرصة للكتابة عن رجاء النقاش .. الأستاذ . بما يمثله لجيلنا وجيله من قيمه ورمز ومثل عليا وجمال خاص لا يدركه إلا من حاول متابعة معاركه وكفاحه منذ كان فى الجامعة متقلبا بين أحزاب وتيارات سياسية عربية وقومية ووطنية دون أن يفقد بوصلته الثقافية.

وفكرة البحث عن المثل الأعلى أو " الأستاذ " فكرة ظلت تطاردنى وتضطهدنى وكلما وصلت إلى أحدهم وجدت نفسى أقل من أن أتمثله أو أن أسير على دربه فأغلبهم أصحاب قامات سرعان ما أشعر بالعجز والضآلة أمامهم. ولكنى وجدت الحل فى أن آخذ من كل منهم ما أحتمله و أستطيع أن أكونه ثم أنتقل إلى أستاذ أخر وآخذ منه قدر طاقتى واستطاعتى . فالبساطة والحنان الرائع عند يحيى حقى يكفيانى منه دون أن آخذ هذه العين التأملية المتعففة عن الأضواء أو هذه اللمسة الصوفية التى تلف علاقته بمريديه أو تلامذته ومن نجيب محفوظ أحاول أن آخذ منه قدرته على " الجلد " والصبر والإخلاص فى العمل دون أن أجد فى نفس القدرة على الحلم أو مخالفه ما هو سائد وما هو غوغائى أو أشق نهرى الخاص.

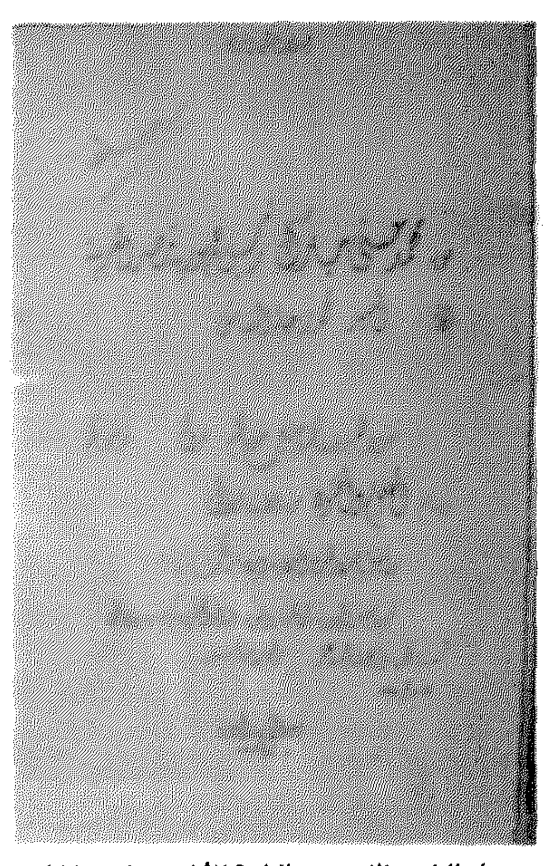
ومن زكى نجيب محمود يكفينى عمق التحليل والدخول فى مناقشة كل ما يدعى القدسية لنفسه أو لأفكاره دون أن أصل إلى قدرته على التفلسف أو رفضه لكل ما هو عادى ومبتذل من أطروحات . وربما هذه المحاولة لجمع " مثل أعلى " من مجموعة " مُثُل علُيا "، لها مثل هذه القامات، هى ما جعلنى فى رحلتى المتواضعة أتعافى من كل هذا التمزق الذى أعيشه. وهروبا من هذا التمزق اعتدت أن أهرب إلى كتابات رجاء النقاش .. الأستاذ . أو أسعى لمقابلته وتأمل وجهه بما يحمله من تجاعيد وتجارب السنين،

□ مخرج سينمائى وروائى



ومع هذا فالأستاذ رجاء النقاش أو رجاء النقاش .. الأستاذ . مازال عندى كتابا مغلقا لا يستطيع فتحه وتقليب صفحاته إلا هو ولا أعتقد أن هناك من هو مؤهل مثله حاليا فى الوسط الثقافى أو فى العمل العام من أن يكتب لنا فى صدق و شفافية عن رحلته فى جسد الوطن العربى ورحلته مع نفسه التى هى رحله فرد أو شاهد غير كذوب وسط تموجات المجتمع ورحلة جيل كان يحاول أن يمسك بالقمر الذى ظنه قريبا منه أو أن يمسك ببوصلة المعرفة الهادية لما تصوره الحقيقة فيفقدها أحيانا و أحيانا أخرى يضع يده على الاتجاه الصحيح.

إن أغلب كتاب ونجوم الستينيات يدينون بالفضل لهذا الرجل . فمجموعة السينما الجديدة من مخرجين وكتاب ونقاد ، و مجموعة شعراء وقصاصى الستينيات ، وعدد لا بأس به من مطربى هذه الفترة وروائيها له بصمته التى لا شك فيها على بداياتهم ونبوغهم . وكان " الأستاذ " أشبه بصياد للآلى فى بحور الفن والثقافة، فلم تكن تمر فترة إلا ويدهشنا بصوت جديد فى الغناء أو

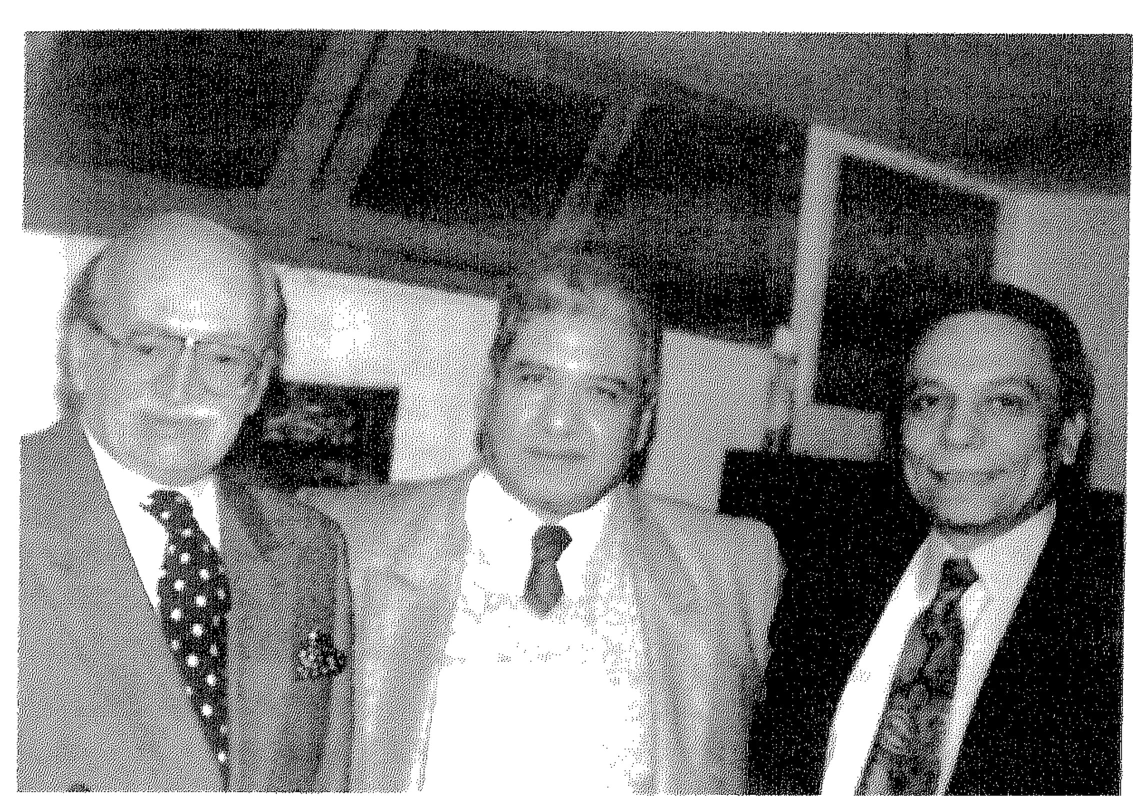


وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى - مايو ١٩٩٥

صوت جديد فى الشعر أو قلم يتيح لنا فرصة التعرف عليه فى عالم الرواية والأدب .. ربما تضيق المساحة أن أذكرهم جميعا وربما الأفضل ألا أذكرهم بفضله عليهم لأن رجاء النقاش الأستاذ الذى قدمهم هو نفسه رجاء النقاش الذى امتلأ ظهره بسهام بعضهم بمجرد أن شبت قامتهم وأدركوا أن من مصلحتهم أن يركبوا مركبا آخر غير مركبه متصورين أن هذا المركب الآخر أقدر على الوصول بهم وربما لأن" ضباط الاتصال " فى الوسط الثقافى مع الأنظمة المختلفة كان لهم رأيهم فى رجاء النقاش فاستقطبوهم، فباعوا الرجل الأستاذ.

والغريب والجميل أن مركب رجاء النقاش لم تفقد غنائيتها ووصلت به إلى





رجاء النقاش يتوسط الفنان عادل إمام وسمير خفاجى المؤلف السينمائى والمسرحى

"واحة" من السكينة والوعى تجعله يتنقل من صخب الحياة اليومية التى تقلب فيها مصارعا أمواجها إلى حالة غريبة وجميلة من الرضا، تجعله هذه الأيام أقرب للرهبان الذين يتعففون بل ويتحاشون الدخول فى معارك صغيره دون أن يفقد إدراكه بما يعتمل فى مجتمعه . لقد آمن وجعلنا نؤمن معه بأن المعارك التى تبدو كبيرة ومسألة حياة أو موت ليست سوى معارك تافهة ولحظات فارغة، وأن المعارك مهما قست الفرد مهما طال عذابه أو اضطهاده فليس أمامه إلا ملاذ واحد وهو أن يحافظ على قدرته على الرؤية الصحيحة قدر إمكانه وان يفرز العسل الثقافى والحضارى قدر ما يستطيع . كل شئ عدا هذا باطل وإضاعة لوقت وجهد أى موهوب. وجهد أى إنسان يريد أن يصل إلى درجة " الأستاذية " أو على الأقل يريد أن يحقق ذاته أو أن يتيح للآخرين أن يفعلوا.

إن اكتشاف موهبة جديدة وإضاءة الطريق لها خير ألف مرة من مظاهرة لتصحيح مسار قد نرى أنه خاطئ . فالموهبة إن هى إلا شجرة سرعان (عندما تجد رجلا مثل رجاء النقاش) ما تصبح حديقة تسع ألف ألف موهبة أخرى . فما بالنا إذا كان " الأستاذ " فى حد ذاته موهبة تعيد اكتشاف مواهب الآخرين وتطرحها علينا فى نسق جميل وجديد محققة دهشتنا .. يا الله! أين كانت هذه الواهب! .. هكذا نقول !!... وكيف اكتشفها صياد اللآلئ رجاء النقاش .. الأستاذ . هكذا سنظل نقول طالما استمر يحلق حولنا بجناحيه.

رجل نهضة بامتياز



إبراهيم عبد المجيد □

رجاء النقاش هو بامتياز تلميذ محمد مندور النابه، بل هو العلم الكبير فى هذه المدرسة النقدية العظيمة التى كانت تدرك أن النقد الأدبى بقدر ما هو موجه للعمل الأدبى، موجه إلى القارئ، ومن ثم تجعل فى النقد ما يثير المتعة والخيال بقدر ما يثير المعرفة والتأمل، بما يعنيه ذلك من لغة عذبة، سلسة، وعرض للأفكار يجد طريقه بسرعة إلى العقل، ويستحوذ بدقته، وعذوبة لغته على العقل والقلب معاً. وهذا ليس بالأمر السهل، بل يحتاج دائماً من الناقد إلى ثقافة عميقة بموضوع نقده، والجنس الأدبى أو الفنى الذى ينقده، وثقافة عميقة أيضاً بتاريخ هذا الجنس الأدبى، وبالمجتمع وتطوره السياسى والثقافى والأخلاقى، ومن ثم فالنقاد من نوع رجاء النقاش، وهم قليلون جداً، بعد أن رحل الرعيل الأول منهم مندور ولويس عوض ومحمد غنيمى هلال وعلى الراعى وعبدالقادر القط وشكرى عياد، هذا النوع من النقاد لا يمكن فصل ما يكتبه عما يفعله، سواء كان يعمل بالصحافة أو بالجامعة. إنهم أصحاب الرسالات الفكرية والنقدية، وأكثر النقاد اكتمالا، أعنى أكثر الناس اكتمالا، وهم فى كل الأحوال متواضعون فى علاقاتهم بالآخرين، بسطاء فى تعاملهم، غير متكلفين، يأسرونك من أول لحظة بلطفهم القادم من علمهم الغزير، وشعورهم العميق بالإشباع الناتج من هذا العلم الذى حصلوه.

هكذا رأيت أنا على الأقل، وقد أسعدنى الحظ أن ألتقى بهذه الأسماء كلها منذ سن مبكرة جداً، باستثناء الدكتور محمد غنيمى هلال الذى رحل عن الدنيا مبكرا..

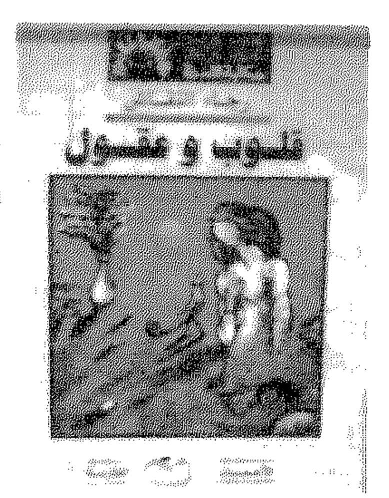
رجاء النقاش لخص هؤلاء جميعاً، رغم اختلاف مدارسهم، إلا أنهم اتفقوا على أن النقد وهو يتجه لأصحاب الأعمال، يتجه لقراء هذه الأعمال، وللقراء عامة، فالناقد ليس صاحب رسالة علمية، بل أيضاً سياسية واجتماعية، أى أن الناقد رجل نهضة بما تعنيه هذه الكلمة من معانٍ. وهكذا حين تتحدث عن رجاء النقاش الناقد والمفكر لايمكن أن تغفل الدور العظيم الذى لعبه فى الحياة الثقافية، فى كل مجلة ترأسها أو كل موقع.

كان رجاء النقاش وهو يكتب لايكفُّ

□ روائى وكاتب

عن اكتشاف المبدعين الحقيقيين، ولم يخب أبداً اكتشافه، ويكفيه أنه قدم لنا محمود درويش فى كتابه البديع عنه، ولم يكن يعرفه قبل ذلك أحد، وفي توقيت كنا نحتاج فيه إلى أن نعرف محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من شعراء الثورة الفلسطينية، وكان هذا التوقيت هزيمة يونيو ١٩٦٧، فكان الكتاب أشبه بالبلسم للجريح. ومن المؤكد أن اختيار رجاء النقاش لهذا الوقت لكتابه كان له هذا المعنى، فهو وهو يدرس الشعر الفلسطيني وشعر محمود درويش كان أيضاً يُهون علينا الجرح ويحفزنا بالأمل، وهكذا كان شعر درويش وسميح حين أظلنا النقاش به!. إنه نوع من الكرم العميق الذى تكتشفه البشرية فى نفسها، عن طريق نقاد ومفكرين من نوع رجاء النقاش، كرم يعيد الثقة فى النفس ويجدد الأمل. وسلسلة الذين قدمهم رجاء النقاش طويلة ولعل فى تقديمه للطيب صالح ونشر روايته الفذة موسم الهجرة إلى الشمال، كان الباب الملكى للإطلال على السودان وأهله وثقافته بقدر ما كان فيه من تقديم لكاتب كبير.

ولم يكن رجاء النقاش منعزلا أبداً عن حركة التجديد الواسعة في الشعر فى الستينات، ولا القصة، ولا الرواية، فهو الذى قدم أحمد عبدالمعطي حجازى، وصلاح عبدالصبور، وهو الذى قدَّم عدداً خاصاً بكتاب الستينيات لايزال يذكره الجميع، وهو الذى فتح أبواب مجلة الهلال لهذا الزخم الإبداعى الجديد كله، فى الستينات وما بعدها، ولقد أسعدنى الحظ أن ألتقى به فى السبعينات، ومعى محمد المنسى قنديل وآخرين، وقدَّم لنا كل عون ممكن، وتعامل منذ اللحظة الأولى مع مواهبنا، وليس مع أشخاصنا، وهذه سمة الأسماء العظيمة التى ذكرتها من النقاد من قبل، وسمة رجاء النقاش، أنها شجرة مصرية طيبة، ضاربة بجذورها العميقة فى الحضارة المصرية تتجدد دائماً بفعل طاقة الخصب التى لا تنفد فى هذه الأرض. وكما فعل فى مجلة الهلال فى الستينيات والسبعينيات فعل فى مجلة





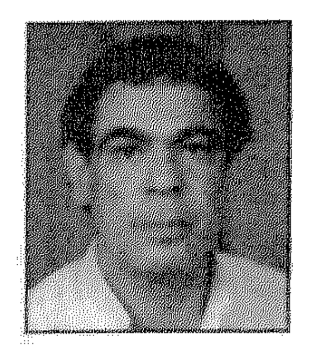




يتحدث والأستاذة أمينة السعيد وعلى يمينه الروائية فوزية مهران

الدوحة فى السبعينيات والثمانينيات وفعله قبل ذلك فى مجلة الإذاعة والتليفزيون، وكان ولا يزال وهو يفعل ذلك لا يكف عن الدراسة فى تاريخ الأدب والثقافة، فكتب أجمل وأعمق الدراسات عن العقاد وطه حسين وسيد قطب وغيرهم، وأتاح الفرصة دائماً للكُتَّاب الأحرار، وامتدت ظلاله إلى المسرح والغناء وما يرتبط بهما وقدم تفسيرات مذهلة لأعمال نجيب محفوظ فيها اكتشافات لم يسبقه إليها ناقد، وفى كل ذلك لم يكن متشنجا أبدا، فلم يخلط يوماً بين العمل الأدبى وعلاقته بصاحبه، لكنه نظر دائماً إلى العمل الأدبى من زاوية العصر، فى موضوعه وشكله، لذلك كان ولايزال سهلا، نقرأه فنحن إلى الماضى الجميل الذى كنا فيه نقرأ فنفهم وتتفجر قدرتنا على الحب، حب الفنون: والآداب وأصحابها، ومن ثم حب هذه الحياة رغم ما فيها من انكسارات وخيبات أمل، لقد استوعب رجاء النقاش تماما الثقافة الغربية والعربية فى جوانبها الإسلامية والسياسية، وصاغ لنا ذلك كله صياغة سهلة جميلة كاشفة باعثة على التجديد والتجدد، ولا يأتى هذا إلا لناقد يقرأ بتجرد ويكتب بتجرد، بروح محبة صادقة فى حبها، ولذلك قدَّم لنا كل ما قدم من كتب، ونجح فى كل ما شغله من مناصب ثقافية، وتركت ولازالت وسوف تظل تترك رسالته أثرها العميق فى الكتاب والقراء، الذين كنت أنا ولازلت واحدا منهم، أقرأه فأحس بطمأنينة. الغريب حين يعود إلى وطنه، وتتسع حولى الحياة وتصبح جديرة بأن تعاش، وتتجدد طاقتى فى الكتابة فما أعظم النقاد من نوع رجاء النقاش.. رجال النهضة بامتياز.

حضرة المحبة



حلمى سالم ☐

كيف يمكن للمرء أن يحيط برجاء النقاش - أو ببعض بعضه - فى سطور أو صفحات قليلة؟

كيف يستطيع المرء أن يبين فضله - وهو متنوع متشعب - على الحياة المصرية المعاصرة: أفراداً وجماعات ومؤسسات وحياة ثقافية بكاملها؟

هذا سعى مستحيل. وإذن ليس على مثل هذا المرء سوى أن يتجه وجهة أخرى، هى أن يلمح إلماحات موجزة عابرة سريعة، إلى بعض مآثر حضور النقاش فى الدنيا المصرية «والعربية» الراهنة.

(١)

يمكن أن نشير -مثلا- إلى دعمه المبكر لتجربة شعراء الحداثة المصرية من جيل السبعينيات. وقد ذكرت من قبل- فى غير موضع - تعضيده المعنوى والمادى أثناء نشوء جماعتنا ومجلتنا الشعرية «إضاءة ٧٧»، ولاسيما فى أعدادها الأولى، وعطفه على شعرائها، حيث تجلى ذلك فى كتابته تقديم ديوان حسن طلب الأول «وشم على نهدى فتاة» «١٩٧٣»، وكتابته مقالاً ضافياً عن العدد الأول من مجلة «إضاءة ٧٧» بعنوان «ماذا تريدون أيها الشعراء؟» فى «المصور» (١٩٧٧) وما زلت أذكر إعجابه الشديد- فى ذلك المقال- بشعر على قنديل (الشهاب الشاب الذى كان قد رحل قبل صدور المجلة، التى حلم بها معنا، قبل عامين). ومازلت أذكر وصفه -فى المقال نفسه- لشعر أمجد ريان بأنه يشبه «ماسورة مياه ضاربة». ثم قدم، بعد ذلك، ملفا شعرياً فى «الهلال» عن عشرة شعراء جدد كان معظمهم من جيل السبعينيات. وعندما أنشأ مجلة «الدوحة» أوائل الثمانينيات تابع نشر الشعر الجديد فيها، لاسيما قصائد حسن طلب البنفسجية الجريئة، وخاصة قصيدته الغرائبية «بنفسجة للجحيم» التى كتبها على هيئة مثلثات هندسية متناظرة.

الجديد الذى أود إضافته هنا هو أن تعضيد النقاش للتجربة الشعرية الجديدة لم ينقطع حتى هذه اللحظة، وإن تبدى بأشكال مختلفة: منها تشجيعه لصدور ديوانى «مدائح جلطة المخ» وديوان عبدالمنعم رمضان «الصعود إلى المنزل»، ضمن سلسلة «كتاب الهلال»، وذلك ضمن تدعيمه للمبادرة الأوسع التى استنها

☐ شاعر وكاتب



الصديق مجدى الدقاق - رئيس تحرير الهلال - بتطعيم سلسلة كتاب الهلال- التى هى سلسلة فكرية فى الأصل - بديوان شعرى من دواوين جيل الحداثة الشعرية المصرية والعربية، مرة أو مرتين كل سنة.

(٢)

ويمكن أن نشير -مثلا- إلى النموذج الباهر الاستثنائى الذى قدمه رجاء النقاش مع أحمد عبدالمعطى حجازى فى ديوان «مدينة بلا قلب». ولكى نعرف مدى فرادة هذه التجربة الفريدة، نوضح أن ديوان «مدينة بلا قلب» لحجازى صدر عام ١٩٥٩، وهذا معناه أن حجازى كان فى الرابعة والعشرين، «فهو مواليد ١٩٣٥»، وأن رجاء النقاش كان فى الخامسة والعشرين «فهو مواليد ١٩٣٤» حينما كتب مقدمته الضافية اللامعة المقتحمة لهذا الديوان المقتحم. فانظر إلى هذه الأمثولة السامقة: شابان فى الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين، أحدهما يقدم عملاً شعرياً فاتحاً شجاعاً، وثانيهما يقدم عملاً نقدياً مواكباً فاتحاً شجاعاً. واحسبْ مقدار الشجاعات والاجتراءات الفنية والفكرية، ومقدار التفتح الوجدانى والرؤيوى والإنسانى الذى يمكن أن تنطوى عليه هذه الأمثولة الرائدة.

وإذا تذكرنا أن هذه التجربة الجديدة قد ظهرت فى واقع ثقافى كان مايزال يذخر بأساطين التقليد من أمثال عزيز أباظة وعباس العقاد وزكى نجيب محمود، ومازال يطرب مع الغناء الرومانتيكى العذب من على محمود طه وإبراهيم ناجى وأبى شادى وصالح جودت وغيرهم من عتاة الرومانتيكية الكلاسيكية الهائمة،

أدركنا حجم المخاطرة الخطرة فى فعل هذين الشابين.

صحيح أن هذه اللجّة التقليدية كانت قد اخترقتها بعض الشذرات الجامحة الطامحة مثل شعر عبدالرحمن الشرقاوى وشعر لويس عوض وشعر صلاح عبدالصبور فى ديوانه الأول «الناس فى بلادى (١٩٥٧)»، لكن مجمل الأوضاع الثقافية الشعرية كان يشير إلى هيمنة الكلاسيكية والكلاسيكيين، وهو ما يعنى أن إنجاز هذين الشابين لهذه التجربة المكتملة «الديوان ومقدمته» كان بحق «حادثة» من كبار الحوادث على ضفاف النيل فى الثقافة المصرية الحديثة «إذا استعرنا تعبير شوقى».

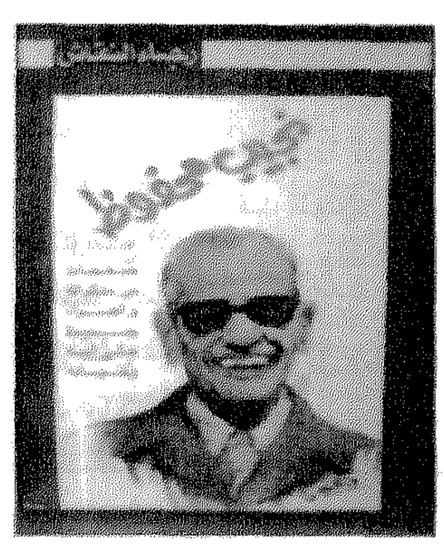
وعندى أن مقدمة رجاء النقاش لديوان حجازى تظل - إذا قيست إلى زمنها ولحظتها التاريخية والثقافية منذ نحو خمسين عاماً- وثيقة نقدية باقية ودرساً لا ينضب فى محبة الشعر والجمال والروح المتوثبة، حتى لو اختلفت- بمقياس اللحظة الراهنة- مع ميلها الواضح إلى شرح المضامين الفكرية والإنسانية فى القصائد أكثر من ميلها إلى استبصار الطرائق الفنية المغايرة والأساليب الجمالية الجديدة.

والمؤكد أن هذه المقدمة التاريخية لديوان حجازى قد جسدت سنداً كبيراً مبكراً لحركة الشعر الحر فى مصر، ساعدته على الانتصار فى معركته ضد التقليد والسكون، حتى صار شكل الشعر الحر هو الشكل السائد فى العقود الثلاثة التالية، إلى أن بدأت تزاحمه مؤخراً قصيدة النثر.

ولم يقتصر إسناد رجاء النقاش لحركة الشعر الحر على مصر وحدها، بل امتد إلى مجمل حركة الشعر الحر العربية، وهو ما تجلى فى مبادرته الكبيرة بتعريف القارئ المصرى على شعر محمود درويش وشعر المقاومة الفلسطينية بعامة، حينما نشر فى «الهلال»- أواخر الستينيات- ديوانا كاملاً لدرويش هو «آخر الليل».

واستمر تعضيد النقاش للشعر، لاسيما الجديد منه، طوال مشواره الثقافى النقدى الخصيب، حتى وصل إلى ذروة من ذراه فى سفره الضخم «ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء» «منتصف الثمانينيات».

(٣)



ويمكن أن نشير - مثلا- إلى إنجازه الصحفى المتواصل، فهذا الرجل هو «صانع صحافة مضيئة بامتياز». ما من منبر صحفى تولاه رجاء إلا وقفز من الظلمات إلى النور، فى وثبة واحدة.

ثمة مدرسة فى



• يصافح السيدة أم كلثوم - طرابلس ١٩٦٩

الصحافة المصرية يصح أن نطلق عليها وصف المدرسة التى «تصنع من الفسيخ شرباتا». من رواد هذه المدرسة محمد التابعي وأحمد بهاء الدين وصلاح حافظ وكامل زهيرى. رجاء النقاش واحد من أبناء هذه المدرسة المباركة، التى يتولى أحدها منبراً «صحيفة أو مجلة» فلا يلبث هذا المنبر أن يزدهر ويتفوق ويلمع. صنع النقاش ذلك مع المصور والهلال والإذاعة والتليفزيون والكواكب.

ووصل هذا الصنيع إلى قمة توهجه مع مجلة «الدوحة» التى أنشأها فى قطر طوال الثمانينيات. هذه المجلة التى صارت - فور صدورها- قبلة المثقفين العرب، وغدت إحدى مواقع تشكيل الوجدان الثقافى والوعى المعرفى للنخبة العربية والقراء العرب على السواء.

صارت مجلة «الدوحة» نموذجاً من نموذجين اثنين يضرب بهما المثقفون المثل على «دور المنبر الإعلامى فى صنع دولة» وليس العكس. النموذج الأول كان فى الثمانينيات حينما صارت «مجلة الدوحة» علامة على دولة قطر، والنموذج الثانى نشأ فى بداية القرن الحادى والعشرين «ولايزال»، حينما صارت «قناة الجزيرة» علامة على دولة قطر!

ما هى الأسس التى عليها يقوم إنهاض النقاش «وسائر مدرسته المباركة» المنبر الذى يتولاه، فيقفز به من الظلمات إلى النور؟

عندى أن رجاء النقاش يبنى نهضته بالمنبر الذى يتولاه، على مبادئ أربعة:

الأول: هو الديمقراطية، واحترام كل رأى جاد، والاعتداد بوجهة النظر المقابلة،

واحتضان كل التيارات الفكرية الجادة، حتى ليغدو المنبر الذى يديره أشبه بالجبهة الوطنية الديمقراطية المفتوحة.

الثاني: هو الذهاب إلى القيمة «الحية» النابضة، لا الجامدة الميتة، فى الفن والفكر والاجتماع والسلوك والرأى، وفى كل ما ينطوى على معنى حقيقى دافع لليقظة والتجدد والتقدم.

الثالث: هو الإتقان والجودة فى الأداء، والابتعاد عن الفهلوة والركاكة واستغفال القارئ.

الرابع: هو المحبة، محبة العمل ومحبة الجمال ومحبة الوطن ومحبة الآخر ومحبة كل صاحب محبة كبيرة، سواء فى السياسة أو فى الفلسفة أو فى الحقل الاجتماعى أو فى أصغر العواطف.

بهذه المبادئ الأربعة الأساسية، وما يتفرع عنها من قيم ومعان عديدة، قاد رجاء النقاش معجزته الصحفية المتكررة، إخراج المنبر الصحفى من الظلمات إلى النور.

(٤)

ويمكن أن نشير -مثلا- إلى دوره كناقد مسرحى بارز له «مقعد أمام الستار»، ساهم فى النهضة المسرحية الجادة طوال الستينيات، أيام كان هناك مقعد وأيام كان هناك ستار، وأيام كان هناك مسرح. سقا الله الأيام الخوالى. ويمكن أن نشير إلى نقده الروائى، لاسيما روايات الأرض المحتلة، وإضاءة عالم نجيب محفوظ. وأن نشير إلى جهده التنويرى والتثقيفى العمومى، بوصفه واحداً من كبار المبشِّرين فى ثقافتنا المعاصرة. وأن نشير إلى إسهامه الملحوظ فى التأريخ الثقافى والفكرى لمصر المعاصرة والحديثة. لكن ذلك كله سنتركه للمختصين، يحدثوننا عنه على النحو الأفضل.

(٥)

نحن - أقصد معظم أبناء جيلى- نحب رجاء النقاش، كاتباً وإنساناً. نحبه فى كل حال، وننصره ظالماً أو مظلوماً، لأنه أخونا وأبونا وطفلنا، وهذا يعنى أن شهادتنا فيه مجروحة مطعونة. ولكى نسبغ على هذه الشهادة قناعا من النزاهة وغلالة من الموضوعية يقللان من شبهة الغرض، سنفتعل خلافات وتناقضات مع رجاء النقاش، ونقول: إننا اختلفنا مع رجاء النقاش مرات عديدة، سنختار منها الآن ثلاث مرات رئيسية:

الأولى: حينما كتب، منذ عدة سنوات فى «المصور»، مقالة ضافية عن شاعر من جيل الستينات متوسط القيمة الفنية، رومانتيكى ذى «طرطشة عاطفية» سائبة «بتعبير محمد مندور الشهير»، فإذا بالنقاش يراه واحداً من أهم شعراء مصر ومن أبرز مبدعيها المرموقين، لمجرد أن شعره سهل يصل إلى القراء بغير كبير عناء.

والثانية: حينما اتهم أدونيس ومن لف لفه من شعراء لبنانيين ومصريين، من أهل القصيدة الرمزية المركبة، بأنهم شعراء غامضون ملغزون، منعزلون عن قضايا أمتهم المصيرية، ومدمرون لتراث

الأمة ولغتها العربية الأصيلة.

والثالثة: حينما استغرق -منذ بدأ مقاله الأسبوعي «الأهرام»- في بطون التاريخ الثقافي المصري البعيد والقريب، تاركا الواقع الثقافي والأدبي المصري والعربي الراهن يمور حواليه بالإبداعات المختلفة، التي تحتاج إلى قلمه الصادق الحار لكي يفرز فيها الغث من الثمين، ويوجه ويضبط ويقوم. ولا ريب أن الغوص في بطون التاريخ القديم والحديث ذو فائدة جليلة، لأن كاتبنا يستخلص من غوصه العبر والدلالات والدروس. لكننا نظن - بغير إثم- أن حاجة حياتنا الأدبية الراهنة إلى حضوره الفكري والنقدي هي الحاجة الأمس.

وفور انتهائنا من سوق هذه الخلافات المفتعلة الثلاثة، ستغلبنا المحبة على التو، وسنلتمس بأنفسنا العذر له على كل خلاف سقناه.

سنقول في الخلاف الأول: هذه مسألة ذائقة ومسألة وجهات نظر. وليس من الحتم أن يحب الرجل ما نحب وأن يكره ما نكره، ألسنا الذين نقول إن الشعر عديد وكثير ومتنوع؟

ويبدو أن المعيار عنده - هنا - هو بساطة الشعر، بما يجعله ملتحما مع المواطنين، مؤديا دوره الإيجابي الفاعل في الوعي والتحرك نحو الأفضل.

وسنقول في الخلاف الثاني: إن القصد الكامن وراء رأيه - على حدته وإطلاقيته- هو ألا يحول الشاعر نصه إلى أحجية تنغلق على «أصحاب المصلحة الحقيقية في النص» وهم القراء، حتى لا يصبح «المرسل» في واد، و«المستقبل» في واد ثان، و«الرسالة» نفسها في واد ثالث.



البورتريه للفنانة دينا جمال

وسنقول في الخلاف الثالث: إن معرفة التاريخ هي الخطوة الأولى في معرفة الحاضر، فمنه نستخلص الدرس لنتقدم إلى الأمام.

هكذا هم المحبون: ما إن يفتعلوا خلافاً صناعياً مع المحبوب، حتى ينكصوا عنه ويرتدوا، مسرورين.

(٦)

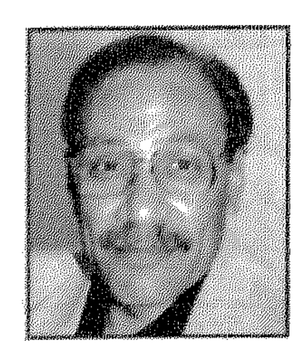
أما رجاء النقاش، نفسه، فإنني أزجي بين يديه ثلاث كلمات:

الأولى: ابتسامتك -مجددا- هي النعيم كله.

والثانية: عش ألف عام.

والثالثة: أنت تملك كل شئ، لأنك المستغني.

مشروع ثقافى



سعد هجرس □

عندما كان أستاذنا الدكتور لويس عوض هو المشرف على الصفحات الثقافية بجريدة "الأهرام" فى الستينيات، بزغ نجم محرر ثقافى نابه فى ذلك الوقت هو مصطفى إبراهيم مصطفى الذى لفت الأنظار بمقالاته البديعة، وخاصة تلك التى كتبها عن الفن التشكيلى.

وكان "مصطفى" هو الذى عرفنى عام ١٩٦٦ بزميل له لا يقل ذكاء وموهبة هو وحيد النقاش.

وجاءت هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧، لتصدم جيلنا - الذى كان لا يزال غضاً فى عمر الزهور ومشحوناً بأمنيات وردية لا حدود لها - وتهزه من الأعماق.

وفى إطار تداعيات هذه الهزيمة المروعة، قرر مصطفى ابراهيم مصطفى ووحيد النقاش شد الرحال والسفر من القاهرة التى غمرها ظلام "النكسة" إلى باريس عاصمة النور، ليس هرباً وإنما أملاً فى التوصل إلى إجابات علمية لطوفان الأسئلة التى طرحتها هذه الهزيمة غير المنطقية.

لكنها كانت رحلة فى اتجاه واحد.. فقد ذهبا بلا عودة. حيث مات "وحيد" فى أحد مستشفيات باريس، وعلى نفس السرير وبنفس المرض اللعين الذى هاجم الكبد، لفظ مصطفى ابراهيم مصطفى - الذى اشتهر فى الصحافة الفرنسية بمصطفى مرجان - لفظ أنفاسه الأخيرة لتفقد مصر اثنين من أجمل مثقفيها الوافدين.

كانت هذه هى بداية تَعَرُفى الشخصى بأول شخص من "آل النقاش" الذين أسعدنى الحظ بالتعرف على ثلاثة منهم.. ومنهن.

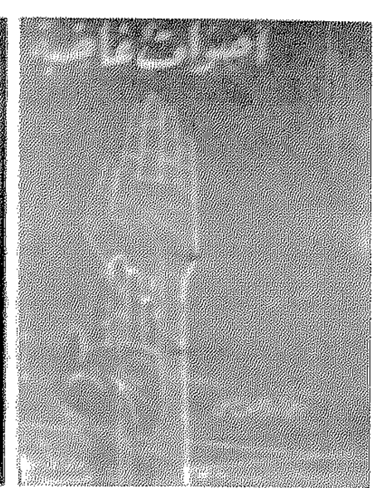
لكن العجيب أن ذلك لم يشمل "عميد" الأسرة، وألمع أفرادها فى الستينيات، ألا وهو الكاتب والناقد الأدبى الكبير رجاء النقاش.

ولم يكن ذلك راجعاً إلى صعوبة لقائه وجهاً لوجه، بقدر ما كان راجعاً إلى المكانة الكبيرة التى تبوأها فى ذلك الحين باعتباره واحداً من أصغر رؤساء التحرير، وهو منصب لا يتم التعيين فيه إلا بقرار سياسى من أعلى مستوى.

وبالتالى كانت النظرة الشائعة لدى المثقفين الثوريين فى ذلك الحين ان كل من يشغل منصب رئيس تحرير لابد أن يكون على "علاقة خاصة" بالسلطة.

وقد خلق ذلك الانطباع حاجزاً نفسياً

□ كاتب صحفى







بيننا وبين كل رؤساء التحرير، بما فى ذلك "التقدميون" منهم، الذين كان من السهل - والاستسهال - تفسير وجودهم فى هذه المواقع القيادية بأنه من لزوميات "تجميل" صورة النظام وخداع خلق الله، وبالذات عموم المثقفين.

وبالنسبة لعميد " آل النقاش"، أى الأستاذ رجاء، أضيف إلى هذا الحاجز النفسى "العام" حاجزاً نفسياً "خاصاً" من جراء اتهام صديقنا الشاعر أحمد فؤاد نجم، ورفيقه الشيخ إمام عيسى، له باتهامات شتى كان لها وقع سيئ علينا فى ذلك الحين، خصوصاً وأنه لم تكن هناك إمكانية التدقيق فى هذه الاتهامات، أو حتى الرغبة فى القيام بذلك.

فرغم أن رجاء النقاش كان أحد أفراد قلائل بذلوا مساعيهم الحميدة لتسليط الأضواء على ظاهرة نجم وإمام فى ذلك الحين وتقديمهم للجمهور من خلال حفل فى نقابة الصحفيين عام ١٩٦٨، فإن الشيخ إمام اتهم محمد فايق ومحمد عروق بمحاولة رشوتهما عن طريق رجاء النقاش، وقال إن عروق عرض عليه هو ونجم شيكات قيمة كل منها عشرة آلاف جنيه، وأنهما اعتبرا هذه الشيكات رشوة صريحة "أنتم عايزين تشترونا.. بس احنا ما نتبعش".

ورغم أن رجاء النقاش أكد أن هذه القصة كاذبة من الألف إلى الياء، وتنطوى على إساءة إلى شخصين من أشرف وأنبل الأشخاص هما محمد فايق ومحمد عروق، وأنه كان شاهداً أساسيا على القصة الملفقة وأن الشيك الذى صرف لهما هو ٥٠ جنيها فقط نظير الاشتراك فى برنامج خاص بإذاعة صوت العرب.

رغم ذلك.. كانت الاتهامات التى أثارها نجم وإمام فى ذلك الحين سحابة دخان زادت من عدم وضوح الرؤية لقيمة رجاء النقاش (وبالمناسبة فإن نجم جدد هذه الاتهامات فى لقاء حديث له مع قناة الجزيرة وأضاف إليها اتهاما قاسياً للأستاذ رجاء النقاش بأنه كان وراء القبض عليه فى إحدى مرات اعتقاله).

وفى ظل هذه الرؤية الضبابية كان لقائى الأول وجهاً لوجه مع الأستاذ رجاء النقاش مصادفة عجيبة. حيث كان هناك

موعد بينى وبين أحد قادة اليسار المصرى، المناضل الكبير رجائى طنطاوى. وكانت هذه أول مرة أذهب إليه فى منزله بالقرب من نادى الصيد. وعند مدخل العمارة سألنى البواب عن وجهتى.. فقلت له إننى أريد الذهاب إلى شقة الأستاذ "رجائى" فأخذنى من يدى ودق جرس إحدى الشقق، وكان الذى فتح الباب هو رجاء النقاش وهى مصادفة عجيبة لأن إسم "رجاء" من الأسماء النادرة، فما بالك وأن يجتمع "رجاء" و "رجائى" فى نفس العمارة؟!

وبعد هذه المقابلة التى جاءت عن طريق الخطأ، مر أكثر من ٣٥ عاماً إلى أن قابلت الكاتب الكبير رجاء النقاش منذ بضعة أسابيع فى لقاء عام ضم عدداً من كبار الكتاب أذكر منهم الأساتذة جمال بدوى ونبيل زكى ورءوف توفيق.

وبين المقابلتين الشخصيتين العابرتين جرت مياه كثيرة فى النهر وتوالت أحداث وطرأت متغيرات وظهرت أسماء واندثرت أسماء وغيير كتاب وصحفيون جلودهم، لكن وسط هذه التطورات الدراماتيكية دائما والتراجيدية كثيراً والكوميدية أحياناً، تعرفت جيداً على رجاء النقاش ومن خلال كتاباته وليس من خلال أى شئ آخر من أشكال العلاقات العامة أو الخاصة.

عش الدبابير

وكانت الإنجازات الفكرية والأدبية لرجاء النقاش هى التى تكفلت بتحطيم الحاجز العام والحاجز الخاص اللذين وقفا دون اقترابى من عميد آل النقاش فترة طويلة.

فرغم نجاة رجاء النقاش من البطش الذى لحق بمعظم المثقفين التقدميين فى الحقبة الناصرية، بل ونجاحه فى التمتع "بعلاقات خاصة" مع الحكم، بينما كان زملاؤه قابعين فى غياهب السجون والمعتقلات، استطاع رجاء النقاش أن ينأى بنفسه – فى الأغلب الأعم – عن التحول إلى "بوق"، أو الوقوع فى مستنقع "خونة الثقافة".

بالعكس من ذلك عكف رجاء النقاش فى كافة العصور التى تعاقبت على مصر بعد سقوط النظام الملكى على مشروع نقدى، تنويرى، تقدمى، فى الاتجاه العام.

ويكفى الإشارة برءوس أسهم إلى أهم عناوين هذا المشروع النقدى:

الملمح الأول دخول رجاء النقاش بشجاعة إلى عش الدبابير حيث طالب بالاصلاح الدينى وتحرير القرآن من قيود عديدة.

وتساءل بهذا الصدد كيف يمكن أن ننظر للقرآن نظرة عصرية؟!

ورد على هذا السؤال الخطير بإجابة رائعة قال فيها بالنص:

علينا أن نحدد هذه القيود ثم نعمل بعد ذلك على تحرير القرآن منها حتى ولو أدّى بنا الأمر إلى تحقيق ثورة دينية مثل تلك الثورة التى قادها (لوثر) فى عالم المسيحية الغربية وكانت هذه الثورة هى الحركة (البروتستانتية) المعروفة!

فما هى هذه القيود التى ندعو إلى

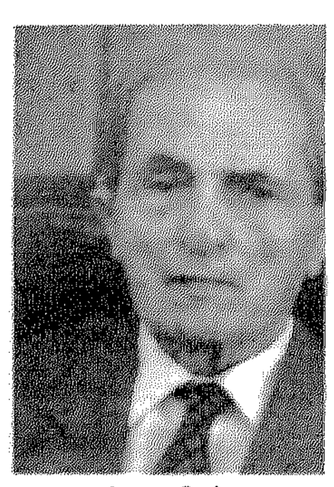
التحرر منها؟

هناك قيود شكلية من بينها الإصرار على عدم كتابة مصحف بالخط العصرى المعروف، والإصرار على أن تكون كل المصاحف مكتوبة بالخط القديم مما يشكل عقبة رئيسية أمام كل الأجيال الجديدة التى تريد أن تقرأ فتجد فى كتابته عناء شديداً قد يؤدى إلى صرفها عن هذه القراءة نهائياً.

ففى المصاحف الحالية نقرأ هذه الكلمات:

(الصرط) بدلاً من (الصراط) و (الصلوة) بدلاً من (الصلاة) و (الزكوة) بدلاً من (الزكاة) و (أبصرهم) بدلاً من (أبصارهم) و (ظلمت) بدلاً من (ظلمات) و (السموت) بدلاً من (السماوات) و (جنت) بدلاً من (جنات)... إلخ.

إن من واجبنا ولا شك أن نحتفظ بالمصحف القديم بخطه المعروف، فذلك أثر عزيز من آثارنا لا يجوز أن نهمل فى المحافظة عليه، ولكن يجب أن تكون لدينا (الشجاعة الدينية) الكافية لكى نطبع مصحفاً خالياً من هذه الحروف التى تجعل قراءته صعبة ومستحيلة إلا عند المتخصصين فى قراءة القرآن، ونحن نريد أن يقره فى بلادنا كل المتعلمين وأن تقرأه الأجيال الجديدة على وجه الخصوص دون أن يجدوا فى هذه القراءة كل المشقة التى يحسون بها الآن. وليس هناك أى نص دينى مقدس يحرمنا من الإقدام على مثل هذه الخطوة.. بل إن روح الدين تتمثل فى ((أن الدين يسر لا عسر)) وكل ما ييسر الدين بدون الخروج


د. شوقى ضيف

على جوهر مبادئه أمر مطلوب. إننا إذا أردنا أن نجعل هناك صلة حقيقية بين القرآن وأجيالنا الجديدة فلابد من أن نقدم على مثل هذه الخطوة بلا تردد.

... هناك عقبة أخرى هى انعدام وجود تفسير عصرى سهل للقرآن. ونحن بأشد الحاجة إلى مثل هذا التفسير الذى يجعل القرآن ميسوراً فى قراءته بالنسبة لأى شاب من شبابنا بدون الرجوع إلى مراجع عديدة معقدة، كما أن مثل هذا التفسير هو وحده الذى يستطيع أن يحرر القرآن من الخرافات التى تسربت إلى التفسيرات القديمة مثل تفسير (البرق) بأنه صراع بين ملائكة الخير والشر، وما إلى ذلك من الأفكار التى يقدم العلم المعاصر بديلاً واضحاً لها قائماً على المعرفة الصحيحة بظواهر الأمور الطبيعية والإنسانية.

هذه بعض العقبات الشكلية.. ولكن هناك عقبات أخرى أعمق وأبعد. فما زالت المؤسسات الدينية عندنا ترفض إلى أبعد الحدود الاعتراف بوسائل التأثير العصرية مثل السينما والمسرح والموسيقى والرسم

والإذاعة والتلفزيون.

.. وإذا نظرنا إلى رجال الدين فى الغرب وجدنا أنهم قد توسعوا فى الاستفادة من هذه الوسائل إلى أبعد الحدود. فقد امتلأت الكنائس الغربية باللوحات الفنية الرائعة، بل إن هناك مدرسة دينية فذة فى الفنون التشكيلية، وهناك آلاف اللوحات والتماثيل الرائعة فى الغرب مستمدة كلها من المسيحية، كما توسعت فى استخدام الموسيقى وبذلك أصبحت الكنيسة مكاناً مشرقاً بجوه الروحى حيث يساعد الفن بوسائله المختلفة على تعميق هذا الجو بصورة رائعة.

أما السينما والمسرح فقد أتيح لهما أن يعتمدا على الكثير من الإنجيل والعهد القديم بصورة واسعة رحبة. بل لقد ظهر فى السينما فيلم طويل هو فيلم (الإنجيل). ومهما قيل عن هذا الفيلم وعن أخطائه فالمحاولة جريئة، وهى محاولة لم تلق أى اعتراض من السلطات الدينية فى الغرب.

أما عندنا فنحن نجد فاصلاً قاسياً بين المسرح والسينما وبين القرآن وقصص القرآن، كما نجد حرباً على أى اقتراب بين القرآن وبين فن الموسيقى أو فن التصوير والرسم.

والحقيقة أن مثل هذا الموقف يجب أن يتغير.. ومثل هذه القيود يجب أن تزول، ولا بد من عقد اجتماعات واسعة بين رجال الدين ورجال الفن والثقافة حتى يتم الوصول إلى حل لا يتعارض مع المبادئ الدينية، بل يخدمها ويساعدها على أن تمد جذورها فى أعمق أعماق الضمير والوجدان.

.. إننا نجد فى الغرب كتباً تصدر للأطفال الصغار فيها الكثير من الرسومات والصور التى توضح قصص الإنجيل وتضيئها وتبسطها لهؤلاء الأطفال وهى كتب رائعة وعظيمة ومؤثرة.

... ولكننا هنا نتردد فى أى جهد من هذا النوع يجعل القرآن قريباً من الإنسان والقلب الإنسانى.. ويجعل القرآن واضحاً كل الوضوح فى ضوء العصر الحديث وما يمتلئ به هذا العصر من أفكار جديدة وفنون جديدة.

... إننا عندما نحرر القرآن من مثل هذه القيود المحيطة به لا نكون قد أسأنا إلى القرآن، بل نكون قد أحسنا إلى أنفسنا وإلى الدين الاسلامى الذى نؤمن به.. إننا يجب ألا نتردد فى تقديم مسرحيات مستمدة من روح القرآن.. يجب ألا نتردد فى شىء من هذا على الإطلاق لأن ذلك يطلق القوى العظيمة الكامنة فى القرآن.. ويملأ بها قلب الإنسان المعاصر وضميره ووجدانه، أما إذا اكتفينا بأن نجعل القرآن مجرد (نص مقدس) سوف يصعب الوصول إليه إلا لمن كان متخصصاً فى القرآن والعلوم الدينية.

... إن واجبنا هو أن نحرر القرآن من هذه القيود ونبذل كل جهدنا فى سبيل تمهيد الطريق للوصول إلى كل ما فى القرآن من جمال فكرى وروحى وفنى

وإنسـانى وكل ما فيه من قيم دينية عليا حتى لا يصبح الطريق إلى القرآن غاية فى الصعوبة والقسوة والمشقة.

إصلاح اللغة

الملمح الثـانى فى مـشـروع رجـاء النقـاش النقـدى يتـعلق بإصلاح اللغـة العربيـة. وكـان فى هذا المجـال شجـاعاً ومسـتنيراً أيضاً حيث ذهب إلى أنه "لا بأس من التـفكيـر المخلص فى تجـديد شبـاب اللغـة وإعـادة الحـيوية والصبـا والجمـال إليـهـا، مع العمل على تخفيف القـيـود عن الذين يحـبـونهـا ويريدون أن يقتـربوا منهـا دون أن يجدوا فى ذلك أى عسر أو تعقيد".

ونقل النقـاش عن المرحـوم الدكـتـور شوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية السـابق رسـالة بعث بها إليه تعليقًا على الموضـوع ذاته أشـار فيـهـا إلى كـتـاب له صـدر بعنوان "تجديد النحـو" وصفـه بأنه يحمل "أسس النهوض بهذا النحو، مثل : إلغـاء الإعراب التـقديرى والمحلى، ووضع ضوابط جديدة تذلل صعوباته، مع حذف الأبواب التى تثقل النحو وتجهد الناشئة".

واعتبر ضيف أنه "من المؤكد أن اللغة العـربيـة لا تنتـحـر ولا تتـراجع فى هذه الأيام، بل تزدهى وتزدهر طوال قرنين من الزمـان على أيدى أبنائها البررة العظام". ومن جانبه وصف النقـاش كتاب "تجديد النحـو" بأنه "كـتاب رائع يحمل مـشروعًا كـامـلاً وجـاداً لتـيـسـيـر النحـو العـربى، وتخليصه من تعقيداته وصعوباته وقواعده الزائدة التى يمكن، بل يجب الاسـتـغناء عنها".


محمد فائق

انحياز للتجديد

الملمح الثالث هو ان رجاء النقاش لم يمسك العصـا من المنتـصف فى المعارك الفكرية والأدبية الكثيرة التى خاضها، بل إنه انحـاز دائمـاً - أو غـالبـاً - إلى التـجـديد. وإن كـان البـعض - ومنهم الكاتب والناقد صبحى حديدى على سبيل المثال - قد أخذ عليه أنه كان ـ وما يزال فى الواقع ـ شـديد الميل إلى إسـقـاط السيـاسـة (بمعناها المباشر والعقـائدى والحـزبى) على الظواهر الإبداعيـة، وإلى شطب جزء كبير من حقوق الإبداع إذا أخلَّت هذه بحقوق السيـاسـة. وأن تأتى ممارسـة كهذه من ناقد كبير ومتمرِّس ورائد أمر يتجاوز حدود العثرة، لأنه فى الواقع ينمّ عن اسـتـعـداد للتـضـحـيـة باسـتـقلالية العمليـة الإبداعية لصالح تكريس السياسة. ولعلّ جوهر هذا الموقف تختصره الكلمة التى نُشرت على الغلاف الأخير لكتاب النقّاش "ثلاثون عامـاً مع الشعر والشعراء"، حيث جاء فيها: "وقد وقف المؤلف بوضوح وصراحة مع حركات التجديد الأصيلة ورموزها المختلفة، كما

وقف ضدّ حركات التجديد المبنية على عداء حضارى وقومى للأمّة العربية واللغة العربية وآدابها. ولم يتردّد المؤلف فى معارضة حركات التجديد القائمة على سوء النيّة القومية، والاستهانة بالتراث الحضارى العربى بهدف تمزيق العرب فكرياً وثقافياً ووجدانياً".

انتهت ملاحظة صبحى حديدى، لكنها ليست فوق مستوى الجدال، وعلى سبيل المثال فان ناقدا آخر مثل عادل الأسطه يطالبنا بالتوقف أمام بعض ما ورد فى مقدمة الطبعة الأولى (عام ١٩٦٩) لكتاب رجاء النقاش " محمود درويش : شاعر الأرض المحتلة" إذ نقرأ أن النقاش لا يتعاطف مع شعر الأرض المحتلة كونه شعر مقاومة وإنما يرى فيه شعراً ناضجاً، كتبه شعراء موهوبون. وبكلمات رجاء النقاش ذاته فان "هناك حركة شعرية ناضجة ورائعة فى داخل الأراضى المحتلة، وأن الحكم بنضجها وروعتها من الناحية الفنية والفكرية ليس ناجما عن تعاطفنا السياسى او النضالى مع هذه الحركة، بسبب ما يعانيه أصحابها من الشعراء الشباب فى ظروف حياتهم الصعبة داخل إسرائيل.

.. إن التعاطف حقيقة لا شك فيه، ولكن الحركة الشعرية الجديدة داخل الأراضى المحتلة تتمتع بقيمة فنية على أكبر قدر من النضج والأصالة، بصرف النظر عن جميع الاعتبارات السياسية والعاطفية الأخرى. إن الشعراء الشبان البارزين فى الأراضى المحتلة هم شعراء موهوبون".

اكتشاف المواهب

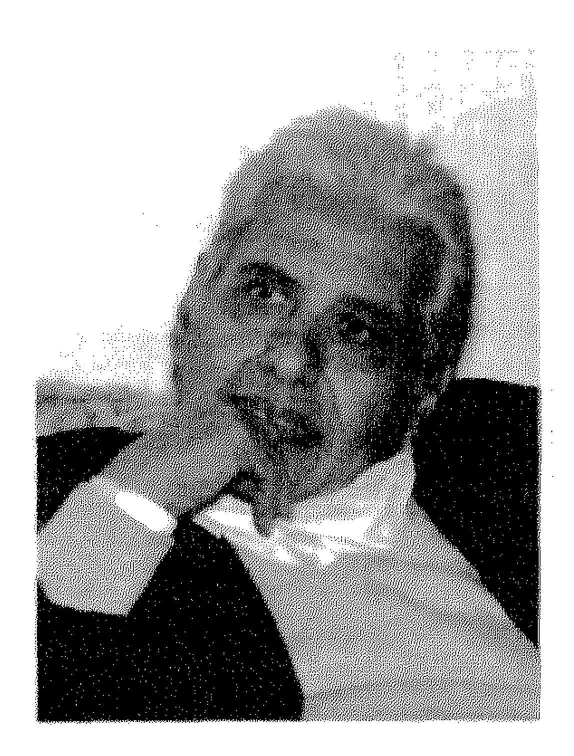
وهذا الجدل ينقلنا إلى ملمح رابع للمشروع النقدى لرجاء النقاش، حيث نجده قد قدم إلينا إضاءة لكم هائل من الإبداعات، ومن خلال هذه الإضاءة قام رجاء النقاش بتعريفنا بأجيال من المبدعين المصريين والعرب. وهذه ثروة حقيقية أغنت المكتبة المصرية والمكتبة العربية.

وليست المسألة مجرد إضاءة نقدية لإبداعات موجودة، بل تتعدى ذلك إلى ملمح مهم لرجاء النقاش هو اكتشافه للمواهب الجديدة.

وكى لا أعيد اكتشاف القوانين المكتشفة، اكتفى بهذا الصدد بإحالة القارئ إلى الأديب والناقد الشاب سفيان يوسف الذى تناول هذه الزاوية فى سياق مقال بديع بعنوان "دردشات ليلية مع إبراهيم أصلان" قال فيه :

.. أنظر مثلا إلى رجاء النقاش.. إنه يمتلك خبرة اكتشاف المواهب، وتقديم الكتاب، وتسهيل الجسر الموصل بينهم وبين القراء، فهو أول من كتب عن الطيب صالح، ومحمود درويش، ازدهرت مجلة الهلال عندما كان يرأس تحريرها، وعندما كان يعد عددا خاصا عن القصة القصيرة فى سنة ٧٠ قلب على الدنيا، وأرسل الناقد السينمائى فتحى فرج لى فى الكيت كات وكنا ساعتها نقفل باب البيت بالجنزير عشان الغسيل كان مسروقاً.. وسمعت فتحى ينادى من الشارع، وعندما

رأني صرخ رجاء النقاش قالب عليك الدنيا يا جدع وهو مستنيك بكرة الساعة ١١ على قهوة إيزافيتش، وذهبت له في اليوم الثاني الساعة الواحدة، وكان منتظرا، وأعطيت له قصة (المستأجر).. وأعطاها للجمع بعدها مباشرة..، ويستطرد أصلان عن رجاء: هذا الرجل كبير النفس فعلا، زي يحيى حقي وعبدالفتاح الجمل وصلاح عبدالصبور، وكل هؤلاء العظام الذين لايلعب الغرض في نفوسهم إلا نبلا ونزاهة وجمالا.. رجاء مرة قابلني على سلم دار الهلال، عندما كان رئيس تحرير مجلة (الدوحة) القطرية، وكان في زيارة للقاهرة، وقال لي: معندكش كتابات جديدة يا إبراهيم، وكنت أيامها ياشعب باكتب في (عصافير النيل).. وكنت كاتب فعلا خمسة مشاهد، فقلتله: عندي خمس حاجات.. ممكن أبعتهم لك، بس تبعتلي فلوس قبل نشرهم.. وقد كان.. ويتساءل أصلان: من يفعل ذلك الآن؟ وسؤال إبراهيم بالطبع مشروع، لأن الواقع الثقافي فعلا يضن بأفعال من هذا النوع إلا قليلا، ولينظر كل منا إلى كل ما حولنا من مجاملات وتربيطات وأسفار وترجمات، ونشر، وإن لم يسع المرء نحو كل ذلك بطرق غير مشروعة أو ملتوية، لن ينال ذلك، لذلك هناك من يطرقون الأبواب بقوة لدرجة الإزعاج، وسنجد هؤلاء الطارقين يتصدرون كل قوائم التراحيل المعتادة، دون تقديم قيمة مرجوة، هذا لأن المناخ تنقصه الضمائر النبيلة، ومن ينطوون على هذه الضمائر، بعيدون عن مواقع القرار، ومواقع السلطة..



هذه الشهادة تنقلنا إلى ملمح أخير خلاصته أن رجاء النقاش أثناء رئاسته لتحرير "الهلال" و"كتاب الهلال" و "المصور" و "الكواكب" و"الدوحة" القطرية، ظل مخلصاً لقضايا التقدم ويكفي أن نشير إلى تجربته في "الدوحة" القطرية التي كانت منبراً ثقافيا مهما عندما كان يتولى رئاسة تحريرها، وانتهى الأمر بإغلاقها على يد المحكمة الشرعية إثر نشرها مقالاً كتبه حسين أحمد أمين إن لم تخني الذاكرة.

نحن إذن أمام مشروع نقدي مهم لكاتب وناقد أدبي جاد.. ندين له بأخذنا من أيدينا وإدخالنا إلى عالم الحق والخير والجمال.. الذي يصارع ثلاثية الباطل والشر والقبح منذ سنوات. ونخشى أن نقول أن الأول يخسر أرضا لصالح الأخير عاماً بعد آخر.

لكن هذا ليس عيب رجاء النقاش.. الذي يستحق التكريم على عطائه الرائع.

صوت الحلم العربي

د. أحمد إبراهيم الفقيه ◻

لا أستطيع أن اتذكر بالتحديد متى وكيف توثقت علاقتى الشخصية بالكاتب الكبير الأستاذ رجاء النقاش، ولكننى أستطيع أن أقول إن ذلك حدث فى مطلع الستينيات عندما بدأت ترددى على القاهرة واشتركت فى دورة دراسية طالت فيها إقامتى بالعاصمة المصرية لمدة عامين، وكان رجاء النقاش إذ ذاك ملء السمع بالبصر، نجما ساطعا وهاجا من نجوم الحركة الأدبية له الق يضىء ويحرق احيانا وله كلمة مسموعة فى الوسط الأدبى لما اظهره من نباهة وحصافة واسلوب طازج جديد فى مقارباته للأعمال الأدبية، وكان يخوض معارك التحديث والتطوير والتجديد بقوة وصلابة حتى لو كان الموجود على الطرف المقابل واحدا من جيل العمالقة مثل عباس العقاد الذى كانت المعركة بينه وبين رجاء النقاش من اكثر المعارك صخبا وقوة، دون ان يعنى ذلك ان يغمط النقاش حق العقاد فى الاعتراف بمكانته السامقة، رائدا عظيما من رواد الأدب الحديث وكاتبا موسوعيا اسهم فى إخراج المجتمعات العربية من ظلام الجهل الى نور الايمان بعصر العلم والحرية، ولكن هذا الاعتراف بفضل العقاد وعلو مكانته، لا يعفيه من المحاسبة على أيدى الجيل الجديد من تلامذة العقاد، وفى مقدمتهم رجاء النقاش، والرد على مواقفه المجانبة للصواب عندما سخر نفوذه الأدبى وتاريخه الحافل بالعطاء والإنجاز للوقوف فى وجه حاملى رسالة التجديد فى الشعر او القصة ، خاصة وان العقاد جعل هدفه فى الهجوم اثنين من رواد الشعر الحديث احتفى بهما رجاء النقاش وقدم لاحدهما ديوانه الأول هما صلاح عبد الصبور واحمد عبد المعطى حجازى وساهم فى نشر انتاجهما فى مجلة الاداب التى كان مديرا لمكتبها فى القاهرة بعد انور المعداوى. وكان الاهتداء لرجاء النقاش والتعرف عليه وتوثيق العلاقة معه متاحا فى جو قاهرة الستينيات التى كانت تحفل بمطاريد الأنظمة العربية من أدباء وكتاب وسياسيين، يجدون فى القاهرة الملجأ والملاذ، وكان النقاش قريبا من هذا النبض العربى وهذه الأجواء التى تنوب فيها المساحات بين العربى والعربى، خاصة إذا كان الاثنان ينتميان الى قبيلة واحدة هى قبيلة الحرف والكلمة،فقد كان رجاء النقاش صوت مصر فى بقية أقطار

◻ كاتب وروائى من ليبيا

البورتريه للفنان
أدهم لطفى

الوطن العربى وصوت تلك الأقطار فى مصر، مندمجا ومتوحدا بين مصريته وعروبته، وبين ما يريده لمصر وما يريده لامته العربية، ملتحقا بذلك المشروع الذى قادته ثورة مصر فى سبيل وطن عربى اكثر قوة وتحررا ومجدا، واذكر صديقا كانت تضمه هذه الحلقات كان يزامل النقاش فى دار الهلال هو الأستاذ مازن البندك، الذى اصدر فيما بعد مجلة اسمها الجيل ما زال يتولى تحريرها من

باريس، وتربطنى به هو ايضا حتى اليوم أوثق العلائق منذ ان عرفته عن طريق رجاء النقاش. ويكفى ان اقول ان بداية تعرفى على إنتاج رجاء النقاش كان من خلال مجلة الآداب البيروتيه ذات التوجه العروبى، وكان رجاء النقاش من كبار المساهمين في تحريرها يكتب لها رسالة القاهرة الأدبية ويمدها بالأبحاث والدراسات ويقدم القراءات النقدية لما تكون المجلة قد نشرته فى اعداد سابقة من مادة أدبية تشمل البحث والقصة والقصيدة، وكانت شخصية رجاء الناقد تظهر سامقة قوية تستقطب إعجاب القراء بفضل ما وهبه الله من قوة التحليل وادراك أسرار العمل الفنى وعمق المعالجة فى بحوثه ومقارباتهورؤيته العربية النقية الصافية التى لا يشوبها التعصب الذى يعمى البصر عن ادراك الحقائق او النظر اليها عبر لون الايدولوجيا التى يؤمن بها.

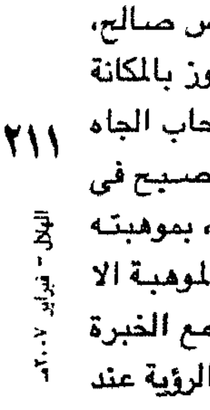
شهرة واسعة

كان رجاء النقاش قد حقق لنفسه شهرة واسعة، ونجومية هى أقصى ما يمكن ان يطمح بالوصول اليها أديب من الأدباء، نجومية أوصلته لان تفتح له صحيفة خاصة تعتمد فى حياتها واستمرارها على شعبيتها لدى القراء صفحاتها وتفسح صفحة كاملة لمقالته الأسبوعية التى ينشرها بها، قبل ان تسعى لاستقطابه مؤسسات أخرى، خاصة بعد ان انتهت الملكية الخاصة للمؤسسات الصحفية، ليتبوأ رجاء النقاش مكانته كقيادة صحفية حققت اعظم النجاحات فى قيادة المنابر الثقافية والأدبية داخل مصر وخارجها، وحقق اعتراف المجتمع الأدبى به كواحد من نقاد الطليعة، في أجواء القاهرة التى كانت تحفل فى فترة الخمسينيات والستينيات باساطين النقد الأدبى يكفى ان نذكر منهم كبار الكبار أمثال الدكتور محمد مندور، والدكتور عبد القادر القط، والدكتور لويس عوض، والدكتور رشاد رشدى والاستاذ محمود امين العالم والدكتور على الراعى، وغير هؤلاء ممن استطاع رجاء النقاش وهو الذى مازال فى مطلع الشباب ان يقف ندا لهم، ويسهم فى إدارة الندوات معهم تلك التى يديرها البرنامج الثقافى حول الكتب، او تلك التى كانت تهتم بعقدها المسارح فى اعقاب كل مسرحية كما كان الحال عند إنشاء مسرح الجيب. تميز بقلمه النزيه، العميق، القادر على الغوص فى الأعمال الأدبية والقاء الضوء على جوانب القوة والضعف فيها، وارشاد القارئ الى ما يستحق ان يسعى لقراءته وما لا يستحق فى زحمة ما تطرحه المطابع كل يوم،فكان البوصلة التى يهتدى بها القارئ فتقوده فى الاتجاه الصحيح، كما كان البوصلة التى تقود الأدباء ايضا وتهديهم الى مواطن القوة وطرق اكتشاف الجمال، ولعل اعظم إنجازاته فى هذا المجال انه جاء الى الحركة الأدبية والنقدية يحمل شفافية وضمير الفنان دون تلوينات مذهبية، فقد كان النقد ينقسم الى مدرستين على الأغلب إحداهما تلك



مع أبو عمار وبينهما الأستاذ عبد الحميد حمروش - القاهرة ١٩٩٥

المدرسة التي توغل في احتفائها بالتناول الواقعي او ما يسمى الواقعية الاشتراكية التي يصل بها الحال الى الحد الذي دفع بأحد نقاد هذا الاتجاه لمهاجمة أدب نجيب محفوظ باعتباره لا يخدم قضايا الشعب، وهي المدرسة التي اشتهرت باسم ناقد أدبي روسي ستاليني اسمه جدانوف وسميت باسمه أي المدرسة الجدانوفية في النقد، التي لا تنظرالا الى المضمون دون اعتبار للشكل وجمالياته اما المدرسة الأخرى فهي تلك التي تحتفي بالشكل دون اعتبار للمحتوى والتي كان لها أعوان يقودهم أستاذ اللغة الانجليزية وآدابها في الجامعة الدكتور رشاد رشدي، وكان رجاء النقاش هو الهبة التي أرسلتها السماء لإنصاف المبدعين من طغيان هاتين المدرستين، وبكتابات رجاء النقاش ومثله من أبناء هذا الاتجاه مثل الدكتورة فاطمة موسى وغالي شكري وفاروق عبد القادر واحمد عباس صالح، استطاع نجيب محفوظ ان يفوز بالمكانة التي يستحقها، وهو يزاحم اصحاب الجاه والنفوذ من كتاب الرواية، ويصبح في سنوات قليلة عميدهم جميعا، بموهبته فقط ولاشيء آخر يدعم هذه الموهبة الا الموهبة التي تزداد قوة وتألقا مع الخبرة والتجربة والنضج، ولان افق الرؤية عند رجاء النقاش لم يكن محدودا بحدود مصر وانما يشمل الوطن العربي كله فقد كان سهلا ان يهتدي الى عرق الذهب المدفون تحت جبال الطين حتى وهو يمد بصره الى خارج مصر، ولا احد يعرف



اذا ما كان المبدع الكبير الطيب صالح سيحقق تلك النجومية الفورية بابداعه الادبي لو لم يسخر له الله رجاء النقاش ويقرأ روايته الفاتنة موسم الهجرة الى الشمال فيكتب عنها بما تستحقه من ثناء واعجاب لينتقل هذا الاعجاب الى القراء فى مشارق الارض ومغاربها، وبوحي من هذا الحس العربي ذهب رجاء النقاش يبحث عن عروق الذهب الادبية فى الارض العربية المحتلة، فلسطين، ومن هناك جاءت كتاباته تبشر بتلك الاصوات التى كانت بعيدة خافتة، اصوات اميل حبيبى ومحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد، لتصبح هذه الاقلام بعد ان كتب عنها رجاء النقاش وكتب عنها غسان كنفاني نجوما تسطع فى سماء الوطن العربى كله، تحظى بالتبجيل والاكبار، ويمكن بعد هذه الاطلالة السريعة على دوره كناقد ادبى، ان نحدد ثلاث مناطق تاكدت فيها شخصية رجاء النقاش الفكرية، الثقافية، الاجتماعية ومكانته كرائد من رواد التنوير والحداثة فى مصر والوطن العربى وهذه المناطق هي:

قائد مبدع

اولا ـ تأكدت مكانة رجاء النقاش، محركا للحياة الثقافية وعاملا من عوامل التنشيط والتفعيل والتحدى لمعطيات الواقع من اجل تجاوز سلبياته وتقوية ايجابياته، من خلال موقعه كرئيس لعدد من المنابر الثقافية مثل مجلة الهلال، ذات الاشعاع الثقافى الممتد على مدى زمن طويل غطى حتى الان اكثر من مائة عام، والتى كانت منبرا لرواد النهضة فكان دور رجاء النقاش عندما استلم رئاسة تحريرها تقوية هذا الدور ودعمه بتلك الرؤية العروبية التى تأسست مجلة الهلال على يد منشئها الشامى اللبنانى جورجى زيدان لخدمتها ولكى تكون حلقة وصل بين الحياة الثقافية فى مصر ومحيطها العربى، فكانت فترة رجاء النقاش من اغنى الفترات فى تاريخ المجلة بهذا التواصل العربى العربى، واكثر ازدحاما باسماء لمبدعين عرب اسهموا فى تحرير مقالاتها من خارج مصر، واصدرت اعدادا خاصة عن الادب العربى، الذى لم يكن محدودا بقطر بعينه، مثل الاعداد الخاصة بالقصة فى الوطن العربى، واستلم أيضا مجلة الاذاعة والتليفزيون، ذات النفوذ الواسع فى مجال السمعيات والبصريات وفى موقع ربما أكثر من موقع رئيس التحرير أى رئيس مجلس الادارة الذى يستطيع أن يصدر قرارات التعيين لكتاب وأدباء كانوا يعانون من سوء ظروفهم الاقتصادية وأوضاعهم الوظيفية فشهدت تلك الفترة حدبا من رجاء النقاش على بعض هؤلاء الأدباء تجاوز الحدب على إنتاجهم الأدبى ورعايته إلى رعاية أوضاعهم المعيشية والوظيفية غير ما أغنى به هذه المطبوعة من عمق وثقافة وجدية الناقد الذى صار مسئولا على تسييرها، وتبقى أزهى مراحل العمل فى هذه المنطقة بالنسبة لرجاء النقاش هى مرحلة مجلة الدوحة التى ساعدت الظروف والامكانيات على أن يجعل منها ساحة لقاء وتفاعل وتلاقح بين نوابغ الأدب



مع الملك عبد الله «ولى عهد السعودية آنذاك» في مهرجان الجنادرية -١٩٩٤

العربى فى كل أنحاء الوطن العربى، ورغم أن مكان ميلاد المجلة وقاعدة انطلاقها هى دولة قطر وهى كما نعرف بيئة ثقافية لم تكن كبيرة ولا قوية ولا غنية، إلا أن الكبير والقوة والغنى جاء بفضل الموارد التى أستخدمها رجاء النقاش فى تغذية المجلة بروافد الابداع والفكر والثقافة من مشرق الوطن العربى ومغربه لتكون تجربة الدوحة تجربة فريدة، و أنجازا أنجزه رجاء النقاش لكى تصبح المجلة وساما فوق صدر الدولة التى اصدرتها بمثل ما كانت وساما على صدر رئيس التحرير الذى قاد مسيرتها واستعان بمهارات راقية لصنع تفوقها مثل مدير التحرير الكاتب الشاعرالأستاذ عبد القادر حميدة وفنان الإخرج الصحفى المبدع الكبير الأستاذ محمد أبو طالب، ولم تكن مرحلة رئاسته لتحرير مجلة الكواكب، كبرى المجلات الفنية فى العالم العربى وأكثرها قدما وعراقة، بأقل اهمية من رئاسته للمنابر الأخرى، فقد كان مهما لهذا المجال الصحفى الذى كان يقتصر على نشر أخبارمشاهير أهل الفن ونقلها للمراهقين، أن يأتى من يعتنى بالمحتوى والمضمون الذى تحمله صفحات المجلة وهكذا نجد الكواكب تغتنى فى هذه الفترة بعطاء كبار الاقلام خاصةً كتاب المسرح من امثال الراحل الفريد فرج، بل أن رجاء النقاش سعى لتوسيع دائرة اهتمام هذه المجلة لتشمل نشر الابداع الادبى واذكر فى المرحلة الأولى لرئاسته لها فى الستينيات اننى كنت أراه أثناء مجلسنا فى مقهى ريش يستقبل فتى طويل القامة، أسمر اللون، غليظ ملامح الوجه، ليقدم له على استحياء وخجل قصيدة ثم يمضى لينشرها رجاء النقاش فى العدد القادم من الكواكب، وكان هذا الشاعرالناشىء الخجول هو أمل دنقل،

الذى أصبح علما من أعلام القصيدة الحديثه، وتلك كانت بواكير أعماله الشعرية، ولم أكن أذهب للقائه فى مكتبه إلا وأجده يستقبل وجها من الوجوه الجديدة فى الأدب يقرأ انتاجه ويعطيه خلاصة خبرته وتجاربه بعد قراءة هذه الانتاج ثم يساعده على نشره إذا استطاع لذلك سبيلا. فلم يكن رجاء النقاش يتبوأ هذه المراكز الإداية القيادية على مدار الزمن، إذ ما أكثر الفترات التى تعرض فيها لغضب السلطة وملاحقتها مثل الفترة الأولى لحكم الرئيس السادات، عندما بقى معزولا لفترة من الوقت قبل أن يسافر مرغما إلى إحدى الاقطار العربية ليجد هناك مساحة لممارسة الكتابة والعمل الثقافى المؤهل بجدارة للقيام به.

مواجهة الأصولية

الدائرة الثانية التى حظيت بجهده وأبداعه هى مقالات الرأى، فعلى مدى العقود الخمسة التى انصرمت منذ ان بدأ الكتابة فى الخمسينيات وهو يثابر بجوار الكتابة الادبية والنقدية، على كتابة مقالات الرأى التى تتصدى للقضايا الحضارية، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أوثقافية أو دينية أوفكرية فلسفية، ويدلى فيها بدلوه، وكان يضع قلمه دائما فى صف التقدم والحداثة والتطوير والتجديد وروح العصر، متصديا فى بسالة وقوة وشجاعة لافكار فقهاء الظلام وأرباب التفكير الاصولى التكفيرى منافحا ومدافعا عن الافكار التى تعنى بنهوض المجتمع والدفع به فى ركب التطور والالتحاق بالعصر، واستطاع بجدارة أن يلعب دورا تنويريا فى هذه المراحل من تاريخنا الحديث التى كانت تصاب أحيانا بنوع من اللوثات العقلية وتداهمها أحيانا بعض الموجات الظلامية التى تريد أن تعيد المجتمع إلى ما قبل التاريخ، أو تلك التى تريد تفتيت العالم العربى وعزل اقطاره عن بعضها البعض ونفث افكار الانغلاق والعزلة والتقوقع والتشرذم والانكفاء على الذات، وقد تجلت فى هذه المقالات روحه العربية باعتباره أحد المؤمنين إيمانا راسخا عميقا بالوشائج التى تربط ابناء الامة العربية ببعضهم البعض، وكانت فلسطين دائما فى قلب هذه الكتابات باعتبارها قضية العرب الاولى والجرح الأكثر نزفا فى جسد الأمة، ولم يكن ليكتسب رجاء النقاش صفة الصوت المعبر عن الحلم العربى بفضل كتاباته ذات البعد القومى واهتمامه بقضايا العمل العربى المشترك، ولكنه اكتسب ذلك أيضا بفضل انشغاله بمشروع النهضة فى مصر وتحققها عبر الفكر والسياسة والثقافة والاقتصاد والاجتماع حيث كان لا يرى مستقبلا للوطن العربى بدون مصر القوية العفية المتالقة المنتصرة المتحررة، ولم يكن يرى مستقبلا لمصر بمعزل عن محيطها العربى وموارد القوة التى تتوافر عليها عندما تربط مصيرها بمصير أقطار هذه الأمة، ولذلك فان إنشغاله بموضوع النهضة فى مصر هو فى ذات الوقت انشغال بموضوع النهضة العربية وتعبير عن قوة



مع الرئيس السودانى إسماعيل الأزهرى والشاعر عبد الرحمن الخميسى - الخرطوم ١٩٦٨

الحلم العربى ومشروعيته وقابليته للتحقق بمشيئة الله. وأذكر الآن ندوة أسهمت فيها مع رجاء النقاش اقامتها الجامعة العربية عام ١٩٧٢عنوانها الوحدة والتنوع فى الثقافة العربية، تجلت فيها الرؤية العربية النقية لرجاء النقاش، الذى أسهم فى الإعداد لهذه الندوة كعضو فى لجنتها التحضيرية، كما أسهم فى البيانات التى أصدرتها كعضو فى كتابة بيانها الختامى، فكان من عناصر انجاحها، لأنه وضع مفهوم الوحدة العربية فى مكانه الصحيح، بعيداً عن رؤية الانغلاق والعرقية والشوفينية من ناحية، وبعيدا عن نظرة الاستلاب والدونية والذوبان فى المشروع الغربى ذوبانا كاملا، فهى وحدة التنوع والحضارة والانفتاح على آفاق التجدد والابداع والتفاعل مع ثقافات العالم ومناطقه الحضارية من موقع الندية والتكافؤ والمصالح المشتركة والأخذ والعطاء.

نظلم رجاء النقاش كثيرا إذا اكتفينا بوصفه ناقدا أدبيا ورائدا من رواد الفكر الحداثى فى ثقافتنا العربية، لأن صفتى الناقد والمفكر، لا تتضمنان صفة أخرى، حرى بنا أن نصف بها رجاء النقاش، لا تفضلا منا وإنما عن استحقاق وجدارة هى صفة المبدع، فهو لم يبق فى دائرة الناقد الذى يجعل من كتابته هامشا على متون الآخرين، وإنما اهتم بكتابة المتن الإبداعى الذى يستمد وجوده من إبداع وخيال وفكر الكاتب نفسه، فى كثير من كتبه الإبداعية، فقد تخصص فى كتابة لون من الابداع الادبى نستطيع ان نسميه الصورة القلمية وهذه الصورة قد يرسمها لشخصيات من التاريخ، وقد يرسمها لشخصيات من ابداع الادباء العالميين من امثال شكسبير وغيره، وقد يرسمها لشخصيات يبتدعها هو نفسه من الخيال، ويقدمها بكل عناصر الإبداع الأدبى من سبر لأغوار النفس البشرية

واهتمام بجماليات الأسلوب والمعالجة، مع مقدار كبير من التشويق والامتاع الفنى الذى يرقى بهذه االكتابات الإبداعية إلى مصاف شوامخ الأعمال الأدبية.

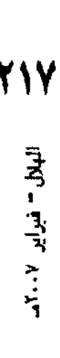
ويبقى جانب خامس لابد من الاشارة إليه على عجل، وانه بفضل وجوده فى الحياة فى هذه المرحلة من الزمان، كان قادرا على القيام بدور حلقة الوصل بين جيل الاباء المؤسسين وجيل المبدعين المعاصرين، وما كتابه فى حب نجيب محفوظ إلا مثالا على هذا التواصل الحميم بينه وبين الجيل الاكبر سنا وتقديمه للاجيال الجديدة من القراء والمبدعين مسلطا الضوء على أسرار عمله الفنى، ومراحل التكوين التى صنعت منه هذا العبقرى المدهش الذى تفخر الامة العربية كلها بانتمائه اليها، ولم تكن هذه العلاقة التى جمعته بنجيب محفوظ إلا صورة من علاقات أخرى، مع كتاب آخر، لم تكن موضوع كتاب أو أكثر من كتاب كما كان الشأن مع هذه العلاقة المتميزة، ولم تكن علاقته تقتصر على الجانب الفكرى وإنما كان يعتنى بالتواصل الإنسانى مع هؤلا ء الرواد وأذكر أنه أخذنى أكثر مرة لزيارة كاتب من كتاب الجيل الماضى هو الأستاذ على أدهم فى بيته بمصر الجديدة ويكتب بعد أن يعود من زيارته مذكرا بجلائل الاعمال التى قدمها هذه الرائد المجهول من رواد الثقافة العربية الحديثه. كما أخذنى لزيارة رائد آخر من أبناء فلسطين يداوم على زيارة القاهرة هو أستاذنا الدكتورمحمد يوسف نجم، الذى يعترف رجاء النقاش بفضله فى التعريف بمؤسسى الأدب الحديث خاصة فى مجالات القصة والرواية والمسرحية فى الأدب العربى من أبناء القرن التاسع عشر، وقد أصبحت بفضل رجاء النقاش أحد الأصدقاء الحميمين لهذا الأستاذ الرائد وهذا الأب من آباء الحداثة فى العالم العربى، أطال الله عمره، وكلنا يعرف مدى التوتر الذى يشوب علاقات الدكتور يوسف إدريس، عبقرى القصة القصيرة، ببعض الناس بسبب تلك الشحنات الانفعالية الغاضبة التى لم يكن الكاتب الكبير الرا حل يجيد كتمانها لفرط صدقه وعفويته، إلا اننى أشهد أن علاقة الصفاء والنقاء والمودة العميقة بينه وبين رجاء النقاش ظلت فى تواصل مستمر لا يشوبها شىء مما يشوب العلاقات الأخرى، وقد كنت صديقا للاثنين منذ مطلع الستينيات، وكان هذا هو نوع العلاقة التى ربطته بكتاب عرب من أمثال الطيب صالح وسهيل إدريس وزكريا تامر وعبد السلام العجيلى ونزار قبانى وعبد الوهاب البياتى ومحمد الفيتورى، ومجموعة الشعراء والقصاصين القادمين من عمق الارض المحتلة، الذين يحتل رجاء النقاش مكانة خاصة جدا فى قلوبهم، كما يحتلون هم أيضا ذات المكانة لديه، وقد كنت حاضرا أول لقاء بين المبدع الفلسطينى الراحل إيميل حبيبى، الذى يعرف فضل رجاء النقاش على مبدعى الشعب الفلسطينى، كما يعرف



فى دمشق عندما كان يعمل فى جريدة الجماهير - ١٩٥٩ مع صباح قباني
شقيق نزار قباني والفنان عبد اللطيف والكاتب نجاة قصاب حسن

رجاء النقاش مكانة هذا الرائد الكبير، وكيف كادت عينا إميل حبيبي تغرورقان بالدموع وهو يحتضن رجاء النقاش متأسفا كيف تأخر هذا اللقاء الشخصي بينهما لأكثر من ثلاثين عاما.

هذه شهادة اقولها بمنتهى التجرد والحيادية، مبرأة من كل غرض او شبهة رد للجميل على المستوى الشخصي، وإن كان بالتاكيد يلونها احساس برد الجميل والعرفان بالفضل لأهله على المستوى العام، فلم اكن ممن انتفعوا بالمساهمة فى المنابر التى قادها وكنت سأشرف بأن أضع اسمي ضمن لوائح الشرف لعباقرة هذه الأمة ممن كانوا يهرعون لتلبية دعواته للكتابة فى المنابر التى كان يتولى مسئولية تحريرها، فقد كنت حين قيادته لهذه المنابر مشغولا بتحرير وانشاء منابر ثقافية فى بلادى، كما لم أحظ فى يوم من الأيام بحرف واحد كتبه عنى، لانني لم اكن قد انتجت فى مجالات الإبداع افضل أعمالى الأدبية فى ذلك الوقت المبكر من عمر علاقتنا ، وعندما فعلت كان هو قد تحول عن النقد التطبيقي الى معالجة القضايا الكبيرة بحيث لم يعد مثل هذا النقد يحتل غير مساحة صغيرة من جهده وتفكيره رغم أنه لم يكن يتأخر عن قراءة ما أقدمه إليه من انتاجى بحب واهتمام ولم يكن يبخل اطلاقا بأبداء رأيه على المستوى الشخصى والشفهى، وهو رأى كان دائما مصدرا لاعتزازى وسعادتى وحافزا لى على بذل مزيد من الجهد على طريق الإبداع.



حزب المرجئة



ياسر شعبان □

مع بداية الألفية الثالثة ثارت زوبعة ثقافية عرفت باسم " أزمة الروايات الثلاث"، وكنت طرفاً فيها دون إرادة مني، وذلك بعد اختيار روايتي " أبناء الخطأ الرومانسي" ضمن الروايات المُتهمة بالخروج على الآداب العامة وخدش الحياء العام!! وقبلها كانت هناك زوبعة هائلة عرفت ب " أزمة الوليمة"، نسبة إلى رواية "وليمة لأعشاب البحر" للكاتب السوري "حيدر حيدر ".

وأي متابع للأزمتين لابد أصابه الارتباك والتشوش، بسبب التغير الحاد في المواقف الرسمية ومواقف كثير من المعروفين بـ"المثقفين والإعلاميين". ففي "أزمة الوليمة"، المتهمة بالتجديف، جاءت المواقف مدافعة عن حرية التعبير ورفض الوصاية على الإبداع تحت أي مسمى. أمَا في "أزمة الروايات الثلاث"، فلقد حدث تحول كامل في المواقف بزعم الدفاع عن المجتمع وثوابت الأمة!!!

ولم أشارك في الأزمتين سوى بشهادة كان عنوانها " الخاسرون"، وذلك رغم مطالبة كثيرين لي بأن أُشارك لأنها فرصة للشهرة تستحق الاقتناص!! ورأيت أن المشاركة في مثل هذه " الهوجات" ستكون مُشاركة مُزيفة في أزمة مُفتعلة، يختلط فيها "الحابل بالنابل" وينطبق عليها قول "شكسبير" المأثور "جعجعة بلا طحن".

وظللت مرتبكاً حتى قرأت كتاب "قصة روايتين" للأستاذ "رجاء النقاش" - الصادر عن دار الهلال في عام ٢٠٠١ - والذي تناول فيه أزمتين أثارتهما روايتا "ذاكرة الجسد" للكاتبة الجزائرية "أحلام مستغانمي" ورواية "وليمة لأعشاب البحر" للكاتب السوري "حيدر حيدر".

بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب، سرت الثقة والسكينة إليَ، خاصة عندما قرأت هذا المقطع في صفحة (١١):

(وجاء الرد على الدكتور محمد عباس ودعوته إلى "المبايعة على الموت" بالدفاع المستميت عن رواية "الوليمة" لـ"حيدر حيدر" واتهام كل من يرى فيها خطأ فكرياً أو أدبياً بأنه متطرف خارج على النظام وعدو لأمن بلده. ولذلك "احتاس" أمثالي ممن يحبون أن ينظروا في هدوء وموضوعية وصفاء ذهن، ويحبون أن ينظروا إلى الأشياء في حجمها الصحيح، فلاذوا بالصمت، وانضموا إلى حزب "المرجئة"، أي الذين "يرجئون" التعبير عن أفكارهم إلى يوم الحساب العظيم، حتى لا يقعوا في خطيئة الانضمام إلى حزب من الأحزاب الفكرية المتصارعة في هذه الدنيا الفانية. ولو لم أنضم أنا وأمثالي

□ كاتب ومترجم من أسرة الهلال



إلى حـزب "المرجـئـة" في هذه الـقـضـيـة الصاخبة، لأصابنا شر عظيم، فإذا مدحنا الرواية نقـداً قـيـل إننا من المتطرفين والإرهابيين، ولذلك قلنا لأنفسنا باللغة الحميمة الفصيحة ... وعلى إيه.. أسكت وخلاص!)

قمية الحرية

ويخـتلف حـزب "المرجـئـة"، ومن أبرز أعضائه ـ حسب تقديري ـ الراحل العظيم "نجيب محفوظ" والأستاذ "محمد حسنين هيكل" والأستاذ "رجاء النقاش" والأستاذ "بهاء طاهر".وآخرون، وأتمنى أن أحظى بشرف الانضمـام إلى هذا الحـزب وأن يمن الله علىَّ بنعـمـة التـأني ويمنحني القُـدرة لأبتـعـد عن طوابير المهـرولين، يختلف عن غيره من الأحزاب التي تناول الأستـاذ "رجاء" تأثيراتها السلبية علي

الإبداع مستشهداً بالنموذج الصارخ للأدب الحزبي في الاتحاد السوفيتي، وعنه قال في صفحة ١١٢:

(لو أن الاتحاد السوفيتي عرف نسبة معقولة من حرية الأدب والفن، لاستطاع الأدباء والفنانون أن يقدموا أعمالاً عظيمة، بل إنني أغامر وأقول بأن حرية الأدب والفن كانت كفيلة بحماية الاتحاد السوفيتي من الانهيار، لأن الأدباء والفنانين قادرون على التنبيه للأخطاء وقبل أن ينتبه إليها غيرهم، وقبل أن تصبح هذه الأخطاء نوعاً من الكوارث التي يستحيل تصحيحها أو الوقوف أمامها، فالأدباء والفنانون الموهوبون لديهم تلك "الحاسة الخفية" التي هى "موهبة إلهية" تمكنهم من الشعور بالخطر على بُعد ألف ميل، وقبل أن يصبح مثل هذا الخطر كارثة بلا حل.)

ويتضح من المقطع السابق إيمان الأستاذ "رجاء لنقاش" بقيمة "حرية الأدب والفن" وثقته في الأدباء والفنانين وفي قدرتهم على التنبيه والمشاركة في حماية المجتمع وتطويره.

ويتأكد موقفه هذا بما جاء في صفحة ١٣٢ من نفس الكتاب :

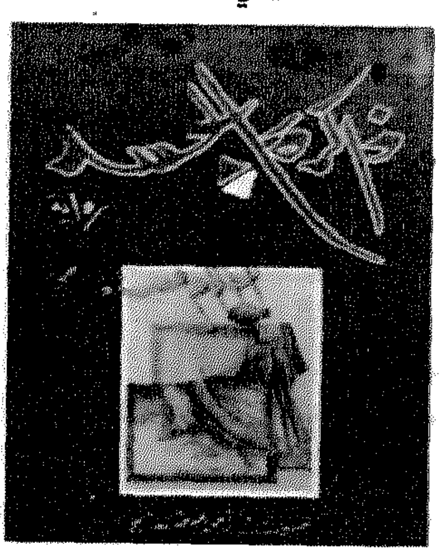
(فإنني على إدراك تام بأن ما جاء في فصول هذا الكتاب لن يرضي أحداً من المؤمنين بالحزبية الفكرية والسياسية، وأعلم على وجه الخصوص أن هذا الكتاب سوف يثير غضب الماركسيين وغضب الأحزاب الدينية العلنية والسرية وعلى رأسها جميعاً " الإخوان المسلمين". وهذه الأحزاب - يميناً ويساراً - تسعى إلى "السيطرة الأدبية" على كل عمل فني، وهو أمر مثير للقلق، لأن "الفن" قد يكون مصدره تفكير سياسي، ولكن "الفن" شيء و"السياسة" شيء آخر.)

....

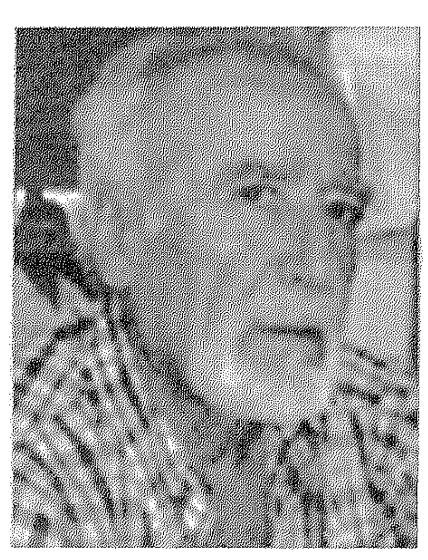
(فالأحزاب والأفكار الحزبية هي مثل السدود التي تُقام على الأنهار، ولكن ما جدوى هذه السدود إذ جفت الأنهار وتوقفت عن الجريان؟)

....

(وهكذا يكون الفن والنقد، فهما نهران حرّان لا ينبغي أن تؤثر في جريانهما الطبيعي قيود ولا سدود. حتى




أحلام مستغانمى


حيدر حيدر

وإن أخطأ النهر يوماً ففاض أكثر من اللازم، أو تأخر فيضانه عن مواعيده المحددة، فذلك كله لا يسمح لأحد بإلغاء النهر واستبعاده من الوجود.)

دعوة للحوار

وهكذا - ببساطة وهدوء ووضوح، يُبدي الأستاذ "رجاء النقاش" رأيه في مشكلة يعاني منها ومن تداعياتها كل المشتغلين بالإبداع، كما هو الحال في مصر الآن، عندما يجدون أنفسهم بين مطرقة وسندان الأوصوليات المختلفة " سياسية ، فكرية، دينية..." فالقيود تؤدى إلى التمرد، والسدود تتداعى أمام الفيضانات الجارفة، والأفكار لها أجنحة لم ولن يمنعها عن التحليق أحد، وحُرية التعبير والإبداع لا تتسبب في إساءة الفهم ولا تشغل النزاعات، بل تؤسس لمناخ من العقلانية واحترام الآخر والقُدرة على المُشاركة والفعل والتعبير. وأدعو الجميع إلى تأمل هذه الجملة التي جاءت في صفحة ١٣٤ من كتاب "قصة روايتين":

(ولعلنا لو أخذنا بمنهج الحرية - و أخلاقها أيضاً - لابتعدنا تماماً عن أي محاولة لاضطهاد "رأي مخالف"، أو صاحب رأى مخالف، فالاضطهاد والمطاردة لأصحاب الآراء عار على العقل والضمير. وتبادل وجهات النظر في إطار من الاحترام المتبادل، مهما ارتفعت حرارة الحوار أو زادت مساحة الاختلاف والتعارض، هو السبيل لتحقيق إصلاح ثقافي عربي شامل، ينقلنا من عصر "الطوائف" الفكرية والخنادق المسلحة التي تطلق النيران على كل شيء يتحرك، إلى عصر نتقدم فيه وننهض ، بعد أن نطلق سراح العقل العربي من قيوده القاسية التي تكتم أنفاسه وتعوق حركته وتجعل منه عقلاً انفعالياً سريع الغضب سريع الرضا، جاهز على الدوان لإطلاق الأحكام النهائية التي تمّ إعدادها في " الكراريس الحزبية" دون أن يلجأ هذا العقل، كما ينبغي على كل عقل حُر، إلى الفحص الدقيق والدراسة المتأنية القادرة على تقليب كل الأمور على كافة الوجوه والاحتمالات قبل الوصول إلى قرار أخير.)

مثل صورته تماماً



□ سعيد شعيب

كان الأستاذ رجاء النقاش يقول لى دائماً: جيلكم لا يحتاج فقط الى أن يكون موهوباً، فهذا وحده لا يكفى فى بلد مثل مصر، فلابد تكون -إلى جانب موهبتك- مقاتلا عنيدا تحفر الصخر بأظافره.

كنا فقراء لا نملك سوى موهبة عارية من النفوذ ومن المال، موهبة لا يمكنها أن تقف صامدة وحدها فى مواجهة فرص تكاد تكون معدومة وانهيارات لناس أحببناهم بجنون من الصور التى كوناها لهم عبر قراءة دءوبة، كانت هى نافذتنا الأكثر أماناً لرؤية العالم.

كانت دنيانا مضطربة فى منتصف ثمانينات القرن الماضى، مفزوعين من المسافة الهائلة بين صور كوناها من حروف مطبوعة فى كتب وصحف، وبين حقيقة أحرقت قلوبنا فى ردهات مؤسسات صحفية وأحزاب. انتقالات عنيفة من أقصى اليسار الى أقصى اليمين، ومن أقصى اليمين الى أقصى اليسار .. من العداء المطلق ضد للولايات المتحدة وإسرائيل الى تأييد -يكاد يكون مطلقا- للصهاينة وللإدارات الأمريكية .. فبمن نعتصم وأى مكان يعصمنا؟!

السؤال صعب والإجابة عليه أصعب، وللأسف فى بلد مثل مصر تحكمها فوضى الصدفة، لم نكن نحتاج فقط للقتال والعناد والحفر بالأظافر بحثاً عن أرض صغيرة نقف عليها، ولكن كنا ومازلنا نحتاج لمن هم مثل الأستاذ، وهم قلة نادرة فى بلدنا العزيزة. أشخاص تؤمن بموهبتك لوجه الله ولا تطلب منك شيئا سوى أن تكون أنت كما أنت بالضبط، بالتمام والكمال، ومن هنا كان الأستاذ على عكس كثيرين مثل صورته بالضبط التى كونتها أنا وغيرى من قراءة كتبه ومقالاته ، نبيلا، متسامحا، عفيفا، محبا للناس والحياة.

ولذلك لم اصدق نفسى عندما اتيحت لى فرصة العمل معه فى مكتب إحدى الصحف العربية، ومنها إلى مجلة الكواكب، فهل معقول أن أعمل مع رجاء النقاش "بجلالة قدره"، وأراه ويرانى، بل ويناقشنى وأناقشه. ووجدت شغلى يجد طريقه للنشر بلا لفلفات ولا طرق سرية ولا وصلات نفاق ولا أى شيئ.. فقط مجرد أن أكتب بشكل جيد، وتجد الأستاذ فرحا وكأنه هو الذى كتب. فى حين أن البعض فى بلاط صاحبة الجلالة "يعكنن عليك عيشتك لأنك بتعرف تكتب" وكأنك تكتب على لحمه وليس على ورق صحف، وكأنك تقتطع جزءا من ذاته .. فمثل هؤلاء

□ كاتب وصحفى



يعتبرون أن نجاح الآخرين حرب شخصية ضدهم .. وكل واحد فيهم يعتبر القمة خازوق لا يتسع إلا له هو وحده دون العالمين.

ومنحنا الأستاذ نعمة الأمان، نعمة أن تصدق نفسك، أمان أنك بموهبتك، «وموهبتك فقط، يمكن أن تجد مكانا لك في هذا العالم الفظ.. وبموهبتك فقط تصون نفسك من الفقر والجوع، وبشخصيتك وموهبتك تصون نفسك من عصف الانقلابات ومرارات الصدمات وخداع الناس.

ليس هذا فقط ولكن الأستاذ كان يتحملنا ونحن نناقشه بنزق وحماس الشباب مختلفين معه بحده في بعض مواقفه السياسية .. وياللعجب لم يكن يحاول أن يغير مواقفنا ولكنه فقط يشرح ويشرح لعلنا نتفهم دوافعه .. وفي هذه المدرسة الحانية، مدرسة رجاء النقاش تعلمت أهم درس في حياتي وهو فضيلة الاختلاف ورحمة التسامح .. وأن الحكم على الناس بمواقفهم السياسية فقط قاصر ومزيف، لأن المواقف تتغير كما تتغير الأحذية.. ولكن الأهم هو أن يكون الإنسان جيدا أيا كان موقعه:يميني، يساري، مؤيد للنظام، معارض له ففي هذه الحالة سيفيد نفسه والبلد فعلا، والإنسان الردئ يفسد نفسه والبلد سواء كان موقعه في المعارضة أو الحكومة. كما تعلمت من الأستاذ فضيلة الاعتزاز بالنفس والتعالي على الصغائر، فالصغير هو الذي يخوض معارك صغيرة .. فقد رأيت بعيني كيف كان هؤلاء الصغار يستفيدون منه وينقلبون عليه .. وهو كما هو أبدا .. كبيراً وكريما ونبيلا.





د. أحمد كشك ☐

رجاء النقاش سبيكة لغوية غالية، امتزج فيها بإحكام قوام الصواب بإشراقة الجمال، سبيكة إنسانية خلاّقة فكرا ودورا وخلقا.

كان أول لقاء به، وأنا أحرص على اقتناء مجلة الدوحة التى كان يقيم أمرها الثقافى والأدبى بارتقاء وعلو، وكان وجودى معه فى لقاء بقاعة أحمد لطفى السيد بجامعة القاهرة من خلال ندوة كبرى خاصة باللغة العربية، وقت أن كان الحوار مشتعلا مع كتاب الأستاذ فريد الشوباشى الذى أثار ضجة حول حياة اللغة العربية وإمام النحاة سيبويه، وقد شرفت بإدارة هذه الندوة التى حفلت بأعلام ومفكرين من مجالات ثقافية متنوعة.

فى إهاب هذه الندوة وجدت رجاء النقاش رجلا دقيقا هادئا ورزينا يدلى برأيه فى هذا الموضوع برؤية من يعشق اللغة العربية روحاً وفكرا وإبداعا، وقد منحنى بعد هذه الندوة فى مقاله الذى نشتاق إليه فى الأهرام بعض أسطر من ثناء على إدارة هذه الندوة.. كانت أسطرا من ذهب فى حقى.

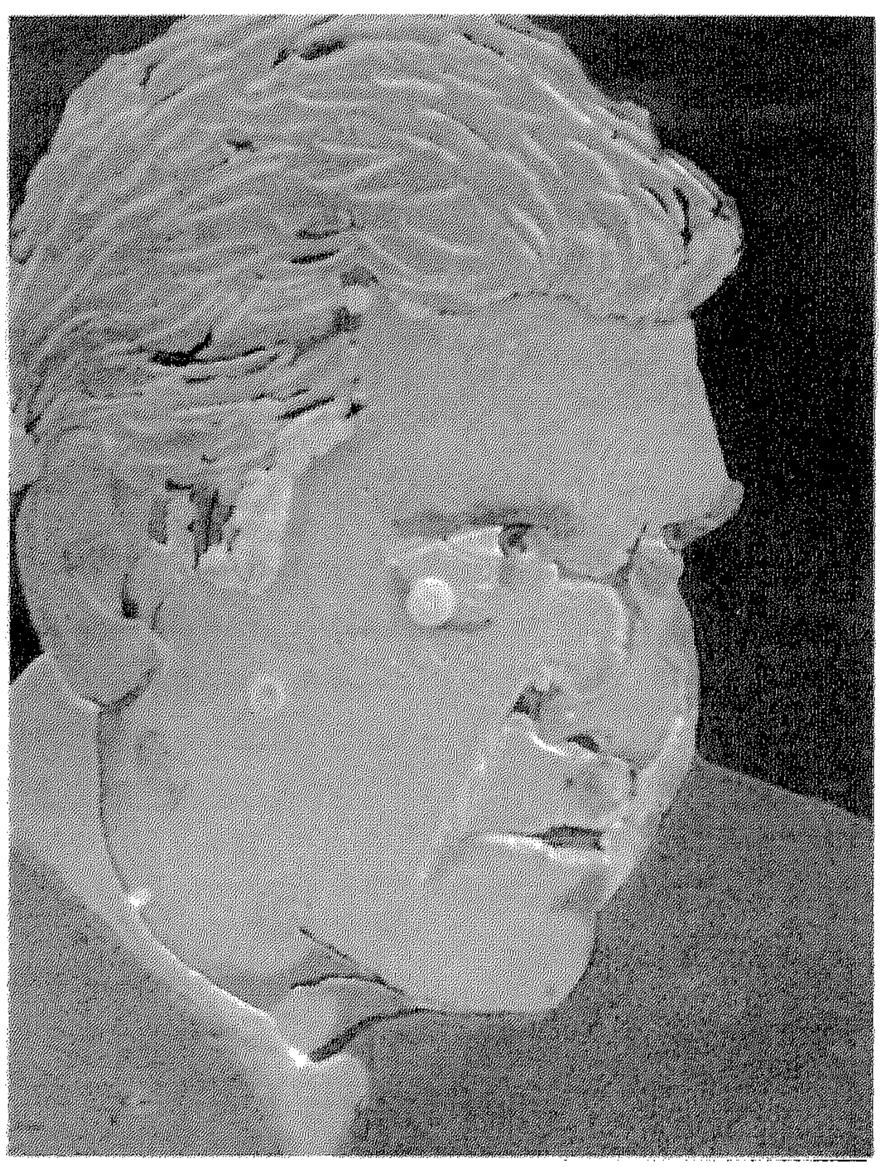
من ساعتها أدركت الدور الأمين الذى يقوم به فى التعريف بمن يعيشون أمر العربية، ومن هنا وصلت خيط الماضى بالحاضر، وأدركت أن عاشقاً للغة العربية مثل رجاء النقاش على العربية أن تجل دوره وأن تحفر اسمه فى ضمير نشأتها وبنيتها وتراكيبها تحية له وتكريما.

ألم يُثر أمرها بالحديث المتمكن عن لغة الإبداع فيها، حين أضاف إلى المكتبة العربية مؤلفات جليلة عن أبى القاسم الشابى ومحمود درويش شاعر الأرض المحتلة، وأدباء ومواقف، وبين أنور المعداوى وفدوى طوقان؟

ألم يرفع من شأنها وهو يتحدث حديث الناقد المتمرس فى مجالات دورها وهو يقدم للقارىء العربى «مقعد صغير أمام الستار»، و«أصوات غاضبة فى النقد الأدبى»، وفى أزمة الثقافة العربية، وعباس العقاد بين اليمين واليسار، وفى حب نجيب محفوظ، ورد على لويس عوض وتوفيق الحكيم؟

ألم يكن له سبق فى القبض على فيض أعلام كبار من أمثال شاعر مصر الكبير أحمد عبدالمعطى حجازى والطيب صالح صاحب العمل الإبداعى المركب «موسم الهجرة إلى الشمال»؟

☐ كاتب وعميد كلية دار العلوم



التصميم رؤية للفنان محمد طمان

إن هذا العلم المفرد الخلوق يترك بصمة واضحة فى الحركة النقدية فى النصف الثانى من القرن العشرين مازالت متحركة حتى اليوم وبإذن الله إلى زمان المستقبل، إنه يعيش أمر الفكر الثقافى والأدبى لهذه الأمة الناطقة بالعربية بعدلٍ ووله وإمتاع؛ فقد احتوى هذا الرجل الحركة الأدبية بنزاهة وحيدة واقتدار.

إننى فى حمى اللغة العربية أحبه، لأنه يمرح فى واديها ويجرى فى فيافيها من باب المتعة والإبداع لا من باب المنفعة والحاجة؛ فالحاجة تقدر عليها الآلة الصماء، ويقدر عليها غير الإنسان؛ أما الإمتاع فلا يقدر عليه إلا المبدع الفنان الإنسان، لا يقدر عليه إلا من جاء إبهاراً لسبيكة لغوية غالية، سبيكة من ذهب هى رجاء النقاش.



من جيل العظماء

سلوى بكر

رجاء النقاش ينتمى لجيل من العظماء المؤسسين لحركة النقد فى العالم العربى، وله يرجع الفضل فى تقديم محمود درويش والطيب صالح ويوسف إدريس وأحمد عبدالمعطى حجازى وغيرهم، وله أيضا الفضل فى تأسيس وإصدار مجلة «الدوحة» القطرية التى لعبت دوراً كبيراً فى تقديم نوافذ ثقافية مختلفة، ومن أبرز سمات النقاش أنه ناقد مثقف، عادل ولا يجامل، ولا يخلط بين الخاص والعام فى نقده، لا يتعالى على القارىء وهو يقدم له عملاً من الأعمال باستخدام عبارات أشبه باللوغاريتمات كما يفعل بعض النقاد الحاليين، فأسلوبه بسيط وسهل، يجيب القارىء فى العمل الإبداعى بإظهار الإيجابيات قبل السلبيات، وهو من النقاد الذين يتقون الله فيما يكتبون، وهذا الأسلوب البسيط يكشف عن شخصيته التى يُجمع القريبون منه عليها، فهو كما يكتب وكما يُحكى عنه.. إنسان مثقف ومتواضع وبسيط جداً دون إفراط أو تفريط.

لهذا كله اكتسب رجاء مصداقيته كناقد يبحث وينقب ويحلل ويكتشف ليقدم للقارىء ما لا يعرفه، وما لا يستطيع الوصول إليه بمفرده، وهذه قيمة مهمة وكبيرة أيضاً.







□ روائية وكاتبة



سعيد الكفراوى ▫

أعتقد، وبشكل شخصى، أن الناقد الأستاذ رجاء النقاش، وعبر مسيرته النقدية الطويلة، والتى واكب خلالها تلك المتغيرات التى وقعت أحداثها الجسام فى حياتنا، وفى واقعنا العربى، أعتقد أننى أستطيع أن أطلق على هذا الناقد أنه «رجل أدب»، وأنه جعل من حياته الشخصية موازاة للأدب، نقداً، وبناء، واستكشافاً، ومحاورة مع أكثر ما أنتجه الخيال العربى، رواية وقصة ومسرحاً عبر نصف قرن من عمره الكريم.

على هذا النحو يغدو الدور الذى لعبه رجاء النقاش فى بنية نقدنا الحديث دوراً مؤسساً، ومؤثراً، يحتفى بالاكتشاف والتغيير، مختصراً العالم فى تلك النظرة الإنسانية التى حافظ عليها رجاء النقاش طوال عمره، وطوال ممارسته للنقد الأدبى.

يعتبر رجاء النقاش أحد الذين أحبوا الكتابة، وأخلصوا لها بصدق الفعل والنية، وأعطوها حياتهم، وأسس لنفسه منهجاً ثقف من خلاله نفسه تلك الثقافة الواسعة التى اكتسبها بصبر رواقى جعله فى كل أحواله يتعامل مع الأدب باعتباره رؤية تعيد صياغة الواقع، ومن ثم تطرح أسئلة جديدة تنتقل بالإنسان من حالة الضرورة إلى حالة الحرية.

كنا ننظر إلى رجاء النقاش، أنا وذلك الجيل الذى أنتمى إليه منتصف الستينيات وهو يحقق لنفسه تلك البداية القوية فى النقد الأدبى داخل واقع اجتماعى يتغير سريعاً، وعبر أفق يتشكل.. ينطلق من رؤية شديدة الخصوصية تنظر إلى الكتابة باعتبارها تعبيراً عن هموم الإنسان وسعيه نحو تحقيق معرفة جديدة وسط شعارات مجلجلة فى ذلك الحين.

كان رجاء النقاش فى ذلك الزمن ينظر إلى الثقافة باعتبارها محصلة تاريخية شكلتها حقبة ليبرالية سابقة، معبرة عن مشروع تنويرى يقود الأمة نحو التحديث، ويرى رجاء النقاش كيف أن هذه الثقافة فاعلة فيما تنتجه المرحلة الثورية.. وكان رجاء النقاش فى نقده يأخذ فى الاعتبار ذلك التأثير المباشر وغير المباشر لهذا الماضى فى الثقافة المصرية حينذاك.. كان رجاء يبتعد عن صياغات الماضى ومفرداته، ويرسى نصه النقدى، مستشرفاً صياغات تهتم بالمستقبل، وتمهد الطريق لأدب جديد يواكب المرحلة الجديدة.

كان يحاول اكتشاف الواقع، ويسهم

▫ قاص وكاتب



فى بناء رؤية جديدة للنقد، ويشارك مع بعض من أفراد جيله فى استبعاد النص الثابت القديم، مستشرفاً رؤى جديدة، عبر لغة جديدة داخل ثقافة تقوم على الصراع بين القديم والجديد، والماضى، والحاضر، والتراث والمعاصرة.

وبالرغم من جسامة الحضور السياسى والثقافى للمؤسسة، واستبدال الزعيم نفسه بالأمة، فإن رجاء النقاش اعتبر الثقافة فى ذلك الوقت حرية وفعل حرية وهكذا واكب رجاء منذ ذلك الحين حركات التجديد فى الأدب والمسرح والسينما، وكل ما يختص به النقد الأدبى والفنى داخل مرحلة تهتم بقضايا التحول الاجتماعى فى مصر، وقضايا الثقافة فى هذا الوقت.

كان الناقد الكبير حفياً بكل أشكال تجريب الكتابة، ومشجعاً لجيل يحاول تأسيس كتابة مغايرة، باحثاً عن رؤى تنبع من واقع كان الاقتراب منه قديماً يشكل انعكاساً سلبياً لعملية الثقافة، وكانت الكتابة ذلك الحين تقوم على المغامرة، والاستفادة من تجارب الكتابة الأخرى التى شكلت الضمير الإنسانى، ودافعت عن حق الفرد فى حياة كريمة وتنهض على ترسيخ قيم الجمال والحق والحرية.

دافع رجاء النقاش عن هموم الكتابة الجديدة فى كل المجلات والمنابر الأدبية التى رأس تحريرها، وفتح صفحاتها حفاوة وترحيباً ونقداً للنص الجديد بالرغم من اختلافات بنيوية كانت تقوم بينه وبين أفراد هذا الجيل.

كما اعتبر رجاء النقاش أن النقد لا يكون نقداً إلا داخل رؤية فنية، فيها يبحث عن تاريخه، وسياقه، ومنهجه، ويساهم فى تغيير ملامح المرحلة الثقافية باستشراف المستقبل، وتمهيد الأرض أمام الكتابة الحديثة.

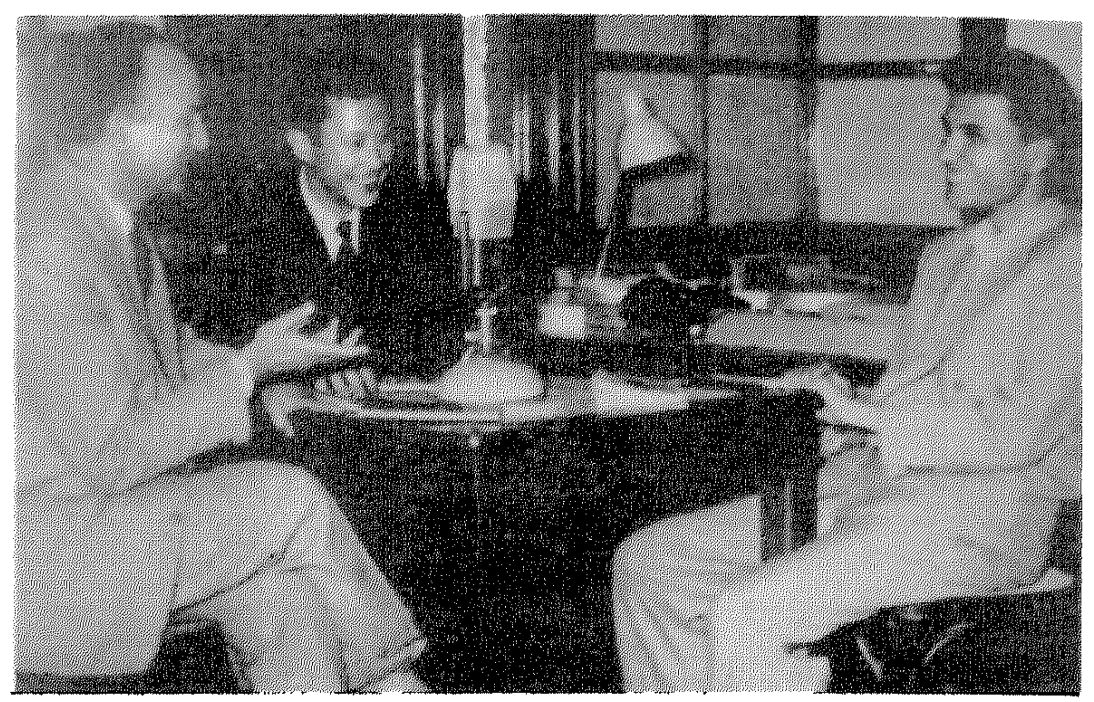
فى اعتقادى أن لرجاء النقاش فى ثقافتنا المعاصرة دور شديد الأهمية، مارسه عبر نصف قرن تقريباً – أطال الله عمره ومتعه بالصحة والعافية.

أولاً: فى بدايته كناقد نبهنا لقيمة التراث الإنسانى، وما يحمله من قيم، مقدماً الكثير من نماذجه الرفيعة «أدب روسى، أوروبى، أمريكى».

ثانياً: يستعيد الآن رجاء النقاش فيما يكتبه من نقد حقبة النهضة المصرية وروادها، وبما أرسته من أسباب التحضر والعمران وقيم الحداثة مقدماً رموزها، وروادها لتتعرف عليها الأجيال الجديدة.

أتذكر الآن وسط المرور المروع للزمن، وسط ما نعيشه من أحوال ذلك الدور العظيم لرجاء النقاش وهو فطرته فى اكتشاف المواهب النادرة، ودفعها للساحة.. أتذكر تقديمه للطيب صالح فى روايته «موسم الهجرة إلى الشمال» أتذكر تقديم لشعراء الأرض المحتلة، والكشف عن مواهبهم، وعن رؤاهم الشعرية المدهشة التى تنفتح على مستقبل مغاير، وإسهامه فى تقديم تلك الوجوه الشابة وغيرهم إلى ساحة الكتابة.

كان عبدالحكيم قاسم قد أصدر «أيام الإنسان السبعة».. وكانت تصيبه بعض المرارات من نجاحات الطيب صالح والآخرين عندما يرى حفاوة رجاء بهم، وكان يهتف بى: ألسنا أولى.. أليست أيام



رجاء النقاش مع د. عبد القادر القط وعبد الله الطوخي «١٩٦٠»

الإنسان السبعة مثل موسم الهجرة إلى الشمال، وكنت أجيبه: كلها ثقافة عربية واحدة.. وكان رجاء طوال حياته حفياً بالمواهب الجديدة، محباً لها بصرف النظر عن حنينها: المهم الموهبة.

أتذكر العدد الخاص بالقصة القصيرة الذى صدر عن الهلال فى العام ١٩٧٠.. كان رجاء رئيساً للتحرير وكلف أستاذى سليمان فياض بجمع مادة العدد حيث اختار لى قصة «جئت من مدينة المحلة» وراجعت بروفتها.. كانت قصة رمزية عن سيدة تنتهك.. وكانت هزيمة عام ١٩٦٧ ماثلة مثل جرح لا يندمل.. حين صدر العدد لم أجد القصة، ومثل فلاح هائج توجهت إلى القاهرة ثائراً وقابلت رجاء النقاش الذى قابلنى بكل اللطف والمحبة.. أذكر أنه قال لى وهو يطيب خاطرى: مصر مجروحة وكفاية ماهى فيه.. وطريق النشر أمامك مفتوح ولا تزعل ياسيدى.. ولم يتركنى إلا وأنا راض.

هذا هو رجاء الذى رافقته فى العديد من الأسفار فكان:

– نعم الرفيق الذي يكترث بالآخرين محبة ومودة.

– هو أحد الكتَّاب الذى يحسن الحديث، ويجيد السرد، ويمتلىء بالظرف.. يمتلك ذاكرة تحتشد بحكايا الثقافة وطرائف المبدعين عبر الأزمان، ذاكرة تنطبق عليها مقولة «نيتشه» «نحن لا نتحرر إلا من خلال التذكر».

هو من أحب نجيب محفوظ حباً خاصاً لا غرض فيه، وانشغل به منذ بواكير حياته حتى قبل رحيله فقدم لنا شخصية هذا المؤسس، وغاص فى روحه، واكتشف المنطقة الغامضة فى أدبه وحياته.

أستاذنا رجاء النقاش..

تحية عرفان، ودمت لنا تصحبك أبيات بورخيس العظيم:

أتركك الآن سامقاً فى كونك الملحمى
يكاد الشعر لا يبلغ مقامك.

صياد اللؤلؤ



ناصر عراق □

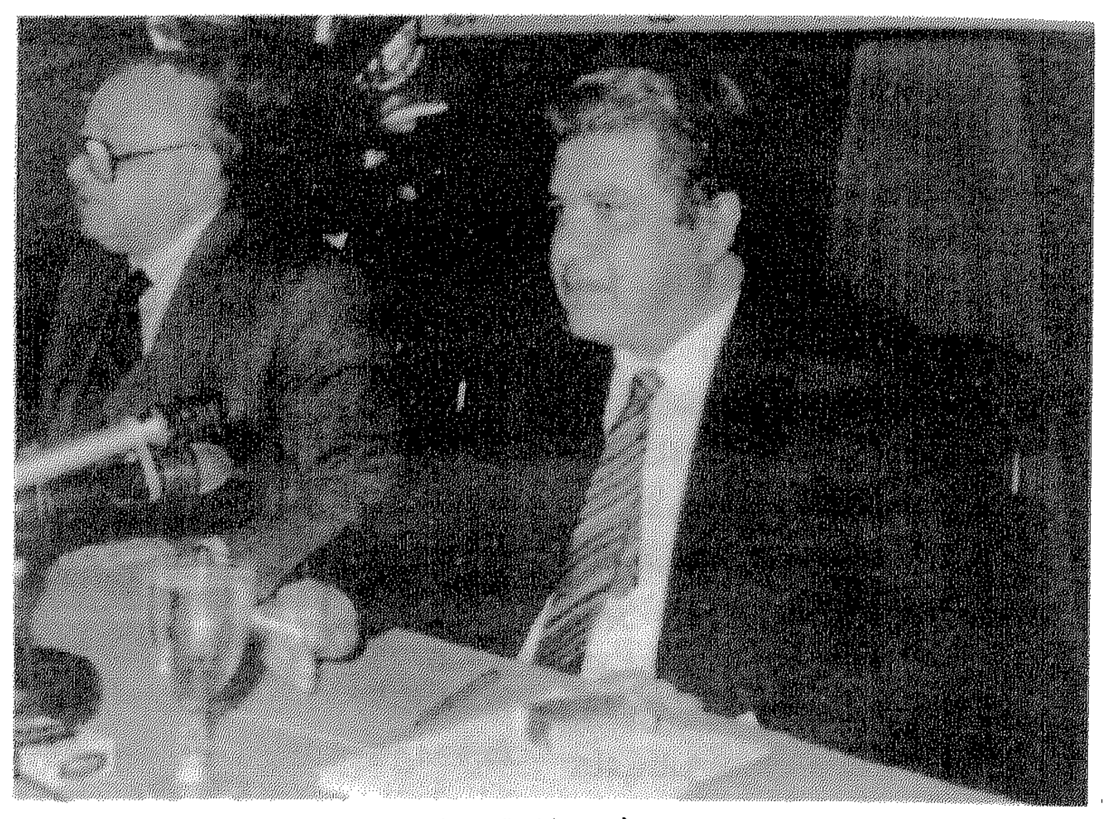
محظوظ لا ريب من يقترب من الناقد والكاتب الكبير رجاء النقاش، فالرجل علامة فارقة في تاريخنا الأدبي والفنى بامتداد النصف الثاني من القرن المنصرم، حيث يمتلك رصيداً وافراً فى بنك الإبداع يصعب اختزاله أو نفيه.

لقد لعبت المقادير دورها السعيد فى اقترابى من المبدع والإنسان رجاء النقاش فى الأعوام الأخيرة، فالتقيت به مرات كثيرة، ودعانى إلى منزله أكثر من مرة، وطالت بيننا الأحاديث التليفونية وتفرعت المناقشات، وسعدت بتلقى الكثير من رسائله الخاصة على الفاكس واستمتعت بإجاباته الوافية عن أسئلتى وصبره على إلحاحى وفضولى، فكنت أطرح عليه سؤالاً عن علاقته بطه حسين، حيث تتلمذ على يديه فى كلية الآداب جامعة القاهرة فى أوائل الخمسينيات، ثم أقفز إلى سؤال عن لقاءاته مع عباس العقاد، وألحقه برغبتى فى أن يحدثنى عن أحمد بهاء الدين وفريد الأطرش، ثم أستدير دورة كاملة لأفاجئه بشغفى أن يتذكر كيف كانت حواراته مع أم كلثوم.. وهكذا فى كل لقاء، لا أتوقف عن السؤال ولا يمل الرجل من الإجابة أو يعتريه الضجر حتى أن السيدة الفاضلة زوجته الدكتورة هانيه سألتنى مرة لماذا كل هذه الأسئلة؟ هل تكتب ما يقوله؟

الحق أن رجاء النقاش بالنسبة لى يعد كنزاً متنقلاً من المعرفة، فهو واسع الإطلاع شغوف بالتاريخ، وأنا من المهووسين بالتاريخ وأحداثه ووقائعه وأبطاله، كما أن الرجل يتمتع بحس ثاقب يمكنه من التقاط المواهب وهى مازالت تحبو، أو فى طور التكوين، فهو الذى قدم لنا محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، قبل أن يسمع به أحد. وهو الذى يسرد لنا فى كتبه ما تيسر من سيرة العباقرة والمبدعين فى الأدب والفن والسياسة، فضلاً عن ذلك، فأستطيع أن أجزم أنه ما من كاتب أو أديب مصرى، وربما عربى عاش فى النصف الثانى من الخمسينيات إلا والتقى به رجاء النقاش مهما عظم شأنه من أول طه حسين حتى أصغر مبدع حقيقى.

يحظى رجاء النقاش بذاكرة حية تتكئ على معرفة واسعة بالشخوص والأماكن، بالزمن وتقلباته، لذا يسيل منه حديث عذب وخلاب عن الذين ملأوا حياتنا إبداعاً وأدباً من أمثال نجيب محفوظ

□ صحفى وروائى



مع د. ثروت عكاشة «١٩٨٨»

ويوسف إدريس ونزار قباني وأنور المعداوى ومحمد مندور وكامل الشناوى وزكريا الحجاوى وعبد الرحمن الخميسى وغيرهم عشرات، فيروى طرفة عن هذا ويسرد واقعة عن ذاك، ويعجب من تصرف أحدهم، فأطلب منه المزيد، فينهى الحديث بدعابة تكشف عمق إنسانيته وحبه للجميع وسعة صدره، بل ومراجعة مواقفه وتعديلها إذا شعر أن هذا الموقف معطوب ولا يليق، مثلما حكى لى عن أول مرة يرى طه حسين فى محاضرته بالجامعة. قال لى رجاء النقاش: إنه فى ذلك الوقت كان متأثراً بالأفكار الجريئة التى طرحها عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم عن ضرورة تجديد الثقافة المصرية والتخلص من (أصنامها)، كان يجلس فى كافيتريا كلية الآداب، وفجأة انتفض جميع الطلاب مهرولين نحو المدرج للاستماع إلى ما يقوله عميد الأدب العربى فى محاضرته، حاول النقاش إثناء زملائه عن الحضور، موضحاً لهم أن طه حسين ما هو إلا (رمز) للفكر القديم، لكنهم لم ينصتوا له، وانصرفوا بل لاحظ النقاش أن أساتذة الجامعة كلهم يحافظون على تواجدهم فى محاضرة الأستاذ العميد،، بل إن الفراشين كانوا يقفون بباب المدرج يسترقون السمع لحديث صاحب (الأيام) فتساءل النقاش هل كل هؤلاء مخطئون، وأنا الوحيد الذى على صواب؟ وهكذا قام هو الآخر ليتابع ما يقوله طه حسين فاكتشف عبقرية الرجل، وهو واقف شامخ يلقن طلابه العلم والمعرفة بصوت رخيم

وأداء راق بلغة عربية صافية وعذبة. ومن يومها لم يترك محاضرة للأستاذ العميد وواظب على الحضور. هذا هو رجاء النقاش الذى يمتلك من الشجاعة الأدبية ما يجعله يراجع أفكاره ورؤاه، ليصحح منها ما هو مغلوط، ويدعم بقراءاته الواسعة ما يرى أنه الصواب أو الأقرب إلى الصواب.

أتحدى أن يقول لى أحد ما لون عينى رجاء النقاش بالضبط؟ فهو مزيج من الأخضر الفاتح والتركواز والعسلى، هذا المزيج اللونى العجيب ينطلق منه بريق مدهش يكشف عن نباهة شديدة وحضور ذهنى متوقد، وبالرغم من أنه تجاوز السبعين رعى الله أيامه ولياليه، إلا أنه مازال محتفظاً بوسامة الشباب وروحه من أول ألق العينين حتى نعومة الشعر وغزارته برغم أن اللون الأبيض راح ينهب الكثير من سواده.

كلما نظرت فى عينى رجاء النقاش وهو يتحدث، أدركت كم أنا محظوظ لأن المقادير منحتنى نعمة الاقتراب من رجل يمتلك كل هذه الوداعة، وكل هذه المعرفة.

لا أذكر أول مرة قرأت فيها لرجاء النقاش، لكنى أتذكر جيداً كم فتننى أسلوبه السهل والعميق فى آن، الباذخ والجميل، من أول مقدرته على إبراز أفكاره بمنطق يسير حتى حلاوة عباراته، وانضباط الجمل لديه، فلا تشعر أبداً أن هناك كلمة قلقة فى موضعها أو مفردة مقحمة من دون داع فى العبارة أو حرف ثقيل الظل تطفل على الكلام. فالرجل يمسك بالنواجذ على مقاليد اللغة العربية، قادراً على تطويعها وترويضها حتى يفجر طاقاتها المخبوءة، فيمتع القارئ أولاً.

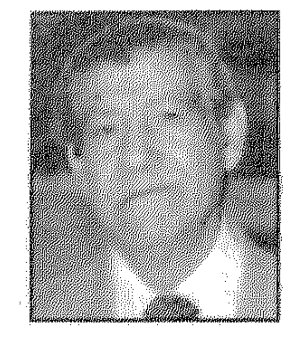
أذكر مرة أنه قال لى. إنه لا يستخدم أبداً كلمة (حداثة) ويستعيض عنها بمفردات أخرى تؤدى المعنى وحين سألته السبب، ضحك وهتف: لأنها تذكرنى بكلمة (نجاسة) وهى كلمة غير مريحة.

الحديث عن رجاء النقاش لا ينتهى، فأنا أشعر بسعادة وأنا أتكلم عن كاتب كبير أسهم فى تشكيل ذائقتى ووجدانى، كما أحس بامتنان للزمن الذى أتاح لى الاقتراب منه والجلوس إليه، فهو بحق كاتب نادر المثال، أو كما أخبرنى مرة: (تعبت على نفسى). حقاً إن رجاء النقاش إنسان دؤوب ، عاشق لعمله، دقيق، يصبو إلى الإتقان دوماً، مستهدفاً إمتاع القارئ أولاً وإنارة عقله وإشباع وجدانه بكل ما يليق بقارئ عربى.

وفى الختام لى كلمة صغيرة أوجهها إلى رجل منحنى دعماً كبيراً حين قبل أن يشارك بالكتابة فى مجلة (دبى الثقافية)التى أشرف بإدارة تحريرها. وأذكر أن رئيس التحرير الشاعر الإماراتى المتميز سيف المرى قال لى حين أخبرته بأن الأستاذ رجاء وافق على الانضمام إلى كتاب المجلة، قال سيف: (إنه يستحق أن يكون وزير ثقافة الأمة العربية كلها).

أستاذ رجاء دمت لنا كاتباً بارعاً وإنساناً نبيلاً مع كل أمنياتى بدوام الصحة ووفرة الإبداع.

عرفت فيروز من خلاله



عبدالنور خليل □

كانت تجمعنى بالكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين قنطرة من الثقة والاحترام المتبادل منذ سنوات البداية الصحفية فى أواخر الأربعينيات، وعندما تولى رئاسة مجلس إدارة الهلال ورئاسة تحرير «المصور» أراد لى أن أنضم إلى القسم الفنى فيها، ولم يكن يكتم عنى رأيه فى أنه من قرائى ويثق فى ثقافتى السينمائية الشاملة.. كنت مديرا لتحرير «الكواكب» التى كان يرأس تحريرها ناقد سينمائى زميل هو سعد الدين توفيق، ولم يكن غريبا علىَّ أن أبذل اهتماما وجهدا فى تحقيقاتى السينمائية فى «المصور» وكان سعد الدين توفيق يمازحنى قائلاً : سأنشر إعلانا فى الصحف أطلب فيه عودتك إلى بيتك يقصد «الكواكب».. وحدث ما عكر الصفو بين رئيس تحرير «الكواكب» ورئيس مجلس الإدارة، وهى قصة لا أحب أن أخوض فيها، لكن الذى أحب أن أؤكده هو أننى احترمت رأى أحمد بهاء الدين عندما أخبرنى أنه اختار رئيسا لتحرير الكواكب الناقد الشاب اللامع رجاء النقاش..

كان رجاء النقاش أحدث من انتقل إلى دار الهلال، وكان والحق يقال قد بنى لنفسه فى جدية وشفافية وجرأة مكانة كناقد أدبى، وكنت قبل أن نعمل معا، أراه دائم الابتسام، بشوشا أبدا، مرحبا دائما، محاطا بمجموعة من الشباب الذين يتخذونه مثلاً يسيرون على نهجه.. وقبل أن يجمعنا العمل فى «الكواكب» كنت أعرف من آل النقاش شابا موهوبا متفوقا فى موهبته وفكره ورؤاه الفنية هو وحيد النقاش الذى كان طالبا يوشك أن يتخرج فى المعهد العالى للسينما بعد دراسة الإخراج..

ما علينا.. فى الأسابيع الأولى للعمل معا، كان رجاء النقاش يفتح ذهنه وواعيته ويبنى معى أحلاما كبارا لما نريد أن نحققه فى «الكواكب». تحدثنا طويلا عن الرسالة التى يجب أن تحملها «الكواكب» كمجلة فنية وحيدة فى العالم العربى، ويجب أن تساند كل موهبة شابة، ليس فى مصر وحدها، لكن على اتساع الوطن جميعا.. وكنا منذ سنوات نتبنى فى «الكواكب» معهد السينما والدفعات الأولى التى تدرس فيه وتتخرج منه فى كل فروع الفن السينمائى، وكانت لمجلتنا حظوة عند شيخ المخرجين محمد كريم، أول عميد للمعهد، ثم أحمد بدرخان الذى تولى بعده

□ كاتب وناقد فنى

العمادة، وكنا نجمع طلبة المعهد بأساتذتهم فى ندوة فى نهاية العام الدراسى.. واستمر هذا التقليد، بل زاد رجاء النقاش عليه تقاليد كثيرة فى كل المجالات الفنية.. وبدأت الكواكب.. تخرج إلى مجالات أخرى أكثر اتساعا.. ومن بين تلك المجموعة من الشبان الذين أحاط بهم رجاء النقاش نفسه، وينصت لهم فى ود، ويستمع إلى أحلامهم تكونت «ورشة عمل فنية» تضم كل المواهب الجديدة.. وفى تلك الفترة، كانت تتشكل فى الحياة الفنية أشكالا وأنماطا جديدة لتبنى مسارات جديدة فى السينما والمسرح والغناء والشعر، لتثرى وتفتح طرقا إلى جماهير متعطشة إلى فن راق له مذاق قومى ووجه عربى أصيل.

كان الملحن المبدع سيد مكاوى قد ترك مع رائد الشعر الفنان المتعدد المواهب صلاح جاهين بصمة على الفن الشعبى الفولكلورى، برائعتهما معاً «الليلة الكبيرة» ومن جلبابهما خرجت مواهب فولكلورية، حرص رجاء النقاش أن تتبنى الكثير منها مثل المطربة ليلى نظمى.. واحتفى بالأغنية العربية الطالعة، والأصوات القادمة من رحابة الوطن العربى.. وبدأت «الكواكب» حقا تفتح الطريق للمواهب الوافدة..

كانت ثمة إطلالات جديدة فى الأغنية والألحان المصرية تكشف عن أصالتها فى مجالات اللحن والغناء.. وطبقة جديدة من الشبان العباقرة تفرض على الأذن المصرية والعربية نغمة عبقرية، وأسلوبا



فيروز

جديداً فى الغناء والتلحين، لا تقل أصالة عن أصحاب الأسماء اللامعة فى الحياة الفنية كعبد الوهاب وأم كلثوم ومحمد فوزى ومحمد عبدالمطلب، وأذكر أن رجاء النقاش صاحب كوكب الشرق أم كلثوم فى أكثر من رحلة فنية إلى السودان وليبيا، وتبنى أكثر من شاعر جديد وافد. مما كنا نطلق عليهم شعراء العامية مثل عبدالرحمن الأبنودى ومجدى نجيب وعبدالرحيم منصور..

كان بليغ حمدى، يقف إلى جوار كمال الطويل ومحمد الموجى، ويشق لنفسه طريقا واضحا وسط طبقة من المطربين والمطربات على الساحة مثل فايزة أحمد ونجاة وشادية وصباح وعبدالحليم حافظ، ويلتصق كثيراً بمواهب زاملها فى المعهد العالى للموسيقى (الكونسيرفتوار) الذى التحق بالدراسة فيه، وتبنى مطربة جديدة دارسة هى عفاف راضى، ووقف خلفها يدفعها لكى تشق طريقها.. كان بليغ قد دربها على لحن جديد له، كتب كلماته شاعر العامية

عبدالرحيم منصور بأغنية يقول مطلعها.. «ردوا السلام»..

وفوجئت برجاء النقاش مدفوعًا بحماس الشباب والاحتفاء بكل موهبة جديدة، يطلب أن تعد «الكواكب» حفلاً تستضيف فيه الملحن بليغ حمدى والصوت الجديد عفاف راضى، وتقدمها لمجموعة من النقاد المتخصصين فى الموسيقى والأصوات لكى تحصل على انطلاقة مبنية على أساس علمى وجماهيرى سليم.. وجاء بليغ حمدى ومعه اكتشافه الجديد عفاف راضى لكى تغنى لأول مرة، فى قاعة الاجتماعات بدار الهلال أغنية «ردوا السلام» وانطلقت عفاف يساندها بليغ حمدى حتى أصبحت واحدة من مطربات الصف الأول.

وأذكر أن لصديقى رجاء النقاش، مد الله فى عطائه، خلال الفترة التى تزاملنا فيها فى العمل فى «الكواكب» أنه فتح الأذن والعين المصرية على المطربة الكبيرة فيروز، عندما استضافها هى وعاصى ومنصور الرحبانى لحفل فنى نظمته «الكواكب» فى دار الهلال، وقد تعلمت منه وأخذت عنه أسلوبه النبيل الدافىء فى التعامل مع المواهب الجديدة ورعايتها ولم تدم الفترة التى عملنا فيها معها أكثر من عامين، وكنا قد بدأنا معاً التخطيط لتبنى دفعتين تخرجتا من المعهد العالى للسينما، وبدأنا نفتح الطريق أمامهم للتعبير عن فورات الشباب وأحلامه فى أن يقدم مايسمى بالسينما الشابة الجديدة، وتركنى إلى مجلة الإذاعة، رئيساً لمجلس إدارتها ورئيساً لتحريرها، مصطحباً معه بعض من عملوا معنا ودعموا مجلة



الكواكب كالناقد الراحل سامى السلامونى والشاعر مجدى نجيب.. لكننى تعلمت منه درسا فى الاهتمام بالمواهب الشابة الجديدة، وفتحت الكواكب على مصراعيها للسينما الجديدة فيما أطلقنا عليه «مجلة الغاضبين» حيث أخذت مجموعة من خريجى معهد السينما تحررها دون وصاية عليهم.. وكانت نتيجة هذه الصحوة أول فيلم للسينما الشابة هو فيلم المخرج على عبدالخالق «أغنية على الممر» المأخوذ عن مسرحية للكاتب على سالم..

تعلمت الكثير من الصديق رجاء النقاش، وإن اختلفت بنا الطرق، وتركت «الكواكب» عام ١٩٧٢ إلى «المصور» وعدنا للعمل معاً، إذ كان قد آب بعد رحلة صحفية فى قطر ليشغل منصب مدير التحرير العام فى «المصور» وشاءت الظروف أن يعود إلى «الكواكب» رئيسا لتحريرها لفترة أخرى طويلة.. ولم ينقطع عن نهجه الذى اختطه لنفسه وهو مساندة كل موهبة شابة واحتضانها ومساندتها لكى تتألق وتأخذ مكانها بين غيرها من المواهب..



البورتريه للفنان محمد حجى





علي حامد □

كنت فى السنة الأولى بالجامعة المصرية «جامعة القاهرة» أدرس الصحافة والنشر، بكلية الإعلام، ولما لم أجد مكانا فى مدينتها الجامعية، وقد ارتحلت من إسكندريتى وبحرها الأزرق الهائج شتاء، والوديع صيفا، ومودعا أجوائها النزقة والمرحة، ومستسلما لهوسى بالكتابة والأوراق، لأهبط فى الدور الرابع، وممره الطويل النظيف بالاقتصاد والعلوم السياسية. ولما لم أجد مكانا، لجأت إلى شبرا القريبة من ميدان رمسيس، وفى شارع «شيكولانى» ألقيت بترحالى فى غرفة بسيطة داخل شقة شاركنى فيها فنانون وشعراء صعاليك وجامحون، وموظفون وبروتستانت وأرثوذكس.

وفى نهاية النهار، وكأسراب العصافير، أعود فى شفق المساءات، بعد محاضرات فترة العصارى، لأقضى ساعات فى التجوال بأزقة وطرقات هذا الحى الجميل. بناته يتسكعن مثلى ويصخبن فى شوارعه وأزقته وأرصفته الحجرية، لعل طائرا مثلى يقع فى حبائلهن أو يوقعهن هو فى نشوة ألاعيبه الشبابية. كان الغزل وشعر البنات يهفهف مع النسمات الشفقية للغروب الساحر «الآن نسينا أن للنواعم اللاتى لم يصبحن كذلك شعر ينعقص أو ينسرح أو يتدلى كذيل الحصان أو يضفر كالريفيات أو يقصر كالفتية، فتبين أعناق أسيلة تخطف وتهبش قلوبنا».

كان أتوبيس كارتر الكئيب يتسكع مثلنا ويستفزنا بضجيجه وكركبته فى طرقات القاهرة المكتظة، وترام شبرا يترنح فى شارعها الرئيسى، بينما فتنة بناتها ونسائها المتهاديات بكعوب حادة رفيعة يُرنحننا على الأرصفة. كل ذلك كان مُحاطا ومُغلفا بغناء داليدا الذى لا يتوقف، بل وينتشر مُحلقا فوق كل مكان بهذا الحى العتيق الحميم، والمتجانس.

داخل هذه الحياة المنسابة، كان بصرى يجول، لينشد عفواء إلى سور مدرسة التوفيقية، المزروع بالكتب والمجلات القديمة، وانجذبت، فنسيت فتنة الطرويات، ووقعت أسير فتنة المطبوعات، وبدأت أقلب العناوين والأوراق المعتقة بروائحها النفاذة والخاصة، وتوقفت عند أحدها «أدب وعروبة وحرية» وآخر «التماثيل المكسورة»، وثالث «هاملت».

نقدت البائع قروشا قليلة وعدت

□ كاتب صحفى من أسرة الهلال

مسرعا إلى حجرتى الفقيرة بشقة السطح الشيكولاني رقم «٥». أغلقت كتاب الحياة، وفتحت أبواب الكتب، انطلقت فى عوالم الأدب والفن، وعشت.

لا تزال سطور هذه الكتب في ذاكرتي بقراءتها الأولى . كتابة ممتعة ومفيدة، وترجمة جميلة وتشرح الصدر، الكتابان لرجاء النقاش، والرواية المسرحية من اختياراته القيمة وترجمة «جبرا إبراهيم جبرا» لرائعة شكسبير، الذى سيعود إليه «النورس» كاشفا خبايا وأعطاف نسائه فى واحد من أجمل إبداعاته الأخيرة.

تلك الطريقة في تقديم وعرض ونقد الممتع من أعمال المبدعين الآخرين، بسلاستها وعذوبتها، قليلة، تجدها عند د. طه حسين فى «حديث الأربعاء»، و«ألوان» . كما تلتقى بها في قراءات : يحيى حقى فى «أنشودة للبساطة»، وسلامة موسى فى «هؤلاء علموني» ود. محمد مندور فى «نماذج بشرية» – وهؤلاء وغيرهم، ثقفونا وأنهضونا وثورونا بحب المعرفة وتصفح وتشمم الأوراق – الدروب التى تقود إليها.

وانتهت فى شوارع شبرا، أسطورة نجواى وصاحبتها سلمى، لما جاءتنى الأولى ذات صيف متوهج، ولاعبتنى باعترافها للرجل خلف الستارة بأننى قبّلت الأيقونة التى كانت ناعسة بين نهديها العفيين.

ورحلتُ ذات صباح إلى المدينة الجامعية التى ما إن مرقت من بوابتها الضخمة كأنها لإحدى قلاع العصور الوسطى المظلمة، حتى شع ضوء جانبى من يسارى وأنا أتخطى عتبتها الوهمية، صحبه صوت زاعق: «يا أهلى .. يا قططى». وكان هذا هو الكابتن، المتوله بقططه والنادى الأهلى الكروى، صاحب ومالك أروع كشك للكتب على مر العصور، التفت ناحيته وصحت به وكأنى أعرفه من أزمنة خلت : «يا أهلاً بالمعارف». وضحكت للمجاز التلقائى المرح فى التحية .. ودخلت على الكتب والمجلات بنهم المشتاق ، واشتد لهف قلبى حين لمحت «كتابات لم تنشر» للدكتور محمد مندور، و «صمت البحر وسداسية الأيام الستة»، و «امرأة من روما» لألبرتو مورافيا و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، وكنا نعرف أنها صودرت من السوق بعد نشرها فى الهلال وطرحها للتوزيع، و «البنسات الثلاث» لبرتولت بريخت ، و«رامبو .. قصة شاعر متشرد»، و «أساطير الحب والجمال عند الإغريق» لدرينى خشبة .. مكتبة ثقافية عامرة «بكتاب وروايات ومجلات الهلال» الأعرق فى النشر العربى والشرقى عامة.

وبدأت حكايتى مع القراءة تتعمق وتتشعب، وتُنبت الرغبة فى الحكى والكتابة، وكذلك بدأت حكايتى مع «سلوى» العيون الخضراء دون أيقونة تتدحرج من الجيد الأسيل لتختفى بين النهدين. واعتبرت أيقونتها التى كنت أرشف هسيسها وأوقظ رقدتها، هى خضرة عينيها ووردية شفتيها، تجيئنى وأنا أنبش ملهوفا فى أكوام وصفوف وأكداس على الرفوف الفقيرة، وفى

الصـديق الـتونية المستندة إلى جدار الكسك الخـارجي، وعلى الرصـيف الحـجرى المترب، المحيط بالمكان الذى يتربع على أرضيته الكابتن، محتضناً كتاباً يتصفحه، وقطة يداعب نعومة ظهرها.

عند ومن خلال وحول البوابة والكشك والميدان الذى تحيطه حديقة الأورمان ومبنى خيل الملك والفنون التطبيقية، أشعلنا تمردنا ، ودوت هتافاتنا فى مواجهة قوات الأمن وعنت السلطة وطغيانها، وحناجرنا تطلب الحرية والعدالة وتحرير الأرض «سيناء وفلسطين والأراضى العربية كافة». وكدنا نشعل النار فى مبانى تلك المدينة الجامعية المكدسة بموظفين بلهاء وعسس أحمق جاهل، لولا رقة ووعى كوّنتهما مطالعات فى الكتب والمجلات الثقافية، كنا نُبحر فى آفاقها.

وكان «النورس» قد ارتحل إلى آفاق أخرى، طالما أن فضاءه الأصلى ضيق وبائس.

وغادر «رجاء» موطنه الأصيل، وحط على شطآن أخرى، لينعش مناحيها وأركانها، وتبعناه نحن سرب النوارس المتمردة، الباحثة، التى كانت مسكونة بهواجس التنقيب والكشف والخلق الجديد، لأننا كنا ندرك أنه سبّاق فى هذا المجال، ولعله يشير إلى أحدنا، فنعلو معه، ونحلق فى سموات الإبداع الأدبى والفنى. ولأنه كان خبيرا مدققا، ونواقة لا يبارى، وحساسا رهيفا، توالت، وتابعناها نحن، الكتابات الجميلة له.

فمن الكتب النادرة التى كانت تحظى باهتمامنا ونقاشنا، والتى كنا نتبارى فى اقتنائها وقراءتها والجدل حولها: «كتابات لم تنشر» بقلم الدكتور محمد مندور. كان مصطفى بيومى يمر علىّ ليلا فى المدينة الجامعية، ليكيدنى ضاحكا: هل لديك «كتابات لم تنشر» ؟ وكنت أغتاظ من كيده ذاك، وأصحو مبكرا لأصبح على الكابتن الذى أجده محتضنا قططه ويمجد «الأهلى» فريقه المعشوق. أسأله ويجاوبنى، سأجلب لك نسخة من قبوى، وكأنها تحفة نادرة. هذا الكتاب كان نتاج بحث النورس عن كنوز المبدعين المخلصين، فهو مجموعة من المقالات المهمة التى كتبها مندور قبل الثورة، ولم تنشر فى كتاب، وكانت مبعثرة فى مجلات وصحف مختلفة، فى فترات متباينة، جمعها وبوبها ونظمها فى عقد فريد - «نورسنا» الذى يقضى سنوات حياته مرتحلا، يهاجر من بلد إلى بلد، يطلب الدفء، دفء الطبيعة وكائناتها، «إنه يبحث عن الدفء الذى يشيع الحرارة فى عزلة الشعور، يبحث عن التجاوب النفسى العميق الذى يخرجه من وخدته فى عالم صاخب لا يلتفت إلى الفرد وإلى مطالبه الروحية، وأما الحنان فهو المعنى الرئيسى الذى يسعى وينقب عنه رجاء فى كتابات المبدعين وهو ما بدا في تقديمه لديوان «عن القمر والطين» للشاعر الخالد صلاح جاهين .

النورس موجود فى الثغور جميعها، وفى فصول الارتحال، يطير بريشه الكث، ولكن الخفيف للغاية، طيراناً قوياً،

بأجنحته الطويلة المدببة، وهى تسبح فى الهواء كأنها طافية عليه، كذلك هو كان يسبح بين الأوراق - سواء التى يطالعها ويدرسها أو التى يجرى قلمه على سطحها.

يقضى سنواته مرتحلاً، مستدير الوجه، متورده، يفد ويرحل، ويرحل ويفد. يلتف حوله وينجذب إليه المبدعون، وبهم ومن خلالهم. ومن إضاءاته الحساسة يضع لنا مطبوعة جميلة «شكلاً ومادة».

يتبع منعرجات الأزمنة والأمكنة والأوراق، فى التراث البعيد، وامتداده فى الماضى القريب، وهو فى طيرانه يُشهدنا مناظر بديعة، ويطلعنا على رؤى متجددة. يحلق، وكأنه يفتش عن رفاق مبدعين. يكملون السرب الذى سيعزف سيمفونيات الخلود.

ورجاء نقاش، يبحث عن الشىء ويستخرجه من باطن الوجود أو باطن الموجود، ويلونه بلونين أو بألوان ويزينه، إذن فهو اسم على مسمى، هو نقاش وهى صفته، تدل عليه وتشير إلى فرادة ما ينقشه، والنقش، إلى ذلك ، هو الأثر، وما نقش على الشىء من صور وألوان.

وكأنى به يتبع صفته، فهو دائم البحث والتنقيب والنبش فى فضاءات الثقافة «ماضيها وحاضرها، شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها»، فلعل نجوماً تضىء هنا أو هناك، يقبس منها ويشع علينا.

فهذا كاتب جنوبى ارتحل إلى بلاد الضباب فى الخمسينيات، ومما عاناه فى المدن الغريبة الباردة، خرجت رائعته «موسم الهجرة إلى الشمال» والتقطها النقاش الذى يبحث وينقب، فوجدها فريدة فى حكايتها وبنائها وسردها وجرأتها وهى التى تبدأ بـ «عدتُ إلى أهلى يا سادتى بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد، كنت خلالها أتعلم فى أوروبا، تعلمت الكثير ، وغاب عنى الكثير. لكن تلك قصة أخرى .. وهكذا ينطلق «مصطفى سعيد»، عفوا «الطيب صالح» ليقص علينا تجاربه وصورا من حياته وأفكاره.

ويقدمها النقاش للنشر - فى لقائنا القريب الودود معه، أجابنى على تساؤلى، بقوله: طبعا، كنت متخوفا من مصادرتها، لأن بها مناطق حكى جريئة، جديدة فى القص العربى، وإن كنت أعلم أنه لم يصادر سوى كتابين فى عهد عبد الناصر أحدهما «الله والإنسان» للدكتور مصطفى محمود .. لكن جمال الرواية، وإدهاشها لى قوّى وعضد موقفى، ونشرت فى سلسلة «روايات الهلال» - العدد ٢٤٥، شهر مايو ١٩٦٩م.

وكان غلاف الرواية بريشة الفنان حلمى التونى، متضمنا خطًا حرًا مرحاً، جريئاً كذلك، معبراً عن مضمونها وفحواها، صورة نصفية لداكن اللون «مصطفى سعيد» ببدلته وكرافتته وكأنه فى حفل رسمى، تائهاً متوولاً وكأنه يحدق فى لاشىء، مع أن هناك ثلاث نسوة يجذبنه بأجسام ونهود عارية .. شعرهن كستنائى، وقد رسمهن التونى بخطوط رشيقة نحيلة، تشى بشهوة الجنس

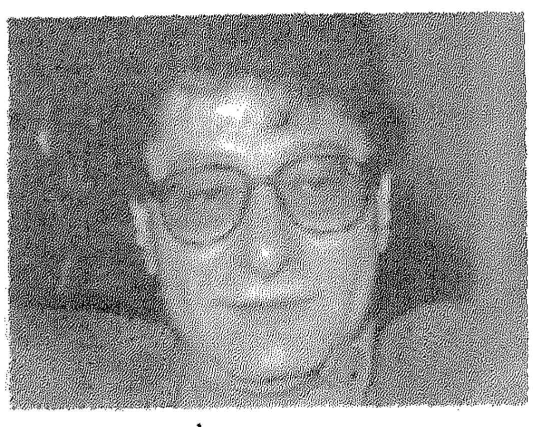
ووهجه.

صدرت الرواية في ١٣٢ صفحة، وعشرة فصول، وأخرها نداء استغاثة: وهو ينهى السطر الأخير: «وبكل ما بقيت لى من طاقة، صرخت، وكأننى ممثل هزلى يصيح في مسرح، النجدة. النجدة»، وكلمة انتهت.

ولكن ما الرؤية، الذائقة التى قدم بها النقاش تلك الرواية. ظهر الغلاف المكثف يوضح ذلك، ويشى بمهارة هذا الصانع صانع الكتب الجميلة، فلنقرأه، وقد وضع إلى جوار نصه، صورة للشاب الوسيم الطيب صالح وكأنه سيدنى بواتييه: «الطيب صالح، كاتب روائى سودانى فى الأربعين من عمره، درس فى إنجلترا وعاش فيها فترة، ومازال يعيش فى لندن حتى اليوم».

يمتاز الطيب صالح بأسلوبه العربى الجميل النقى، فجملته موسيقية صافية، كما أنه يعرف بيئته المحلية معرفة دقيقة، ويملك فى نفس الوقت نظرة إنسانية عميقة وواضحة، ويرسم صوراً ونماذج إنسانية قوية وحسية وشديدة التأثير .. إنه عبقرية فنية جديدة يسعد روايات الهلال أن تقدمه في أحسن أعماله.

بعدها بسنوات سيقدم روايته «مريود» سنة ١٩٨٧، وهى الجزء الثانى من «بندر شاه». ويعتبرهما رجاء «متصلان منفصلان .. متصلان عن طريق الدم المشترك الذى يجرى فى العروق».. ويعطينا مفتاحا لقراءة وفهم «مريود» وأدب الطيب صالح كله، وهو «أنه ليس كاتبًا واقعياً» بالمعنى التقليدى للواقعية،



محمود درويش

فهو غارق فى الهموم الإنسانية لعصره والهموم الاجتماعية لوطنه وبلاده، ولكنه لا يعبر عن موضوعاته عن طريق تصوير الواقع المباشر أو رصد مشاكل فئة من الناس أو طبقة من طبقات المجتمع .. إنه يعبر عن مشاكل الإنسان الداخلية العميقة.

والمحبون فى عالم الطيب صالح يواجهون المتسلطين. والمحبة هى حل للمصير الإنسانى، وهى موقف حضارى وفلسفى واجتماعى. المحبة هى الحضارة.

يتتبع النقاش هذا المعنى، هذه الفكرة، هذه العاطفة، هذه القيمة الإنسانية فى كل ما يقرأه ويطالعه من أعمال إبداعية أو فنية، وهو ما يوضح بجلاء موقفه ورؤيته للمصير الإنسانى، ويؤكد مبادئه ومُثله العليا التى يعشقها ويسلك بها فى الحياة ووسط الأحياء على الأرض.

فإذا قرأنا كل ما كتبه وما قدمه، سنجده أبا حانيًا، محباً، عاطفاً، مشجعاً، ودافعاً، ومتبنياً المواهب الإبداعية، ومحفزاً لها على الإنتاج والتطور الخلاق.

كما سنلمس مدى عمق تبنيه للقضايا

الإنسانية الكبرى، فهو جمع فى العدد (٢٤٦) من روايات الهلال الصادرة فى يونيو ١٩٦٩، روايتين بين دفتى كتاب واحد، إذا قرأنا ما كتبه على ظهر غلافه البرتقالى الخلفى، أدركنا المغزى والموقف الذى يتبناه رجاء ويكافح من أجل أن يسود. لقد جمع بين النصين الروائيين القصيرين بهذه الكلمات: «عندما احتلت القوات النازية فرنسا سنة ١٩٤٠، ظهرت فى صفوف الشعب الفرنسى حركة واسعة من حركات المقاومة ضد الاحتلال النازى، وكان الأدباء والفنانون طليعة هذه الحركة التى كانت تهدف إلى القضاء على الاحتلال وتحرير الوطن، بعد أن سقط الجيش الفرنسى أمام الغزو النازى.

تأمل هذا الاستهلال، الذى ستتبعه الفقرة التالية، وهو ما يدل على ذكاء وخبرة الناشر الملتزم:

وقصة «صمت البحر» (٦٥ صفحة) بقلم فيركور وترجمة وتقديم وحيد النقاش، من أروع الأعمال الفنية التى ظهرت فى مرحلة المقاومة الفرنسية ضد النازية. إنها قصة رائعة، وأنشودة عذبة من أناشيد المقاومة ضد الاحتلال الذى لم يستطع ولن يستطيع فى يوم من الأيام أن يسحق كرامة الانسان.

لاحظ موقف الناقد / المحرر (الفكرى والحياتى) فى هذه الجملة الأخيرة التى صاغها من أعماق إحساسه بالبشر والوطن، ثم تأمل بتأنٍ شديد الفقرة التالية:

«أما القصة الثانية «سداسية الأيام الستة (٦٧ صفحة) فهى قصة عربية كتبها «إميل حبيبى» واسمه المستعار «أبو سلام» وهو أديب من أدبائنا العرب الذين يعيشون فى الأرض المحتلة داخل أسوار إسرائيل، وقصته عمل أدبى رائع، ووثيقة فنية صادقة يقدمها أديب من أدباء المقاومة فى الأرض المحتلة عن مأساة ٥ يونيو.

إن «صمت البحر» و«سداسية الأيام الستة» نموذجان بديعان من نماذج أدب المقاومة.. وهما خير ما يمكن أن يقرأه القارئ العربى فى شهر يونيو، بعد عامين من العدوان الصهيونى الشامل على الأرض العربية، وفى هذه الأيام التى تشتعل فيها المقاومة العربية فوق أرضنا من أجل التحرير الكامل».

لم يكن اسم رجاء النقاش فى ترويسة العدد، وإن كان على ما يبدو مديراً للتحرير. ولكن عقله وفكره وبصيرته ورؤيته وذائقته الأدبية والفنية، كانت وراء الطبخة الروائية والمضمونية، فتناولنا وجبة إبداعية مفيدة وممتعة وأيضاً محفزة على العمل.

فى الشهر التالى (يوليو ١٩٦٩)، خرجت الطبعة الأولى من الكتاب (العلامة والرائد) فى مجاله : «محمود درويش شاعر الأرض المحتلة» فى سلسلة «كتاب الهلال»، ونفد خلال شهور قليلة (كانت أزمنة نهم ولهفة على القراءة وولع بالاطلاع والكشف ورغبة فى الاستنارة، لم يعد كل ذلك موجوداً الآن، لا تلك المحبة للمعرفة ولا ذلك الهم الرومانتيكى بالوطن

وعشقه، وتعطش جمهور القراء للتعرف إلى مبدعى الأراضى الفلسطينية المحتلة والتواصل معهم ومع قضيتهم وثقافتهم ومعاناتهم الحياتية اليومية) .

فى مقدمة الطبعة الأولى، حكى «النقاش» لقاءه الأول مع أدب المقاومة فى أرض فلسطين المحتلة (أواخر سنة ١٩٦٦)، فأثناء تصفحه لجريدة جزائرية وهو مسترخٍ فى إحدى الطائرات الجزائرية التى تحمله ضمن وفد مصرى من العاصمة إلى منطقة بترول بقلب الصحراء، وقعت عيناه بأحد أركانها على قصيدة بتوقيع «محمود درويش» شاعر من أرض فلسطين المحتلة. هزته القصيدة أثناء قراءتها «لما فيها من صدق وبساطة وجمال فنى، وهزه فوق ذلك كله ما فيها من حرارة ثورية عنيفة».

ويكتشف رجاء بحسه الأدبى وذوقه الجمالى- ظهور حركة شعرية ناضجة، وأن نضجها وروعتها الفنية والفكرية «ليس راجعاً لتعاطفنا السياسى أو النضالى معها، وإنما هى تتمتع بقيمة فنية وفكرية أكبر درجة من النضج والأصالة، وأن الشعراء البارزين فى الأرض المحتلة هم شعراء موهوبون».

ولأن النورس محلق ومتابع جيد، يُعيد نشر كتابه - مرة أخرى - بعد سنتين (سنة ١٩٧١) فى ٣٢٠ صفحة من القطع الكبير، بغلاف للفنان جمال قطب يحتوى بورتريهاً لمحمود درويش (أبيض وأسود) متطلعا للأفق، على خلفية برتقالية صفراء لأسلاك وانطلاق عمليات مقاومة. وتضمنت هذه الطبعة تعديلات وإضافات كانت ضرورية، استدعتها ظروف أدبية وواقعية هامة حدثت ولم تكن موجودة من قبل.

وسيعود النورس ليحلق بديوان درويش الجميل «أعراس» وليقدم قراءاته واستنتاجاته الفكرية والجمالية لإبداعات شعراء الأرض المحتلة.

وفى كتاباته يتضح مدى احتفاء النورس بحركات التجديد الأصيلة ورموزها المختلفة، وما يتصل بالتراث ويمتد بجذوره إليه.. ونقده لحركات التجديد المبنية على عداء حضارى وقومى للأمة العربية وآدابها وتراثها الحضارى والفكرى.. وهو كتاب دراسة ومعركة (جمالية وفكرية) .

كان النقاش يقرأ ويستمتع، ويمتلئ بالرغبة فى أن يشاركه غيره المعرفة والمتعة والنشوة الجمالية - لهذا برع فى كتابة المقال الأدبى الصحفى، فأجاد نسجه بأسلوب سلس بسيط، جمله مشحونة بالمعلومات ورشيقة.. واضحة، وغير ملتبسة.. مستجليا، وكاشفًا، ومضيئًا مكنونات وخفايا النص (جمالاً ومعنى)، فلم يكن كآخرين ممن يلهثون خلف شعارات رنانة طنانة وبلا طحين، يتوهمون أنهم يتبنون قضايا، ويطرحونها للمناقشة، بينما هم يكونون قد حكموا فيها مسبقًا، بعد أن تبلوها بالبهارات المزيفة .

كانت اختيارات رجاء الإبداعية التى يقدمها للقراء من أبناء وطنه - تحوى فى داخلها اهتماماته الفكرية وتوجهاته الجمالية وميوله الفنية، سواء أكانت هذه

الاختيارات كتبًا نقدية ودراسات أدبية وفكرية وعلمية أم روايات من روائع الأدب العربى والأجنبى.

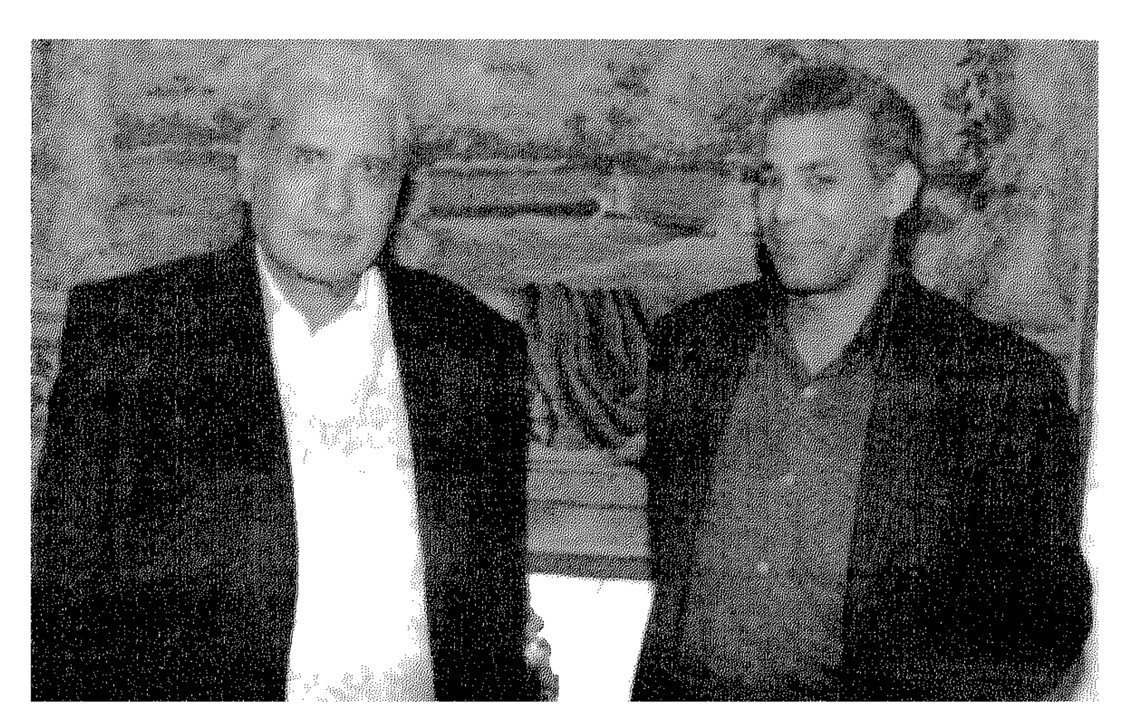
فعندما كان رئيسا لتحرير كتاب الهلال، منحنا «رامبو.. قصة شاعر متشرد» العدد ٢٢٢ (سبتمبر ١٩٦٨)، وهو أول كتاب فى اللغة العربية يتناول هذا الفنان الظاهرة، العجيب والمدهش، ويقدم قصة حياته الغريبة، «وفى أسلوب بسيط رقيق عذب، شديد الوضوح والجمال، يتناول الكاتب السورى المعروف صدقى إسماعيل حياة رامبو وشعره».

ولأن النورس ذو رؤية موسوعية رحبة، فإنه يُدير بصره وبصيرته فى الأنحاء كافةً، يُفتش ويُنقب ويجلب المفيد والممتع، الذى يضيئنا ويبهجنا وينعشنا روحاً وعقلاً، فيهبنا «الدار الكبيرة، الحريق، النول» ثلاثية الكاتب الجزائرى الكبير محمد ديب الذى احتل مكاناً بارزاً فى الأدب الروائى المعاصر كله، والذى يكتب بالفرنسية، لأنه تربى فى ظروف الاستعمار الفرنسي، وتعرض هو وجيله مالك حداد ومولود فرعون وكاتب ياسين ومولود معمرى.. وغيرهم، لضغط فرنسى ثقافى عنيف، فصلهم عن لغتهم الأصيلة (العربية).

ولكن محمد ديب ظل مخلصاً للروح العربية الجزائرية، فثلاثيته ومجمل أعماله تُصور كفاح ونضال ومشاعر شعب الجزائر تصويراً صادقاً، وقد ترجمها الدكتور سامى الدروبى، سفير سوريا فى مصر، «ترجمة ممتازة» ونُشرت فى ثلاثة أعداد متتالية (٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤ - أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر ١٩٧٠)، وحتى لا يمل القارىء المتذوق شكل الأغلفة، يختار النورس الفنان «هبة عنايت» ليرسم بإتقان أغلفة الثلاثية الجميلة.

ولكنه يُعطى غلاف رواية «بطل من هذا الزمان» للأديب والشاعر الروسى المعروف «ليرمونتوف» ليبدعه الرسام جمال قطب، كما أنه يترك كلمات ظهر الغلاف لقلم الناقد المكتشف ڤيساريون بيلينسكي، ولقراءة الروائى الكبير إلكسى تولستوى صاحب ثلاثية «درب الآلام»، وهو يرى أن بطل هذا الزمان ثمرة عصر رهيب، مجرد من الأخلاق، قاس، والذى يطوف بعقمه وضجره بين روائع الطبيعة والناس الذين يملكون قلباً بسيطاً، كريماً، نقياً، يعرض ليرمونتوف كمال فنه الواقعى الناضج، صاحب الأسلوب الرائع، والعبق العذب.

وكالرواية السابقة، والرواية التحفة «جسر على نهر درينا» للكاتب اليوغوسلافى «إيڤو أندريتش» التى سيدفع بها النورس للنشر بعد عودته من رحلة الخليج (الدوحة)، لتصدر فى جزءين (ديسمبر ١٩٧٦، يناير ١٩٧٧ - العددان ٣٣٦، ٣٣٧)، سيكون المترجم «صاحب الأسلوب العربى النقى المشرق، وصاحب أرقى وأعظم وأدق جهد فى الترجمة إلى العربية خلال ربع القرن الأخير» هو الدكتور سامى الدروبى - السورى الذى أتحفنا بالأعمال الكاملة المبهرة للمتأرجح على حافة الهاوية «دستويڤسكي».



مع كاتب المقال – القاهرة ٢٠٠٧

وهى العودة التى انتظرناها، واستطلعنا أخبارها فى المقاهى والجلسات الخاصة، ونحن نخمن ونحدس بالمكان الورقى الذى سيحط عليه النورس المرتحل بأقدامه الرقيقة ، ليضيئه ويحييه.

ينتقل النورس فى الأجواء، فلا يحصرنا فى آداب الشعوب الكبيرة (فرنسا، إنجلترا، أمريكا، روسيا)، وإنما يضع بين أيدينا أدب شعب صغير كالشعب اليوغوسلافي، ويكشف لنا تلك المنابع الأصيلة فى آداب الشعوب الصغيرة، فلها «ظروف تُشبه ظروفنا، ولديهم هموم تُشبه همومنا».. وهكذا يعمل عقل وخيال وروح المبدع والناقد والمكتشف المهموم والجاد والذوّاقة.

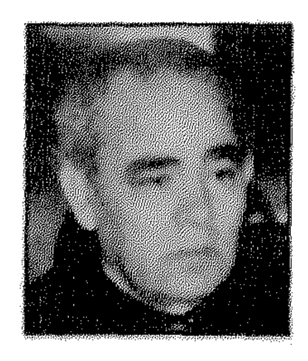
وغير ذلك، هناك «أبناء وعشاق» فى ثلاثة أجزاء من تأليف الإنجليزى د. هـ . لورنس، وترجمة شفيق مقار، وغلاف الفنان هبة عنايت بتنويعات خطوطه وألوانه. ومن ترجمته كذلك «البنسات الثلاث» رائعة الألمانى الاشتراكى «برتولت بريخت» فى جزءين (٤٢٨ - ٤٢٩) - ١٩٧١م. و«البيت والعالم» لأديب الهند ومنارتها «طاغور».. وغير ذلك الكثير من روائع الروايات المؤثرة الباقية .

إن اختيارات النقاش، التى قدَّمها أو أشار إليها أو حرَّض على نشرها وانتشارها بين أيدى الناس، تُكوِّن مكتبة غنية بالفكر والأدب والفن والمتعة، تُلهم وتُحنن أجيالاً وأجيالاً، وتدفعهم وتُحفِّزهم على الإبداع الأصيل والجميل.

إنه مُخطط بارع، وصانع قدير للكتب والمجلات، ومكتشف لا يُبارى فى عالم النقد والنشر، والصحافة .. الثقافية.

(وفى الحياة الأدبية، هناك نورس يستوقفكم باكتشافاته، ويهبكم أجمل الكتب والمجلات، وأمتعها).

على خطى المويلحي



مهدى الحسينى □

فـي بلدان العـالم الثالث - عدا الهند وجنوب أفـريقـيـا وبعض دول أمـريكا اللاتينية - يترنح المثقفون سيراً في طرق ملتوية ضيقة كلها خطورة يهددهم الجوع والعطش فلا زاد ولا عون ولا سند . كان هذا هو القانون المصيري هنا منذ نفي رفاعة الطهطاوي إلي السودان والشاعر شوقي إلي أسبانيا ، وطبعا تفننت بريطانيا في بناء السجون والمعتقلات ، وحوصر المعتقلون في الأربعينيات في جحيم جبل الطور ، وزج ناصر بهم في سجونه الحربية وطره ومصر وجناح والمحاريق بالواحات وأبو زعبل والفيوم و .. و .. و..وإلي مالا نهاية لهذا العذاب الذي عانته خلاصة عقول الأمة وعصارة قلوبها ، فضلا عن سجون معنوية أخري هي التجاهل والتصغير والاستبعاد وتحجيم الرزق أو منعه والتهديد ومحاولات الرشوة والشراء والإرباك وحجب الحقائق والمعلومات ووضع الخطوط الحمراء والمراقبة المباشرة وغير المباشرة وخيانة الأصدقاء والتشهير والتجني وإشاعة النمائم والوقيعة بينهم . كل هذا مع عقول يضنيها الجوع إلي الحقيقة والمعرفة وأرواح يعذبها العطش إلي الأمان والشوق إلي الاستقرار والطمأنينة.

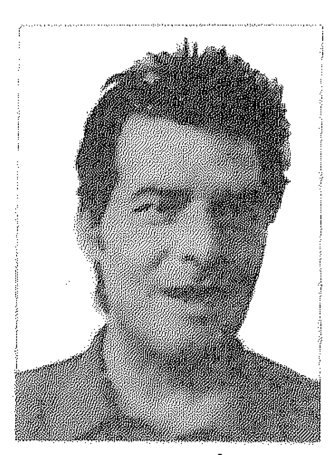
أدرك رجاء هذا مبكراً فمضى فى منحنيات خطرة ومسالك وعرة وطرق كلها التواء ليس له من زاد سوى الحكمة والتأجيل والحصافة وحسن التوقيت وذكاء المخاطبة ومهارة المداراة والمناورة (ودارهم ما دمت فى دارهم) كل هذا كى يحقق مساراً اختطه منذ كان يافعا هو: نصرة الأدب والأدباء والفن والفنانين حتى أن الأمر اتسع من وحى قلمه وإملائه - إلى الوطن كله ثم إلى الشعوب العربية .. ثم إلى الإنسانية جمعاء . إنها قصة كفاح لن نرويها بديلا عنه فهو أحق الناس بكتابتها.

جنرالات الأدب

رغم ظروف أسرته الاقتصادية المتواضعة ، ورغم كثرة العدد : رجاء . وحيد ، فريدة ، عطاء ، فكرى . بهاء . أمينة ، إذْ رحلت الأم مبكراً وتحمل الأب الأستاذ عبد المؤمن النقاش المسئولية وحدة وكان يعمل إداريا فى مدارس وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم الآن) لا يمتلك سوى شفة مزمومة وإرادة متقشفة ونظرة ملؤها التصميم ولا شئ

□ كاتب وناقد

غير بضع قصائد عمودية طويلة وشئ من ثقافة الثلاثينيات والأربعينيات ، ولعلى سمعت أن رجاء كان عضوا في إحدى لجان الشباب الوفدى بالمنصورة ، وأنه شارك في بضع مظاهرات إبان حكومة حسين سرى التي جاءت في إثرها حكومة الوفد المنتخبة بأغلبية ساحقة وعلى غير إرادة الاستعمار والسراى فألغت المعاهدة مع الإنجليز وأطلقت زمام الحركة الوطنية . انتقل الأستاذ عبد المؤمن بأسرته كثيرة العدد إلى القاهرة؛ ليسكن بالقرب من جامعتها - حلم الطبقة الوسطى المستنيرة - في شارع ماكفرسون بحي بين السرايات الصغير الذى كان يضم كل التيارات الفكرية التي عرفتها مصر حتى ذلك الحين ، ولما كانت الشقة تضيق بهم ، فقد انتقل بأسرته إلى مدينة الأوقاف المتاخمة ، يفصلهما عن بعضهما شارع الطويجى ، فسكنوا في بيت صغير له حديقة خلفية وأمامه أرض زراعية مبورة ، وكانت أسرتنا قد سبقتهم في نفس المسار من بين السرايات إلى بيت صغير ذى حديقة صغيرة يعطي ظهره إلى ظهر بيتهم. كان يتردد عليهم كثير من «المشبوهين» أدبياً : جيلي عبد الرحمن وتاج السرّ ومحى الدين فارس من شعراء السودان، وأحمد عبد المعطى حجازى وفوزى العنتيل ومحمود العالم من كتاب مصر وآخرون لا أذكرهم ، غير أنه كان يفضل أن يلتقيهم لضيق المكان وتواضع أثاثه في مقهى - كان فخماً - بميدان الدقى أو قهوة إنديانا الشهيرة ، ليس أصدقاءه وزملاءه فقط ، بل لعلى أذكر



نجيب سرور

أنى شاهدته جالساً هناك بين يدى الدكتور عبد القادر القط وكان عائداً للتو من بعثته في إنجلترا سواء هو أو شقيقه العزيز الراحل وحيد ، ولعلهما ورثا الصمت عن أبيهما وأتقنا الاستماع ، فكان أن جمعا حصيلة ثقافية واسعة في وقت قصير باكر ، ذلك فضلا عن أن مكتبة أسرتهما الصغيرة كانت تضم أكبر مجموعات الكتب التي يستحوذ عليها منزل لمثقف عام حينذاك سواء من حيث الكم أو من حيث التنوع خاصة الكتب الواردة من بّر الشام .

ورغم الظروف الاقتصادية الأسرية الصعبة والظروف السياسية الشائكة التي كانت تحيط بالمثقفين والسياسيين حينها ، قبل وبعد أزمة مارس ١٩٥٤ ، ورغم تعدد المعتقلات والسجون وأماكن الحجز التحفظي وحزم من القرارات الاستثنائية تصدر عن ما يسمى بـ «مجلس قيادة الثورة» والأحكام العرفية والقوانين التعسفية الجديدة والإجراءات الماكرة ، والمحاكم العسكرية ، إلا أنه لم يفقد شجاعته - وكان لم يتعلم الحكمة والحصافة بعد - حتى أنه كتب مقالا عن



«جنرالات الأدب فى مصر» فى مجلة الآداب اللبنانية التى أختير مراسلا أدبياً لها وأظنه أنه - حينها - كان قد جاوز العشرين من عمره بعام أو عامين ، لم يحدد المقال شخصا بعينه ولكنه تحدث عن زحف عدد من العسكريين إلى قمة الحياة الأدبية؛ بغية السيطرة عليها وإدارتها ، هو لم ينكر أن بينهم من له قدر من الموهبة ، ولكن هذا لا يعنى هيمنتهم على عقول المصريين واحتلالهم لسدة الحياة الأدبية والفنية فى مصر ، تلك الظاهرة التى زادت مع ما يسمى بالتأميمات الاشتراكية المزعومة إذ انتقل الضباط إلى قيادة المسرح والسينما والكتاب والإدارات البيروقراطية للحياة الفكرية والثقافية بوجه عام - إذن كان رجاء يرى عن مبعدة وإن اضطرته الظروف بعد ذلك إلى قبول الأمر الواقع حين سيطرت الدولة الشمولية وتوابعها وأهل الثقة على كل مقدرات العمل الثقافى والعلمى والإبداعى فى مصر .. بل وفى بعض البلدان العربية أيضاً إلى حد أنه قبل العمل فى مجلة اسمها «البوليس» كانت تهتم بالأدب والفن ويالها من مفارقة!! ظل يوسف السباعى متحفظاً - حتى آخر لحظة من عمره - تجاه رجاء بسبب هذا المقال .. بعيد النظر .

مأساة إيمرى ناجى

فى سنة ١٩٥٦، كتب النقاش مقالا فى روز اليوسف أحدث زوبعة سياسية وفكرية بين قرائها من المصريين والعرب المهتمين بالسياسات والأفكار، خاصة هؤلاء الذين ظنوا أو ادعوا أنهم شيوعيون. كتب يطالب بإلغاء حكم الإعدام ضد إيمرى ناجى الذى قررته محكمة استثنائية شكلها الحزب الشيوعى المجرى الذى كان هو رئيسه المنتخب ورئيس حكومته، غير أن السوفييت والجناح اليمينى (الذى يزعم أنه يسارى) فى الحزب لم يكونوا راضين عن سياسته التى بدت فيها بوادر الاستقلال عن المزعومة المسماة بالأممية وكذا حلف وارسو والسوق الاشتراكية التى كانت تقهر الصناعات والمحاصيل فى أوروبا الشرقية . انزعجت المنظمات الشيوعية المصرية من يمينها إلى يسارها من هذا المقال لأنه يجرح ولاء ها الغبى لسياسات الاتحاد السوفييتى وللفكر الشمولى وللعجز الفكرى عن عقد تواصل عميق مع مختلف فئات الشعب كان من شأنه أن يحميها من آثار الحملات التى شنها عبد الناصر ضدها، كانت أكبرها عام أول يناير ١٩٥٩ وما بعدها وحتى هزيمة ٦٧ . كان هناك بين الشيوعيين المصريين من تعاطفوا مع مقال رجاء النقاش إذ كانوا يفكرون فى : اشتراكية ذات طبيعة إنسانية أى اشتراكية تؤمن بحقوق الإنسان والتعددية والاستقلال الوطنى وحق المبادرة والابتكار فى تطبيق الماركسية فى صيغ متمايزة لكل بيئة ووطن وقومية .. وكان المفكر الكبير الراحل أحمد رشدى صالح من بين هؤلاء ، ولما لم ينصتوا لرأيه فإنه آثر الانعزال عن أفكارهم وممارساتهم الكوريلية

الذيلية الانهزامية.

كان رجاء حينها فتى فى العشرينيات من عمره ومع ذلك كان له عقل زرقاء اليمامة ، فالكاتب الفذ هو الذى يرى من بعيد ويتنبأ وكان رجاء كذلك . لقد ارتكب السوفييت نفس الجريمة فى بولندا حين أزاحوا «جومولكا» الزعيم البولندى .. ثم تكررت نفس المأساة مع «دوبتشيك» فى تشيك سلوفاكيا صاحب ربيع براغ سنة ١٩٦٨ ، وحين عاد مع زميله «هافيل» بعد تغير الأوضاع الدولية مع سقوط حائط برلين البغيض وانهيار السوفييت ، حينئذ تم تقسيم الدولة الشمولية إلى «تشيك» و «سلوفاك» .. تم قتل دوبتشيك وبقى هافيل لأنه اعترف بإسرائيل !! وشاركت بولندا والمجر فى قوات احتلال العراق . تخيلوا كم كانت النظرات الثاقبة لرجاء النقاش وغيره تستطيع أن تفعل لو وجدت تحققا لها فى الواقع؟

استعادة نجيب سرور

ذهب نجيب فى بعثة إلى موسكو لدراسة المسرح ممتلكا تلك النظرة الرومانتيكية التى ترى الاتحاد السوفييتى قلعة للاشتراكية والحرية وقبلة للشعوب الطامحة للتحرر والتنمية والعدالة ، وهناك التقى كوادر الحزب الشيوعى واتحادات الكتاب والفنانين وانغمس - بحكم طبيعته الفنانة - فى ثنايا هذه الحياة دون أن يرى عاجلاً الوجه الآخر لها ، ولعله كان يصدم حين كاد يسمع أن فلانا - أديبا روسيا أو فنانا - زُج به إلى مصحة نفسية أو أرسل إلى سيبيريا أو إلى معسكر إجبارى للعمل أو نحى من منصبه


عبد الرحمن الخميسى

على أقل تقدير ، وحين نشبت معركة ما بين ناصر والسوفييت، تسلم ميكروفونا فى إذاعة موسكو العربية ليرسل أكواما من الانتقادات الصحيحة للنظام المصرى مدافعا عن المثقفين والفنانين والسياسيين اليساريين والديمقراطيين المحبوسين المعذبين ، كل هذا وهو يظن أنه يسير على درب النضال الصحيح ، غير أن نيكيتا خروشوف كبير السوفييت حينذاك كان قد غيَّر خططه وتصالح مع حكومات العالم الثالث العسكرية التى كانت تطارد الديمقراطيين والنقابيين واليساريين ومنها حكومة ناصر ، وحين تظاهر المبعوثون الأفارقة والعرب ضد هذا التوجه قال لهم خروشوف : «سيروا على رءوسكم ولكن لن نسمح لكم بتغيير خططنا السياسية» وهكذا تم نزع الميكروفون من يد نجيب سرور وغيره من الثوريين اللاجئين إلى موسكو هربا من نير أنظمتهم المستبدة ، وكان لنجيب أصدقاء من شيوعيى المجر المستنيرين مثله فدعوه إلى المجر - حيث توجد مدرسة مسرحية غاية فى الأهمية لها منجزات خاصة فى الفن وعلم الجمال - ولكنه وجد هناك حكما يجمع بين بطش

ستالين ومروق خروشوف ، وكانت طبيعة نجيب الفلاحية الديمقراطية المعتزة بالقومية المصرية لا تقبل مثل هذه الحياة ، وهناك قست عليه الغربة .

في منتصف سنة ١٩٦٤ فوجئنا بمقال للنقاش يطالب الحكومة المصرية باستعادة هذا الكاتب الفنان ، هل كان رجاء يعرف كثيراً عنه وهو الذى سافر من مصر عام ١٩٥٨ ولم يكن قد أنتج أهم أعماله؟. لا أعتقد .

إن رجاء هنا كان يرى موهبة نجيب القادمة فى ثنايا القليل الذى كان قد أنتجه قبل السفر .. وبالفعل استجابت الحكومة وعاد نجيب والتقى مع كرم مطاوع ليقدم ويمسرح له قصة شعرية «ياسين وبهية» على مسرح الجيب بالحديقة الفرعونية بجزيرة الزمالك (الآن ستوديو تلفزيونى) فكان أن تعرفنا على نجيب حيث أخرج «بستان الكرز» كأروع ما يكون فن الإخراج... إلى آخر أعمال الراحل الكبير.

قبة الصخرة الذهبية

أختار رجاء حين كان رئيساً لتحرير «الهلال» صورة قبة مسجد الصخرة القدسى المطلية باللون الذهبى ليجذب عين القارئ كى يشترى المجلة التى ضمت أشعاراً طازجة جديدة لشعراء لم يسمع عنهم المجتمع الأدبى المصرى والعربى خارج فلسطين سنة ١٩٤٨، كانت هناك تسريبات إجرامية تمس سمعة فلسطينيو ٤٨ بأنهم استسلموا وتواءموا مع إسرائيل والصهيونية وأن بينهم من خان !! وكانت صور زنكغرافية قد وصلتنى لصحف حزب «راكاح» العربية على صدارتها أشعار لتوفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش فسلمتها للموسيقار الراحل الفنان عبد العظيم عويضه فإذ به يستدعى عادل كامل حنا - الراحل أيضاً - ليصبح قائداً لفرقة كورال من الشباب هى فرقة «كورال الطليعة» ويستدعى الموسيقار علاء الدين مصطفى (أستاذ بالكونسيرفاتوار حاليا) ليقوم بالتوزيع الموسيقى والمصاحبة على البيانو ، كل هذا كى أرد ونرد على ما ورد فى خطبة ناصر فى دفاعه عن ديما جوجية إعلامه الكاذب حينذاك : «يمكن الاعلام ماحطش إيده على النغمة الصحيحة» ويبدو أن نفس الهاجس ملك عقل رجاء النقاش فقام بنشر أشعار هؤلاء الذين عاشوا وناضلوا تحت حد السلاح الإسرائيلى الصهيونى لأنهم يعرفون العدو حق المعرفة . هنا قام رجاء بنشر «النغمة الصحيحة» بعدها أصدر كتابه الرائد عن محمود درويش . ومن حينها لم يتوقف الطابور المناضل للشعراء الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة وخارجها . إنه بُعد النظر .

فطنة الاختيارات

منذ رأس رجاء مجلة الهلال وإصداراتها كان يباغتنا بإصدارات لم تخطر على بال : «موسم الهجرة للشمال» رواية الطيب صالح ، «أبناء وعشاق» رواية «د. هـ . لورنس» ، «الثلاث بنسات» ترجمة شفيق مقار تأليف برتولد بريشت

رواية من جزئين مختلفة تماما عن نصوصه ومصادره المسرحية ، رواية قصيرة هى «صمت البحر» من ترجمة شقيقه الراحل وحيد النقاش للكاتب الفرنسى ڤيركور وهى رواية مفعمة بالشعر والنثر معاً فى كل لفظة وجملة فيها ، رواية «سداسية الأيام الستة» للراحل الفلسطينى إميل حبيبى وهى عمل فذ يشخص الانقسام القسرى - على مستوى النفس والجسم والواقع والمصير والخيال - الذى أجبر عليه الفلسطينيون ، و «المحاكمة» لكافكا و .. و .. والذاكرة تخوننى أحيانا فلا أستطيع الحصر.

المجهولون

كنت قد تعرفت على شاعر صغير السن أسمعنى قصيدة تحفل بصور ومعان جديدة ، فأخذته فوراً إلى حيث كنا نلتقى مرة فى الأسبوع عند «القديس» وهو اسم الكناية عن المثقف الكبير الراحل عبد الرحمن الخميسى ، فأسمعهم الشاعر الصغير قصيدته فأعجب رجاء بها قائلاً : «يبدو أن هناك جيلاً جديداً يدق الأبواب» نشر له قصيدته لا أذكر فى المصور أو الكواكب ودفع به إلى مجلة الكاتب وأحمد عباس صالح ، غير أن هذا الشاعر ظل صغيراً لزمن طويل فلم تواته نفس الصور الساخنة ولا روح الكشف والهجاء والمفارقة ولا الاندفاع والمغامرة ، والمباغتة والشجاعة ولا الرؤى والأحلام التى ميزت قصيدته ، بل تملكته توجهات طامحة طامعة أخرى فلم يحقق شيئاً ذا بال. كثير من هؤلاء المجهولين دفع بهم رجاء إلى الساحة ولم يفلحوا ولكن الذنب ليس ذنبه فقد منحهم الفرصة ولم يفيدوا منها.

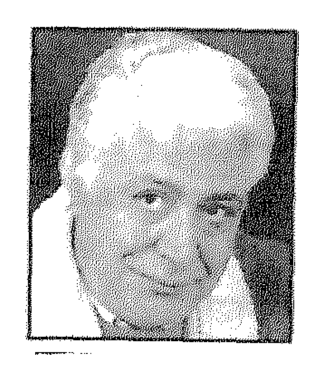


جيلى عبد الرحمن

أم مكسيم جوركى

لا أتابع مقالاته بالأهرام بدقة ، ولكنى أقرأ بعضها ، أسعدتنى مقالته عن الكاتب الروسى العظيم الذى غدرت به القيصرية ثم غدرت به - إلى حد القتل - الشيوعية السوفيتية ، لكن رجاء لم يذكر شيئاً عن هذا ولا عن اغتيال ابنه وحيده بأن تركه عملاء الكى جى بى فى غرفته والشبابيك مفتوحة فى عز الشتاء . كتب رجاء عن إنسانية جوركى وعن قصة الأم الشهيرة (تلك التى كانت تعتبر مضبوطات إذا وجدها ضباط المباحث فى مكتباتنا فى الخمسينيات والستينيات) ، فأفاض عن فرط إنسانيتها وحنان مبدعها كما كتب عن قصة قصيرة فذة على نحو نادر فى تاريخ الأدب الإنسانى ،هى قصة «مولد انسان»، تحكى عن طالب طب يقوم بتوليد امرأة عاملة لا يعرفها صدفها فى حالة وضع ، بين مجموعة من الباحثين عن الرزق ، أثناء عبورهم غابة ، كيف صور جوركى صورة الطفل «الصارخ فى البريَّة» فى أول ثانية تواجه فيها عيناه ذلك المجهول .. إنها الحياة.

هو والمسرح



عبدالغنى داود □

يشير الكاتب الكبير رجاء النقاش - فى بداية حياته الأدبية إلى دور (الناقد) فى الحركة الثقافية، وفى الحياة بصفة عامة قائلاً فى: (مجلة «المجلة» العدد ٥٤ - يوليو ١٩٦١): «الناقد الفنان هو الذى يُدرك الحقائق النظرية العلمية إدراكاً كاملاً، ولكن لايقف عندها.. وإنما يتعداها ليحدد بعد ذلك (نوع) العمل الفنى، ولونه وطعمه وسر الحياة فيه، ودرجة هذه الحياة. والناقد لايستطيع أن يصل إلى هذه الحقائق الفنية الخفية بدون أن يكون نابضاً بإحساس فنى قد لايقل عن إحساس الفنان نفسه - هكذا تعلمنا (دور الناقد) وتحملنا المسئولية».

فممن تعلم رجاء النقاش ؟ سؤال صعب لأن لذين نتعلم منهم كثيرون ولا حصر لهم، وكانت الساحة الثقافية - عندما بدأ يمارس الكتابة وهو فى سنين الدراسة وبعد أن تخرج فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٥٦ - مليئة بالأساتذة الكبار كطه حسين وعباس محمود العقاد - الذى اشتبك معه فى معارك أدبية فيما بعد - وغيرهما من الرواد كتوفيق الحكيم ويحيى حقى ود . لويس عوض ونجيب محفوظ وعبدالرحمن الشرقاوى - لكنه تعلق بكتابات الدكتور محمد مندور فى نقد مسرحيات شوقى وعزيز أباظة وتوفيق الحكيم والمسرح النثرى، والمسرح المصرى المعاصر، والمسرح العالمى، وهكذا كتابات الناقد الكبير (أنور المعداوى) الذى رافقه كثيرا .. والكلاسيكية والأصول الفنية للدراما وغيرها من الكتابات، ومن خلال عمله بالصحافة فى البداية فى جريدة «الأخبار» ثم «الجمهورية»، ومن قبلها مجلات «البوليس»، و«الشهر»، و«روزاليوسف»، وكذا كمراسل لمجلة «الآداب» البيروتية . تابع الحركة المسرحية فى مصر وهو يُدرك مايُسمى بأزمة النقد فى حياتنا الثقافية - فنجده يكتب فى جريدة «أخبار اليوم» عام ١٩٦٢ مقالاً بعنوان «نعم .. عندنا أزمة نقد»، ويحذر من خطورة غياب دور النقاد، فيقول :

(فى كل يوم يمر - يزيدنى إيماناً بأن النقد الأدبى عندنا فى أزمة، وأن هذه الأزمة تهدد حياتنا الأدبية - هذه الأزمة يتحمل مسئوليتها النقاد من جانب - والواقع الأدبى من جانب آخر، وبدون أن

□ كاتب وناقد مسرحى

نبذل محاولات جادة فى كل ميدان أدبى وفكرى، ستبقى الأزمة كما هى)، ومثل هذا القول في تلك الفترة كان نوعاً من الشجاعة فى ظل نظام التنظيم السياسى الأوحد - خاصة أن (النقد) هنا قد لا يقتصر على النقد الأدبى فقط - بل يتعداه إلى كل مناحى الحياة، ومن خلال متابعاته الأمينة التى تتحلى بالصدق ونزاهة الضمير - تابع الحياة المسرحية فى مصر - لتتجمع جهود هذه المتابعات فى كتابين هما:

«فى أضواء المسرح» يونيو ١٩٦٥ - سلسلة «إقرأ» - العدد (٢٧٠) - دار المعارف، و«مقعد صغير أمام الستار» والذى نشر فى هيئة الكتاب عام ١٩٧١ - ويتناول الكتاب الأول «فى أضواء المسرح» عدة دراسات عن المسرح العالمى والمصرى .. مع بعض مقالات فى النقد التطبيقى لمسرحيات مصرية من تأليف توفيق الحكيم، وألفريد فرج، وشوقى عبدالحكيم، وميخائيل رومان، وفتحى رضوان، ويوسف إدريس، وعبدالرحمن الشرقاوى، وهى كتابات تشى بحماس و(فرح) الناقد بأعمال هؤلاء، ومركزاً على قيمتها الأدبية والفكرية، وعلى تحليل مضمون النص حيث يتناوله من الناحية الاجتماعية وعلاقته بالواقع .. لذا فهو يعنى كثيراً بما هو خارج النص أكثر من عنايته بتفاصيل عناصر العرض المسرحى، والتى نادى بها النقاد الحداثيون فيما بعد - حتى كاد ينطمس دور (النص الأدبى) الذى أرى أنه العمود الفقرى لأى عرض مسرحى، والذى منه يستوحى كل صانعى العناصر المسرحية الأخرى إبداعاتهم.

وفى كتابه الثانى «مقعد صغير أمام الستار»، يقدم الناقد (مقدمة) مهمة يعلن فيها بشجاعة أنه ضد مسرح د. رشاد رشدى، وضد المدرسة التى ينتسب إليها هو ورفاقه من أساتذة قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة القاهرة من أمثال : (د . فاطمة موسى، د . شفيق مجلى، د . فايز إسكندر، د . أمين العيوطى، د. فخرى قسطندى) وتلاميذهم، كما أنه ضد (مسرح ميخائيل رومان)، ولا يستطيع تقبل مسرحهما، ومع ذلك يعترف بأن هناك نقاداً آخرين لهم قيمتهم وأهميتهم يقبلون مسرح كل منهما، ويدافعون عنه ويتحمسون له، ويرون فيه مسرحا ممتازاً وناجحاً .

الالتزام النقدى

يضم هذا الكتاب مجموعة مقالات مهمة يحاول من خلالها الناقد أن يفسر أسباب إعجابه أو عدم تحمسه لكل مسرحية - ملتزماً فيها بمنهج النقد الأدبى الذى يُركز على النص والمضمون وماذا يريد أن يقول - لدرجة أنه يستغرق معظم مقاله فى نقد مسرحية «سليمان



الحلبى» ١٩٦٥ - لألفريد فرج - فى عقد مقارنة مضنية للتشابه بين (الحلبى) و(هاملت) - ولدرجة أنه رأى فى تحول (الفتاة) ابنة قاطع الطريق (حداية) إلى الدعارة - انتحاراً رمزياً فى مقابل انتحار (أوفيليا) الفعلى، ويرى :

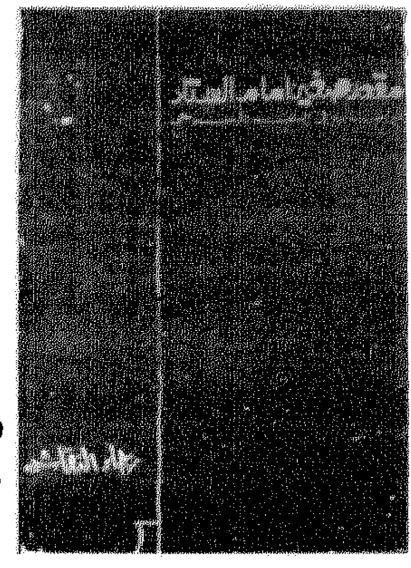
أن فى مسرحية «سليمان الحلبى» يلتقى الجهد بالموهبة التقاء كبيراً، فالمسرحية (مصنوعة) بأناقة وثقافة ومعرفة كاملة بالمرحلة التى تتحدث عنها المسرحية . ومن ناحية أخرى، فإن لمسات الموهبة المتألقة تملأ (صفحات) المسرحية .. لم يعتمد المؤلف على الجهد وحده، ولا على الموهبة وحدها، وإنما استطاع أن يخلق زواجاً كاملاً بينهما - فهو رغم حرصه على تحليل النص (بصفحاته) أساساً، والإشارة إلى التشابه الذى بينه وبين نص «هاملت» - مراعياً فى ذلك ضميره الحى وشفافية ونقاء وطهارة الأزمة، ودون مجاملة ليظل محتفظاً بالحماس لكتاب المسرح - فهو يواصل حماسه لمسرح عبدالرحمن الشرقاوى الشعرى، إلا أنه يرى أن (المونولوجات الغنائية) التى يعتمد عليها الحوار فى كل مسرحية - هى سبب ضعف الصراع الداخلى فيها - مما جعلها (تسير فى اتجاهات مشتتة متباعدة دون أن تتماسك كلها فى جسم واحد متكامل) - كما جاء فى كتاب «مقعد صغير أمام الستار» ١٩٧١ ص (١٦٣)) .

وملتزماً فى ذلك بما كتبه فى وقت مبكر فى جريدة «الأخبار» عام ١٩٦١ :

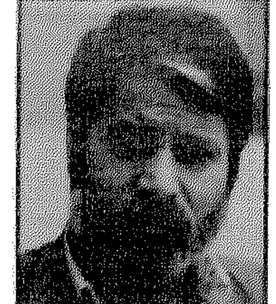
(إن التغيرات الشاملة الواسعة التى أحدثتها الثورة فى جيلنا بحاجة إلى فن جديد يصاحبها ... فن عميق يعمق الحياة الجديدة التى نعيشها، وعمق الإنسان الجديد الذى بدأ يظهر)، ولدرجة أن يصل حماسه لكاتب مسرحى قدير مثل (محمود دياب)، (١٩٣٢ - ١٩٨٣) ليرى أن مسرحيته «باب الفتوح» ١٩٧٦، تستحق أن تقدم كنموذج عالمى للفن المسرحى، العربى فى أى مكان، (مجلة «المصور» ١٩٧٦/١١/٢٦) .

منهج متفرد

إذن - فالمسرح يحتل جانبا مهماً فى إنجاز رجاء النقاش الأدبى - لتفرده بمنهجه الواضح دون تأثر بالموجات الباحثة عن الغموض والالتباس - حيث يظل انحيازه للنص (الأدبى الأدبى) الذى يضفى القيمة الفكرية على العرض المسرحى، وبدونها لايصبح للعرض المسرحى أية قيمة حقيقية سوى الترفيه والتسلية، ويظل منهج رجاء النقاش قلعة للدفاع والتصدى لدعاوى تهميش المؤلف والنص، ودعاوى إنكار حق المؤلف كخالق أصيل للعرض المسرحى .



الرائد



صبحى حديدى □

الدراسات الشكسبيرية فى التأليف العربى نادرة شحيحة، لكى لا نقول إنها شبه منعدمة، وذلك بالرغم من توفّر معظم أعمال شكسبير الأساسية مترجمة إلى العربية، وأحياناً فى أكثر من ترجمة واحدة. وقد يقول قائل إنّ هذه الحال الفقيرة فى ميدان الدراسات تشمل أيضاً الغالبية الساحقة من كبار أدباء الغرب، فضلاً عن آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وأنّ طور الخمسينيات والستينيات الذى شهد الاشتغال النشيط على الآداب والنظرية النقدية الغربية كان طفرة واحدة، عابرة واستثنائية.

ولهذا فإنّ من المبهج أن يصدر كتاب بعنوان "نساء شكسبير"، دار شرقيات ـ القاهرة، يتناول هذا الجانب الأساسى فى تراث أديب لا تغيب المرأة أبداً عن مسرحياته وقصائده، حتى أنّ المرء لا يمكن أن يفكّر فى شكسبير بمعزل عن شخصياته النسائية الخالدة. مبهج كذلك، أن يكون الكتاب بتوقيع الناقد المصرى المخضرم رجاء النقاش، خصوصاً وأنّ هذا العمل يبرهن مرّة أخرى على أنّ اهتمامات الرجل ليست محلية مصرية أو عربية "عروبية" دائماً وأبداً!



والحال أنّ كتابات النقاش النقدية كانت، منذ الخمسينيات، علامة حيّة وحارّة على أمرَين:

١ ـ إدارة الصراع (فى جبهة الأدب) بين اليمين واليسار عموماً، وبين المدافعين عن عروبة مصر ودعاة انتمائها إلى أصول أخرى شعوبية. وفى هذا الصدد تندرج سجالاته ضدّ توفيق الحكيم ولويس عوض ومَن أسماهم بـ "الانعزاليين"، ودفاعه عن طه حسين وأنور المعداوى، وتمييزه بين اتجاهات اليمين واليسار عند عباس محمود العقاد، وتشخيصه للظواهر السياسية وراء أزمة الثقافة المصرية.

□ كاتب وناقد من سوريا



٢ ـ تقديم المواهب الأدبية الجديدة، والسباحة عكس التيّار فى الدفاع عن حقّها فى احتلال الموقع المناسب. وهكذا كان رجاء النقاش بين أوائل الذين قدّموا الروائى السودانى الطيّب صالح، فرحّب بروايته "موسم الهجرة إلى الشمال"، واعتبر أنّ صدور هذه الرواية يدلّ على أنّ الروائى المصرى الكبير نجيب محفوظ لم يعد عقبة فى وجه تطوّر الأسماء الشابة. كذلك قدّم النقاش لمجموعة أحمد عبد المعطى حجازى الأساسية "مدينة بلا قلب"، ١٩٥٨، وكان أوّل المبادرين إلى تقديم محمود درويش، وذلك حتى قبل أن يغادر درويش الأرض المحتلة، ورغم حساسية الحديث (آنذاك!) عن شاعر فلسطينى يحمل الجنسية الإسرائيلية.

وفى الجانب السجالى خاض النقاش عشرات المعارك دفاعاً عن قناعاته (ولعلّ هذا هو بعض السبب فى إفراط الحماس


شكسبير

لديه)، وخاض عشرات المعارك الأخرى دفاعاً عن الآخرين (سواء أكانوا من النقّاد أو الأدباء). وكان يصيب فى معظم الأحيان، ويخطىء فى أحيان أخرى، خصوصاً حين يطغى التأويل السياسى للنصّ أو الإنتماء العقائدى لصاحب النصّ على الخصائص الفنّية للنصّ ذاته. وفى الجانب العملى تولّى النقاش رئاسة تحرير دوريات عربية أساسية (مثل "الهلال" و"كتاب الهلال" الشهرى، و"الدوحة" القطرية)، وكانت هذه المهامّ بمثابة اختبار عملى لمواقفه المنحازة إلى الحداثة والتجديد، وتسامحه مع النزعات التجريبية لدى الأدباء الشباب.

لكنّه كان ــ وما يزال فى الواقع ــ شديد الميل إلى إسقاط السياسة (بمعناها المباشر والعقائدى والحزبى) على الظواهر الإبداعية، وإلى شطب جزء كبير من حقوق الإبداع إذا أخلّت هذه بحقوق السياسة. وأن تأتى ممارسة كهذه من ناقد كبير ومتمرّس ورائد أمر يتجاوز حدود العثرة، لأنه فى الواقع ينمّ عن استعداد للتضحية باستقلالية العملية الإبداعية لصالح تكريس السياسة. ولعلّ جوهر هذا الموقف تختصره الكلمة التى نُشرت على الغلاف الأخير لكتاب النقّاش "ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء"، حيث جاء فيها: "وقد وقف المؤلف بوضوح وصراحة مع حركات التجديد الأصيلة ورموزها المختلفة، كما وقف ضدّ حركات التجديد المبنية على عداء حضارى وقومى للأمّة العربية واللغة العربية وآدابها. ولم يتردّد المؤلف فى معارضة حركات



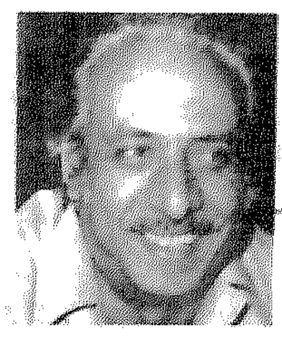
مع الفنان دريد لحام فى القاهرة «١٩٩٥»

التجديد القائمة على سوء النيّة القومية، والاستهانة بالتراث الحضارى العربى بهدف تمزيق العرب فكرياً وثقافياً ووجدانياً".

والحقّ أنّ أحداً لا يستطيع الزعم الأكيد بأنّ دعوة تجديدية ما فى الأدب، هى فى الآن ذاته حالة "عداء حضارى وقومى للأمّة العربية"، لأنّ تجدّد الأساليب والأشكال والمدارس ظاهرة إبداعية واجتماعية ـ ثقافية عميقة حتى إذا انطلقت من أساس سياسى أو فلسفى. وهكذا برهنت السنوات اللاحقة أنّ حركة التجديد التى قادت إلى تكريس قصيدة النثر فى الشعر العربى منذ أواخر الخمسينيات لم تكن حركة سياسية قادها "شعراء أعضاء فى الحزب السورى القومى الإجتماعى" وشجّعتها "أوساط الاستشراق الغربية"، بل هى حركة تجديد عميقة فى المحتوى والأسلوب والشكل، بدليل أنها الإتجاه الأعمّ فى الشعر العربى المعاصر، ويمارس كتابتها شعراء قوميون وماركسيون وإسلاميون!

وصدور "نساء شكسبير" مناسبة لتحيّة ناقد رائد يظلّ قدوة صالحة فى ميدان ممارسة النقد التطبيقى، وفى الحرص على متابعة الظواهر الخلافية، وإثارة النقاش حولها، والتنبّه إلى الأصوات الجديدة والشابة، والمجازفة بتقديمها ووضعها ضمن سياقات المشهد الأدبى الأعرض. هى كذلك مناسبة نتذكّر فيها أنّ النقد العربى المعاصر استقال، إجمالاً، من هذه الخصال ـ الواجبات!





صلاح عبدالصبور

الضمير

- رجاء النقاش ، ابن جيلنا، ربما كان رجاء أصغر أبناء جيلنا من الكُتَّاب سناً، إذ أنه ولد سنة ١٩٣٤، ولكنه عاش هذه السنين كلها، بعمق وشغف ومرارة.

- إذا كان بعض الناس يعبرون الحياة ، وبعض الناس يعيشونها، فإن رجاء يعانيها. رجاء صديقي كما عرفته، إنسان عارى الأعصاب، وتلك محنة ... وكثيراً ما يتساءل رجاء .. العيب فينا أم فى الناس أم فى الزمن؟

- يحمل رجاء فى قلبه الفجيعة دائماً، ولكنه لا يبكى ولا يعلن بُطلان الكل، ولا يخاف. إن الفجيعة فى قلبه تصبح حياة ومحبة وشهوة لإصلاح العالم .

- عاش رجاء كما عشنا جميعاً، موزعاً بين القرية والمدينة، وبين الثقافة والواقع، وبين الحلم والتجربة، وبين الرغبة والفعل ... ولكنه - لأنه إنسان شريف - مهما كان لكلمة الشرف من معنى، لن يسقط فى هوة اللامبالاة، ولن يتعالى إلى أبراج الترفع، لأن إنسانيته وشرفه يعصمانه.

- ومجموعة مقالاته، كل منها تحمل فكرة فى الأدب وفكرة فى المجتمع، وفكرة فى الخلق، ويجمع هذه الأفكار كلها أن السلطان الوحيد عليها هو .. الضمير.

- ونحن فى وطننا العربى، نحتاج الكاتب ذا الضمير، لأن الضمير مثل البداهة السليمة لا يخطىء أبداً، ويعرف طريقه دائماً إلى الصواب .

□ التقديم الذى كتبه شاعرنا الراحل الكبير صلاح عبدالصبور لكتاب رجاء النقاش «فى أزمة الثقافة المصرية.

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ ش كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٥٩٦٦٥٠١ - ٦٨٢٧٠٠٢ / ٢٠٢ ج.م.ع ٤ش بدوى محرم بك - الإسكندرية .